

للإمام العالم العلامة أبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي

المتوفى ٤٢٧ هـ

تحقيق

الشيخ سيد كسروي حسن

الجزء الأول

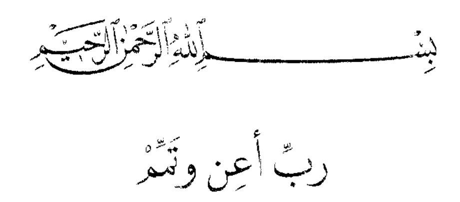
المحتوى:

من أول سورة الفاتحة - إلى آخر سورة البقرة

مقدمة المصنف

كتاب الكشف والبيان للإمام الهمّام أستاذ الأساتذة أبي إسحاق أحمد المعروف بالإمام الثعلبى. وهذه النسخة الشريفة فى غاية الصحة، والإمام المذكور علم فى اللغات والأدبيّات والسمعيّات والتصوّف حتى إنّه (قدس سره) كان معاصراً للسلمى صاحب الطبقات وأخذ عنه التصوّف والحديث؛ لأنّه (قدس سره) كان من كبار المحدّثين، كما أنّه من كبار الصوفيّة.

وأنا الفقير إلى الله الغنى عبد الله بن عثمان بن موسى المعروف بمسنجر زاده ناله الحسنى وزاده بمنّه وكرمه.



رب أعِن وتمّم

قال الأستاذ الإمام أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبى (رضى الله عنه): بحمد الله يفتتح الكلام، وبتوفيقه يُستنجز المطلب والمرام، ونسأله أن يصلّى على محمد خير الأنام، وعلى آله الكرام وأصحابه نجم الظلام (بحقّ) الملك السلام.

أما بعد:

فإنّ الله عزّ وجلّ أكرمنا بكريم كتابه وأنعم علينا بعظيم (مطلبه) فى القرآن، وجعله مهيمنًا على الكتب والأديان، أمر فيه بالحكمة وزجر وأعذر الحجّة وأنذر. ثم لم يرضَ منا (نسخه) ولا إقامة كلماته دون العمل بمحكماته ولا تلاوته وقراءته دون تدبّر آياته والتفكر فى بيناته، وتعلّم حقائقه ومعانيه، وتفهّم دقائقه ومبانيه فقيّض له رجالا موفقين حتّى صنّفوا فيه المصنّفات، وجمعوا علومه المتفرّعات.

وإنى مذ فارقت المهد إلى أن بلغت الأشدّ اختلفت إلى ثقات الناس، واجتهدت فى الاقتباس من هذا العلم الذى من الدين أساس والعلوم الشرعية الراس... [1] الظلام بالضياء

(١) بياض بالأصل المخطوط.

والصباح . . .(١) العزم . . .(١) حتّى رزقنى الله تعالى ـ وله الحمد ـ من ذلك ما عرفت به الحقّ من الباطل ، والمفضول من الفاضل ، والصحيح من السقيم ، والحديث من القديم ، والبدعة من السنة ، والحجّة من الشبهة . فألفيت المصنّفين فى هذا الباب فرقًا على طرق : فرقة منهم أهل البدع والأهواء وفرقة المسالك والآراء مثل البلخى والجبائى والأصفهانى والرمانى ، وقد أُمرنا بمجانبتهم وترك مخالطتهم ، ونهينا عن الاقتداء بأقوالهم وأفعالهم فاختاروا ممّن تأخذون دينكم ، وفرقة ألّفوا وقد أحسنوا غير أنّهم خلطوا أباطيل المبتدعين بأقاويل السلف الصالحين كما جمع بين . . .(١) لاسفدوانية مثل أبى بكر القفال وأبى حامد المقرى . وهما من الفقهاء الكبار ، والعلماء الخيار ، ولكن لم يكن التفسير حرفتهم ، ولا علم التأويل صنعتهم ؛ ولكل عمل رجال ، ولكل مقام مقال .

وفرقة اقتصروا على الرواة والنقل دون الدراية والنقد مثل الشيخين أبى يعقوب إسحاق بن إبراهيم الحنظلى ، وأبى إسحاق إبراهيم بن إسحاق الأنماطى . وبياع الدواء محتاج إلى الأطبّاء .

وفرقة حرّموا الإسناد الذى هو الركن والعماد ، وتملّكوا الصحف والدفاتر وجهدوا على ما هو بين الخواطر ، وذكروا الغثّ والسمين ، والركيك والمتين ، وليسوا فى عداد العلماء فصنت الكتاب عن فكرهم ، والقراءة والعلم سنة يأخذها الأصاغر عن الأكابر ، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء .

وفرقة حازوا قصب السبق فى عمدة التصنيف والحذق ، غير أنّهم طوّلوا كتبهم بالمعادات ، وكثرة الطرق والروايات ، وحشوها بما منه بدّ ، فقطعوا عنها طمع المسترشد مثل الإمام أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ، وشيخنا أبى محمد عبد الله بن حامد الأصفهانى . وازدحام العلوم مضلّة للفهوم .

وفرقة جرّدوا التفسير دون الأحكام ، وبيان الحلال من الحرام ، والحل عن الغوامض والمشكلات ، والرد على أهل الزيغ والشبهات كمشايخ السلف الصالحين ، والعلماء القدماء من التابعين وأتباعهم مثل مجاهد ومقاتل ، والكلبى والسدّى ، ولكل من أهل الحقّ فيه غرض محمود وسعى مشكور .

فلما لم أعثر فى هذا الشأن على كتاب جامع مهذّب يُعتمد فى علم القرآن عليه . . .(١) ، ورأيت رغبة الناس عن هذا العلم ظاهرة ، وهممهم عن البحث فيه قاصرة ، وطباعهم عن

(١) بياض بالأصل المخطوط .

النظر فى البسائط نافرة، وانضاف إلى ذلك سؤال قوم من المبرزين، والعلماء المحصّلين، والرؤساء المحشمين، أردت إسعافهم. . . بهم ورعاية معرفتهم فصرنا إلى الله عزّ وجلّ. . . لبعض موجبات شكره، فإن شكر العلم نشره، وزكاته إنفاقه (فـ) استخرت الله تعالى فى تصنيف كتاب شامل كامل، مهذب ملخّص، مفهوم منظوم، مستخرج من (نيف و) مائة كتاب مجرّبات مسموعات، سوى ما التقطته من التطبيقات، والأجزاء المتفرّقات وتلقّفته عن أقوام من المشايخ، وهم قريب من ثلاثمائة مستمع فسقته بأبلغ ما صرت عليه من. . .[1] والترتيب، وسعة الإثبات بغاية التنسيق والترتيب وسيبقى لكلّ مؤلّف كتابًا فى فن قد سيق إليه أن لا يعدم كتابة بعض الخلال التى أنا ذاكرها؛ إمّا استنباط شىء إن كان مقفلاً أو جمعه إن كان متفرّقًا، أو شرحه إن كان غامضًا، أو حسن نظم تأليفه، أو إسقاط شىء وتطويل.

وأرجو أن لا يخلو هذا الكتاب عن هذه الخصال التى ذكرتها والله الموفّق لما نويت وقصدت.

وخرّجت الكلام فيه على أربعة وعشرين نحواً: البسائط، والمقدّمات، والعدد، والترتيلات، والقصص، والروايات، والوجوه والقراءات، والعلل، والاحتجاجات، والعربية، واللغات، والإعراب، والموازنات، والتفسير، والتأويلات والمعانى، والجهات، والغوامض، والمشكلات، والأحكام، والفقهيات، والإشارات، والفضائل، والكرامات، والأخبار والمتعلقات أدرجتها فى أثناء الكتاب، بحذف الأبواب، وسمّيته «كتاب الكشف والبيان عن تفسير القرآن»، والله المستعان، وعليه التكلان.

وهذه أسماء الكتب التى عليها مبانى كتابنا هذا أذكرها لئلاّ نحتاج إلى تكرار الأسانيد وبالله التوفيق.

❖ تفسير ابن عباس:

التفسيران المنصوصان عن ابن عباس (رضى الله عنه) وهو الجفر والنقاب، والإمام والقدوة فى علم الكتاب، وهو ترجمان القرآن، وحبر هذه الأمّة وربانيهم (وقد) دعا (له) رسول الله ﷺ، فقال: «اللهم علّمه التأويل، وفقّهه فى الدين».

فأجاب الله تعالى فيه دعاءه حتى صار علمًا فى العلم (رضى الله عنه).

. . .[1] أخبرنا أبو محمد عبد الله بن الطيّب، وأبو محمد عبد الله بن حامد، وأبو القاسم الحسن بن محمد قالوا: أخبرنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبدوس الطرائفى قال: حدّثنا

(١) بياض بالأصل المخطوط.

عثمان بن سعيد الدارمى قال: حدّثنا عبد الله بن صالح حدّثه عن على بن أبى طلحة الوالبى عن ابن عباس (رضى الله عنه). . .

أخبرنا الإمام أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب بقراءته علىّ قال: حدّثنا عبد الله بن محمد الثقفى قال: حدّثنا أبو جعفر المزنى قال: حدّثنا محمد بن سعد بن محمد بن الحسن بن عطيّة بن سعد العوفى، قال: حدّثنا عمى الحسين بن الحسن بن عطيّة العوفى الكوفى عن ابن عباس (رضى الله عنه).

وأخبرنا محمد بن نعيم إجازة قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن كامل ببغداد، قال: حدّثنا محمد بن سعد العوفى، قال: حدثنى عمّى، قال: حدثنى أبى عن الحسن بن عطيّة عن ابن عباس (رضى الله عنه).

أخبرنا ابن فنجويه بقراءتى عليه فى دارى سنة ثمان وأربعمائة قال: أخبرنا أبو القاسم سليمان بن محمد بن أحمد الطبرانى قال: حدّثنا أبو محمّد عبد الله بن محمد قال: حدّثنا عبد العزيز بن سعيد البرقى عن أبى محمد موسى بن عبد الرَّحْمن الصنعانى عن عبد الملك بن جريج بن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس (رضى الله عنه).

وعن موسى بن عبد الرَّحْمن عن مقاتل بن سليمان عن الضحّاك عن ابن عباس (رضى الله عنه).

❖ تفسير عكرمة:

حدّثنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحسين النيسابورى لفظًا قال: حدّثنا أحمد بن محمد ابن إبراهيم الصريمى المروزى قال: حدّثنا أبو العباس أحمد بن جعفر الصيرفى قال: حدّثنا أبو داود سليمان بن معبد المنجى قال: حدثنى على بن الحسين بن واقد عن يزيد النحوى عن عكرمة عن ابن عباس (رضى الله عنه).

طريق محمد بن الفضل: حدّثنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن جعفر، قال: أخبرنا أبو العباس محمد بن إسحاق بن أيّوب، قال: حدّثنا الحسن بن على بن زياد قال: حدّثنا عبيد بن يعيش عن محمد بن الفضيل عن محمد بن السائب الكلبى عن أبى صالح المؤذّن مولى أمّ هانئ عن ابن عباس (رضى الله عنه).

وحدّثنا أبو القاسم الحسين قال: حدّثنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن يعقوب البوشنجى قال: أخبرنا أبو جعفر محمد بن معاذ المروزى، قال: حدّثنا علىّ بن الحسن بن عيسى عن محمد بن فضيل عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس (رضى الله عنه).

طريق يوسف بن بلال: أخبرنا أبو محمد الحسن بن محمد بن أحمد الشعبى المقرى بقراءتى عليه قال: أخبرنا أبو الحسن بن محمد الورّاق سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة قال: أخبرنا أبو نصر أحمد بن محمد اللبّاد.

إسناد آخر: وأخبرنا أبو محمد عبد الله بن حامد بن محمد قال: أخبرنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن الحسين المعلّم قال: حدّثنا أحمد بن محمد القصّار.

وحدّثنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن جعفر قال: أخبرنا أبو على الحسين بن محمد بن هارون قال: أخبرنا أحمد بن محمد بن اللبّاد قال: حدّثنا يوسف بن بلال السعدى قال: حدّثنا محمد بن مروان بن السدّى عن محمد بن السائب الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس (رضى الله عنه).

طريق الحسن: حدّثنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن جعفر المفسّر لفظًا: حدّثنا أبو سعيد نافع ابن محمد بن نافع بمرو الروذ، حدّثنا محمد بن عمران، حدّثنا محمّد بن المغيرة عن عمّار ابن عبد الجبار عن حيّان بن علىّ العبدى عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس (رضى الله عنه).

❖ تفسير الكلبى:

أخبرنا الشيخ أبو محمد عبد الله بن حامد بن محمد الأصفهانى بقراءتى عليه قال: أخبرنا أحمد بن محمد بن شاذان البلخى، حدّثنا حيويه بن محمد حدّثنا صالح بن محمد النهدى من أوّل القرآن إلى سورة المجادلة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ (المجادلة: ٨)، ومنها إلى آخر القرآن.

أخبرنا عبد الله بن حامد قال: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن على البلخى قال: حدّثنا القاسم ابن عبّاد قال: حدّثنا صالح بن محمد بإسناده سواء عن محمد بن هارون عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس (رضى الله عنه).

حدّثنا وأخبرنا على بن محمد بن سعيد الخطيب كتابة قال: حدّثنا الإمام أبو بكر محمد بن الحسين السرخسى سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة، حدّثنا أبو بكر محمد بن على المفسر المروزى، حدّثنا صالح بن محمد النهدى، وقد زاد فيه صالح أربعة آلاف حديث.

❖ تفسير مجاهد:

طريق ابن أبى نجيح: أخبرنا أبو محمد عبد الله بن حامد الأصفهانى: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن طه، حدّثنا عبد الله بن زكريا، حدّثنا سعيد بن يحيى بن سعد

الأموى، حدّثنا مسلم بن خالد الزنجى عن أبى نجيح عن مجاهد.

قال: وحدّثنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن جعفر لفظًا: حدّثنا أبو زكريا يحيى بن محمد ابن عبد الله العنبرى: حدّثنا محمد بن عبد السلام الورّاق: أخبرنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلى عن ورقاء بن أبى نجيح عن مجاهد.

طريق ابن جريج: أخبرنا القاسم بن أبى بكر المكتب، أخبرنا أبو الحسن على بن محمد بن محمّد البغدادى، حدّثنا المأمون بن أحمد، حدّثنا عبد الله بن الرماح عن الحجّاج بن محمد الجزرى عن ابن جريج عن مجاهد.

طريق ليث: حدّثنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن جعفر، حدّثنا أبو جعفر محمد بن سليمان ابن منصور.

نا جعفر بن أحمد بن نصر الحافظ، نا محمد بن حميد، نا جرير عن ليث عن مجاهد المكّى... [1].

طريق جويبر - وهو الكتاب الكبير المبسوط -: أخبرنا الإمام أبو القاسم الحسن بن محمد ابن جعفر قراءة، أنا أبو بكر جعفر بن محمد الزعفرانى، نا إبراهيم بن عبد المؤمن عن محمد بن أبان بن على بن أبان عن عبد الرحْمن بن جابر ويحيى بن آدم الأحول عن نصر بن مساور بن أخى مصلح عن جويبر عن الضحاك بن مزاحم الهلالى.

طريق ابن الحكم: أخبرنا الشيخ أبو محمد عبد الله بن حامد بن محمد الأصفهانى قال: وأخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله الجوزقى قال: نا عبد الله بن محمد بن الحسين الشريفى، نا أبو الأزهرى، نا وهب بن جرير حدّثنى شعبة قال: قرأ علىّ على بن الحكم عن الضحاك.

طريق عبيد: حدّثنا أبو القاسم الحسن بن محمد السدوسى لفظًا، نا أبو عمر أحمد بن محمّد، بسرخس، نا جعفر بن محمد بن سوار، نا أحمد بن جميل المروزى، نا أبو معاذ عن عبيد بن سليمان الباهلى عن الضحّاك.

طريق أبى روق: نا الحسن بن محمد بن جعفر، نا أبو موسى عمران بن موسى بن الحسين، أنا أبو عوانة يعقوب بن إسحاق المهرجانى، نا يوسف... [1]، أنا عمرو بن طلحة القناد عن أبيه عن أبى روق عن الضحّاك.

طريق عطاء بن أبى رباح قال: نا أبو القاسم الحسن بن محمد النيسابورى بقراءته عليه، أنا أبو عبد الله أحمد بن ياسين الجرّاح الطبرى، وأبو الفرج أحمد بن محمد بن سنان النهاوندى

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

قالا : أخبرنا بكر بن سهل بن إسماعيل الدمياطى ، نا عبد الغنى بن سعيد الثقفى عن أبى محمد موسى ابن عبد الرَّحْمن الصنعانى عن ابن جريج عن عطاء عن السدى .

❖ تفسير عطاء الخراسانى:

نا الحسين بن محمد بن الحسن ، نا أبو الحسن محمد بن الحسين بن نجد البغوى ، نا أبو نعيم عبد الملك بن محمّد بن عدىّ ببخارى ، نا العباس بن الوليد بن مزيد البيرونى ، نا محمد بن شعيب بن سابور ، أخبرنى عطاء بن أبى مسلم الخراسانى .

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الضبّى فيما أجاز لى روايته عنه ، أخبرنا أبو جعفر محمد بن عبد الله البغدادى ، أخبرنا يحيى بن عثمان بن صالح عن يحيى بن بكر عن عبد الله ابن لهيعة عن عطاء بن دينار .

❖ تفسير الحسن بن أبى الحسن:

نا أبو القاسم الحسن بن محمد بن عبد الله المكتّب ، نا أبى ، نا أبو الحسن بن أحمد بن الصلت المعروف بابن شنبود المقرى ، نا سعيد بن محمد ، نا السهل بن واصل عن أبى صالح عن محمد بن عبيد عن الحسن بن أبى الحسن البصرى .

طريق خارجة : أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحسن ، نا أبى ، حدّثنا إبراهيم بن علىّ الذهلى ، نا أبو خالد عن أبى صالح اليشكرى عن أبى الحجّاج خارجة بن مصعب السرخسى عن سعيد بن عروبة عن قتادة بن دعامة السدوسى ، وأخبرنا أبو الحسن على بن أبى عبيد السرخسى الخطيب فيما كتب إلىّ بخط يده : عبد الله بن محمد بن همام ، نا أبو جعفر أحمد بن محمد بن هاشم المروزى ، نا المغيث بن بديل ابن أخت خارجة وختنه على ابنته ، نا خارجة بن مصعب ، أنا سعيد بن عروبة عن قتادة ، وزاد فيه خارجة : جهته مقدار ألف حديث .

طريق شيبان : أخبرنا أبو محمد بن عبد الله بن حامد بن محمّد الأصفهانى بقراءتى عليه : أخبرنا أبو على حامد بن محمد الهروى : حدّثنا أبو يعقوب إسحاق بن محمد بن ميمون الحربى ، أخبرنا أبو محمد الحسن بن محمد المروذى ، نا شيبان بن عبد الرَّحْمن النحوى عن قتادة .

طريق معمر : نا أبو القاسم الحبيبى ، أخبرنا أبو زكريا العنبرى ، نا جعفر بن محمد بن سواد ابن محمّد بن نافع عن عبد الرزاق عن معمر عن قتادة .

❖ **تفسير أبى العالية والربيع:**

نا أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحسن المفسّر، نا أبو عمرو أحمد بن محمد بن أبى منصور (السرخسى) بسرخس، نا أبو الحسن أحمد بن إسحاق بن إبراهيم بن مزين، نا أبو على الحسن بن محمد بن موسى الأزدى عن عمار بن الحسن بن بشير الهمذانى عن عبد الله بن أبى جعفر عن أبيه عن الربيع عن أنس عن أبى العالية الرياحى، أخبرنا عبد الله بن حامد الوزّان، أخبرنا محمد بن جعفر السختيانى، نا أبو العبّاس أحمد بن جعفر بن نصر الرازى، نا أحمد بن عبد الرَّحْمن، نا عبد الله بن أبى جعفر الرازى عن أبيه.

❖ **تفسير القرظى:**

نا الحسن بن محمد بن حبيب، نا أبو العباس محمد بن الحسن الهروى، نا رجاء بن عبد الله أخبرنا مالك بن سليمان الهروى عن أبى معشر عن محمد بن كعب القرظى.

❖ **تفسير مقاتل بن حيان:**

أخبرنا عبد الله بن حامد الوزان بقراءتى عليه، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ قالا: نا أحمد بن محمد بن عبدوس، نا إسماعيل بن قتيبة، وأبو خالد يزيد بن صالح الفراء نا بكر ابن معروف البلخى الأزدى: نا أبو معاذ عن مقاتل بن حيّان.

وحدّثنا أبو الحسن محمد بن جعفر لفظًا، نا علىّ بن محمد بن أحمد بن دلويه، نا أحمد ابن محمد بن يحيى الدهّان، نا محمد بن يزيد السلمى، نا حمّاد بن قيراط، وإبراهيم بن سليمان، وعمرو بن عبد الله بن رضين عن بكير بن معروف عن مقاتل بن حيّان.

❖ **تفسير مقاتل بن سليمان:**

أخبرنا الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن محمد المهرجانى، أخبرنا أبو محمّد عبد الخالق بن محمد بن الحسين الثقفى المعروف بابن أبى روبه من كتابه، نا عبد الله بن ثابت ابن يعقوب المقرئ أبو محمد، نا أبى، نا الهذيل بن حبيب أبو صالح بن بديل عن مقاتل بن سليمان عن ثلاثين رجلاً منهم اثنان من التابعين.

طريق التغلبى: أخبرنا أبو القاسم الجيلى، أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن المأمون، نا أبو ياسين عمّار بن عبد المجيد . . .[1]: نا إسحاق بن إبراهيم التغلبى عن مقاتل بن سليمان.

طريق أبى عصمة: نا أبو القاسم الحبيبى، نا عبد الله بن أحمد بن الصدّيق، أخبرنا ابن أبى روبه، نا أحمد بن جميل عن علىّ بن الحسين بن واقد عن أبى عصمة عن مقاتل بن سليمان.

(١) بياض بالأصل المخطوط.

طريق السدّى : أخبرنا الحسن بن محمد بن الحسن المفسّر حدّثنا أبو محمّد عبد الله بن المبارك الشجرى ، أنا أحمد بن محمد بن نصر اللّباد ، نا عمرو بن طلحة القنّاد عن أسباط عن السدى عن مقاتل .

أخبرنا الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ فيما أجاز لى لفظًا وخطًا : أخبرنا أبو حامد أحمد بن محمد بن العبّاس الخطيب حدّثنا ابن هلال ، نا على بن الحسن بن شفيق عن الحسين بن واقد .

❖ **تفسير ابن جريج:**

أخبرنا محمد بن عبد الله الحافظ إجازة ، أخبرنا محمد بن خلف الصنعانى ، نا على بن محمّد المبارك الصنعانى ، نا زيد بن المبارك الصنعانى عن محمد بن ثور الصنعانى عن ابن جريج .

❖ **تفسير سفيان:**

أخبرنا محمد بن حمرويه فيما أذن لى عنه ، نا أبو بكر الشافعى ، نا إسحاق بن الحسن الحربى عن أبى حذيفة عن سفيان الثورى .

أخبرنا عبد الله بن حامد الوزّان قراءة عليه ، أخبرنا محمد بن على الطوسى أبو الحسن ، نا أبو جعفر محمد بن إبراهيم الديلى ، نا أبو عبد الله سعد بن عبد الرَّحْمن المخزومى ، نا سفيان ابن عيينة .

❖ **تفسير وكيع:**

أخبرنا عبد الله بن حامد بن محمد بقراءتى عليه ، أخبرنا يحيى بن محمد بن عبد الله بن العنبرى نا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن يزيد بن خالد المروزى ، نا أبو يعقوب يوسف بن عيسى المروزى مولى بنى زهرة ، نا وكيع بن الجرّاح .

❖ **تفسير هشام بن بشير:**

أخبرنا محمد بن نعيم إجازة ، أخبرنا محمد بن بطّة ، نا عبد الله بن أحمد بن أسيد الأصفهانى ، نا زناد بن أيّوب عن هشام بن بشير .

❖ **تفسير شبل:**

أخبرنا محمد بن نعيم إجازة ، أخبرنا أبو سعد . . . [1] بن مصعب الثقفى ، نا الحسن بن المثنى ، حدّثنا أبو حذيفة عن شبل بن عباد المكى .

(١) بياض بالأصل المخطوط .

❖ **تفسير ورقاء:**

أخبرنا القاضى أبو عبد الله محمد بن عبد الله الضبّى، أخبرنا . . .[١] أبو القاسم بن أحمد بهمدان، أخبرنا إبراهيم بن الهيثم البلوى، نا آدم بن أبى إياس عن ورقاء بن عمر.

❖ **تفسير زيد بن أسلم:**

أخبرنا الحسن بن محمد بن الحسن قراءة أخبرنا أبو بكر أحمد بن كامل بن خلف بن سخبرة أنّ محمد بن جرير الطبرىّ حدّثهم: نا يونس بن عبد الأعلى الصدفى، أخبرنا عبد الله بن وهب، أخبرنا عبد الرَّحْمن بن زيد بن أسلم عن أبيه.

❖ **تفسير روح بن عبادة:**

أخبرنا أبو صالح شعيب بن محمد بن شعيب البيهقى، وأبو محمد عبد الله بن حامد بن محمد الأصفهانى بقراءتى عليه، حدّثنا أبو حاتم مكىّ بن عبدان بن محمد التميمى، نا أبو الأزهرى الأزهر بن منيع العبدى، نا روح بن عبادة العنسى.

وأخبرنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن على بن زياد السمرى، أخبرنا أحمد بن محمد ابن الحسن الشرقى، نا أبو الأزهر روح بن عبادة.

❖ **تفسير الفراتى:**

أخبرنا أبو الحسن عبد الرَّحْمن بن إبراهيم بن محمد بن يحيى بن سختويه النيسابورى وعبد الله بن حامد بن محمد بقراءتى عليهما قالا: أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسين بن الحسن ابن الخليل القطّان، نا أحمد بن يوسف السلمى حمدان، نا محمد بن يوسف الفراتى.

❖ **تفسير قبيصة:**

أخبرنا أبو عمرو سعيد بن عبد الله بن سعد بن إسماعيل الحيرى، وأبو محمد عبد الله بن حامد الأصفهانى قراءة عليهما قالا: أخبرنا أبو عثمان عمرو بن عبد الله البصرى: نا أبو أحمد محمد بن عبد الوهّاب العبدى، نا أبو عامر قبيصة بن عقبة الكوفى.

❖ **تفسير سعيد بن منصور:**

أخبرنا عبد الله بن حامد، أخبرنا أحمد بن عبد الله المزنى، نا أحمد بن نجدة بن العريان، حدّثنا سعيد بن منصور.

❖ **تفسير النهدى:**

أخبرنا أبو محمّد عبد الله بن حامد الوزّان بقراءتى عليه فى داره، أخبرنا محمد بن جعفر

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

ابن مضر: أخبرنا جعفر بن محمد بن الليث أبو عبد الله الزيادى الجوهرى بالبصرة، نا أبو حذيفة موسى بن مسعود النهدى.

❖ **تفسير ابن وهب:**

أخبرنا محمد بن نعيم إجازة، أخبرنا محمد بن عبيد، نا عبد الله بن مسلم، أخبرنا يونس ابن عبد الأعلى عن عبد الله بن وهب القرشى.

❖ **تفسير عبد الحميد:**

أخبرنا عبد الله بن حامد، أخبرنا محمد بن خالد بن الحسن، حدّثنا داود بن سليمان، نا عبد الحميد بن حميد إلى سورة (المطفّفين)، ومنها إلى آخر القرآن، قال: أخبرنا عبد الله بن حامد، أخبرنا أبو أحمد بن عبد الله بن يوسف، حدّثنا عمر بن محمد بن نجير، نا عبد الحميد ابن حميد الكشى.

❖ **تفسير محمد بن أيوب:**

أخبرنا أبو عبد الله الحافظ إجازة، أخبرنا أبو عبد الله الخازن، نا محمد بن أيّوب الرازى.

❖ **تفسير ابن كيسان:**

نا أبو القاسم الحسن بن محمد بن جعفر النيسابورى لفظًا، أخبرنا أبو سهل محمد بن محمد بن الأشعث الطالقانى الأنمارى، حدّثنا عبيد الله بن محمد القاضى، حدّثنا الفضل بن عباس بن مهران عن على بن مسلم الطوسى قال: قرأت على أصحاب عبد الرَّحْمن بن كيسان أبى بكر الأهتم، ثم عد تفسيره بالتمام.

❖ **تفسير أبى حمزة الثمالى:**

نا أبو أحمد محمد بن أحمد بن شاذان الرازى بقراءتى عليه فى مرو سنتى ثمان وتسع وثمانين وثلاثمائة فأقرأنيه قال: أخبرنا أبو محمد عبد الرَّحْمن بن أبى حاتم الرازى، حدّثنا أبو سعيد عبد الله بن سعيد الكندى الأشج، أخبرنا أبو عبدالله الحسين بن محمد الثقفى بعض الكتاب بقراءتى عليه، فأجاز لى بالباقى لفظًا وخطًّا، حدّثنا محمد بن خلف بن حيّان ببغداد، حدّثنا إسحاق بن محمد، حدثنى أبى، حدّثنا إبراهيم بن عيسى، حدّثنا على بن خلىّ عن أبى حمزة الثمالى.

❖ **تفسير المسيب:**

قرأت على الحسين بن محمد بن الحسن بن عبد الله الدينورى بعض الكتاب وأجاز لى بالباقى لفظًا وخطًّا، حدّثنا محمد بن على بن حريز، حدّثنا الحسين بن علوية القطّان، حدّثنا

إسماعيل بن عيسى حدّثنا المسيب بن شريك.

مصنفات (علماء) العصر:

❖ تفسير عبد الله بن حامد:

قرأته عليه، تفسير أبى بكر بن فورك: أملاه علينا إلى رأس خمسين آية من سورة البقرة فى ثلاثة وأربعين جزءًا ما حزم دونه (رحمه الله).

❖ تفسير أبى عمرو الفراتى الملقّب بالبستانى:

أجاز لى بجميعه لفظًا وخطًّا.

❖ تفسير أبى بكر ابن فورك:

أملى علينا صدراً. . . .[1] من أوله إلى آخره ثم استأنف ولحق واقتصر على الأسئلة والأجوبة حتى فرغ منه.

❖ تفسير أبى القاسم بن حبيب:

سمعته غير مرّة.

❖ تفسير جبريل:

قرأته كلّه على مصنفه.

تفسير النبى ﷺ:

سمعت بعضه من مصنّفه وأجاز لى بالباقى، . . . .[1] قرأته كلّه على مصنّفه، صنّفها جميعًا أبو الحسن محمد بن القاسم الفقيه (الصيدلانى).

❖ كتاب ابن المبارك:

أخبرنا أبو حنيفة القزوينى: أخبرنا أبو بكر محمد بن يعقوب الإستوانى، عن أبى محمد عبد الله بن المبارك الدينورى.

❖ حقائق التفسير على لسان أهل الإمارة:

قرأته كلّه على مصنفه أبى عبد الرَّحْمن محمد بن الحسن السلمى فأقرّ لى به.

❖ كتاب عروة:

أخبرنا أبو الحسن علىّ بن محمد بن على، أخبرنا أبو يحيى عمّار بن محمد بن مسعود، أخبرنا أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن الخليل، أخبرنا محمد بن هانئ، حدّثنا الحسين بن معين، حدّثنا الهذيل عن مقاتل بن سليمان بكتاب الوجوه، وأخبرنا الشيخ أبو محمد عبد الله

(١) بياض بالأصل المخطوط.

ابن حامد الأصفهانى بقراءتى عليه فى مجلس واحد، أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله الحنبلى البغدادى، حدّثنا أبو يعلى محمد بن أحمد بن عبد الله بن مروان الأقطع بملطية: حدّثنا أبو عبد الرَّحْمن. . . .[1] بن حسان الملطى: حدثنى أبو صالح إسحاق بن نجيح عن جدّ السلم ابن سامة الجشطينى عن عكرمة عن عبد الله بن عباس (رضى الله عنه).

❖ كتاب مالك بن....[1]:

أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب، حدّثنا عبد الله بن أحمد بن الصديّق، أخبرنا عبد الله بن محمد السعدى، أخبرنا المطهر بن الحكم الكرابيسى، عن على بن الحسين بن واقد.

كتب المعانى:

❖ معانى الفرّاء:

أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن عبدوس المزنى، وأبو محمد عبد الله بن حامد الوزّان، وأبو القاسم الحسن بن محمد المفسّر، قالوا: أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب بن يوسف ابن معقل بن سنان الأُموى، حدّثنا أبو عبد الله محمد بن جهم بن هارون السمرى، حدّثنا أبو زكريا يحيى بن زياد الفرّاء.

❖ معانى الكسائى:

سمعت أبا القاسم الحسن بن محمد بن الحسن يقول: سمعت أبا بكر أحمد بن محمد بن عبيد الله الطاهرى يقول: سمعت على بن أحمد المدبّر يقول: سمعت أبا عبيد يحدث عن على ابن حمزة الكسائى.

❖ معانى عبيد:

أخبرنا عبد الله بن حامد بقراءتى عليه هو أبو القاسم الحبيبى علينا قالا: أخبرنا محمد بن محمد بن الحسن، أخبرنا أبو الحسن على بن عبد العزيز المكّى، أخبرنا أبو عبيد القاسم بن سلام.

❖ معانى الزجاج:

قرأت على أبى عثمان سعد بن محمد بن إبراهيم الحيرى - وأخبرنا بالجملة -: أخبرنا أبو على الفسوى وابن مقسم قالا: أخبرنا الزجاج.

وسمعت أبا القاسم الحسن بن محمد بن جعفر النيسابورى بها يقول: سمعت أبا الحسن

(١) بياض بالأصل المخطوط.

محمد بن محمد بن مسعود الفسوى بها يقول: سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن السدّى الزجّاج.

❖ **كتاب النظم:**

قرأ علينا أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب بلفظه قال: قرأت على أبى نصر محمد بن محمد بن يوسف بطوس عن الحسن بن يحيى بن نصر الجرجانى.

❖ **كتاب الغرائب:**

سمعت أبا القاسم الحسن بن أحمد السدوسى يقول: سمعت أبا محمد عبد الله بن محمد المادانى يقول: سمعت أحمد بن محمد بن المغيرة يقول: سمعت أحمد بن سهل بن يحيى النيسابورى يقول: سمعت سلمة بن رفيع، أخبرنا غسان البصرى عن أبى عبيدة معمر بن المثنّى التيمى.

❖ **غريب الأخفش:**

سمعت أبا القاسم الحسن بن محمد بن جعفر يقول: سمعت أبا سهل محمد بن محمد بن الأشعث الطالقانى يقول: سمعت على بن فارس الدينورى يقول: سمعت شمر بن حمدويه والحسن بن سفيان، حدّثنا أبو بكر بن أبى شيبة، حدّثنا الفضل بن دكين، حدّثنا بشير بن المهاجرة، حدّثنا عبد الله بن يزيد عن أبيه قال: كنت عند النبى ﷺ فسمعته يقول: «إنّ القرآن يأتى صاحبه يوم القيامة حين ينفلق عنه قبره كالرجل الشاحب فيقول له: هل تعرفنى؟ فيقول: ما أعرفك. فيقول: أنا صاحبك القرآن الذى أظمأتك فى الهواجر، وأسهرت ليلك، وإن كلّ تاجر من وراء تجارته؛ فإنك اليوم من وراء كل تجارة».

قال: «فيعطى الملك بيمينه والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويكسى والديه حلتين لا يقوم لهما الدنيا، فيقولان: بم كُسينا هذا؟ فيقال لهما: بأخذ ولدكما القرآن، ثم يقال له: اقرأ واصعد فى درج الجنة وغرفها. فهو فى صعود ما دام يقرأ هذاً كان أو ترتيلاً».

وقال معاذ بن جبل: كنت فى سفر مع النبىّ ﷺ، فقلت: يا رسول الله، حدّثنا بحديث ننتفع به، فقال: «إن أردت عيش السعداء، وميتة الشهداء، والنجاة يوم الحشر، والأمن يوم الخوف والنور يوم الظلمات والظل يوم الحرور، والرى يوم العطش والوزن يوم الخفّة والهدى يوم الضلالة، فادرس القرآن؛ فإنه ذكر الرّحْمن، وحرز من الشيطان، ورجحان فى الميزان».

❖ **باب علم القرآن والترتيب فيه:**

حدّثنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحسين النيسابورى لفظًا: حدّثنا أبو جعفر محمد بن إبراهيم بن عبدان بن حبلة، نا أبو فراس محمد بن جمعة، حدّثنا محمد بن زينون المكّى،

حدّثنا حمّاد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن أبى عبد الرَّحْمن السلمى، قال: حدثنى الذين كانوا يقرءوننا عن عثمان بن عفّان (رضى الله عنه)، وعبد الله بن مسعود، وأبى بن كعب أن النبىّ ﷺ كان يقرئهم عشر آيات فلا يأخذون فى العشر الأخرى حتى يعلموا ما فى هذه من العلم والعمل، قال: فتعلّموا القرآن والعلم جميعًا.

وحدّثنا الحسن بن محمد: أخبرنا أبو زكريا يحيى بن محمد بن عبد الله العنبرى، أخبرنا محمد بن عبد السلام الورّاق، حدّثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلى، حدّثنا جرير عن الأشعث عن جعفر عن سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس: «ما من أحد قرأ القرآن ولم يعلم تفسيره إلاّ بمنزلة الأعرابى يقرأ ولا يدرى ما هو».

وأخبرنا الحسن بن محمد، حدثنى أبى: حدّثنا إبراهيم بن على الذهلى، حدّثنا يزيد بن صالح، أخبرنا خارجة عن سعيد عن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن قال: «والله، ما أنزل الله آية إلاّ وهو يحب أن نعلم فيم أنزلت، وما معناها».

وقال الحسن: «علم القرآن لم يعلمه إلاّ الذكور من الرجال».

وسمعت الحسن بن محمد يقول: سمعت أبا جعفر محمد بن أحمد بن سعيد الرازى يقول: سمعت العباس بن حمزة يقول: سمعت ابن أبى الجوزى يقول: حدّثنا أبو نصر سعيد الرملى قال: أتينا الفضيل بن العياض بمكّة، فسألناه أن يملى علينا فقال: «ضيّعتم كتاب الله وطلبتم كلام فضيل وابن عيينة؟! ولو تفرّغتم لكتاب الله تعالى لوجدتم فيه شفاء لما تريدون». قلنا: قد تعلّمنا القرآن! قال: «إن فى تعلم القرآن شغلاً لأعماركم وأعمار أولادكم وأولاد أولادكم». قلنا: كيف؟ قال: «لن تعلموا القرآن حتى تعرفوا إعرابه، ومحكمه ومتشابهه، وحلاله وحرامه، وناسخه ومنسوخه. فإذا عرفتم ذلك استغنيتم عن كلام فضيل وابن عيينة، ثم قال: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ (يونس: ٥٧).

وروى مؤمل بن إسماعيل عن سفيان الثورى أنه قال: «أفنينا عمرنا فى الإيلاء والظهار ونبذنا كتاب الله وراء ظهورنا فماذا نقول لربّنا فى المعاد؟».

(لغة) التفسير: سمعت أبا القاسم الحسن بن محمد بن الحسن المفسّر يقول: سمعت أبا بكر محمد بن على بن إسماعيل القفال يقول: سمعت أبا بكر محمد بن الحسن البريدى يقول: (أصل التفسير فى اللغة من التفسرة وهى) من الماء الذى ينظر فيه الأطباء، فكما أن الطبيب بالنظر فيه يكشف عن علة المريض فكذلك المفسّر يكشف عن بيان موطنها وشأن الآية

وقصصها، ومعناها والسبب الذى نزلت فيه».

وسمعت الحسن بن محمد يقول: سمعت أبا سعد محمد بن سعيد الفارسى يقول: سمعت أبا بكر محمد بن محمد بن القاسم الأنبارى يقول: سمعت أحمد بن محمد (الخارزنجى) يقول: هو من قول العرب: فسرت الفرس إذا ركّضتها مصورة لينطلق حصيرها، وهو يؤول إلى أنّ ما قد سمعته يقول: سمعت أبا حامد بن محمد الخارزنجى يقول: من عادت من سفر مثل جذب وحيد وبيت الماء وبصق ووسع لفحل الناقة وبغاها. تقول العرب: فسّرت الناقة، إذا سيّرتها حتى زال شعرها، وطهر جلدها. وأنشدوا فيه لبعض الهذليين: . . . .[1]

فيكون معنى التفسير: كشف المنغلق من المراد بلفظه وإطلاق المحتبس عن فهمه. والتأويل: بكون الأول معنى مجمله موافق لما قبلها وما بعدها، وأصله من الأول، وهو من الرجوع، تقول العرب: أوّلته. قال: أى صرفته فانصرف.

وسمعت أبا القاسم بن أبى بكر السدوسى يقول: سمعت رافع بن عبد الله يقول: سمعت أبا حبيب زيد بن المهتدى يقول: سمعت الحسن بن محمد بن البصرى يقول: . . .[1] عن جدّه النضر أنه قال: «أصله من الإيالة، وهى السياسة، تقول العرب: قد أُلنا، وإيل علينا، أى سسنا، وساسنا غيرنا، فكأنّ المؤول للكلام القادر عليه، وواضعه موضعه. وإنما بنوهما على التفعيل؛ لأنه يدلّ على التكثير، وكأنه تتبع سورة بعد سورة وآية بعد آية، وأمّا الفرق بينهما:

قالت العلماء: التفسير: علم نزول الآية وشأنها وقصّتها، والأسباب التى نزلت فيها: فهذا وأضرابه (محظورة) على الناس القول إلاّ باستماع الأثر. فأما التأويل فالأمر فيه أسهل؛ لأنه صرف الآية إلى معنى يحتمله، وليس بمحظور على العلماء استنباطه والقول فيه وإنّما يكون مرآتنا الكتاب والسنّة.



(١) بياض بالأصل المخطوط.

تفسير فاتحة الكتاب

❖ **أسماؤها:**

أخبرنا عبد الرَّحْمن بن إبراهيم بن محمّد بن يحيى، أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسين القطّان، وأخبرنا محمد بن أحمد بن عبدوس، أخبرنا محمد بن المؤمّل بن الحسن بن عيسى، حدّثنا الفضل بن محمد بن المسيّب، حدّثنا خلف بن هشام، حدّثنا محمد بن حسان عن المعافى بن عمران عن عبد الحميد بن جعفر الأنصارى، عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله ربّ العالمين: سبع آيات أوّلهنّ (بسم الله الرَّحْمن الرحيم)، وهى السبع المثانى، وهى أمّ القرآن، وهى فاتحة الكتاب».

❖ **نزولها:**

واختلفوا فى نزولها؛ أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن جعفر قراءة، أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمود بن عبد الله المروزى قال: حدّثنا عبد الله بن محمود السعدى، حدّثنا أبو يحيى القصرىّ، حدّثنا مروان بن معاوية عن الولاء بن المسيّب عن الفضل بن عمرو عن على ابن أبى طالب (رضى الله عنه) قال: «نزلت فاتحة الكتاب بمكّة من كنز تحت العرش. وعلى هذا أكثر العلماء.

يدلّ عليه ما أخبرنا الحسن بن محمد بن جعفر، حدّثنا محمد بن محمود، حدّثنا أبو لبابة محمد بن مهدى، حدّثنا أبى عن صدقة بن عبد الرَّحْمن عن روح بن القاسم (العبرى) عن عمر بن شرحبيل قال: إن أوّل ما نزل من القرآن ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ۝﴾، وذلك أن رسول الله ﷺ أسرّ إلى خديجة (رضى الله عنها) وقال: «لقد خشيت أن يكون خالطنى شىء». فقالت: وما ذاك؟ قال: «إنى إذا خلوت سمعت النداء فأفرّ». قال: فانطلق به أبو بكر إلى ورقة بن نوفل، فقال له ورقة: إذا أتاك فاجثُ له. فأتاه جبريل فقال له: «قل: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ۝ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ۝﴾.

وحدّثنا الحسن بن جعفر، حدّثنا محمد بن محمود، حدّثنا عمرو بن صالح عن ابن عباس، حدّثنا أبى عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: قام النبى ﷺ بمكة فقال: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ۝ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ۝﴾ فقالت قريش: دق الله فاك.

وأخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحسن، أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن

يعقوب، حدّثنا أبو زيد، حدثنا أبو حاتم بن محبوب الشامى، أخبرنا عبد الجبار العلاء عن معن عن منصور عن مجاهد قال: «فاتحة الكتاب أنزلت فى المدينة».

وقال الحسن بن الفضل: لكل عالم هفوة، وهذه منكرة من مجاهد لأنه تفرّد بها، والعلماء على خلافه.

وصح الخبر عن النبى ﷺ فى حديث أبى بن كعب أنها من «أوّل ما نزل من القرآن» وأنها: «السبع المثانى»، وسورة الحجر مكيّة بلا اختلاف.

ومعلوم أن الله تعالى لم يمتنّ عليه بإتيانه السبع المثانى وهو بمكة، ثم أنزلها بالمدينة، ولا يسعنا القول بأن رسول الله ﷺ كان بمكة يصلى عشر (سنوات) بلا فاتحة الكتاب، هذا ممّا لا تقبله العقول.

قال الأستاذ: وقلت: قال بعض العلماء وقد لفق بين هذين القولين: أنها مكية ومدنية، نزل بها جبرئيل مرتين مرّة بمكة ومرّة بالمدينة حين حلّها رسول الله ﷺ تعظيمًا وتفضيلاً لهذه السورة على ما سواها ولذلك سميت مثانى، والله أعلم.

أخبرنا أبو عمرو أحمد بن أبى الفرات، أخبرنا أبو موسى عمران بن موسى، حدّثنا جعفر ابن محمد بن سوار، أخبرنا أحمد بن نصر، أخبرنا سعيد بن منصور، حدّثنا سلام عن زيد العمّى عن ابن سيرين عن أبى سعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال: «فاتحة الكتاب شفاء من السمّ».

وأخبرنا أبو الحسن محمد بن القاسم بن أحمد، حدّثنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن أيّوب، حدّثنا أبو عبد الله محمد بن صاحب، حدّثنا المأمون بن أحمد، حدّثنا أحمد بن عبد الله حدّثنا أبو معاوية الضرير عن أبى مالك الأشجعى عن ابن حمران عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن القوم ليبعث الله عليهم العذاب حتمًا مقضيًا فيقرأ صبىّ من صبيانهم فى الكتاب: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ۝﴾ فيسمعه الله عزّ وجلّ فيرفع عنهم ذلك العذاب أربعين سنة».

وحدّثنا أبو القاسم الحسن بن محمد قال: حدّثنا أبو جعفر محمد بن صالح بن هانئ، حدّثنا الحسين بن الفضل، حدّثنا عفان بن مسلم الصفّار عن الربيع بن صبيح عن الحسن قال: أنزل الله عزّ وجلّ مائة وأربعة كتب من السماء أودع علومها أربعة: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، ثم أودع علوم هذه الأربعة الفرقان، ثم أودع علوم القرآن المفصّل، ثم أودع علوم المفصّل فاتحة الكتاب. فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع كتب الله المنزلة، ومن قرأها فكأنما قرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان.

❖ فى فضل التسمية:

حدّثنا أبو عبد الله محمد بن على، حدّثنا أحمد بن سعيد، حدّثنا جعفر بن محمد بن صالح، وحدّثنا محمد بن القاسم الفارسى، حدّثنا أبو محمّد عبد الله بن أحمد الشيبانى، أخبرنا أحمد بن كامل بن خلف، حدّثنا على بن حماد بن السكن، أخبرنا أحمد بن عبد الله الهروى حسام بن سليمان المخزومى عن أبى مليكة عن ابن عباس (رضى الله عنه) قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «خير الناس وخير من يمشى على جديد الأرض المعلّمون؛ فكلما خلق الدين جدّدوه. أعطوهم ولا تستأجروهم، فتحرجوهم فإن المعلّم إذا قال للصبى: قل: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فقال الصبى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ كتب الله براءة للصبى، وبراءة لأبويه وبراءة للمعلّم من النار».

وأخبرنا أبو الحسن بن أبى الفضل المولى، أخبرنا أبو علىّ الإسفرائينى الحافظ، حدّثنا ابن الحسن البصرى، حدّثنا محمد بن مروان أبو جعفر، حدّثنا أبى، حدّثنا عمر بن ذر، عن عطاء عن جابر قال: (لما نزلت ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ هرب الغيم إلى المشرق، وسكنت الرياح، وهاج البحر، وأصغت البهائم بآذانها، ورجمت الشياطين من السماء، وحلف الله بعزته أن لا يسمّى اسمه على شيء إلاّ شفاه ولا يسمّى اسمه على شيء إلاّ بارك عليه، ومن قرأ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ دخل الجنة).

وأخبرنا الحسن بن محمد بن الحسن، حدّثنا محمد بن محمد بن الحسن، أخبرنا الحسن بن على بن نصر، حدّثنا عبد الله بن هاشم، أخبرنا وكيع بن الجراح، عن الأعمش، عن أبى وائل، عن عبد الله بن مسعود قال: (من أراد أن يُنجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فإنّها تسعة عشر حرفًا ليجعل الله له بكل حرف منها جنة من كلّ واحد).

التفسير وبالله التوفيق

قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

اعلم أنّ هذه الباء زائدة، وهى تسمّى باء التضمين أو باء الإلصاق، كقولك: كتبت بالقلم، فالكتابة لاصقة بالقلم. وهى مكسورة أبدًا؛ والعلة فى ذلك أن الباء حرف ناقص ممال. والإمالة من دلائل الكسر، قال سيبويه: لما لم يكن للباء عمل إلاّ الكسر كسرت.

وقال المبرّد: العلّة فى كسرها ردّها إلى الأصل، ألا ترى أنك إذا أخبرت عن نفسك فإنك

قلت: بَيْبَيْت، فرددتها إلى الياء والياء أخت الكسرة كما أن الواو أُخت الضمة والألف أُخت الفتحة، وهي خافضة لما بعدها فلذلك كسرت ميم الاسم.

وطوّلت هاهنا وشبهت بالألف واللام؛ لأنهم لم يريدوا أن يفتتحوا كتاب الله إلاّ بحرف مفخّم معظّم. قاله القيسي.

قال: وكان عمر بن عبد العزيز (رحمه الله) يقول لكتّابه: (طولوا الباء، وأظهروا السين، وفرّجوا بينهما، ودوّروا الميم تعظيمًا لكلام الله تعالى).

وقال أبو.... [1] خالد بن يزيد المرادي: العلّة فيها إسقاط الألف من الاسم، فلما أسقطوا الألف ردّوا طول الألف إلى الباء ليكون دالاًّ على سقوط الألف منها. ألا ترى أنهم لمّا كتبوا: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ (العلق: ١) بالألف ردّوا الباء إلى صيغتها، فإنما حذفوا الألف من (اسم) هنا فلكثرة دورها على الألسن عملاً بالخفّة، ولمّا لم يكثر أضرابها كثرتها أثبتوا الألف بها.

وفي الكلام إضمار واختصار تقديره: قل، أو ابدأ بسم الله.

وقال آدم: الاسم فيه صلة، مجازهُ: بالله الرَّحْمن الرحيم هو، واحتجوا بقول لبيد:

تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما ... وهل أنا إلاّ من ربيعةَ أو مضرْ

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ... ومن يبكِ حولاً كاملاً فقد اعتذرْ

أي ثم السلام عليكما.

ومعناه: بالله تكوّنت الموجودات، وبه قامت المخلوقات، وأدخلوا الاسم فيه ليكون فرقًا بين المتيمِّن والمتيمَّن به. فأمّا معنى الاسم، فهو المسمى وحقيقة الموجود، وذات الشيء وعينه ونفسه واسمه، وكلها تفيد معنًى واحدًا. والدليل على أن الاسم عين المسمّى قوله تعالى: ﴿يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ (مريم: ٧)، فأخبر أنّ اسمه يحيى، ثمّ نادى الاسم وخاطبه فقال: ﴿يَـٰيَحْيَىٰ﴾ (مريم: ١٢). فيحيى هو الاسم، والاسم هو يحيى.

وقوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ (يوسف: ٤٠). وأراد الأشخاص المعبودة؛ لأنهم كانوا يعبدون المسمّيات.

وقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ (الأعلى: ١)، و﴿تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ (الرَّحْمن: ٧٨).

وقوله ﷺ: «لَتَضْرِبَنَّ مُضَرُ عبادَ الله حتّى لا يُعبَد له اسمٌ» أي حتى لا يعبد هو.

ثم يقال: رأينا للتسمية اسم، واستعمالها في التسمية أشهر وأكثر من استعمالها في المسمّى، ولعل الاسم أشهر، وجمعه: أسماء، مثل قنو وأقناء، وحنو وأحناء، فحذفت الواو

(١) بياض بالأصل المخطوط.

للاستثقال، ونقلت حركة الواو إلى الميم فأُعربت الميم، ونقل سكون الميم إلى السين فسكنت، ثم أُدخلت ألف مهموزة لسكون السين؛ لأجل الابتداء يدلّك عليه التصغير والتصريف يقال: سُمىّ وسميّة؛ لأن كل ما سقط فى التصغير والتصريف فهو غير أصلى. واشتقاقه من (سما) (يسمو)، فكأن المخبر عنه بأنه معدوم ما دام معدومًا فهو فى درجة يرتفع عنها إذ وجد، ويعلو بدرجة وجوده على درجة عدمه. والاسم الذى هو العبارة والتسمية للمخبر والصفة للمنظر. وأصل الصفة ظهور الشىء وبروزه، والله أعلم.

فأمّا ما ورد فى تفسيرها بتفصيلها فكثير، ذكرت جلّ أقاويلها فى حديث وحكاية.

أخبرنا الأستاذ أبو القاسم بن محمد بن الحسن المفسّر، حدّثنا أبو الطيّب محمد بن أحمد ابن حمدون المذكر، أخبرنا أبو بكر محمد بن حمدون بن خالد بن يزيد، حدّثنا أحمد بن هشام الأنطاكى، حدّثنا الحكم بن نافع عن إسماعيل بن عبّاس عن إسماعيل عن يحيى عن أبى مليكة عن مسعود بن عطيّة العوفى عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن عيسى ابن مريم أسلمته أمّه إلى الكُتّاب ليتعلّم، فقال له المعلّم: قل باسم الله. قال عيسى: وما باسم الله؟ فقال له المعلّم: ما أدرى. قال: الباء: بهاء الله، والسين: سناء الله، والميم: مملكة الله».

وسمعت أبا القاسم الحسن بن محمد يقول: سمعت أبا إسحاق بن ميثم بن محمد بن يزيد النسفى بمرو يقول: سمعت أبا عبد الله ختن أبى بكر الوراق يقول: سمعت أبا بكر محمد بن عمر الورّاق يقول فى ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾: إنها روضة من رياض الجنة لكل حرف منها تفسير على حدة:

فالباء على ستة أوجه:

بارئ خلقه من العَرش إلى الثرى، ببيان قوله:

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الطور: ٢٨).

بصير بعباده من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾ (الملك: ١٩).

باسط الرزق من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ (الرعد: ٢٦).

وباق بعد فناء خلقه من العرش إلى الثرى: بيانه: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ (الرّحمن: ٢٦، ٢٧).

باعث الخلق بعد الموت للثواب والعقاب، بيانه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ (الحج: ٧).

بارّ بالمؤمنين من العرش إلى الثرى، بيانه قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الطور: ٢٨).

والسين على خمسة أوجه:

سميع لأصوات خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ (الزخرف: ٨٠).

سيّد قد بلغ سؤدده من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ (الإخلاص: ٢).

سريع الحساب مع خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (البقرة: ٢٠٢).

سلم خلقه من ظلمه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ﴾ (الحشر: ٢٤).

غافر ذنوب عباده من العرش إلى الثرى، بيانه: قوله: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ (غافر: ٣).

والميم على اثنى عشر وجهًا:

ملك الخلق من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ (الحشر: ٢٣).

مالك خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ (آل عمران: ٢٦).

منّان على خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ (الحجرات: ١٧).

مجيد على خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ (البروج: ١٥).

مؤمّن آمن خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه قوله: ﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ (قريش: ٤).

مهيمن اطّلع على خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾ (الحشر: ٢٣).

مقتدر على خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (القمر: ٥٥).

مقيت على خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ (النساء: ٨٥).

متكرّم على خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء: ٧٠).

منعم على خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه قوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان: ٢٠).

متفضّل على خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥١).

مصوّر خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ (الحشر: ٢٤).

وقال أهل الحقائق: . . . .[1] فى ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ التيمّن والتبرّك وحثّ الناس على الابتداء فى أقوالهم وأفعالهم بـ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ لمّا افتتح الله عزّ وجلّ كتابه به، والله أعلم.

﴿اللَّهِ﴾، اعلم أن أصل هذه الكلمة (إله) فى قول أهل الكوفة، فأُدخلت الألف واللام فيها تفخيمًا وتعظيمًا لما كان اسم الله عزّ وجلّ، فصار (الإله)، فحذفت الهمزة استثقالاً لكثرة

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

جريانها على الألسن، وحوّلت هويتها إلى لام التعظيم فالتقى لامان، فأُدغمت الأولى فى الثانية، فقالوا (الله).

وقال أهل البصرة: أصلها (لاه)، فألحقت بها الألف واللام، فقالوا: (الله). وأنشدوا:

كحلفة من أبى رباح   يسمعها الآهه الكبار

فأخرجه على الأصل.

وقال بعضهم: أُدخلت الألف واللام بدلاً من الهمزة المحذوفة فى (إله)، فلزمتا الكلمة لزوم تلك الهمزة لو أُجريت على الأصل، ولهذا لم يدخل عليه فى النداء ما يدخل على الأسماء المعرّفة من حروف التشبيه، فلم يقولوا: يا أيها الله.

دفع أقاويل أهل التأويل فى هذا الاسم مبنيّة على هذين القولين...[1] ثمة، واختلفوا فيه؛ فقال الخليل بن أحمد وجماعة: (الله) اسم علم موضوع غير مشتق بوجه، ولو كان مشتقًا من صفة كما لو كان موصوفًا بتلك الصفة أو بعضها، قال الله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ (مريم: ٦٥).

(الله): اسم موضوع لله تعالى لا يشركه فيه أحد، قال الله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾، يعنى: أن كل اسم مشترك بينه وبين غيره؛ له على الحقيقة ولغيره على المجاز إلاّ هذا الاسم فإنه مختص به لأن فيه معنى الربوبيّة. والمعانى كلها تحته، ألا ترى أنك إذا أسقطت منه الألف بقى لله، وإذا أسقطت من لله اللام الأولى بقى (له)، وإذا أسقطت من (له) اللام بقى هو.

قالوا: وإذا أُطلق هذا الاسم على غير الله فإنما يقال بالإضافة كما يقال: لاه كذا أو ينكر فيقال: لله كما قال تعالى إخباراً عن قوم موسى عليه السلام: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٣٨). وأما (الله)، و(الإله) فمخصوصان لله تعالى.

وقال قوم: أصله (لاها) بالسريانية، وذلك أن فى آخر أسمائهم مدّة، كقولهم للروح: (روحا)، وللقدس: (قدسا)، وللمسيح: (مسيحا)، وللابن: (ابنا)، فلما طرحوا المدّة بقى (لاه)، فعرّبه العرب وأقرّوه.

ولا اشتقاق له، وأكثر العلماء على أنه مشتق؛ واختلفوا فى اشتقاقه، فقال النضر بن إسماعيل: هو من التألّه، وهو التنسّك والتعبّد، قال رؤبة:

للــه در الغانيــات المــدّه   سبحن واسترجعن من تألهى

ويقال: أله إلاهة، كما يقال: عبدَ عبادة. وقرأ ابن عباس: (ويذرك وإلهتك) أى

(١) بياض بالأصل المخطوط.

عبادتك؛ فمعناه عبادتك المعبود الذى تحقّ له العبادة.

وقال قوم هو من (الإله)، وهو الاعتماد، يقال: ألهت إلى فلان، آلَهُ إلهًا، أى فزعت إليه واعتمدت عليه، قال الشاعر:

❖ ألهت إليها والركائب وقّف ❖

ومعناه: أن الخلق يفزعون ويتضرعون إليه فى الحوادث والحوائج، فهو يألههم، أى يجيرهم، فسمى إلهًا، كما يقال: إمام للذى يؤتم به، ولحاف ورداء وإزار وكساء للثوب الذى يلتحف به، ويرتدى به، وهذا معنى قول ابن عباس والضحّاك.

وقال أبو عمرو بن العلاء: هو من (ألهت فى الشىء) إذا تحيّرت فيه فلم تهتدِ إليه، قال زهير:

❖ ....[1] يأله العين وسطها ❖

وقال الأخطل:

ونحن قسمنا الأرض نصفين نصفها لنا ونرامى أن تكون لنا معا

بتسعين ألفًا تأله العين وسطها متى ترَها عين الطرامة تدمعا

ومعناه: أن العقول تتحيّر فى كنه صفته وعظمته والإحاطة بكيفيته، فهو إله كما قيل للمكتوب: كتاب، وللمحسوب: حساب.

وقال المبرّد: هو من قول العرب: (ألهت إلى فلان) أى سكنت إليه، قال الشاعر:

❖ ألهت إليها والحوادث جمّة ❖

فكأن الخلق يسكنون إليه ويطمئنون بذكره، قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨).

وسمعت أبا القاسم الحسن: سمعت أبا الحسن على بن عبد الرحيم القناد يقول: أصله من (الوله)، وهو ذهاب العقل لفقدان من يعزّ عليك. وأصله (أله) - بالهمزة - فأُبدل من الألف واو فقيل الوله، مثل (إشاح، ووشاح) و(وكاف، وإكاف) و(أرّخت الكتاب، وورّخته) و(وقّتت، وأُقّتت). قال الكميت:

ولهت نفسى الطروب إليهم ولها حال دون طعم الطعام

فكأنه سمّى بذلك؛ لأن القلوب تولّه لمحبّته وتضطرب وتشتاق عند ذكره.

وقيل: معناه: محتجب؛ لأن العرب إذا عرفت شيئًا، ثم حجب عن أبصارها سمّته إلهًا،

(١) بياض بالأصل المخطوط.

قال: لاهت العروس تلوه لوهًا، إذ حُجبت.

قال الشاعر:

لاهت فما عرفت يومًا بخارجة يا ليتها خرجت حتّى رأيناها

والله تعالى هو الظاهر بالربوبيّة (بالدلائل والأعلام) وهو المحتجب من جهة الكيفيّة عن الأوهام.

وقيل: معناه المتعالى، يقال: (لاه) أى ارتفع.

وقد قيل: من (الإلاهتك)، فهو كما قال الشاعر:

تروّحنا من اللعباء قصراً وأعجلنا الإلاهة أن تؤوبا

وقيل: هو مأخوذ من قول العرب: ألهت بالمكان، إذا أقمت فيه، قال الشاعر:

ألهنا بدار مـا تبين رسومها كأن بقاياها وشام على اليدِ

فكأن معناه: الدائم الثابت الباقى.

وقال قوم: (أن يقال) ذاته وهى قدرته على الإخضاع.

وقال الحارث بن أسد المحاسبى، أبو عبد الله البغدادى: الله من (ألههم) أى أحوجهم، فالعباد مولوهون إلى بارئهم أى محتاجون إليه فى المنافع والمضارّ، كالواله المضطرّ المغلوب.

وقال شهر بن حوشب: الله خالق كل شىء، وقال أبو بكر الوراق: هو.

وغلّظ بعض بقراءة اللام من قوله: (الله) حتى طبقوا اللسان به الحنك لفخامة ذكره، وليصرف عند الابتداء بذكره وهو الرب.

﴿ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قال قوم: هما بمعنى واحد مثل (ندمان، ونديم) و(سلمان، وسليم)، و(هوان وهوين). ومعناهما: ذو الرحمة، والرحمة: إرادة الله الخير بأهله، وهى على هذا القول صفة ذات. وقيل: هى ترك عقوبة من يستحق العقوبة، (وفعل) الخير إلى من لم يستحق، وعلى هذا القول صفة فعل، يجمع بينهما للاتّساع، كقول العرب: جاد مجد. قال طرفة:

فما لى أرانى وابن عمى مالكًا متى أدنُ منه ينأ عنى ويبعـدِ

وقال آخر:

❖ وألفى قولها كذبًا ومينًا ❖

وفرّق الآخرون بينهما فقال بعضهم: الرَّحْمن على زنة فعلان، وهو لا يقع إلاّ على مبالغة القول. وقولك: رجل غضبان للممتلئ غضبًا، وسكران لمن غلب عليه الشراب. فمعنى

(الرَّحْمن) : الذى وسعت رحمته كل شىء.

وقال بعضهم : (الرَّحْمن) العاطف على جميع خلقه ؛ كافرهم ومؤمنهم، برّهم وفاجرهم بأن خلقهم ورزقهم، قال الله تعالى : ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ (الأعراف:١٥٦)، و(الرحيم) بالمؤمنين خاصّة بالهداية والتوفيق فى الدنيا، والجنة والرؤية فى العقبى، قال تعالى : ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ (الأحزاب:٤٣). فـ (الرَّحْمن) خاصّ اللفظ عامّ المعنى، و(الرحيم) عامّ اللفظ خاصّ المعنى. و(الرَّحْمن) خاص من حيث إنه لا يجوز أن يسمى به أحد إلاّ الله تعالى، عامّ من حيث إنه يشمل الموجودات من طريق الخلق والرزق والنفع والدفع. و(الرحيم) عامّ من حيث اشتراك المخلوقين فى المسمّى به، خاص من طريق المعنى ؛ لأنه يرجع إلى اللطف والتوفيق. وهذا قول جعفر بن محمد الصادق (رضى الله عنه).

الرَّحْمن اسم خاص بصفة عامة، والرحيم اسم عام بصفة خاصة، وقول ابن عباس : هما اسمان رقيقان أحدهما أرقّ من الآخر.

وأخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد المفسّر، حدّثنا أبو عبد الله محمد بن يوسف الدّقاق، حدّثنا الحسن بن محمد بن جابر، حدّثنا عبد الله بن هاشم، أخبرنا وكيع عن سفيان عن منصور عن مجاهد قال : الرَّحْمن بأهل الدنيا، والرحيم بأهل الآخرة. وجاء فى الدعاء : يا رحمان الدنيا ورحيم الآخرة.

وقال الضحّاك : الرَّحْمن بأهل السماء حين أسكنهم السموات، وطوّقهم الطاعات، وجنّبهم الآفات، وقطع عنهم المطاعم واللذات. والرحيم بأهل الأرض حين أرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب، وأعذر إليهم فى النصيحة وصرف عنهم البلايا.

وقال عكرمة : الرَّحْمن برحمة واحدة، والرحيم بمائة رحمة وهذا المعنى قد اقتبسه من قول النبى ﷺ الذى حدّثناه أبو القاسم الحسن بن محمد النيسابورى، حدّثنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن يزيد النسفى بمرو، حدّثنا أبو هريرة وأحمد بن محمد بن شاردة الكشى، حدّثنا جارود بن معاذ، أخبرنا عمير بن مروان عن عبد الملك أبى سليمان عن عطاء عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إن لله تعالى مائة رحمة أنزل منها واحدة إلى الأرض فقسمها بين خلقه، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وأخّر تسعة وتسعين لنفسه يرحم بها عباده يوم القيامة».

وفى رواية أخرى : «إن الله تعالى قابض هذه إلى تلك فمكملها مائة يوم القيامة، يرحم بها عباده».

وقال ابن المبارك: (الرَّحْمن: الذى إذا سُئل أعطى، والرحيم إذا لم يُسأل غضب. يدلّ عليه ما حدّثنا أبو القاسم المفسّر، حدّثنا أبو يوسف رافع بن عبد الله بمرو الروذ، حدّثنا خلف ابن موسى: حدّثنا محمود بن خداش، حدّثنا هارون بن معاوية، حدّثنا أبو الملج وليس الرقّى عن أبى صالح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: من لم يسأل الله يغضب عليه، نظمه الشاعر فقال:

الله يغضب إن تركت سؤاله وبنىُّ آدم حين يُسأل يغضب

وسمعت الحسن بن محمد يقول: سمعت إبراهيم بن محمد النسفى يقول: سمعت أبا عبد الله - وهو ختن أبى بكر الوراق - يقول: سمعت أبا بكر محمد بن عمر الورّاق يقول: (الرَّحْمن: بالنعماء وهى ما أعطى وحبا، والرحيم بالآلاء وهى ما صرف وزوى).

وقال محمد بن على المزيدى: الرَّحْمن بالإنقاذ من النيران، وبيانه قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ (آل عمران: ١٠٣)، والرحيم بإدخالهم الجنان، بيانه: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ (الحجر: ٤٦).

وقال المحاسبى: (الرَّحْمن: برحمة النفوس، والرحيم برحمة القلوب).

وقال السرىّ بن مغلس: (الرَّحْمن بكشف الكروب، والرحيم بغفران الذنوب).

وقال عبد الله بن الجرّاح: (الرَّحْمن بـ. . . .[1] الطريق، والرحيم بالعصمة والتوفيق).

وقال مطهر بن الوراق: (الرَّحْمن بغفران السيّئات وإن كن عظيمات، والرحيم بقبول الطاعات وإن كن. . . .[1]).

وقال يحيى بن معاذ الرازى: (الرَّحمن بمصالح معاشهم، والرحيم بمصالح معادهم).

وقال الحسين بن الفضل: (الرَّحْمن الذى يرحم العبد على كشف الضر ودفع الشر، والرحيم الذى يرقّ وربما لا يقدر على الكشف).

وقال أبو بكر الوراق أيضًا: (الرَّحْمن بمن جحده والرحيم بمن وحّده، والرَّحْمن بمن كفر والرحيم بمن شكر، والرَّحْمن بمن قال ندًا والرحيم بمن قال فردًا).

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

فى أن التسمية من الفاتحة أو لا؟

واختلف الناس فى أنّ التسمية؛ هل هى من الفاتحة؟ فقال قرّاء المدينة والبصرة وقرّاء الكوفة: إنها افتتاح التيمّن والتبرّك بذكره، وليست من الفاتحة ولا من غيرها من السور، ولا تجب قراءتها وأن الآية السادسة قوله تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾. وهو قول مالك بن أنس والأوزاعى وأبى حنيفة - رحمهم الله - ورووا ذلك عن أبى هريرة.

أخبرنا أبو القاسم الحسين بن محمد بن الحسن النيسابورى، حدّثنا أبو الحسن محمد بن الحسن الكابلى، أخبرنا على بن عبد العزيز الحلّ، حدّثنا أبو عبيد القاسم بن سلام البغدادى، حدّثنا الحجاج عن أبى سعيد الهذلى عن. . . .[1] عن أبى هريرة قال: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية السادسة، فزعمت فرقة أنها آية من أمّ القرآن، وفى سائر السور فصل، فليست هاهنا أنها يجب قراءتها.

وقال قوم: إنها آية من فاتحة الكتاب. رووا ذلك عن سعيد بن المسيب، وبه قال قرّاء مكة والكوفة وأكثر قرّاء الحجاز، ولم يعدّوا ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ آية.

وقال الشافعى والشعبى وهو رأى عبد الله أنها نزلت فى الآية الأُولى من فاتحة الكتاب، وهى من كل سورة آية إلاّ التوبة. والدليل عليه الكتاب والسنة؛ أمّا الكتاب سمعت أبا عثمان ابن أبى بكر الزعفرانى يقول: سمعت أبى يقول: سمعت أبا بكر محمد بن أحمد بن موسى يقول: سمعت الحسن بن المفضل يقول: رأيت الناس. . . . .[1] فى النمل أن ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فيها من القرآن فوجدتها بخطها ولو أنها مكررات فى القرآن، فعرفنا أماكنها منه بل حتى ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرّحمن: ١٣)، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ (المرسلات: ١٥) لما كانا فى القرآن كانت مكرّراتهما من القرآن.

وبلغنا أن رسول الله ﷺ كتب فى بدء الأمر على رسم قريش: «باسمك اللهم» حتى نزلت: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَا﴾ (هود: ٤١) فكتب: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ حتى نزلت: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ (الإسراء: ١١٠)، فكتب: «بسم الله الرّحمن»، حتى نزلت: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ (النمل: ٣٠)، فكتب مثلها فلمّا كانت. . . . هذه. . . . وحيث أن يكون. . . .[1] منه ثم افتخر النبى ﷺ بهذه الآية، وحقّ له ذلك.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

حدّثنا عبد الله بن حامد بن محمد الوراق: أخبرنا أبو بكر أحمد بن إسحاق الفقيه حدّثنا محمد بن يحيى بن سهل، حدّثنا آدم بن أبى إياس، حدّثنا سلمة بن الأحمر عن يزيد بن أبى خالد عن عبد الكريم بن أمية عن أبى بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبرك بآية لم تنزل على أحد بعد سليمان بن داود غيرى؟. فقلت: بلى. قال: «بأى شىء تفتتح إذا افتتحت القرآن؟». قلت: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فقال: «هى هى».

وفى هذا الحديث دلّ دليل على كون التسمية آية تامّة من الفاتحة وفواتح السور؛ لأن النبى ﷺ حين لفظ الآية كلها، والتى فى سورة النمل ليست بآية وإنما هى بعض الآية، وبالله التوفيق.

وأما الأخبار الواردة فيه، فأخبرنا أبو القاسم السدوسى، حدّثنا أبو زكريا يحيى بن محمد ابن عبد الله العنبرى، حدّثنا إبراهيم بن إسحاق الأنماطى حدّثنا يعقوب بن إبراهيم الدورقى، حدّثنا أبو سفيان المعمرى عن إبراهيم بن يزيد قال: قلت لعمرو بن دينار: إن الفضل الرقاشى زعم أن ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ليس من القرآن؟ قال: سبحان الله! ما أجرأ هذا الرجل! سمعت سعيد بن جبير يقول: سمعت ابن عباس يقول: كان رسول الله ﷺ إذا نزلت آية ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ علم أن السورة قد ختمت وفتح غيرها.

وحدّثنا الحسن بن محمد: حدّثنا أبو الحسن عيسى بن زيد العقيلى: حدّثنا أبو محمد إسماعيل بن عيسى الواسطى: حدّثنا عبد الله بن نافع عن جهم بن عثمان عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «كيف تقول إذا قمت إلى الصلاة؟» قال: أقول: الحمد لله رب العالمين. قال: «قل: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

وحدّثنا الحسن بن محمد، أخبرنا أبو الحسين. . .[١]، حدّثنا على بن عبد العزيز، حدّثنا أبو عبيد، حدّثنا عمر بن هارون البلخى عن أبى صالح عن أبى مليكة عن مسلمة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝﴾ يعنى يقطّعها آية آية حتّى عدّ سبع آيات عدّ الأعراب.

أخبرنا أبو الحسين محمّد بن أحمد، حدّثنا أبو أحمد عبد الله بن عدى الحافظ، حدّثنا محمد بن جعفر، حدّثنا إسماعيل بن أبى أويس، حدّثنا الحسين بن عبد الله عن أبيه عن جدّه عن على بن أبى طالب (كرّم الله وجهه) أنه كان إذا افتتح السورة فى الصلاة يقرأ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وكان يقول: «من ترك قراءتها فقد نقص». وكان يقول: «هى تمام السبع

(١) بياض بالأصل المخطوط.

المثانى والقرآن العظيم».

وأخبرنا الحسين بن محمد بن جعفر، حدّثنا أبو العباس الأصم، حدّثنا أحمد بن عبد الجبار العطاردى، حدّثنا جعفر بن حيّان عن عبد الملك بن جريج عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ (الحجر: ٨٧) قال: فاتحة الكتاب.

وقيل لابن عباس: أين السابعة؟ قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وعدّها فى يديه ثم قال: أخرجها لكم، وما أجد فيها أمركم.

أخبرنا (محمّد بن الحسين) حدّثنا عبد الله بن محمد بن مسلم، حدّثنا يزيد بن سنان، حدّثنا أبو بكر الحنفى، حدّثنا نوح بن أبى بلال قال: سمعت المقبرى عن أبى هريرة أنه قال: إذا قرأتم أمّ القرآن فلا تبرحوا ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فإنها إحدى آياتها وإنها السبع المثانى.

وأخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب أخبرنا أبو زكريا يحيى بن محمد بن عبد الله العنبرى، حدّثنا جعفر بن أحمد بن نصر الحافظ، حدّثنا أحمد بن نصر، حدّثنا آدم بن إياس عن أبى سمعان عن العلا، عن أبيه عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «يقول الله: قسمت الصلاة بينى وبين عبادى نصفين؛ فإذا قال العبد: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الله: مجّدنى عبدى، وإذا قال العبد ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝﴾ قال: حمدنى عبدى، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝﴾ قال: أثنى علىّ عبدى، وإذا قال: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝﴾ قال الله: فوّض إلىّ أمره عبدى، وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ قال الله: هذا بينى وبين عبدى، وإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝﴾ قال الله: هذا لعبدى، ولعبدى ما سأل».

وأخبرنا على بن محمد بن الحسن المقرى، أخبرنا أبو نصر أحمد بن محمد القصّار، حدّثنا محمد بن بكر البصرى، حدّثنا محمد بن على الجوهرى، حدّثنا... [1] حدثنى أبو إسماعيل ابن يحيى... [1]، حدّثنا سفيان الثورى عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال: كنت مع النبى ﷺ، والنبى ﷺ يحدّث أصحابه؛ إذ دخل رجل يصلّى، وافتتح الصلاة، وتعوّذ، ثم قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝﴾. فسمع النبى ﷺ فقال: «يا رجل، قطعت على نفسك الصلاة، أما علمت أن ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ من الحمد؟ فمن تركها فقد ترك آية، ومن ترك آية منه فقد قطعت عليه صلاته». لا تكون الصلاة إلاّ بفاتحة الكتاب، ومن ترك آية فقد بطلت صلاته.

وأخبرنا أبو الحسين على بن محمد الجرجانى، حدّثنا أبو بكر أحمد بن إبراهيم

(١) بياض بالأصل المخطوط.

الإسماعيلى، حدّثنا أبو بكر محمد بن عمر بن هشام، أخبرنا محمد بن يحيى، حدّثنا حكيم ابن الحسين، حدّثنا سليمان بن مسلم المكّى عن نافع عن أبى مليكة عن طلحة بن عبيد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من ترك ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فقد ترك آية من كتاب الله».

وقد عدّها على عليه السلام فيما عدّ من أمّ الكتاب.

وأما الإجماع، فأخبرنا أبو محمد عبد الله بن حامد الورّاق، أخبرنا أبو بكر أحمد بن إسحاق الضبعى، حدّثنا عبد الله بن محمد، حدّثنا محمد بن يحيى، حدّثنا على بن المدينى، حدثنا عبد الوهاب بن فليح، عن عبد الله بن ميمون، عن عبيد بن رفاعة أن معاوية بن أبى سفيان قدم المدينة فصلّى بالناس صلاة يجهر فيها، ولمّا قرأ أم القرآن ولم يقرأ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وقضى صلاته، ناداه المهاجرون والأنصار من كل ناحية: أنسيت! أين ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ حين استفتحت القرآن؟ فأعادها لهم معاوية فقرأ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

الكلام فى جزئية البسملة من باقى السور

هذا فى الفاتحة، فأما فى غيرها من السور، فأخبرنا أبو القاسم الحبيبى، حدّثنا أبو العباس الأصم، حدّثنا الربيع بن سليمان، أخبرنا الشافعى، أخبرنا عبد المجيد بن عبد العزيز، عن ابن جريج، عن عبد الله بن عثمان بن خيثم، أن أبا بكر بن حفص بن عاصم قال: صلى معاوية بالمدينة صلاة يجهر فيها بالقراءة، وقرأ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ لأم القرآن ولم يقرأ للسورة التى بعدها حتى قضى صلاته، فلمّا سلّم ناداه المهاجرون من كل مكان: يا معاوية، أسرقت الصلاة أم نسيت؟ فصلى بهم صلاة أخرى وقرأ فيها للسورة التى بعدها.

وما . . .[١] النظر بآيات . . .[١] مقاطع القرآن على ضربين متقاربة ومتشاكلة. والمتشاكلة نحو ما فى سورة القمر والرَّحْمن وأمثالهما، والمتقاربة: قيل فى سورة (ق والقرآن المجيد): ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝﴾ (ق: ٢)، وما ضاهاها. ثم نظرنا فى قوله: ﴿قَبۡلَهُمۡ﴾، فلم يكن من المتشاكلة ولا من المتقاربة، ووجدنا أواخر آى القرآن على حرفين: ميم ونون أو حرف صحيح قبلها نا مكسورة فأولّها، أو واو مضموم ما قبلها، أو ألف مفتوح ما قبلها، ووجدنا سبيلهم هو هو مخالف لنظم الكتاب.

هذا ولم نرَ غير مبتدأ آية فى كتاب الله. . . .[١] إذ يقول أيضًا: إن التسمية لا . . .[١]؛ إما

(١) بياض بالأصل المخطوط.

أن تكون مكتوبة للفصل بين السور، أو فى آخر السور، أو فى أوائلها أو حين نزلت كتبت، وحيث لم تنزل لم تكتب، فلو كتبت للفصل لكتبت . . .[1] وتراخ، ولو كتبت فى الابتداء لكتبت فى (براءة)، ولو كتبت فى الانتهاء لكتبت فى آخر ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ (الناس: ١). فلمّا أبطلت هذه الوجوه علمنا أنها كتبت حيث نزلت، وحيث لم تنزل لم تكتب.

يقول أيضًا: إنا وجدناهم كتبوا ما كان غير قرآن من الآى والأخرى، أو خضرة، وكتبوا التسمية بالسواد فعلمنا أنها قرآن، وبالله التوفيق.

حكم الجهر بالبسملة فى الصلاة

ثم الجهر بها فى الصلاة سنّة لقول الله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق: ١). . .[1] رسوله أن يقرأ القرآن بالتسمية، وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ (الأعلى: ١٤، ١٥) فأوجب الفلاح لمن صلّى بالتسمية.

وأخبرنا أبو القاسم (الحسن بن محمّد بن جعفر) حدّثنا أبو صخر محمد بن مالك السعدى بمرو، حدّثنا عبد الصمد بن الفضل الآملى، حدّثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة الحضرمى بغوطة دمشق قال: صليت خلف المهدىّ أمير المؤمنين فجهر بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، فقلت: ما هذه القراءة يا أمير المؤمنين؟ (فقال:) حدثنى أبى عن أبيه عن عبد الله بن عباس أن النبى ﷺ جهر بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، قلت: أآثرها عنك؟ قال: نعم.

وحدّثنا الحسن بن محمد بن الحسن قال: حدّثنا أبو أحمد محمد بن قريش بن حابس بمرو الروذ إملاءً، حدّثنا إسحاق بن إبراهيم بن عباد الدّبرى، حدّثنا عبد الرزاق عن عمرو بن دينار، أن ابن عمر وابن عباس كانا يجهران بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

وحدّثنا الحسن بن محمد بن زكريا العنبرى، حدّثنا محمد بن عبد السلام، حدّثنا إسحاق ابن إبراهيم، أخبرنا خَيْثَمة بن سليمان قال: سمعت ليثًا قال: كان عطاء وطاوس ومجاهد يجهرون بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

وحدّثنا الحسن بن محمد: حدّثنا أبو بكر أحمد بن عبد الرّحْمن المروزى، حدّثنا الحسن بن على بن نصير الطوسى، حدّثنا أبو ميثم سهل بن محمد، حدّثنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخزاعى، عن عمّار بن سلمة، عن على بن زيد بن جدعان، أن العبادلة كانوا يستفتحون

(١) بياض بالأصل المخطوط.

القراءة بـ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يجهرون بها: عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن صفوان.

وحدّثنا الحسن بن محمد، حدّثنا أبو نصر منصور بن عبد الله الأصفهانى، حدّثنا أبو القاسم الإسكندرانى، حدّثنا أبو جعفر الملطى عن على بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر بن محمد أنه قال: «اجتمع آل محمد على الجهر بـ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وعلى أن يقضوا ما فاتهم من صلاة الليل بالنهار، وعلى أن يقولوا فى أبى بكر وعمر أحسن القول وفى صاحبهما».

وبهذا الإسناد قال: سئل الصادق عن الجهر بالتسمية، فقال: «الحق الجهر به، وهى التى ذكر الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ (الإسراء: ٤٦)».

وحدّثنا الحسن، حدّثنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن موسى بن كعب العدل، حدّثنا الحسين بن أحمد بن الليث، حدّثنا محمد بن المعلّى المرادى، حدّثنا أبو نعيم عن خالد بن إياس عن سعيد بن أبى سعيد المقرئ عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أتانى جبريل فعلمنى الصلاة»، ثم قام رسول الله ﷺ وكبّر فجهر بـ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

وحدثنا الحسن بن محمد، حدّثنا أبو الطيب محمد بن أحمد بن حمدون، حدّثنا الشرقى، حدّثنا محمد بن يحيى، حدّثنا ابن أبى مريم عن يحيى بن أيوب ونافع بن أيوب قالا: حدّثنا عقيل عن الزهرى قال: من سنّة الصلاة أن تقرأ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فى فاتحة الكتاب (فإن) لم يقرأ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ لم يقرأ السورة. وقال: إن أوّل من ترك ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ عمرو بن سعيد بن العاص بالمدينة، واحتجّ من أنّ إتيان التسمية أنها من الفاتحة، والجهر بها فى الصلاة بما أخبرنا عبد الله بن حامد، أخبرنا محمد بن الحسين بن الحسن ابن الخليل النيسابورى القطّان، حدّثنا محمد بن إبراهيم الجرجانى، حدّثنا إبراهيم بن عمّار عن سعيد بن أبى عروبة عن الحجاج بن الحجاج عن قتادة عن أنس بن مالك قال: صليت مع رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان، فلم أسمع أحدًا منهم يقرأ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

وأخبرنا عبد الله بن حامد، أخبرنا محمد بن إسماعيل العمارىّ، حدّثنا يزيد بن أحمد بن يزيد، حدّثنا أبو عمرو، حدّثنا محمد بن عثمان، حدّثنا سعيد بن بشير، عن قتادة عن أنس، أن النبى ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان كانوا لا يجهرون، ويخفون ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

فعلم بهذا الحديث أنه لم ينفِ كون هذه الآية من جملة السورة، لكنه تعرّض لترك الجهر

فقط، على أنه أراد بقوله: (لا يجهرون): أنهم لا يتكلفون في رفع الصوت ولم يرد الإسرار والتخافت أو تركها أصلاً.

ويدل عليه ما أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد الحبيبي، أخبرنا أبو زكريا يحيى بن محمد العنبري، حدّثنا محمد بن عبد السلام الوراق وعبد الله بن محمد بن عبد الرَّحْمن قالا: حدّثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي، أخبرنا يحيى بن آدم، أخبرنا شريك، عن ياسر، عن سالم الأفطس، عن ابن أبي ليلى، عن سعيد، عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ يجهر بـ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ جهر بها صوته، فكان المشركون يهزءون بمكّة ويقولون: يذكر إله اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب، ويسمونه الرَّحْمن، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ فيسمع المشركون فيهزؤون، ﴿وَلَا تُخَافِتْ﴾ عن أمتك ولا تسمعهم ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾. واحتجّوا أيضًا بما أخبرنا عبد الله بن حامد، أخبرنا محمد بن جعفر المطيري، حدّثنا بشر بن مطر (عن سفيان عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة) عن أبيه عن قتادة عن أنس أنّ النبي ﷺ وأبا بكر وعمر كانوا يستفتحون القراءة بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝﴾، وإنما عنى بها أنهم كانوا يستفتحون الصلاة بسورة (الحمد)، فعبّر بهذه الآية عن جميع السورة كما يقول: قرأت ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ و(البقرة)، أي سورة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وسورة (البقرة). . .[1] أي رويناها نحكم على هذين الحديثين وأمثالهما وبالله التوفيق.

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

. . .[1] على نفسه، نعيمًا منه على خلقه. ولفظه خبر ومعناه أمر، تقريره: قولوا: الحمد لله. قال ابن عباس: يعني: الشكر منه، وهو من الحمد. . . .[1] والحمد لله نقيض الذم. وقال ابن الأنباري: هو مقلوب عن المدح كقوله: جبل وجلب، و: بض وضبّ.

واختلف العلماء في الفرق بين الحمد والشكر، فقال بعضهم: الحمد: الثناء على الرجل بما فيه من الخصال الحميدة، تقول: حمدت الرجل، إذا أثنيت عليه بكرم أو (حلم) أو شجاعة أو سخاوة، ونحو ذلك. والشكر له: الثناء عليه أو لآله.

فالحمد: الثناء عليه بما هو به، والشكر: الثناء عليه بما هو منه.

وقد يوضع الحمد موضع الشكر، فيقال: حمدته على معروفه عندي، كما يقال: شكرته، ولا يوضع الشكر موضع الحمد، (فـ) لا يقال: شكرته على علمه وحلمه.

والحمد أعمّ من الشكر؛ لذلك ذكره الله فأمر به، فمعنى الآية: الحمد لله على صفاته العليا

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

وأسمائه الحسنى، وعلى جميع صنعه وإحسانه إلى خلقه.

وقيل: الحمد باللسان قولاً، قال الله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ (الإسراء: ١١١)، وقال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ (النمل: ٥٩) والشكر بالأركان فعلاً، قال الله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ (سبأ: ١٣).

وقيل: الحمد لله على ما حبا وهو النعماء، والشكر على ما زوى وهو اللأواء.

وقيل: الحمد لله على النعماء الظاهرة، والشكر على النعماء الباطنة، قال الله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان: ٢٠).

وقيل: الحمد ابتداء والشكر... [١].

حدّثنا الحسن بن محمد بن جعفر النيسابورى لفظًا، حدّثنا إبراهيم بن محمد بن يزيد النسفى حدّثنا محمد بن على الترمذى حدّثنا عبد الله بن العباس الهاشمى، حدّثنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن عبد الله بن عمرو (بن العاص) قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمد رأس الشكر ما شكر الله عبد لا يحمده».

وحدّثنا الحسن بن محمد، أخبرنا أبو العباس أحمد بن هارون الفقيه، حدّثنا عبد الله بن محمود السعدى، حدّثنا على بن حجر، حدّثنا شعيب بن صفوان عن مفضّل بن فضالة عن على بن يزيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أنه سئل عن ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قال: كلمة شكر أهل الجنة.

فى إعراب ﴿الحمد لله﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝﴾

وقد اختلف القرّاء فى قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، فقرأت العامّة بضمّ الدال على الابتداء، وخبره فيما بعده. وقيل: على التقديم والتأخير، أى لله الحمد.

وقيل: على الحكاية. وقرأ هارون بن موسى الأعور ورؤبة بن العجاج بنصب الدال على الإضمار، أى أحمد الحمد؛ لأن الحمد مصدر لا يثنّى ولا يجمع. وقرأ الحسن البصرى بكسر الدال، أتبع الكسرة الكسرة. وقرأ إبراهيم بن أبى عبلة الشامى بضم الدال واللام، أتبع الضمة الضمّة.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ قرأ زيد بن على: (ربَّ العالمين) بالنصب على المدح، وقال أبو سعيد بن أوس الأنصارى: على معنى أحمد ربّ العالمين. وقرأ الباقون ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ بكسر الباء، أى خالق الخلق أجمعين ومبدئهم ومالكهم والقائم بأمورهم، والرب بمعنى السيّد، قال الله تعالى: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ (يوسف: ٤٢) أى سيّدك، قال الأعشى:

واهلكن يومًا ربَّ كندة وابنه ... وربّ معبين خبت وعرعر

وربّ عمر والرومى من رأس حضية ... وأنزلن بالأسباب رب المشقرة

يعنى: رئيسها وسيّدها.

ويكون بمعنى المالك، قال النبى ﷺ: «أربٌّ إبل أنت أم رب غنم؟». فقال: من كل قد آتانى الله فأكثر وأطنب وقال طرفة:

كقنطرة الرومى أقسم ربها ... لتكتنفنّ حتى تشاد بقرمد

وقال النابغة:

وإن يك ربّ أذواد فحسبى ... أصابوا من لقائك ما أصابوا

ويكون بمعنى الصاحب، قال أبو ذؤيب:

فدنا له رب الكلاب بكفّه ... بيض رهاب ريشهن مقزع

ويكون بمعنى المرعى، يقول: ربّ يربّ ربابة وربوبًا، فهو ربّ، مثل برّ وطب، قال الشاعر:

يربّ الذى يأتى من العرف إنه ... إذا سئل المعروف زاد وتمّما

ويكون بمعنى المصلح للشىء، قال الشاعر:

كانوا كسالئة حمقاء إذ حقنت ... سلاءها فى أديم غير مربوب

أى غير مصلح.

وقال الحسين بن الفضل: الرب: اللبث من غير إثبات أحد، يقال: ربّ بالمكان وأربّ، ولبث وألبث إذا أقام وفى الحديث أنه كان يتعوّذ بالله من فقر ضرب أو قلب قال الشاعر:

ربّ بأرض تخطّاها الغنم ... لب بأرض ما تخطاها الغنم

وهو الاختيار؛ لأن المتكلمين أجمعوا على أنّ الله لم يزل ربًّا وسمعت أبا القاسم بن حبيب يقول: سمعت أبى يقول: سئل أبو بكر محمد بن موسى الواسطى عن الرب، فقال: هو الخالق ابتداءً، والمربى غذاءً، والغافر انتهاءً. ولا يقال للمخلوق: هو الرب، معرّفًا بالألف واللام، وإنما يقال على الإضافة: هو رب كذا؛ لأنه لا يملك الكل غير الله، والألف واللام

تدلاّن على العموم. وأمّا العالمون فهم جمع عالَم، ولا واحد له من لفظه، كالأنام والرهط والجيش ونحوها.

واختلفوا فى معناه، حدّثنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحسن، أخبرنا أبو إسحاق بن أسعد بن الحسن بن سفيان عن جدّه عن أبى نصر ليث بن مقاتل عن أبى معاذ الفضل بن خالد عن أبى عصمة نوح بن أبى مريم عن الربيع بن أنس عن شهر بن حوشب عن أبى بن كعب قال: العالمون هم الملائكة، وهم ثمانية عشر ألف ملك منهم أربعة آلاف وخمسمائة ملك بالمشرق، وأربعة آلاف وخمسمائة ملك بالمغرب، وأربعة آلاف وخمسمائة ملك بالكهف الثالث من الدنيا، وأربعة آلاف وخمسمائة ملك فى الكهف الرابع من الدنيا، مع كل ملك من الأعوان ما لا يعلم عددهم إلاّ الله عزّ وجلّ ومن ورائهم أرض بيضاء كالرخام. . .[1] مسير الشمس أربعين يومًا، طولها لا يعلمه إلاّ الله عزّ وجلّ مملوءة ملائكة يقال لهم الروحانيون، لهم زجل بالتسبيح والتهليل، لو كشف عن صوت أحدهم لهلك أهل الأرض من هول صوته فهم العالمون، منتهاهم إلى حملة العرش.

وقال أبو معاذ (النحوى): هم بنو آدم.

وقال أبو هيثم خالد بن يزيد: هم الجن والإنس؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ١)، وهى رواية عطية العوفى وسعيد بن جبير عن ابن عباس.

وقال الحسين بن الفضل: العالمون: الناس، واحتجّ بقوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾ (الشعراء: ١٦٥).

وقال العجاج: بخلاف هذا العالم.

وقال الفراء وأبو عبيدة: هو عبارة عمن يعقل، وهم أربع أمم: الملائكة، والجن، والإنس، والشياطين، لا يقال للبهائم: عالم. وهو مشتق من العلم، قال الشاعر:

❖ ما إن سمعت بمثلهم فى العالمينا ❖

وقال عبد العزيز بن يحيى الكنانى: هم أهل التنزيه من الخلق. وقال عبد الرَّحْمن بن زيد ابن أسلم: هم المرتزقون. وقال الخضر بن إسماعيل: هو اسم الجمع الكثير، قال ابن الزبعرى:

إنى وجدتك يا محمد عصمة   للعالمين من العذاب الكارث

وقال أبو عمرو بن العلاء: هم الروحانيون. وهو معنى قول ابن عباس: كل ذى روح دبّ

(١) بياض بالأصل المخطوط.

على وجه الأرض. وقال سفيان بن عيينة: هو جمع للأشياء المختلفة.

وقال جعفر بن محمد الصادق: العالمون: أهل الجنة وأهل النار. وقال الحسن وقتادة ومجاهد: هو عبارة عن جميع المخلوقات، واحتجوا بقوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ (الشعراء: ٢٣ - ٢٤).

واشتقاقه على هذا القول من (العلم) و(العلامة)؛ لظهورهم ولظهور أثر الصنعة فيهم ثم اختلفوا في مبلغ العالمين وكيفيتهم، فقال سعيد بن المسيب: لله ألف عالم؛ منها ستمائة في البحر وأربعمائة في البر. وقال الضحاك: فمنهم ثلاثمائة وستون عالمًا حفاة عراة لا يعرفون مَن خالقهم، وستون عالمًا يلبسون الثياب. وقال وهب: لله تعالى ثمانية عشر ألف عالم، الدنيا عالم منها، وما العمارة في الخراب إلا كفسطاط في الصحراء. وقال أبو سعيد الخدري: إن لله أربعين ألف عالم، الدنيا من شرقها إلى غربها عالم واحد. وقال أبو القاسم مقاتل بن حيان: العالمون ثمانون ألف عالم؛ أربعون ألفًا في البرّ وأربعون ألفًا في البحر. وقال مقاتل بن سليمان: لو فسّرت ﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، لاحتجت إلى ألف مجلد كل مجلد ألف ورقة. وقال كعب الأحبار: لا يحصى عدد العالمين إلاّ الله، قال الله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ (المدثر: ٣١).

﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝﴾.

اختلف القراء فيه من عشرة أوجه:

الوجه الأول: مالك - بالألف وكسر الكاف - على النعت، وهو قراءة النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرَّحْمن بن عوف وابن مسعود وأُبي بن كعب ومعاذ بن جبل وابن عباس وأبي ذر وأبي هريرة وأنس ومعاوية.

ومن التابعين وأتباعهم عمر بن عبد العزيز ومحمد بن شهاب الزهري ومسلمة بن زيد والأسود بن يزيد وأبو عبد الرَّحْمن السلمي وسعيد بن جبير وأبو رزين وإبراهيم وطلحة بن عوف وعاصم بن أبي النجود و. . .[1] بن عمر الهمذاني وشيبان بن عبد الرَّحْمن وعلي بن صالح بن حي وابن أبي ليلى وعبد الله بن إدريس وعلي بن حمزة الكسائي وخلف بن هشام والحسين بن أبي الحسن البصري من أهل البصرة وأبو رجاء العطاردي ومحمد بن سيرين وبكر ابن عبد الله المزني وقتادة بن دعامة السدوسي ويحيى بن يعمر. . .[1] وعيسى بن عمر النفعي وسلام بن سليمان أبو المنذر ويعقوب بن أعين الحضرمي وأيوب بن المتوكل وأبو عبيدة و. . . .[1] وسعيد بن مسعدة الأخفش وخالد بن معدان والضحاك بن مزاحم.

(١) بياض بالأصل المخطوط.

أخبرنا عبد الله بن حامد بن محمد، أخبرنا أحمد بن محمد بن على، حدّثنا محمد بن يحيى، حدّثنا عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن ابن المسيب وأخبرنا أبو العباس الأصمّ، أخبرنا ابن عبد الحكم: حدّثنا. . . . [١] بن سويد الحميرى عن يونس عن يزيد عن ابن شهاب عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ وأبا بكر وعمر كانوا يقرؤون: ﴿مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ۝﴾.

وأخبرنا أحمد بن محمد بن إبراهيم، أخبرنا محمد بن محمد بن خلف العطار، حدّثنا المنذر بن المنذر الفارسى، حدّثنا هارون بن حاتم، حدّثنا إسحاق بن منصور الأسدى عن أبى إسحاق. . . . [١] عن مالك بن دينار عن أنس قال: سمعت النبى ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا يقرؤون: ﴿مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ۝﴾. وأوّل من قرأها: (ملك يوم الدين) مروان بن الحكم.

والوجه الثانى: ملك، بغير ألف وكسر الكاف على التفسير أيضًا، وهو قراءة زيد بن ثابت وأبى الدرداء وشعيب بن يزيد والمسور بن المخرمة ومن التابعين وأتباعهم عروة بن الزبير وأبو بكر بن عمر بن حزم ومروان بن الحكم و. . . . [١] وعبد الرَّحْمن بن هرمز الأعرج وأبان بن عثمان وأبو جعفر يزيد بن المفضل ونسيبة بن نصّاح ونافع بن نعيم ومجاهد وابن كثير وابن محسن وحميد بن معين ويحيى بن وثاب وحمزة بن حبيب ومحمد بن سيرين وعبد الله بن عمر وأبو عمرو بن العلاء وعمرو بن. . . . [١] وعبد الله بن عامر النصيبى.

وروى ذلك أيضًا عن رسول الله ﷺ وعن عثمان وعلى عليه السلام.

أخبرنا ابن حمدويه، أخبرنا ابن أيوب (المنقرى): أخبرنا ابن حامد وابن. . . . [١] قالا: أخبرنا حامد بن محمّد، حدّثنا وأخبرنا ابن عمر، حدّثنا الرفاء قالوا: حدّثنا على بن عبد العزيز حدّثنا أبو عبيد، حدّثنا يحيى بن سعيد القطّان، حدّثنا عبد الملك بن جريج عن عبد الله بن أبى مليكة عن أمّ سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ يقطّع قراءة: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ۝ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ۝ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ۝ مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ۝﴾.

والوجه الثالث: ملْك - بجزم اللام - على النعت، وهو رواية الحسن بن علىّ الجعفى وعبد الوارث بن سعيد، وروى عن ابن عمر.

والوجه الرابع: أنّ مالكَ - بالألف ونصب الكاف - على النداء، وهى قراءة الأعمش ومحمد بن (السميقع) وعبد الملك قاضى الجند، وروى ذلك عن الرسول ﷺ قال فى بعض غزواته: «يا مالكَ يوم الدين».

والوجه الخامس: ملِكَ - بنصب الكاف من غير ألف - على النداء أيضًا، وهى قراءة

(١) بياض بالأصل المخطوط.

عطية . . . [١].

والوجه السادس: مالك ـ بالألف ورفع الكاف ـ على معنى: هو مالك، وهى قراءة عزير العقيلى.

والوجه السابع: ملك ـ برفع الكاف من غير ألف ـ وهى قراءة أبى حمزة وابن سيرين.

والوجه الثامن: مالك، بالإمالة والإضجاع البليغ. روى ذلك عن يحيى بن يعمر. وعن أيوب السختيانى بين الإمالة والتفخيم. . . . [١] عن. . . . [١] عن الكلبى.

والوجه التاسع: (ملك يوم الدين) على الفعل، وهى قراءة الحسن ويحيى بن يعمر وأبى حمزة وأبى حنيفة.

الفرق بين ملك ومالك

(أما) الفرق بين مالك وملك فقال قوم: هما لغتان بمعنى واحد، مثل (فرهين) و(فارهين) و(حذرين) و(حاذرين) و(فكهين) و(فاكهين). . . . [١] بينهما، فقال أبو عبيدة والأصمعى وأبو سالم والأخفش وأبو الهيثم: مالك أجمع وأوسع وأمدح، ألا ترى أنه يقال: الله مالك الطير والدواب والوحش وكل شىء، ولا يقال: ملك كل شىء، وإنما يقال: ملك الناس؟ قالوا: ولا يكون مالك الشىء إلاّ وهو يملكه ويكون ملك الشىء وهو لا يملكه، كقولهم: ملك العرب والعجم والروم.

وقالوا أيضًا: إن (المالك) يجمع الفعل والاسم.

وقال بعضهم: فى (مالك). . . . [١] ومالك قوله ﷺ: «من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات».

وقال أبو عبيد: الذى نختار ملك. . . . [١] مرويًا عن النبى ﷺ أثبت. ومن قرأ بها من أهل العلم أكثر. وهى مع هذا فى المعنى أصحّ لقوله تعالى: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ (الحشر: ٢٣)، و: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ۝﴾ (الناس: ٢)، و: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ (غافر: ١٦)، ولم يقل: لمن الملك اليوم؟

والملك مصدر الملك وغيرهُ، وملك يصلح للمالك والمليك، يقال: ملك الشىء يملكه ملكًا، فهو مالك ومليك، و: ملكه يملكه ملكًا فهو ملك لا غير. وهما بعد الناس، ومعناهما الربّ؛ لأن العرب تقول: رب الدار والعبد والضيعة بمعنى أنه مالكها، ولا يفرّقون بين قولهم:

(١) بياض بالأصل المخطوط.

ربّها ومالكها ومن . . . .[١] قال: إن المالك والملك هو القادر على استخراج الأعيان من العدم إلى الوجود، ولا يقدر فى الحقيقة على إخراجها إلاّ الله المالك، قال النبى ﷺ: «لا ملك إلاّ الله». فأما غيره، فيسمى مالكًا وملكًا على المجاز.

والمراد بذلك: أنه مأذون له فى التصرّف فيه.

وقال عبد العزيز بن يحيى: المالك يمكن بما يملكه، منفرد به عن أبناء جنسه، تعود منافعه إليه، والمالك الثانى الذى بيده الشىء، ويستولى عليه، ويصرفه فيما يريده. تقول العرب: ملّكك زمام البعير، وملكت العجين إذا شددته، وأملكت المرأة إملاكًا، قال الشاعر:

❖ وجبرئيل أمين الله أملكها ❖

معنى قوله: ﴿ٱلدِّينِ﴾:

وأما معنى قوله: ﴿مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝﴾، فقال ابن عباس والسدى ومقاتل: قاضى يوم الحساب. ودليله قوله عزّ وجلّ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ (التوبة: ٣٦)، أى الحساب المستقيم.

الضحاك وقتادة: الدين: الجزاء، يعنى: يوم يدين الله العباد بأعمالهم. دليله قوله: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ (الصافات: ٥٣)، أى مجرّبون. قال لبيد:

حصادك يومًا ما زرعت وإنما ... يدان الفتى يومًا كما هو دائن

وقال عثمان بن زيات: يوم القهر والغلبة، تقول العرب: مدان فدان، أى قهرته فخضع وذلّ وقال الأعشى:

هو دان الرباب إذ كرهوا الدين ... دراكـــا بغزوة وارتحـــال

ثم دانت بعـد الرباب وكـانت ... كعـــذاب عقوبة الأقوال

وسمعت أبا القاسم الحسين بن محمد الأديب يقول: سمعت أبا المضر محمد بن أحمد ابن منصور يقول: سمعت أبا عمر غلام ثعلب يقول: كان الرجل إذا أطاع ودان إذا عصى، ودان إذا عزّ وكان إذا ذلّ، ودان إذا قهر.

وقال الحسن بن الفضل: يوم الإطاعة، قال زهير:

لئن حللت بواد فى بنى أسـد ... فى دين عمرو وحالت بيننا فدك

أى فى طاعة، وكل ما أطيع الله فيه فهو دين.

وقال بعضهم: يوم العمل، قال الفراء: دين الرجل خلقه وعمله وعادته، وقال المثقب العبدى:

(١) بياض بالأصل المخطوط.

تقول إذا درأت لها وضينى أهــذا دينه أبدًا ودينى

وقال محمد بن كعب القرظى: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ لا ينفع فيه إلاّ ﴿ٱلدِّينِ﴾، وهذه من قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء: ٨٨ - ٨٩)، وقوله: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ (سبأ: ٣٧).

وإنما خصّ يوم الدين بكونه مالكًا له؛ لأن الأملاك فى ذلك اليوم زائلة، وهى باطلة والأملاك خاصة. وقيل: خص يوم الدين بالمالك فيه؛ لأن ملك الدنيا قد اندرج فى قوله: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ (الفاتحة: ٢)، فأثبت أنه مالك الآخرة بقوله: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾؛ ليعلم أن الملك له فى الدارين. وقيل: إنما خصّ يوم الدين بالذكر؛ تهويلاً وتعظيمًا لشأنه كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ (غافر: ١٦)، ولا خفاء بهم فى كل الأوقات عن الله عزّ وجلّ.

❖ ❖ ❖

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

رجع من الخبر إلى الخطاب على التلوين. وقيل فيه إضمار، أى قولوا: ﴿إِيَّاكَ﴾. و(إيا) كلمة ضمير، لكنه لا يكون إلاّ فى موضع النصب، والكاف فى محلّ الخفض بإضافة إيا إليها، وخصّ بالإضافة إلى الضمير؛ لأنه يضاف إلى الاسم المضمر ألا يقول الشاعر:

فدعنى وإيا خـالد لأقطعن عُرْىَ نياطه

وحكى الخليل عن العرب: إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإياكم

ويستعمل مقدّمًا على الفعل مثل (إياك أعنى) و(إياك أسأل)، ولا يستعمل مؤخّرًا على الفعل إلاّ أنّ. . . .[1] به حين الفعل، فيقال: ما عبدت إلاّ إياك ونحوها. وقال أبو ميثم سهل ابن محمد: إياك ضمير منفصل، والضمير ثلاثة أقسام:

ضمير متّصل نحو الكاف والهاء والياء فى قولك: أكرمك، وأكرمه، وأكرمنى. سمى بذلك لاتصاله بالفعل.

وضمير منفصل نحو: إياك وإياه وإياى. سمى بذلك لانفصاله عن الفعل.

وضمير مستكن، كالضمير فى قولك: قعد وقام. سمى بذلك لأنه استكن فى الفعل ولم يُستبقَ فى اللفظ ويعمّ أن فيه ضمير الفاعل؛ لأن الفعل لا يقوم إلاّ بفاعل ظاهر أو مضمر.

وقال أبو زيد: إنما هما ياءان: الأولى للنسبة والثانية للنداء، تقديرها: (أى يا)، فأُدغمت

(١) بياض بالأصل المخطوط.

وكسرت الهمزة لسكون الياء. وقال أبو عبيد: أصله (أو ياك)، فقلبت الواو ياءً فأدغموه، وأصله من (آوى، يؤوى، إيواء) كأن فيه معنى الانقطاع والقصد. وقرأ الفضل الرقاشى (أياك) بفتح الألف وهى لغة.

وإنما لم يقل: نعبدك (لأنه) يصحّ فى العبارة، وأحسن فى الإشارة؛ لأنهم إذا قالوا: إياك نعبد، كان نظرهم منه إلى العبادة لا من العبادة إليه. وقوله: ﴿نَعۡبُدُ﴾ أى نوحد ونخلص ونطيع ونخضع، والعبادة رياضة النفس على حمل المشاق فى الطاعة. وأصلها الخضوع والانقياد والطاعة والذلة، يقال: طريق معبّد إذا كان مذللاً موطوءاً بالأقدام.

قال طرفة:

تبارى عتاقًا ناجيات وأتبعت ... وظيفًا وظيفًا فوق مور معبّد

وبعير معبد إذا كان مطليًا بالقطران، قال طرفة:

إلى أن تحامتنى العشيرة كلّها ... وأفردت إفراد البعير المعبّد

وسمّى العبد عبداً لذلّته وانقياده لمولاه.

﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾: نستوفى ونطلب المعونة على عبادتك وعلى أمورنا كلّها، يقال: استعنته واستعنت به، وقرأ يحيى بن رئاب: (نستعين) بكسر النون. قال الفرّاء: تميم وقيس وأسد وربيعة يكسرون علامات المستقبل إلاّ الياء، فيقولون إستعين ونستعين ونحوها، ويفتحون الياء لأنها أخت الكسرة. وقريش وكنانة يفتحونها كلّها وهى الأفصح والأشهر.

وإنّما كرّر ﴿إِيَّاكَ﴾؛ ليكون أدلّ على الإخلاص والاختصاص والتأكيد لقول الله تعالى خبراً عن موسى: ﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ۝ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ۝﴾ (طه: ٣٣ ـ ٣٤)، ولم يقل: كى نسبحك ونذكرك كثيراً.

وقال الشاعر:

وجاعل الشمس مصراً لا خفاء به ... بين النهار وبين الليل قد فصلا

ولم يقل بين النهار والليل. وقال الآخر:

بين الأشجّ وبين قيس باذخ ... بخ بخ لوالده وللمولود

وقال أبو بكر الورّاق: إياك نعبد لأنك خلقتنا، وإياك نستعين لأنك هديتنا وسمعت أبا القاسم الحبيبى يقول: سمعت أبا الحسن على بن عبد الرّحمن الفرّان، وقد سئل عن الآية فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ لأنك الصانع، و﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ لأن المصنوع لا غنى به عن الصانع، ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ لتدخلنا الجنان، و﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ لتنقذنا من النيران، ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ لأنّا عبيد

و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأنك كريم مجيد، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لأنك المعبود بالحقيقة و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأننا العباد بالوثيقة.

❖ ❖ ❖

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝﴾

﴿ٱهْدِنَا﴾ ، قال على بن أبى طالب (كرّم الله وجهه) وأبىّ بن كعب: أرشدتنا فهذا كما يقال للرجل الذى يأكل: كل، والذى يقرأ: اقرأ، وللقائم: قم لى حتّى أعود لك أى دُم على ما أنت عليه. وقال السدّى ومقاتل: أرشدنا، يقال: هديته للدّين وهديته إلى الدين هدى وهدايةً، قال الحسن بن الفضل: الهدى فى القرآن على وجهين:

الوجه الأول: هدى دعاء وبيان كقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى: ٥٢)، وقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (الرعد: ٧) و﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ (فصّلت: ١٧).

الوجه الثانى: هدى توفيق وتسديد كقوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ (النحل: ٩٣)، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ (القصص: ٥٦).

و﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الطريق الواضح المستوى، قال عامر بن الطفيل:

خشونا أرضهم بالخيل حتّى ... تركناهم أذل من الصراط

وقال جرير:

أمير المؤمنين على صراط ... إذا اعوجّ الموارد مستقيم

الاختلاف فى قراءة الصراط

وفى الصراط خمس قراءات: بالسين وهو الأصل، سمّى الطريق سِراطًا لأنّه يسترط المارّة. أخبرنا عبد الله بن حامد، أخبرنا محمد بن حمدويه، حدّثنا محمود بن آدم، حدّثنا سفيان عن عمر عن ثابت قال: سمعت ابن عباس قرأ السِّراط بالسين، وبه قرأ ابن كثير (من) طريق. . . .[1] ويعقوب (من) طريق. . .[1].

وبإشمام السين وهى رواية أبى حمدون عن الكسائى، وبالزاى وهى رواية أبى حمدون عن سليم عن حمزة.

وبإشمام الزاى وهى قراءة حمزة فى أكثر الروايات والكسائى فى رواية نهشل والشيرازى.

(١) بياض بالأصل المخطوط.

وبالصاد قراءة الباقين من القرّاء .

وكلّها لغات فصيحة صحيحة إلاّ أن الاختيار الصاد؛ لموافقة المصحف لأنها كتبت فى جميع المصاحف بالصاد . ولأن آخرتها بالطاء لأنهما موافقتان فى الإطباق والاستعلاء .

واختلف المفسّرون فى ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ فأخبرنا أبو محمد عبد الله بن حامد ، وأبو القاسم الحسن بن محمد النيسابورى قالا : أخبرنا أبو محمد أحمد بن عبد الله المزنى ، حدّثنا محمد بن عبد الله بن سليمان ، حدّثنا الحسين بن على عن حمزة الزيّات عن أبى المختار الطائى عن (ابن) أبى أخ الحارث الأعسر عن الحارث عن على قال : سمعت النبى ﷺ (يقول) : «الصراط المستقيم كتاب الله عزّ وجلّ» .

وأخبرنا عبد الله بن حامد ، أخبرنا حامد بن محمد ، حدّثنا محمد بن شاذان الجوهرى ، حدّثنا زكريا بن عدىّ عن مقتضى عن منصور عن أبى وائل عن عبد الله قال : الصراط المستقيم كتاب الله عزّ وجلّ .

وأخبرنا عبد الله ، أخبرنا عبد الرَّحْمن بن محمد ، حدّثنا ليث ، حدّثنا عقبة بن سليمان ، حدّثنا الحسين بن صالح عن أبى عقيل عن جابر قال : الصراط المستقيم الإسلام ، وهو أوسع مما بين السماء والأرض (وإنما كان) الصراط المستقيم الإسلام لأن كل دين وطريق (غير) الإسلام فليس بمستقيم .

وروى عاصم الأحول عن أبى العالية الرياحى : هو طريق النبى ﷺ وصاحبيه .

قال عاصم : فذكرت ذلك للحسن فقال : صدق أبو العالية ونصح .

وقال بكر بن عبد الله المزنى : رأيت رسول الله ﷺ فى المنام ، فسألته عن الصراط المستقيم ، فقال : سنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى .

وقال سعيد بن جبير : يعنى طريق (الحق) .

وقال السدّى : أرشدنا إلى دين يدخل صاحبه به الجنة ولا يعذب فى النار أبدًا ، ويكون خروجه من قبره إلى الجنة .

وقال محمد ابن الحنفية : هو دين (الله) الذى لا يقبل من عباده غيره .

أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله العاينى ، حدّثنا أبو الحسين محمد بن عثمان النصيبى ببغداد ، حدّثنا أبو القاسم . . . .[1] ابن نهار ، حدّثنا أبو حفص المستملى ، حدّثنا أبى ، حدّثنا حامد بن سهل ، حدّثنا عبد الله بن محمد العجلى ، حدّثنا إبراهيم بن جابر عن مسلم بن

(١) بياض بالأصل المخطوط .

حيان عن أبى بريدة فى قول الله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ قال: صراط محمد ﷺ وآله (عليهم السلام).

وقال عبد العزيز بن يحيى: يعنى طريق السواد الأعظم. (وقال) أبو بكر الورّاق: يعنى صراطًا لا تزيغ به الأهواء يمينًا وشمالا. وقال محمد بن على النهدى: يعنى طريق الخوف والرجاء. وقال أبو عثمان الدارانى: (يعنى) طريق العبودية.

وسمعت أبا القاسم الحسن بن محمد يقول: سمعت أبا نصر منصور بن عبد الله بهرات يقول: سمعت أبا الحسن عمر بن واصل العنبرى يقول: سمعت (سهل) بن عبد الله التسترى يقول: طريق السنّة والجماعة لأن البدعة لا تكون مستقيمة.

وأخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحسن المفسّر: حدّثنا أبو العبّاس محمّد بن يعقوب الأصم: حدّثنا أحمد بن عبد الجبار العطاردى: أخبرنا أبو بكر عيّاش عن عاصم عن زر عن أبى وائل عن عبد الله قال: خطّ رسول الله خطّين، خطًا عن يمينه وخطًا عن شماله ثم قال: «هذه السُّبُل، وعلى كلّ سبيل منها شيطان يدعو إليه، وهذا سبيل الله؟»، ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ (الأنعام: ١٥٣).

وأخبرنا عبد الله بن حامد، أخبرنا أحمد بن محمد بن يوسف، حدّثنا معمّر بن سفيان الصغير، حدّثنا يعقوب بن سفيان الكبير، حدّثنا أبو صالح عبد الله بن صالح، حدّثنا معاوية بن صالح أن عبد الرَّحْمن بن جبير بن نصر حدّثه عن أبيه جبير عن نواس بن معاذ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ضرب الله مثلاً (صراطًا مستقيمًا) وعلى جانبى الصراط ستور مرخاة فيها أبواب مفتّحة وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط ولا تعوجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد فتح شيء من تلك الأبواب قال: ويلك لا تفتحه؛ فإنك إن تفتحه تلجه والصراط: الإسلام. والستور حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعى على الصراط كتاب الله عزّ وجلّ، والداعى من فوق واعظ الله فى قلب كل مسلم».

❖ ❖ ❖

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

﴿صِرَٰطَ﴾ بدل من الأول ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ يعنى: طريق الذين أنعمت عليهم بالتوفيق والرعاية، والتوحيد والهداية، وهم الأنبياء والمؤمنون الذين ذكرهم الله تعالى فى قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ

أُولَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ (النساء: ٦٩).

قال ابن عباس: هم قوم موسى وعيسى من قبل أن يغيّروا نعم الله عليهم.

وقال شهر بن حوشب هم أصحاب الرسول صلى الله عليه ورضى عنهم وأهل بيته (عليهم السلام). وقال عكرمة: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بالثبات على الإيمان والاستقامة.

وقال على بن الحسين بن داود: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بالشكر على السرّاء والصبر على الضرّاء. وقال . . .[1] بن . . .[1]: بما قد سنّه محمد ﷺ. وقال الحسين بن الفضل: يعنى أتممت عليهم النعمة فكم من منعم عليه . . .[1].

وأصل النعمة المبالغة والزيادة، يقال: دققت الدواء فأنعمت دقّه أى بالغت فى دقه، ومنه قول النبى ﷺ: «إن أهل الجنة يتراءون الغرفة منها كما يتراءون الكوكب الدرّى الشرقى أو الغربى فى أفق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما».

أى زادا عليه. وقال أبو عمرو: بالغا فى الخير.

وقرأ الصادق: (صراط من أنعمت عليهم)، وبه قرأ عمرو بن الزبير وعلى، حرف اللام يجر ما بعده. وفى ﴿عَلَيْهِمْ﴾ سبع قراءات.

الأولى: عليهم ـ بكسر الهاء وجزم الميم ـ وهى قراءة العامّة.

والثانية: عليهم ـ بضم الهاء وجزم الميم ـ وهى قراءة الأعمش وحمزة. وروى ذلك عن النبى ﷺ وعمر (رضى الله عنه).

والثالثة: عليهمو ـ بضم الهاء والميم وإلحاق الواو ـ وهى قراءة عيسى بن عمر وابن أبى إسحاق.

والرابعة: عليهمو ـ بكسر الهاء وضم الميم وإلحاق الواو ـ وهى قراءة ابن كثير والأعرج.

والخامسة: عليهمى ـ بكسر الهاء والميم وإلحاق الياء ـ وهى قراءة الحسن.

والسادسة: عليهم ـ بكسر الهاء وضم الميم مضمومة مختلسة ـ وهى رواية عبد الله بن عطاء الخفّاف عن أبى عمرو.

والسابعة: عليهم ـ بكسر الهاء والميم ـ وهى قراءة عمرو بن حامد.

فمن ضمّ الهاء ردّه إلى الأصل لأنه لو أفرد كان مضمومًا عند الابتداء به، ومن كسره فلأجل الياء الساكنة. ومن كسر الهاء وجزم الميم فإنه يستثقل الضمّ مع مجاورة الياء الساكنة، والياء أخت الكسرة والخروج من الضم إلى الكسر ثقيل. ومن ضمّ الهاء والميم أتبع فيه

(١) بياض بالأصل المخطوط.

الضمّة. ومن كسر الهاء وضمّ الميم فإنه كسر الهاء لأجل الياء وضمّ الميم على الأصل، والاختلاس للاستخفاف، وإلحاق الواو والياء للإتباع والله أعلم. قال الشاعر في الميم المختلسة:

والله لولا شعبة من الكرم وسطة في الحي من خال وعم
لكنت فيهم رجلاً بلا قدم

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ﴾ غير: صفة الذين. والذين معرفة ولا توصف المعارف بالنكرات ولا النكرات بالمعارف إلاّ أن الذين ليس بمعرفة موقتة ولكنّه بمنزلة قولك: إني لأمرُّ بالصادق غير الكاذب، كأنك قلت: من يصدق لا من يكذب. ولا يجوز: مررت بعبد الله غير الظريف.

ومعنى كلامه: غير صراط الذين غضبت ﴿عَلَيْهِمْ﴾.

في معنى الغضب

واختلفوا في معنى الغضب من الله عزّ وجلّ، فقال قوم: هو إرادة الانتقام من العصاة. وقيل: هو جنس من العقاب يضادّ الرضا. وقيل: هو ذم العصاة على قبح أفعالهم.

ولا يلحق غضب الله تعالى العصاة من المؤمنين بل يلحق الكافرين.

﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ عن الهدى.

وأصل الضلال الهلاك، يقال ضلّ الماء في اللبن إذا خفي وذهب، و: رجل ضالّ إذا أخطأ الطريق، و: مضلّل إذا لم يتوجّه لخير، قال الشاعر:

ألم تسأل فتخبرك الديار عن الحي المضلل أين ساروا

قال الزجاج وغيره: وإنما جاز أن يعطف بـ (لا) على غير؛ لأن غير متضمّن معنى النفي؛ فهو بمعنى لا، مجازه: غير المغضوب عليهم وغير الضالين كما تقول: فلان غير محسن ولا مجمل. فإذا كان (غير) بمعنى سوى لم يجز أن يعطف عليها بـ (لا)؛ لأنه لا يجوز في الكلام عندي سوى عبد الله ولا زيد. وروى الخليل بن أحمد عن ابن كثير: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ﴾ نصبًا.

وقرأ عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ: (وغير الضالين)، وقرأ السختياني (ولا الضالئين) بالهمزة؛ لالتقاء الساكنين، والله أعلم.

فأما التفسير:

فأخبرنا عبد الله بن حامد، أخبرنا أحمد بن عبد الله المزني، حدّثنا محمد بن عبد الله بن

سليمان، أخبرنا أحمد بن حنبل ومحمد بن دينار قالا: حدّثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن سماك قال: سمعت عباد بن حبيش عن عدىّ بن حاتم عن النبى ﷺ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ قال: «اليهود»، ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: «النصارى».

وأخبرنا أبو القاسم الحبيبى، أخبرنا أبو زكريا العنبرى، حدّثنا محمد بن عبد الله الوراق، أخبرنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا عبد الرزاق عن معمر عن عبد الله بن بديل العقيلى عن عبد الله بن شقيق أنه أخبره من سمع رسول الله ﷺ، وهو بوادى القرى على فرسه فسأله رجل من القين، فقال: يا رسول الله، من هؤلاء الذين يقاتلونك؟ قال: «المغضوب عليهم»، وأشار إلى اليهود. فقال: من هؤلاء الطائفة الأخرى؟ فقال: «الضالون»، وأشار إلى النصارى.

وتصديق هذا الحديث حكم الله تعالى بالغضب على اليهود فى قوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ (المائدة: ٦٠)، وحكم الضلال على النصارى فى قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ﴾ (المائدة: ٧٧).

وقال الواقدى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ بالمخالفة والعصيان، ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ عن الدين والإيمان. وقال التسترى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ البدعة، ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ عن السنة.

فصل فى آمين

والسنّة المستحبة أن يقول القارئ بعد فراغه من قراءة فاتحة الكتاب: آمين؛ سواء كان فى الصلاة أو غير الصلاة؛ لما أخبرنا عبد الله بن حامد الأصفهانى، أخبرنا محمد بن جعفر المطيرى، حدّثنا الحسن بن على بن عفان العامرى، حدّثنا أبو داود عن سفيان، وأخبرنا عبد الله قال: وأخبرنا عبدوس بن الحسين، حدّثنا أبو حاتم الرازى، حدّثنا ابن كثير، أخبرنا سفيان عن سلمة عن حجر أبى العنبس الحضرمى عن أبى قايل بن حجر قال: كان رسول الله ﷺ إذا قرأ: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، قال: «آمين»، ورفع بها صوته.

وروى عنه ﷺ أنه قال: «لقّننى جبرائيل عليه السلام آمين عند فراغى من فاتحة الكتاب».

وقال «إنّه كالخاتم على الكتاب» وفيه لغتان: أمين بقصر الألف، وأنشد:

تباعد منّى فعطل إذ سألته ... أمين فزاد الله ما بيننا بعداً

وآمين بمد الألف وأنشد:

يا ربّ لا تسلبنى حبّها أبداً ... ويرحم الله عبداً قال آمينا

وهو مبنى على الفتح مثل أين.

واختلفوا فى تفسيره فأخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن جعفر، أخبرنا أبو العباس محمد بن إسحاق بن أيوب، أخبرنا الحسن بن على بن زياد، حدّثنا عبيد بن يعيش عن محمد ابن الفضل عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن معنى «آمين» قال: «ربِّ افعل».

وقال ابن عباس وقتادة: معناه: كذلك يكون.

وأخبرنا عبد الله بن حامد الوزّان، أخبرنا مكى بن عبدان، حدّثنا عبد الله بن حاتم، حدّثنا عبد الله بن نمير، أخبرنا سفيان عن منصور عن هلال بن يساف قال: آمين اسم من أسماء الله تعالى، وبذلك قال مجاهد.

وقال سهل بن عبد الله: معناه: لا يقدر على هذا أحد سواك. وقال محمد بن على النهدى: معناه لا تخيّب رجانا.

وقال عطية العوفى: آمين كلمة ليست بعربية، إنما هى عبرية أو سريانية ثمّ تكلمت به العرب فصار لغة لها. وقال عبد الرَّحْمن بن زيد: آمين كنز من كنوز العرش لا يعلم تأويله أحد إلاّ الله عزّ وجلّ.

وقال أبو بكر الورّاق: آمين قوة للدعاء واستنزال للرحمة.

وقال الضحّاك بن مزاحم: آمين أربعة أحرف مقتطعة من أسماء الله تعالى، وهو خاتم رب العالمين يختم به براءة أهل الجنة وبراءة أهل النار، وهى الجائزة التى منها يجوزون إلى الجنة والنار.

يدلّ عليه ما أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن جعفر، حدّثنا أبو الحسن محمد بن محمود بن عبد الله، حدّثنا محمد بن على الحافظ، حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حمويه، حدّثنا سعيد بن جبير، حدّثنا المؤمل بن عبد الرَّحْمن بن عياش الثقفى، عن أبى أمية بن يعلى الثقفى، عن سعيد المقبرى، عن أبى هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «آمين خاتم رب العالمين على عباده المؤمنين».

أخبرنا محمد بن عبد الله بن حمدون بن الفضل بقراءتى عليه فى صفر سنة ثمان وأربعمائة أخبرنا أحمد بن محمد بن الحسين بن الشرقى، حدّثنا محمد بن يحيى وعبد الرَّحْمن بن بشْر وأحمد بن يوسف قالوا: حدّثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن همّام بن منبّه قال: حدّثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إذا قال أحدكم آمين والملائكة فى السماء فوافق إحداهما الأخرى غُفر له ما تقدم من ذنبه».

وحدّثنا أبو القاسم الحسن بن محمّد بن جعفر، أخبرنا محمّد أبو الحسن محمد بن الحسن بهراة، حدّثنا رجاء بن عبد الله، حدّثنا مالك بن سليم، عن سعيد بن سالم، عن ابن جريج عن عطاء قال: آمين دعاء (وعنه عن) النبى ﷺ قال: «ما حسدكم اليهود على شىء، كما حسدوكم على آمين، وتسليم بعضكم على بعض».

وقال وهب بن منبه: آمين على أربع أحرف، يخلق الله تعالى من كل حرف ملكًا يقول: اللهم اغفر لمن قال: آمين.

فصل فى أسماء هذه السورة

هى عشرة، وكثرة الأسماء تدلّ على شرف المسمّى:

الأول: فاتحة الكتاب، سمّيت بذلك لأنه يفتتح بها فى المصاحف والتعليم والقراءة فى الصلاة، وهى مفتتحة بالآية التى تفتتح بها الأمور تيمّنًا وتبركًا وهى التسمية. وقيل: سمّيت بذلك لأن الحمد فاتحة كل كتاب كما هى فاتحة القرآن. وقال الحسين بن الفضل: لأنها أول سورة نزلت من السماء.

والثانى: سورة الحمد، لأن فيها ذكر الحمد، كما قيل: سورة (الأعراف)، و(الأنفال)، و(التوبة) ونحوها.

والثالث: أُمّ الكتاب والقرآن؛ سمّيت بذلك لأنها أوّل القرآن والكتب المنزلة، فجميع ما أودعها من العلوم مجموع فى هذه السورة؛ فهى أصل لها كالأم للطفل، وقيل: سمّيت بذلك؛ لأنها أفضل سور القرآن كما أن مكة سميت أُم القرى لأنها أشرف البلدان. وقيل: سمّيت بذلك لأنها مقدّمة على سور القرآن، فهى أصل وإمام لما يتلوها من السور، كما أن أُم القرى أصل جميع البلدان دحيت الأرض من تحتها. وقيل: سمّيت بذلك لأنها مجمع العلوم والخيرات، كما أن الدماغ يسمى أُمّ الرأس؛ لأنها مجمع الحواس والمنافع.

وسمعت أبا القاسم الحسن بن محمّد المفسّر يقول: سمعت أبا بكر القفّال يقول: سمعت أبا بكر البريدى يقول: الأُم فى كلام العرب: الراية ينصبها العسكر.

قال قيس بن الخطيم:

نصَبنا أُمّنا حتى ابذعرّوا ... وصاروا بعد إلفتهم شلالا

فسمّيت أُم القرآن؛ لأن مفزع أهل الإيمان إليها كمفزع العسكر إلى الراية. والعرب تسمى

الأرض أُمًّا؛ لأنّ معاد الخلق إليها في حياتهم وبعد مماتهم، قال أُمية بن أبي الصلت:

والأرض معقلنا وكانت أُمّنا فيها مقابرنا وفيها نولد

وأنشدني أبو القاسم قال: أنشدنا أبو الحسين المظفّر محمد بن غالب الهمداني قال: أنشدنا أبو بكر بن الأنباري قال: أنشدنا أبي قال: أنشدني أحمد بن عبيدة:

نأوي إلى أمّ لنا تعتصب كما وَلها أنف عزيز وذنب

وحاجب ما إن نواريها الغصب من السحَاب ترتدي وتنتقب

يعني: نصبه كما وصف لها. وسميت الفاتحة أُمًّا لهذه المعاني. وقال الحسين بن الفضل: سميت بذلك؛ لأنها إمام لجميع القرآن تقرأ في كل. . .[1] وتقدم على كل سورة، كما أن أُمّ القرى إمام لأهل الإسلام. وقال ابن كيسان: سميت بذلك؛ لأنها تامة في الفضل.

والرابع: السبع المثاني، وسيأتي تفسيره في موضعه إن شاء الله.

والخامس: الوافية، حدّثنا أبو القاسم الحسن بن محمد النيسابوري، حدّثنا أبي عن أمّه عن محمد بن نافع السنجري، حدّثنا أبو يزيد محبوب الشامي، حدّثنا عبد الجبار بن العلاء قال: كان يسمي سفيان بن عُيينة فاتحة الكتاب: الوافية، وتفسيرها لأنها لا تنصف ولا تحتمل الاجتزاء إلاّ أن كل سورة من سور القرآن لو قرئ نصفها في ركعة والنصف الآخر في ركعة كان جائزًا، ولو نصفت الفاتحة وقرئت في ركعتين كان غير جائز.

والسادس: الكافية، أخبرنا أبو القاسم السدوسي، أخبرنا أبو جعفر محمد بن مالك المسوري، حدّثنا أبو عبد الله محمد بن عمران قال: حدّثنا سهيل بن (محمّد)، حدّثنا عفيف ابن سالم قال: سألت عبد الله بن يحيى بن أبي كثير عن قراءة الفاتحة خلف الإمام فقال: عن الكافية تسأل؟

قلت: وما الكافية؟ قال: أما علمت أنها تكفي عن سواها، ولا يكفي سواها عنها. إياك أن تصلي إلاّ بها.

وتصديق هذا الحديث ما حدّثنا الحسن بن محمد بن جعفر المفسر، حدّثنا عبد الرَّحْمن بن عمر بن مالك الجوهري بمرو، حدّثنا أبي، حدّثنا أحمد بن يسار، عن محمد بن عباد الإسكندراني عن أشهب بن عبد العزيز، عن ابن عيينة، عن الزهري، عن محمود بن الربيع، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «أمّ القرآن عوض عن غيرها وليس غيرها منها عوضًا».

(١) بياض بالأصل المخطوط.

والسابع: الأساس، حدّثنا أبو القاسم الحسين بن محمد المذكر، حدّثنا أبو عمرو بن المعبّر محمد بن الفضل القاضى بمرو، حدّثنا أبو هريرة مزاحم بن محمد بن شاردة الكشى، حدّثنا جارود بن معاد، أخبرنا وكيع قال: إن رجلاً أتى الشعبى فشكا إليه وجع الخاصرة، فقال: عليك بأساس القرآن. قال: وما أساس القرآن؟ قال: فاتحة الكتاب. قال الشعبى: سمعت عبد الله بن عباس غير مرّة يقول: إن لكل شىء أساسًا وأساس العمارة مكة؛ لأنها منها دُحيت الأرض وأساس السماوات غريبًا، وهى السماء السابعة، وأساس الأرض عجيبًا، وهى الأرض السابعة السفلى، وأساس الجنان جنة عدن، وهى سرّة الجنان، وعليها أُسّست الجنان، وأساس النار جهنم، وهى الدركة السابعة السفلى وعليها أُسست الدركات، وأساس الخلق آدم عليه السلام، وأساس الأنبياء نوح عليه السلام، وأساس بنى إسرائيل يعقوب، وأساس الكتب القرآن، وأساس القرآن الفاتحة، وأساس الفاتحة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. فإذا اعتللت أو اشتكيت فعليك بالفاتحة تشفى.

والثامن: الشفاء، حدّثنا أبو القاسم بن أبى بكر المكتّب لفظًا، حدّثنا أبو على حامد بن محمد بن عبد الله الرفّاء، أخبرنا محمد بن أيوب الواقدى، حدّثنا أبو عمرو بن العلاء، حدّثنا سلام الطويل، عن زيد العمى، عن محمد بن سيرين، عن أبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول الله ﷺ «فاتحة الكتاب شفاء من كل سمّ».

وأخبرنا محمد بن القاسم الفقيه، حدّثنا أبو الحسين محمّد بن الحسن الصفار الفقيه، حدّثنا أبو العباس السرّاج، حدّثنا قتيبة بن سعيد، حدّثنا معاوية بن صالح، عن أبى سليمان قال: مرّ أصحاب رسول الله ﷺ فى بعض غزواتهم على رجل مقعد متربّع فقرأ بعضهم فى أذنه شيئًا من القرآن فبرئ، فقال رسول الله ﷺ: «هى أُمّ القرآن، وهى شفاء من كل داء».

أخبرنا أحمد بن أُبىّ الخوجانى، أخبرنا الهيثم بن كليب الشامى، حدّثنا عيسى بن أحمد العسقلانى، أخبرنا النضر بن شميل، أخبرنا سعيد بن الحجاج، عن عبد الله بن أبى السفر، عن الشعبى عن خارجة بن الصلت التميمى، عن عمّه قال: جاء عمى من عند رسول الله ﷺ، فمرّوا بحىّ من الأعراب، فقالوا: إنّا نراكم قد جئتم من عند هذا الرسول، إنّ عندنا رجلاً مجنونًا مخبولاً، فهل عندكم من دواء أو رقية؟ فقال عمّى: نعم. فجيىء به، فجعل عمى يقرأ أُمّ القرآن وبزاقه فإذا فرغ منها بزق فجعل ذلك ثلاثة أيام، فكأنّما أهبط من جبال، قال عمى: فأعطونى عليه جعلاً، فقلت: لا نأكله حتى نسأل رسول الله ﷺ. فسأله، فقال: «كُلهُ، فمن الحلّ تُرقيه بذلك. لقد أكلت برُقية حق».

والتاسع: الصلاة، قد تواترت الأخبار بأن الله تعالى سمّى هذه السورة، وهو ما يعرف أنّه لا صلاة إلاّ بها.

أخبرنا عبد الله بن حامد وأحمد بن يوسف بقراءتى عليهما قالا: أخبرنا مكى بن عبد الله، حدّثنا محمد بن يحيى قال: وفيما قرأته على ابن نافع، وحدّثنا مطرف عن مالك بن أنس عن العلاء بن عبد الرَّحْمن أنه سمع أبا السائب مولى هشام بن زهرة يقول: سمعت أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عزّ وجلّ: قسمت الصلاة - يعنى هذه السورة - بينى وبين عبدى نصفين؛ فنصفها لى ونصفها لعبدى، فإذا قرأ العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ يقول الله: حمدنى عبدى. وإذا قال العبد: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يقول الله تعالى: أثنى علىّ عبدى. وإذا قال العبد: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يقول الله: مجّدنى عبدى. وإذا قال العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال الله: هذه الآية بينى وبين عبدى، ولعبدى ما سأل. فإذا قال العبد: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخرها قال: هذه لعبدى ولعبدى ما سأل.

والعاشر: سورة تعلم المسألة؛ لأن الله تعالى علّم فيه عباده آداب السؤال، فبدأ بالثناء ثم الدعاء، وذلك سبب النجاح والفلاح.

القول فى وجوب قراءة هذه السورة فى الصلاة

أخبرنا عبد الله بن حامد، أخبرنا محمد بن جعفر الطبرى، حدّثنا بشر بن مطير، حدّثنا سفيان، حدّثنا العلاء بن عبد الرَّحْمن عن أبيه أنه سمع أبا هريرة عن النبى ﷺ قال: «من صلّى صلاة فلم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهى خداج - ثلاث مرات - غير تمام».

وأخبرنا عبد الله قال: أخبرنا ابن عباس، حدثنا عبد الرَّحْمن بن بشر، حدّثنا ابن عيينة عن الزهرى عن محمود بن الربيع عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «لا صلاة لمن لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب».

أخبرنا عبد الله، أخبرنا عبدوس بن الحسين، حدّثنا أبو حاتم الرازى، حدّثنا أبو قبيصة، حدّثنا سفيان عن جعفر بن على بيّاع الأنماط عن أبى هريرة قال: أمرنى رسول الله ﷺ أن أنادى: «لا صلاة إلاّ بقراءة فاتحة الكتاب».

وأخبرنا عبد الله، أخبرنا أبو بكر أحمد بن إسحاق، أخبرنا أبو المثنى، حدّثنا مسدّد، حدّثنا عبد الوارث بن حنظلة السدوسى قال: قلت لعكرمة: إنّى ربّما قرأت فى المغرب ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ

ٱلْفَلَقِ ۝﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝﴾ وأنّ الناس يعيبون عليَّ ذلك، فقال: سبحان الله اقرأ بهما فإنّهما من القرآن، ثمّ قال: حدّثنا ابن عبّاس أنّ النبي ﷺ خرج فصلّى ركعتين لم يقرأ فيهما إلاّ بفاتحة الكتاب لم يزد على ذلك غيره.

وأخبرنا أبو القاسم الحبيبي، حدّثنا أبو العبّاس الأصمّ أخبرنا الربيع بن سليمان، حدّثنا الشافعي، حدّثنا سفيان عن الزهري عن محمود بن الربيع عن عبادة بن الصامت أنّ رسول الله ﷺ قال: «لا صلاة لمن لا يقرأ بفاتحة الكتاب» واحتجّ من أجاز الصلاة بغيرها بقوله: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾.

وأخبرنا أبو محمّد عبد الله بن حامد بقراءتي عليه أخبرنا أبو بكر أحمد بن إسحاق الفقيه أخبرنا أبو المثنى حدّثنا مسدّد، حدّثنا يحيى بن سعيد عن عبد الله بن عمر قال: حدّثنا سعيد بن أبي سعيد عن أبيه عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ دخل المسجد فدخل رجل وصلّى ثم جاء فسلّم على رسول الله ﷺ فقال: «ارجع فصلِّ، فإنك لم تصلِّ» حتى فعل ذلك ثلاث مرات. قال الرجل: والذي بعثك بالحق نبيًا ما أحسن غير هذا، فعلِّمني. قال: «إذا قمت إلى الصلاة فكبّر ثم اقرأ ما تيسَّر معك من القرآن ثم اركع».

وهذه اللفظة يحتمل أنه أراد أن كل ما وقع عليه اسم قرآن وجهل إنما يراد سورة بعينها، فلمّا احتمل الوجهين نظرنا فوجدنا النبي ﷺ صلى بفاتحة الكتاب وأمر بها من تركها، فصار هذا الخبر مجملاً، والأخبار التي رويناها مفسرة، والمجمل يدل على المفسر، وهذا كقوله: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ (البقرة: ١٩٦) ثم لم يجز أحد ترك الهدى بل ثبتها رسول الله ﷺ بالصفة أن لا يكون أعور ولا أعرج ولا معيوبًا، فكذلك أراد بقوله عزّ وجلّ وقول رسول الله ﷺ ما فسّر بالصفة التي بينها أن تكون سورة الحمد إذا أحسنها، وقدرها إذا لم يحسنها. فبالعلة التي أوجبوا قراءة آية تامة مع قوله: «ما تيسّر» له وجه ظاهره العلم، والله أعلم.

ذكر وجوب قراءتها على المأموم كوجوبها على الإمام واختلاف الفقهاء فيه:

قال مالك بن أنس: يجب عليه قراءتها إذا خَافَتَ الإمام، فأمّا إذا جهر فليس عليه (شيء). وبه قال الشافعي في القديم وقال في الجديد: يلزمه القراءة أسرَّ الإمام أو جَهَر. وقال أبو حنيفة وأصحابه: لا يلزمه القراءة خافت أو جهر.

واتّفق المسلمون على أن صلاته (صحيحة) إذا قرأ خلف الإمام.

والدليل على وجوب القراءة على المأموم كوجوبها على الإمام ما أخبرنا عبد الله بن حامد،

أخبرنا مكى بن عبد الله، حدّثنا أبو الأزهر، حدّثنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد، حدّثنا أبى عن أبى إسحاق، حدّثنا مكحول، وأخبرنا عبد الله، أخبرنا أحمد بن عبد الرَّحْمن بن سهل، حدّثنا سهل بن عمار، حدّثنا يزيد بن هارون، أخبرنا محمد بن إسحاق عن مكحول عن محمود بن الربيع عن عبادة بن الصامت قال: صلّى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح فثقلت عليه القراءة فلمّا انصرف رسول الله ﷺ من صلاته أقبل علينا بوجهه وقال: «إنى لأراكم تقرؤون وراء إمامكم؟». قلنا: أجل والله يا رسول الله هذا. قال: «فلا تفعلوا إلاّ بأُمّ الكتاب فإنّه لا صلاة لمن لم يقرأ بها».

وهو قول عمر وعثمان وعلى وابن عباس وجابر وابن مسعود وعمران بن حصين وزيد بن ثابت وأبى سعيد الخدرى وعبادة بن الصامت وهشام بن عامر ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب وعبد الله بن عمر وأبى الدرداء وعائشة وأبى هريرة وجماعة كبيرة من التابعين وأئمة المسلمين روى عنهم جميعًا أنهم رأوا القراءة خلف الإمام واجبة.

ووجه القول القديم ما روى سفيان عن عاصم بن أبى النجود، عن ذكوان، عن أبى هريرة وعائشة أنهما كانا يأمران بالقراءة وراء الإمام إذا لم يجهر. واحتج أبو حنيفة وأصحابه بما أخبرنا عبد الله بن حامد، أخبرنا أبو بكر أحمد بن إسحاق الفقيه، أخبرنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة، حدّثنا الوليد بن حمّاد اللؤلؤى: حدّثنا الحسن بن زياد اللؤلؤى: حدّثنا أبو حنيفة عن الحسن عن عبد الله بن شدّاد بن الماد عن جابر بن عبد الله قال: قال النبى ﷺ: «من صلّى خلف إمام فإنّ قراءة الإمام له قراءة».

وأخبرنا عبد الله بن حامد، أخبرنا أبو بكر بن إسحاق، أخبرنا محمد بن أيوب، أخبرنا أحمد بن يونس، حدّثنا الحسن بن صالح، عن جابر الجعفى، عن أبى الزبير، عن جابر، عن النبى ﷺ قال: «من كان له إمام فقراءته له قراءة».

فأمّا حديث عبد الله بن شدّاد فهو مرسل، رواه شعبة وزائدة وابن عيينة وأبو عوانة وإسرائيل وقيس وجرير وأبو الأحوص مرسلاً، والمرسل لا تقوم به حجّة، والوليد بن حماد والحسن لا يدرى من هما. وأما خبر جابر الجعفى فهو ساقط، قال زائدة: جابر كذاب، وقال أبو حنيفة: ما رأيت أكذب من جابر. وقال ابن عيينة: كان جابر لا يوقن بالرجعة.

وقال شعبة: قال لى جابر: دخلت إلى محمد بن على فسقانى شربة وحفظت عشرين ألف حديث. ولا خلاف بين أهل النقل فى سقوط الاحتجاج بحديثه.

وقد روى عن جابر بن عبد الله ما خالف هذه الأخبار، أخبرنا عبد الله بن حامد، أخبرنا أبو

بكر بن إسحاق، حدّثنا عبد الله بن محمد، حدّثنا محمد بن يحيى، أخبرنا سعد بن عامر، عن شعبة، عن مسعر عن يزيد بن الفقير، عن جابر بن عبد الله، قال: كنا نقرأ فى الظهر والعصر خلف الإمام، ومحال أن يروى جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ أن قراءة الإمام قراءة المأموم ثم يقرأ خلف الإمام ويأمر به مخالفة للنبى ﷺ.

واحتجوا أيضًا بما روى عن عاصم بن عبد العزيز عن أبى سهيل عن عوان عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال: «يكفيك قراءة الإمام جَهَرَ أو لم يجهر».

وهذا الحديث أيضًا لا يثبته أهل المعرفة بالحديث؛ لأنه غير متن الحديث، وإنما الخبر الصحيح فيه عن أبى هريرة ما أخبرنا أبو عمرو الفراتى، أخبرنا الهيثم بن كليب، حدّثنا العباس بن محمد الدورى، حدّثنا بشر بن كليب، حدّثنا شعبة، عن العلاء بن عبد الرّحمن، عن أبيه، عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «كل صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهى خداج خداج خداج غير تمام». قال: فقلت له: إذا كان خلف الإمام؟ قال فأخذ بذراعى وقال: «يا فارسى - أو قال: يا بن الفارسى - اقرأ بها فى نفسك».

واحتجوا أيضًا بما روى أبو إسحاق عن أبى الأحوص عن عبد الله قال: كانوا يقرؤون خلف النبى ﷺ فقال: «خلطتم علىّ القرآن».

وهذا الخبر فيه نظر، ولو صحّ لكان المنع من القراءة كما رواه النضر بن شميل.

أخبرنا يونس بن أبى إسحاق، عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص، عن عبد الله، عن رسول الله ﷺ قال لقوم يقرؤون القرآن ويجهرون به: «خلطتم علىّ القرآن»، فليس فى نهيه عن القراءة خلف الإمام جهرًا ما يمنع عن القراءة سرًّا. ونحن لا نجيز الجهر بالقراءة خلف الإمام؛ لما فيه من سوء الأدب والضرر الظاهر. وقد روى يحيى بن عبد، عن محمد بن إبراهيم، عن أبى حازم، عن البياضى قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قام أحدكم يصلّى، فإنه يناجى ربّه، فلينظر بما يناجيه، ولا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن».

ودليل هذا التأويل حديث عبد الله بن زياد الأشعرى قال: صليت إلى جنب عبد الله بن مسعود خلف الإمام فسمعته يقرأ فى الظهر والعصر. وكذلك الجواب عن احتجاجهم بخبر عمران بن الحصين قال: صلى بنا رسول الله ﷺ الظهر والعصر فلما انصرف قال: أيّكم قرأ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، قال رجل: أنا ولم أرد به إلاّ الخير. فقال رسول الله ﷺ: «قد عرفت أن بعضكم خالجنيها».

واحتجّوا أيضًا بحديث أبى هريرة: فإذا قرأ فأنصتوا، وليس الإنصات بالسكوت فقط إنّما

الإنصات أن تحسن استماع الشيء ثم يؤدى كما سمع ، يدل عليه قوله تعالى فى قصّة الجن : ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ۝ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ﴾ (الأحقاف : ٢٩ ـ ٣٠) .

وقد يسمى الرجل منصتًا وهو قارئ مسبّح إذا لم يكن جاهرًا به ، ألا ترى أن النبى ﷺ قال : «من أتى الجمعة فأنصت ولم يلغ حتى يصلى الإمام كان له كذا وكذا» .

فسمّاه منصتًا وإن كان مصليًّا ذاكرًا ، وقيل للنبىّ ﷺ : ما تقول أيضًا؟ قال : «أقول اللّهمّ اغسلنى من خطاياى» فدلّ أنّ الإنصات وهو ترك الجهر بالقراءة دون المخافتة بها ، يدل عليه ما أخبرنا به أبو القاسم الحسين ، حدّثنا أبو العباس الأصم ، حدّثنا أبو الدرداء هاشم بن محمد ، حدّثنا عبيد بن السكن ، حدّثنا إسماعيل بن عباس ، أخبرنا محمد بن الصباح ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جدّه قال : قال رسول الله ﷺ : «من صلّى صلاةً مكتوبة أو سبحة فليقرأ بأُمّ القرآن» .

قال : قلت يا رسول الله إنى ربما أكون وراء الإمام .

قال ﷺ : «اقرأ إذا سكت إنما جعل الإمام ليؤتمّ به» .

قد رواه الثقات الأثبات عن أبى هريرة مثل الأعرج وهمام بن منبّه وقيس بن أبى حازم وأبى صالح وسعيد المقبرى والقاسم بن محمد وأبى سلمة ، ولم يذكروا : (وإذا قرأ فأنصتوا) .

وأمّا احتجاجهم بقوله تعالى : ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ (الأعراف : ٢٠٤) ، فسيأتى فى موضعه إن شاء الله تعالى .

آخر السورة ، وبالله التوفيق .



سُورَةُ البَقَرَة

مدنية : وهى مائتان وست وثمانون آية فى العدد الكوفى
وهى سند أمير المؤمنين على عليه السلام وهى خمسة وعشرون ألف (حرف)
وخمسمائة حرف ، وستّة آلاف ومائة وإحدى وعشرون كلمة

أخبرنا عبد الله بن حامد بقراءتى عليه ، أخبرنا أحمد بن محمد بن يوسف ، حدثنا يعقوب ابن سفيان الصغير ، حدثنا يعقوب بن سفيان الكبير ، حدثنا هشام بن عمّار ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا شعيب بن رزين عن عطاء الخراسانى ، عن عكرمة ، قال : أول سورة نزلت بالمدينة سورة البقرة .

❖ فضلها:

أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن إبراهيم بن محمد الطبرانى بها ، أخبرنا دعلج بن أحمد الشجرى ببغداد ، حدثنا محمد بن أحمد بن هارون ، حدثنا خندف عن على ، حدثنا حسّان بن إبراهيم ، حدثنا خالد بن شعيب المزنى ، عن أبى حازم ، عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : «إنّ لكل شيء سنامًا ، وسنام القرآن سورة البقرة ، من قرأها فى بيته ليلاً لم يدخله شيطان ثلاث ليال ، ومن قرأها فى بيته نهاراً لم يدخل فى بيته شيطان ثلاثة أيام» .

وأخبرنا محمد بن القاسم بن أحمد المرتّب بقراءتى عليه ، حدثنا أبو عمرو بن مطرف ، حدثنا أبو عبد الله محمد بن المسيب ، حدثنا عبد الله بن الحسين ، حدثنا يوسف بن الأسباط ، حدثنا حسن بن المهاجر عن عبد الله بن يزيد عن أبيه ، قال : قال رسول الله ﷺ : «تعلموا البقرة ، فإنّ أخذها بركة ، وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة» .

أخبرنا أبو الحسين على بن محمد بن الحسن المقرى ، حدثنا أبو أحمد عبد الله بن على الحافظ ، أخبرنا محمد بن يحيى بن مندة ، حدثنا أبو مصعب ، حدثنا عمران بن طلحة الليثى عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة ، قال : بعث النبى ﷺ بعثًا ثم تتبعهم يستقرئهم ، فجاء إنسان منهم فقال : «ماذا معك من القرآن؟» حتى أتى على آخرهم ، وهو أحدثهم سنًّا ، فقال : «ما معك من القرآن؟» قال : كذا وكذا وسورة البقرة ، فقال : «اخرجوا وهذا عليكم أمين» ، قالوا : يا رسول الله هو أحدثنا سنًّا ، قال : «معه سورة البقرة» .

❖ التفسير:

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾.

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾.

اختلف العلماء فى الحروف المعجمة المفتتحة بها السور، فذهب كثير منهم إلى أنّها من المتشابهات التى استأثر الله بعلمها، فنحن نؤمن بتنزيلها ونكل إلى الله تأويلها.

قال أبو بكر الصديق (رضى الله عنه): فى كل كتاب سر، وسر القرآن أوائل السور.

وقال على بن أبى طالب عليه السلام: إنّ لكل كتاب صفوة، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجّى.

وفسّره الآخرون، فقال سعيد بن جبير: هى أسماء الله مقطّعة، لو أحسن الناس تأليفها لعلموا اسم الله الأعظم، ألا ترى أنّك تقول: ﴿الٓر﴾ وتقول: ﴿حمٓ﴾ وتقول: ﴿نٓ﴾ فيكون الرحمن، وكذلك سائرها على هذا الوجه، إلاّ أنّا لا نقدر على وصلها والجمع بينها.

وقال قتادة: هى أسماء القرآن.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هى أسماء للسور المفتتحة بها.

وقال ابن عباس: هى أقسام أقسم الله بها، وروى أنّه ثناء أثنى الله به على نفسه.

وقال أبو العالية: ليس منها حرف إلاّ وهو مفتاح لاسم من أسماء الله عز وجل، وليس منها حرف إلاّ وهو فى الآية وبلائه، وليس منها حرف إلاّ فى مدّة قوم وآجال آخرين.

وقال عبد العزيز بن يحيى: معنى هذه الحروف أنّ الله ذكرها، فقال: اسمعوها مقطعة، حتى إذا وردت عليكم مؤلفة كنتم قد عرفتموها قبل ذلك، وكذلك تعلم الصبيان أولا مقطعة، وكان الله أسمعهم مقطعة مفردة، ليعرفوها إذا وردت عليهم، ثم أسمعهم مؤلّفة.

وقال أبو روق: إنّها تكتب للكفار، وذلك أنّ رسول الله ﷺ كان يجهر بالقراءة فى الصلوات كلّها، وكان المشركون يقولون: لا تسمعوا لهذا القرآن والغو فيه لعلكم تغلبون.

فربما صفّقوا وربما صفّروا وربما لفظوا ليغلّطوا النبى ﷺ، فلمّا رأى رسول الله ذلك أسرّ فى

الظهر والعصر وجهر فى سائرها، وكانوا يضايقونه ويؤذونه، فأنزل الله تعالى هذه الحروف المقطعة، فلمّا سمعوها بقوا متحيرين متفكّرين، فاشتغلوا بذلك عن إيذائه وتغليطه، فكان ذلك سببًا لاستماعهم وطريقًا إلى انتفاعهم.

وقال الأخفش: إنّما أقسم الله بالحروف المعجمة لشرفها وفضلها ولأنّها مبانى كتبه المنزلة بالألسن المختلفة، ومبانى أسمائه الحسنى وصفاته العليا، وأصول كلام الأُمم بما يتعارفون ويذكرون الله ويوحّدونه، وكأنّه أقسم بهذه الحروف إنّ القرآن كتابه وكلامه لا ريب فيه.

وقال النقيب: هى النبهة والاستئناف ليعلم أنّ الكلام الأول قد انقطع، كقولك: ولا إن زيدًا ذهب.

وأحسن الأقاويل فيه وأمتنها أنّها إظهار لإعجاز القرآن وصدق محمد ﷺ؛ وذلك أنّ كل حرف من هذه الحروف الثمانية والعشرين.

والعرب تعبّر ببعض الشىء عن كلّه كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ﴾ (المرسلات: ٤٨) أى صلّوا لا يصلّون، وقوله: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ (العلق: ١٩) فعبر بالركوع والسجود عن الصلاة إذ كانا من أركانها، وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ (آل عمران: ١٨٢) أراد جميع أبدانكم.

وقال: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ أى الأنف فعبّر باليد عن الجسد، وبالأنف عن الوجه.

وقال الشاعر فى امرأته:

لما رأيت أمرها فى خطى ... وفنكت فى كذب ولط

أخذت منها بقرون شمط ... فلم يزل ضربى بها ومعطى

فعبّر بلفظة «خطى» عن جملة حروف أبجد.

ويقول القائل: (أ ب ت ث) وهو لا يريد هذه الأربعة الأحرف دون غيرها، بل يريد جميعها وقرأت الحمد لله، وهو يريد جميع السورة، ونحوها كثير، وكذلك عبّر الله بهذه الحروف عن جملة حروف التهجّى، والإشارة فيه أنّ الله تعالى نبّه العرب وتحدّاهم، فقال: إنّى قد نزّلت هذا الكتاب من جملة الثمانية والعشرين التى هى لغتكم ولسانكم، وعليها مبانى كلامكم، فإن كان محمد هو النبى يقوله من تلقاء نفسه، فأتوا بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة مثله، فلمّا عجزوا عن ذلك بعد الإجهاد ثبت أنّه معجزة.

هذا قول المبرّد وجماعة من أهل المعانى، فإن قيل: فهل يكون حرفًا واحدًا عودًا للمعنى؟ وهل تجدون فى كلام العرب أنْ يقال: الم زيد قائم؟ وحم عمرو ذاهب؟ قلنا: نعم، هذا عادة

العرب يشيرون بلفظ واحد إلى جميع الحروف ويعبّرون به عنه.

قال الراجز:

قلت لها قفى فقالت قاف ... لا تحسبى أنّا نسينا الإيجاف

أى قف أنت.

وأنشد سيبويه لغيلان:

نادوهم ألا الجموا ألا تا ... قالوا جميعًا كلّهم ألا فا

أى ألا تركبون فقالوا: ألا فاركبوا.

وأنشد قطرب فى جارية:

قد وعدتنى أم عمرو أن تا ... تدهن رأسى وتفلينى تا

أراد أن تأتى وتمسح.

وأنشد الزجّاج:

بالخير خيرات وإن شرًّا فا ... ولا أريد الشرّ إلاّ أن تا

أراد بقوله (فا): وإن شرًا فشر له، وبقوله: تا إلا أن تشاء.

قال الأخفش: هذه الحروف ساكنة لأنّ حروف الهجاء لا تعرب، بل توقف على كلّ حرف على نيّة السكت، ولابدّ أن تفصل بالعدد فى قولهم واحد - اثنان - ثلاثة - أربعة.

قال أبو النجم:

أقبلت من عند زياد كالخرف ... تخط رجلاى بخط مختلف

تكتبان فى الطريق لام الألف

فإذا أدخلت حرفًا من حروف العطف حركتها.

وأنشد أبو عبيدة:

إذا اجتمعوا على ألف وواو ... وياء هاج بينهم جدال

وهذه الحروف تُذكّر على اللفظ وتؤنّث على توهم الكلمة.

قال كعب الأحبار: خلق الله العلم من نور أخضر، ثم أنطقه ثمانية وعشرين حرفًا من أصل الكلام، وهيّأها بالصوت الذى سمع وينطق به، فنطق بها العلم فكان أوّل ذلك كلّه .... [1] فنظرت إلى بعضها فتصاغرت وتواضعت لربّها تعالى، وتمايلت هيبة له، فسجدت فصارت همزة، فلمّا رأى الله تعالى تواضعها مدّها وطوّلها وفضّلها، فصارت ألفًا، فتلفظه

(١) بياض بالأصل المخطوط.

بها، ثم جعل القلم ينطق حرفًا حرفًا إلى ثمانية وعشرين حرفًا، فجعلها مدار الكلام والكتب والأصوات واللغات والعبادات كلّها إلى يوم القيامة، وجميعها كلّها فى أبجد.

وجعل الألف لتواضعها مفتاح أول أسمائه، ومقدّمًا على الحروف كلّها، فأمّا قوله عزّ وجلّ: ﴿الٓمٓ﴾ فقد اختلف العلماء فى تفسيرها.

عطاء بن السايب عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فى قول الله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ قال: أنا الله أعلم.

أبو روق عن الضحاك فى قوله ﴿الٓمٓ﴾: أنا الله أعلم.

مجاهد وقتادة: ﴿الٓمٓ﴾ اسم من أسماء القرآن.

الربيع بن أنس: (ألف) مفتاح اسم الله، و(لام) مفتاح اسمه لطيف، و(ميم) مفتاح اسمه مجيد.

خالد عن عكرمة قال: ﴿الٓمٓ﴾ قسم.

محمد بن كعب: (الألف) آلاء الله، و(اللام) لطفه، و(الميم) ملكه.

وفى بعض الروايات عن ابن عباس: (الألف) الله، و(اللام) جبرئيل، أقسم الله بهم إنّ هذا الكتاب لا ريب فيه، ويحتمل أن يكون معناه على هذا التأويل: أنزل الله هذا الكتاب على لسان جبريل إلى محمد ﷺ.

وقال أهل الإشارة: (ألف): أنا، (لام): لى، (ميم): منّى.

وعن على بن موسى الرضا عن جعفر الصادق، وقد سئل عن قوله: ﴿الٓمٓ﴾ فقال: فى الألف ست صفات من صفات الله: الابتداء؛ لأنّ الله تعالى ابتدأ جميع الخلق، و(الألف). ابتداء الحروف، والاستواء: فهو عادل غير جائر، و(الألف) مستو فى ذاته، والانفراد: والله فرد والألف فرد، واتصال الخلق بالله، والله لا يتصل بالخلق، فهم يحتاجون إليه وله غنًى عنهم.

وكذلك الألف لا يتصل بحرف، فالحروف متصلة: وهو منقطع عن غيره، والله باينَ بجميع صفاته من خلقه، ومعناه من الإلفة، فكما أنّ الله سبب إلفة الخلق، فكذلك الألف عليه تألفت الحروف وهو سبب إلفتها.

وقالت الحكماء: عجز عقول الخلق فى ابتداء خطابه، وهو محل الفهم، ليعلموا أن لا سبيل لأحد إلى معرفة حقائق خطابه إلاّ بعلمهم، فالعجز عن معرفة الله حقيقة خطابه.

وأما محل ﴿الٓمٓ﴾ من الإعراب فرفع بالابتداء وخبره فيما بعده.

وقيل: ﴿الٓمٓ﴾ ابتداء، و﴿ذَٰلِكَ﴾ ابتداء آخر و﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ خبره، وجملة الكلام خبر الابتداء الأول.

﴿ذَٰلِكَ﴾: قرأت العامة ﴿ذَٰلِكَ﴾ بفتح الذال، وكذلك هذه وهاتان، وأجاز أبو عمرو الإمالة فى هذه، (ذ) للاسم، واللام عماد، والكاف خطاب، وهو إشارة إلى الغائب.

و﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾: بمعنى المكتوب كالحساب والعماد.

قال الشاعر:

بشرت عيالى إذ رأيت صحيفةً ... أتتك من الحجج تتلى كتابها

أو مكتوبها، فوضع المصدر موضع الاسم، كما يقال للمخلوق خلق، وللمصور تصوير، وقال: دراهم من ضرب الأمير، أى هى مضروبة، وأصله من الكتب، وهو ضم الحروف بعضها إلى بعض، مأخوذ من قولهم: كتب الخرز، إذا خرزته قسمين، ويقال للخرز كتبة وجمعها كتب.

قال ذو المرّجة:

وفراء غرفية أثاى خوارزها ... مشلشل ضيعته فبينها الكتب

ويقال: كتبت البغل، إذا حرمت من سفرتها الخلقة، ومنه قيل للجند كتيبة، وجمعها كتائب.

قال الشاعر:

وكتيبة جاءوا ترفل ... فى الحديد لها ذخرٌ

واختلفوا فى هذا ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ قال ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد والضحاك ومقاتل: هو القرآن، وعلى هذا القول يكون (ذلك) بمعنى (هذا) كقول الله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ (الأنعام: ٨٣) أى هذه.

وقال خفاف بن ندبة السلمى:

إن تك خيلى قد أُصيب صميمها ... فعمدًا على عين تيممت مالكا

أقول له الرمح يأطر متنه ... تأمل خفافًا إننى أنا ذالكا

يريد (هذا).

وروى أبو الضحى عن ابن عباس قال: معناه ذلك الكتاب الذى أخبرتك أن أوجّه إليك.

وقال عطاء بن السائب: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ الذى وعدتكم يوم الميثاق.

وقال يمان بن رئاب: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ الذى ذكرته فى التوراة والإنجيل.

وقال سعيد بن جبير: هو اللوح المحفوظ.

عكرمة: هو التوراة والإنجيل والكتب المتقدمّة

وقال الفراء: إنّ الله تعالى وعد نبيه أن ينزل عليه كتابًا لا يمحوه الماء ولا يَخْلَق على كثرة الردّ، فلمّا أنزل القرآن قال: هو الكتاب الذى وعدتك.

وقال ابن كيسان: تأويله أنّ الله تعالى أنزل قبل البقرة بضع عشرة سورة كذّب بكلها المشركون ثم أنزل سورة البقرة بعدها فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ يعنى ما تقدم البقرة من القرآن.

وقيل: ذلك الكتاب الذى كذب به مالك بن الصيف اليهودى.

﴿رَيْبَ فِيهِ﴾: لا شكّ فيه، إنّه من عند الله.

قال: ﴿هُدًى﴾: أى هو هدًى، وتم الكلام عند قوله ﴿فِيهِ﴾، وقيل: «هو» نصب على الحال، أى هاديًا تقديره لا ريب فى هدايته للمتقين.

قال أهل المعانى: ظاهره نفى وباطنه نهى، أى لا ترتابوا فيه، كقوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ﴾ (البقرة:١٩٧): أى لا ترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا فى الهدى، والبيان وما يهتدى به ويستبين به الإنسان.

فصل فى التقوى

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾: اعلم أنّ التقوى أصله وقى من وقيت، فجعلت الواو تاء، كالتكلان فأصله وكلان من وكلت، والتخمة أصلها وخمة من وخم معدته إذا لم يستمرئ.

واختلف العلماء فى معنى التقوى وحقيقة المتقى، فقال رسول الله ﷺ: «جماع التقوى فى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ (النحل: ٩٠) الآية».

قال ابن عباس: المتقى الذى يتقى الشرك والكبائر والفواحش.

وقال ابن عمر: التقوى أن لا يرى (نفسه) خيراً من أحد.

وقال الحسن: المتقى الذى يقول لكل من رآه هذا خيرٌ منى.

وقال عمر بن الخطاب لكعب الأحبار: حدّثنى عن التقوى، فقال: هل أخذت طريقًا ذا شوك؟ قال: نعم، فقال: فما عملت فيه؟ قال: حذرت وتشمّرت، فقال كعب: ذلك التقوى، ونظمه ابن المعتز فقال:

خلّ الذنوب صغيرهـــا وكبيرهـــا ذاك التقى
واصنع كماش فوق أرض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرنّ صغيرة إنّ الجبـــــال من الحصـا

وقال عمر بن عبد العزيز: ليس التقوى صيام النهار وقيام الليل والتخليط فيما بين ذلك، ولكن التقوى ترك ما حرّم الله وأداء ما افترض الله، فما رزق بعد ذلك فهو خير على خير.

وقيل لطلق بن حبيب: أجمل لنا التقوى؟ فقال: التقوى عمل يطلبه الله على نور من الله رجاء ثواب الله، والتقوى ترك معصية الله على نور من الله مخافة عقاب الله.

وقال بكر بن عبد الله: لا يكون الرجل تقيًا حتى يكون يتقى الطمع، ويتقى الغضب.

وقال عمر بن عبد العزيز: المتقى لمحرم لا تحرم، يعنى فى الحرم.

وقال شهر بن حوشب: المتقى الذى يترك مالا يأتمن به حذرًا لما به بأس.

وروى عن النبى ﷺ أنّه قال: إنّما سمى المتقون لتركهم ما لا بأس به حذرًا للوقوع فيما به بأس.

وقال سفيان الثورى والفضيل: هو الذى يحب للناس ما يحب لنفسه.

وقال الجنيد بن محمد: ليس المتقى الذى يحب للناس ما يحب لنفسه، إنّما المتقى الذى يحب للناس أكثر مما يحب لنفسه، أتدرون ما وقع لأستاذى سرى بن المفلّس؟ سلّم عليه ذات يوم صديق له فردّ عليه، وهو عابس لم يبشّ له، فقلت له فى ذلك فقال: بلغنى أنّ المرء المسلم إذا سلّم على أخيه وردّ عليه أخوه قسمت بينهما مائة رحمة، فتسعون لأجلهما، وعشرة للآخر فأحببت أنْ يكون له التسعون.

محمد بن على الترمذى: هو الذى لا خصم له.

السرى بن المفلّس: هو الذى يبغض نفسه.

الشبلى: هو الذى يبغى ما دون الله.

قال جعفر الصادق: أصدق كلمة قالت العرب قول لبيد:

❖ ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل ❖

الثورى: هو الذى اتّقى الدنيا وأقلها.

محمد بن يوسف المقرى: مجانبة كل ما يبعدك عن الله.

القاسم بن القاسم: المحافظة على آداب الشريعة.

وقال أبو زيد: هو التورّع عن جميع الشبهات.

وقال أيضًا: المتقى من إذا قال قال لله، وإذا سكت سكت لله، وإذا ذكر ذكر لله تعالى.

الفضيل: لا يكون العبد من المتقين حتى يأمنه عدوّه كما يأمنه صديقه.

وقال سهل: المتقى من تبرّأ من حوله وقوّته.

وقال: التقوى أنْ لا يراك الله حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك.

وقيل: هو الاقتداء بالنبى ﷺ.

وقيل: هو أن تتقى بقلبك عن الغفلات، وبنفسك من الشهوات، وبحلقك من اللذات وبجوارحك من السيئات، فحينئذ يرجى لك الوصول لما ملك الأرض والسموات.

أبو القاسم (حكيم): هو حسن الخلق.

وقال بعضهم: يستدل على تقوى الرجل بثلاث: بحسن التوكّل فيما لم ينل، وحسن الرضا فيما قد نال، وحسن الصبر على ما فات.

وقيل: المتقى من اتّقى متابعة هواه.

وقال مالك: حدثنا وهب بن كيسان أنّ بعض فقهاء أهل المدينة كتب إلى عبد الله بن الزبير أن لأهل التقى علامات يعرفون بها: الصبر عند البلاء، والرضا بالقضاء، والشكر عند النعمة، والتذلل لأحكام القرآن.

وقال ميمون بن مهران: لا يكون الرجل تقيًا حتى يكون أشدّ محاسبة لنفسه من الشريك الشحيح والسلطان الجائر.

وقال أبو تراب: بين يدى التقوى عقبات، من لا يجاوزها لا ينالها، اختيار الشدة على النعمة، واختيار القول على الفضول، واختيار الذلّ على العزّ، واختيار الجهد على الراحة، واختيار الموت على الحياة.

وقال بعض الحكماء: لا يبلغ الرجل سنام التقوى إلاّ إذا كان بحيث لو جعل ما فى قلبه على طبق، فيطاف به فى السوق لم يستحى من شىء عليها.

وقيل: التقوى أن تزيّن سرّك للحقّ، كما تزيّن علانيتك للخلق.

وقال أبو الدرداء:

يريد المرء أنْ يعطى مناه ... ويأبى الله إلاّ ما أرادا

يقول المرء فائدتى وذخرى ... وتقوى الله أفضل ما استفادا

فصل فى الإيمان

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ اعلم أنّ حقيقة الإيمان هى التصديق بالقلب، لأن الخطاب الذى توجّه عليها بلفظ آمنوا إنّما هو بلسان العرب، ولم يكن العرب يعرفون الإيمان غير التصديق، والنقل فى اللغة لم يثبت فيه، إذ لو صح النقل عن اللغة لروى عن ذلك، كما روى فى الصلاة التى أصلها الدعاء.

إذا كان الأمر كذلك وجب علينا أن نمتثل الأمر على ما يقتضيه لسانهم، كقوله تعالى فى قصة يعقوب على السلام وبنيه ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ (يوسف: ١٧): أى بمصدق لنا ولو كنّا صادقين، ويدل عليه من هذه الآية أنّه لما ذكر الإيمان علّقه بالغيب، ليعلم أنّه تصديق الخبر فيما أخبر به من الغيب، ثم أفرده بالذكر عن سائر الطاعات اللازمة للأبدان وفى الأموال فقال: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ والدليل عليه أيضًا أنّ الله تعالى حيث ما ذكر الإيمان (نسبه) إلى القلب فقال: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ (المائدة: ٤١)، وقال: ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ (النحل: ١٠٦)، وقال: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ﴾ (المجادلة: ٢٢)، ونحوها كثير.

فأما محل الإسلام من الإيمان فهو كمحل الشمس من الضوء: كل شمس ضوء، وليس كل ضوء شمسًا، وكل مسك طيب، وليس كل طيب مسكًا، كذلك كل إيمان إسلام وليس كل إسلام إيمانًا، إذا لم يكن تصديقًا؛ لأن الإسلام هو الانقياد والخضوع، يدل عليه قوله تعالى: ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ (الحجرات: ١٤) من خوف السيف، وقول النبى ﷺ: «الإيمان سرًا» وأشار إلى صدره «والإسلام علانية»، وقوله ﷺ: «يا معشر من أسلم بلسانه، ولم يدخل الإيمان فى قلبه».

وكذلك اختلف جوابه لجبرائيل فى الإسلام والإيمان، فأجاب فى الإيمان بالتصديق، وفى الإسلام بشرائع الإيمان، وهو ما روى أبو بريدة، وهو يحيى بن معمر قال: أول من قال فى القدر بالبصرة سعيد الجهنى، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميرى حاجّين أو معتمرين، فقلنا: لو لقينا أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هو: ما فى القدر؟ فوافقنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلاً المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبى، أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله فظننت أن صاحبى سيكل الكلام لى، فقلت: أبا عبد الرحمن، إنّه قد

ظهر قبلنا أناس يقرءون القرآن ويفتقرون (إلى) العلم وذكر من لسانهم أنّهم يزعمون أن لا قدر، وأنّ الأمر أنفٌ، فقال: إذا لقيت أولئك فأخبرهم أنى برىء منهم وأنّهم براء منى، والذى يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أُحد ذَهَبًا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر.

ثم قال: أخبرنا أبو عمر بن الخطاب قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبى ﷺ وأسند ركبته إلى ركبته، ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد أخبرنى عن الإسلام؟ قال رسول الله ﷺ: «الإسلام أن يشهد أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة، وتصوم شهر رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً»، قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه! قال: فأخبرنى عن الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره».

قال: فأخبرنى عن الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك»، قال: فأخبرنى عن الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من المسائل»، قال: فأخبرنى عن أماراتها؟ قال: «أن تلد الأَمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاة الشاة شاهقين فى البنيان»، قال: ثم انطلق، فلبث علينا ثم قال: يا عمر من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنّه جبرائيل عليه السلام أتاكم ليعلمكم دينكم».

ثم يسمى إقرار اللسان وأعمال الأبدان إيمانًا بوجه من المناسبة وضرب من المقاربة؛ لأنها من شرائعه وتوابعه وعلاماته وأماراته كما نقول: رأيت الفرح فى وجه فلان، ورأيت علم زيد فى تصنيفه؛ وإنّما الفرح والعلم فى القلب، وقال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون بابًا، أدناها إماطة الأذى عن الطريق، وأرفعها قول أن لا إله إلاّ الله».

وعن أبى صالح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان».

الحسن بن على قال: حدثنى على بن أبى طالب كرم الله وجهه قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان معرفة بالقلب، وإقرارٌ باللسان، وعمل بالأركان».

وعن على بن الحسين زين العابدين قال: حدثنا أبو سيد شباب أهل الجنة قال: حدثنا أبو سيد الأوصياء قال: حدثنا محمّد سيد الأنبياء قال: «الإيمان قول مقول وعمل معمول وعرفان

بالعقول واتباع الرسول».

وأمّا الغيب فهو ما كان مغيّبًا عن العيون محصّلاً فى القلوب وهو مصدر وضع موضع الاسم فقيل للغائب غيب، كما قيل للصائم: صوم، وللزائر: زَور، وللعادل: عدل.

الربيع بن أبى العالية ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ قال: يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ولقائه، ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث، فهذا غيب كلّه.

عمر بن الأسود عن عطاء بن أبى رباح: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ قال: بالله، من آمن بالله فقد آمن بالغيب.

سفيان عن عاصم بن أبى النجود فى قوله ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ قال: الغيب: القرآن. وقال الكلبى: بما نزل من القرآن وبما لم يجئ بعد.

الضحاك: الغيب لا إله إلاّ الله وما جاء به محمّد ﷺ، وقال زرّ بن حبيش وابن جريج وابن واقد: يعنى بالوحى، نظيره قوله تعالى: ﴿أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ (النجم: ٣٥) وقوله: ﴿عَـٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ (الجن: ٢٦). وقوله: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٍ﴾ (التكوير: ٢٤).

الحسن: يعنى بالآخرة. عبد الله بن هانئ: هو ما غاب عنهم من علوم القرآن.

وروى زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) أنه قال: كنت مع النبى ﷺ جالسًا فقال: «أتدرون أى أهل الإيمان أفضل؟» قالوا يا رسول الله الملائكة، قال: «هم كذلك وحقّ لهم ذلك وما يمنعهم وقد أنزلهم الله تعالى بالمنزلة التى أنزلهم، بل غيرهم».

قلنا: يا رسول الله الأنبياء؟ قال: «هم كذلك وحقّ لهم ذلك وما يمنعهم، بل غيرهم»، قلنا: يا رسول الله فمن هم؟ قال: «أقوام يأتون من بعدى هم فى أصلاب الرجال فيؤمنون بى ولم يرونى، يجدون الورق المعلّق فيعملون بما فيه فهؤلاء أفضل أهل الإيمان إيمانًا».

وروى حسن بن الحارث بن قيس عن عبد الله بن مسعود: عند الله نحتسب ما سبقتمونا إليه يا أصحاب محمد من رؤية رسول الله ﷺ، فقال عبد الله بن مسعود: نحن عند الله نحتسب إيمانكم بمحمد ﷺ ولم تروه، ثم قال عبد الله: إنّ أمر محمد كان بيّنًا لمن رآه والذى لا إله إلاّ هو ما آمن مؤمن أفضل من إيمان الغيب، ثمّ قرأ: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أى يديمونها ويأتمونها ويحافظون عليها بمواقيتها وركوعها وسجودها وحقوقها وحدودها، وكل من واظب على شىء وقام به فهو مقيم له يقال: أقام فلان الحجّ بالناس، وأقام القوم سوقهم ولم يعطلوها قال الشاعر:

فلا تعجل بأمرك واستدمه فما صلّى عصاك كمستديم

أى أراد بالصلاة ههنا الصلوات الخمس، فذكرها بلفظ الواحد، كقوله: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ (البقرة: ٢١٣) أراد الكتب، وأصل الصلاة فى اللغة: الدّعاء ثمّ ضمّت إليها (عبادة) سُميت مجموعها صلاة لأن الغالب على هذه العبادة الدّعاء.

وقال أبو حاتم الخارزمى: اشتقاقها من الصِّلا وهو النار، فأصله من الرفق وحُسن المعاناة للشيء؛ وذلك أنّ الخشبة المعْوجة إذا أرادوا تقويمها (سخنوها بالنار) قوموها (بين خشبتين) فلذلك المصلّى ينبغى أن يتأنى فى صلاته ويحفظ حدودها ظاهراً وباطنًا ولا يعجّل فيها ولا يخفّ (ولا يعرف) قال الشاعر:

فلا تعجل بأمرك واستدمه فما صلّى عصاك كمستديم

أى ما قوّم أمرك كالمبانى.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ﴾ أعطيناهم، والرزق عند أهل السنّة: ما صحّ الانتفاع به، فإن كان طعامًا فليتغذّى به، وإن كان لباسًا فلينقى والتوقى، وإن كان مسكنًا فللانتفاع به سكنى، وقد ينتفع المنتفع بما هيّئ الانتفاع به على الوجهين: حلالاً وحرامًا، فلذلك قُلنا إنّ الله رزق الحلال والحرام، (وأصل الرزق) فى اللغة: هو الحظ والبخت.

﴿يُنفِقُونَ﴾ يتصدقون، وأصل الإنفاق: الإخراج عن اليد أو عن الملك. يُقال: نفق المبيع إذا كثر مشتروه وأسرع خروجه، ونفقت الدابة إذا خرجت روحها، ونافقاء اليربوع من ذلك لأنه إذا أتى من قبل القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فانتفق وأنفق إن خرج منه، والنفق: سُرب فى الأرض له مخلص إلى مكان آخر يخرج إليه.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾: أى يصدّقون ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾: يا محمد يعنى القرآن ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾: يعنى الكتب المتقدمة مثل صحف إبراهيم وموسى والزّبور والإنجيل وغيرها. ﴿وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أى بالدار الآخرة، وسميت آخرة لأنها تكون بعد الدُّنيا ولأنّها أُخّرت حتى تفنى الدنيا ثم تكون.

﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ يعلمون ويتيقّنون أنها كائنة، ودخل ﴿هُمْ﴾ تأكيداً، يُسمّيه الكوفيون عماداً والبصريون فصلاً.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ أهل هذه الصفة، وأولاء: اسم مبنى على الكسر، ولا واحد لهُ من لفظه، والكاف خطاب، ومحل أولئك رفع بالابتداء وخبره فى قوله: ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ رشد وبيان

وصواب. ﴿مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ﴾ ابتداءان و﴿هُمُ﴾ عماد ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ خبر الابتداء وهم الناجون الفائزون فازوا بالجنّة ونجوا من النار، وقيل: هم الباقون فى الثواب والنعيم المقيم.

وأصل الفلاح فى اللغة: البقاء. قال لبيد:

نحلُّ بلاداً كلهــا حل قبلنا ونرجو فلاحًا بعد عاد وحمير

وقال آخر:

لو كان حى مدرك الفلاح أدركه ملاعـب الرمـاح

أبو براء بدرة المسيـــاح

وقال مجاهد: أربع آيات من أول هذه السورة نزلت فى المؤمنين، وآيتان بعدهما نزلتا فى الكافرين، وثلاث عشرة آيةً بعدها نزلت فى المنافقين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: يعنى مشركى العرب، وقال الضحّاك: نزلت فى أبى جهل وخمسة من أهل بيته. وقال الكلبى: يعنى اليهود، وقيل: المنافقون.

والكفر: هو الجحود والإنكار.

وأصله من الكفر وهو التغطية والستّر، ومنه قيل للحراث: كافر؛ لأنّه (يستر البذر)، قال الله تعالى: ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾: يعنى الزرّاع، وقيل للبحر: كافر، ولليل: كافر. قال لبيد:

حتى إذا ألقت يداً فى كافر وأجن عورات الثغور ظلامها

فى ليلة كفر النجــوم غمامها

ومنه: المتكفّر بالسلاح، وهو الشاكى الذى غطّى السلاح جميع بدنه.

فيسمى الكافر كافرًا لأنه ساتر للحق ولتوحيد الله ونعمه ولنبوّة أنبيائه.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾: أى واحد عليهم ومتساوى لديهم، وهو اسم مشتق من التساوى.

﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾: أخوّفتهم وحذّرتهم.

قال أهل المعانى: الإنذار: الإعلام مع تحذير، يُقال: أنذرتهم فنذروا، أى أعلمتهم فعلموا، وفى المثل: وقد أُعذر من أنذر، وفى قوله: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ وأخواتها أربع قراءات: تحقيق الهمزتين وهى لغة تميم وقراءة أهل الكوفة؛ لأنها ألف الاستفهام دخلت على ألف القطع وحذف الهمزة التى وصلت بفاء الفعل وتعويض مده منها كراهة الجمع بين الهمزتين وهى لغة أهل الحجاز، وإدخال ألف بين الهمزتين وهى قراءة أهل الشام فى رواية هشام وإحدى الروايتين عن أبى عمرو.

قال الشاعر :

تطاولت فاستشرقت قرابته فقلن له : أأنت زيد لا بل قمر

والأخبار اكتفاء بجواب الاستفهام ، وهى قراءة الزهرى .

﴿أَمْ﴾ : حرف عطف على الاستفهام .

﴿لَمْ﴾ : حرف جزم لا يلى إلاّ الفصل ؛ لأنّ الجزم مختص بالأفعال .

﴿تُنذِرْهُمْ﴾ : تحذرهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهذه الآية خاصّة فيمن حقّت عليه كلمة العذاب فى سابق علم الله ، وظاهرها إنشاء ومعناها إخبار ، ثمّ ذكر سبب تركهم للإيمان فقال :

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ﴾ : أى طبع ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ والختم والطبع بمعنى واحد وهما التغطية للشىء والاستيثاق من أن يدخله شىء آخر .

فمعنى الآية : طبع الله على قلوبهم وأغلقها وأقفلها فليست تعى خبراً ولا تفهمه . يدل عليه قوله : ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ (محمد : ٢٤) .

وقال بعضهم : معنى الطبع والختم : حكم الله عليهم بالكفر والشقاوة كما يُقال للرجل : ختمت عليك أن لا تفلح أبدًا .

﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ : فلا يسمعون الحق ولا ينتفعون به ، وإنما وحّده لأنه مصدر ، والمصادر لا تُثنّى ولا تجمع ، وقيل : أراد سمع كل واحد منهم كما يُقال : آتنى برأس كبشين ، أراد برأس كل واحد منهما ، قال الشاعر :

كلوا فى نصف بطنكم تعيشوا فإن زمانكم زمن خميص

وقال سيبويه : توحيد السمع يدل على الجمع لأنه لا توحيد جمعين كقوله تعالى : ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ (البقرة : ٢٥٧) يعنى الأنوار .

قال الراعى :

بها جيف الحسرى فأما عظامها فبيض وأما جلدها فصليب

وقرأ ابن عبلة : وعلى أسماعهم ، وتم الكلام عند قوله ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ .

ثم قال : ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ : أى غطاء وحجاب ، فلا يرون الحق ، ومنه غاشية السرج ، وقرأ المفضل بن محمد الضبى : ﴿غِشَاوَةً﴾ بالنصب كأنّه أضمر له فعلاً أو جملة على الختم : أى وختم على أبصارهم غشاوة . يدل عليه قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ (الجاثية : ٢٣) .

وقرأ الحسن : ﴿غُشَاوَةٌ﴾ بضم الغين ، وقرأ الخدرى : ﴿غَشَاوَة﴾ بفتح الغين ، وقرأ

أصحاب عبد الله : غشوة بفتح الغين من غير ألف .

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ : القتل والأسر في الدنيا ، والعذاب الأليم في العقبى ، والعذاب كلّ ما يعنّي الإنسان ويشقّ عليه ، ومنه : عذبة السوط ما فيها من وجود الألم ، وقال الخليل : العذاب ما يمنع الانسان من مراده ، ومنه : الماء العذب لأنه يمنع من العطش ، ثم نزلت في المنافقين : عبد الله بن أُبى بن سلول الخزرجي ، ومعتب بن بشر ، وجدّ بن قيس وأصحابهم حين قالوا : تعالوا إلى خلة نسلم بها من محمد وأصحابه ونكون مع ذلك مستمسكين بديننا ، فأجمعوا على أن يقرّوا كلمة الإيمان بألسنتهم واعتقدوا خلافها وأكثرهم من اليهود. فقال الله :

❖ ❖ ❖

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ۝١٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۝١٣ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝١٤ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ۝١٦﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا﴾ : صدّقنا بالله ﴿وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ : أي يوم القيامة .

قال الله تعالى : ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ والناس : هم جماعة من الحيوان المتميّز بالصورة الإنسانية ، وهو جمع إنسان ، وإنسان في الأصل إنسيان بالياء ، فأسقطوا الياء منه ونقلوا حركته إلى السين فصار إنسانًا ؛ ألا ترى إنّك إذا صغرته رددت الياء إليه فقلت : أنيسيان ، واختلف العلماء في تسميته بهذا الاسم : فقال ابن عباس : سمى إنسانًا لأنه عُهِدَ إليه فنسى . قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ﴾ (طه : ١١٥) ، وقال الشاعر :

❖ وسُمّيتَ إنسانًا لأنك ناسى ❖

وقال بعض أهل المعاني : سُمّى إنسانًا لظهوره وقدس البصير إياه من قولك : آنست كذا :

أى أبصرت. فقال الله تعالى: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ (القصص: ٢٩) وقيل: لأنه استأنس به، وقيل: لما خلق الله آدم آنسه بزوجته فسمّى إنسانًا.

﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾: أى يخالفون الله ويكذّبونه، وأصل الخدع فى اللغة: الإخفاء، ومنه قيل (للبيت الذى يُحيا فيه المتاع) مُخدع، والمخادع يظهر خلاف ما يُضمر، وقال بعضهم: أصل الخداع فى اللغة: الفساد، قال الشاعر:

أبيض اللون لذيذٌ طعمـــه طيّب الرّيق إذا الريق خدع

أى فسد.

فيكون معناه: ليفسدون بما أضمروا بأنفسهم وبما أضمروا فى قلوبهم، وقيل معناه: يخادعون الله بزعمهم وفى ظنّهم، يعنى أنهم اجترؤوا على الله حتى إنهم ظنّوا أنهم يخادعون، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ (طه: ٩٧) يعنى بظنّك وعلى زعمك.

وقيل: معناه يفعلون فى دين الله ما هو خداع فيما بينهم. وقيل: معناه يخادعون رسوله، كقوله ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ (الزخرف: ٥٥) أى أسخطونا، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾ (الأحزاب: ٥٧) أى أولياء الله؛ لأن الله سبحانه لا يؤذى ولا يخادع، فبيّن الله تعالى أنّ من آذى نبيًا من أنبيائه ووليًا من أوليائه استحق العقوبة كما لو آذى رسوله وخادعه. يدل عليه الخبر المروى: إن الله تعالى يقول: من آذى وليًا من أوليائى فقد بارزنى بالمحاربة.

وقيل: إنّ ذكر الله سبحانه فى قوله: ﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ تحسين وتزيين لسامع الكلام، والمقصد بالمخادعة للذين آمنوا كقوله تعالى: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ (الأنفال: ٤١). ثم المخادعة على قدر المعاجلة وأكثر المفاضلة إنّما تجىء فى الفعل المشترك بين اثنين، كالمقاتلة والمضاربة والمشاتمة، وقد يكون أيضًا من واحد كقولك: طارقت النعل، وعاقبت اللصّ، وعافاك الله، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ (الأعراف: ٢١) وقال: ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ (التوبة: ٣٠) والمخادعة ها هنا عبارة عن الفعل الذى يختص بالواحد فى حين الله تعالى لا يكون منه الخداع.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أى ويخادعون المؤمنين بقولهم إذا رأوهم: آمنا، وهم غير مؤمنين، وقال بعضهم: من خداعهم المؤمنين: هو أنّهم كانوا يجالسون المؤمنين ويخالطونهم حتى يأنس بهم المؤمنون ويعدّونهم من أنفسهم فيبثون إليهم أسرارهم فينقلونها إلى أعدائهم. قال الله تعالى:

﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ لأن وبال خداعهم راجع إليهم كأنهم فى الحقيقة يخدعون

أنفسهم؛ وذلك أنّ الله تعالى لمطلع نبيّه محمداً ﷺ على أسرارهم ونفاقهم، فيفتضحون فى الدنيا ويستوجبون العقاب الشديد فى العقبى.

قال أهل الإشارة: إنما يخادع من لا يعرف البواطن، فأما من عرف البواطن فإنّ مَن خادعه فإنما يخدع نفسه.

واختلف القرّاء فى قوله: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾ فقرأ شيبة ونافع وابن كثير وابن أبى إسحاق وأبو عمرو بن العلاء: ﴿يُخَـٰدِعُونَ﴾ بالألف جعلوه من المفاعلة التى تختص بالواحد، وقد ذكرنا خبره وتصديقها الحرف الأول، وقوله: ﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ لم يختلفوا فيه إلاّ ما روى عن أبى حمزة الشامى أنه قرأ: (يخدعون الله) وقرأ الباقون ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾ على أشهر اللغتين وأضبطهما واختاره أبو عبيد.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ وما يعلمون أنها كذلك.

﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شكّ ونفاق، ومنه يُقال: فلان يمرض فى الوعد إذا لم يُصححه، وأصل المرض: الضّعف والفتور. فسمّى الشك فى الدّين والنفاق (مرض به) يضعف البدن وينقص قواه؛ ولأنه يؤدى إلى الهلاك بالعذاب، كما أن المرض فى البدن يؤدى إلى الهلاك والموت.

﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ شكًا ونفاقًا وهلاكًا.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وجيع يخلص وجعه إلى قلوبهم، وهو بمعنى مؤلم كقول عمرو بن معدى كرب:

زمن ريحانة الداعى السميع   يؤرّقنى وأصحابى هجوع

أى المسمع: يعنى خيالها.

﴿بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾: (ما) مصدرية، أى بتكذيبهم على الله ورسوله فى السرّ.

وقرأ أهل الكوفة: بفتح الياء وتخفيف الذال، أى بكذبهم إذ قالوا آمنا وهم غير مؤمنين.

﴿وَإِذَا﴾: حرف توقيت بمعنى حينئذ، وهى تؤذن بوقوع الفعل المنتظر وفيها معنى الجزاء، ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مجهول، وكان فى الأصل قول مثل قيل، فاستثقلت الكسرة على الواو فنقلت كسرتها إلى فاء الفعل فانقلبت الواو ياءً لكسرة ما قبلها، هذه اللغة العالية وعليها العامة وهى اختيار أبى عبيد.

وقرأ الكسائى ويعقوب: قُيل، وغُيض، وحُيل، وسُيق، وجُىء، وشُىء وشُيت بإشمام الضمّة فيها لتكون دالة على الواو المنقلبة، وفاصلة بين الصّدر والمصدر.

﴿لَهُمْ﴾: يعنى المنافقين، وقيل: اليهود. قال لهم المؤمنون: ﴿لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالكفر

والمعصية وتفريق الناس عن الإيمان بمحمد والقرآن، وقال الضحّاك: تبديل الملّة وتغيير السّنة وتحريف كتاب الله.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ ﴿أَلَآ﴾: كلمة تنبيه ﴿إِنَّهُمۡ هُمُ﴾: عماد وتأكيد ﴿ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾: ما أُعدّ لهم من العذاب.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ﴾ يعنى: (قال) المؤمنون لليهود: ﴿ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ وهم عبد الله بن سلام وغيره من مؤمنى أهل الكتاب.

﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ الجهّال. قال الله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ بأنهم كذلك، وقيل: لا يؤدون العلم حقّه، وقال المؤرّخ: السفيه: البهّات الكذّاب المتعمّد لخلاف ما يعلم.

قُطْرُب: السفيه: العجول الظلوم يعمل خلاف الحق.

واختلف القرّاء فى قوله: ﴿ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ﴾ فحقّق بعضهم الهمزتين، وهو مذهب أهل الكوفة ولغة تميم.

وأما أبو عمرو وأهل الحجاز فإنّهم همزوا الأولى ولـيّنوا الثانية؛ طلبًا للخفّة، واختار الفرّاء حذف الأولى وهمز الثانية، واحتج بأن ما يستأنف ـ أى بالهمزة ـ مما يسكت عليه. ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

قال جويبر عن الضحّاك عن ابن عباس قال: كان عبد الله بن أُبىّ ابن سلول الخزرجى عظيم المنافقين من رهط سعد بن عبادة، وكان إذا لقى سعداً قال: نعم الدينُ دين محمد، وكان إذا رجع إلى رؤساء قومه. قالوا: هل نكفر؟ قال: شدّوا أيديكم بدين آبائكم. فأنزل الله هذه الآية.

وروى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس: نزلت هذه الآية فى عبد الله بن أُبىّ محتجًا به، وذلك أنهم خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقال عبد الله بن أُبىّ لأصحابه: انظروا كيف أدرأ هؤلاء السُّفهاء عنكم. فذهب وأخذ بيد أبى بكر فقال: مرحبًا بالصّدّيق سيّد بنى تيم وشيخ الإسلام وثانى رسول الله ﷺ فى الغار، والباذل نفسه وماله له. ثمَّ أخذ بيد عمر فقال: مرحبًا بسيّد بنى عدى بن كعب الفاروق القوى فى دين الله الباذل نفسه وماله لرسول الله، ثمَّ أخذ بيد على فقال: مرحبًا بابن عم رسول الله وختنه سيّد بنى هاشم ما خلا رسول الله ﷺ فقال على: كف لله واتق الله ولا تنافق، فإنّ المنافقين شر خليقة الله، فقال له عبد الله: مهلاً أبا الحسن إلىّ تقول هذا، والله إنّ إيماننا كإيمانكم وتصديقنا كتصديقكم ثمَّ

افترقوا، فقال عبد الله لأصحابه: كيف رأيتمونى فعلتُ، فإذا رأيتموهم فافعلوا كما فعلت. فأثنوا عليه خيراً، وقالوا: لا نزال معك ما عشت، فرجع المسلمون إلى النبى ﷺ وأخبروه بذلك، فأنزل الله ﴿وَإِذَا لَقُوا﴾ أى رأوا، يعنى المنافقين عبد الله بن أُبى وأصحابه، كان (لَقوا) فى الأصل (لُقيوا) فاستثقلت الضمة على الياء فبسطت على القاف وسكنت الواو والياء ساكنة فحذفت لاجتماعهما.

وقرأ محمد بن السميقع: وإذا لاقوا وهما بمعنى واحد.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾: يعنى أبا بكر وأصحابه ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ كإيمانكم. ﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾ رجعوا، ويجوز أن تكون من الخلوة، تقول: خلوتُ به وخلوتُ إليه، وخلوتُ معهُ، كلها بمعنى واحد.

وقال النضر بن شميل: ﴿إِلَى﴾ ها هنا بمعنى (مع) كقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٧): أى مع نسائكم، وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ (النساء: ٢). وقوله: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ (آل عمران: ٥٢) النابغة:

ولا تتركنّى بالوعيـــد كأننى إلى الناس مطلىٌّ به القار أجربُ

أى مع الناس.

وقال آخر:

ولوح ذراعين فى بركـة إلى جؤجؤ رهل المنكب

أى مع جؤجؤ.

﴿إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾: أى رؤساؤهم وكبراؤهم وقادتهم وكهنتهم.

قال ابن عباس: هم خمسة نفر من اليهود، ولا يكون كاهن إلاّ ومعه شيطان تابع له: كعب ابن الأشرف بالمدينة، وأبو بردة فى بنى أسلم، وعبد الله فى جهينة، وعوف بن عامر فى بنى أسد، وعبد الله بن السَّوداء بالشام.

والشيطان: المتمرد العاصى من الجن والإنس، ومن كل شىء، ومنه قيل: للحيّة النضناض: الشيطان، قال الله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ (الصافات: ٦٥) أى الحيات، وتقول العرب: اتّق تلك الدابة فإنّها شيطان.

وفى الحديث: «إذا مرَّ الرجل بين يدى أحدكم وهو يتمطى فليمنعه فإن أبى فليقاتله فإنّه شيطان».

وروى عن النبى ﷺ: أنّه نظر إلى رجل يتبع حماماً طائراً فقال: «شيطان يتبع شيطانًا».

أراد الراعى الخبيث الداعى .

ويُحكى عن بعضهم أنه قال فى تضاعيف كلامه : وكل ذلك حين ركبنى شيطان قيل له : وأى الشياطين ركبك؟ قال : الغضب .

وقال أبو النجم :

إنّى وكل شـاعر من البشر ... شيطانه أنثى وشيطانى ذكر

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ أى على دينكم وأنصاركم .

﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ بمحمد وأصحابه .

﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أى يجازيهم جزاء استهزائهم ، فسُمّى الجزاء باسم الابتداء إذ كان مثلهُ فى الصورة كقوله : ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ (الشورى : ٤٠) فسُمّى جزاء السيئة سيئة .

وقال عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلنْ أحـد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقال آخر :

نجازيهمُ كيل الصـواع بما أتوا ... ومن يركب ابن العمّ بالظلم يُظلم

فسمّى الجزاء ظلمًا .

وقيل : معناه : الله يوبّخهم ويعرضهم ويُخطّئ فعلهم ؛ لأنّ الاستهزاء والسخرية عند العرب العيب والتجهيل ، كما يُقال : إنّ فلانًا يُستهزأ به منذ اليوم ، أى يُعاب . قال الله ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ (النساء : ١٤٠) أى تُعاب ، وقال إخبارًا عن نوح عليه السلام : ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ (هود : ٣٨) .

وقال الحسن : معناه : الله يُظهر المؤمنين على نفاقهم .

وقال ابن عباس : هو أن الله يُطلع المؤمنين يوم القيامة وهم فى الجنة على المنافقين وهم فى النار ، فيقولون لهم : أتحبّون أن تدخلوا الجنة ، فيقولون : نعم ؛ فيفتح لهم باب من الجنة ، ويُقال لهم : ادخلوا فيسبحون ويتقلبون فى النار ، فإذا انتهوا إلى الباب سدّ عليهم ، وردّوا إلى النار ويضحك المؤمنون منهم ، فذلك قوله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾ (المطففين : ٢٩) إلى قوله : ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ (المطففين : ٣٤) .

الأعمش عن خيثمة عن عدى بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ : «يؤمر بفئام من الناس إلى الجنة ، حتى إذا دنوا منها ووجدوا رائحتها ونظروا إلى ما أعدَّ الله فيها لأهلها من الكرامة ، نودوا : أن اصرفوهم عنها . قال : ويرجعون بحسرة وندامة لم يرجع الخلائق بمثلها . فيقولون :

يا ربّنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا كان أهون علينا . فيقول الله جل جلاله : هذا الذى أردت بكم هبتم الناس ولم تهابونى وأجللتم الناس ولم تجلّونى وكنتم تراؤون الناس بأعمالكم خلاف ما كنتم تروننى من قلوبكم . فاليوم أُذيقكم من عذابى مع ما حرمتكم من ثوابى» .

وقيل : هو خذلانه إياهم وحرمانهم التوفيق والهداية .

وهو قوله فيما بعد : ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ يتركهم ، ويمهلهم ويُطيل لهم ، وأصله : الزيادة ، ويُقال : مدّ النهر ، ومدّة : زمن آخر .

وقرأ ابن محيصن وشبل : (ويُمدهم) بضم الياء وكسر الميم وهما لغتان بمعنى واحد ؛ لأنّ المد أكثر ما يأتى فى الشر والإمداد فى الخير . قال الله عزّ وجلّ فى المد : ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدًّا﴾ (مريم : ٧٩) ، وقال فى الإمداد : ﴿وَأَمۡدَدۡنَـٰكُم بِأَمۡوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ (الإسراء : ٦) وقال : ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝﴾ (المؤمنون : ٥٥) ، وقال : ﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ (نوح : ١٢) .

﴿فِى طُغۡيَـٰنِهِمۡ﴾ كفرهم وضلالتهم وجهالتهم ، وأصل الطغيان : مجاوزة القدر ، يقال : ميزان فيه طغيان ، أى مجاوزة للقدر فى الاستواء . قال الله تعالى : ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾ (الحاقة : ١١) أى جاوز حدّه الذى قدّر له ، وقال لفرعون : ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ (طه : ٢٤) أى أسرف فى الدعوى حينما قال : ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝﴾ (النازعات : ٢٤) .

﴿يَعۡمَهُونَ﴾ يمضون ، يترددون فى الضلالة متحيرين .

يُقال : عمه يعمه عمهًا وعموهًا ، وعمها فهو عمه ، وعامه : إذا كان جائرًا عن الحق . قال رؤبة :

ومَهْمَـــه أَطْرافُهُ فى مَهْمَـه … أعمى الهُدى بالجاهلين العُمَّه

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ :

قال ابن عباس : أخذوا الضلالة وتركوا الهُدى ، ومعناه : أنهم استبدلوا الكفر على الإيمان ، وإنّما أخرجه بلفظ الشّرى والتجارة توسّعًا ؛ لأن الشرى والتجارة راجعان إلى الاستبدال والاختيار ؛ وذلك أنّ كل واحد من البيعين يختار ما فى يدى صاحبه على ما فى يديه ، وقال الشاعر :

أخـذتُ بالجُمَّة رأسًا إزْعَرَا … وبالثنايا الواضحات الدُّرْدُرَا

وبالطويل العُمْر عمرًا جيدَرا … كما اشترى المَسلم إذ تنصرّا

أى اختار النصرانية على الإسلام .

وقرأ يحيى بن يعمر وابن أبى إسحاق: ﴿ٱشْتَرَوِا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ﴾ بكسر الواو؛ لأنّ الجزم يُحرّك إلى الكسرة العدوى بفتحها حركة إلى أخف الحركات.

﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ﴾: أى فما ربحوا فى تجارتهم.

تقول العرب: ربح بيعك، وخسرت صفقتك، ونام ليلك. أى ربحت وخسرت فى بيعك، ونمت فى ليلك.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ (محمد: ٢١)، وقال: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ (سبأ: ٣٣).

قال الشاعر:

وأعور من نيهان أمّا نهاره ... فأعمى وأمّا ليله فبصير

وقال آخر:

حارثُ قد فرّجت عنّى همّى ... فنـــام ليــلى وتجلّى غمّى

وقرأ إبراهيم بن أبى عبلة: (فما ربحت تجاراتهم) بالجمع.

﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾: من الضلالة، وقال: مصيبين فى تجاراتهم.

قال سفيان الثورى: كلكم تاجر فلينظر امرؤ ما تجارته؟ قال الله: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ﴾ وقال ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الصف: ١٠).

❖ ❖ ❖

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَـٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ۝ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾

﴿مَثَلُهُمْ﴾ شبههم. ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى﴾ بمعنى الذين، دليله سياق الآية نظير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ ثم قال ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾(الزمر: ٣٣).

وقال الشاعر:

وأنّ الذى حانت بفلج دماؤهم ... هم القوم كلّ القوم يا أُمّ خالد

﴿ٱسْتَوْقَدَ﴾: أوقد نارًا كما يُقال: أجاب واستجاب.

قال الشاعر:

وداع دعانا من يجيب إلى النّدى فلم يستجبه عند ذاك مجيب

﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ﴾ النار ﴿مَا حَوۡلَهُۥ﴾ يقال: ضاء القمر يضوء ضوءًا، وأضاء يضىء إضاءةً وأضاء غيره: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ﴾ النار يكون لازمًا ومتعدّيًا.

وقرأ محمد بن السميقع (ضاءت) بغير ألف. و(حوله) نصب على الظرف.

﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ أى أذهب الله نورهم، وإنما قال: (بنورهم) والمذكور فى أوّل الآية النار؛ لأن النار شيئان النّور والحرارة فذهب نورهم وبقيت الحرارة عليهم.

﴿وَتَرَكَهُمۡ فِى ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾: قال ابن عباس وقتادة والضحّاك ومقاتل والسدى: نزلت هذه الآية فى المنافقين. يقول: مثلهم فى كفرهم ونفاقهم كمثل رجل أوقد نارًا فى ليلة مظلمة فى مفازة فاستضاء بها فاستدفأ ورأى ما حوله فاتّقى ما يحذر ويخاف فأمن، فبينا هو كذلك إذ طفئت ناره فبقى مظلمًا خائفًا متحيّرًا، كذلك المنافقون إذا أظهروا كلمة الإيمان استناروا بنورها واعتزّوا بعزّها وناكحوا المسلمين ووارثوهم وقاسموهم الغنائم وأمنوا على أموالهم وأولادهم، فإذا ماتوا عادوا إلى الخوف والظلمة وهووا فى العذاب والنقمة.

وقال مجاهد: إضاءة النار: إقبالهم إلى المسلمين والهدى، وذهاب نورهم إقبالهم إلى المشركين والضّلالة.

سعيد بن جبير ومحمد بن كعب وعطاء، ويمان بن رئاب: نزلت فى اليهود وانتظارهم خروج النبى ﷺ وإيمانهم به واستفتاحهم به على مشركى العرب، فلمّا خرج كفروا به، وذلك بأنّ قريظة والنضير وبنو قينقاع قدموا من الشام إلى يثرب حتى انقطعت النبوة من بنى إسرائيل وأفضت إلى العرب، فدخلوا المدينة يشهدون لمحمد ﷺ بالنبوة وأنّ أمّته خير الأمم وكان يغشاهم رجل من بنى إسرائيل يقال له: عبد الله بن هيبان قبل أن يوحى إلى رسول الله ﷺ كلّ سنة فيعظهم على طاعة الله تعالى وإقامة التوراة والإيمان بمحمد ﷺ رسول الله إذا خرج: فلا تفرّقوا عنه وانصروه وقد كنت أطمع أن أدركه، ثم مات قبل خروج النبى ﷺ فقبلوا منه، ثم لمّا خرج رسول الله ﷺ كفروا به فضرب الله لهم هذا المثل.

وقال الضحاك: لمّا أضاءت النار أرسل الله عليها ريحًا قاصفًا فأطفأها، فكذلك اليهود كلما أوقدوا نارًا لحرب محمد ﷺ أطفأها الله.

ثم وصفهم جميعًا فقال: ﴿صُمُّۢ﴾: أى هم صمٌّ عن الهدى فلا يسمعون.

﴿بُكۡمٌ﴾: عنه فلا يقولون.

﴿عُمۡىٞ﴾: عنه فلا يرونه.

وقيل: ﴿صُمٌّ﴾ يتصاممون عن سماع الحقّ، ﴿بُكْمٌ﴾ يتباكمون عن قول الحقّ، ﴿عُمْيٌ﴾ يتعامون عن النظر إلى الحق بغير اعتبار.

وقرأ عبد الله: (صمّا بكمًا عميًا) على معنى وتركهم كذلك، وقيل: على الذّم، وقيل: على الحال.

﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ عن الضلالة والكفر إلى الهداية والإيمان.

ثم قال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ هذا مثل آخر ضربه الله لهم أيضًا معطوف على المثل الأوّل مجازه: مثلهم كمثل الذى استوقد نارًا ومثلهم أيضًا كصيّب.

قال أهل المعانى: (أو) بمعنى الواو، يريد وكصيّب، كقوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ (البقرة:١٠٨). وأنشد الفرّاء:

وقد زعمت سلمى بأنّى فاجر ... لنفسى تقاها أو عليها فجورها

وأنشد أبو عبيدة:

بصيب قد راح يروى الغُدُرا ... (فاستوعب) الأرض لمّا أن سرا

وأصله من صاب يصوب صوبًا إذا نزل.

قال الشاعر:

فلست لأنسى ولكن لملاك ... تنزّل من جوّ السماء يصوب

وقال امرؤ القيس:

كأن المدام وصوب الغمام ... وريح الخزامى ونشر القطر

فسمّى المطر صيبًا لأنّه ينزل من السماء.

واختلف النّحاة فى وزنه من الفعل، فقال البصريون: هو على وزن فيعل بكسر العين، ولا يوجد هذا المثال إلاّ فى المعتل نحو سيّد وميّت وليّن وهيّن وضيّق وطيّب، وأصله صهيوب، فجعلت الواو ياء فأُدغمت إحدى اليائين فى الأُخرى.

وقال الكوفيون: هو وأمثاله على وزن فعيل بكسر العين وأصله: صَيِيْب فاستثقلت الكسرة على الياء فسُكّنت وأدغمت إحداهما فى الأخرى وحرّكت إلى الكسر.

والسماء: كلّ ما علاك فأظلك وأصله: سماو؛ لأنه من سما يسمو، فقلبت الواو همزة لأنّ الألف لا تخلو من مدّة وتلك المدّة كالحركة، وهو من أسماء الأجناس، يكون واحدًا أو جمعًا، قال الله: ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ (البقرة:٢٩) ثم قال: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ (البقرة:٢٩).

وقيل: هو جمع واحدتها سماوة، والسموات جمع الجمع.

قال الرّاجز:

سماوة الهلال حتى احقوقفا طى الليـــالى زلفا فزلفا

﴿فِيهِ﴾ أى فى الصيّب، وقيل: فى الليل كناية عن (ضمير) مذكور، وقيل: فى السماء؛ لأنّ المراد بالسماء السّحاب، وقيل: هو عائد إلى السماء على لغة من يذكرها.

قال الشاعر:

فلو رفع السمـــاء إليه قومًا لحقنا بالسماء مع السّحاب

والسماء يذكّر ويؤنّث. قال الله تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ (المزمل: ١٨). وقال: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ (الانفطار: ١).

﴿ظُلُمَـٰتٌ﴾: جمع ظلمة، وضُمّت اللام على الإتباع بضمّ الظاء.

وقرأ الأعمش: (ظُلْمات) بسكون اللام على أصل الكلام لأنّها ساكنة فى التوحيد.

كقول الشاعر وهو ذو الرّمّة:

أبتْ ذكر مَنْ عوّدن أحشاء قلبـه خفوقًا ورفصات الهوى فى المفاصل

ونزّل الفاء ساكنة على حالها فى التوحيد.

وقرأ أشهب العقيلى: (ظلمات) بفتح اللام، وذلك أنّه لمّا أراد تحريك اللام حرّكها إلى أخفّ الحركات.

كقول الشاعر:

فلمّـــا رأونـــا باديًا ركباتنـــا على موطن لا نخلط الجدّ بالهزل

﴿وَرَعْدٌ﴾: وهو الصوت الذى يخرج من السحاب.

﴿وَبَرْقٌ﴾: وهو النار الذى تخرج منه.

قال مجاهد: الرعد ملك يسبّح بحمده، يقال لذلك الملك: رعد، والصّريم أيضًا رعد.

والبرق: ملك يسوق السحاب.

وقال عكرمة: الرعد ملك موكّل بالسحاب يسوقها كما يسوق الراعى الإبل.

شهر بن حوشب: الرعد ملك يزجى السحاب كما يحثّ الراعى الإبل فإذا انتبذت السحاب ضمّها فإذا اشتدّ غضبه طار من فيه النار فهى الصواعق.

ربيعة بن الأبيض عن على عليه السلام قال: البرق مخاريق الملائكة.

وقال أبو الدرداء: الرعد للتسبيح، والبرق للخوف والطمع، والبرد عقوبة، والصواعق للخطيئة والجراد رزق لقوم وزجر لآخرين، والبحر بمكيال، والجبال بميزان.

وأصل البرق من البريق والضوء، والصواعق: المهالك، وهو جمع صاعقة، والصاعقة والصاقعة والصّعقة: المهلكة، ومنه قيل: صعق الإنسان، إذا غشىَ عليه، وصعق، إذا مات.

﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ أى مخافة الموت، وهو نصب على المصدر، وقيل لنزع حرف الصفة.

وقرأ قتادة: حذار الموت.

﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أى عالم بهم، يدل عليه قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ (الطلاق: ١٢).

وقيل: معناه: والله مهلكهم وجامعهم، دليله قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ (يوسف: ٦٦): أى تهلكوا جميعًا.

وأمال أبو عمرو والكسائى (الكافرين) فى حال الخفض والنّصب ولكسرة الفاء والراء.

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ﴾ أى يقرب. يقال: كاد، أى قرب ولم يفعل، والعرب تقول: كاد يفعل - بحذف أن - فإذا سبّبوه بقى قالوا: كاد أن يفعل، والأوّل أوضح وأظهر. قال الشاعر:

❖ قد كاد من طول البلى أن تمسحا ❖

﴿يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾: أى يخطفها ويشغلها، ومنه الخطّاف.

وقرأ أُبىّ: يتخطف.

وقرأ ابن أبى إسحاق: نصب الخاء والتشديد (يخطّف) فأدغم. وقرأ الحسن: كسر الخاء والطّاء مع التشديد أتبع الكسرة الكسرة.

وقرأ العامة: التخفيف لقوله: ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ (الحج: ٣١) وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ (الصافات: ١٠).

﴿كُلَّمَآ﴾: حرف علة ضمّ إليه (ما) الجزاء فصار أداة للتكرار، وهى منصوبة بالظرف، ومعناهما: متى ما.

﴿أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾: وفى حرف عبد الله . . . [1].

﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾: أى أقاموا ووقفوا متحيّرين.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

القول فى معنى الآيتين ونظمهما وحكمهما

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ أى كأصحاب صيّب، كقوله: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ (يوسف: ٨٢) شبههم الله فى كفرهم ونفاقهم وحيرتهم وتردّدهم بقوم كانوا فى مفازة فى ليلة مظلمة فأصابهم مطر فيه ظلمات من صفتها أنّ السارى لا يمكنه المشى من ظلمته، فذلك قوله: ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾.

ورعد من صفته أن يضع السامع يده إلى أذنه من الهول والفرق مخافة الموت والصعق، ذلك قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾.

وبرق من صفته أنْ يقرب من أن يخطف أبصارهم ويذهب بضوئها ونعيمها من كثرته وشدّة توقّده، وذلك قوله: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾.

وهذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن وإجماع الناس والكافرين معه:

فالمطر: هو القرآن لأنه حياة الجنان كما أن المطر حياة الأبدان.

﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ﴾ وهو ما فى القرآن من ذكر الكفر والشرك والشك وبيان الفتن والمحن.

﴿وَرَعْدٌ﴾: وهو ما خوّفوا به من الوعيد وذكر النار والزّواجر والنواهى.

﴿وَبَرْقٌ﴾: وهو ما فى القرآن من الشفاء والبيان والهدى والنّور والوعد وذكر الجنة.

فكما أنّ أصحاب الرعد والبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم حذر الموت كذلك المنافقون واليهود والكافرون يسدون آذانهم عند قراءة القرآن ولا يصغون إليه مخافة ميل القلب إلى القرآن فيؤدّى ذلك إلى الإيمان؛ لأنّ الإيمان بمحمد ﷺ عندهم كفر والكفر موت.

وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله للمنافق لجبنه، لا يسمع صوتًا إلاّ ظنّ أنه قد أُتى ولا يسمع صياحًا إلاّ ظنّ أنه ميّت أجبن قوم وأخذله للحق كما قال فى آية أخرى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ (المنافقون: ٤).

وقوله: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ يعنى المنافقين إذا أظهروا كلمة الإيمان أمنوا وصارت لهم نوراً فإذا ماتوا عادوا إلى الخشية والظلمة.

قتادة: والمنافق إذا كثر ماله وحَسُن حاله وأصاب فى الإسلام رخاءً وعافية ثبت عليه فقال: أنا معكم، وإذا ذهب ماله وأصابته شدّة، قام متحيراً وخفق عندها فلم يصبر على بلائها ولم يحتسب أجرها. وتفسيره فى سورة الحجّ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ (الحج: ١١) الآية.

الوالبى عن ابن عباس : هم اليهود لما نصر رسول الله ﷺ ببدر طمعوا وقالوا : هذا والله النبى الذى بشّرنا به موسى لا تردّ له راية ، فلمّا نكب بأُحد ارتدّوا وسكتوا .

﴿وَلَوْ﴾ : حرف تمنّى وشك وفيه معنى الجزاء وجوابه اللام .

ومعنى الآية : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ : أى أسماعهم وأبصارهم الظاهرة كما ذهب بأسماعهم وأبصارهم الباطنة حتى صاروا صمًّا بكمًا عميًا .

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قادر ، وكان حمزة يكسر شاء ، وجاء وأمثالها لانكسار فاء الفعل ، إذا أخبرت عن نفسك قلت : شئت وجئت وزدّت وطبت وغيرها .



﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ : قال ابن عباس : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ خطاب أهل مكة ، و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خطاب أهل المدينة ، وهو هاهنا عام .

﴿اعْبُدُوا﴾ وحّدوا وأطيعوا . ﴿رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أوجدكم وأنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئًا . ﴿وَالَّذِينَ﴾ أى وخلق الذين ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ : لكى تنجوا من السُّحت والعذاب .

قال سيبويه : لعل وعسى حرفا ترج وهما من الله . . . . (١) .

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ بساطًا ومقامًا ومنامًا . ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ سقفًا مرفوعًا محفوظًا .

﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ : من السحاب . ﴿مَاءً﴾ وهو المطر ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ من ألوان

(١) بياض بالأصل المخطوط .

الثمرات وأنواع النبات . ﴿رِزْقًا﴾ طعامًا . ﴿لَّكُمْ﴾ وعلفًا لدوابكم .

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أى أمثالاً (وأعدالاً) وقرأ ابن السميقع : نداً على الواحد ، كقول جرير :

أتيمـا تجعلـون إلىّ نداً وما تيم لذى حسب نديد

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنّه واحد وأنّه خالق هذه الأشياء .

قال ابن مسعود فى قوله : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ قال : أكفاء من الرجال تطيعوهم فى معصية الله .

وقال عكرمة : هو قول الرجل : لولا كلبنا لدخل اللص دارنا .

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ الآية نزلت فى الكفّار ، وذلك أنهم قالوا لما سمعوا القرآن : ما يشبه هذا كلام الله وإنّا لفى شكٍّ منه ، فأنزل الله تعالى ﴿وَإِن كُنتُمْ﴾ يا معشر الكفّار ، (وإن) لفظة جزاء وشرط ، ومعناه : إذ ؛ لأنّ الله تعالى علم أنهم شاكّون كقوله : ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران : ١٣٩) وقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝﴾ (البقرة : ٢٧٨) .

قال الأعشى :

بانت وقد أسفرت فى النفس حاجتها بعـد ائتلاف وخير الودّ ما نفعا

قال المؤرّخ : أصلها من السّورة وهى الوثبة : تقول العرب سرت إليه وثبت إليه .

قال العجاج :

وربّ ذى سرادق محجورٌ سرت إليه فى أعالى السّور

قال الأعشى :

وسمعت حلفتها التى حلفت إن كان سمعك غير ذى وقر

﴿فِي رَيْبٍ﴾ أى فى شك وتهمة .

﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمد يعنى القرآن .

﴿فَأْتُوا﴾ لم يأتوا بمثله ، لأنّ الله علم عجزهم عنه .

﴿بِسُورَةٍ﴾ أصلها فى قول بعضهم : من أسارت ، أى أفضلت فحذفت الهمزة كأنّها قطعة من القرآن ، وقيل : هى الدرجة الرفيعة ، وأصلها من سور البناء ، أى منزلة بعد منزلة . قال النابغة .

ألم تر أنّ الله أعطاك سورة ترى كل مُلْك دونها يتذبذب

﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ يعنى مثل القرآن ، و(من) صلة كقوله تعالى : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾

﴿وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ۝ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ﴾ (النور: ٣٠-٣١).

كقول النابغة:

ولا أرى ملكًا فى النـاس يشبهـه ولا أخا (لى) من الأقوام من أحد

أى أحدًا.

وقيل فى قوله: (مثله): راجعة إلى محمد ﷺ ومعناه: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ أى من رجل أُمّى لا يُحسن الخط والكتابة.

﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم﴾ يعنى استعينوا بآلهتكم التى تعبدونها من دون الله.

وقال مجاهد والقرظى: ناسًا يشهدون لكم.

وإنما ذكر الاستعانـة بلفظ الـدعاء على عادة العرب فى دعائهم القائل فى الحروب والشدائد: يالـ. . . .[1].

قال الشاعر:

فلمّا التقت فرساننا ورجالهم دعوا يا لكعب واعتزينا لعامر

﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ إنّ محمدًا أسرّ قوله من تلقاء نفسه، فلما تحدّاهم وعجزوا (قال الله تعالى): ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ﴾ أى فإن لم تجيئوا بمثل القرآن.

﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾: ولن تقدروا على ذلك.

وقيل ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ﴾ فيما مضى ﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ فيما بقى.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا﴾ حطبها وعلفها ﴿ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ قال الحسن ومجاهد: (وقودها) بضم الواو حيث كان وهو ردىء، لأن الوقود بضم الواو المصدر وهو الالتهاب، والوقود بالفتح وهو ما يوقد به النار كالظهور والبرود، ومثليهما ومثل الوَضوء والوُضوء.

وقرأ عبيد بن عمير: وقيدها الناس والحجارة.

قيل: تلك الحجارة (كجت الأرض النائية) مثل الكبريت يجعل فى أعناقهم إذا اشتعلت فيها النار أحرق توهجها وجوههم، فذلك قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ (الزمر: ٢٤).

اختلفوا فى الحجارة، فقال ابن عباس وأكثر المفسّرين: إنها حجارة الكبريت (الأسود وهى أشد الأشياء حرًا)، وقال حفص بن المعلى: أراد بها الأصنام لأن أكثر أصنامهم كانت معمولة

(١) بياض بالأصل المخطوط.

من الحجر، دليله قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ (الأنبياء: ٩٨).

وقيل: هى أن أهل النار إذا عيل صبرهم بكوا وشكو فتنشأ سحابة سوداء مظلمة فيرجون الفرج ويرفعون رؤوسهم إليهم فتمطرهم حجارة عظامًا كحجارة الرّحا، فتزداد النار اتّقادًا والتهابًا كنار الدنيا إذا زيد حطبها زاد لهيبها.

وقيل: ذكر الحجارة ها هنا تعظيمًا لأمر النار لأنها لا تأكل الحجارة إلاّ إذا كانت فظيعة وهائلة.

﴿أُعِدَّتْ﴾: خلقت وهُيئت للكافرين، وفى هذه الآية دليل على أنّ النار مخلوقة؛ لأنّ المعدَّ لا يكون إلاّ موجودًا.

﴿وَبَشِّرِ﴾ أى وأخبر.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وأصل التبشير: إيصال الخبر السار على (مسامع الناس) ويستبشر به، وأصله من البشرة؛ لأنَّ الإنسان إذا فرح بان ذلك فى وجهه وبشرته، ثمّ كثر حتى وضع موضع الخبر فيما (ساء وسرّ) قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (آل عمران: ٢١).

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ أى الخصال والفعلات ﴿ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ نعت لاسم مؤنث محذوف.

وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه فى ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾: معناه أخلصوا الأعمال، يدلّ عليه قوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا﴾ (الكهف: ١١٠) أى خالصًا لأن المنافق والمرائى لا يكون عمله خالصًا، وقال: أقاموا الصلوات المفروضات، دليله قوله تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ (البقرة: ٢٧٧).

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ (الأعراف: ١٧٠) من المسلمين.

وقال ابن عباس: عملوا الصالحات فيما بينهم وبين ربّهم، وقال: العمل الصالح يكون فيه أربعة أشياء: العلم، والنية، والصبر، والإخلاص.

وقال سهل بن عبد الله: لزموا السنّة؛ لأنّ عمل المبتدع لا يكون صالحًا.

وقيل: أدّوا الأمانة، يدل عليه قوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا﴾ (الكهف: ٨٢) أى أمينًا.

وقيل: تابوا، ودليله قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَـٰلِحِينَ﴾ (يوسف: ٩) أى التائبين.

﴿أَنَّ لَهُمْ﴾: محل (أن) نصب بنزع حرف الصّفة، أى بأنّ لهم.

﴿جَنَّـٰتٍ﴾: فى محل النصب فخفض لأنها جمع التأنيث، وهى جمع الجنّة وهى البستان،

سمّيت جنّة لاجتنانها بالأشجار.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾: أى من تحت شجرها ومساكنها. وقيل: بأمرهم، كقوله: ﴿وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ (الزخرف: ٥١) أى بأمرى.

والأنهار: جمع نهر، سمّى نهراً لسعته وضيائه ومنه النهار.

وأنشد أبو عبيدة:

ملكتُ بها كفّى فأنهرتُ فتقها ❖ يرى قائم من دونها ما وراءها

أى وسعتها، يصف طعنة.

وأراد بالأنهار المياه على قرب الجوار لأن النهر لا يجرى.

وقد جاء فى الحديث: «أنهار الجنّة تجرى فى غير أخدود».

﴿كُلَّمَا﴾ متى ما ﴿رُزِقُواْ﴾ أطعموا ﴿مِنْهَا﴾ من الجنّة ﴿مِن ثَمَرَةٍ﴾: أى ثمره، و(من) صلة.

﴿رِّزْقًا﴾ طعامًا. ﴿قَالُواْ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا﴾ أُطعمنا ﴿مِن قَبْلُ﴾: طعامهما، وقيل معناه: هذا الذى رزقنا من قبل، أى وعدنا الله فى الدنيا وهو قول عطاء، و(قبل) رفع على الغاية، قال الله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ (الروم: ٤).

﴿وَأُتُواْ﴾ وجيئوا ﴿بِهِۦ﴾ بالرزق.

قرأ هارون بن موسى: (وأتوا) بفتح الألف، أراد أتاهم الخدم به.

﴿مُتَشَـٰبِهًا﴾ اختلفوا فى معناه، فقال ابن عباس ومجاهد والربيع والسّدى: متشابهًا فى الألوان، مختلفًا فى الطعوم.

الحسن وقتادة: متشابهًا فى الفضل، خياراً كلّه؛ لأنّ ثمار الدنيا (تبقى) ويرذل منها، وإن ثمار الجنة لا يرذل منها شىء.

محمد بن كعب وعلى بن زيد: بمعنى يشبه ثمر الدنيا غير أنها أطيب.

وقال بعضهم: متشابهًا فى الاسم مختلفًا فى الطعم.

قال ابن عباس: ليس فى الجنة شىء ممّا فى الدنيا غير الأسماء.

﴿وَلَهُمْ فِيهَآ﴾ فى الجنّات. ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ نساء وجوار، يعنى الحور العين.

قال ثعلب: الزوج فى اللغة: المرأة والرجل، والجمع والفرد، والنوع واللون، وجميعها أزواج.

﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ من الغائط والبول والحيض والنفاس والمخاط والبصاق والقىء والمنى والولد وكل قذر ودنس.

وقال إبراهيم النخعى: فى الجنة جماع ما شئت ولا ولد.

وقيل: مطهّرة عن مساوئ الأخلاق.

وقال يمان: مطهّرة من الإثم والأذى.

قال النبى ﷺ: «إنّ أهل الجنة يأكلون ويشربون ولا يتفلون ولا يتغوّطون ولا يبولون ولا يتمخطون». قيل: فما بال الطعام؟ قال: «جشأ ورشح تجرى من أعرافهم كريح المسك يلهمون التسبيح والتهليل كما يلهمون النفس».

﴿وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ دائمون مقيمون لا يموتون فيها ولا يخرجون منها.

الحسن عن ابن عمر قال: سُئل رسول الله ﷺ عن الجنة: كيف هى؟

قال: «من يدخل الجنة يحيا ولا يموت وينعم ولا ييأس ولا تبلى ثيابه ولا شبابه».

قيل: يا رسول الله كيف بناؤها؟ قال: «لبنة من فضّة ولبنةٌ من ذهب، ملاطها مسك أذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران».

وقال يحيى بن أبى كثير: إنّ الحور العين لتُنادينّ أزواجهنّ بأصوات حسان، فيقلن: طالما انتظرناكم، نحن الراضيات الناعمات الخالدات، أنتم حبّنا ونحن حبّكم ليس دونكم مقصد ولا وراءكم معذر.

وقال الحسن فى هذه الآية: هنّ عجائزكم الغمض الرّمض العمش طُهّرن من قذرات الدنيا.



﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ هذه الآية نزلت فى اليهود، وذلك أنّ الله تعالى ذكر فى كتابه العنكبوت والذباب فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا﴾ (الحج: ٧٣) الآية.

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ (العنكبوت: ٤١) الآية، ضحكت اليهود وقالوا: ما هذا الكلام وماذا أراد الله بذكر هذه الأشياء الخبيثة فى كتابه وما يشبه هذا كلام الله، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ أى لا يترك ولا يمنعه الحياء أن يضرب مثلاً أن تصف للحق شبهًا. ﴿مَّا بَعُوضَةً﴾. (ما) صلة، وبعوضة نصب يدلّ على المثل.

﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾: ابن عباس يعنى الذباب والعنكبوت. وقال أبو عبيدة: يعنى فما دونها.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بمحمد والقرآن ﴿فَيَعْلَمُونَ﴾ يعنى أنّ هذا المثل هو ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ الصدق الصحيح. ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بمحمد ﷺ والقرآن. ﴿فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾: أى بهذا المثل. فلمّا حذف الألف واللام نصب على الحال والقطع والتمام، كقوله: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ (النحل: ٥٢).

فأجابهم الله تعالى فقال: أراد الله بهذا المثل ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا﴾ من الكافرين ذلك أنهم ينكرون ويكذّبونه ﴿وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ من المؤمنين يعرفونه ويصدّقون.

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الكافرين، وأصل الفسق: الخروج، قال الله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ (الكهف: ٥٠) أى خرج. تقول العرب: فسقت الرّطبة عن القشر، أى خرجت.

ثمّ وصفهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ﴾ أى يتركون ويخالفون، وأصل النقض: الكسر.

﴿عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ أمره الذى عَهِد إليهم يوم الميثاق بقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ (الأعراف: ١٧٢) وما عهد إليهم فى التوراة أن يؤمنوا بمحمد ﷺ (وضمّنه) نعته وصفته.

﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ توكيده وتشديده، وهو مفعال من الوثيقة.

﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ يعنى الأرحام، وقيل: هو الإيمان بجميع الرّسل والكتب، وهو نوع من الصّلة؛ لأنهم قالوا: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ (النساء: ١٥٠) فقطعوا، وقال المؤمنون: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٨٥) فوصلوا.

﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالمعاصى وتعويق الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ والقرآن.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: أى المغبونون بالعقوبة وفوت المثوبة، ثمّ قال: لمشركى مكة على التعجّب:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ﴾ واو الحال ﴿أَمْوَٰتًا﴾ نطفًا فى أصلاب آبائكم ﴿فَأَحْيَٰكُمْ﴾ فى الأرحام فى الدنيا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم. ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ للبعث. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تأتون فى الآخرة فيجزيكم بأعمالكم.

وقرأ يعقوب: ترجعون، وبيانه بفتح الأول وكسر الجيم جعل الفعل لهم.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم﴾ لأجلكم. ﴿مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أى قصد وعمد إلى خلق السماء.

﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ أى خلق سبع سموات مستويات بلا فطور ولا شطور ولا عمد تحتها ولا علامة فوقها. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾: عالم.



﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ يعنى: وقد قال، وقيل معناه: واذكر إذ قال ربّك، وكل ما ورد فى القرآن من هذا النحو فهذا سبيله.

و(إذ) و(إذا) حرفا توقيت، إلاّ أنّ (إذ) للماضى و(إذا) للمستقبل، وقد يوضع أحدهما موضع الآخر.

قال المبرّد: إذا جاء (إذ) مع المستقبل كان معناه ماضيًا نحو قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ﴾ (الأنفال: ٣٠)، ﴿وَإِذْ يَقُولُ﴾ (الأحزاب: ١٢) يريد وإذ مكر وإذ قال، و(إذا) إذ جاء مع الماضى كان

معناه مستقبلاً كقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ (النازعات: ٣٤) ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ (عبس: ٣٣) ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ (النصر: ١) أى يجىء، وقال الشاعر:

ثمّ جــزاه الله عنــا إذ جزا جنّات عدن والعلا إلى العلا

أى يجزيه.

﴿لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الذين كانوا فى الأرض، والملائكة: الرسل، واحدها ملك، وأصله: مالك، وجمعه: ملائكة، وهى من الملكة والمالكة والألوك الرسالة ويقال: ألكنى إلى فلان، أى كن رسولى إليه فقلبت، فقيل: ملاك. قال الشاعر:

فلســت لأنسىّ لكن لملاك تنزّل من جوّ السماء يصوب

ثمّ حذف الهمزة للخفّة وكثير استعماله فقيل: ملك.

قال النضر بن شميل فى الملك: إن العرب لا تشتق فعله ولا تصرفه، وهو مما فات علمه.

﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ أى بدلاً منكم ورافعكم إلىّ، سُمّى (خليفة) لأنه يخلف الذاهب ويجىء بعده، فالخليفة مَن يتولى إمضاء الأمر عن الآمر، وقرأ (زيد بن على): (خليقة) بالقاف.

قال المفسرون: وذلك أن الله تعالى خلق السماء والأرض وخلق الملائكة والجن، فأسكن الملائكة السماء، وأسكن الجنّ الأرض، فعبدوا دهرًا طويلاً فى الأرض ثم ظهر فيهم الحسد والبغى، فاقتتلوا وأفسدوا، فبث الله إليهم جندًا من الملائكة يُقال لهم: الجن، رأسهم عدو الله إبليس وهو خُزّان الجنان اشتق لهم اسم من الجنّة فهبطوا إلى الأرض، وطردوا الجنّ عن وجهها فألحقوهم بشعوب الجبال، وجزائر البحر، وسكنوا الأرض وخفف الله عنهم العبادة، وأحبّوا البقاء فى الأرض لذلك، وأعطى الله إبليس مُلك الأرض ومُلك سماء الدنيا وخزانة الجنان، فكان يعبد الله تارةً فى الأرض، وتارةً فى السماء، وتارة فى الجنة.

فلما رأى ذلك دخله الكبر والعُجب، وقال فى نفسه: أعطانى الله هذا الملك إلاّ لأنى أكرم الملائكة عليه، وأعظمهم منزلةً لديه؛ فلما ظهر الكبر جاء العزل، فقال الله له ولجنده: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ فلما قال لهم ذلك كرهوا؛ لأنّهم كانوا أهون فى الملائكة عبادة، ولأنّ العزل شديد.

﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ بالمعاصى. ﴿وَيَسۡفِكُ﴾ يصبّ ﴿ٱلدِّمَآءَ﴾ بغير حق.

فإن قيل: كيف علموا ذلك وهو غيب؟

والجواب عنه ما قال السّدى: لما قال الله لهم ذلك، قالوا: وما يكون من ذلك الخليفة؟

قال: تكون له ذرية، يفسدون في الأرض (ويتحاسدون) ويقتل بعضهم بعضًا. قالوا عند ذلك: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ ومعناه: فقالوا، فحذف فاء التنسيق. كقول الشاعر:

لما رأيت نبطا أنصارا شمّرتُ عن ركبتي الإزارا

كنتُ لهم من النّصارى جارا

أي فكنتُ لهم.

وقال أكثر المفسرين: أرادوا كما فعل بنو الجانّ قاسوا بالشاهد على الغائب، وقال بعض أهل المعاني: فيه إضمار واختصار معناه: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ أم تجعل فيها من لا يفسد ولا يُسفك الدماء؟ لقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ (الزمر: ٩) يعني كمن هو غير قانت، وهو اختيار الحسن بن الفضل.

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾. قال الحسن: يقولون: سبحان الله وبحمده، وهو صلاة الخلق وتسبيحهم وعليها يُرزقون. يدل عليه الحديث المروي عن أبي ذر أنه قال لرسول الله ﷺ: أي الكلام أفضل؟ قال: «ما اصطفاه الله تعالى لملائكته: سبحان الله وبحمده».

وقيل: معناه: ونحن نصلي لك بأمرك، والتسبيح يكون بمعنى التنزيه ويكون بمعنى الصلاة، ومنه قيل: للصلاة سُبحة، وقيل: معناه: نصلي، ونقرأ فيها فاتحة الكتاب.

﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ وننزهك واللام صلة، وقيل: هي لام الأجل، أي ونطهّر لأجلك قلوبنا من الشرك بك (وأبداننا) من معصيتك.

وقال بعض العلماء: في الآية تقديم وتأخير مجازها: ونحن نسبّح ونُقدّس لك بحمدك؛ لأنّه إذا حُملت الآية على التأويل الأول تنافي قول الملائكة المتزكية بالإدلال بالعمل، وإذا حُملت على هذا التأويل ضاهي قولهم التحدّث بنعمة الله وإضافة . . . .[1] إلى الله فكأنهم قالوا: وإن سبّحنا وقدّسنا وأطعنا وعبدنا فذلك كلهُ بحمدك لا بأنفسنا، قال الله:

﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من استخلافي في الأرض ووجه المصلحة فيه، فلا تعترضوا عليّ في حكمي وتدبيري، وقيل: أراد أني أعلمُ أنّ فيمن استخلفه في الأرض: أنبياء وأولياء وعلماء وصلحاء، وقيل: إني أعلم أنّهم يذنبون وأغفر لهم.

قال بعض الحكماء: إنّ الله تعالى أخرج (آدم) من الجنّة قبل أنّ يدخله فيها. لقوله ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ثم كان خروجه من الجنّة بذنبه يدل أنه كان بقضاء الله وقدره.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

ابن نجيح عن مجاهد فى قوله: ﴿إِنِّىٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ قال: علم من إبليس المعصية وخلقه لها.

ابن شهاب عن حميد عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «احتج آدم وموسى. فقال له موسى: أنت آدم الذى أخرجتك خطيئتك من الجنّة. فقال له آدم: أنت موسى اصطفاك الله لرسالته وكلامه، ثم تلومنى على أمر قُدّر قبل أن أُخلق. فحج آدم موسى».

فصل فى معنى الخليفة

قيل: سأل أمير المؤمنين ابن الخطاب، طلحة والزبير وكعبًا وسلمان: ما الخليفة من الملك؟ فقال طلحة والزبير: ما ندرى. فقال سلمان: الخليفة الذى يعدل فى الرّعية ويقسم بينهم بالسّويّة ويشفق عليهم شفقة الرّجل على أهله ويقضى بكتاب الله، فقال كعب: ما كنتُ أحسب أن فى المجلس أحدًا يعرف الخليفة من الملك غيرى، ولكنّ الله عزّ وجلّ ملأ سلمان حكمًا وعلمًا وعدلاً.

وروى زاذان عن سلمان: أنّ عمر قال له: أملك أنا أم خليفة؟ فقال سلمان: إنْ أنت جبيت من أرض المسلمين درهمًا أو أقل أو أكثر ووضعته فى غير حقّه فأنت ملك. قال: فاستعبر عمر رضى الله عنه.

وعن يونس: إنّ معاوية كان يقول إذا جلس على المنبر: أيّها الناس إنّ الخلافة ليست لجمع المال ولا تفريقه، ولكنّ الخلافة بالحقّ والحكم بالعدل وأخذ الناس بأمر الله عزّ وجل.

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ وذلك أنّ الله تعالى لمّا قال للملائكة: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةً﴾ قالوا فيما بينهم: ليخلق ربّنا ما شاء فلن يخلق خلقًا أفضل ولا أكرم عليه منّا، وإن كان خيراً منّا فنحن أعلم منه لأنّا خلقنا قبله ورأينا ما لم يره، فلما أُعجبوا بعلمهم وعبادتهم، فضّل الله تعالى عليهم آدم عليه السلام بالعلم فعلّمه الأسماء كلّها وهذا معنى قول ابن عباس والحسن وقتادة.

واختلف العلماء فى هذه الأسماء، فقال الربيع وابن أنس: أسماء الملائكة.

وقال عبد الرحمن بن زيد: أسماء الذّرّية.

وقال ابن عبّاس ومجاهد وقتادة والضّحّاك: علّمه الله اسم كلّ شىء حتى القصعة والقُصَيعة.

قال مقاتل: خلق الله كلّ شىء ـ الحيوان والجماد وغيرها ـ ثمّ علّم آدم أسماءها كلها. فقال له: يا آدم هذا فرس، وهذا بغل، وهذا حمار حتى أتى على آخرها ثم عرض تلك الأشياء كما عرض الموجودات على الملائكة. فكذلك قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ ولم يقل: عرضها، وردّه إلى الشخوص والمسمّيات لأنّ الأعراض لا تُعرض.

وقيل: علّم الله آدم عليه السلام صنعة كل شىء.

جويبر عن الضحّاك عن ابن عباس قال: علّم الله آدم أسماء الخلق والقرى والمدن والجبال والسباع وأسماء الطير والشجر وأسماء ما كان وما يكون وكل نسمة اللهُ عزّ وجلّ بارئها إلى يوم القيامة، وعرض تلك الأسماء على الملائكة.

﴿فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إنّ الخليفة الذى أجعله فى الأرض يُفسد فيها ويسفك الدماء. أراد الله تعالى بذلك: كيف تدّعون علم ما لم يكن بعدُ، وأنتم لا تعلمون ما ترون وتعاينون.

وقال الحسن وقتادة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إنى لا أخلق خلقًا إلاّ كنتم أعلم وأفضل منه، قالت الملائكة: إقرارًا بالعجز واعتذارًا.

﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ﴾: تنزيهًا لك عن الاعتراض لعملك فى حكمك وتدبيرك، وهو نصب على المصدر، أى نسبح سبحانًا فى قول الخليل.

وقال الكسائى: خارج عن الوصف، وقيل: على النداء المضاف أى: يا سبحانك.

﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بخلقك ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فى أمرك.

وللحكيم معنيان: أحدهما: المحكم للفعل، كقوله: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وحز وجيع. قال الشاعر:

أمن ريحانة الداعى السّميع ... يؤرّقنى وأصحابى هموع

أى المؤلم والموجع، والمسمع فعيل بمعنى: مُفعل وعلى هذا التأويل هو صفة فعل.

والآخر: بمعنى (الحاكم العالم) وحينئذ يكون صفة ذات، وأصل الحكمة فى كلام العرب: المنع. يُقال: أحكمت اليتيم عن الفساد وحكمته، أى منعته.

قال جرير:

أبنى حنيفة أحْكموا سفهاءكم ... إنى أخاف عليكم أن أغضبا

ويقال للحديدة المعترضة فى فم الدابة: حكمة؛ لأنها تمنع الدابة من الاعوجاج، والحكمة تمنع من الباطل، وما لا يجمل فلا يحلّ فى المحكم من الأمر بمنعه من الخلل، وفى هذه الآية

دليل على جواز تكليف ما لا يُطاق حيث أمر الله تعالى الملائكة بإنباء ما لم يعلموا، وهو عالم بعجزهم عنه.

فلما ظهر عجزهم، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ فسمّى كل شيء باسمه، وألحق كل شيء بجنسه.

﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم﴾ أخبرهم. ﴿بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ﴾ يا ملائكتى. ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ما كن فيها وما يكون. ﴿وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ﴾ من الخضوع والطاعة لآدم. ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ تخفون فى أنفسكم من العداوة له. وقيل: ما تبدون من الإقرار بالعجز والاعتذار، وما كنتم تكتمون من الكراهية فى استخلاف آدم.

قال ابن عباس: هو أنّ إبليس مرّ على جسد آدم وهو ملقًى بين مكة والطائف لا روح فيه، فقال: لأمر ما خلق هذا، ثمَّ دخل من فيه وخرج من دبره، وقال: إنّه لا يتماسك إلاّ بالجوف، ثمَّ قال للملائكة الذين معه: أرأيتم إن فضّل هذا عليكم، وأمرتم بطاعته ماذا تصنعون؟ قالوا: نطيع أمر ربّنا. فقال إبليس فى نفسه: والله لئن سُلطت عليه لأهلكته، ولئن سُلّط علىّ لأعصينّه. فقال الله تعالى: ﴿وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ﴾ يعنى الملائكة من الطاعة ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ يعنى إبليس من المعصية.

قال الحسن وقتادة: ﴿مَا تُبۡدُونَ﴾ يعنى قولهم: أتجعل فيها من يفسد فيها ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ يعنى قولهم لن يخلق خلقًا أفضل ولا أعلم ولا أكرم عليه منّا.

القول فى حد الاسم وأقسامه

فقال أصحابنا: الاسم: كل لفظة دلت على معنى ما وشىء ما، وهو مشتق من السِّمة، وهى العلامة التى يعرف بها الشىء، وأقسامه ثمانية منها: اسم علم مثل زيد، وعمرو، وفاطمة، وعائشة، ودار، وفرس.

ومنها: اسم لازم كقولك: رجل، وامرأة، وشمس، وقمر، وحجر، ومدر ونحوها؛ سُمّى لازمًا لأنّه لا ينقلب ولا يُفارق، فلا يُقال للشمس قمر ولا للقمر حجر.

ومنها: اسم مفارق مثل: صغير، وكبير، وطفل، وكهل، وقليل، وكثير، وقيل له مفارق لأنّه كان ولم يكن له هذا الاسم ويزول عنه المعنى المسمّى به.

ومنها: اسم مشتق: ككاتب، وخياط، وصائغ، وصبّاغ؛ فالاسم مشتق من فعله.

ومنها: اسم مضاف مثل: غلام جعفر، وركوب عمرو، ودار زيد.

ومنها: اسم مشبهة كقولك: فلان أسد وحمار وشعلة نار.

ومنها: اسم منسوب يثبتُ بنفسه ويُثبت غيره، كقولك: أب، وأمّ، وأخ، وأخت، وابن، وبنت، وزوج، وزوجة، فإذا قلت أب فقد أثبته وأثبت له الولد، وإذا قلت: أخ أثبته وأثبت له الأخت.

ومنها: اسم الجنس: وهو اسم واحد ويدل على أشياء كثيرة، كقولك: حيوان، وناس ونحوهما.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ سجدة تعظيم وتحية لا سجود صلاة وعبادة، نظيره قوله في قصة يوسف: ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ (يوسف: ١٠٠) وكان ذلك تحيّة الناس، ويُعظم بعضهم بعضًا، ولم يكن وضع الوجه على الأرض (وإنما) كان الانحناء والتكبير والتقبيل. فلما جاء الإسلام بطّل ذلك بالسّلام.

وفي الحديث إنّ معاذ بن جبل رجع من اليمن فسجد لرسول الله ﷺ فتغيّر وجه رسول الله ﷺ فقال: ما هذا؟ قال: رأيت اليهود يسجدون لأحبارهم والنصارى يسجدون لقسّيسيهم.

فقال رسول الله ﷺ: «مه يا معاذ كذب اليهود والنصارى إنّما السجود لله تعالى».

وقال بعضهم: كان سجودًا على الحقيقة جُعل آدم قبلة لهم والسجود لله، كما جُعلت الكعبة قبلة لصلاة المؤمنين والصلاة لله تعالى.

قال ابن مسعود: أمرهم الله تعالى أنْ يأتوا بآدم فسجدت الملائكة وآدم لله ربّ العالمين.

وقال أُبيّ بن كعب: معناه: أقروا لآدم أنّه خير وأكرم عليّ منكم فأقروا بذلك، والسجود على قول عبد الله وأُبيّ بمعنى الخضوع والطاعة والتذلل، كقول الشاعر:

❖ ترى الأكم فيه سجّدًا للحوافر ❖

وآدم على وزن أفعل. فلذلك لم يصرفه.

السّدي عمّن حدّثه عن ابن عباس قال: إنّما سمّي آدم لأنّه خلق من أديم الأرض، ومنهم من قال: سُمّي بذلك لأنه خلق من التراب، والتراب بلسان العبرانية آدم، وبعضهم من قال: سُمّي بذلك لأدمته لأنه كان آدم اللون وكنيته أبو محمد وأبو البشر.

سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال: ليس في الجنة أحد يُكنّى إلاّ آدم فإنّه يُكنى أبا محمد.

وقرأ العامة: ﴿لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ بخفض التاء، وقرأ أبو جعفر بضم التاء تشبهًا لتاء التأنيث بألف الوصل في قوله: ﴿ٱسْجُدُوا۟﴾ لأنّ ألف الوصل يذهب في الوصل ولأنّها زائدة غير أصلية،

وكذلك تاء التأنيث زائدة غير أصلية، ولا ثابت جواب ألف اسجدوا.

وقيل: كره ضمّة الجيم بعد كسرة التاء؛ لأنّ العرب تكره الضمة بعد الكسرة لثقلها، وهى قراءة ضعيفة جدًا وأجمع النحاة على تغليطه فيها.

﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ يعنى الملائكة. ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ وكان اسمه عزازيل، فلمّا عصى غيّرت صورته وغيّر اسمه فقيل إبليس؛ لأنه أُبلس من رحمة الله، كما يقال: يا خبيث ويا فاسق، وهو منصوب على الاستثناء، ولا يصرف لاجتماع العجمة والمعرفة.

﴿أَبَىٰ﴾ أى امتنع ولم يسجد. ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ أى تكبّر وتعظّم عن السجود ﴿وَكَانَ﴾ أى فصار ﴿مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ﴿وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ (هود: ٤٣).

وقال أكثر المفسّرين: معناه فكان فى علمه السابق من الكافرين الذين وجبت لهم الشقاوة.

الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان عنه يبكى فيقول: يا ويلتى أُمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنّة، وأُمرت بالسجود فأبيت فلى النّار».

زياد بن الحصين عن أبى العالية قال: لمّا ركب نوح السفينة إذا هو بإبليس على كوثلها فقال له: ويحك قد شقى أناس من أجلك، قال: فما تأمرنى؟ قال: تب، قال: سل ربك هل لى من توبة؟ قال: فقيل له إنّ توبته أن يسجد لقبر آدم، قال: تركته حيًّا وأسجد له ميّتًا.

﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ وذلك أن آدم عليه السلام كان فى الجنّة وحشًا ولم يكن له من يُجالسه ويؤانسه، فنام نومة فخلق الله تعالى زوجته من قصيراه من شقّه الأَيسر من غير أن يحسّ آدم بذلك ولا وجد له ألمًا ولو ألم من ذلك لما عطف رجلٌ على امرأة، فلمّا هبّ آدم من نومه إذا هو بحواء جالسة عند رأسه كأحسن ما خلق الله تعالى، فقال لها: من أنت؟ قالت أنا زوجتك خلقنى الله لك لتسكن إلىّ وأسكن إليك. فقالت الملائكة عند ذلك امتحانًا لعلم آدم: يا آدم ما هذه؟ قال: امرأة، قالوا: ما اسمها؟ قال: حوّاء، قالوا: لمَ سمّيت حوّاء؟ قال: لأنها خلقت من حىّ، قالوا: تحبّها يا آدم؟ قال: نعم، فقالوا لحوّاء: أتحبّينه؟ قالت: لا، وفى قلبها أضعاف ما فى قلبه من حُبّه، قالوا: فلو صدقت امرأة فى حبّها لزوجها لصدقت حوّاء.

مسألة:

قالت القدريّة: إنّ الجنّة التى أسكنها الله آدم وحوّاء لم تكن جنّة الخلد وإنما كان بستانًا من بساتين الدنيا، واحتجّوا بأن الجنة لا يكون فيها ابتلاء وتكليف.

والجواب: إنّا قد أجمعنا على أنّ أهل الجنّة مأمورون فيها بالمعرفة ومكلّفون بذلك.

وجواب آخر: إنّ الله تعالى قادر على الجمع بين الأضداد، فأرى آدم المحنة فى الجنّة وأرى إبراهيم النعمة فى النار لئلا يأمن العبد ربّه ولا يقنط من رحمته وليعلم أنّ له أن يفعل ما يشاء.

واحتجّوا أيضًا بأنّ من دخل الجنة يستحيل الخروج منها، قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (الحجر: ٤٨).

والجواب عنه: إنّ من دخلها للثواب لا يخرج منها أبدًا، وآدم لم يدخلها للثواب، ألا ترى أنّ رضوان خازن الجنة يدخلها ثم يخرج منها، وإبليس أيضًا كان داخل الجنّة وأُخرج منها.

﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ واسعًا كثيرًا. ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾: كيف شئتما ومتى شئتما وأين شئتما.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ قال بعض العلماء: وقع النهى على جنس من الشجر. قال آخرون: بل وقع على شجرة مخصوصة واختلفوا فيها، فقال على بن أبى طالب (كرم الله وجهه): هى شجرة الكافور.

وقال قتادة: شجرة العلم وفيها من كلّ شىء.

ومحمد بن كعب ومقاتل: هى السنبلة.

وقيل: هى الحَبْلَة وهى الأصلة من أصول الكرم.

أبو روق عن الضحّاك: إنها شجرة التين.

﴿فَتَكُونَا﴾ فتصيرا ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنفسكما بالمعصية، وأصل الظلم: وضع الشىء فى غير موضعه.

﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ يعنى (استمال) آدم وحوّاء فأخرجهما ونحّاهما.

وقرأ حمزة: (فأزالهما الشيطان) وهو إبليس، وهو فيعال من شطن أى بعد.

وقيل: إنه من شاط والنون فيه غير أصلية (ونودى) شيطان سمّى بذلك لتمرّده وبعده عن الخير وعن رحمة الله تعالى.

﴿عَنْهَا﴾ عن الجنة وقيل عن الطاعة.

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من النعيم، وذلك أن إبليس أراد أن يدخل الجنّة ويوسوس لآدم ولحواء فمنعته الخزنة، فأتى الحيّة وكانت من أحسن الدّواب لها أربع قوائم كقوائم البعير وكان من خزّان الجنّة وكان لإبليس صديقًا، فسألها أن تدخله فى فمها فأدخلته فى فمها ومرّت به على الخزنة وهم لا يعلمون فأدخلته الجنة، وكان آدم لما دخل الجنة ورأى ما فيها من النعيم والكرامة قال: لو أن خلدًا، فاغتنم الشيطان ذلك منه وأتاه من قبل الخلد، ولما دخل الجنة

وقف بين يدى آدم وحوّاء لا يعلمان أنه إبليس، فناح عليهما نياحةً أحزنهما وبكى وهو أول من ناح فقالا لمَ تبكى قال: أبكى عليكما تموتان فتفارقان ما أنتما فيه من النعيم والكرامة، فوقع ذلك فى أنفسهما واغتمّا، ومضى ثم أتاهما بعد ذلك وقال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ (طه: ١٢٠)، فأبى أن يقبل منه فقاسمهما بالله إنه لهما لمن الناصحين، فأغترّا وما كان يظنّان أنّ أحدًا يحلف بالله كاذبًا، فبادرت حوّاء إلى أكل الشجرة ثم ناولت آدم حتى أكلها.

وروى محمد بن إسحاق عن يزيد بن عبد الله بن قسط قال: سمعت سعيد بن المسيّب يحلف بالله ما يستثنى: ما أكل آدم من الشجرة وهو يعقل ولكن حوّاء سقته الخمر حتى إذا سكر قادته إليها فأكل، فلمّا أكلا تهافتت عنهما ثيابهما وبدت سوءاتهما وأخرجا من الجنة، وذلك قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا﴾ يعنى لآدم وحوّاء وإبليس والحية ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ أى انزلوا إلى الأرض ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ فهبط آدم بسرنديب من أرض الهند على جبل يقال له نودة، وقيل واشم، وحوّاء بجدّة، وإبليس بالأبلّة وقيل بميسان، والحيّة بأصفهان.

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ﴾ بلغة ومستمتع.

﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إى حين اقتضاء أجالكم ومنتهى أعماركم.

وعن إبراهيم بن الأشعث قال: سمعت إبراهيم بن أدهم: أورثتنا تلك الأكلة حزنًا طويلاً.

﴿فَتَلَقَّىٰٓ﴾ فلُقّن. ﴿ءَادَمُ﴾ حفّظ حين لقّن، وأُفهم حين أُلهِمَ.

وقرأ العامّة: آدمُ برفع الميم، كلمات بخفض التّاء.

وقرأ ابن كثير: بنصب الميم، بمعنى جاءت الكلمات لآدم عليه السلام.

﴿مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ كانت سبب قبول توبته، واختلفوا فى تلك الكلمات:

قال ابن عباس: هى أنّ آدم قال: يا ربّ ألم تخلقنى بيدك؟ قال: بلى، قال: ألم تنفخ فيّ من روحك؟ قال: بلى، قال: ألم تسبق رحمتك بى غضبك؟ قال: بلى، قال: ألم تسكنّى جنتك؟ قال: بلى، قال: فلمَ أخرجتنى منها؟ قال: بشؤم معصيتك، قال: أى ربّ أرأيت لو تبت (وأصلحت) أراجعى أنَت إلى الجنة؟ قال: بلى. قال: فهو الكلمات.

قال عبيد بن عمير: هو أنّ آدم قال: يا ربّ أرأيت ما أتيت، أشىء ابتدعته على نفسى أم شىء قدّرته عليّ قبل أن تخلقنى؟ قال: بل شىءٌ قدّرته عليك قبل أن أخلقك، قال: يا ربّ كما قدّرته عليّ فاغفر لى.

همام بن منبّه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «تحاجّ آدم وموسى، فقال له موسى: أنت

آدم الذى أغويت الناس وأخرجتهم من الجنّة إلى الأرض؟ فقال له آدم: أنت موسى الذى أعطاك الله علم كلّ شىء واصطفاك على الناس برسالته؟ قال: نعم. قال: أتلومنى على أمر كان قد كتب على أن أفعله من قبل أن أخلق. قال: فحجّ آدم موسى».

وقال محمد بن كعب القرظى: هى قوله: لا إله إلاّ أنت سبحانك وبحمدك قد عملت سوءًا وظلمت نفسى فتب علىّ إنّك أنت التواب الرحيم، لا إله إلاّ أنت سبحانك وبحمدك قد عملت سوءًا وظلمت نفسى فاغفر لى إنّك أنت الغفور الرحيم، لا اله الاّ أنت سبحانك وبحمدك ربّ عملت سوءًا وظلمت نفسى فارحمنى إنّك أنت أرحم الراحمين.

عكرمة عن سعيد بن جبير فى قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ﴾ قالا: قوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ (الأعراف: ٢٣)، وكذلك قاله الحسن ومجاهد.

وقال بعضهم: نظر آدم عليه السلام إلى العرش فرأى على ساقه مكتوبًا لا إله إلاّ الله محمد رسول الله أبو بكر الصدّيق عمر الفاروق فقال: يا ربّ أسألك بحقّ محمد أنْ تغفر لى فغفر له.

وقيل: هذا التأويل ما روى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس عن على رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: عرج بىّ إلى السماء رأيت على ساق العرش مكتوبًا لا إله إلاّ الله محمد رسول الله أبو بكر الصدّيق عمر الفاروق.

وقيل: هى ثلاثة أشياء: الخوف، الرجاء، البكاء.

أبو بكر الهذلى عن شهر بن حوشب قال: بلغنى أنّ آدم لما أهبط إلى الأرض مكث ثلاثمائة سنة لا يرفع رأسه حياءً من الله تعالى.

وقال ابن عباس: بكى آدم وحوّاء على ما فاتهما من نعيم الجنة مائتى سنة، ولم يأكلا ولم يشربا أربعين يومًا، ولم يقرب آدم (حواء) مائة سنة.

﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ فتجاوز عنه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ يقبل توبة عباده ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بخلقه.

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا﴾ يعنى آدم وحواء، وقيل: آدم وحوّاء وإبليس والحيّة ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾ يا ذرّية آدم ﴿مِّنِّى هُدًى﴾ كتاب ورسول. ﴿فَمَن تَبِعَ﴾ هداى. ﴿هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾: فيما يستقبلهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: على ما خلّفوا.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ جحدوا. ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ يعنى القرآن. ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ لا يخرجون منها ولا يموتون فيها.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ۝ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۝ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ۝﴾

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أولاد يعقوب، ومعنى إسرائيل: صفوة الله، وإيل هو الله عزّ وجلّ، وقيل: معناه: عبد الله، وقيل: سمّى بذلك لأنّ يعقوب وعيصا كانا توأمين واقتتلا فى بطن أُمهما، فأراد يعقوب أن يخرج فمنعه عيص وقال: والله لئن خرجت قبلى لأعترضنّ فى بطن أمّى، فلأقتلنّها، فتأخّر يعقوب وخرج عيص وأخذ يعقوب يعقب عيص فخرج عيص قبل يعقوب.

وسمّى عيص لما عصا فخرج قبل يعقوب، وكان عيص أحبّهما إلى أبيه وكان يعقوب أحبّهما إلى أُمه، وكان عيص (ويعقوب أبناء) إسحاق وعمىَ، قال لعيص: يا بنىّ أطعمنى لحم صيد واقترب منى أُدعُ لك بدعاء دعا لى به أبى، وكان عيص رجلاً أشعر وكان (يعقوب) رجلاً أمرد، فخرج عيص بطلب الصيد، فقالت أُمّه ليعقوب: يا بنىّ اذهب إلى الغنم فاذبح منه شاةً ثمّ اشوه والبس جلدها وقدمها إلى أبيك فقل له: إنّك عيص، ففعل ذلك يعقوب، فلمّا جاء قال: يا أبتاه كل، قال: من أنت، قال: ابنك عيص (قال: خمسه فقال: المس مسّ عيص والريح ريحة يعقوب، قالت أُمه: هو ابنك، فادع له، قال: قدم طعامك فقدّمه فأكل منه، ثم قال: أُدن منى، فدنا منه، فدعا له أن يجعل فى ذريته الأنبياء والملوك. وقام يعقوب وجاء عيص فقال: قد جئتك بالصيد الذى أمرتنى به. فقال: يا بنى قد سبقك أخوك يعقوب، فغضب عيص وقال: والله لأقتلنه، قال: يا بنى قد بقيت لك دعوة، فهلم أدع لك بها، فدعا له فقال: تكون ذريتك عددًا كثيراً كالتراب ولا يملكهم أحد غيرهم)[1].

---

(١) بياض بالأصل المخطوط مكان ما بين الأقواس، وانظر تاريخ الطبرى (١/ ٢٤٤، ٢٤٥).

﴿ٱذۡكُرُواْ﴾ . . . .

روى الشعبى عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والمحدث بنعمة الله شاكر وتاركها كافر، والجماعة رحمة والفرقة عذاب».

﴿نِعۡمَتِيَ﴾ أراد نعمى أعطها وهى واحد بمعنى الجمع وهو قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَا﴾ (إبراهيم: ٣٤) والعدد لا يقع على الواحد

﴿ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ أى على أجدادكم، وذلك أن الله تعالى فلق لهم البحر وأنجاهم من فرعون وأهلك عدوهم فأورثهم ديارهم وأموالهم، وظلل عليهم الغمام فى التيه من حر الشمس، وجعل لهم عموداً من نور يضىء لهم بالليل إذا لم يكن ضوء القمر، وأنزل عليهم المنّ والسّلوى، وفجّر لهم اثنى عشرة عيناً وأنزل عليهم التوراة فيها بيان كلّ شىء يحتاجون إليه فى نعم من الله كثيرة لا تحصى.

﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ﴾ الذى عهدت إليكم ﴿أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ أدخلكم الجنّة وأنجز لكم ما وعدتكم.

فقرأ الزهرى: أوفّ بالتّشديد على التأكيد يقال: وفّى وأوفى كلّها بمعنى (واحد) وأصلها الإتمام.

قال الكلبى: عهد إلى بنى إسرائيل على لسان موسى: إنّى باعث من بنى إسماعيل نبيًّا أميًّا فمن اتبعه وآمن به عفوت عن ذنبه وأدخلته الجنة وجعلت له أجرين اثنين، وهو قوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ (آل عمران: ١٨٧) يعنى أمر محمد ﷺ.

قتادة: هو العهد الذى أخذ الله عليهم فى قوله: ﴿قَرۡضًا حَسَنًا﴾ (البقرة: ٢٤٥) فهذا قوله: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ﴾ ثم قال: ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ (المائدة: ١٢) الآية. فهذا قوله ﴿أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾.

فقال: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ (البقرة: ٨٣) الآية.

الحسن: هو قوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ (البقرة: ٦٣) الآية.

إسماعيل بن زياد: ولا تفرّوا من الزحف أدخلكم الجنة، دليله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ (الأحزاب: ١٥).

وقيل: أوفوا بشرط العبوديّة، أوف بشرط الربوبيّة.

وقال أهل الإشارة: أوفوا فى دار محنتى على بساط خدمتى، (أوفِ عهدكم) فى دار نعمتى على بساط كرامتى بقربى ورؤيتى.

﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ فخافونى فى نقض العهد (وسقطت الياء بعد النون فى) هذه الآيات وفى كلّ القرآن على الأصل، وحذفها الباقون على الخط اتّباعًا للمصحف.

﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا﴾ موافقًا ﴿لِّمَا مَعَكُمۡ﴾ يعنى التوراة فى التوحيد والنبوّة والأخبار، وبعض الشرائع نزلت فى كعب وأصحابه من علماء اليهود ورؤسائهم.

﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ﴾ يعنى أوّل من يكفر بالقرآن وقد بايعتنا اليهود على ذلك فتبوءوا بآثامكم وآثامهم.

﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي﴾ أى ببيان صفة محمد ونعته. ﴿ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ شيئًا يسيرًا، وذلك أنّ رؤساء اليهود كانت لهم مآكل يصيبونها من سفلتهم وعوامّهم يأخذون منهم شيئًا معلومًا كلّ عام من زروعهم (فخافوا أن تبينوا) صفة محمد ﷺ وبايعوه أن تفوتهم تلك المآكل والرّياسة، فاختاروا الدنيا على الآخرة.

﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ فاخشونى فى أمر محمد لا فيما يفوتكم من الرياسة والمآكل.

﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ﴾ ولا تخلطوا، يقال: أى خلطت وشبهت الحقّ الذى أنزل اليكم من صفة محمد ﷺ.

﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾، الذى تكتمونه، وهو تجدونه فى كتبكم من نعته وصفته.

وقال مقاتل: إنّ اليهود أقرّوا ببعض صفه محمد ﷺ وكتموا بعضًا واختلفوا فى ذلك، فقال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ﴾ الذى تقرّون به وتبيّنونه بالباطل، يعنى بما تكتمونه، فالحق بيانهم والباطل كتمانهم.

وقيل: معناه ولا تلبسوا الحقّ (. . . .[1] من الباطل) صفة أو حال.

﴿وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ﴾ يعنى ولا تكتموا الحق كقوله تعالى: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٢٧).

﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أنّه نبىٌّ مرسل.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعنى وحافظوا على الصلوات الخمس بمواقيتها (وأركانها) وركوعها وسجودها.

﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يعنى وأدّوا زكاة أموالكم المفروضة، وأصل الزكاة: الطهارة والنّماء والزيادة.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ يعنى وصلّوا مع المصلين محمّد وأصحابه، يخاطب اليهود فعبّر بالركوع عن الصلاة إذ كان ركنًا من أركانها كما عبّر باليد عن العطاء كقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ (آل عمران: ١٨١) وقوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ (الشورى: ٣٠) وبالعنق عن البدن فى قوله: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ (الإسراء: ١٣) والأنف عن . . . . . [1].

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ . . . . . [1].

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ (عليهما ولكنه كنّى عن الأغلب وهو الصلاة كقوله): ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ٣٤) وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ (الجمعة: ١١) فرد الكناية إلى الفضة لأنها الأغلب والأعم وإلى التجارة لأنها الأفضل والأهم. . . ﴿وَإِنَّهَا﴾ واحد منهما، أراد بأن كل خصلة منهما ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ وقيل: رد الكناية إلى كل واحد منهما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ (المؤمنون: ٥٠) ولم يقل: آيتين، أراد: جعلنا كل واحد منهما آية.

حسن من علم يزينه حلم ومن ناله قد فاز بالفرج

أى من نال كل واحد منهما.

وقال آخر:

لكل همّ من الهموم سَعة والمسى والصبح لا فلاح معه

وقيل: ردّ الهاء إلى الصلاة لأنّ الصبر داخل فى الصلاة كقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ (التوبة: ٦٢) ولم يقل يرضوهما؛ لأنّ رضا الرسول داخل فى رضا الله، فردّ الكناية إلى الله. وقال الشاعر وهو حسّان:

إنّ شرخ الشباب والشعر الأسود ما لم يُعاص كان جنونا

ولم يقل يُعاصيا ردّه إلى الشباب، لأن الشعر الأسود داخل فيه. وقال الحسين بن الفضل: ردّ الكناية إلى الاستعانة، معناه: وأن الاستعانة بالصبر والصلاة لكبيرة ثقيلة شديدة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ يعنى المؤمنين، وقال ابن عباس: يعنى المصلّين. الوراق: العابدين المطيعين. مقاتل بن حيان: المتواضعين، الحسن: الخائفين. قال الزجاج: الخاشع الذى يُرى أثر الذل والخنوع عليه، وكخشوع الدار بعد الإقواء، هذا هو الأصل.

وقال النابغة:

رماد ككحل العين ما أن تبينه ونؤى كجذم الحوض أثلم خاشع

(١) بياض بالأصل المخطوط.

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ يعلمون ويستيقنون، كقوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ (الحاقة: ٢٠) أى أيقنت به.

وقال دريد بن الصمة:

فقلت لهم ظنوا بألفى مدجج   سراتهم فى الفارسى المسرّد

يعنى أيقنوا.

والظن من الأضداد يكون شكًّا ويقينًا كالرّجاء يكون أملاً وخوفًا.

﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ معاينو ربّهم فى الآخرة ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ فيجزيهم بأعمالهم.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعنى عالمى زمانكم.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا﴾ أى واحذروا يومًا واخشوا يوم.

﴿لَّا تَجْزِى﴾ أى لا تقضى ولا تكفى ولا تغنى.

ومنه الحديث عن أبى بردة بن ديّان فى الأضحية: لا تجزى عن أحد بعدك.

وقرأ أبو السماك العدوى: لا تجزى مضمومة التّاء مهموزة الياء من أجزأ يجزئ إذا كفى.

قال الشاعر:

وأجزأت أمر العالمين ولم يكن   ليجْزى إلاّ كامل وابن كامل

وقال الزجاج: وفى الآية إضمار معناه: ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ من الشدائد والمكاره.

وأنشد الشاعر:

❖ ويوم شهدناه سليمًا وعامرا ❖

أى شهدنا فيه.

وقيل: معناه: ولا تغنى نفس مؤمنة ولا كافرة عن نفس كافرة.

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ إذا كانت كافرة.

قرأ أهل مكّة والبصرة: بالتّاء لتأنيث الشفاعة. وقرأ الباقون: بالياء لتقديم الفعل.

وقرأ قتادة: (ولا يقبل منها شفاعة) بياء مفتوحة، ونصب الشفاعة أى لا يقبل الله.

﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ فداءً كانوا يأخذون فى الدنيا، وسمّى الفداء عدلاً لأنّه يعادل المفدّى ويماثله قال الله عزّ وجلّ: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ (المائدة: ٩٥).

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أى يمنعون من عذاب الله.

قال الزجاج: كانت اليهود تزعم أنّ آباءها الأنبياء تشفع لهم عند الله عزّ وجلّ، فأيأسهم الله من ذلك.



﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم﴾ يعنى أسلافكم وآباءكم فأعتدّها منّة عليهم؛ لأنّهم نجوا بنجاتهم، ومآثر الآباء مفاخر الأبناء.

وقوله: ﴿فَأَنجَيْنَاكُمْ﴾: أصله ألقيناكم على النّجاة وهو ما ارتفع واتّسع من الأرض هذا، هو الأصل، ثم سمّى كلّ فائز ناجيًا كأنّه خرج من الضيق والشدة إلى الرخاء والراحة.

وقرأ إبراهيم النخعى: وإذ نجّيناكم على الواحد.

﴿مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾: أى أشياعه وأتباعه وأسرته وعزّته وأهل دينه، وأصله من الأول وهو الرجوع كأنّه يؤول إليك، وكان فى الأصل همزتان فعوضت من إحداهما مدّ وتخفيف.

وفرعون: هو الوليد بن مصعب بن الريّان، وكان من العماليق.

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ يعنى يكلّفونكم ويذيقونكم أشدّ العذاب وأسوأه، وذلك أنّ فرعون جعل بنى إسرائيل خدمًا وعبيداً وصنّفهم فى أعمالهم. فصنف يبنون، وصنف يحرثون ويزرعون، وصنف يخدمون، ومن لم يكن منهم فى عمل من هذه الأعمال فعليه الجزية.

﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ﴾.

وقرأ ابن محيصن: بالتخفيف فتح الياء والباء من الذبح، والتشديد على التكثير، وذلك أنّ فرعون رأى فى منامه كأنّ ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقتها

وأحرقت القبط وتركت بنى إسرائيل، فهاله ذلك، ودعا بالسحرة والكهنة وسألهم عن رؤياه فقالوا: إنّه يولد فى بنى إسرائيل غلام يكون على يده هلاكك وزوال ملكك وتبديل دينك، فأمر فرعون بقتل كلّ غلام يولد فى بنى إسرائيل، وجمع القوابل من أهل مملكته فقال لهنّ: لا يسقطنّ على أيديكنّ غلام من بنى إسرائيل إلاّ قتل ولا جارية إلاّ تركت، ووكّل بهنّ من يفعلن ذلك، وأسرع الموت فى مشيخة بنى إسرائيل فدخل رؤوس القبط على فرعون فقالوا له: إنّ الموت قد وقع فى بنى إسرائيل وأنت تذبح صغارهم (ويموت كبارهم، فيوشك أن يقع العمل علينا، فأمر فرعون أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة فولد هارون فى السنة التى لا يذبحون فيها فترك، وولد موسى فى السنة التى يذبحون فيها).

﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فى إنجائكم منهم نعمة عظيمة، والبلاء تنصرف على وجهين: النعماء والنقماء. . . . . [١].

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ﴾. . . . . [١].

﴿ٱلْبَحْرَ﴾: وذلك إنّه لما دنا هلاك فرعون أمر الله عزّ وجلّ موسى أن يسرى ببنى إسرائيل، وأمرهم أن يسرجوا فى بيوتهم إلى الصبح، وأخرج الله عزّ وجلّ كل ولد زنا فى القبط من بنى إسرائيل إليهم وأخرج من بنى إسرائيل كل ولد زنا منهم إلى القبط حتى رجع كل واحد منهم إلى أبيه، وألقى الله عزّ وجلّ على القبط الموت فمات كل بكرًا، فاشتغلوا بدفنهم (حتى) طلعت الشمس وخرج موسى عليه السلام فى ستمائة ألف وعشرين ألف مقاتل لا يتعدّون ابن العشرين أصغرهم، ولا ابن الستين أكبرهم، سوى الذرية. فلما أرادوا السير ضُرب عليهم التّيه فلم يدروا أين يذهبون، فدعا موسى عليه السلام مشيخة بنى إسرائيل وسألهم عن ذلك. فقالوا: إنّ يوسف عليه السلام لما حضرته الوفاة أخذ على إخوته عهدًا أن لا يخرجوا من مصر حتى يخرجوه معهم؛ فلذلك انسدّ علينا الطريق، فسألهم عن موضع قبره فلم يعلموا.

فقام موسى يُنادى: أنشد الله كل من يعلم أين موضع قبر يوسف إلاّ أخبرنى به، ومن لم يعلم فصمّت أذناه عن قولى. فكان يمرّ بين الرّجلين ينادى فلا يسمعان صوته حتى سمعتهُ عجوز لهم فقالت: أرأيتك إن دللتك على قبره أتعطينى كلّ ما سألتك، فأبى عليها وقال: حتى أسأل ربّى، فأمره الله عزّ وجلّ بإيتاء سؤلها، فقالت: إنى عجوز كبيرة لا أستطيع المشى فاحملنى وأخرجنى من مصر هذا فى الدّنيا، وأما فى الآخرة فأسألك أن لا تنزل بغرفة من الجنة إلاّ نزلتها معك، قال: نعم، قالت: إنّه فى جوف الماء فى النيل، فادع الله حتى يحبس عنه

(١) بياض بالأصل المخطوط.

الماء. فدعا الله فحبس عنه الماء، ودعا أن يؤخر طلوع الفجر إلى أن يفرغ من أمر يوسف، فحفر موسى ذلك الموضع واستخرجه فى صندوق من المرمر فحمله حتى دفنه بالشام، ففتح لهم الطريق.

فساروا وموسى على ساقتهم وهارون على مقدّمتهم، وعلم بهم فرعون فجمع قومه وأمرهم أن لا يخرجوا فى طلب بنى إسرائيل حتى يصيح الدّيك. فوالله ما صاح ديك فى تلك الليلة. فخرج فرعون فى طلب بنى إسرائيل وعلى مقدمته هامان فى ألف ألف وسبعمائة ألف، وكان فيهم سبعون ألفًا من دهم الخيل سوى سائر الشّيات، وسارت بنو إسرائيل حتى وصلوا إلى البحر، والماء فى غاية الزيادة.

نظروا فإذا هم بفرعون وذلك حين أشرقت الشمس، فبقوا متحيرين وقالوا: يا موسى كيف نصنع؟ وما الحيلة؟ فرعون خلفنا والبحر أمامنا. قال موسى: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ (الشعراء: ٦٢) فأوحى إليه: ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ (الشعراء: ٦٣) فضربه فلم يُطعه، فأوحى الله إليه أن كنّه، فضربه موسى بعصاه وقال: انفلق أبا خالد بإذن الله، ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ (الشعراء: ٦٣) وظهر فيها اثنا عشر طريقًا لكلّ سبط طريق، وأرسل الله عزّ وجلّ الريح والشمس على مقر البحر حتى صار يبسًا.

وقال سعيد بن جبير: أرسل معاوية إلى ابن عباس فسأله عن مكان لم تطلع فيه الشمس إلاّ مرة واحدة؟ فكتب إليه: إنه المكان الذى انفلق منه البحر لبنى إسرائيل.

فخاضت بنو إسرائيل البحر كل سبط فى طريق وعن جانبه الماء كالجبل الضخم ولا يرى بعضهم بعضًا، فخافوا وقال كل سبط قد غرق كل إخواننا. فأوحى الله إلى حال الماء أن تشبّكى، فصار الماء شبكات يرى بعضهم بعضًا، ويسمع بعضهم كلام بعض حتى عبروا البحر سالمين. فذلك قوله تعالى ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ﴾ أى فلقنا وميّزنا الماء يمينًا وشمالاً.

﴿فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ﴾ من آل فرعون والغرق.

﴿وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾ وذلك أنّ فرعون لما وصل إلى البحر فرآه منغلقًا، قال لقومه: انظروا إلى البحر انفلق لهيبتى حتى أدرك أعدائى وعبيدى الذين أبقوا وأقتلوا، ادخلوا البحر، فهاب قومه أن يدخلوه ولم يكن فى خيل فرعون أنثى، وإنما كانت كلها ذكور، فجاء جبرائيل عليه السلام على فرس أنثى وديق فتقدّمهم فخاض البحر، فلما شمّت الخيول ريحها اقتحمت البحر فى أثرها حتى خاضوا كلهم فى البحر، وجاء ميكائيل على فرس خلف القوم يستحثهم ويقول لهم: الحقوا بأصحابكم، حتى إذا خرج جبرائيل من البحر وهمّ أولهم أن يخرج، أمر

الله تعالى البحر أن يأخذهم والتطم عليهم فأغرقهم أجمعين؛ وذلك بمرأى من بنى إسرائيل، ذلك قوله: ﴿وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾.

﴿وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ إلى مصارعهم.

﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ﴾ وذلك أنّ بنى إسرائيل لما أمنوا من عدوهم، ودخلوا مصر، ولم يكن لهم كتاب ولا شريعة ينتهون إليها، فوعد الله عزّ وجلّ موسى أن ينزّل عليهم التوراة، فقال موسى لقومه: إنّى ذاهب إلى ميقات ربى، وآتيكم بكتاب فيه تبيان ما تأتون وما تذرون، فواعدهم أربعين ليلة - ثلاثين من ذى القعدة وعشراً من ذى الحجة - واستخلف عليهم أخاه هارون.

فلما أتى الوعد جاء جبرائيل على فرس يُقال لها فرس الحياة لا يصيب شيئًا إلاّ حيىّ؛ ليذهب بموسى إلى ربه، فلمّا رآه السامرى وكان رجلاً صائغًا من أهل باجرو واسمه ميخا - وقال ابن عباس: اسمه موسى بن ظفر، وكان رجلاً منافقًا قد أظهر الإسلام، وكان من قوم يعبدون البقر، فدخل قلبه حبُّ البقر - فلما رأى جبرائيل على ذلك الفرس، قال: إنّ لهذا شأنًا، وأخذ قبضةً من تربة حافر فرس جبرائيل، وكان بنو إسرائيل قد استعاروا حليًا كثيراً من قوم فرعون حين أرادوا الخروج من مصر لعلة عرس لهم فأهلك الله عزّ وجلّ قوم فرعون فبقيت تلك الحلى فى يد بنى إسرائيل. فلما وصل موسى. قال السامرى: إنّ الأمتعة والحلى التى استعرتموها من قوم فرعون غنيمة، ولا تحلّ لكم. فاحفروا حفرةً وادفنوها فيها حتى يرجع موسى، ويرى فيها رأيه، ففعلوا ذلك.

فلما اجتمعت الحلى صاغها السامرى، ثم ألقى القبضة التى أخذها من تراب فرس جبرائيل فيه، فخرج عجلاً من ذهب مرصعًا بالجواهر كأحسن ما يكون وخار خورة. قال السّدى: كان يخور ويمشى (ويقول:) هذا إلهكم وإله موسى فَنسى، أى تركه هاهنا وخرج بطلبه.

وكان بنو إسرائيل قد أخلفوا الوعد فعدّوا اليوم والليلة يومين، فلما مضت عشرون يومًا ولم يرجع موسى عليه السلام ورأوا العجل وسمعوا قول السامرى، افتتن بالعجل ثمانية ألف رجل منهم، وعكفوا عليه يعبدونه من دون الله عزّ وجلّ.

﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ﴾: قرأ أبو جعفر وأبو عمرو ويعقوب: (وعدنا) بغير ألف فى جميع القرآن، وقرأ الباقون: (واعدنا) بالألف، وهى قراءة ابن مسعود. فمن قرأ بغير ألف قال: لأنّ الله عزّ وجلّ هو المتفرد بالوعد والقرآن ينطق به كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ (النساء: ٩٥) وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ (إبراهيم: ٢٢)، ومن قرأ بالألف قال: قد يجىء المفاعلة من واحد

كقولهم: عاقبت اللص، وعافاك الله، وطارقت النعل.

قال الزجاج: (واعدنا) جيد لأن بالطاعة والقبول بمنزلة المواعدة فكان من الله الوعد ومن موسى القبول.

وموسى: هو موسى بن عمران بن يصهر بن فاهث بن لاوى بن يعقوب.

﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ وقرأ زيد بن على: (أربعين) بكسر الباء وهى لغة، و(ليلة) نصب على التمييز والتفسير، وإنّما قرن التاريخ بالليل دون النهار؛ لأن شهور العرب وضعت على مسير القمر، والهلال إنّما يهلّ بالليل، وقيل لأنّ الظلمة أقدم من الضوء، والليل خُلق قبل النهار. قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ (يس: ٣٧) الآية.

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ يقول أبو العالية: إنّما سمّى العجل لأنّهم تعجّلوه قبل رجوع موسى عليه السلام.

﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد انطلاق موسى إلى الجبل للميعاد.

﴿وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾ مشّاءون لأنفسكم بالمعصية، وواضعون العبادة فى غير موضعها.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾ أى تركناكم فلم نستأصلكم، من قول له عليه السلام: أحفوا الشّوارب وأعفوا اللحى، وقيل: محونا ذنوبكم، من قول العرب: عفت الرّيح المنازل فعفت.

﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أى من بعد عبادتكم العجل.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لكى تشكروا عفوى عنكم، وصنيعى إليكم.

واختلف العلماء فى ماهيّة الشكر، فقال ابن عباس: هو الطاعة بجميع الجوارح لربّ الخلائق فى السر والعلانية.

وقال الحسن: شكر النعمة ذكرها، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى: ١١).

الفضل: شكر كل نعمة ألاّ يُعصى الله بعد تلك النعمة.

أبو بكر بن محمد بن عمر الوراق: حقيقة الشكر: معرفة المُنعم، وأن لا تعرف لنفسك فى النعمة حظًّا بل تراها من الله عزّ وجلّ. قال الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ (النحل: ٥٣) يدل عليه ما روى سيف بن ميمون عن الحسين: أنّ رسول الله ﷺ قال: «قال موسى عليه السلام: يا رب كيف استطاع آدم أنْ يؤدى شكر ما أجريت عليه من نعمك، خلقته بيدك وأسجدت له ملائكتك وأسكنته جنّتك؟ فأوحى الله إليه: أنّ آدم علم إنّ ذلك كله منّى ومن عندى فلذلك شكر».

وعن إسحاق بن نجيح الملطى عن عطاء الخراسانى عن وهب بن منبّه قال: قال داود عليه السلام: إلهى كيف لى أن أشكرك وأنا لا أصلُ إلى شكرك إلاّ بنعمتك؟ فأوحى الله تعالى إليه: ألست تعلم أنّ الذى بك من النعم منّى؟ قال: بلى يا ربّ، قال: أرضى بذلك لك شكرًا.

وقال وهب: وكذلك قال موسى: يا ربّ أنعمت علىّ بالنعم السوابغ وأمرتنى بالشكر لك عليها، وإنما شكرى لكل نعمة منك علىّ، فقال الله: يا موسى تعلّمت العلم الذى لا يفوته علم، حسبى من عبد أن يعلم أن ما به من نعمة فهو منّى ومن عندى.

قال الجنيد: حقيقة الشكر: العجز عن الشكر.

وروى ذلك عن داود عليه السلام أنّه قال: سبحان من جعل اعتراف العبد بالعجز عن شكره شكرًا، كما جعل اعترافه بالعجز عن معرفته معرفة.

وقال بعضهم: الشكر أن لا يرى النعمة البتة بل يرى المنعم.

أبو عثمان الخيرى: صدق الشكر: لا تمدح بلسانك غير المنعم.

أبو عبد الرحمن السلمى عن أبى بكر الرازى عن الشبلى: الشكر: التواضع تحت رؤية المنّة.

وقيل: الشكر خمسة أشياء: مجانبة السيئات، والمحافظة على الحسنات، ومخالفة الشهوات، وبذل الطاعات، ومراقبة ربّ السموات.

قال الثعلبى: سمعت أبا القاسم الحبيبى يقول: سُئل أبو الحسن على بن عبد الرحيم القناد فى الجامع بحضرة أبى بكر بن عبدوس وأنا حاضر: من أشكر الشاكرين؟ قال: الطاهر من الذنوب، يعدُّ نفسه من المذنبين، والمجتهد فى النوافل بعداد الفرائض، يعدُّ نفسه من المقصّرين، والراضى بالقليل من الدُّنيا، يعدُّ نفسهُ من المفلسين، فهذا أشكر الشاكرين.

بكر بن عبد الرحمن عن ذى النّور: الشكر لمن فوقك بالطاعة، ولنظيرك بالمكافأة، ولمن دونك بالإحسان والإفضال.

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾:

قال مجاهد والفراء: هما شىء واحد، والعرب تكرر الشىء إذا اختلفت ألفاظه على التوهم، وأنشد الفراء:

وقدّمت الأديم لراهشيه ... وألفى قولها كذبًا ومينًا

وقال عنترة:

حيّيت من طلل تقادم عهده ... أقوى وأقفر بعــد أمّ الهيثم

وقال الزجاج: وهذا هو القول؛ لأنّ الله عزّ وجلّ ذكر لموسى الفرقان فى غير هذا الموضع فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ (الأنبياء: ٤٨).

وقال الكسائى: الفرقان: نعت للكتاب، يريد: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾ فرّق بين الحلال والحرام، والكفر والإيمان، والوعد والوعيد. فزيدت الواو فيه كما يُزاد فى النعوت من قولهم: فلان حسن وطويل، وأنشد:

إلى الملك العزم وابن الهمام ... وليث الكتيبة فى المزدحم

ودليل هـذا التأويل قوله: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ (الأنعام: ١٥٤).

وقال قطرب: أراد به الفرقان، وفى الآية إضمار، ومعناه: وإذ آتينا موسى الكتاب ومحمّدًا الفرقان.

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لهذين الكتابين، فترك أحد الاسمين، كقول الشاعر:

تراهُ كـأن الله يجدع أنفه ... وعينيه إن مولاه بات له وفر

وقال ابن عباس: أراد بالفرقان النصر على الأعداء، نصر الله عزّ وجلّ موسى وأهلك فرعون وقومه، يدلّ عليه قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ (الأنفال: ٤١) يوم بدر.

يمان بن رباب: الفرقان: انفراق البحر وهو من عظيم الآيات، يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ الذين اتخذوا العجل. ﴿يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم﴾ أى ضررتم أنفسكم ﴿بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهًا، فقالوا: فأى شىء نصنع وما الحيلة؟ قال: ﴿فَتُوبُوٓاْ﴾ فارجعوا. ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ أى خالقكم، وكان أبو عمرو يختلس الهمزة إلى الجزم فى قوله: ﴿بَارِئِكُمْ﴾ و(يأمركم) وينصركم طلبًا للخفة كقول امرئ القيس:

فاليوم أشرب غير مستحقب ... إثمًا مـن الله ولا واغـل

وأنشد:

وإذا اعوججن قلت صاحب قوّم ... بالدوّ أمثـال السفين العـوم

قال: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ ليقتل البرىء المجرم. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ القتل. ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ قال ابن جرير: فأبى الله عزّ وجلّ أن يقبل توبة بنى إسرائيل إلاّ بالحال التى كرهوا أن يقاتلوهم حين

عبدوا العجل.

وقال قتادة: (جعل عقوبة) عبدة العجل القتل؛ لأنّهم ارتدّوا، والكفر يبيح الدّم.

وقرأ قتادة: (فأقيلوا أنفسكم) من الإقالة أي استقيلوا العثرة بالتوبة، فلما أهمّ موسى بالقتل قالوا: نصير لأمر الله تعالى فجلسوا بالأفنية مختبئين وأصلت القوم عليهم الخناجر وكان الرّجل يرى ابنه وأباه وعمّه وقومه وصديقه وجاره فلم يمكنهم المضى لأمر الله وقالوا: يا موسى كيف نفعل؟ فأرسل الله ضبابة وسحابة سوداء لا يبصر بعضهم بعضًا وقيل لهم من حلّ حبوته أو مدّ طرفه إلى قاتله أو اتّقى بيد أو رجل فهو طعون مردود توبته، فكانوا يقتلونهم إلى المساء، فلمّا كثر فيهم القتل دعا هارون وموسى وبكيا وجزعا وتضرّعا وقالا: يا ربّ هلكت بنو إسرائيل البقيّة البقيّة، فكشف الله عزّ وجلّ السحاب وأمرهم أن يرفعوا السلاح عنهم ويكفّوا عن القتل.

فتكشّفت عن ألوف من القتلى، فاشتدّ ذلك على موسى، فأوحى الله إليه: أما يرضيك أن أدخل القاتل والمقتول الجنّة، وكان من قُتل منهم شهيدًا ومن بقى منهم نكفّر عنه ذنوبه، فذلك قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ يعنى ففعلتم بأمره فتاب عليكم وتجاوز عنكم.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.



﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٥٦ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٥٧ وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٨ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ۝٥٩﴾

﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ الآية، وذلك أنّ الله أمر موسى أن يأتيه فى ناس من بنى إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل، فاختار سبعين رجلاً من خيارهم، وقال لهم: صوموا وتطهّروا وطهروا ثيابكم، ففعلوا ذلك، فخرج بهم موسى إلى طور سيناء لميقات ربّه، فلمّا وصل ذلك الموضع قالوا: اطلب لنا نسمع كلام ربّنا، فقال: أفعل، فلمّا دنا موسى

من الجبل وقع عليه عمود الغمام وتغشّى الجبل كلّه فدخل فى الغمام وقال القوم: ادنوا، وكان موسى إذا كلّمه ربّه وقع على وجهه نور ساطع لا يستطيع أحد من بنى إسرائيل أن ينظر إليه، فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى دخلوا فى الغمام وخرّوا سجّداً، وسمعوه وهو يكلّم موسى يأمره وينهاه، وأسمعهم الله تعالى: إنّى أنا الله لا إله إلاّ أنا ذو بكة أخرجتكم من أرض مصر فاعبدونى ولا تعبدوا غيرى.

فلمّا فرغ موسى وانكشف الغمام أقبل إليهم، فقالوا له: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة.

﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ﴾ وهى نارٌ جاءت من السماء فأحرقتهم جميعًا.

وقال وهب: أرسل الله عزّ وجلّ عليهم جنداً من السماء فلما سمعوا بحسّها ماتوا يومًا وليلة. والصاعقة: المهلكة، فذلك قوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ﴾ لن نصدّقك ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾.

قرأه العامّة بجزم الهاء، وقرأ ابن عباس: (جهرة) بفتح الهاء وهما لغتان مثل زَهْرة وزَهَرة.

﴿جَهْرَةً﴾ أى معاينة بلا ساتر بيننا وبينه، وأصل الجهر من الكشف.

قال الشاعر:

❖ يجهر أجواف المياه السّدم ❖

﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ﴾ قرأ عمر وعثمان وعلى (رضى الله عنهم): (الصعقة) بغير ألف، وقرأ الباقون (الصاعقة) بالألف وهما لغتان.

﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ وذلك أنهم لما هلكوا جعل (موسى) يبكى ويتضرّع ويقول: يا ربّ ماذا أقول لبنى إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم ولو شئت أهلكتهم من قبل، ويا ربّى ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّا﴾ (الأعراف: ١٥٥) فلم يزل يناشد ربّه حتى أحياهم الله تعالى جميعًا رجلاً بعد رجل ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم﴾ أحييناكم ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ لتستوفوا بقيّة آجالكم وأرزاقكم، وأصل البعث: إثارة الشى من (مكمنه).

يقال: بعثت البعير، وبعثت النائم فانبعث.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ فى التيه تقيكم حرّ الشمس، وذلك أنّهم كانوا فى التّيه ولم يكن لهم كنّ يسترهم فشكوا ذلك إلى موسى، فأنزل الله عليهم غمامًا أبيض رقيقًا وليس بغمام المطر بل أرقّ وأطيب وأبرد ـ والغمام: ما يغمّ الشىء أى يستره ـ وأظلّهم فقالوا: هذا الظّل قد جعل لنا فأين الطعام، فأنزل الله عليهم المنّ.

واختلفوا فيه، فقال مجاهد: وهو شيء كالصمغ كان يقع على الأشجار وطعمه كالشهد الضحّاك: هو الطرنجبين.

وقال وهب: الخبز الرّقاق. السدى: عسل كان يقع على الشجر من الليل فيأكلون منه.

عكرمة: شيء أنزله الله عليهم مثل الزّيت الغليظ، ويقال: هو الزنجبيل.

وقال الزجاج: جملة المنّ ما يمنّ الله مما لا تعب فيه ولا نصب.

وروى عن النبى ﷺ: «الكمأة من المنّ وماؤها شفاء للعين».

وكان ينزل عليهم هذا المنّ كل ليلة تقع على أشجارهم مثل الملح، لكلّ إنسان منهم صاع كل ليلة قالوا يا موسى: مللنا هذا المنّ بحلاوته، فادع لنا ربك أن يطعمنا اللحم، فدعا عليه السلام، فأنزل الله عليهم السلوى.

واختلفوا فيه، فقال ابن عباس وأكثر المفسرين: هو طائر يشبه السّمانى.

أبو العالية ومقاتل: هو طير أحمر، بعث الله سحابة فمطرت ذلك الطير فى عرض ميل وقدر طول رمح فى السماء بعضه على بعض.

عكرمة: طير يكون بالهند أكبر من عصفور، المؤرّج: هو (المعسل) بلغة كنانة.

وقال شاعرهم:

وقاسمهــا بالله حقًا لأنتم ... ألذّ من السلوى إذا ما نشورها

وكان يرسل عليهم المنّ والسلوى، فيأخذ كل واحد منه ما يكفيه يومًا وليلة، وإذا كان يوم الجمعة أخذ ما يكفيه ليومين لأنّه لم يكن ينزل إليهم يوم السبت، فذلك قوله: ﴿وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ أى وقلنا لهم كلوا.

﴿مِن طَيِّبَٰتِ﴾ حلالات ﴿مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ ولا تدّخروا لغد فخبئوا لغد فقطع الله عزّ وجلّ ذلك عنهم ودوّد وفسد ما ادّخروا، فذلك قوله عزّ وجلّ ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ ضرّونا بالمعصية.

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ يصرّون باستيجابهم عذابى وقطع مادة الرزق الذى كان ينزّل عليهم بلا كلفة ولا مؤونة، ولا مشقّة فى الدنيا، ولا تبعة ولا حساب فى العقبى.

خلاس بن عمرو عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لولا بنى إسرائيل لم يخنز الطعام ولم يخبث اللّحم، ولولا حوّاء لم تخن أنثى زوجها».

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ ابن عباس: هى أريحا وهى قرية الجبّارين، وكان فيها قوم من بقية عاد يقال لهم العمالقة ورأسهم عوج بن عناق، وقيل: هى بلقا.

وقال ابن كيسان: هى الشام.

الضّحاك: هي الرّملة والأردن وفلسطين وتدمر.

مجاهد: بيت المقدس. مقاتل: إيليا.

﴿فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ موسعًا عليكم.

﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ﴾ يعني بابًا من أبواب القرية وكان لها سبعة أبواب.

﴿سُجَّدًا﴾ منحنين متواضعين وأصل السجود الخضوع.

قال الشاعر:

بجمع يضل البلق في حجراته ترى الأكْم فيه سجّدًا للحوافر

وقال وهب: قيل لهم ادخلوا الباب، فإذا دخلتموه فاسجدوا شكرًا لله عزّ وجل، وذلك أنّهم أذنبوا بإبائهم دخول أريحا، فلما فصلوا من التيه أحبّ الله عزّ وجلّ أن يستنقذهم من الخطيئة.

﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ قال قتادة: حطّ عنّا خطايانا وهو أمرٌ بالاستغفار.

وقال ابن عباس: يعني لا إله إلاّ الله؛ لأنّها تحطّ الذنوب، وهي رفع على الحكاية في قول أبي عبيدة.

وقال الزجاج: سألتنا حطّة.

﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾ وقرأ أهل المدينة بياء مضمومة وأهل الشام بتاء مضمومة.

﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إحسانًا وثوابًا والسلام.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أنفسهم بالمعصية، وقيل كفروا.

وقال مجاهد: كموطئ لهم الباب ليخفضوا رؤوسهم، فلم يخفضوا ولم يركعوا ولم يسجدوا، فدخلوا مترجعين على أستاههم.

﴿قَوْلًا﴾ يعني وقالوا قولاً. ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ وذلك أنّهم أُمروا أن يقولوا (حطّة) فقالوا: (حطًا) . . . .[1] يعنون حنطة حمراء استخفافًا بأمر الله.

﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا﴾ عذابًا ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وذلك أنّ الله تعالى أرسل عليهم ظلمة وطاعونًا فهلك منهم في ساعة واحدة سبعون ألفًا.

﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ يعني يلعبون ويخرجون من أمر الله عزّ وجلّ.

❖ ❖ ❖

(١) بياض بالأصل المخطوط.

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ السين فيه: سين المسألة، مثل استعلم واستخبر ونحوهما، أى سأل السّقيا لقومه وذلك أنّهم عطشوا فى التيه فقالوا: يا موسى من أين لنا الشراب، فاستسقى لهم موسى فأوحى الله عزّ وجلّ إليه.

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ وكان من آس الجنّة طوله عشرة أذرع على طول موسى وله شعبتان متّقدتان فى الظلمة نوراً واسمه غليق، وكان آدم عليه السلام حمله معه من الجنة إلى الأرض فتوارثته الأصاغر عن الأكابر حتى وصل إلى شعيب فأعطاه لموسى.

﴿ٱلْحَجَرَ﴾ واختلفوا فيه، فقال وهب بن منبّه: كان موسى ﷺ يقرع لهم أقرب حجر من عرض الحجارة فيتفجّر منها لكلّ سبط عين وكانوا اثنى عشر سبطًا، ثمّ يسيل فى كلّ عين جدول إلى السبط الذى أمر سقيهم، ثمّ إنّهم قالوا: إن فقد موسى عصاه، فأوحى الله تعالى إلى موسى لا تقرعنّ الحجارة ولكن كلّمها تطعك لعلّهم يعتبرون.

فقالوا: كيف بنا لو أفضينا إلى الرّمل وإلى الأرض التى ليست فيها حجارة، فحمل موسى معه حجراً فحيث نزلوا ألقاه.

وقال الآخرون: كان حجراً مخصوصًا بعينه، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجَرَ﴾ فأدخل الألف واللام للتعريف مثل قولك: رأيت الرجل، ثم اختلفوا فيه ما هو.

فقال ابن عباس: كان حجراً خفيفًا مربعًا مثل رأس الرجل أُمر أن يحمله وكان يضعه فى مخلاته فإذا احتاجوا إلى الماء وضعه وضربه بعصاه.

وفى بعض الكتب: إنّها كانت رخامًا.

وقال أبو روق: كان الحجر من الكدان وكان فيه اثنتا عشرة حفرة ينبع من كلّ حفرة عين ماء عذب فرات فيأخذونه، فإذا فرغوا وأراد موسى حمله ضربه بعصاه فيذهب الماء وكان يستسقى كل يوم ستمائة ألف.

قال سعيد بن جبير: هو الحجر الذى وضع موسى ثوبه عليه ليغتسل حين رموه بالأدرة ففرّ الحجر بثوبه ومرّ به على ملأ من بنى إسرائيل حتى ظهر أنه ليس بآدر، فلما وقف الحجر أتاه جبرئيل فقال لموسى: إن الله يقول ارفع هذا الحجر فإنّ فيه قدرة، فلَكَ فيه معجزة، وقد ذكره الله تعالى فى قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ (الأحزاب: ٦٩). فحمله موسى ووضعه فى مخلاته فكان إذا احتاج إلى الماء ضربه بالعصا، وهو ما روى عن أبى هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى سوأة بعض وكان موسى يغتسل وحده فقالوا: والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلاّ أنه آدر قال: فذهب مرّة يغتسل فوضع موسى ثوبه على حجر ففرّ الحجر بثوبه قال: فجمع موسى فى أثره يقول ثوبى يا حجر ثوبى يا حجر حتى نظر بنو إسرائيل إلى سوأة موسى فقالوا والله ما بموسى من بأس قال فقام الحجر بعدما نظر إليه وأخذ ثوبه فطفق بالحجر ضربًا».

فقال أبو هريرة: وقد رأينا بالحجر ندبًا ستة أو سبعة أثر ضرب موسى.

وقال عبد العزيز بن يحيى الكنانى: كانت ضربة موسى اثنتى عشرة ضربة، وظهر على موضع كل ضربة مثل ثدى المرأة، ثم انفجر بالأنهار المطّردة وهو قوله: ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾.

وفى الآية إضمار واختصار تقديرها: ضرب فانفجرت أى سالت، وأصل الانفجار: الانشقاق والانتشار، ومنه فجر النهار.

﴿مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ قرأ العامة بسكون الشين على التخفيف، وقرأ العباس بن الفضل الأنصارى بفتح الشين على الأصل، وقرأ أبو . . . . [1] بكسر الشين.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ موضع شربهم ويكون بمعنى المصدر مثل المدخل، المخرج.

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ أى قلنا لهم: كلوا من المنّ، واشربوا من الماء؛ فهذا كلّه من رزق الله الذى بلا مشقة ولا مؤونة ولا تبعة.

﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾: يُقال: عثى يعثى عثيًا، وعثا يعثو عثوًا، وعاث يعيث عيثًا وعيوثًا (بثلاث لغات) وهو شدة الفساد.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

قال ابن الرّقاع:

لولا الحياء وأنّ رأسى قد عثا فيه المشيب لزرتُ أمّ القاسم

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ الآية، وذلك أنهم ملّوا المنّ والسلوى وسئموها. قال الحسن: كانوا نتانى أهل كراث وأبصال وأعداس فنزعوا إلى عكرهم عكر السوء، واشتاقت طباعهم إلى ما جرت عاداتهم عليه، فقالوا: لن نصبر على طعام واحد وكفّوا عن المنّ والسلوى، وإنما قالوا (واحد) وهما اثنان؛ لأن العرب تعبّر عن اثنين بلفظ الواحد، وبلفظ الواحد عن الاثنين كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ (الرحمن: ٢٢)، وإنما يخرجان من المالح منهما دون العذب.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كانوا يعجنون المن والسلوى فيصير طعامًا واحدًا فيأكلونه.

﴿فَادْعُ﴾ فاسأل وادع. ﴿لَنَا﴾ لأجلنا. ﴿رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا﴾ قراءة العامة بكسر القاف.

وقرأ يحيى بن وثاب، وطلحة بن مصرف، والأشيب العقيلى: وقثائها بضم القاف، وهى لغة تميم.

﴿وَفُومِهَا﴾: قال ابن عباس: الفوم: الخبز، تقول العرب: فوّموا لنا، أى اختبزوا لنا.

عطاء وأبو مالك: هو الحنطة وهى لغة قديمة، قال الشاعر:

قد كنت أحسبنى كأغنى واحد نزل المدينة عن زراعة فوم

. . . .[1]: هو الحبوب كلّها.

الكلبى والنضر بن شميل والكسائى والمعرّج: هو الثوم، وأنشد المعرّج لحسّان:

وأنتم أناس لئام الأصول طعامكم الفول والحوقل

يعنى الثوم والبصل؛ فالعرب تعاقب بين الفاء والثاء فتقول للصمغ العرفط: مغاثير ومغافير، وللقبر جدف وجدث، ودليل هذا التأويل أنها فى مصحف عبد الله: وثومها.

﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ عن الحسين بن على عن أبيه على بن أبى طالب (رضى الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالعدس فإنّه مبارك مقدّس وإنه يُرقق القلب ويُكثر الدمعة. وإنه بارك فيه سبعون نبيًا آخرهم عيسى عليه السلام».

فقال لهم موسى عند ذلك: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ وفى مصحف أُبىّ: أتبدلون.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

﴿ٱلَّذِى هُوَ أَدۡنَىٰ﴾ أخس وأردى.

حكى الفراء عن زهير العرقى: أنه قرأ (أدناء) بالهمزة، والعامة على ترك الهمزة، وقال بعض النحاة: هو أدون فقدّمت النون وحوّلت الواو ياء كقولهم: أولى من الويل.

﴿بِٱلَّذِى هُوَ خَيۡرٌ﴾ أشرف وأفضل، ومعناه: أتتركون الذى هو خير وتريدون الذى هو شر، ويجوز أن يكون هذا الخير والشر منصرفين إلى أجناس الطعام وأنواعه، ويجوز أن يكونا منصرفين إلى اختيار الله لهم، واختيارهم لأنفسهم.

﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرًا﴾ يعنى فإن أبيتم إلاّ ذلك فاهبطوا مصراً من الأمصار، ولو أراد مصر بعينها لقال: مصر ولم يصرفه كقوله ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ (يوسف: ٩٩) وهذا معنى قول قتادة.

الضحاك: هى مصر موسى وفرعون.

وقال الأعمش: هى مصر التى عليها صالح بن على ودليل هذا القول: قراءة الحسن وطلحة: (مصر) بغير تنوين جعلاها معرفة، وكذلك هو فى مصحف عبد الله وأُبىّ بغير ألف، وإنّما صرف على هذا القول لخفّته وقلّة حروفه مثل: دعد وهند وحمل ونحوها. قال الشاعر:

وجاعل الشمس مصراً لا خفاء به   بين النهار وبين الليل قد فصلا

﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡ﴾ من نبات الأرض.

﴿وَضُرِبَتۡ﴾ جُعلت. ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ وألزموا. ﴿ٱلذِّلَّةُ﴾ الذل والهوان. قالوا: بالجزية، يدل عليه قوله: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ (التوبة: ٢٩) وقال .....[1]: هو الكستيبنج وزنة اليهودية.

﴿وَٱلۡمَسۡكَنَةُ﴾ يعنى ذى الفقر. (فتراهم) كأنّهم فقراء وإن كانوا مياسير، وقيل: المذلة وفقر القلب فلا يرى فى أهل الملل أذل ولا أحرص على المال من اليهود، والمسكنة مفعلة من السكون، ومنه سُمّى الفقير مسكينًا لسكونه وقلّة حركاته. يُقال: ما فى بنى فلان أسكن من فلان، أى أفقر.

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أى رجعوا فى قول الكسائى وغيره. أبو روق: استحقوا والباء صلة.

أبو عبيدة: احتملوا وأقرّوا به، ومنه الدعاء المأثور: (أبوء بنعمتك علىَّ وأبوء بذنبى فاغفر لى فإنّه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت)، وغضب الله عليهم: ذمهُ لهم وتوعّده إياهم فى الدنيا،

(١) بياض بالأصل المخطوط.

وإنزال العقوبة عليهم فى العقبى، وكذلك بغضه وسخطه.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ بصفة محمد ﷺ وإنه الرحيم فى التوراة والإنجيل والفرقان.

﴿وَيَقْتُلُونَ﴾ قراءة العامة بالتخفيف من القتل، وقرأ السّلمى بالتشديد من التقتيل.

﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ القراءة المشهورة بالتشديد من غيرهم، وتفرّد نافع بهمز النبيين، (ومدّه) فمن همز معناه: المخبر، من قول العرب: أنبأ النبى إنباءً، ونبّأ ينبئ تنبئة بمعنًى واحد، فقال الله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَـٰذَا﴾ (التحريم: ٣) ومن حذف الهمز فله وجهان: أحدهما: أنه أراد الهمز فحذفه طلبًا للخفّة لكثرة استعمالها، والوجه الآخر: أن يكون بمعنى الرّفيع مأخوذ من النبوة وهى المكان المرتفع، يقال: نبئ الشيء عن المكان، أى ارتفع.

قال الشاعر:

إنّ جنبى عن الفراش لنـــاب كتجافى الأسرّ فوق الظراب

وفيه وجه آخر: قال الكسائى: النبى بغير همز: الطريق، فسمّى الرسول نبيًا، وإنما دقائق الحصا لأنّه طريق إلى الهدى، ومنه قول الشاعر:

لأصبح رتمًا دقاق الحصى مكـــان النبى من الكاثب

ومعنى الآية: ويقتلون النبيّين.

﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ مثل أشعيا وزكريا ويحيى وسائر من قتل اليهود من الأنبياء، وفى الخبر: إنّ اليهود قتلوا سبعين نبيًا من أوّل النهار. . .(١) آخر النهار. . .(١).

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ يتجاوزون أمرى ويرتكبون محارمى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ يعنى اليهود، واختلف العلماء فى سبب تسميتهم به. فقال بعضهم: سمّوا بذلك لأنهم هادوا أى تابوا من عبادة العجل، كقوله إخبارًا عنهم: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ (الأعراف: ١٥٦).

وأنشد أبو عبيدة:

❖ إنّى امرؤ من مدحه هائد ❖

أى تائب.

وقال بعضهم: لأنّهم هادوا أى مالوا عن الإسلام وعن دين موسى. يُقال: هاد يهود هودًا: إذا مال. قال امرؤ القيس:

(١) بياض بالأصل المخطوط.

قد علمت سلمى وجاراتها أنّى من الناس لها هائد

أى إليها مائل.

وقال أبو عمرو بن العلاء: لأنّهم يتهوّدون أى يتحرّكون عند قراءة التوراة، ويقولون: إنّ السموات والأرض تحرّكت حين آتى الله موسى التوراة.

وقرأ أبو السمّاك العدوى واسمه قعنب: هادَوا بفتح الدال من المهاداة، أى مال بعضهم إلى بعض فى دينهم.

﴿وَٱلنَّصَـٰرَىٰ﴾ واختلفوا فى سبب تسميتهم بهذا الاسم، فقال الزهرى: سمّوا نصارى لأنّ الحواريين قالوا: نحن أنصار الله.

مقاتل: لأنّهم تولوا قرية يُقال لها: ناصرة، فنُسبوا إليها.

وقال الخليل بن أحمد: النصارى: جمع نصران، كقولهم: ندمان وندامى.

وأنشد:

تراه إذا دار العشىّ محنّفًا ويضحى لربّه وهو نصران شامس

فنسبت فيه ياء النسبة كقولهم لذى اللحية: لحيانى، ورقابى لذى الرقبة.

فقال الزجاج: يجوز أن يكون جمع نصرى كما يُقال: بعير حبرى، وإبل حبارى، وإنما سمّوا نصارى لاعتزائهم إلى نصرة وهى قرية كان ينزلها عيسى وأمّه.

﴿وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ﴾ قرأ أهل المدينة بترك الهمزة من الصّابئين والصّابئون الصّابين والصّابون فى جميع القرآن، وقرأ الباقون بالهمز وهو الأصل، يُقال: صبا يصبو صبوءًا، إذا مال وخرج من دين إلى دين.

قال الفرّاء: يُقال لكل من أحدث دينًا: قد صبأ وأصبأ بمعنى واحد، وأصله الميل، وأنشد:

إذا أصبأت هوادى الخيل عنّا حسبت بنحرها شرق البعير

واختلفوا فى الصّابئين من هم؟

قال عمر: هم طائفة من أهل الكتاب ذبائحهم ذبائح أهل الكتاب، وبه قال السدى.

وقال ابن عباس: لا تحل ذبائحهم ولا مناكحة نسائهم. وقال مجاهد: هم قبيلة نحو الشّام بين اليهود والمجوس لا دين لهم.

وقال السدى: هم طائفة من أهل الكتاب، وهو رأى أبى حنيفة.

وقال قتادة ومقاتل: هم قوم يقرّون بالله عزّ وجلّ، ويعبدون الملائكة، ويقرءون الزبور

(١) بياض بالأصل المخطوط.

ويصلّون إلى الكعبة، أخذوا من كل دين شيئًا.

الكلبى: هم قوم بين اليهود والنصارى، يحلقون أوساط رءوسهم ويُحبّون ذاكرهم.

عبد العزيز بن يحيى: درجوا وانقرضوا فلا عين ولا أثر.

﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ اختلفوا فى حكم الآية ومعناها، ولهم فيها طريقان:

أحدهما: أنّه أراد بقوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ على التحقيق وعقد التصديق، ثم اختلفوا فى هؤلاء المؤمنين من هم؟ فقال قوم: هم الذين آمنوا بعيسى ثم لم يتهوّدوا ولم يتنصّروا ولم يصبئوا، وانتظروا خروج محمد ﷺ.

وقال آخرون: هم طلاّب الدين، منهم: حبيب النجّار، وقيس بن ساعدة، وزيد بن عمرو ابن نفيل، وورقة بن نوفل، والبراء السّندى، وأبو ذر الغفارى، وسلمان الفارسى، ويحيى الراهب، ووفد النجاشى. آمنوا بالنبى ﷺ قبل مبعثه، فمنهم من أدركه وتابعه، ومنهم من لم يدركه.

وقيل: هم مؤمنو الأمم الماضية.

وقيل: المؤمنون من هذه الأُمة.

﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ يعنى الذين كانوا على دين موسى عليه السلام ولم يبدّلوا ولم يغيّروا.

﴿وَٱلنَّصَـٰرَىٰ﴾: الذين كانوا على دين عيسى عليه السلام ولم يبدّلوا وماتوا على ذلك.

قالوا: وهذان اسمان لزمانهم زمن موسى وعيسى (عليهما السلام)، حيث كانوا على الحق فبقى الاسم عليهم كما بقى الإسلام على أمّة محمد ﷺ والصابئين زمن استقامتهم من آمن منهم أى مات منهم وهو مؤمن؛ لأنّ حقيقة الإيمان المؤاخاة.

قال: ويجوز أن تكون الواو فيه مضمرًا: أى ومن آمن بعدك يا محمد إلى يوم القيامة.

والطريق الآخر: إنّ المذكورين فى أول الآية بالإيمان إنّما هو على طريق المجاز والتسمية دون الحكم والحقيقة، ثمّ اختلفوا فيه:

فقال بعضهم: إنّ الذين آمنوا بالأنبياء الماضين والكتب المتقدمة ولم يؤمنوا بك ولا بكتابك.

وقال آخرون: يعنى به المنافقين أراد: إنّ الذين آمنوا بألسنتهم ولم يؤمنوا بقلوبهم، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، والذين هادوا: أى اعتقدوا اليهودية وهى الدين المبدّل بعد موسى عليه السلام، والنصارى: هم الذين اعتقدوا النصرانية والدّين المبدّل بعد عيسى، والصابئين: يعنى أصناف الكفّار من آمن بالله من جملة الأصناف

المذكورين فى الآية.

وفيه اختصار وإضمار تقديره: من آمن منهم بالله واليوم الآخر؛ لأنّ لفظ (من) يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ (الأنعام: ٢٥). ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ (يونس: ٤٣). ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ (يونس: ٤٢). قال ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ (الأحزاب: ٣١)، وقال الفرزدق فى التشبيه:

تعال فإن عاهدتنى لا تخوننى تكن مثل من ناديت يصطحبان

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما قدّموا.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلّفوا، وقيل: لا خوف عليهم بالخلود فى النار، ولا يحزنون بقطيعة الملك الجبّار، ولا خوف عليهم من الكبائر وإنّى أغفرها، ولا هم يحزنون على الصغائر فإنّى أكفّرها.

وقيل: لا خوف عليهم فيما تعاطوا من الإجرام، ولا هم يحزنون على ما اقترفوا من الآثام لما سبق لهم من الإسلام الآثام.

❖ ❖ ❖

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ

وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ يا معشر اليهود. ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ وهو الجبل بالسريانية فى قول بعضهم. وقالوا: ليس من لغة فى الدنيا إلاّ وهى فى القرآن.

وقال أبو عبيدة والحُذّاق من العلماء: لا يجوز أن تكون فى القرآن لغة غير لغة العرب؛ لأن الله تعالى قال: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ (يوسف: ٢، طه: ١١٣، الزمر: ٢٨، فُصّلت: ٣، الشورى: ٧، الزخرف: ٣) وقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٥) وإنّما هذا وأشباهه وفاق بين اللّغتين.

وقد وجدنا الطّور فى كلام العرب، وقال جرير:

فإن ير سليمان الجنّ يستأنسوا بها وإن ير سليمان أحب الطّور ينزل

وقال المفسّرون: وذلك أنّ الله تعالى أنزل التوراة على موسى وأمر قومه بالعمل بأحكامه فأبوا أن يقبلوها ويعملوا بما فيها للأضرار والأثقال الّتى فيها، وكانت شريعته ثقيلة فأمر الله تعالى جبرائيل عليه السلام يضع جبلاً على قدر عسكره وكان فرسخًا فى فرسخ ورفعه فوق رءوسهم مقدار قامة الرّجل.

أبو صالح عن ابن عبّاس: أمر الله تعالى جبلاً من جبال فلسطين فانقلع من أصله حتّى قام على رءوسهم مثل الظلّة.

عطاء عن ابن عبّاس: رفع الله فوق رءوسهم الطّور وبعث ناراً من قبل وجوههم وأتاهم البحر الملح من خلفهم وقيل لهم: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ أى أعطيناكم.

﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجدّ ومواظبة. وفيه إضمار، أى: وقلنا لهم: خذوا.

﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ أى احفظوه واعلموه واعملوا به و(فى) حرف أولى فاذّكروا بذال مشددة وكسر الألف المشددة و(فى) حرف وأنه وتذكروا ما فيه ومعناهما اتعظوا به ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لكى تنجوا من الهلاك فى الدّنيا والعذاب فى العقبى فإن قبلتموه وفعلتم ما أمرتم به وإلاّ رضختكم بهذا الجبل وأغرقتكم فى البحر وأحرقتكم بهذه النّار، فلمّا رأوا أن لا مهرب لهم قبلوا ذلك وسجدوا خوفًا وجعلوا يلاحظون الجبل وهم سجود، فصارت سنّة فى اليهود لا يسجدون إلاّ على أنصاف وجوههم فلمّا زال الجبل قالوا: يا موسى سمعنا وأطعنا ولولا الجبل ما أطعناك.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم﴾ أعرضتم وعصيتم.

﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أى من بعد أخذ الميثاق ورفع الجبل.

﴿فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ بتأخير العذاب عنكم.

﴿لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ لصرتم من المغلوبين بالعقوبة وذهاب الدّنيا والآخرة.

﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِى ٱلسَّبۡتِ﴾ وذلك أنهم كانوا من داود عليه السلام بأرض يقال لها أيلة حرّم الله عليهم صيد السمك يوم السبت فكان إذا دخل يوم السبت لم يبق حوت فى البحر إلاّ اجتمع هناك حتّى يخرجن خراطيمهنّ من الماء لأمنها، فإذا مضى السبت تفرّقن ولزمن البحر ذلك قوله تعالى: ﴿إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡ﴾ (الأعراف:١٦٣) فعمد رجال فحفروا الحياض حول البحر وشرعوا منه إليها الأنهار فإذا كانت عشيّة الجمعة فتحوا تلك الأنهار فأقبل الموج بالحيتان إلى الحياض فلا تطيق الخروج لبعد عمقها وقلّة الماء فإذا كان يوم الأحد أخذوها، وقيل: كانوا ينصبون الحبائل والشّصوص يوم الجمعة ويخرجونها يوم الأحد، ففعلوا ذلك زمانًا فكثرت أموالهم ولم تنزل عليهم عقوبة، فقست قلوبهم وأصرّوا على الذّنب، وقالوا: ما نرى السّبت إلاّ قد أحلّ لنا، فلمّا فعلوا ذلك صار أهل القرية ـ وكانوا سبعين ألفًا ـ ثلاثة أصناف: صنف أمسك ونهى وصنف أمسك ولم ينه، وصنف انتهك الحرمة، وكان الّذين نهوا اثنى عشر ألفًا فلمّا أبى المجرمون قبول نصحهم قال الناهون: والله لا نُساكنكم فى قرية واحدة، فقسّموا القرية بجدار وغيروا بذلك سنتين فلعنهم داود وغضب الله عزّ وجلّ عليهم لإصرارهم على المعصية فخرج الناهون ذات يوم من بابهم والمجرمون لم يفتحوا أبوابهم ولا خرج منهم أحد فلمّا أبطئوا تسوّروا عليهم الحائط فإذا هم جميعًا قردة فمكثوا ثلاثة أيام ثمّ هلكوا، ولم يمكث مسخ فوق ثلاثة أيّام ولم يتوالدوا فذلك قوله عزّ وجلّ ﴿فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ أمر تحويل.

﴿خَٰسِـِٔينَ﴾ مطرودين صاغرين بلغة كنانة، قاله مجاهد وقتادة والربيع.

قال أبو روق: يعنى خرسًا لا يتكلّمون، دليله قوله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ (المؤمنون:١٠٨).

وقيل: مبعدون من كلّ خير.

﴿فَجَعَلۡنَٰهَا﴾ أى القردة، وقيل: القرية، وقيل: العقوبة.

﴿نَكَٰلٗا﴾ عقوبة وعبرة وفضيحة شاهرة، وأصله من النكل وهو القيد، وجمعه أنكال، ويقال للّجام نكل.

﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ قال أبو العالية والرّبيع : معناه عقوبة لما مضى من ذنوبهم وعبرة لما بعدهم .

قتادة : جعلنا تلك العقوبة جزاءً لما تقدّم من ذنوبهم قبل نهيهم عن الصّيد وما خلفها من العصيان بأخذ الحيتان بعد النّهى .

وقيل : لما بين يديها من عقوبة الآخرة وما خلفها من نصيحتهم فى دنياهم فيذكّرون بها إلى يوم قيام السّاعة .

وقيل : فى الآية تقديم وتأخير ؛ وتقديرها : فجعلناها وما خلفها ممّا أعدّ لهم من العذاب فى الآخرة نكالاً وجزاءً لما بين يديها : أى لما تقدّم من ذنوبهم فى اعتدائهم يوم السّبت .

﴿وَمَوْعِظَةً﴾ عظة وعبرة . ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ للمؤمنين من أُمّة محمّد ﷺ فلا يفعلون مثل فعلهم .

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ الآية : وذلك أنّه وجد قتيل فى بنى إسرائيل اسمه عاميل ولم يدروا قاتله واختلفوا فى قاتله والسبب فى قتله فقال عطاء والسّدى : كان فى بنى إسرائيل رجل كثير المال وله ابن عم مسكين لا وراث له غيره فلمّا طال عليه موته قتله ليرثه .

وقال بعضهم : وكان تحت عاميل بنت عم له لم يكن لها مثلاً فى بنى إسرائيل بالحسن والجمال فقتله ابن عمّه لينكحها .

وقال ابن الكلبى : قتله ابن أخيه لينكح ابنته فلمّا قتله حمله من قريته إلى قرية أخرى وألقاه هناك .

وقيل : ألقاه بين قريتين .

عكرمة : كان لبنى إسرائيل مسجد له اثنا عشر بابًا لكلّ سبط منهم باب فوجد قتيل على باب سبط .

قيل : وجرّ إلى باب سبط آخر فاختصم فيه السبطان .

وقال ابن سيرين : قتله القاتل ثمّ احتمله فوضعه على باب رجل منهم ثمّ أصبح يطلب بثأره ودمه ويدّعيه عليه . قال : فجاء أولياء القتيل إلى موسى وأتوه بناس وادّعوا عليهم القتل وسألوا القصاص فسألهم موسى عن ذلك فجحدوا فاشتبه أمر القتيل على موسى ووقع بينهم خلاف .

وقال الكلبى : وذلك قبل نزول القسامة فى التوراة فسألوا موسى أن يدعوا الله ليبيّن لهم ذلك فسأل موسى ربّه فأمرهم بذبح بقرة . فقال لهم موسى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ .

﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ يا موسى أى أتستهزئ بنا حين نسألك عن القتيل وتأمرنا بذبح البقرة وإنّما قالوا ذلك لتباعد الأمرين فى الظّاهر، ولم يدروا ما الحكمة فيه.

وقرأ ابن محيصن: أيتخذنا بالياء قال: يعنون الله ولا يستبعد هذا من جهلهم لأنّهم الّذين قالوا ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ (الأعراف: ١٣٨).

وفى هذا ثلاثة لغات هزواً: بالتخفيف والهمز ومثله كُفواً وهى قراءة الأعمش وحمزة وخلف وإسماعيل.

وهزواً وكفواً مثقلان مهموزان وهى قراءة أبى عمرو وأهل الحجاز والشام واختيار الكسائى وأبى عبيد وأبى حاتم.

وهزواً وكفواً مثيلان بغير همزة وفى رواية حفص بن سليمان البزّاز عن عاصم وكلّها لغات صحيحة معناها الاستهزاء فقال لهم موسى عليه السلام: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أى من المستهزئين بالمؤمنين فلمّا علم أنّ ذبح البقرة عزم من الله عزّ وجل سألوه الوصف.

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾ ولو أنّهم عمدوا إلى أدنى بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم ولكنهم شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم وإنّما كان تشديدهم تقديراً من الله عزّ وجلّ وحكمة، وكان السبب فى ذلك على ما ذكره السّدى وغيره أن رجلاً فى بنى إسرائيل كان باراً بأبيه وبلغ من برّه به أنّ رجلاً أتاه بلؤلؤة فابتاعها بخمسين ألفًا وكان فيها فضل فقال للبائع أبى نائم ومفتاح الصندوق تحت رأسه فأمهلنى حتّى يستيقظ وأعطيك الثمن. قال: فأيقظ أباك وأعطنى المال. قال: ما كنت لأفعل ولكن أزيدك عشرة آلاف فانتظرنى حتّى ينتبه أبى.

فقال الرّجل: فأنا أعطى عنك عشرة آلاف إنْ أيقظت أباك وعجلت النقد. قال: وأنا أزيدك عشرين ألفًا إن انتظرت انتباه أبى. ففعل ولم يوقظ الرجل أباه فأعقبه برّه بأبيه أن جعل تلك البقرة عنده وأمر بنى إسرائيل أن يذبحوا تلك البقرة بعينها.

قال ابن عبّاس ووهب وغيرهما: كان فى بنى إسرائيل رجل صالح له ابن طفل وكان له عجل فأتى بالعجل إلى غيضة وقال: اللّهمّ إنّى أستودعك هذه العجلة لابنى حتّى يكبر ومات الرّجل فسبيت العجلة فى الغيضة وصارت عوانًا وكانت تهرب من كل مَن رامها. فلمّا كبر الابن كان باراً بوالدته وكان اللّيلة يقسّم ثلاثة أثلاث: يصلّى ثلثًا وينام ثلثًا ويجلس عند رأس

أمّه ثلثًا فإذا أصبح انطلق واحتطب على ظهره ويأتى به السّوق فيبيعه بما شاء الله ثم يتصدّق بثلثه ويأكل ثلثه ويعطى والدته ثلثًا، وقالت له أمّه يومًا: إنّ أباك ورّثك عجلة وذهب بها إلى غيضة كذا واستودعها الله عز وجل فانطلق إليها فادعُ إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق بأن يردّها عليك، وإن من علامتها أنّك إذا نظرت إليها يخيّل إليك أنّ شعاع الشمس يخرج من جلدها وكانت تسمى المذهّبة لحسنها وصفرتها وصفاء لونها فأتى الفتى الغيضة فرآها ترعى وقال: أعزم عليك بإله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب فأقبلت تسعى حتّى قامت بين يديه فقبض على عنقها وقادها فتكلمت البقرة بإذن الله وقالت: أيّها الفتى البارّ بوالدته اركبنى فإنّ ذلك أهون عليك. فقال الفتى: إنّ أُمى لم تأمرنى بذلك ولكن قالت: خذها بعنقها فقالت البقرة: بإله بنى إسرائيل لو ركبتنى ما كنت تقدر علىَّ أبدًا فانطلق فإنّك لو أمرت الجبل أن ينقلع من أصله وينطلق معك لفعل لبرّك بوالدتك. وسار الفتى فاستقبله عدوّ الله إبليس فى صورة راعٍ فقال: أيّها الفتى إنّى رجل من رعاة البقر اشتقت إلى أهلى فأخذت ثورًا من ثيرانى فحملت عليه زادى ومتاعى حتّى إذا بلغت شطر الطّريق ذهبت لأقضى حاجتى صعدًا وسط الجبل وما قدرت عليه وإنّى أخشى على نفسى الهلاك، فإن رأيت أن تحملنى على بقرتك وتنجنى من الموت وأعطيك أجرها بقرتين مثل بقرتك فلم يفعل الفتى وقال: اذهب فتوكّل على الله فلو علم الله منك اليقين بلغك بلا زاد ولا راحلة فقال إبليس: فإن شئت فبعنيها بحكمك، وإن شئت فاحملنى عليها وأعطيك عشرة مثلها فقال الفتى: إنّ أمّى لم تأمرنى بهذا فبينا الفتى كذلك إذ طار طائر من بين يدى البقرة ونفرت البقرة هاربة فى الفلاة وغاب الرّاعى فدعاها الفتى باسم إله إبراهيم فرجعت إليه البقرة فقالت أيّها الفتى البار بوالدته ألم تر إلى الطائر الذى طار إنّه إبليس عدو الله اختلسنى أما إنّه لو ركبنى لما قدرت علىَّ أبدًا فلمّا دعوت إله إبراهيم جاء ملك فانتزعنى من يد إبليس وردّنى إليك لبرّك بوالدتك وطاعتك لها.

فجاء بها الفتى إلى أمّه، فقالت له: إنّك فقير لا مال لك ويشقّ عليك الاحتطاب بالنّهار والقيام باللّيل فانطلق فبع هذه البقرة وخذ ثمنها. قال بكم أبيعها؟

قالت: بثلاثة دنانير ولا تبعها بغير رضاى ومشورتى وكانت ثمن البقرة فى ذلك الوقت فانطلق بها الفتى إلى السّوق فبعث الله ملكًا إنسانًا خلقه بقدرته ليخبر الفتى كيف برّه بوالدته وكان الله به خبيرًا فقال له الملك: بكم تبيع هذه البقرة؟

قال: بثلاثة دنانير وأشترط عليك رضا والدتى. فقال الملك: ستّة دنانير ولا تستأمر أمّك.

فقال الفتى: لو أعطيتنى وزنها ذهبًا لم آخذه إلاّ برضا أمّى فردّها إلى أمّه وأخبرها بالثّمن

فقالت: ارجع فبعها ستة على رضاى فانطلق الفتى بالبقرة إلى السوق وأتى الملك وقال: استأمرت والدتك؟

فقال الفتى: إنّها أمرتنى أن لا أنقصها من ستة على أن أستأمرها. قال الملك: فإننى أعطيك اثنى عشر على أن لا تستأمرها.

فأتى الفتى ورجع إلى أمّه وأخبرها بذلك قالت: إنّ ذلك الرجل الذّى يأتيك ويعطيك هو ملك من الملائكة يأتيك فى صورة آدمى ليجرّبك فإذا أتاك فقل له أتأمرنا أن نبيع هذه البقرة أم لا؟

ففعل ذلك فقال له الملك: اذهب إلى أمّك وقل لها بكم هذه البقرة؟ فإنّ موسى بن عمران يشتريها منكم لقتيل يقتل من بنى إسرائيل فلا تبيعوها إلاّ بملء مسكها دنانير فأمسكوا البقرة، وقدر الله على بنى إسرائيل ذبح تلك البقرة بعينها وأمرهم بها فقالوا يستوصفون ويصف لهم حتّى وصف تلك البقرة بعينها موافاة له على برّه بوالدته فضلاً منه.

فضلاً منه ورحمة وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ أىّ سل وهكذا هو فى مصحف عبد الله، سل لنا ربّك يبين لنا هى؟ وما سنّها؟

قال موسى: إنّه يعنى أن الله يقول: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكۡرٌ﴾ لا كبيرة ولا صغيرة وارتفع البكر والفارض بإضمار هى إذ لا هى فارض ولا هى بكر.

مجاهد وأبو عبيدة والأخفش: الفارض الكبيرة المسنّة التى لا تلد يقال له: فرضت ـ تفرض ـ فروضًا.

قال الشاعر:

كميت بهيم اللون ليس بفارض ولا بعـــوان ذات لون مخصف

وقال الرّاجز:

يا رُبَّ ذى ضغن علىّ فارض له قروء كقروء الحـــائض

أىّ حقد قديم، والبكر: الفتية الصغيرة التى لم تلد قط.

وقال السّدى: البكر: التى لم تلد إلاّ ولدًا واحدًا وحذف الحاء منها للاختصاص.

﴿عَوَانٌ﴾ نصف بين سنين، وقال الأخفش: العوان التى نتجت مراراً وجمعه عون، ويُقال منه: عونت تعوينًا.

﴿فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ﴾ من ذبح البقرة ولا تكرّروا السؤال.

﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ﴾ محل (ما) رفع بالابتداء و﴿لَوۡنُهَاۚ﴾خبر، وقرأ الضّحاك

﴿لونهاً﴾ نصبًا كأنّه عمل فيه لسببين وجعل ما صلة .

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾.

قال ابن عبّاس : شديد الصفرة وقال عدى بن زيد :

وإنى لأسقى الشرب صفراً فاقعًا ❖ كأن ذكىّ المسك فيها يعبّق

قتادة وأبو العالية والربيع : صاف .

سعيد بن جبير : صفراء اللون والظّلف .

الحسن : السوداء ، والعرب تسمى الأسود أصفر . قال الأعشى :

تلك خيلى منه وتلك ركابى   هن صفر أولادهـا كالزبيب

قال القتيبى : غلط من قال الصفراء هاهنا السوداء ؛ لأنّ هذا غلط فى نعوت البقر . وإنّما هو فى نعوت الإبل ؛ وذلك أنّ السّوداء من الإبل شربت سوادها صفرة ، والآخر أنّه لو أراد السّوداء لما أكده بالفقوع لأنّ الفاقع المبالغ فى الصّفرة . كما يُقال : أبيض يفق وأسود حالك وأحمر قانى وأخضر ناضر .

﴿تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ﴾ إليها وتعجبهم من حسنها وصفاء لونها ؛ لأنّ العين تُسر وتولع بالنظر إلى الشىء الحسن .

الحسن قال : من لبس نعلاً صفراء قلّ همّه لأنّ الله يقول : صفراء فاقع لونها تسرّ الناظرين ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أسائمة أم عاملة .

﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ﴾ هذه قراءة العامة ، قرأ محمد ذو الشامة الأموى إن الباقر وهو جمع البقر كالجامل لجماعة الجمل وقال الشاعر :

ما لى رأيتك بعد عهدك موحشًا   خلقًا كحوض الباقر المتهــدّم

قال قطرب : تجمع البقرة ـ بقر ، وباقر ، وبقير ، وبقور ، وباقور . فإن قيل : لما قال تشابه والبقر جمع فلمَ لم يقل تشابهت؟ قيل فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنّه ذكر لتذكير بلفظ البقر ، كقوله : ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ (القمر : ٢٠) .

وقال المبرّد : سُئل سيبويه عن هذه الآية؟

(فقال :) كل جمع حروفه أقل من حروف واحد فإنّ العرب تُذكّره ، واحتج بقول الأعشى :

❖ ودّع هريرة إن الرّكب مرتحل ❖

ولم يقل مرتحلون ، وقال الزّجاج : معناه إنّ جنس البقر تشابه علينا .

﴿تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾ وفى تشابه سبع قراءات:

تشابه: بفتح التاء والهاء وتخفيف الشّين وهى قراءة العامة وهو فعل ماض ويذكر موحد.

وقرأ الحسن: تشابه: بتاء مفتوحة وهاء مضمومة وتخفيف الشّين أراد تَشابَهُ.

وقرأ الأعرج: تشابه: بفتح التاء وتشديد الشّين وضم الهاء على معنى يتشابه.

وقرأ مجاهد: تشبّه، كقراءة الأعرج إلاّ أنّه بغير ألف لقولهم: تحمل وتحامل.

وفى مصحف أُبى: تشابهت على وزن تفاعلت (فالتاء) لتأنيث البقر.

وقرأ ابن أبى إسحاق: تشابهت بتشديد الشين قال أبو حاتم: هذا غلط لأن التاء لا تدغم فى هذا الباب إلاّ فى المضارعة.

وقرأ الأعمش: متشابه علينا ـ جعله اسمًا.

ومعنى الآية: التبس واشتبه أمره علينا فلا نهتدى إليه.

﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾ إلى وصفها.

قال رسول الله ﷺ: «وايم الله لئن لم يستبينوا لما تبينت لهم آخر الأبد».

﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ﴾ مذلّلة بالعمل ـ يُقال: رجل ذليل بيّن الذّل، ودابة ذلولة بيّنة الذّل.

﴿تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أى مثلها للزراعة.

﴿وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ﴾ بريئة من العيوب، وقال الحسن: مسلّمة القوائم ليس فيها أثر العمل.

﴿لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾ قال عطاء: لا عيب فيها.

قال قتادة: لا بياض فيها أصلاً.

مجاهد: لا بياض فيها ولا سواد.

محمّد بن كعب: لا لون فيها يخالف معظم لونها.

فلما قال هذا﴿قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ أى بالوصف التام البين.

قيل: كانت البقرة التى أحيا بها القتيل لوارثه الذى قتله، وكان أوّل من فتح السؤال عنها رجاء أن لا يجدوها فطلبوها فلم يجدوا بكمال وصفها إلاّ عند الفتى البار. فاشتروها منه بملء مسكها ذهبًا.

وقال السدّى: اشتروها بوزنها عشر مرات ذهبًا.

﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ من غلاء ثمنها.

وقال محمّد بن كعب: وما كادوا يجدونها باجتماع أوصافها.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ يعنى عاميل، وهذه الآية أوّل القصّة.

﴿فَادَّارَءْتُمْ﴾ فاختلفتم ﴿فِيهَا﴾ قاله ابن عبّاس ومجاهد ومنه قول القائل فى رسول الله ﷺ: كان يُزكى فكان خير شريك لا يدارى ولا يُمارى.

قال الضّحاك: اختصمتم.

عبد العزيز بن يحيى: شككتم.

الربيع بن أنس: تدافعتم، وأصل الدراء: الدفع يعنى ألقى ذلك على هذا وهذا على ذاك؛ فدافع كل واحد عن نفسه كقوله تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ (الرعد: ٢٢، القصص: ٥٤)، وقوله: ﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ (النور: ٨)، وأصل قوله. . . . .[1] والباء صلة.

أبو عبيدة: احتملوا وأقروا به، ومنه الدُّعاء المأثور. . . . .[1] وأصل: فادارأتم فتدارأتم فأُدغمت التاء فى الدّال وأدخلت الألف ليسلم سكون الحرف الأول بمثل قوله ﴿اثَّاقَلْتُمْ﴾ (التوبة: ٣٩).

﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ تخفون.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ﴾ يعنى القتيل.

﴿بِبَعْضِهَا﴾ أى ببعض البقرة: فاختلفوا فى هذا البعض ما هو؟

فقال ابن عبّاس: اضربوه بالعظم الذى يلى الفخذين وهو المقتل.

الضّحاك: بلسانها. قال الحسين بن الفضل: وهذا أولى الأقاويل لأنّ المراد كان من إحياء القتيل كلامه واللسان آلته.

سعيد بن جبير: ضربت بذنبها. قال يمان: وهو أولى التأويلات بالصواب لأنّ العصعص أساس البدن الذى ركب عليه الخلق وأنّه أوّل ما يخلق وآخر ما يُبلى.

مجاهد: بذنبها.

عكرمة والكلبى: بفخذها الأيمن.

السّدى: بالبضعة التى بين كتفيها، وقيل: بإذنها.

ففعلوا ذلك فقام القتيل حيًّا بإذن الله وأوداجها تشخب دمًا وقال: قتلنى فلان. ثمّ سقط ومات مكانه، وفى الآية اختصار، وتقديرها: فقلنا اضربوه ببعضها فضرب فحيى كقوله: تعالى ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (البقرة: ١٨٥) يعنى فافطر فعدة، وقوله:

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ﴾ (البقرة: ١٩٦) أى فحلق ففدية.

﴿كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ كما أحيا عاميل بعد موته كذلك يُحيى الله الموتى.

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ دلائل آياته. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وقال الواقدى: كل شىء فى القرآن فهو بمعنى لكى غير التى فى الشعراء: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ (الشعراء: ١٢٩) فإنه بمعنى: كأنّكم تخلدون فلا تموتون.

❖ ❖ ❖

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ﴾ قال الكلبى: قالوا بعد ذلك لم نقتله، وأمكروا فلم يكونوا قط أعمى قلبًا ولا أشد تكذيبًا لنبيّهم منهم عند ذلك قال الله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ الكلبى وأبو روق: يبست واشتدت وقال سائق البربرى:

ولا أرى أثرًا للذكر فى جسدى والحبل فى الجبل القاسى له أثر

أبو عبيدة: جفّت.

الواقدى: جفّت من الشّدة فلم تلن.

المؤرّخ: غلظت، وقيل: اسودّت.

قال الزجاج: تأويل القسوة ذهاب اللّين، (وقال سيبويه) والخشوع والخضوع.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أى بعد ظهور الدلالات.

﴿فَهِىَ﴾ غلظها وشدتها.

﴿كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ أى بل أشد قسوة كقول الشاعر:

بدت مثل قرن الشمس فى رونق الضحى وصورتها أو أنت فى العين أملح

أى بل، وقيل: هو بمعنى الواو والألف صلة أى وأشد قسوة. كقوله تعالى: ﴿ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ (الإنسان: ٢٤) أىّ وكفوراً.

وقرأ أبو حياة: أو أشد قساوة، وقال الكسائى: القسوة والقساوة واحد كالشقوة والشّقاوة ثمّ عذر الحجارة وفضلها على القلب القاسى فقال: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ وقرأ مالك بن دينار ينفجر بالنون كقوله: ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾ (البقرة: ٦٠)، وفى مصحف أُبى: منها الأنهار - ردّ الكناية إلى الحجارة.

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ﴾ أى يتشقق هكذا قرأها الأعمش.

﴿فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ﴾ ينزل من أعلى الجبل إلى أسفله.

﴿مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ عزّ وجلّ وقلوبكم يا معاشر اليهود لا تلين ولا تخشع ولا تأتى بخير.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وعيد وتهديد أى بتارك عقوبة ما تعملون بل يجازيكم به.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ أى فترجون - يعنى - محمّداً ﷺ وأصحابه.

﴿أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ﴾ لن يصدّقكم اليهود.

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ طائفة منهم.

﴿يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ يعنى التوراة.

﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ أى يُغيرونه أى ما فيه من الأحكام.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ علموه وفهموه كما غيّروا آية الرّجم وصفة محمّد ﷺ.

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون - هذا قول مجاهد وقتادة وعكرمة ووهب والسّدى.

وقال ابن عبّاس ومقاتل: نزلت هذه الآية فى السبعين المختارين؛ وذلك أنّهم لما ذهبوا مع موسى إلى الميقات وسمعوا كلام الله وما يأمره وما ينهاه رجعوا إلى قومهم فأمّا الصّادقون فأدّوا كما سمعوه وقالت طائفة منهم: سمعنا الله فى آخر كلامه يقول: إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا فإن شئتم فلا تفعلوا ولا بأس.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟﴾ قرأ ابن السُّميقع لاقوا: يعنى منافقى اليهود.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بألسنتهم لا بقلوبهم أبا بكر وأصحابه من المؤمنين.

﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ كإيمانكم وشهدنا أنّ محمداً صادق نجده فى كتابنا بنعته وصفته.

﴿وَإِذَا خَلَا﴾ رجع بعضهم إلى بعض أى كعب بن الأشرف وكعب بن أسيد ووهب بن يهودا وغيرهم من رؤساء اليهود ولامُوهم على ذلك و ﴿قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ قال الكلبى:

بما قضى الله عليكم فى كتابكم أنّ محمّدًا حق وقوله صدق، وقال القاضى الفتاح الكسائى: بما بيّنه لكم فى كتابكم (من العلم ببعث محمد والبشارة به).

الواقدى: بما أنزل الله فى الدنيا والآخرة عليكم نظير ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (الأعراف:٩٦) أى أنزلناه.

أبو عبيدة والأخفش: بما منّ الله عليكم وأعطاكم.

﴿لِيُحَآجُّوكُم﴾ ليخاصموكم ويحتجوا بقولكم عليكم (يعنى أصحاب محمد).

﴿بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ وقال بعضهم: هو أنّ الرجل من المسلمين كلما يلقى قرينه وحليفه وصديقه من اليهود فيسأله عن أمر محمّد ﷺ فيقولون إنّه لحق (فيقولون قد أقررتم أنه نبى حق فى كتابكم ثمّ تتبعونه) وهو نبىّ. فيرجعون إلى رؤسائهم فيلومونهم على ذلك.

قال السّدى: كان ناس من اليهود آمنوا ثمّ نافقوا وكانوا يحدثون المؤمنين بما عُذبوا به ـ فقال لهم رؤساؤهم: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم أى أنزل من العذاب ليعيروكم به ويقولوا: نحن أكرم على الله منكم.

(ابن جرير عن) القاسم بن أبى برة: هذا قول يهود قريظة بعضهم لبعض حين سبّهم النبىّ ﷺ: فقال: يا إخوان القردة والخنازير وعبدة الطّاغوت، فقالوا: من أخبر محمّدًا بهذا؟ ما خرج هذا إلاّ منكم.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفليس لكم ذهن الإنسانيّة.

قال الله ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ما يخفون وما يبدون يعنى اليهود، وقرأ ابن محيصن «ما» على الخطاب ﴿وَمِنْهُمْ﴾ من اليهود.

﴿أُمِّيُّونَ﴾ قال ابن عبّاس وقتادة: يعنى غير عارفين معانى الكتاب. يعلمونه حفظًا وقراءة بلا فهم ولا يدرون ما فيه.

وقال الكلبى: لا يحسنون قراءة الكتاب ولا كتابته ودليل هذا التأويل قول النبىّ ﷺ: «إنّا أُمّة أُمّية لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا وهكذا».

وقال أهل المعانى: الأُمّى منسوب إلى الأمة وما عليه العامة معنى الأُمى: العامى الذى لا تميز له، أو هو جمع أُمى منسوب إلى الأُم كأنّه باقٍ على (الحقيقة) حذفت منه هاء التأنيث لأنّها زائدة وياء النسبة زائدة، ونقلت فرقًا بينها وبين ياء الإضافة.

﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ قرأ العامّة بتشديد الياء.

وقرأ الحسن وأبو جعفر وشيبة والأعرج ﴿أَمَانِى﴾ بتخفيف الياء فى كلّ القرآن حذفوا إحدى

الياءين استخفافًا وهي ياء الجمع مثل مفاتح ومفاتيح.

وقال أبو حاتم: كل جمع من هذا الجنس واحد مشدّد فلك فيه التّضعيف والتشديد مثل فخاتي وأماني وأغاني وغيرها واختلفوا في معنى الأمانيّ، وقال الكلبي بمعنى لا يعلمون إلاّ ما تحدّثهم به علماؤهم.

أبو روق وأبو عبيدة: تلاوة وقراءة على ظهر القلب ولا يقرءونها في الكتب، يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ (الحجّ: ٥٢) وقرآنه.

قال الشاعر:

تمنّى كتاب الله أوّل ليلة وآخرها لاقى حمام المقادر

مجاهد وقتادة: كذبًا وباطلاً.

الفرّاء: الأماني: الأحاديث المفتعلة.

قال بعض العرب لابن (دلب): أهذا شيء رويته أم تمنيته؟

وأراد بأماني الأنبياء التي كتبها علماؤهم من قبل أنفسهم ثمّ أضافوها إلى الله عزّ وجلّ من تغيير نعت محمّد ﷺ.

الحسن وأبو العالية: يعني يتمنون على الله الباطل والكذب مثل قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ (البقرة: ٨٠) وقولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾ (البقرة: ١١١)، وقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ (المائدة: ١٨).

﴿وَإِنْ هُمْ﴾ ما هم. ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ظنًا ووهمًا لا حقيقة ويقينًا قاله قتادة والرّبيع.

وقال مجاهد: يكذبون.

﴿فَوَيْلٌ﴾ روى أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «الويل وادٍ في جهنّم يهوي فيه الكافر أربعين خريفًا قبل أن يبلغ إلى قعره».

سعيد بن المسيب: واد في جهنّم لو سرت فيه جبال الدّنيا لماعت من شدّة حرّها.

ابن بريدة: جبل من قيح ودم.

ابن عباس: شدّة العذاب.

ابن كيسان: كلمة يقولها كلّ مكروب.

الزجّاج: كلمة يستغلّها كل واقع في الهلكة وأصلها العذاب والهلاك.

وقيل: هو دعاء الكفّار على أنفسهم بالويل والثّبور.

﴿لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وذلك أنّ أحبار

اليهود خافوا ذهاب ملكهم وزوال رئاستهم حين قدم النبىّ ﷺ المدينة واحتالوا فى تعويق اليهود عن الإيمان به فعمدوا إلى صفته فى التوراة وكان صفته فيها حسن الوجه، حسن الشعر، أكحل العين، ربعة فغيروها وكتبوا مكانها طويل أزرق، سبط الشعر. فإذا سألهم سفلتهم عن محمّد ﷺ قرءوا عليهم ما كتبوا فيجدونه مخالفًا لصفة محمّد ﷺ فيكذبونه قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من تغيير نعت محمّد.

﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ من المأكول ولفظة الأيدى للتأكيد كقولهم مشيت برجلى ورأيت بعينى. قال الله تعالى: ﴿وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ (الأنعام: ٣٨).

قال الشّاعر:

❖ نظرت فلم تنظر بعينك منظراً ❖

وقال أبو مالك: نزلت هذه الآية فى الكاتب الّذى يكتب لرسول الله ﷺ وقد كان قرأ البقرة وآل عمران، وكان النبى ﷺ يملى: غفوراً رحيمًا، فيكتب: عليمًا حكيمًا، فيقول له النبىّ ﷺ: «اكتب كيف شئت» ويملى عليه: عليمًا حكيمًا، فيكتب: سميعًا بصيراً، فيقول النبىّ ﷺ: «اكتب كيف شئت» قال: فارتدّ ذلك الرّجل عن الإسلام ولحق بالمشركين.

قال: أما يعلمكم محمّد ﷺ أن كنت لأكتب ما شئت أنا، فمات ذلك الرّجل فقال النبىّ ﷺ: «إنّ الأرض لا تقبله».

قال: فأخبرنى أبو طلحة: أنّه أتى الأرض الّتى بات فيها فوجده منبوذًا، فقال أبو طلحة: ما شأن هذا؟ قالوا: دفنّاه مراراً فلم تقبله الأرض.



﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

﴿وَقَالُواْ﴾ يعنى اليهود.

﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ قدراً مقدّراً ثمّ يزول عنّا العذاب وينقطع، واختلفوا فى هذه الأيّام ما هى.

وقال ابن عبّاس ومجاهد: قدم رسول الله ﷺ المدينة واليهود يقولون: مدّة الدّنيا سبعة آلاف سنة وإنّما نعذّب بكل ألف سنة يومًا واحدًا ثمّ ينقطع العذاب بعد سبعة أيّام، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قتادة وعطاء: يعنون أربعين يومًا التى عبد آباؤهم فيها العجل وهى مدّة غيبة موسى عليه السلام عنهم.

الحسن وأبو العالية: قالت اليهود: إنّ ربّنا عتب علينا فى أمرنا أقسم ليعذّبنا أربعين ليلة ثمّ يدخلنا الجنّة فلن تمسّنا النار إلاّ أربعين يومًا تحلّة القسم فقال الله تعالى تكذيبًا لهم: قل يا محمّد ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ﴾ ألف الاستفهام دخلت على ألف الوصل.

﴿عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾ موثقًا ألاّ يعذّبكم إلاّ هذه المدّة.

﴿فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾ وعده، وقال ابن مسعود: بالتوعد يدلّ عليه قوله تعالى ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ (مريم:٨٧) يعنى قال: لا إله إلاّ الله مخلصًا ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال: ﴿بَلَىٰ﴾«بل وبلى» حرفا استدراك ولهما معنيان لنفى الخبر الماضى وإثبات الخبر المستقبل، قال الكسائى: الفرق بين (بلى ونعم)، أنّ بلى: إقرار بعد جحود، ونعم: جواب استفهام بغير جحد، فإذا قال: ألست فعلت كذا، فيقول: بلى، وإذا قال: ألم تفعل كذا؟

فيقول: بلى، وإذا قال أفعلت كذا؟ فيقول: نعم.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ (الملك:٨، ٩) وقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ (الأعراف:١٧٢) وقال فى غير الجحود: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ﴾ (الأعراف:٤٤) ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝ قُلْ نَعَمْ﴾ (الصافات:١٦-١٨) قل نعم وإنّما قال هاهنا بلى للجحود الّذى قبله وهو قوله: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾.

﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ يعنى الشرك.

﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ قرأ أهل المدينة خطيّاته بالجمع، وقرأ الباقون خطيته على الواحدة، وهو اختيار أبى عبيد وأبى حاتم والإحاطة الإحفاف بالشىء من جميع نواحيه واختلفوا فى معناها هاهنا.

وقال ابن عبّاس والضحاك وعطاء وأبو العالية والربيع وابن زيد: هى الشرك يموت الرجل

عليه فجعلوا الخطيئة الشّرك.

قال بعضهم: هى الذّنوب الكثيرة الموجبة لأهلها النّار.

أبو زرين عن الربيع بن خيثم فى قوله تعالى: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ قال: هو الّذى يموت على خطيئته قبل أن يتوب ومثله قال عكرمة وقال مقاتل: أصرّ عليها.

مجاهد: هى الذّنوب تحيط بالقلب كلّما عمل ذنبًا ارتفعت حتّى تغشى القلب وهو الرّين.

وعن سلام بن مسكين أنّه سأل رجل الحسن عن هذه الآية؟

فقال السّائل: يا سبحان الله ألاّ أراك ذا لحية وما تدرى ما محاطة الخطيئة! انظر فى المصحف فكل آية نهى الله عزّ وجلّ عنها وأخبرك أنّه من عمل بها أدخله النّار فهى الخطيئة المحيطة.

الكلبى: أوبقته ذنوبه دليله قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ (يوسف:٦٦): أى تهلكوا جميعًا.

وعن ابن عبّاس: أحيطت بما له من حسنة فأحبطته.

﴿فَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وهذا من العام المخصوص بصور منها إلاّ من تاب بعد أن حمل على ظاهره ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فى التّوراة. قال ابن عبّاس: الميثاق: العهد الجديد.

﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ بالياء قرأه ابن كثير وحميد وحمزة والكسائى.

الباقون: بالتّاء وهو اختيار أبى عبيدة وأبى حاتم.

قال أبو عمرو: ألا تراه يقول: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة:٨٣) فذلك المخاطبة على التّاء.

قال الكسائى: إنّما ارتفع لا يعبدون لأنّ معناه أخذنا ميثاق بنى إسرائيل أن لا تعبدوا إلاّ الله فلمّا ألقى أن رفع الفعل ومثله قوله ﴿لَا تَسْفِكُونَ﴾، نظير قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ﴾ (الزمر:٦٤): يريد أن أعبد فلمّا حذفت النّاصبة عاد الفعل إلى المضارعة.

وقال طرفة:

ألا أيّهـذا الزاجرى أحضر الوغى وأنْ أشهدَ اللّذاتِ هل أنت مخلدى

يريد أن أحضر، فلمّا نزع (أنْ) رفعه.

وقرأ أُبى بن كعب: لا تعبدوا جزمًا على النهى أى وقلنا لهم لا تعبدوا إلاّ الله ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ ووصّيناهم بالوالدين إحسانًا برًّا بهما وعطفًا عليهما.

وإنّما قال بالوالدين واحدهما والد؛ لأنّ المذكّر والمؤنّث إذا اقتربا غلب المذكّر لخفّته وقوّته.

﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أى وبذى القرابة، والقربى مصدر على وزن فعلى كالحسنى والشّعرى.

قال طرفة:

وقربت بالقربى وجدك له ينى   فتحايك أمر للنكيثة أشهد

﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ جمع يتيم مثل ندامى ونديم وهو الطفل الذى لا أب له.

﴿وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ يعنى الفقراء.

﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ اختلفت القراءة فيه فقرأ زيد بن ثابت وأبو العالية وعاصم وأبو عمرو ﴿حُسْنًا﴾ بضم الحاء وجزم السّين وهو اختيار أبى حاتم دليله قوله عزّ وجلّ: ﴿بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ (العنكبوت:٨) وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا﴾ (النمل:١١).

وقرأ ابن مسعود وخلف حَسَنًا بفتح الحاء والسّين وهو اختيار أبى عبيد وقوله: إنّما اخترناها لأنها نعت بمعنى قولاً حسنًا.

وقرأ ابن عمر: حُسُنًا بضم الحاء والسّين والتنوين مثل الرّعب والنّصب والسّحت والسُّحق ونحوها.

وقرأ عاصم والجحدرى: إحسانًا بالألف.

وقرأ أبى بن كعب وطلحة بن مصرف: حسنى وقرنت بالقربى بالتأنيث مرسلة.

قال الثعلبى: سمعت القاسم بن حبيب يقول: سمعت أبا بكر بن عبدوس يقول: مجازه كلمة حسنى ومعناه قولوا للنّاس صدقًا وحقًّا فى شأن محمّد ﷺ فمن سألكم عنه فأصدقوه وبينوا له صفته ولا تكتموا أمره ولا تغيروا نعته هذا قول ابن عبّاس وابن جبير وابن جريج ومقاتل دليله قوله: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ (طه:٨٦) أى صدقًا.

وقال محمّد بن الحنفية: هذه الآية تشمل البرّ والفاجر.

وقال سفيان الثّورى: ائمروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أى أعرضتم عن العهد والميثاق ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ نصب على الاستثناء.

﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ وذلك أن قومًا منهم آمنوا.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ﴾ لا تريقون ﴿دِمَآءَكُمْ﴾ وقرأ طلحة بن مصرف تسفكون بضم الفاء وهما لغتان مثل يعرشون ويعكفون.

وقرأ أبو مجلز: تسفكون بالتشديد على التكثير.

وقال ابن عبّاس وقتادة: معناه لا يسفك بعضكم دم بعض بغير حق وإنّما قال (دماءكم) لمعنيين: أحدهما أن كلّ قوم اجتمعوا على دين واحد فهم كنفس واحدة.

والآخر: هو أنّ الرجل إذا قتل غيره كأنّما قتل نفسه لأنّه يقاد ويقتصّ منه ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ﴾ أى لا يخرج بعضكم بعضًا من داره ولا تسبوا من جاوركم فتلجئوهم إلى الخروج بسوء جواركم.

﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ بهذا العهد إنّه حقّ.

﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ اليوم على ذلك يا معشر اليهود.



﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ يعنى يا هؤلاء فحذف النّداء للاستغناء بدلالة الكلام عليه كقوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ﴾ (الإسراء: ٣) فهؤلاء لتنبيه ومبنى على الكسرة مثل أنتم ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ قراءة العامّة بالتخفيف من القتل.

وقرأ الحسن: تقتلون بالتثقيل من التقتيل.

﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم﴾ قراءة العامّة وهم أهل الحجاز والشّام وأبو عمرو ويعقوب: تظاهرون بتشديد الظاء، واختاره أبو حاتم ومعناه تتظاهرون فأدغم التّاء فى الظاء مثل: اثاقلتم وادّاركوا.

وقرأ عاصم والأعمش وحمزة وطلحة والحسن وأبو عبد الرحمن وأبو رجاء والكسائى: تظاهرون بتخفيف الظاء، واختاره أبو عبيد ووجه هذه القراءة: أنّهم حذفوا تاء الفاعل وأبقوا تاء الخطاب كقوله: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟﴾ (المائدة: ٢) وقوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ (الصافات: ٢٥).

وقال الشّاعر:

تعاطسون جميعًا حول داركم ... فكلكم يا بنى حمّان مزكوم

وقرأ أُبى ومجاهد: تظهّرون مشددًا بغير ألف أى تتظهّرون. . . . .[1] جميعًا تعاونون، والظهر: العون سمّى بذلك لإسناد ظهره إلى ظهر صاحبه.

وقال الشّاعر:

تكثّر من الإخــوان ما اسطعت . . . .[1] إذا استنجدتهم فظهيرُ

ومــا بكثير ألف خل وصاحب وإنّ عــدوًّا واحـــدًا لكثيرُ

﴿بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ بالمعصية والظلم.

﴿وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ﴾ قرأ عبد الرحمن السّلمى ومجاهد وابن كثير وابن محيصن وحميد وشبل والجحدرى وأبو عمرو وابن عامر: (أُسارى تفدوهم) بغير ألف، وقرأ الحسن: (أسرى) بغير ألف (تفادوهم) بالألف، وقرأ النخعى وطلحة والأعمش ويحيى بن رئاب وحمزة وعيسى بن عمرو وابن أبى إسحاق: (أسرى تفدوهم) كلاهما بغير ألف وهى اختيار أبى عبيدة.

وقرأ أبو رجاء وأبو جعفر وشيبة ونافع وعاصم وقتادة والكسائى ويعقوب: (أُسارى تفادوهم) كلاهما بالألف، واختاره أبو حاتم.

فالأسرى: جمع أسير مثل جريح وجرحى، ومريض ومرضى، وصريع وصرعى، والأسارى: جمع أسير أيضًا مثل كُسالى وسُكارى، ويجوز أن يكون جمع أسرى نحو قولك: امرأة سكرى ونساءٌ سُكارى، ولم يفرق بينهما أحد من العلماء الأثبات إلاّ أبو عمرو.

روى أبو هشام عن جبير الجعفى عن أبى عمرو قال: ما أُسر فهو أُسارى وما لم يؤسر فهو أُسرى، وروى عنه من وجه آخر قال: ما صار فى أيديهم فهم أُسارى، وما جاء مستأسرًا فهو أسرى.

عن أبى بكر النقاش قال: سمعت أحمد بن يحيى ثعلب وقد قيل له هذا الكلام عن أبى عمرو فقال: هذا كلام المجانين. يعنى لا فرق بينهما.

وحُكى عن أبى سعيد الضرير أنّه قال: الأسارى: هم المقيدّون المشدَّدون والأسرى: هم المأسورون غير المقيدين. فأما قولهم تفدوهم بالمال وتنقذوهم بفدية أو بشىء آخر، وتفادوهم: تبادلوهم أراد مفاداة الأسير بالأسير، وأسرى: فى محل نصب على الحال.

فأما معنى الآية ـ قال السّدى: إنّ الله عزّ وجلّ أخذ على بنى إسرائيل فى التوراة أن لا يقتل بعضهم بعضًا، ولا يخرج بعضهم بعضًا من ديارهم فأيما عبد أو أمة وجدتموه من بنى إسرائيل

(١) بياض بالأصل المخطوط.

فاشتروه بما قام ثمنه فأعتقوه. فكانت قريظة حُلفاء الأوس، والنّضير حُلفاء الخزرج وكانوا يقتتلون فى حرب نمير. فيُقاتل بنو قريظة مع حلفائهم، وبنو النّضير مع حلفائهم، وإذا غلبوا خرّبوا ديارهم وأخرجوهم منها فإذا أُسر رجل من الفريقين كليهما جمعوا له حتّى يفدوه وإن كان الأسير من عدوهم فيُعيّرهم العرب بذلك وتقول: كيف يقاتلونهم ويفدونهم! ويقولون: إنّا قد أمرنا أنْ نفديهم وحُرّم علينا قتالهم. قالوا: فَلِمَ تقاتلونهم؟

قالوا: نستحى أن تستذل حلفاؤنا فذلك حين عيّرهم الله تعالى فقال: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم﴾ الآية، وفى الآية تقديم وتأخير نظمها: وتخرجون فريقًا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثمّ والعدوان وهو محرم عليكم إخراجهم وإن يأتوكم أُسارى تفدوهم.

وكان الله تعالى أخذ عليهم أربعة عهود: ترك القتل، وترك الإخراج وترك المظاهرة عليهم مع أعدائهم وفداء أُسرائهم. فأعرضوا عن كل ما أُمروا إلاّ الفداء. فقال الله عزّ وجلّ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ فإيمانهم بالفداء وكفرهم بالقتل والإخراج والمظاهرة. قال مجاهد: يقول: إن وجدته فى يد غيرك فديته، وأنت تقتله بيدك، وقيل: معناه يستعملون البعض ويتركون البعض، تفادون أُسراء قبيلتكم وتتركون أُسراء أهل ملّتكم فلا تفادوهم.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾ يا معشر اليهود ﴿إِلَّا خِزْىٌ﴾ عذاب وهوان.

﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فكان خزى قريظة القتل والسّبى، وخزى بنى النضير الجلاء والنفى عن منازلهم وجنانهم إلى أذرعات وأريحا من الشّام.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ وهو عذاب النّار وقرأ أبو عبد الرحمن السّلمى وأبو رجاء والحسن: تُردّون بالتاء، لقوله ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء مدنى وأبو بكر ويعقوب، والباقون: بالتاء.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟﴾ استبدلوا.

﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ﴾ يهوّن ويُرفّه.

﴿عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يمنعون من عذاب الله.

❖ ❖ ❖

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ أعطينا.

﴿مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾ التوراة جملة واحدة.

﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أردفنا واتبعنا.

﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ رسولاً بعد رسول. يُقال: مضى أثرهُ وقفا غيره؛ فى التعدية وهو مأخوذ من قفا الإنسان قال الله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ (الإسراء:٣٦)، وقال أُمية بن الصّلت:

قالت لأخت له قُصيه عن جنب وكيف تقفو ولا سهل ولا جدد

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ العلامات الواضحات والدلالات اللايحات وهى التى ذكرها الله عزّ وجلّ فى سورة آل عمران والمائدة.

﴿وَأَيَّدْنَـٰهُ﴾ قويناه وأعناه من الآد والأيد، مجاهد: أيدناه بالمد وهما لغتان مثل كرّم وأكرم.

﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ خفف ابن كثير القدس فى كل القرآن، وثقله الآخرون، وهما لغتان مثل الرّعب والسّحت ونحوهما، واختلفوا فى روح القدس فقال الربيع وعكرمة: هو الرّوح الذى نفخ فيه إضافة إلى نفسه؛ تكريمًا وتخصيصًا نحو بيت الله، وناقة الله وعبد الله، والقدس: هو الله عزّ وجلّ يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (النساء:١٧١) وقوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ (التحريم:١٢).

والآخرون: أرادوا بالقدس الطهارة يعنى الرّوح الطاهر سمّى روحه قدسًا؛ لأنّه لم يتضمنه أصلاب الفحولة ولم تشتمل عليه أرحام الطوامث إنّما كان أمرًا من الله تعالى.

السّدى والضّحاك وقتادة وكعب: الروح القدس: جبرئيل قال الحسن: القدس: هو الله وروحه جبرئيل.

السّدى: القدس: البركة وقد عظّم الله بركة جبرئيل إذ أنزل الله عامة وحيه إلى أنبيائه على لسانه وتأييد عيسى عليه السلام بجبرئيل هو أنّه كان قرينه يسير معه حيثما شاء والآخر أنّه صعد به إلى السّماء، ودليل هذا التأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ (النحل: ١٠٢).

وقال ابن عبّاس وسعيد بن جبير وعبيد بن عمير: هو اسم الله الأعظم وبه كان يُحيى الموتى ويُرى النّاس تلك العجائب.

وقال ابن زيد: هو الإنجيل جُعل له روحًا كما جعل القرآن لمحمّد ﷺ روحًا، يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ (الشورى: ٥٢) فلمّا سمعت اليهود بذكر عيسى عليه السلام قالوا: يا محمّد لا مثل عيسى كما زعمت ولا كما يقصّ علينا من الأنبياء (عليهم السلام) قالوا: فأتنا بما أتى به عيسى إن كنت صادقًا.

فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ﴾ يا معشر اليهود ﴿رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ﴾ لا تحب ولا توافق.

﴿أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ تكبّرتم وتعظمتم عن الإيمان به.

﴿فَفَرِيقًا﴾ طائفة سُمّيت بذلك لأنّها فرقة من الجملة.

﴿كَذَّبْتُمْ﴾ عيسى ومحمّدًا.

﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ أىّ قتلتم زكريا ويحيى وسائر من قُتلوا من الأنبياء.

﴿وَقَالُوا۟﴾ يعنى اليهود ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ قرأ ابن محيصن بضم اللام، وقرأ الباقون بجزمه. فمن خففه فهو جمع الأغلف مثل أصفر وصُفر ـ وأحمر وحُمر وهو الذى عليه غطاء وغشاء بمنزلة الأغلف غير المختون فالأغلف والأعلف واحد ومعناه عليها غشاوة فلا تعى ولا تفقه ما تقول يا محمّد.

قال مجاهد وقتادة نظيره قوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ (فصّلت: ٥)، ومن ثقّل فهو جمع غلاف مثل حجاب وحجب وكتاب وكتب، ومعناه قلوبنا أوعية لكلّ علم فلا نحتاج إلى علمك وكتابك. قالهُ عطاء وابن عبّاس.

وقال الكلبى: يريدون أوعية لكلّ علم فهى لا تسمع حديثًا إلاّ وعته إلاّ حديثك لا تفقهه ولا تعيه ولو كان فيه خيرًا لفهمته ووعته.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ وأصل اللعن الطرد والإبعاد تقول العرب (نماء)

ولعين أى بُعد. قال الشّماخ:

ذعرت به القطا ونفيت عنه مقام الذنب كالرّجل اللعين

فمعنى قوله: لعنهم الله طردهم وأبعدهم من كل خير، وقال النضر بن شميل: الملعون المخزى المهلك.

﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ معناه لا يؤمن منهم إلاّ قليلاً؛ لأنّ من آمن من المشركين أكثر ممن آمن من اليهود، قال قتادة، وعلى هذا القول ما: صلة معناه فقليلاً يؤمنون، ونصب قليلاً على الحال.

وقال معمر: معناه لا يؤمنون إلاّ بقليل بما فى أيديهم ويكفرون بأكثره، وعلى هذا القول يكون ﴿قَلِيلًا﴾ منصوبًا بنزع حرف الصّفة وما صلة أى فبقليل يؤمنون.

وقال الواقدى وغيره: معناه لا يؤمنون قليلاً ولا كثيراً، وهذا كقول الرّجل لآخر: ما قل ما تفعل كذا يريد لا تفعله البتة.

وروى الفراء عن الكسائى: مررنا بأرض قلّ ما ينبت الكراث والبصل يريدون لا ينبت شيئًا.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يعنى القرآن.

﴿مُصَدِّقٌ﴾ موافق ﴿لِّمَا مَعَهُمْ﴾ وقرأ إبراهيم بن أبى عبلة مصدقًا بالنّصب على الحال.

﴿وَكَانُوا۟﴾ يعنى اليهود ﴿مِن قَبْلُ﴾ أى من قبل بعث محمّد ﷺ ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ يستنصرون، قال الله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ (الأنفال: ١٩) أى إن تستنصروا فقد جاءكم النّصر.

وفى الحديث عن النبىّ ﷺ (أنه) كان يستفتح القتال بصعاليك المهاجرين.

﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مشركى العرب وذلك أنّهم كانوا يقولون إذا حزم أمر ودهمهم عدو: «اللّهمّ انصرنا عليهم بالنبىّ المبعوث فى آخر الزمان الذى نجد نعته وصفته فى التوراة»، وكانوا يقولون زمانًا لأعدائهم من المشركين قد أطل زمان نبى يخرج بتصديق ما قُلنا، ونقتلكم معه قتل عاد وإرم.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟﴾ يعنى محمّداً ﷺ من غير بنى إسرائيل، وعرفوا نعته وصفته.

﴿كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ بغيًا وحسداً.

﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ بئس ونعم فعلان ماضيان وضعا للمدح والذم لا يتصرفان تصرف الأفعال ومعنى الآية: بئس الذى اختاروا لأنفسهم حين استبدلوا الباطل بالحق، والكفر بالإيمان.

وقيل: معناه بئس ما باعوا به حظ أنفسهم.

﴿يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يعنى القرآن.

﴿بَغْيًا﴾ بالبغى وأصل البغى الفساد. يُقال: بغى الجرح إذا أمد وضمد.

﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ النبوة والكتاب.

﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ محمّد ﷺ.

﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ أى مع غضب.

قال ابن عبّاس: الغضب الأوّل بتضييعهم التوراة، والغضب الثانى بكفرهم بهذا النبىّ الذى اتخذه الله تعالى فيهم.

قتادة وأبو العالية: الغضب الأوّل ـ بكفرهم بعيسى عليه السلام والإنجيل ـ والثانى: كفرهم بمحمد ﷺ والقرآن.

السّدى: الغضب الأوّل بعبادتهم العجل، والثانى بكفرهم بمحمّد ﷺ وتبديل نعته.

﴿وَلِلْكَـٰفِرِينَ﴾ وللجاحدين (لدين) محمّد ﷺ من النّاس كلهم.

﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يُهانون فلا يُعزّون.

❖ ❖ ❖

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ ۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يعنى القرآن.

﴿قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ يعنى التوراة.

﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ أى بما سواه وبعده.

﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ يعنى القرآن.

﴿مُصَدِّقًا﴾ نصب على الحال. ﴿لِّمَا مَعَهُمْ﴾ قل لهم يا محمّد: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ﴾ ولـمَ أصله (لما) فحذفت الألف فرقًا بين الخبر والاستفهام كقولهم: فيم وبم ولم وممّ وعلام وحتام، وهذا جواب لقولهم: نؤمن بما أنزل علينا.

فقال الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ﴾.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بالتوراة وقد خنتم فيها من قتل الأنبياء ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالدلالات اللايحات ـ والعلامات الواضحات.

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أى من بعد انطلاقه إلى الجبل ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟﴾ أى استجيبوا وأطيعوا سميت الطاعة سمعًا على المجاز لأنّه سبب الطّاعة والإجابة ومنه قولهم: سَمِعَ الله لمن حمده أى أجابه، وقال الشاعر:

دعوت الله حتّى خفتُ ألاّ يكون الله يسمع مـا أقول

أى يجب.

﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا﴾ قولك. ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك (أو سمعنا بالآذان وعصينا بالقلوب).

قال أهل المعانى: إنّهم لم يقولوا هذا بألسنتهم، ولكن لما سمعوا الأمر وتلقوه بالعصيان نُسب ذلك عنهم إلى القول اتساعًا، كقول الشاعر:

ومنهل ذبّابة فى عيطل يقلن للرائد عشبت أنزل

﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ أى حبّ العجل، كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ (يوسف: ٨٢)، وقال النابغة:

فكيف يواصل من أصبحت خـلاله كأنى مرحـب

أى لخلاله أنى مرحب، ومعناه أدخل فى قلوبهم حبّ العجل، وخالطها ذلك كإشراب اللون لشدة الملازمة.

﴿بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ أن تعبدوا العجل من دون الله (فالله لا يأمر بعبادة العجل).

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بزعمكم وذلك أنّهم قالوا: نؤمن بما أُنزل علينا، فكذبهم الله تعالى.

❖ ❖ ❖

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ

بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ الآية.

قال المفسّرون: سبب نزول هذه الآية: أنّ اليهود ادعوا دعاوى باطلة، حكاها الله تعالى عنهم فى كتابه كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ (البقرة: ٨٠).

وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ (البقرة: ١١١).

وقوله: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ (المائدة: ١٨) فكذبهم الله تعالى، وألزمهم الحجة. فقال: قل يا محمّد إن كانت لكم الدّار الآخرة عند الله.

﴿خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ خاصّة؛ لقوله تعالى: ﴿خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ (الأنعام: ١٣٩)، قوله ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ (الأعراف: ٣٢)، قوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأحزاب: ٥٠) أى خاصّة من دون النّاس.

﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ أى فأريدوه وحلّوه لأنّ من علم أنّ الجنّة مآبه حنّ إليها ولا سبيل إلى دخولها إلاّ بعد الموت فاستعجلوه بالتمنى.

﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ فى قولكم محقين فى دعواكم، وقيل فى قوله تعالى ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ أى ادعوا بالموت على الفرقة الكاذبة.

روى ابن عبّاس عن النبىّ ﷺ قال: «لو تمنّوا الموت لغصّ كل إنسان منهم بريقه، وما بقى على وجه الأرض يهودى إلاّ مات».

فقال الله تعالى ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ لعلمهم أنّهم فى دعواهم كاذبون.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ يعنى اليهود. هذا من إعجاز القرآن لأنّهُ تحداهم ثمّ أخبر أنّهم لا يفعلون بعد أن قال لهم هذه المقالة فكان على ما أخبر.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾ اللام لام القسم والنون تأكيد القسم تقديره: والله لتجدنهم يا محمد يعنى اليهود ﴿أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ وفى مصحف أبىّ على الحياة.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ قيل إنّه متصل بالكلام الأوّل.

معناه وأحرص من الذين أشركوا. قال الفراء: وهذا كما يُقال هو أسخى النّاس ومن حاتم: أى وأسخى من حاتم.

وقيل: هو ابتداء وتمام الكلام عند قوله: على حياتهم ابتدأ بواو الاستئناف وأضمر ﴿يَوَدُّ﴾ اسمًا تقديره: ومن الذين أشركوا من ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ كقول ذو الرّمة:

فظلوا ومنهم دمعهُ سابق له وآخر يذرى دمعه العين بالهمل

أراد ومنهم من دمعه سابق، وأراد بالذين أشركوا المجوس.

﴿يَوَدُّ﴾ يريد ويتمنى.

﴿أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ﴾ تقديره تعمير ألف.

﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال المفسّرون: هو تحيّة المجوس فيما بينهم عشر ألف سنة وكلمة ألف نيروز ومهرجان.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ من النّار.

﴿أَن يُعَمَّرَ﴾ أى تعميره: زحزحته فزحزح: أى بعّدته فتباعد يكون لازمًا ومتعديًا. قال ذو الرُّمة فى المتعدى:

يا قابض الرّوح من نفسى إذا احتضرت وغافر الذّنب زحزحنى عن النّار

وقال الراجز، فى اللازم:

خليلى ما بال الدجى لا يزحزح وما بال ضوء الصبح لا يتوضّح

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ الآية.

قال ابن عبّاس: إن حبرًا من أحبار اليهود يُقال له عبد الله بن صوريا كان قد حاج النبىّ ﷺ وسأله عن أشياء. فلما اتجهت الحُجّة عليه قال: أىّ ملك يأتيك من السّماء؟

قال: «جبرئيل ولم يُبعث الكتاب لأنبياء قط إلاّ وهو وليه». قال: ذلك عدُونا من الملائكة ولو كان ميكائيل مكانه لآمنّا بك؛ لأنّ جبرئيل ينزل بالعذاب والقتال والشقوة وإنّه عادانا مرارًا كثيرة، وكان أشد ذلك علينا أنّ الله تعالى أنزله على نبينا عليه السلام: إنّ بيت المقدس سيُخرب على يد رجل يقال له: بخت نصّر، وأخبرنا بالحين الذى يُخرب فيه، فلما كان وقته بعثنا رجلاً من أقوياء بنى إسرائيل فى طلب بخت نصّر ليقتله فانطلق يطلبه حتّى لقيه ببابل غلامًا مسكينًا ليست له قوة. فأخذه صاحبنا ليقتله فدفع عنه جبرئيل عليه السلام وقال لصاحبنا إن كان ربكم هو الذى أذن فى هلاككم فلن تسلط علينا وإن لم يكن هذا فعلى أى حق تقتله فصدقه صاحبنا ورجع عليه السلام: فكبر بخت نصّر وقوى وغزانا وخرّب بيت المقدّس؛ فلهذا نتخذه عدوًا. فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قال مقاتل: قالت اليهود إن جبرئيل عدونا أمرنا أن تجعل النبوّة فينا فجعلها فى غيرنا فأنزل

الله تعالى هذه الآية.

قتادة وعكرمة والسّدى: فكان لعمر بن الخطاب (رضى الله عنه) أرض بأعلى المدينة وممرها على مدارس اليهود، وكان عمر إذا أتى أرضه يأتيهم ويسمع منهم ويكلمهم. فقالوا: يا عمر ما فى أصحاب محمد أحب إلينا منك. إنّهم يمرّون هنا فيؤذونا وأنت لا تؤذينا وإنّا لنطمع فيك فقال عمر: والله ما أحبكم لحبكم، ولا أسألكم لأنّى شاك فى دينى، وإنّما أدخل عليكم لأزداد بصيرة فى أمر محمّد ﷺ وأرى آثاره فى كتابكم. فقالوا: من نصّب محمّد من الملائكة؟

قال: جبريل. فقالوا: ذلك عدوّنا يطلع محمّدًا على سرنا، وهو صاحب عذاب وخسف وسنة وشدة، وإنّ ميكائيل جاء بالخصب والسّلم. فقال لهم عمر: أتعرفون جبرئيل وتنكرون محمّدًا! قالوا: نعم.

قال: فأخبرونى عن منزلة جبرائيل وميكائيل من الله عزّ وجلّ؟

قالوا: جبرائيل عن يمينه وميكائيل عن يساره، وميكائيل عدّو لجبرائيل فقال عمر: وإنّى أشهد أنّ من كان عدواً لجبرائيل فهو عدوّ لميكائيل ومن كان عدوًا لميكائيل فهو عدوّ لجبرائيل، ومن كان عدواً لهما فإن الله عدوّ له، ثمّ رجع عمر إلى رسول الله ﷺ فوجد جبرائيل قد سبقه بالوحى فقرأ عليه رسول الله ﷺ هذه الآية وقال: «لقد وافقك ربّك يا عمر» فقال عمر: لقد رأيتنى فى دين الله بعد ذلك أصلب من الحجر.

قال الله تعالى تصديقًا لعمر (رضى الله عنه) ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ وفى جبرائيل سبع لغات:

(جبرئيل) مهموز، مشبع مفتوح الجيم والراء، وهى قراءة حمزة والكسائى وأبى بكر وخلف واختيار أبى عبيد، وقال: رأيت فى مصحف عثمان الذى يُقال له: الإمام بالياء فى جبريل وميكايل (والياء قبل) الياء تدلّ على الهمزة، وقال الشاعر:

شهدنا فما يُلقى لنا من كتيبة مدى الدّهر إلاّ جبرئيل إمامها

و(جبرائيل) ممدود، مهموز، مشبع، على وزن جبراعيل، وهى قراءة ابن عبّاس وعلقمة وابن وثاب.

و(جبرائل) ممدود، مهموز، مختلس على وزن جبراعل وهى قراءة طلحة بن مصرف.

و(جبرئل) مهموز، مقصور مختلس على وزن جبرعل، وهى قراءة يحيى بن آدم.

و(جبرالّ) مهموز، مقصور، مشدّد اللام من غير ياء، وهى قراءة يحيى بن يعمر، وعيسى ابن عمر، والأعمش.

(وجبريل) بفتح الجيم وكسر الرّاء من غير همز، وهى قراءة ابن كثير وأنشد لحسان:

وجبريل أمين الله فينا وروح القدس ليس به خفاءُ

(وجبريل) بكسر الجيم والراء من غير همزة وهى قراءة على، وأبى عبد الرَّحمن، وأبى رجاء، وأبى العالية، وسعيد بن المسيب، والحسن، ومعظم أهل البصرة والمدينة، واختيار أبى حاتم، وقد روى عن النبىّ ﷺ ذلك.

وعن شبل عن عبد الله بن كثير قال: رأيت رسول الله ﷺ فى المنام وهو يقرأ جبريل بكسر الجيم والراء من غير همز. فلا أقرأها إلاّ هكذا.

قال الثعلبى: والصّحيح المشهور عن ابن كثير ما تقدّم والله أعلم.

أما التفسير، فقال العلماء: جبر هو العبد بالسريانية وأيل هو الله عزّ وجلّ يدلّ عليه ما روى إسماعيل عن رجاء عن معاوية برفعه قال: إنّما جبرئيل وميكائيل كقولك: عبد الله وعبد الرّحمن، وقيل جبرئيل مأخوذ من جبروت الله، وميكائيل من ملكوت الله.

﴿فَإِنَّهُ﴾ يعنى جبرئيل. ﴿نَزَّلَهُ﴾ يعنى القرآن كتابه عن غير مذكور كقوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ (فاطر: ٤٥) يعنى الأرض، وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ (ص: ٣٢) يعنى الشمس.

﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يا محمد ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بأمر الله.

﴿مُصَدِّقًا﴾ موافقًا.

﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لما قبله من الكتب.

﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ أخرجهما بالذّكر من جملة الملائكة ومواضعهم على جهة التفضيل والتخصيص، كقوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ (الرحمن: ٦٨) وميكائيل أربع لغات:

ممدود، مهموز، مشبع على وزن ميكاعيل، وهى قراءة أهل مكّة والكوفة والشّام.

﴿وَمِيكَائِلَ﴾ ممدود، مهموز مختلس مثل ميكاعل، وهى قراءة أهل المدينة.

(وميكيل) مهموز مقصور على وزن ميكعل، وهى قراءة الأعمش وابن محيصن.

(وميكال) على وزن مفعال وهى قراءة أهل البصرة. قال الشاعر:

ويوم بدر لقيناكم لنا مدد فيه مع النّصر جبريل وميكال

وقال جرير:

عبدوا الصّليب وكذّبوا بمحمّد وبجبرئيل وكذّبوا ميكالا

ومعنى الآية من كان عدواً لأحد هؤلاء فإن الله عدو له والواو فيه بمعنى أو. كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ﴾ الآية لأن الكافر بالواحد كافر بالكل. فقال ابن صوريا: يا محمّد ما جئتنا بشيء نعرفه وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك بها. فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍ﴾ واضحات مفصلات بالحلال والحرام والحدود والأحكام.

﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الحادون عن أمر الله.

❖ ❖ ❖

﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿أَوَكُلَّمَا﴾ واو العطف دخلت عليها ألف الاستفهام. كما يدخل على الفاء فى قوله ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ (يونس: ٤٢) ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ (الكهف: ٥٠) وعلى ثمّ كقوله تعالى ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ (يونس: ٥١) ونحوها.

وقرأ ابن السّماك العدوى: ساكنة الواو على النسق و(كلما) نصب على الظرف. ﴿عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا﴾ يعنى اليهود.

قال ابن عبّاس: لمَا ذكر رسول الله ﷺ ما أخذ الله عليهم وما عهد إليهم فيه.

قال مالك بن الصّيف: إنّ الله ما عهد إلينا فى محمد عهداً ولا ميثاقًا فأنزل الله تعالى هذه الآية يوضحه قراءة أبى رجاء العطاردى: أو كلما عوهدوا عهداً لعنهم الله، دليل هذا التأويل قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ (آل عمران: ١٨٧).

وقال بعضهم: هو أن اليهود تعاهدوا لئن خرج محمد لنؤمنن به ولنكونن معه على مشركى العرب، وننفيهم من بلادهم، فلما بعث نقضوا العهد وكفروا به دليله ونظيره قوله عز وجل:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٌ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ١٠١).

وقال عطاء: هى العهود التى كانت بين رسول الله وبين اليهود فنقضوها كفعل قريظة والنّضير دليله قوله: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ﴾ (الأنفال: ٥٦).

﴿نَّبَذَهُۥ﴾ أى رفضه وفى قول عبد الله: نقضه.

﴿فَرِيقٌ مِّنۡهُم﴾ طوائف من اليهود.

﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ فأصل النبذ الرّمى والرفض له، وأنشد الزجاج:

نظرت إلى عنوانه فنبذته ... كنبذك نعلاً أخلقت من نعالكا

وهذا مثل من يستخف بالشيء ولا يعمل به، تقول العرب: اجعل هذا خلف ظهرك، ودبر أذنك، وتحت قدمك: أى اتركه وأعرض عنه قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّا﴾ (هود: ٩٢)، وأنشد الفراء:

تميم بن قيس لا تكونن حاجتى ... بظهر ولا يعبأ علىَّ جوابها

قال الشعبى: هو بين أيديهم يقرءونه ولكن نبذوا العمل به:

وقال سفيان بن عيينة: أدرجوه فى الحرير والدّيباج وحلّوه بالذّهب والفضّة ولم يحلّوا حلاله ولم يحرّموا حرامه فذلك النبذ.

﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾ يعنى اليهود.

﴿مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ أى ما تلت الشياطين.

كقول الشّاعر:

فإذا مررت بقبره فاعقر به ... كوْم الحجان وكلّ طرف سالح

وانضح جوانب قبره بدمائها ... فلقد بكوه أخادم وذبائح

وحكى عن الحسين بن الفضل أنّه سئل عن هذه الآية فقال: هو مختصر مضمر تقديره واتبعوا ما كانت تتلو الشياطين أى تقرؤه.

قال ابن عبّاس: يتبع ويعمل به.

عطاء وأبو عبيدة: يحدّث ويتكلم به.

يمان: ترويه.

وقرأ الحسن: الشياطون بالواو فى موضع الرفع فى كل القرآن.

قال الثعلبى: وسمعت أبا القاسم الحبيبى يقول: سمعت أبا حامد الخارزنجى يقول: وسئل عن قراءة الحسن؟

قال : هو فن وحسن عند أكثر أهل الأدب.

غير أن الأصمعى زعم أنّه سمع أعرابيًا يقول : بستان فلان حوله بساتون.

﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾ أى فى ملكه وعهده كقول أبى النّجم :

❖ فهى على الأفق كعين الأحول ❖

أى فى الأفق.

والملك تمام القدرة واستحكامها.

قال الزجاج فى قصّة الآية : هى أنّ الشياطين كتبوا السّحر والنيرنجات على لسان آصف. هذا ما علّم آصف بن برخيا سليمان الملك ثمّ وضعوها تحت مصلاه حين نزع الله ملكه ولم يشعر بذلك سليمان فلمّا مات استخرجوها من تحت مصلاّه.

وقال النّاس : إنّما ملككم سليمان بهذا فتعلّموه فأمّا علماء بنى إسرائيل وصلحاؤهم فقالوا : معاذ الله أن يكون هذا علم سليمان وإن كان هذا علمه لقد هلك سليمان.

وأمّا السفلة فقالوا : هذا علم سليمان فأقبلوا على تعلّمه ورفضوا كتب أنبيائهم وفشت الملامة لسليمان فلم تزل هذه حالهم حتّى بعث الله تعالى محمّداً ﷺ وأنزل عذر سليمان عليه السلام على لسانه وأظهر براءته عمّا رُمى به فقالوا : ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾ الآية. هذا قول الكعبى.

وقال السّدى : كانت الشياطين تصعد إلى السماء فتقعد منها مقاعد السّمع فيستمعون كلام الملائكة فيما يكون فى الأرض من موت أو غيره فيأتون الكهنة ويخلطون بما سمعوا كذبًا وزوراً فى كلّ سبعين كلمة سبعين كلمة ويخبرونهم بذلك فاكتتب الناس ذلك وفشا فى بنى اسرائيل أن الجن تعلم الغيب فبعث فى النّاس فجمع تلك الكتب وجعلها فى صندوق ودفنها تحت كرسيّه وقال : لا أسمع أحدًا يقول إنّ الشياطين تعلم الغيب إلاّ ضربت عنقه فلمّا مات سليمان وذهب العلماء الّذين كانوا يعرفون أمر سليمان ودفنه الكتب وخلف من بعدهم خلف تمثّل الشيطان على صورة إنسان فأتى نفراً من بنى إسرائيل فقال : هل أدلّكم على كنز لا ينفد أبدًا.

قالوا : نعم. قال : فاحفروا تحت الكرسى وذهب معهم فأراهم المكان وقام ناحية وقالوا : ادنُ. فقال : لا ولكن هاهنا فإن لم تجدوه فاقتلونى وذلك أنّهم لم يكن أحدٌ من الشياطين يدنو من الكرسى إلاّ احترق فحفروا فوجدوا تلك الكتب فلمّا أخرجوها. قال الشيطان : إنّ سليمان كان يضبط الجنّ والإنس والطّير بهذا ثمّ طار الشيطان وذهب وفشا فى النّاس أنّ سليمان كان ساحراً فاتّخذ بنو إسرائيل تلك الكتب ولذلك فكثير ما يوجد السحر فى اليهود فلمّا جاء محمّد

ﷺ خاصمه اليهود بها فبرأ الله تعالى سليمان من ذلك وأنزل هذه الآية.

وقال عكرمة: كان سليمان عليه السلام لا يصبح يومًا إلاّ نبتت فى محرابه فى بيت المقدس شجرة فيسألها: ما اسمك؟

فتقول الشجرة: اسمى كذا، فيقول: لأىّ داء أنت؟

فتقول: لكذا وكذا، فيأمر بها فتقطع وترفع فى الخَزانة وتغرس منها فى البساتين حتّى بعثت الخرنوبة الشّامية فقال لها: ما أنت؟

قالت أنا الخرنوبة. قال: لأى شىء نبتّ؟ قالت: لخراب مسجدك. قال سليمان: ما كان الله يخربّه وأنا حى أنت الّذى على وجهك هلاكى وخراب بيت المقدس فنزعها فغرسها فى حائط له فلم تنبت إلى أن توفّى فجعل النّاس يقولون فى رضاهم: لو كان لنا مثل سليمان، وكتبت الشياطين كتابًا فجعلوه فى مصلّى سليمان. فقالوا للنّاس: من يدّلكم على ما كان يداوى به فانطلقوا فاستخرجوا ذلك الكتاب فإذا فيه سحر ورقىّ فأنزل الله فى هذه الآية ما تفعل الشياطين واليهود على نبيّه محمّد ﷺ: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾.

﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ﴾ بالسحر فإنّ السحر كفر.

﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ قرأ أهل الكوفة والشام بتخفيف النون ورفع الشياطين وكذلك فى الإيمان ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ (الأنفال: ١٧) ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ (الأنفال: ١٧).

الباقون: بالتشديد ونصب ما بعده، ولكن كلمة لها معنيان نفى الخبر الماضى وإثبات الخبر المستقبل، وهى مبنية من ثلاث كلمات أصلها (لا كأن) لا نفى والكاف خطاب وإنّ نصب ونسق فذهبت الهمزة استثقالاً وهى تثقّل وتخفف فإذا ثقلت نصب بها ما بعدها من الأسماء كما تنصب بإن الثقيلة فإذا خففها رفعت بها ما ترفع بأنْ الخفيفة.

﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ قال بعضهم: السحر العلم والخطابة دليله قوله: بان السّاحر: أى العالم.

وقال بعضهم: هو التمويه بالشىء حتّى يتوهم المتوهّم أنّه شىء ولا حقيقة له كالسراب غير من رآه وأخلف من رجاه قال الله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ (طه: ٦٦).

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ محل ما بعد اتباع التعليم عليه معناه لا يعلمون الذى أنزل على الملكين أى . . . [١] ويجوز أن يكون نصبًا بالإتباع تقديره: واتبعوا ما أنزل على الملكين، وجعل بعضهم ما جحداً وحينئذ لا محل له يعنى لم ينزل السّحر على الملكين كما زعم اليهود،

(١) بياض بالأصل المخطوط.

وإنّما يعلّمونهم . . . . [1] من ذات أنفسهم والقول الأوّل أصح .

وقرأ ابن عبّاس والحسن والضحّاك ويحيى بن أبى كثير : ملكِين بكسر اللام ، وقالوا : هما رجلان ساحران كانا ببابل من الملائكة لا يعلمون النّاس السِحر ، وفسرهما الحسن فقال : غلجان ببابل وهى بابل عراق وسمّى بابل لتبلبل الألسنة بها عند سقوط صرح نمرود أى تفرقها .

أو أن الله تعالى امتحن الناس بالملكين فى ذلك الوقت فمن شقى بتعلم السحر منهما فيكفر به ومن سعد بتركه فيبقى على الإيمان فيزداد المعلمان بالتعليم عذابًا ففيه ابتلاء المعلم والمتعلّم والله تعالى يمتحن عباده بما يشاء كما يشاء فله الأمر والحكم .

وقال الخليل بن أحمد : إنّما سمّيت بابل لأنّ الله تعالى حين أراد أن يخالف بين ألسنة بنى آدم بعث ريحًا فحفرتهم من كل أفق إلى بابل فبلبل الله ألسنتهم فلم يدرِ أحد ما يقول الآخر ، ثمّ فرقتهم تلك الرّيح فى البلاد وهو لا ينصرف ؛ لأنّه اسم موضع معروف .

﴿هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ اسمان سريانيان فى محل الخفض على تفسير الملكين بدلاً منهما إلاّ أنّهما نصبا لعجمتهما ومعرفتهما وكانت قصتهما على ما ذكره ابن عبّاس والمفسرون : أنّ الملائكة رأوا ما يصعد إلى السماء من أعمال بنى آدم الخبيثة وذنوبهم الكثيرة وذلك فى زمن إدريس فعيروهم بذلك ، ودعتْ عليهم قالوا : هؤلاء الذين جعلتهم فى الأرض واخترتهم فهم يعصونك . فقال الله عزّ وجلّ لهم : لو أنزلتكم إلى الأرض وركبت فيكم ما ركبت فيهم لارتكبتم ما ارتكبوه . فقالوا : سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نعصيك . قال الله تعالى : اختاروا ملكين من خياركم ثمّ أهبوطهما إلى الأرض . فاختاروا هاروت وماروت وكانا من أصلح الملائكة وأخصهم .

قال الكلبى : قال الله تعالى لهم : اختاروا ثلاثة : عزّا وهو هاروت وعزايا وهو ماروت . غيَّر اسمهما لما قارفا الذنب كما غير اسم إبليس وعزائيل فركب الله فيهم الشهوة التى ركبها فى بنى آدم . فأهبطهم إلى الأرض وأمرهم أن يحكموا بين النّاس بالحقّ ، ونهاهم عن الشرك والقتل بغير الحقّ والزنا وشرب الخمر ـ وأما عزائيل فأنّه لما وقعت الشهوة فى قلبه استقال ربّه ، وسأله أن يرفعه إلى السّماء ، فأقاله ورفعه ، فسجد أربعين سنة ، ثمّ رفع رأسه ولم يزل بعد ذلك مطأطئًا رأسه حياءً من الله عزّ وجلّ .

وأما الآخران فإنهما ثبتا على ذلك وكانا يغضبان من النّاس يومهما فإذا أمسيا ذكرا اسم الله

---

(١) بياض بالأصل المخطوط .

الأعظم وصعدا إلى السماء.

قال قتادة: فما مر عليهما شهر حتّى افتتنا قالوا جميعًا وذلك أنهم اختصم عليهما ذات يوم الزهرة، وكانت من أجمل النّساء. قال على بن أبى طالب (كرم الله وجهه) وكانت من أهل فارس، وكانت ملكة فى بلدها. فلمّا رأياها أخذت بقلوبهما فراوداها عن نفسها وانصرفت، ثمّ عادت فى اليوم الثانى. ففعلا مثل ذلك. فأبت وقالت: لا إلاّ أن تعبدا ما أعبد وتُصليا لهذا الصّنم وتقتلا النّفس وتشربا الخمر فقالا: لا سبيل إلى هذه الأشياء فإن الله قد نهانا عنها. فانصرفت ثمّ عادت فى اليوم الثالث ومعها قدح من خمر وفى أنفسهما من الميل إليها ما فيها. فراوداها عن نفسها. فعرضت عليهما ما قالت بالأمس. فقالا: الصلاة لغير الله عظيم، وقتل النّفس عظيم وأهون الثلاثة شرب الخمر فانتعشا ووقعا بالمرأة وزنيا. فلما فرغا رآهما إنسان فقتلاه.

قال الربيع بن أنس: سجدا للصنم فمسخ الله الزهرة كوكبًا وقال علىّ بن أبى طالب (كرم الله وجهه) والسّدى والكلبى: إنّها قالت لهما: لن تدركانى حتّى تخبرانى بالذى تصعدان به إلى السماء. فقالا: بسم الله الأكبر. قالت: فما أنتما تدركانى حتّى تعلمانيه. فقال أحدهما لصاحبه: علّمها. قال: فإنّى أخاف الله.

قال الآخر: فأين رحمة الله فعلماها ذلك. فتكلّمت به وصعدت إلى السّماء فمسخها الله كوكبًا.

فعلى قول هؤلاء هى الزّهرة بعينها وقيدوها. فقالوا: هى هذه الكوكبة الحمراء واسمها بالفارسيّة ناهيد، وبالنبطية بيذخت يدلّ على صحة هذا القول ما روى جابر عن الطفيل عن على (رضى الله عنه) قال: كان النبىّ ﷺ إذا رأى سهيلاً قال: لعن الله سُهيلاً إنّه كان عشارًا باليمن ولعن الله الزُّهرة فإنّها فتنت ملكين.

وقال مجاهد: كنت مع ابن عمر ذات ليلة فقال لى: أرمق بالكوكبة يعنى الزُّهرة فإذا طلعت فأيقظنى. فلما طلعت أيقظته فجعل ينظر إليها ويسبّها سبًّا شديدًا. فقلت: رحمك الله سببت نجمًا سامعًا مُطيعًا ما له ليسبّ؟ فقال: إنّ هذه كانت بغيًا. فلقى ملكان منها ما لقيا.

وكان ابن عمر إذا رأى الزهرة قال: لا مرحبًا بها ولا أهلاً وروى أبو عثمان (المرندى) عن ابن عبّاس: أنّ المرأة التى فتن بها الملكان مُسخت فهى هذه الكوكبة الحمراء يعنى الزهرة قال: وكان يسميها بيذخت. وأنكر الآخرون هذا القول. قالوا: إن الزهرة من الكواكب السبعة السّيارة التى جعلها الله تعالى قوامًا للعالم وأقسم بها فقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝ ٱلۡجَوَارِ

ٱلْكُنَّسِ﴾ (التكوير: ١٥، ١٦). قلنا كانت هذه الّتى فتنت هاروت وماروت امرأة كانت تسمى زهرة من جمالها فلمّا بغت مسخها الله تعالى شهابًا فلمّا رأى رسول الله ﷺ الزهرة ذكر هذه المرأة لموافقة الاسمين فلعنها، وكذلك سهيل العشار ولما رأى رسول الله ﷺ النجم ذكره فلعنه ويدلّ عليه ما روى قيس بن عبّاد عن ابن عبّاس فى هذه القصّة:

قال: كانت امرأة فضّلت على النّاس كما فضّلت الزّهرة على سائر الكواكب، ومثله قال كعب الأحبار والله أعلم.

قالوا: فلمّا أمسى هاروت وماروت بعدما قارفا الذنب همّا بالصعود إلى السّماء فلم تُطاوعهما أجنحتهما فعلما ما حلّ بهما فقصدا إدريس النبىّ عليه السلام فأخبراه بأمرهما وسألاه أن يشفع لهما إلى الله عزّ وجلّ فقالا له: إنّا رأيناك يصعد لك من العبادة مثل ما يصعد لجميع أهل الأرض فاستشفع لنا إلى ربّك؟

ففعل ذلك إدريس فخيّرهما الله تعالى بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدّنيا إذ علما أنّه ينقطع فهما ببابل يعذّبان.

واختلف العلماء فى كيفية عذابهما فقال عبد الله بن مسعود: هما معلّقان بشعورهما إلى قيام السّاعة.

قتادة: كبّلا من أقدامهما إلى أصول أفخاذهما.

مجاهد: إنّ جبًّا ملئت نارًا فجعلا فيها معلّقان منكسان فى السلاسل.

عمير بن سعد: منكوسان يضربان بسياط الحديد.

ويروى أنّ رجلاً أراد تعلّم السحر فقصد هاروت وماروت فوجدهما معلّقين بأرجلهما مزرقّة عيونهما مسودّة جلودهما ليس بين ألسنتهما وبين الماء إلاّ قدر أربع أصابع وهما يعذبان بالعطش فلما رأى ذلك هاله مكانهما فقال: لا إله إلاّ الله وقد نهى عن ذكر الله فلمّا سمعا كلامه قالا له: من أنت؟ قال: رجل من النّاس. قالا: ومَنْ أىّ أُمّة أنت؟

قال: من أُمّة محمّد ﷺ. قالا: وقد بعث محمّد؟ قال: نعم قالا: الحمدُ لله وأظهرا الاستبشار. فقال الرجل: وممَّ استبشاركما؟

قالا: لأنّه نبى السّاعة وقد دنا انقضاء عذابنا. قالوا ومن ثمّ استغفار الملائكة لبنى آدم.

وعن الأوزاعى قال: المعنى أنّ جبرئيل أتى النبى ﷺ فقال له: «يا جبرئيل صف لى النّار؟

فقال: إنّ الله أمر بها فأوقد عليها ألف عام حتّى احمرّت ثمّ أوقد عليها ألف عام حتّى اصفرّت ثمّ أوقد عليها ألف عام حتّى اسودّت فهى سوداء مظلمة لا يضىء لهيبها ولا جمرها،

والّذى بعثك بالحقّ لو أن ثوبًا من ثياب أهل النّار أظهر لأهل الأرض لماتوا جميعًا ولو أنّ ذَنوبًا من شرابها صبّت فى الأرض جميعًا لقتل من ذاقه ، ولو أنّ ذراعًا من السلسلة التى ذكرها الله وضع على جبال الأرض جميعًا لذابت وما استقلّت ولو أنّ رجلاً دخل النّار ثمّ أخرج منها لمات أهل الأرض من نتن ريحه وتشويه خلقه وعظمه فبكى النبىّ ﷺ وبكى جبرئيل لبكائه وقال : أتبكى يا محمّد وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ! قال : «أفلا أكون عبداً شكورًا» ولم بكيت يا جبرئيل وأنت الروح الأمين أمين الله على وحيه ؟ قال : أخاف أن ابتلى بما ابتلى هاروت وماروت . فهو الّذى منعنى عن اتكالى على منزلتى عند ربّى فأكون قد آمنت مكره فلم يزالا يبكيان حتّى نوديا من السّماء أن يا جبرئيل ويا محمّد إنّ الله قد أمنكما أن تعصياه فيعذبكما ففضل محمّد على الأنبياء كفضل جبرائيل على ملائكة السّماء .

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ﴾ يعنى الملكين ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ من صلة لا يعلّمان السحر أحدًا حتّى ينصحاه أولاً وينهياه ويقولا ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ ابتلاء ومحنة .

﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ بتعلم السّحر وأصل الفتنة الاختبار .

تقول العرب : فتنت الذّهب إذا أدخلته النّار لتعرف جودته من رداءته .

وفتنت الشمس الحجر إذا سوّدته .

وإنّما وحد الفتنة وهما اثنان ؛ لأنّ الفتنة مصدر والمصادر لا تثنّى ولا تجمع كقولهم : ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ وفى مصحف أُبى : وما يعلّم الملكان من أحد حتّى يقولا إنّما نحن فتنة فلا تكفر سبع مرّات .

قال السّدى وعطاء : فإن أبى إلاّ التعلّم قالا له : ائت هذا الرّماد فَبُل عليه فيخرج منه نورٌ ساطع فى السّماء فتلك المعرفة وينزل شىء أسود حتّى يدخل مسامعه يشبه الدّخان وذلك غضب الله عزّ وجلّ .

قال مجاهد : إنّ هاروت وماروت لا يصل إليهما أحد ويختلف فيما بينهما شيطان فى كل مسألة اختلافة واحدة .

وقال يزيد بن الأصم : سُئل المختار : هل يرى اليوم أحدٌ هاروت وماروت ؟

قال : أما منذ ائتفكت بابل ائتفاكها الآخر لم يرهما أحد .

قال قتادة : السحر سحران : سحرٌ تعلّمه الشياطين وسحر يعلّمه هاروت وماروت وهو قوله تعالى ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ وهو أن يؤخذ كلّ واحد منهما عن صاحبه ويبغض كل واحد إلى صاحبه .

وفى (المرء) أربع قراءات: قرأ الحسن: المَرّ بفتح الميم وتشديد الرّاء جعله عوضًا عن الهمزة.

وقرأ الزهرى: المُرءُ بضم الميم والهمزة.

وحكى يعقوب عن جدّه: بكسر الميم والهمزة.

وقرأ الباقون: بفتح الميم والهمزة.

وأمّا كيفية تعليمهما السّحر فقد ورد فى خبر جامع وهو ما روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة زوج النبىّ ﷺ: أنّها قالت: قدمت علىَّ امرأة من أهل دومة الجندل جاءت تبتغى رسول الله ﷺ بعد موته حَدَاثة ذلك تسأله عن شىء دخلت فيه من أمر السّحر قالت عائشة لعروة: يا ابن أختى فرأيتها تبكى حين لم تجد رسول الله ﷺ وكانت تبكى حتّى إنّى لأرحمها بقولى وإنى لأخاف أنْ تكون قد هلكت، قالت كان لى زوج فغاب عنّى فدخلت على عجوز وشكوت إليها ذلك فقالت: إنْ فعلت ما أمرتك به فأجعله يأتيك فلمّا كان الليل جاءتنى بكلبين أسودين فركبت أحدهما وركبت الآخر فلم يكن حتّى وقفنا على بابل، فإذا برجلين معلّقين بأرجلهما فقالا: ما جاء بك؟ فقلت: أتعلم السحر.

فقالا: إنّما نحن فتنة فلا تكفرى وارجعى فأبيت فقلت: لا.

قال: فاذهبى إلى ذلك التنّور فبُولى فيه فذهبت ففزعت ولم أفعل فرجعت إليهما فقالا: فعلت، قلت: نعم. فقالا هل رأيت شيئًا؟ قلت: لم أرَ شيئًا.

فقالا: لم تفعلى ارجعى إلى بلدك ولا تكفرى فأبيت، فقالا: اذهبى إلى التنّور فبُولى فيه.

فذهبت فاقشعرّ جلدى وخفت ثمّ رجعت إليهما فقلت قد فعلت. قالا: فما رأيت؟ قلت: لم أرَ شيئًا.

فقالا: كذبت لم تفعلى، ارجعى إلى بلادك فلا تكفرى فإنّك على رأس أمرك. فأبيت. فقالا: اذهبى إلى ذلك التنّور فبُولى فيه فذهبت إليه فبلت فيه، فرأيت فارسًا مقنعًا بالحديد خرج منّى حتّى ذهب فى السّماء وقد غاب عنّى حتّى لم أره فجئتهما فقلت قد فعلت قالا: فما رأيت؟

قلت: رأيت فارسًا مقنّعًا بالحديد خرج منّى فذهب فى السّماء حتّى ما أراه. قالا: صدقت ذلك إيمانك خرج منك اذهبى إلى المرأة وقولى لها: والله ما أعلم شيئًا وما قال لى شيئًا، قالت بلى، قالا: لن تريدى شيئًا إلاّ كان. خذى هذا القمح فابذرى فبذرت فقلت: اطلعى فطلعت فقلت: أحقلى فحقلت ثمّ قلت أفركى فأفركت ثمّ قلت اطحنى فطحنت ثمّ قلت اخبزى

فخبزت فلمّا رأيت أنّى لا أريد شيئًا إلاّ كان سقط فى يدى وندمت والله يا أُم المؤمنين ما فعلت شيئًا قط ولا أفعله أبدًا.

فأما كيفية جواز تعليم السّحر على الملائكة ووجه الآية وحملها على التأويل الصحيح:

فقال بعضهم: إنّهما كانا لا يتعمّدان تعليم السحر ولكنّهما يصفانه ويذكران بطلانه ويأمران باجتنابه واعلم وعلّم بمعنى واحد وفى هذا حكمة: وهى أنّ سائلاً لو سأل عن الزّنا لوجب أن يوقف عليه ويعلّم أنّه حرام، وكذلك إعلام الملكين النّاس وأمرهما باجتنابه بعد الإعلام والإخبار أنّه كفر حرام فيتعلّم الشقى منهما وفى حلال صفتهما وترك موعظتهما ونصيحتهما ولا يكون على هذا التأويل تعلّم السحر كفرًا وإنّما يكون العمل به كفرًا كما أنّ من عرف الزّنا لم يأثم إنّما يأثم العامل به، والقول الآخر والأصح: أنّ الله تعالى امتحن النّاس بالملكين فى ذلك الوقت وجعل المحنة فى الكفر والإيمان أن يقبل القابل تعلّم السّحر فيكفر بتعلّمه ويؤمن بترك التعلّم، لأنّ السّحر كان قد كثر فى كلّ الأمة ويزداد المعلّمان عذابًا بتعليمه فيكون ذلك ابتلاء للمعلّم والمتعلّم ولله تعالى أن يمتحن عباده بما شاء كما امتحن بنى إسرائيل بالنّهر فى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ (البقرة: ٢٤٩) يدلّ عليه قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ وهذان حكاهما الزجّاج واعتمدهما. قال الله تعالى:

﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ﴾ أى أحدًا ومن صلة.

﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (أو إلاّ بقضاء الله أو إلاّ بإذن الله أى بمرأى ومسمع) أى بعلمه وقضائه ومشيئته وتكوينه (والساحر يسحر ولا يكون شىء).

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ أى السحر وقرأ عبيد بن عمير: ما يضرهم من أضرّ يضرّ.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟﴾ يعنى اليهود ﴿لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ اختار السّحر.

﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أى فى الجنّة ﴿مِنْ خَلَٰقٍ﴾ من نصيب.

وقال الحسن: ما له فى الآخرة من خلاق من دين ولا وجه عند الله.

ابن عبّاس: من قوام، وقيل من خلاص.

قال أميّة:

يدعون بالويل فيها لا خلاق لهم ... إلاّ السرابيل من قطر وإغلال

أى لا خلاص لهم.

﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ باعوا به حظّ ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ حين اختاروا السّحر والكفر على الدين والحق.

﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾ بمحمّد ﷺ والقرآن.

﴿وَٱتَّقَوْاْ﴾ اليهودية والسّحر.

﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ (ويجوز المثوبة بفتح الميم وفتح الواو كمشورُة وكمشوَرة وهى مصدر من الثواب)

﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لكان ثواب الله عزّ وجلّ إياهم.

﴿لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾.



﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا﴾ الآية: وذلك أنّ المسلمين كانوا يقولون راعنا يا رسول الله وأرعنا سمعك يعنون من المراعاة، وكانت هذه اللفظة سبًّا قبيحًا بلغة اليهود، وقيل: كان معناه عندهم: اسمع لا سمعت، وقيل: هو إلحاد إلى الرعونة لما سمعتها اليهود اغتنموها، وقالوا فيما نسب بعضهم إلى محمّد سرًا. فأعلنوا الآن بالشّتم، وكانوا يأتونه ويقولون: راعنا يا محمّد ويضحكون فيما بينهم. فسمعها سعد بن معاذ ففطن لها، وكان يعرف لغتهم. فقال لليهود: عليكم لعنة الله، والذى نفسى بيده يا معشر اليهود إن سمعنا من رجل منكم يقولها لرسول الله ﷺ لضربت عنقه. قالوا: أولستم تقولونها؟

فأنزل الله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا﴾ لكى لا يجد اليهود بذلك سبيلاً إلى شتم رسول الله ﷺ.

وفى هذه اللفظة ثلاث قراءات:

قرأ الحسن راعنا بالتنوين أراد قولاً راعنًا: أى حقًا من الرعونة فحذف الاسم وأبقى الصّفة. كقول الشاعر:

ولا مثل يوم فى قـدار ظله ... كأنى وأصحابى على قرن أعفرا

أراد قرن ظبى أعفر. حذف الاسم وأبقى النعت.

وقرأ أُبى بن كعب: راعونا بالجمع.

وقرأت العامّة: راعنا بالواحد من المراعاة. يُقال: أرعى إلى الشىء وأرعاه وراعاه. إذا أصغى إليه واستمعه. مثل قولهم: عافاه الله وأعفاه.

قال مجاهد: لا تقولوا راعنا: يعنى خلافًا.

يمان: هجرًا.

الكسائى: شرًّا.

﴿وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا﴾ قال أُبى بن كعب: أنظرنا بقطع الألف أى أخرنا، وقرأت العامّة موصولة أى انظر إلينا. فحذف حرف التعدية كقول قيس بن الحطيم:

ظاهرات الجمال والحسن ينظرن كمـــا ينظر الأراك الظبّا

أى إلى الأراك، وقيل: معناه انتظرنا وتأننا. كقول امرئ القيس:

فإنكمـا أن تنظرانى ساعـة من الدهر تنفعنى لدى أم جندب

وقال مجاهد: معناه فهّمنا، وقال يمان: بيّن لنا.

﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ ما تؤمرون به، والمراد به أطيعوا لأنّ الطّاعة تحت السّمع.

﴿وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعنى اليهود.

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ الآية: وذلك أنّ المسلمين كانوا إذا قالوا لحلفائهم من اليهود: آمنوا بمحمد قالوا: ما هذا الّذى تدعوننا إليه بخير مما نحن عليه ولو. . . .[1] لكان خيراً. فأنزل الله تعالى تكذيبًا لهم (ما يودّ): يريد ويتمنى الّذين كفروا من أهل الكتاب يعنى اليهود.

﴿وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ مجرور فى اللفظ بالنسق على من مرفوع المعنى بفعله كقوله عزّ وجلّ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ (الأنعام: ٣٨) ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ أى خير كما نقول: ما أتانى من أحد من فيه، وفى جوابها صلة، وهى كثيرة فى القرآن.

﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ﴾ والاختصاص أوكد من الخصوص لأن الاختصاص لنفسك والخصوص لغيرك.

﴿بِرَحْمَتِهِ﴾ بنبوّته. ﴿مَن يَشَآءُ﴾ يخص بها محمّدًا ﷺ.

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ (خبر علة أو المراد من الرحمة: الإسلام والهداية) ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ الآية وذلك أنّ المشركين قالوا: ألاّ ترون إلى محمّد يأمر أصحابه بأمر لم ينههم عنه، ويأمرهم بخلافه ويقول اليوم قولاً ويرجع فيه غدًا، ما هذا القرآن إلاّ كلام محمّد يقوله من تلقاء نفسه، وهو كلام يناقض بعضه بعضًا. فأنزل الله ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ (النحل: ١٠١)، وأنزل أيضًا ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ ثمّ بيّن وجه الحكمة فى النسخ بهذه الآية.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

واعلم أنّ النسخ فى اللغة شيئان:

الوجه الأول: بمعنى التغيير والتحويل قال الفراء: يُقال: مسخه الله قردًا ونسخه قردًا، ومنه نسخ الكتاب وهو أن يحول من كتاب إلى كتاب فينقل ما فيه إليه قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الجاثية: ٢٩): أى نأمر الملائكة بنسخها.

قال ابن عبّاس فى هذه الآية: ألسْتم قومًا عربًا هل يكون نسخه إلاّ من أصل كان قبل ذلك؟ وعلى هذا الوجه القرآن كلّه منسوخ؛ لأنّه نسخ من اللوح المحفوظ فأنزل على النبىّ ﷺ.

روى عبد الوهاب بن عطاء عن داود عن عكرمة عن ابن عبّاس: أنزل الله تعالى القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السّماء الدُّنيا ثمّ أنزله جبرائيل على محمّد آيًا بعد آى، وكان فيه ما قال المشركون وردّ عليهم.

والوجه الثانى: بمعنى رفع الشىء وإبطاله يُقال: نسخت الشمس الظل: أى ذهبت به وأبطلته، عنى بقوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ وعلى هذا الوجه يكون بعض القرآن ناسخًا ومنسوخًا وهى ما تعرفه الأمّة من ناسخ القرآن ومنسوخه وهذا أيضًا يتنوّع نوعين:

أحدهما: أن يثبت خط الآية، وينسخ علمها والعمل بها. كقول ابن عبّاس فى قوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ قال: ثبت خطها وتبدل حكمها. ومنها رفع تلاوتها وبقاء حكمها مثل آية الرجم.

الثانى: أن تُرفع الآية أصلاً أى تلاوتها وحكمها معًا فتكون خارجة من خط الكتاب، وبعضها من قلوب الرّجال أيضًا، والشّاهد له ما روى أبو أمامة سهل بن حنيف فى مجلس سعيد بن المسيب: أنّ رجلاً كانت معه سور. فقام يقرؤها من الليل فلم يقدر عليها، وقام آخر يقرؤها. فلم يقدر عليها، وقام آخر يقرؤها فلم يقدر عليها. فأصبحوا فأتوا رسول الله ﷺ فقال بعضهم: يا رسول الله ﷺ قمت البارحة لأقرأ سورة كذا وكذا فلم أقدر عليها، وقال الآخر: يا رسول الله ما جئت إلاّ لذلك، وقال الآخر: وأنا يا رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ: «إنّها نُسخت البارحة».

ثمّ اعلم أنّ النّسخ إنّما يعترض على الأوامر والنواهى دون الأخبار؛ إذا نُسخ صار المُخبر كذابًا، وإنّ اليهود حاولوا نسخ الشرائع وزعموا أنّه بداء فيُقال لهم: أليس قد أباح الله تزويج الأخت من الأخ ثمّ حظره وكذلك بنت الأخ وبنت الأخت؟ أليس قد أمر إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه، ثمّ قال له لا تذبحه؟

أليس قد أمر موسى بنى إسرائيل أن يقتلوا من عبد العجل منهم وأمرهم برفع السّيف

عنهم؟ أليست نبوة موسى غير متعبد بها، ثمّ تُعبّد بذلك؟ أليس قد أمر حزقيل النبيّ بالختان، ثمّ نهاه عنه؟ فلمَ لَم يلحقه بهذه الأشياء بداء فكذلك فى نسخ الشرائع لم يلحقه بداء بل هو نقل العباد من عبادة إلى عبادة، وحكم إلى حكم؛ لضرب من المصلحة إظهاراً لحكمته وكمال مملكته وله ذلك وبه التوفيق.

فهذه من علم النّسخ وهو نوع كثير من علوم القرآن، لا يسع جهله لمن شرع إلى التفسير.

وعن أبى عبد الرحمن السّلمى: أنّ علياً عليه السلام مرّ بقاص يقصُّ فى جامع الكوفة بباب كندة فقال: هل تعلم النّاسخ من المنسوخ؟

قال: لا. قال: هلكت وأهلكت.

وأمّا معنى الآية لقوله ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ قرأت العامّة بفتح النون والسين من النّسخ.

وقرأ ابن عامر: بضم النون وكسر السّين.

قال أبو حاتم: هو غلط وقال: بعضهم له وجهان، أحدهما تجعله نسخه من قولك نسخت الكتاب إذا كتبته وأنسخته غيرى إذا جعلته نسخة له ومعناها ما نسختك.

والوجه الثانى: تجعله فى جملة المنسوخ كقولك: طردت الرّجل إذا نفيته وأطردته جعلته طريداً. قال الشاعر:

طردتنى حسد الهجاء حيفاء   والّلاّت والأصنام ما قالوا تنل

أو ﴿ننسها﴾: فيه تسع قراءات:

قرأ سعيد بن المسيب وأبو جعفر وشيبة ونافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى ويعقوب: ننسها بضّم النون وكسر السّين. وهو اختيار أبى عبيد وأبى حاتم أى: نُنسها نسياً قاله أكثر المفسرين.

قال الحسن: هو ما أنسى الله رسوله ﷺ.

قال ابن عبّاس: أى نتركها ولا نبدّلها قال الله: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ﴾ (الحشر: ١٩) وقال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ (طه: ١٢٦). كلّ هذا من التّرك كأنّه جعل أنسى ونسى بمعنى واحد.

قال الكلبى وسمعت أبا القاسم الحبيبى يقول: سمعت أبا منصور الأزهرى يقول: معناه أو نأمر بتركها يقال أنسيت الشىء أى أمرت بتركه. قال الشّاعر:

جرت عليّ قصـــة أقصيتها لست بناسيها مَجمع ولا منسيها

أى : ولا آمر بتركها .

وقرأ أُبى بن كعب : أو ننسيك .

وقرأ عبد الله : ننسيك من آية أو ننسخها .

قرأ سالم مولى حذيفة : أو ننسكها .

وقرأ أبو رجاء : أو ننسها بالتشديد ، وقرأ الضحّاك : أو تنسها بضم التاء وفتح السين على مجهول ، وقرأ سعد بن أبى وقّاص : أو تنسها بتاء المفتوحة من النسيان ، وعن القاسم بن الربيع ابن فائق ؛ قال : سمعت سعد بن أبى وقاص يقول : بالنسخ من آية أو ننسها .

قال : فقلت له : إنّ سعيد بن المسيّب يقرأ : ننسها . قال : إنّ القرآن لم ينزل على آل المسيّب .

قال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ ، ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ .

وقرأ مجاهد : (أو نَنسها) بفتح النون مخففه أى نتركها .

وقرأ عمر بن الخطّاب وابن عبّاس وعبيد بن عمير وعطاء وابن كثير وأبو عمرو والنخعى : أو ننسأها بفتح النون الأولى وفتح السين مهموزة فلا نؤخرها فلا نبدّلها ولا ننسخها ، يقال : نسأ الله فى أجله وأنسأ الله أجله ، ومنه النسيئة فى البيع .

وقال أبو عبيد : ننسأها مجازه نمضيها لذكر ما فيه ، قال طرفة :

أمون كألواح الأران نسأتها على لاحب كأنّه ظهر برجد

أى لسقتها وأمضيتها ، وقال سعيد بن المسيب وعطاء : أما ما ننسخ من آية فهو ما قد نزل من القرآن جعلاه من النسخة ، أو ننسأها نؤخرها فلا يكون وهو ما لم ينزّل .

﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ أى بما هو أجدى وأنفع لكم وأسهل عليكم وأكثر لأجركم لا أنّ آية خير من آية ؛ لأن كلام الله عزّ وجلّ واحد ولكنّها فى المنفعة المثوبة وكلّه خير .

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ قادر . قال الزجاج : لفظه استفهام ومعناه توثيق وتقرير .

❖ ❖ ❖

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ

إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾»

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم﴾ يا معشر الكفّار عند نزول العذاب.

﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ قريب وصديق.

﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ناصر يمنعكم من العذاب.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ﴾ الآية. قال ابن عبّاس: نزلت فى عبد الله بن أُميّة المخزومى ورهط من قريش قالوا: يا محمّد اجعل لنا الصّفا ذهبًا ووسّع لنا أرض مكّة، وفجر الأنهار خلالها تفجيراً نؤمن بك.

فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ يعنى أتريدون والميم صلة لأنّ أم إذا كان بمعنى العطف لا تكون ابتداء ولا تأتى إلاّ مردودة على استفهام قبلها، وقيل معناه: بل يريدون كقول الشاعر:

بدت مثل قرن الشّمس فى رونق الضّحى وصـــورتها أم أنت فى العين أملح

أى بل أنت.

﴿أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ﴾ محمّداً.

﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ سأله قومه فقالوا: أرنا الله جهرة، وقال مجاهد: لمّا قالت قريش هذا لرسول الله ﷺ قال: «نعم وهو كالمائدة لبنى إسرائيل إن لم تؤمنوا عُذّبتم» فأبوا ورجعوا، والصّحيح إن شاء الله أنها نزلت فى اليهود حين قالوا: يا محمّد ائتنا بكتاب من السّماء تحمله، كما أتى موسى بالتوراة، لأنّ هذه السّورة مدنية، وتصديق هذا القول قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ فى سُئل ثلاث قراءات؛ بالهمز: وهى قراءة العامّة، و(سُيل) بتليين الهمزة وهى قراءة أبى جعفر و(سِيل) مثل (قيل) وهى قراءة الحسن.

﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أخطأ وسط الطريق.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ الآية نزلت فى نفر من اليهود منهم: فنحاص بن عازورا وزيد ابن قيس؛ وذلك أنّهم قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أُحد: ألم تريا ما أصابكم ولو كنتم على الحقّ ما هزمتم فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم وأفضل ونحن أهدى منكم سبيلاً. فقالوا لهم: كيف نقض العهد فيكم؟ قالوا: شديد.

قال: فإنى قد عاهدتُ ألاّ أكفر بمحمّد ﷺ ما عشتُ. فقالت اليهود: أمّا هذا فقد صبر،

وقال حُذيفة: وأمّا أنا فقد رضيت بالله ربًّا وبمحمّد نبيًّا وبالإسلام دينًا، وبالقرآن إمامًا وبالكعبة قبلة وبالمؤمنين إخوانًا.

ثمّ أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بذلك فقال: «أصبتما الخير وأفلحتما». فأنزل الله تعالى ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أى تمنى وأراد كثير من اليهود.

﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ يا معشر المؤمنين.

﴿مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ﴾ فى انتصابه وجهان قيل: بالردّ وقيل: بالحال. ﴿حَسَدًا﴾ وفى نصبه أيضًا وجهان: قيل على المصدر أى يحسدونكم حسدًا، وقيل: بنزع حرف الصلة تقديره للحسد. وأصل الحسد فى اللغة الإلظاظ بالشىء حتّى يخدشه وقيل: للمسحاة محسد وللغراد حسدل زيدت فيه اللاّم كما يقال للعبد: عبدل.

﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ أى من تلقاء أنفسهم لم يأمر الله عز وجل بذلك.

﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ فى التوراة أنّ محمّدًا صادق ودينه حقّ.

﴿فَٱعْفُوا۟﴾ فاتركوا. ﴿وَٱصْفَحُوا۟﴾ وتجاوزوا.

﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ بعذابه القتل والسّبى لبنى قريظة والجلاء والنفى لبنى النضير قاله ابن عبّاس.

وقال قتادة: هو أمره بقتالهم فى قوله تعالى: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ إلى ﴿وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾.

وقال ابن كيسان: بعلمه وحكمه فيهم حكم بعضهم بالإسلام ولبعضهم بالقتل والسبى والجزية، وقيل: أراد به القيامة فيجازيهم بأعمالهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ﴾ تسلفوا.

﴿لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ طاعة وعمل صالح.

﴿تَجِدُوهُ﴾ تجدوا ثوابه ونفعه. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وقيل: بالخبر الحال كقوله عزّ وجلّ ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ (البقرة: ١٨٠) ومعناه وما تقدّموا لأنفسكم من زكاة وصدقة تجدوه عند الله أى وتجدوا الثمرة واللقمة مثل أحُد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ورد فى الحديث: إذا مات العبد قال الله: ما خلّف؟

وقال الملائكة: ما قدّم؟

وعن أنس بن مالك قال: لمّا ماتت فاطمة بنت رسول الله ﷺ دخل على بن أبى طالب عليه السلام الدّار فأنشأ يقول:

لكلّ اجتماع من خليلين فرقة وكلّ الّذى دون الفراق قليل

وإنّ افتقادى واحداً بعد واحد دليلٌ على أن لا يدوم خليل

ثمّ دخل المقابر فقال: السلام عليكم يا أهل القبور أموالكم قسّمت ودوركم سكّنت وأزواجكم نكحت فهذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم؟ فهتف هاتف: وعليكم السلام ما أكلنا ربحنا وما قدّمنا وجدنا وما خلّفنا خسرنا.

﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ قال الفرّاء: أراد يهوديًا فحذف الياء الزائدة ورجعوا إلى الفعل من اليهوديّة.

وقال الأخفش: اليهود جمع هايد مثل عائد وعود وحائل وحول وعايط وعوط وعايذ وعوذ، وفى مصحف أُبى: إلاّ من كان يهوديًا أو نصرانيًا ومعنى الآية وقالت اليهود: لن يدخل الجنّة إلاّ من كان يهوديًا ولا دين إلاّ دين اليهوديّة وقالت النصارى: لن يدخل الجنّة إلاّ من كان نصرانيًا ولا دين إلاّ النصرانية قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ شهواتهم الّتى يشتهونها ويتمنونها على الله عزّ وجلّ بغير الحقّ وقيل أباطيلهم بلغة قريش.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد. ﴿هَاتُواْ﴾ وأصله أتوا فقلبت الهمزة هاءً.

﴿بُرْهَٰنَكُمْ﴾ حجتكم على ذلك وجمعه براهين مثل قربان وقرابين وسلطان وسلاطين.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ثمّ قال ردًا عليهم وتكذيبًا لهم ﴿بَلَىٰ﴾ ليس كما قالوا بل يدخل الجنّة ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ مقاتل: أخلص دينه وعمله لله وقيل: فوض أمره إلى الله.

وقيل: خضع وتواضع لله.

وأصل الإسلام والاستسلام: الخضوع والانقياد وإنّما خصّ الوجه لأنّه إذا جاد بوجهه فى

السّجود لم يبخل بسائر جوارحه.

قال زيد بن عمرو بن نفيل:

أسلمتُ وجهى لمن أسلمت ... له الأرض تحمل صخرًا ثقالا

وأسلمت وجهى لمن أسلمت ... له المزن يحمل عذبًا زلالا

﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ فى عمله، وقيل: مؤمن، وقيل: مخلص.

﴿فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ﴾ نزلت فى يهود المدينة ونصارى أهل نجران؛ وذلك أنّ وفد نجران لمّا قدموا على رسول الله ﷺ أتاهم أحبار اليهود فتناظروا حتّى ارتفعت أصواتهم فقالت لهم اليهود: ما أنتم على شىء من الدّين وكفروا بعيسى والإنجيل، وقالت لهم النّصارى: ما أنتم على شىء من الدّين وكفروا بموسى والتوراة. فأنزل الله تعالى ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾.

﴿وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وكلا الفريقين يقرءون الكتاب أى لتبين فى كتابكم سر الاختلاف فدل تلاوتهم الكتاب ومخالفتهم ما فيه على أنهم على الباطل.

وقيل: كان سفيان الثورى إذا قرأ هذه الآية قال: صدقوا جميعًا والله كذلك.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ يعنى آباؤهم الذّين مضوا.

﴿مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡ﴾ قال مقاتل يعنى مشركى العرب كذلك قالوا فى نبيّهم محمّد ﷺ وأصحابه ليسوا على شىء من الدّين.

وقال ابن جريج: قلت لعطاء: (كذلك قال الذين لا يعلمون) من هم؟

قال: أُمم كانت قبل اليهود والنّصارى مثل قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ونحوهم، قالوا فى نبيهم إنّه ليس على شىء وأنّ الدّين ديننا.

﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ يقضى بين المحقّ والمبطل يوم القيامة.

﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ من الدّين.

❖ ❖ ❖

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝ وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ۝ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ۝ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ

وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ »

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ نزلت فى ططيوس بن استيسانوس الرّومى وأصحابه؛ وذلك أنّهم غزوا بنى إسرائيل فقتلوا مقاتليهم وسبوا ذراريهم وحرقوا التّوراة وخرّبوا بيت المقدس وقذفوا فيه الجيف وذبحوا فيه الخنازير وكان خرابًا إلى أن بناه المسلمون فى أيّام عمر بن الخطّاب.

قتادة والسّدى: هو بخت نصر وأصحابه غزوا اليهود وخربّوا بيت المقدس وأعانهم على ذلك النّصارى ططيوس وأصحابه من أهل الرّوم.

قال السّدى: من أجل أنّهم قتلوا يحيى بن زكريّا، وقال قتادة: حملهم بعض اليهود على معاونة بخت نصّر البابلى المجوسى فأنزل الله إخباراً عن ذلك: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أى أكْفَر وأعتا ﴿مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ يعنى بيت المقدس ومحاريبه. (أن يذكر) فى محل نصب المفعول الثانى لأنّ المنع يتعدّى إلى مفعولين تقديره ممّن منع مساجد الله الذكر، وإن شئت جعلت نصبًا بنزع حرف الصّفة أى: من أن يذكر.

﴿وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ أى فى عمل خرابها.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ وفى مصحف أُبى: إلاّ خيّفاء.

قال ابن عبّاس: لا يدخلها بعد عمارتها رومى إلاّ خائفًا لو علم به قُتل.

قتادة ومقاتل: لا يدخل بيت المقدس أحد من النصارى إلاّ متنكراً مشارفه لو قدر عليه عوقب ونهك ضربًا.

السّدى: أخيفوا بالجزية، وقال أهل المعانى: هذا خبر فيه معنى للأمر كقول: اجهضوهم بالجهاد كى لا يدخلها أحد منهم إلاّ خائفًا من القتل والسّبى نظيره قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ إلى ﴿أَبَدًا﴾ (الأحزاب:٥٣) نهاهم عن لفظ الخبر فمعنى الآية: ما ينبغى لهم ولكم وهذا وجه الآية.

﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ عذاب وهوان.

قال قتادة: هو القتل للحربى والجزية للذّمى.

مقاتل والكلبى: فتح مدائنهم الثلاثة: قسطنطينية وروميّة وعمورية.

السّدى: هو أنّه إذا قام المهدى (فى آخر الزمان) فتحت قسطنطينية فقتل مقاتليهم وسبى ذراريهم فذلك خزيهم فى الدّنيا.

﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو النّار.

إسماعيل عن أبيه عن أبى هريرة قال: لا تقوم السّاعة حتّى تفتح مدينة هرقل ويؤذّن فيها المؤذنون ويقسّم فيها المال بالترضية فينقلبون بأكثر أموال رآها النّاس قط فبينا هم كذلك إذ أتاهم إنّ الدجّال قد خلفكم فى أهليكم فيلقون ما فى أيديهم ويجيئونه ويقاتلونه.

وقال عطاء وعبد الرّحمن بن عوف: نزلت هذه الآية فى مشركى عرب مكّة وأراد بالمساجد المسجد الحرام منعوا محمّدًا ﷺ وأصحابه من حجّه والصّلاة فيه عام الحديبية وإذا منعوا من تعمير ذكر الله عزّ وجلّ فقد سعوا فى خرابه يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ١٧) الآية ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ يعنى أهل مكّة يقول: أفتحها عليكم حتّى تدخلوها أو تكونوا أولى بها منهم ففتحها الله عليهم وأمر رسول الله ﷺ: مناديًا فنادى: ألا لا يحجّنّ بعد هذا العام مشرك ولا يطوفنّ بالبيت عريان فطفق المشركون يقولون: اللّهمّ إنّا قد منعنا أن نشرك بهذا لهم فى الدّنيا خزى الذّل والقتل والسّبى والنّفى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ الآية: اختلفوا فى سبب نزولها فقال ابن عبّاس: خرج نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فى سفر وذلك قبل تحويل القبلة إلى الكعبة فأصابهم الضّباب فحضرت الصّلاة فتحروا القبلة وصلّوا فمنهم من صلّى إلى المشرق ومنهم من صلّى إلى المغرب. فلما ذهب الضّباب استبان لهم أنّهم لم يصيبوا. فلما قدموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك فنزلت هذه الآية بذلك.

وقال عبد الله بن عامر بن ربيعة: كنّا مع رسول الله ﷺ فى ليلة سوداء مظلمة فنزلنا منزلاً فجعل الرّجل يتّخذ أحجاراً فيعمل مسجداً يُصلّى فيه، فلما أصبحنا إذا نحن قد صلّينا إلى غير القبلة فقلنا يا رسول الله: لقد صلّينا ليلتنا هذه إلى غير القبلة فأنزل الله هذه الآية.

قال عبد الله بن عمر: نزلت فى صلاة المسافر يصلّى حيثما توجّهت به راحلته تطوعًا، وكان رسول الله ﷺ يُصلّى على راحلته جائيًا من مكّة إلى المدينة.

وعن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر قال: كان رسول الله ﷺ يُصلّى على راحلته فى السّفر حيثما توجّهت به.

قال عكرمة: نزلت فى تحويل القبلة لما حوّلت إلى الكعبة. فأنزل الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾.

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ﴾ أيها المؤمنون فى سفركم وحضركم.

﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ قبلة الله التى وجهكم إليها فاستقبلوها يعنى الكعبة، وقال أبو العالية: لما

غيّرت القبلة إلى الكعبة عيّرت اليهود المؤمنين فى انحرافهم من بيت المقدس. فأنزل الله تعالى هذه الآية جوابًا إليهم.

عطاء وقتادة: نزلت فى النجاشى وذلك أنّه توفّى، فأتى جبرئيل النبىّ ﷺ فقال: إنّ أخاكم النجاشى قد مات فصلّوا عليه. فقال أصحاب رسول الله ﷺ: كيف نُصلّى على رجل مات وهو يُصلى إلى غير قبلتنا؟ وكان النجاشى يُصلّى إلى بيت المقدس حتّى مات. فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال مجاهد والحسن والضحّاك: لمّا نزلت: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ (غافر: ٦٠) قالوا أين ندعوه؟ فنزلت ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُ﴾ ملكًا وخلقًا ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ﴾ تحوّلوا وجوهكم ﴿فَثَمَّ﴾ هناك ﴿وَجۡهُ ٱللَّهِ﴾.

وقال الكلبى والقتيبى: معناه فثمّ الله عليم يرى والوجه صلة كقوله تعالى. ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ أىّ يريدونه بالدُّعاء، وقوله ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ (القصص: ٨٨). أى إلاّ هو، وقوله تعالى ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ﴾ (الرحمن: ٢٧) أى ويبقى ربّك، وقوله ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ﴾ (الإنسان: ٩) أىّ لله.

وقال الحسن ومجاهد وقتادة ومقاتل بن حيان: فثمّ قبلة الله أضافها إلى نفسه تخصيصًا وتفضيلاً، كما يُقال: بيت الله، وناقة الله، والوجه والجهة والوجهة: القبلة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ﴾ قال الكلبى: واسع المغفرة لا يتعاظم مغفرته ذنب دليله قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ (النجم: ٣٢).

أبو عبيدة: الواسع الغنى يُقال: يُعطى فلان من سعة أى من غنى قال الله: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ (الطلاق: ٧) قال الفراء: الواسع الجواد الذى يسع عطاؤهُ كل شىء. دليله قوله تعالى ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٍ﴾ (الأعراف: ١٥٦) وقيل: الواسع العالم الذى يسع علمه كلّ شىء. قال الله ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ (البقرة: ٢٥٥) أى علمه.

﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم حيثما صلّوا ودعَوا، وقال بعض السّلف: دخَلت ديرًا فجاء وقت الصّلاة فقلت لبعض من فى الدّير: دُلنى على بقعة طاهرة أُصلى فيها. فقال لى: طهّر قلبك عمّن سواه، وقف حيث شئت. قال: فخجلت منه.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾ نزلت فى يهود أهل المدينة حيث قالوا: عُزير ابن الله، وفى نصارى نجران حيث قالوا: المسيح ابن الله وفى مشركى العرب قالوا: الملائكة بنات الله ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ نزّه وعظم نفسه.

﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ عبيدًا وملكًا.

﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ مجاهد وعطاء والسّدى: مطيعون دليله قوله تعالى ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ (الأحزاب: ٣٥).

عكرمة ومقاتل ويمان: مقرون بالعبوديّة.

ابن كيسان: قائمون بالشهادة، وأصل القنوت: القيام، وسُئل رسول الله ﷺ أىّ الصّلاة أفضل؟ قال: «طول القنوت»، وقيل: مصلّون دليله قوله ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ (الزمر: ٩) وقال رسول الله ﷺ: «مثل المجاهد فى سبيل الله مثل القانت الصائم» أىّ المُصلّى.

وقيل: داعون. دليله قوله تعالى ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ (البقرة: ٢٣٨) واختلف العلماء فى حكم هذه الآية فقال بعضهم: هو خاص، ثمّ سلكوا فى تخصيصه طريقين: أحدهما هو راجع إلى عُزير والمسيح والملائكة، وهو قول مقاتل ويمان.

القول الثانى قالوا: هو راجع إلى أهل طاعته دون النّاس أجمعين وهذا قول ابن عبّاس والفراء، وقال بعضهم: هو عام فى جميع الخلق ثمّ سلكوا فى الكفّار الجاحدين طريقتين أحدهما: إنّ ظلالهم تسجد لله وتطيعه، وهذا قول مجاهد دليله قوله عزّ وجلّ: ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ (النحل: ٤٨) الآية. قال الله تعالى: ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩﴾ (الرعد: ١٥).

والثانى: هذا يوم القيامة قاله السدى وتصديقه قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ (طه: ١١١).

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أى مبتدعها ومنشئها من غير مثال سبق ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أى بيده وأراد خلقه وأصل القضاء إتمام الشىء وإحكامه.

قال أبو ذؤيب:

وعليهما مسرودتان قضاهما ... داود أو صنع السوابغ تبّع

﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.



﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ

إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعنى اليهود قاله ابن عبّاس.

مجاهد: هم النّصارى. قتادة: هم مشركو العرب. ﴿لَوْلَا﴾ هلاّ ﴿يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ عيانًا بأنك رسوله.

﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ دلالة وعلامة على صدقك.

قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ أى كفّار الأمم الخالية ﴿مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أشبه بعضها بعضًا فى الكفر والفرقة والقسوة.

﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا محمّد ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق من قولهم فلان محقّ فى دعواه إذا كان صادقًا دليله قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾ (يونس: ٥٣) أى صدق.
مقاتل: معناه لن نرسلك عبثًا بغير شىء بل أرسلناك بالحق، دليله قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ (الأحقاف: ٣) وهو ضد الباطل.

ابن عبّاس: بالقرآن دليله قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ (ق: ٥).

ابن كيسان: بالإسلام دليله قوله عزّ وجلّ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ (الإسراء: ٨١).

﴿بَشِيرًا﴾ مبشرًا لأوليائى وأهل طاعتى بالثواب الكريم.

﴿وَنَذِيرًا﴾ منذرًا مخوفًا لأعدائى وأهل معصيتى بالعذاب الأليم.

﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ عطاء وابن عبّاس: وذلك أنّ النبىّ ﷺ، قال ذات يوم: «ليت شعرى ما فعل أبواى» فنزلت هذه الآية.

وقال مقاتل: هو أنّ النّبى ﷺ قال: «لو أنزل الله بأسه باليهود لآمنوا». فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ وفيه قراءتان: بالجزم على النهى وهى قراءة نافع وشيبة والأعرج ويعقوب ووجهها القول الأول فى سبب نزول الآية.

وقرأ الباقون: بالرفع على النفى يعنى: ولست بمسؤول عنهم دليلها قراءة ابن مسعود: ولن تسأل وقراءة أُبى: وما نسألك عن أصحاب الجحيم ولا تؤخذ بذنبهم والجحيم وهو الجحم

والجحمة : معظم النّار.

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ وذلك أنّهم كانوا يسألون النبىّ ﷺ الهدنة ويطمّعونه ويرون أنّه إن هادنهم اتّبعوه ووافقوه فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال ابن عبّاس : هذا فى القبلة وذلك أنّ يهود أهل المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون أن يصلّى النبىّ ﷺ إلى قبلتهم فلمّا صرف الله القبلة إلى الكعبة شقّ ذلك عليهم وأيسوا منه أن يوافقهم على دينهم فأنزل الله : ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ دينهم وقبلتهم ، وزعم الزجّاج : أن الملّة مأخوذة من التأثير فى الشىء كما تؤثر الملّة فى الموضع الّذى يختبز فيه.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ البيان بأنّ دين الله هو الإسلام وقبلة إبراهيم عليه السلام هى الكعبة.

﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ قال ابن عباس : نزلت فى أهل السفينة الّذين قدموا مع جعفر بن أبى طالب (رضى الله عنه) وكانوا أربعين رجلاً واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من رهبان الشّام منهم بحيرا.

وقال الضحّاك : من آمن من اليهود عبد الله بن سلام وأصحابه وسعيّة بن عمرو ويمام بن يهودا وأسيد وأسد ابنا كعب وابن يامين وعبد الله بن صوريا.

قتادة وعكرمة : هم أصحاب محمّد ﷺ.

وقيل : هم المؤمنون عامّة.

﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦ﴾ الكلبى : يصفونه فى كتبهم حقّ صفته لمن سألهم من النّاس وعلى هذا القول الهاء راجعة إلى محمّد ﷺ.

وقال آخرون : هى عائدة إلى الكتاب ثمّ اختلفوا فى معنى قوله ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦ﴾ سعيد عن قتادة قال : بلغنا عن ابن مسعود فى قوله ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦ﴾ قال : يحلّون حلاله ويحرمون حرامه ، ويقرءونه كما أُنزل ، ولا يحرفونه عن مواضعه ، وقال الحسن : يعملون بمحكمه ، ويؤمنون بمتشابهه ، ويكلون علم ما أشكل عليهم منه إلى عالمه.

مجاهد : يتبعونه حقّ اتباعه.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۝ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝﴾ إلى قوله : ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

قرأ أبو الشعثاء جابر بن زيد: ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ إبراهيم رفعًا وربه نصبًا على معنى سأل ودعا فقيل له ومن أين لك هذا؟ فقال: أقرأنيه ابن عباس. وهذا غير قوى لأجل الباء فى قوله ﴿بِكَلِمَـٰتٍ﴾ وقرأ الباقون بالنصب، وجعلوا معنى الابتلاء الاختبار والامتحان فى الأمر، وهو الصحيح.

وفى ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ أربع لغات: قرأ ابن الزبّير: إبرهام بألف واحد بين الهاء والميم، وقرأ أبو بكر إبراهم وكان زيد بن عمر يقول فى صلاته: إنى عذت بما عاذ به إبراهيم، إذ قال:

❖ إنى لك اللهم عان راغم ❖

وقرأ عبد الله بن عامر اليحصبى: إبراهام بألفين، وقرأ الباقون: إبراهيم . . .[1] قال يحيى ابن سعيد الأنصارى: أقرأ إبراهام وإبراهيم. فإن الله عزّ وجلّ أنزلهما كما أنزل يعقوب وإسرائيل، وعيسى والمسيح ومحمّداً وأحمد.

الربيع بن عامر: مكتوب فى مصاحف أهل الشام إبراهام بالألف وفى غيرها بالياء.

وإبراهيم اسم أعجمى ولذلك لا يجرى وهو إبراهيم بن نازح بن ناحور بن ساروخ بن أرخوا بن فالغ بن منابر بن الشالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح. فاختلفوا فى مسكنه، فقال بعضهم: كان بكشكر، وقال قوم: حرّان؛ ولكن أباه نقله إلى بابل أرض نمرود بن كنعان

(١) بياض بالأصل المخطوط.

واختلفوا فى الكلمات التى ابتلى إبراهيم عليه السلام:

عن ابن عبّاس: هى ثلاثون سهمًا، وهى شرائع الإسلام، ولم يبتل أحد بهذا الدّين كلّه فأقامه كلّه إلاّ إبراهيم (عليه الصلاة والسلام).

﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ فكتب له البراءة. فقال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ (النجم: ٣٧) وهى عشرة فى براءة ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ (التوبة: ١١٢) الآية، وعشرة فى الأحزاب ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ (الأحزاب: ٣٥) الآية، وعشرة فى «المؤمنون» ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (المؤمنون: ١)، وقوله ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾(المعارج: ٢٢).

وروى طاوس عن ابن عبّاس قال: ابتلاه بعشرة أشياء هى من الفطرة والطّهارة خمس فى الرأس وخمس فى الجسد فالتى فى الرأس: قصّ الشارب والمضمضة والاستنشاق والسّواك وفرق الرأس، والّتى فى الجسد: تقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة والختان والاستنجاء بالماء.

مجاهد: هى الآيات الّتى فى قوله: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ إلى آخر القصّة.

الربيع وقتادة: مناسك الحج.

الحسن: ابتلاه بسبعة أشياء: ابتلاه بالكواكب والقمر والشمس فأحسن فى ذلك وعلم أنّ ربّه دائم لا يزول وابتلاه بالنّار فصبر على ذلك، وابتلاه بذبح ابنه فصبر على ذلك وبالختان فصبر على ذلك وبالهجرة فصبر عليه.

سعيد بن جبير: هى قول إبراهيم وإسماعيل حين يرفعان البيت ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ (البقرة: ١٢٧) فرفعاه بسبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر.

يمان: هى محاجّة قومه قال الله: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ (الأنعام: ٨٠) إلى قوله تعالى ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ (الأنعام: ٨٣).

أبو روق: هى قوله عليه السلام ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ الآيات.

وقال بعضهم: هى أنّ الله ابتلاه فى ماله وولده ونفسه فسلم ماله إلى الضيفان، وولده إلى القربان، ونفسه إلى النيران، وقلبه إلى الرّحمن فاتخذه خليلاً، وقيل: هى سهام الإسلام وهى عشرة: شهادة أن لا إله إلاّ الله وهى الملّة والصلاة وهى القنطرة. . قال: والزكاة وهى الطهارة والصّوم وهو الجنّة والحج وهو الشريعة، والغزو وهو النّصرة، والطاعة وهى العصمة، والجماعة وهى الألفة، والأمر بالمعروف وهو الوفاء والنهى عن المنكر وهو الحُجّة.

﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ قال قتادة: أدّاهن.

الربيع: وفّى بهنّ.

الضّحاك: . . .[١] أيمانهن، يمان: عمل بهن. قال الله ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ﴾ يا إبراهيم ﴿لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ ليقتدى بك وأصله من الأُم وهو القصد.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ ومن أولادى أيضًا. فاجعل أئمّة يُقتدى بهم وأصل الذريّة الأولاد الصغار مشتق من الذر لكثرته، وقيل: من الذرر وهو الخلق فخفف الهمز وأدخل التشديد عوضًا عن الهمز كالبريّة.

قيل: من الذرو وفيها ثلاث لغات:

ذريّة بكسر الذال، وهى قراءة زيد بن ثابت، وذريّة بفتحها وهى قراءة أبى جعفر، وذريّة بضمها وهى قراءة العامّة.

﴿قَالَ﴾ الله ﴿لَا يَنَالُ﴾ أى لا يصيب.

﴿عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ وفيه ثلاث قراءات: عهدى الظالمون، وهى قراءة ابن مسعود وطلحة ابن مصرف، وعهدى الظالمين مرتجلة الياء، وهى قراءة أبى رجاء والأعمش وحمزة، وعهدى الظالمين بفتح الياء وهى قراءة العامّة، واختلفوا فى هذا العهد فقال عطاء بن أبى رباح: رحمتى.

الضحّاك: طاعتى دليله قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ (البقرة: ٤٠).

السّدى: (التوفى) دليله قوله ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ (البقرة: ٢٧).

مجاهد: ليس الظالم أن يطاع فى ظلمه.

أبو حذيفة: أمانتى دليله قوله ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ (النحل: ٩١).

أبو عبيد: أمانى دليله قوله: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ (التوبة: ٤)، وقيل: إيمانى دليله عزّ وجلّ ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ (يونس: ٦٠).

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾ يعنى الكعبة.

﴿مَثَابَةً﴾ مرجعًا والمثاب والمثابة واحد كالمقام والمقامة قال ابن عبّاس: يعنى معاذًا وملجئًا.

مجاهد وسعيد بن جبير والضحّاك: (يَثبون) إليه من كلّ جانب ويحجّون ولا يملّون منه فما من أحد قصده إلاّ وهو يتمنى العود إليه.

قتادة وعكرمة: مجمعًا، وقرأ طلحة بن مصرف: مثابات على الجمع.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

﴿لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ مأمنًا يأمَنون فيه.

قال ابن عبّاس: فمن أحدث حدثًا خارج الحرم ثمّ التجأ إلى الحرم أمن من أن يهاج فيه ولكن لا يؤوى ولا يخالط ولا يبايع ويوكل به فإذا خرج منه أقيم عليه الحد ومن أحدث فى الحرم أقيم عليه الحدّ فيه.

﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ قرأ شيبة وابن عامر ونافع والأعرج والحسن وابن أبى إسحاق وسلام: واتّخذوا بفتح الخاء على الخبر وقرأ الباقون: بالكسر على الأمر.

قال ابن كيسان: ذكروا أن رسول الله ﷺ مرّ بالمقام ومعه عمر بن الخطّاب رضى الله عنه فقال: يا رسول الله أليس هذا مقام أبينا إبراهيم؟ قال: «بلى» قال: أفلا نتخذه مصلّى؟

قال: «لم أؤمر بذلك».

فلم تغب الشمس من يومهم حتّى نزلت: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾.

وعن أنس بن مالك قال: قال عمر بن الخطّاب رضى الله عنه: وافقنى ربى فى ثلاث. قلت: لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلّى فأنزل الله ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ وقلت يا رسول الله: يدخل عليك البر والفاجر فلو حجبت أُمهات المؤمنين فأنزل الله آية الحجاب قال: وبلغنى شىء كان بين أُمهات المؤمنين وبين النبىّ ﷺ فاستنفرتهنّ فجعلت أقول لهنّ: لتكفنّ عن رسول الله أو استبدلته أزواجًا خيرًا منكنّ حتّى أتيت على آخر أُمهات المؤمنين.

وقالت أمّ سلمة: يا عمر أما فى رسول الله ما يغبط نساءه حتّى يعظهن مثلك وأمسكت فأنزل الله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ﴾ (التحريم: ٥) الآية.

واختلفوا فى معنى قوله: ﴿مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ قال إبراهيم النخعى: الحرم كلّه مقام إبراهيم.

يمان: المسجد كلّه مقام إبراهيم.

قتادة ومقاتل والسّدى: هو الصّلاة عند مقام إبراهيم أُمروا بالصلاة عنده ولم يؤمروا بمسحه ولا تقبيله.

وأمّا قصّتهُ وبدءُ أمره.

فروى سعيد بن جبير عن ابن عبّاس قال: لما أتى إبراهيم بإسماعيل وهاجر فوضعهما بمكّة ولبث على ذلك مدة، ونزلها الجرهميّون وتزوج إسماعيل امرأة منهم، وماتت هاجر. فاستأذن إبراهيم سارة أن يأتى هاجر فأذنت له وشرطت عليه أن لا ينزل. فقدم إبراهيم وقد ماتت هاجر فذهب إلى بيت إسماعيل. فقال لامرأته: أين صاحبك؟

قال: ليس هاهنا. ذهب للصّيد، وكان إسماعيل يخرج من الحرم فيصيد ثمّ يرجع. فقال

لها إبراهيم: هل عندك ضيافة؟ هل عندكِ طعام أو شراب؟ قالت: ليس عندى ولا عندى أحد.

قال إبراهيم: إذا جاء زوجك فأقرئيه السّلام، وقولى له: فليغير عتبة بابه، وذهب إبراهيم، فجاء إسماعيل ووجد ريح أبيه. فقال لامرأته: هل جاءك أحدٌ؟

قالت: جاءنى شيخ صفته كذا، كالمستخفة بصفته. قال: فما قال لك؟

قالت: قال لى أقرئى زوجك منى السّلام، وقولى له: فليُغير عتبة بابه. فطلّقها، وتزوج أُخرى. فلبث إبراهيم ما شاء الله أن يلبث، ثمّ استأذن سارة أن يزور إسماعيل فأذنت له وشرطت عليه أن لا ينزل، وجاء إبراهيم حتّى أتى إلى بيت إسماعيل.

فقال إبراهيم لامرأته: أين صاحبك؟

قالت: ذهب يتصيّد وهو يجىء الآن إن شاء الله فانزل يرحمك الله.

قال لها: هل عندك ضيافة؟

قالت: نعم فجاءت باللّبن واللّحم فدعا لهما بالبركة فلو جاءت يومئذ بخبز بر أو شعير أو تمر لكانت أرض الله براً وشعيراً وتمراً وقالت له: انزل حتّى أغسل رأسك فلم ينزل فجاء بالمقام فوضعته تحت شقّه الأيمن فوضع قدمه عليه وغسلت شقّ رأسه الأيمن ثمّ حوّلت المقام إلى شقّه الأيسر فبقى أثر قدمه عليه فغسلت شقّ رأسه الأيسر فقال لها: إذا جاء زوجك فأقرئيه السّلام وقولى له: قد استقامت عتبة بابك. فلمّا جاء إسماعيل وجد ريح أبيه فقال لامرأته: هل جاءك أحد؟ قالت: نعم، شيخ أحسن النّاس شبهًا وأطيبهم ريحًا فقال لى كذا وقلت له كذا وغسلت رأسه وهذا موضع قدميه على المقام فقال لها: ذلك إبراهيم عليه السلام.

وقال أنس بن مالك: رأيت فى المقام أثر أصابعه وعقبه وأخمص قدميه غير أنّه أذهبه مسح النّاس بأيديهم.

نافع بن شيبة يقول: سمعت عبد الله بن عمر يقول: أشهد ثلاث مرّات أنّى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنّة طمس الله نورهما ولولا أن طمس نورهما لأضاءا ما بين المشرق والمغرب».

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ﴾ أى أمرناهما وأوصينا إليهما.

﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾ الكعبة أى ابنياه على الطّهارة والتوحيد.

وقال سعيد بن جبير وعبيد بن عمر وعطاء ومقاتل: طهّرا بيتى من الأوثان والرّيب وقول الزور، وسمع عمر رضى الله عنه صوت رجل فى المسجد فقال: ما هذا أتدرى أين أنت؟

الأوزاعى عن عهدة بن أبى لبابة عن زر بن حبيش قال: سمعت حذيفة بن اليمان يقول: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله أوحى إلىّ يا أخا المرسلين يا أخا المنذرين انذر قومك ألاّ يدخلوا بيتًا من بيوتى إلاّ بقلوب سليمة وألسن صادقة وأيد نقيّة وفروج طاهرة ولا يدخلوا بيتًا من بيوتى ولأحد عندهم مظلمة فإنّى ألعنه ما دام قائمًا بين يدىّ يصلّى حتّى يردّ تلك الظلامة إلى أهلها فأكون سمعه الّذى يسمع به ويكون بصره الذى يبصر به ويكون من أوليائى وأصفيائى ويكون جارى مع النبيّين والصدّيقين والشّهداء والصالحين».

وقال يمان بن رئاب: معناه بخّراه وخلقاه.

مكحول عن معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ قال: «جنّبوا مساجدكم غلمانكم - يعنى صبيانكم ومجانينكم - وسلّ سيوفكم ورفع أصواتكم وحدودكم وخصومكم وبيعكم وشراءكم وجمّروها يوم جمعتكم واجعلوا على أبوابها بظاهركم».

وقرأ الحسن وابن أبى إسحاق وجعفر وأهل المدينة: (بيتى) بفتح الياء وقرأ الآخرون: بإسكانه وإضافته تعالى إلى نفسه سبحانه تخصيصًا وتفضيلاً.

﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ حوله وهم النزاح إليه من آفاق الأرض. ﴿وَٱلْعَـٰكِفِينَ﴾ أى المقيمين فيه وهم سكّان الحرم. ﴿وَٱلرُّكَّعِ﴾ جمع الرّاكع. ﴿ٱلسُّجُودِ﴾ جمع الساجد مثل قاعد وقعود.

قال عطاء: إذا كان طائفًا فهو من الطائفين وإذا كان جالسًا فهو من العاكفين وإذا كان مصلّيًا فهو من الركّع السجود.

الأوزاعى عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ فى كلّ يوم وليلة عشرين ومائة رحمة ينزل على هذا البيت فستون للطائفين وأربعون للمصلّين وعشرون للناظرين».

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا﴾ يعنى مكّة أو الحرم.

﴿بَلَدًا ءَامِنًا﴾ أى مأمونًا فيه يأمن أهله.

﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ قال الأخفش: من آمن بدل من أهله على البيان، كما يُقال: أخذت المال ثلثيه ورأيت القوم ناسًا منهم، وهذا إبدال البعض من الكلّ كقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (آل عمران: ٩٧).

﴿قَالَ﴾ الله. ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ فسأرزقه إلى منتهى أجله لأنه تعالى وعد الرزق للخلق كافة كافرهم ومؤمنهم وقيد بالقلة لأن متاع الدنيا قليل. قرأ معاوية وابن عامر: فأمتعه بضم الألف وجزم الميم خفيفة، وقرأ أُبى: فنمتعه قليلاً ثمّ نضطره بالنون.

﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ﴾ موصولة الألف مفتوحة الراء على عهد الدُّعاء من إبراهيم ﷺ، وقرأ الباقون: فأمتعه بضم الألف مشدّدة ثمَّ اضطره على الخبر أى الجنة فى الآخرة ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أىّ المرجع تصير إليه.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾ روى الرواة من أسانيد مختلفة فى بناء الكعبة جمعت حديثهم ونسقته ليكون أحسن فى المنطق وأقرب إلى الفهم.

قالوا: خلق الله عزّ وجلّ موضع البيت قبل الأرض بألفى عام، فكانت زبدة بيضاء على الماء فدحيت الأرض من تحتها. فلما أهبط الله عزّ وجلّ آدم إلى الأرض كان رأسه يمسّ السّماء حتّى صلع وأورث أولاده الصّلع ونفرت من طوله دواب الأرض فصارت وحشًا من يومئذ، وكان يسمع كلام أهل السّماء ودُعاءهم وتسبيحهم، يأنس إليهم فهابته الملائكة واشتكت نفسه. فنقصه الله عزّ وجلّ إلى ستين ذراعًا بذراعه. فلمّا فقد آدم ما كان يسمع من أصوات الملائكة وتسبيحهم استوحش، وشكا ذلك إلى الله عزّ وجلّ. فأنزل الله ياقوتة من يواقيت الجنّة الكلام مقطوع له بابان من زمرّد أخضر باب شرقى وباب غربى فأنزل الله فيه قناديل من الجنّة. فوضعه على موضع البيت إلى الآن ثمّ قال: يا آدم إنّى أهبطت لك بيتًا تطوف به كما يُطاف حول عرشى، وتصلّى عنده كما يُصلّى عند عرشى.

فأنزل عليه الحجر. فمسح به دموعه وكان أبيض فلما لمسته الحُيَّض فى الجاهلية اسود.

وقال النبى ﷺ: «إنّما الحجر ياقوتة من يواقيت الجنّة ولولا ما مسه المشركون بأنجاسهم ما مسّهُ ذو عاهة إلاّ شفاه الله تعالى».

فتوجه آدم من أرض الهند إلى مكّة ماشيًا وقيّض الله له ملكًا يدلّه على البيت.

قيل لمجاهد: يا أبا الحجّاج ألاّ كان يركب؟

قال: فأى شيء كان يحمله فوالله إن خطوه مسيرة ثلاثة أيّام وكلّ موضع وضع عليه قدمه عمران وما تعدّاه مفاوز وقفار فأتى مكّة وحجّ البيت وأقام المناسك فلمّا فرغ تلقّته الملائكة فقالوا: برّ حجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام.

قال ابن عبّاس: حجّ آدم أربعين حجّة من الهند إلى مكّة على رجليه فهذا بدء أمر الكعبة فكانت على ذلك إلى أيّام الطّوفان فرفعه الله إلى السّماء الرابعة فهو البيت المعمور يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك ثمّ لا يعودون إليه إلا يوم القيامة، وبعث الله جبرائيل حتّى خبّأ الحجر الأسود فى جبل أبى قبيس صيانة عن الغرق فكان موضع البيت خاليًا إلى زمن إبراهيم عليه السلام ثمّ إنّ الله تعالى أمر إبراهيم عليه السلام بعدما ولد له إسماعيل وإسحاق ببناء بيت له

يعبد ويذكر فيه فلم يدر إبراهيم أين خبّئ فسأل الله تعالى أن يبيّن له موضعه فبعث الله إليه السكينة ليدلّه على موضع البيت وهي ريح جموح لها رأسان شبه الحيّة فتبعها إبراهيم إلى أن أتيا مكّة فطوّق الله السكينة على موضع البيت كتطويق الحيّة الحجفة وأمر إبراهيم أن يبنى حيث تستقر السّكينة فبناه وهذا قول علي والحسن بن أبي الحسن، وقال ابن عبّاس: بعث الله سحابة على قدر الكعبة فجعلت تسير وإبراهيم يمشي في ظلمات إلى أن وافت مكّة ووقفت على موضع البيت، ونودي: أنْ يا إبراهيم ابن على ظلّها لا تزيد ولا تنقص فبنى بحيالها.

وقال بعضهم: أرسل الله جبرائيل ليدلّه على موضع فذلك قوله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ (الحج:٢٦) فبنى إبراهيم وإسماعيل البيت، جعل إبراهيم يبنيه وإسماعيل يناوله الحجارة.

قال الثّعلبي: سمعت أبا القاسم الحبيبي يقول: سمعت أبا بكر محمّد بن محمّد بن أحمد القطان البلخي وكان عالمًا بالقرآن يقول: كان إبراهيم يفهم بالسريانية وإسماعيل بالعربيّة وكلّ واحد منهما يعرف ما يقول صديقه وما يمكن التفوّه به وكان إبراهيم يقول لإسماعيل: هبلى كنيا يعني: ناولني الحجر، ويقول إسماعيل: هاك الحجر خذه.

قالوا: فبقي موضع الحجر فذهب إسماعيل إليه فجاء جبرائيل بحجر من السّماء فأتى إسماعيل وقد ركّب إبراهيم الحجر في موضعه فقال له: من آتاك بهذا؟

فقال: آتاني به من لم يتكل على بنائك فأقاما البيت فذلك قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ (البقرة:١٢٧).

قال ابن عبّاس: يعني أُصول البيت الّتي كانت قبل ذلك.

الكلبي وأبو عبيدة: أساسه واحدته قاعدة فبنياه من خمسة أجبل طور سيناء . . . .[١] وطور سينا والجودي، وبنيا قواعده من حرّاء، فلما انتهى إبراهيم إلى موضع الحجر الأسود قال لإسماعيل: جئني بحجر حسن يكون للناس علمًا فأتاه بحجر فقال له: جئني بحجر أحسن من هذا، فمضى إسماعيل بطلبه فصاح أبو قبيس يا إبراهيم إنّ لك عندي وديعة فخذها فأخذ الحجر الأسود ووضعه مكانه.

وقيل: إنّ الله تعالى مدّ لإبراهيم وإسماعيل بسبعة أملاك يعينونهما على بناء البيت فلمّا فرغا من بنائه قالا: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ أي تقبل منّا بناءنا البيت. ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ بنيّاتنا.

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ﴾ موحّدين مطيعين مخلصين ﴿لَكَ﴾.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

وقرأ عون بن أبى جميلة: مسلمين بكسر الميم على الجمع.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ﴾ أولادنا ﴿أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا﴾ علمنا نظيره قوله: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ (النساء: ١٠٥) أى: علّمك الله وفيه أربع قراءات:

عبد الله بن مسعود: وأرهم مناسكهم ردّه إلى الأمّة.

وقرأ عمر بن عبد العزيز وقتادة وابن كثير ورويس بسكون الرّاء فى كل القرآن.

وقرأ أبو عمرو: باختلاس كسره للواو.

وقرأ الباقون: بكسر الرّاء والأصل فيها أرانا بالهمز فحذفت استخفافًا.

فمن قرأ بالجزم قال: ذهبت الهمزة وذهبت حركتها وبقيت الرّاء ساكنة على حالها واستدل بقول السدى:

أَرْنَا أداوة عبد الله نملأها　　　من ماء زمزم إنّ القوم قد ظمئوا

ومن كسر فإنّه نقل حركة الهمزة المحذوفة إلى الرّاء.

وأمّا أبو عمرو فطلب الخفّة.

وأخبرنا القاسم بن سلام عن شجاع بن أبى نصر قال: وكان أمينًا صدوقًا: إنّه رأى النبىّ ﷺ فى المنام فذكّره أشياء من حرف أبى عمرو فلم يردّ عليه إلاّ حرفين أحدهما هذا والآخر: ما ننسخ من آية أو ننسأها مهموزة.

﴿مَنَاسِكَنَا﴾ شرائع ديننا وإعلام حجّتنا.

وقال مجاهد: مذابحنا والنسك: الذّبيحة، وأصل النسك: العبادة يقال للعابد ناسك قال الشّاعر:

وقد كنت مستوراً كثير تنسّك　　　فهتكت أستارى ولم يبق لى نسكًا

فأجاب الله دعاءهما وبعث جبرائيل فأراهما المناسك فى يوم عرفة فلمّا بلغ عرفات قال لإبراهيم: عرفت يا إبراهيم؟

قال: نعم فسمّى الوقت عرفة والموضع عرفات.

﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾ تجاوز عنّا وارجع علينا بالرأفة والرحمة.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ﴾ المتجاوز الرجّاع بالرحمة على عبادك. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ﴾ أى فى الأمّة المسلمة من ذريّة إبراهيم وإسماعيل.

وقيل: فى أهل مكّة ﴿رَسُولًا﴾ أى مرسلاً وهو فعُول من الرسالة.

وقال ابن الأنبارى: يشبه أن يكون أصله من قولهم ناقة مرسال ورسلة إذا كانت سهلة

السّير ماضية أمام النواق.

ويقال للجماعة المهملة المرسلة: رسْل وجمعه أرسال.

ويقال: جاء القوم أرسالاً أي: بعضهم في أثر بعض، ومنه قيل للّبن رُسلاً لأنّه يرسل من الضّرع.

﴿يَتْلُوا﴾ يقرأ ﴿عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ﴾ كتابك جمع الآية وهي العلامة.

وقيل: الآية جماعة الحروف.

وقال الشيباني: هي قولهم: خرج القوم بما فيهم أي بجماعتهم.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ فقال بعضهم: الآية هاهنا الكتاب فنسّق عليه خلاف اللفظين كقول الحطيئة:

ألا حبّـــذا هنـد وأرض بهـــا هنـد وهند تفصيل أتى من دونها النّأى والبعد

مجاهد: يعني الحكمة فهم القرآن.

مقاتل: هي مواعظ القرآن وما فيه من أحكام وبيان الحلال والحرام.

ابن قتيبة: هي العلم والعمل ولا يسمّى الرّجل حكيمًا حتّى يجمعهما.

وعن أبي بكر محمّد بن الحسن البريدي: كلّ كلمة وعظتك أو زجرتك أو دعتك إلى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهي حكمة وحكم، ومنه قول النبيّ ﷺ: «إنّ من الشّعر لحكمة».

وعن أبي جعفر محمّد بن يعقوب: الحكمة كلّ صواب من القول ورّث فعلاً صحيحًا أو حالاً صحيحًا.

يحيى بن معاذ: الحكمة جند من جنود الله يرسلها إلى قلوب العارفين حتّى يروّح عنها وهج الدّنيا، وقيل: هي وضع الأشياء مواضعها، وقيل: الحكمة والحكم كلّ ما وجب عليك فعله.

قال الشّاعر:

قد قلت قولاً لم يعنّف قائله الصمت حكم وقليل فاعله

أي واجب العمل بالصمت.

وقيل: هي الشرك والذّنوب: وقيل: أخذ زكاة أموالهم.

وقال ابن كيسان: يشهد لهم يوم القيامة بالعدالة إذ شهدوا الأنبياء بالبلاغ، دليله قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣).

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ ابن عبّاس: العزيز الّذى لا يوجد مثله، بيانه قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ (الشورى: ١١).

الكلبى: العزيز المنتقم ممّن يشاء بيانه قوله ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ (آل عمران: ٤).

الكسائى: العزيز الغالب بيانه قوله ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ (ص: ٢٣): أى غلبنى.

وقيل فى المثل: من عزيز.

ابن كيسان: العزيز الّذى لا يعجزه شىء بيانه قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (فاطر: ٤٤).

المفضَّل بن سلمة: العزيز المنيع الّذى لا تناله الأيدى فلا يردّ له أمر ولا يغلب فيما أراد بيانه قوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ (هود: ١٠٧).

وقيل: بمعنى المعزّ فعيل بمعنى مفعل بيانه قوله ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ (آل عمران: ٢٦).

وقيل: هو القوى بيانه قوله ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ (يس: ١٤) أى قوّينا. فأصل العزّة فى اللّغة الشدّة يقال تعزز لحم النّاقة إذا اشتدّ ويقال: عزّ علىّ أى شقّ علىّ واشتد، وأنشد أبو عمرو:

أجد إذا ضمرت تعزّز لحمها ... وإذا نشد بتسعها لا تيأس

فاستجاب الله دعاء إبراهيم وبعث فيهم محمّداً سيّد الأنبياء ولذلك قال رسول الله ﷺ: «إنّى عبد الله فى أُمّ الكتاب لخاتم النبيين وإنّ آدم لمنجدل فى طينة وسوف أنبئكم بذلك دعوة إبراهيم وبشارة عيسى (عليهما السلام) قومه، ورؤيا أمى التى رأت أنّه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام وكذلك ترى أمّهات النبيين».

سعيد بن سويد عن العرباض بنِ سارية قال: قال رسول الله ﷺ فى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ الآية.

وذلك أن عبد الله بن سلام دعا ابنى أخيه سلمة ومهاجراً إلى الإسلام فقال لهما: قد علمتما أنّ الله عزّ وجلّ قال فى التوراة: إنّى باعث من ولد إسماعيل نبيًا اسمه أحمد فمن آمن به فقد اهتدى ورشد ومن لم يؤمن به فهو ملعون، فأسلم سلمة وأبى مهاجر أن يسلم فأنزل الله تعالى:

❖ ❖ ❖

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ

إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾.

﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أى يترك دينه وشريعته.

يقال: رغبت فى الشىء إذا أردته ورغبت عنه إذا تركته. وأصل الرّغبة: رفع الهمّة عن الشىء وإليه يقال: رغب فلان فى فلان وإليه إذا همّت نفسه إليه، والأصل فيه الكره فمعنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾أى يرفع همّته عنها ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾.

قال ابن عبّاس: حيّر نفسه. وقال حيّان عن الكلبى: ضلّ من (جهة) نفسه. وقال أبو روق: عجّز رأيه عن نفسه. وقال يمان: حمق رأيه، ونفسه منصوب فى هذه الأقاويل بنزع حرف الصّفة. وقال الفرّاء: نصب على التفسير، والأصل: سفهت نفسه فلمّا أضاف الفعل إلى صاحبها خرجت النفس مفسّرة ليعلم موضع السفه كما يقال: ضقت به ذرعًا معناه: ضاق ذرعى به، ويقال: ألم زيدُ رأسه ووجع بطنه. وقال أبو عبيدة: سفه نفسه: أى أوبق نفسه وأهلكها. وقال هشام وابن كيسان: جهل نفسه. وحكى المفضّل بن سلمة عن بعضهم سفه: حقّر نفسه.

والنفس على هذه الأقوال نصب لوقوع الفعل عليه وهذا كما جاء فى الخبر: «من عرف نفسه فقد عرف ربّه».

وأصل السفه والسفاهة: الخفّة والجهل وضعف الرأى يقال سفه يسفه وسفه يسفه.

﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ﴾ اخترناه ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ وأصل الطاء فيه تاء حوّلت طاء لقرب مخرجيها ولتطوع اللسان به.

﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الفائزين. قال الزجّاج وقال ابن عبّاس: يعنى مع آبائه الأنبياء فى الجنّة بيانه قوله: خطابه عن يوسف ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف: ١٠١).

وقال الحسين بن الفضل: فى الآية تقديم وتأخير تقديرها لقد اصطفيناه فى الدنيا والآخرة بأنّه لمن الصالحين نظيرها فى سورة النحل.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾ أى استقم على الإسلام أو اثبت عليه لأنه كان مسلمًا كقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (محمد: ١٩) أى اثبت على علمك.

وقال ابن عباس: إنما قال له ذلك حين ألقى فى النار، وعن ابن كيسان: أخلص دينك لله بالتوحيد، وعن عطاء: أسلم نفسك إلى الله وفوض أمورك لله، وقيل: اخضع واخشع.

﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ وَوَصَّىٰ﴾ فى مصحف عبد الله: فوصى، وقال أهل المدينة والشام: وأوصى بالألف، وكذلك هو فى مصحفهم. قال أبو عبيد: وكذلك رأيت فى مصحف عثمان، وقرأ الباقون (ووصّى) مشدداً، وهما لغتان، يُقال: أوصيته قد وصيته به إذا أمرته به مثل: أنزل ونزّل. قال الله: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ (الطارق:١٧)، وتصديق الإيصاء قوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ (النساء:١١)، وقوله: ﴿يُوصِينَ﴾ (النساء:١٢)، ودليل التوصية قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ (العنكبوت:٨)، وقوله: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ (يس:٥٠).

الكلبى ومقاتل: يعنى كلمة الأحاد لا إله إلاّ الله، وقال أبو عبيدة: إن شئت رددت الكناية إلى الملّة لأنّه ذكر ملّة إبراهيم وإن شئت رددتها إلى الوصية. وقال المفضل: بالطاعة كناية عن غير مذكور، كقوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ (ص:٣٢)، وقال طرفة:

على مثلها الحواء إذا قال صاحبى ألا ليتنى أفديك عنها وأفتدى

أى من الفلاة.

﴿بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ﴾ التمنية: إسماعيل وأمّه هاجر القبطية، وإسحاق وأمّه سارة، ومدين و... [1] سراين، ونقشان، وآتون، ويشبق، وشوخ، وأمّهم جميعًا ـ قطورا بنت يقطن الكنعانية تزوّجها إبراهيم بعد وفاة سارة.

وقوله تعالى ﴿وَيَعْقُوبُ﴾ وسُمى بذلك لأنه والعيص كانا توءمين فتقدّم عيص فى الخروج من بطن أمّه وخرج يعقوب على أثره فأخذ يعقبه. قاله ابن عبّاس وقد مضت القصّة.

وقيل: سُمّى يعقوب لكثرة عقبه، وعن صفوان بن سليم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعثت على أثر ثمانية آلاف نبىّ أربعة آلاف من بنى إسرائيل».

ومعنى الآية: ووصى بها أيضًا، ويعقوب: بنيه الاثنى عشر وهم روفيل أكبر ولده وشمعون ولاوى وهودا وفريالون وسجر ودان ومفتالى وجاد واشرب ويوسف وبنيامين.

﴿يَـٰبَنِىَّ﴾ معناه أن يا بنىّ، وكذلك فى قراءة أُبى وابن مسعود، وقال الفراء: إنّما قال ذلك لأنّ الوصية قول وكان تقديره وقال: يا بنىّ كقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة:٩) أى وقال لهم لأنّ العبرة بالقول وقال ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ﴾ (النساء:١١) معناه ويقول للذكر مثل حظ الأنثيين. وقال الشاعر:

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

إنّى سأبدى لك فيمـا أُبدى من شجن بنجد وشجن ببلاد الهند

أى وأقول لأنّ الإبدء فى المعنى كالقول باللسان.

وحكى ابن مجاهد عن بعضهم ويعقوب أيضًا نسقًا على بنيه لأنه فى جملة الموصّين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ اختار لكم الإسلام.

﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ مؤمنون وقيل: مخلصون وقيل: مفوضون وعن الفضيل بن عياض فى قوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أى محسنون بربّكم الظن.

﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ حضوراً.

﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ الآية نزلت فى اليهود حين قالوا للنبىّ ﷺ: ألست تعلم أنّ يعقوب يوم مات أوصى بنيه باليهودية؟ وعلى هذا القول...[1] بن الخطاب لليهود.

وقال الكلبى: لمّا دخل يعقوب مصر رآهم يعبدون الأوثان والنيران فجمع ولده وخاف عليهم ذلك.

﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ قال عطاء: إنّ الله لم يقبض نبيًا حتّى يخيره بين الموت والحياة فلمّا خير يعقوب قال: أنظرنى حتّى أسأل ولدى وأوصيهم ففعل الله ذلك به، فجمع ولده وولد ولده وقال لهم: قد حضر أجلى فما تعبدون من بعدى؟ أى من بعد موتى.

﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ الآية، وقرأ أُبى: إلهك وإله إبراهيم وإسماعيل.

وقرأ يحيى بن يعمر الجحدرى: وإله أبيك على الواحد، قالوا: لأنّ إسماعيل عم يعقوب لا أبوه. وقرأ العامّة: آبائك على الجمع وقالوا: عم الرّجل صنو أبيه.

قال النبىّ ﷺ: «هذا بقية آبائى»، وقال أيضًا: «ردّوا علىّ أبى فإنى أخشى أن يفعل به قريش ما فعلت ثقيف بعروة بن مسعود». يعنى العبّاس.

والعرب تسمّى العمّ أبًا وتسمّى الخالة أمًا قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ (يوسف: ١٠٠). يعنى يعقوب وليًا وهى خالة يوسف.

﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ أى نعرفه ونعبده إلهًا واحدًا.

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾ جماعة ﴿قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من الدين والعمل.

﴿وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ منها.

﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وإنّما تسألون عمّا تعملون أنتم.

❖ ❖ ❖

(١) بياض بالأصل المخطوط.

﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾

﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُواْ﴾ قال ابن عبّاس: نزلت في رؤوس يهود أهل المدينة كعب بن الأشرف ومالك بن المصيف ووهب بن يهودا وأبي ياسر بن أخطب وفي نصارى أهل نجران: السيّد والعاقب وأصحابهما وذلك أنّهم خاصموا المسلمين في الدين كلّ فرقة تزعم أنّها أحقّ بدين الله من غيرها فقالت اليهود ديننا خير الأديان ونبيّنا موسى أفضل الأنبياء وكتابنا التوراة أفضل الكتب وكفرت بعيسى والإنجيل ومحمّد والقرآن.

وقال النصارى: نبينا عيسى أفضل الأنبياء وكتابنا الإنجيل أفضل الكتب وديننا أفضل الأديان وكفرت بمحمد والقرآن، وقال كل واحد من الفريقين للمؤمنين كونوا على ديننا فلا دين إلاّ ذلك دعوهم إلى دينهم إلا الحنيفية. فقال الله تعالى: قل يا محمّد ﴿بَلْ مِلَّةَ﴾ أي بل نتبع ملّة ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ وقرأ الأعرج: (بل ملّة) رفعًا على الخبر.

﴿حَنِيفًا﴾ نصب على القطع. أراد بل ملّة إبراهيم الحنيف فلمّا أُسقطت الألف واللام لم تتبع النكرة المعرفة. فانقطع منه فنصب قاله نُحاة الكوفة، وقال أهل البصرة: نصب على الحال قال ابن عبّاس: الحنيف: المائل عن الأديان كلها إلى دين الإسلام، وأصلها من الحنف وهو ميل وعوج في القدم ومنه سُمّي أحنف بن قيس.

مقاتل: مُخلصًا.

كثير بن زياد قال: سألت الحسن عن الحنيفية فقال: هي حج هذا البيت.

الضحاك: إذا كان مع الحنيف المسلم فهو الحاج، وإذا لم يكن فهو المسلم.

قتادة: من الحنيفية الختان، وترك نكاح الأخت.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ علم المسلمين مجرى التوحيد وطريق الإيمان. فقال ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ يعني القرآن ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهو عشر صحف.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ يعني أولاد يعقوب واحدهم سبط. سمّوا بذلك لأنه ولد لكل واحد منهم جماعة من النّاس وسبط الرّجل حافده، ومنه قيل للحسن والحسين

(عليهما السلام) سبطا رسول الله ﷺ، والأسباط من بنى إسرائيل كالقبائل من العرب، والشعوب من العجم.

وعن أبى سعيد الضرير: إنّ أصل السّبط فى اللغة شجرة ملتفة كثيرة الأغصان فسُمّى الأسباط بها لكثرتهم. فكما أنّ الأغصان من شجرة واحدة كذلك الأسباط كانوا من يعقوب، وكان فى الأسباط أنبياء، وكذلك قال ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ وقيل: هم بنو يعقوب من صلبه صاروا كلّهم أنبياء.

﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ﴾ يعنى التوراة.

﴿وَعِيسَىٰ﴾ **الإنجيل**. ﴿وَمَآ أُوتِىَ﴾ **أُعطى**.

﴿ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى.

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ فلمّا نزلت هذه الآية قرأها رسول الله ﷺ على اليهود والنصارى وقال: «إنّ الله أمرنى بهذا» فلمّا سمعت اليهود بذكر عيسى أنكروا وكفروا به وكفرت النصارى وقالوا: لأنّ عيسى ليس بمنزلة سائر الأنبياء ولكنّه ابن الله فأنزل الله تعالى ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟﴾ يعنى اليهود والنصارى.

﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ أى بجميع ما آمنتم كإيمانكم، وقيل مثل صلة أى بما آمنتم به، وهكذا كان يقرؤها ابن عبّاس ويقول: اقرءوا (فإن آمنوا بما آمنتم به) فليس لله مثل ونظيره قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ (الشورى: ١١): أى كهو. قال الشاعر:

يا عاذلى دعنى من عذلكا   مثلى لا يقبل من مثلكا

أى أنا لا أقبل منك.

﴿فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾ قال ابن عبّاس وعطاء والأخفش: فى خلاف يقال: شاقّ يشاقّ مشاقّة إذا خالف كأن كل واحد أخذ فى شقّ غير شقّ صاحبه دليله قوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ﴾ (هود: ٨٩) أى خلافى وأُنشد:

فكان إليها والّذى اصطاد بكرها   شقاقًا وبعضهن أو لطم وأهجرا

وقال ابن سلمة والسّدى: فى عداوة كأن كلّ واحد منهما أخذ فى شقّ صاحبه أى فى جهده وما يشق عليه من قوله: ﴿إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ﴾ (النحل: ٧) دليله قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ﴾ (الأنفال: ١٣) أى عادوا الله ورسوله.

قال بشر بن أبى خازم:

وإلاّ فاعلموا أنّا وأنتم بغاة ما حيينا فى شقاق

أى فى عداوة.

مقاتل وأبو عبيدة: فى ضلال واختلاف بيانه وله ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ (النساء: ٣٥) أى اختلاف بينهما.

قال الشاعر:

إلى كم نقتل العلماء قسراً ونفجر بالشّقاق وبالنفاق

أى بالضلال والاختلاف.

الكسائى: هى خلع الطّاعة بيانه قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ (النساء: ١١٥).

الحسن: فى بعاد وفراق إلى يوم القيامة.

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ يا محمّد يعنى اليهود والنصارى.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم.

﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم وكفاهم الله تعالى أمرهم بالقتل والسبى فى بنى قريظة والجلاء والنفى فى بنى النضير والجزية والذلّة فى نصارى نجران.

❖ ❖ ❖

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾: قال أبو العالية: دين الله.

مجاهد: الإسلام.

ابن عبّاس: هى أنّ النّصارى كانوا إذا ولد لأحدهم ولد، وأتى عليه سبعة أيام غمسوه فى ماء لهم يُقال له: المعبودى وصبغوه به؛ ليطهّروا بذلك مكان الختان، وإذا فعلوا ذلك به قالوا: الآن صار نصرانيًا حقًا: فأخبر الله تعالى: أنّ دينه الإسلام لا ما يفعل النصارى.

ابن كيسان: صبغة الله: وجهة الله يعنى القبلة: ويُقال: حُجة الله التى احتج بها على عباده.

أبو عبيدة والزجاج: خلقة الله من صبغت الثوب إذا غيّرت لونه وخلّقته. فيكون المعنى: إنّ الله ابتدأ الخلقة على الإسلام، دليلهُ قول مقاتل فى هذه الآية: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (الروم: ٣٠) أى دين الله.

ويوضحه ما روى همام بن منبه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «ما من مولود إلاّ وهو على هذه الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه، كما تولد البهيمة، فهل تجدون فيها من جدعاء حتّى تكون الأم تجدعونها». قالوا: يا رسول الله أفرأيت من يموت وهو صغير؟

قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين».

أبو عبيدة: سنّة الله، وقيل: هو الختان لأنّه يصبغ صاحبه بالدم، وفى الخبر: الختان سنّة للرجال مكرمة للنساء، وهى نصب على الإغراء تقديره: اتبعوا والزموا صبغة الله.

وقال الأخفش: هى بدل من قوله: ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾: دينًا.

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ﴾: مطيعون.

﴿قُلْ﴾: يا محمّد لليهود والنصارى: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ أتجادلوننا وتخاصموننا، وقرأ الأعمش والحسن وابن محيصن: بنون واحدة مشدّدة.

وقرأ الباقون: بنونين خفيفتين اتباعًا للخط.

﴿فِى ٱللَّهِ﴾: فى دين الله وذلك بأن قالوا: يا محمّد إنّ الأنبياء كانوا منّا وعلى ديننا.

﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾: مقاتل والكلبى: لنا ديننا ولكم دينكم.

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾: موحدون، وهذه الآية منسوخة بآية السّيف.

فصل فى معنى الإخلاص

سُئل الحسن عن الإخلاص ما هو؟

فقال: سألت حُذيفة عن الإخلاص ما هو؟ فقال: سألت رسول الله ﷺ عن الإخلاص ما هو؟

قال: «سألت ربّ العزة عن الإخلاص ما هو؟» قال: «سرٌّ من أسرارى استودعته قلب من أحببت من عبادى».

وعن أبى إدريس الخولانى قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ لكلّ حق حقيقة وما بلغ عبد حقيقة الإخلاص حتّى لا يحبّ أن يحمد على شىء من عمل الله».

وقال سعيد بن جبير: الإخلاص أن يخلص العبد دينه وعمله لله ولا يشرك به فى دينه ولا يرائى بعمله أحدًا.

محمّد بن عبد ربّه قال: سمعت الفضيل يقول: ترك العمل من أجل النّاس رياء والعمل من أجل النّاس شرك والإخلاص أن يعافيك الله منهما.

وقال يحيى بن معاذ: الإخلاص تميّز العمل من العيوب كتميّز اللبن من بين الفرث والدم.

أبو الحسن البوشجى: هو ما لا يكتبه الملكان ولا يفسده الشيطان ولا يطّلع عليه الإنسان.

رؤيم: هو ارتفاع رؤيتك من الظّل. وقيل: ما يرى به الحق ويقصد به. وقيل: ما لا يشوبه الآفات ولا تتبعه رخص التأويلات.

وقيل: ما استتر من الخلائق واستصفى من العلائق.

حذيفة الإخلاص: هو أن تستوى أفعال العبد فى الظاهر والباطن.

أبو يعقوب المكفوف: أن يكتم حسناته كما يكتم سيئاته.

سهل بن عبد الله: ألاّ يُرائى.

عن أحمد بن أبى الجمارى قال: سمعت أبا سليمان يقول: للمُرائى ثلاث علامات يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان فى النّاس، ويزيد فى العمل إذا أُثنى عليه.

﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾: قرأ ابن عامر وحمزة والكسائى وخلف وحفص: بالتاء واختاره أبو عبيد، وقرأ الباقون بالياء، واختاره أبو حاتم. فمن قرأ بالتاء فللمخاطبة التى قبلها: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ﴾ والتى بعدها: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ ومن قرأ بالياء فهو إخبار عن اليهود والنّصارى.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾: قال الله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد. ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ﴾: بدينهم.

﴿أَمِ ٱللَّهُ﴾: وقد أخبرنى الله أنّه لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا ولكن كان حنيفًا مسلمًا.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ﴾: أخفى.

﴿شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾: وهو علمهم أنّ إبراهيم وبنيه كانوا مسلمين، وأن محمّدًا ﷺ حق ورسول.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾: الآية.

❖ ❖ ❖

﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ : الجهال.

﴿مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ﴾ : صرفهم وحوّلهم.

﴿عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ : من بيت المقدس. نزلت فى اليهود ومشركى العرب بمكّة ومنافقى المدينة طعنوا فى تحويل القبلة وقال مشركو مكّة: قد تردّد على محمّد أمره واشتاق إلى مولده ومولد آبائه قد توجّه نحو قبلتكم وهو راجع إلى دينكم عاجلاً.

قال الله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ : ملكًا والخلق عبيدهُ يحولهم كيف شاء.

﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ : عدلاً خيارًا. تقول العرب: انزل وسط الوادى: أى تخيّر موضعًا فيه، ويُقال لرسول الله ﷺ هو وسط قريش نسبًا أى خيرهم: قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ (القلم:٢٨)، أى أخيرهم وأعدلهم، وأصله هو أنّ خير الأشياء أوسطها. قال زهير:

هم وسط ترضى الأنام لحكمهم إذا نزلت إحدى الليالى بمعظم

وقال الكلبى: يعنى متوسطة أهل دين وسط بين الغلو والتقصير لأنهما مذمومان فى الدّين. قال ثعلب: يُقال جلس وسط القوم ووسط الدّار، وكذلك فيما يُحتمل البينونة...[1] بالفتح وكذلك فيما لا يحتمل البينونة.

نزلت هذه الآية فى مرحب وربيع وأصحابهما من رؤساء اليهود قالوا لمعاذ بن جبل: ما ترك محمّد قبلتنا إلاّ حسدا، وإنّ قبلتنا قبلة الأنبياء، ولقد علم محمّد أنّا عدل بين النّاس. فقال معاذ: إنّا على حق وعدل. فأنزل الله ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ : أى وهكذا، وقيل الكاف فيه للتشبيه تقديره: وكما اخترنا إبراهيم وذريته واصطفيناهم كذلك جعلناكم أُمّة وسطًا. مردودة على قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ (البقرة: ١٣٠) الآية.

﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ : يوم القيامة أنّ الرُّسل قد أبلغتهم.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾: محمّد ﷺ. ﴿عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾: معدلاً مزكيًا لكم؛ وذلك أنّ الله تعالى جمع الأولين والآخرين فى صعيد واحد يُسمعهم الدّاعى، وينفذهم البصر ثمّ يقول كفّار الأُمم. ألم يأتكم نذير فتشكرون، ويقولون: ما جاءنا من نذير.

فيُسأل الأنبياء عن ذلك فيقولون: قد كذّبوا، قد بلغناهم وأُعذرنا إليهم: فيسألهم البيّنة، وهو أعلم بإقامة الحجة. فيُؤتى بأمّة محمّد ﷺ فيشهدون لهم. أنّهم قد بلغوا. فتقول الأُمم الماضية: من أين علموا بذلك وبيننا وبينهم مدة مديدة؟

فيقولون: علمنا ذلك بإخبار الله إيانا فى كتابه الناطق على لسان رسوله الصادق. فيؤتى محمّد ﷺ فيسأل عن حال أُمّته. فيزكّيهم ويشهد لصدقهم.

﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ﴾: يعنى التحويل عن القبلة الّتى كنت عليها وهى بيت المقدس.

وقيل: معناه القبلة الّتى أنت عليها أى الكعبة كقوله: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ﴾ (آل عمران: ١١٠) أى أنتم.

﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ﴾: لنرى ونميّز: ﴿مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ فى القبلة.

﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾: فيرتد ويرجع إلى قبلته الأولى هذا قول المفسرين وقال أهل المعانى: معناه إلاّ مَن يتبع الرسول ممّن ينقلب على عقبيه كأنّه سبق ذلك فى علمه، أنّ تحويل القبلة سبب هداية قوم وضلالة آخرين، وقد تضع العرب لفظ الاستقبال موضع المضى كقوله: ﴿فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ﴾ (البقرة: ٩١) أى قتلتم.

وأنزل بعض أهل اللّغة: للعلم منزلتين: علمًا بالشىء قبل وجوده وعلمًا به بعد وجوده والحكم للعلم الموجود لأنّه يوجب الثواب والعقاب فمعنى قوله: ﴿لِنَعۡلَمَ﴾ أى لنعلم العلم الّذى يستحقّ به العامل الثّواب والعقاب وهذا على معنى التقدير كرجل قال لصاحبه: النّار تحرق الحطب، وقال الآخر: لا، فردّ عليه. هات النار والحطب. ليعلم أنّها تحرقه أى ليتقرر علم ذلك عندك.

وقوله: لنعلم تقديره ليتقرّر علمنا عندكم، وقيل معناه: ليعلم محمّد ﷺ فأضاف علمه ﷺ إلى نفسه سبحانه تخصيصًا وتفصيلاً كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ﴾ (الأحزاب: ٥٧) وقوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا﴾ (الزخرف: ٥٥) ونحوهما: ﴿وَإِن كَانَتۡ﴾ وقد كانت تولية القبلة وتحويلها فأنّث الفعل لتأنيث الاسم كقولهم: ذهبت بعض أصابعه وقيل: هذه الكناية راجعة إلى القبلة بعينها أراد وإن كانت الكعبة.

﴿لَكَبِيرَةً﴾ : ثقيلة شديدة. ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ : أى هداهم الله وقال سيبويه: (وإنّ) تأكيد منه باليمين ولذلك دخلت اللام فى جوابها.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ : وذلك أنّ حيى بن أخطب وأصحابه من اليهود قالوا للمسلمين: أخبرونا عن صلاتكم نحو بيت المقدس أكانت هدًى أم ضلالة؟ فإن كانت هدًى فقد تحولتم عنها وإن كانت ضلالة لقد دنتم الله بها فإن من مات منكم عليها لقد مات على الضلالة. قال المسلمون: إنّما الهدى ما أمر الله تعالى به والضلالة ما نهى الله عنه.

قالوا: فما شهادتكم على من مات منكم على قبلتنا؟ وكان مات قبل أن تحوّل القبلة؟ أسعد ابن زرارة من بنى النجّار والبراء بن معرور من بنى سلمة وكانا من النقباء ومات رجال آخرون. فانطلقت عشائرهم إلى النبىّ ﷺ فقالوا: يا رسول الله قد صرفك الله إلى قبلة إبراهيم فكيف إخواننا الّذين ماتوا وهم يصلّون إلى بيت المقدس فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ أى صلاتكم إلى بيت المقدس.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ : وفى رؤوف ثلاث قراءات: مهموز مثقّل وهى قراءة نافع وابن عامر وحفص واختيار أبى حاتم قال: لأنّ أكثر أسماء الله على فعول وفعيل. قال الشاعر:

نطيع رسولنا ونطيع ربًّا ... هو الرّحمن كان بنا رؤوفا

وروف غير مهموز مثقّل قراءة أبى جعفر.

ورؤف مهموز مخفف وهى قراءة الباقين واختيار أبى عبيد.

قال جرير:

ترى للمسلمين عليك حقًّا ... كفعل الوالد الرؤف الرّحيم

فالرأفة أشدّ الرحمة.

❖ ❖ ❖

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا

يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ : إنّ أوّل ما نسخ من أمور الشرْع أمر القبلة وذلك أنّ رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا يصلّون بمكّة إلى الكعبة فلمّا هاجر النبىّ ﷺ إلى المدينة وقدمها لليلتين خلتا من شهر ربيع الأوّل أمره تعالى أن يصلّى نحو الصخرة ببيت المقدس ليكون أقرب إلى تصديق اليهود إيّاه إذا صلّى إلى قبلتهم مع ما يجدون من نعته فى التوراة هذا قول عامّة المفسّرين.

وقال عبد الرحمن بن زيد: قال الله لنبيه ﷺ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٥) قال رسول الله ﷺ: «هؤلاء يهود يستقبلون بيتًا من بيوت الله، فلو أنّا استقبلناه» فاستقبله النبىّ ﷺ، قالوا جميعًا: فصلى النبىّ وأصحابه نحو بيت المقدس سبعة عشر شهرًا وكانت الأنصار قد صلّت إلى بيت المقدس سنتين قبل قدوم النبى ﷺ.

وكانت الكعبة أحبّ القبلتين إلى النبىّ ﷺ، واختلفوا فى السبب الّذى كان ﷺ يكره من أجله قبلة بيت المقدس ويهوى قبلة الكعبة.

فقال ابن عبّاس: لأنّها كانت قبلة إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

مجاهد: من أجل أنّ اليهود قالوا: يخالفنا محمّد فى ديننا ويتّبع قبلتنا.

مقاتل بن حيّان: لمّا أمر رسول الله ﷺ أن يصلّى نحو بيت المقدس قالت اليهود: زعم محمّد أنّه نبى وما يراه أحد إلاّ فى ديننا، أليس يصلّى إلى قبلتنا ويستنّ بسنّتنا فإن كانت هذه نبوّة فنحن أقدم وأوفر نصيبًا فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فشقّ عليه وزاده شوقًا إلى الكعبة.

ابن زيد: لمّا استقبل النبى ﷺ بيت المقدس بلغه أنّ اليهود تقول: والله ما ندرى محمّدًا وأصحابه أين قبلتهم حتّى هديناهم.

قالوا جميعًا فقال رسول الله ﷺ لجبرائيل: «وددت أنّ الله صرفنى من قبلة اليهود إلى غيرها فإنّى أبغضهم وأبغض توافقهم». فقال جبرائيل: إنما أنا عبد مثلك ليس إلىّ من الأمر شىءٌ فاسأل ربّك؟

فعرج جبرائيل وجعل رسول الله ﷺ يديم النظر إلى السّماء رجاءَ أنْ ينزل عليه جبرائيل بما يجىء من أمر القبلة.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ : تحوّل وتصرف وجهك يا محمّد فى السّماء.

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ : فلنحوّلنّك ولنصرفنّك.

﴿قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ : تحبّها وترضاها.

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ : أى نحوه وقصده. قال الشاعر:

واطعن بالقوم شطر الملوك حتّى إذا خفق المخدج

أى: نحوهم وهو نصب على الظرف.

والمسجد الحرام: المحرّم كالكتاب بمعنى المكتوب والحساب بمعنى المحسوب.

﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ : فى برٍّ أو بحر أو سهل أو جبل شرق أو غرب: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ فحوّل القبلة فى رجب بعد زوال الشمس قبل قتال بدر بشهرين.

مجاهد وغيره: نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ فى مسجد بنى سلمة، وقد صلّى بأصحابه كعتين من صلاة الظهر فتحوّل فى الصلاة واستقبل الميزاب، وحوّل الرّجال مكان النساء والنساء مكان الرجال فسمّى ذلك المسجد مسجد القبلتين.

قال ابن عبّاس: البيت كلّه قبلة وقبلة البيت الباب والبيت قبلة أهل المسجد والمسجد قبلة أهل الحرم والحرم قبلة أهل الأرض كلّها فلمّا حوّلت القبلة إلى الكعبة قالت اليهود: يا محمّد ما أمرت بهذا. يعنون القبلة. وما هو إلاّ شىء تبتدعه من تلقاء نفسك.

قتادة: فصلّى إلى بيت المقدس وتارة يصلّى إلى الكعبة ولو ثبتّ على قبلتنا لكنّا نرجو أن تكون صاحبنا الّذى ننتظره ورأيناكم تطوفون بالكعبة وهى حجارة مبنية فأنزل الله:

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ : يعنى أمر الكعبة الحقّ. ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ : وإنّها قبلة إبراهيم ثمّ هددهم فقال: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ قرأ أبو جعفر وابن. . . والكسائى بالتاء وقال بريد: إنكم يا معشر. . . تطلبون وصالى وما. . . عن ثوابكم وجوابكم. وقرأ الباقون. . . يعنى ما الله بغافل عما يعمل اليهود فأجازيهم فى الدنيا والآخرة. ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ : يعنى يهود المدينة، ونصارى نجران. قالوا للنبى ﷺ آتنا بآية كما أتى بها الأنبياء قبلك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ : يعنى الكعبة، وقال الأخفش، والزّجاج: أجيئت لئن بما لأنّها بمعنى لو، وقيل: إنّها أجيبت بما لما فيه من معنى اليمين كأنّه قال: والله لئن أتيت الّذين أوتوا الكتاب بكل آية إلى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ ؛ لأن اليهود تستقبل بيت المقدس، والنّصارى تستقبل المشرق.

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ : مرادهم فى أمر القبلة.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ : إنّها حقّ وإنّها قبلة إبراهيم.

﴿إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ : الجاحدين الضارين أنفسهم.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ : يعنى مؤمنى أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه.

﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ : يعنى محمداً ﴿كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ : من بين النصارى.

الكلبى عن الربيع عن ابن عبّاس قال: لمّا قدم رسول الله ﷺ المدينة قال عمر لعبد الله بن سلام: لقد أنزل الله على نبيّه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ فكيف يا عبد الله هذه المعرفة؟

فقال عبد الله بن سلام: يا عمر لقد عرفته فيكم حين رأيته كما أعرف ابنى إذا رأيته مع الصبيان يلعب، وأنا أشدّ معرفةً بمحمّد منّى لابنى، فقال عمر: وكيف ذلك؟

فقال: أشهد أنّه رسول حقّ من الله، وقد نعته الله فى كتابنا وما أدرى ما تصنع النساء، فقال له عمر: وفقك الله يا بن سلام فقد صدقت وأصبت. ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ﴾ : يعنى صفة محمّد ﷺ وأمر الكعبة.

﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ : ثمّ قال: ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ أى هذا الحقّ خبر ابتداء مضمر.

وقيل: رفع بإضمار فعل أى جاءك الحقّ كما قال: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ﴾ (هود: ١٢٠) وقرأ على بن أبى طالب كرّم الله وجهه: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ نصبًا على الإغراء.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ : الشاكين مفتعل من المرية والخطاب فى هذه الآية: وفى ما قبلها للنبىّ ﷺ والمراد به غيره وكلّ ما ورد عليك من هذا النحو فهو سبيله.



﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٤٨﴾ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾ : أى ولكلّ أهل ملّة قبلة.

﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ : مستقبلها ومقبل إليها يُقال: ولّيته، وولّيت إليه. إذا أقبلت إليه وولّيت عنه إذا أدبرت عنه.

وأصل التولية: الانصراف، وقرأ ابن عبّاس وابن عامر وأبو رجاء وسليمان بن عبد الملك: هو مولاها: أى مصروف إليها.

وفى حرف أُبى: ولكلٍّ قبلة هو مولّيها، وفى حرف عبد الله: ولكلّ جعلنا قبلة هو موليها.

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ : وبادروا فعل الخيرات، ومجازه فاستبقوا إلى الخيرات: أى يسبق بعضكم بعضًا؛ فحذف حرف الخبر. كقول الشاعر:

وهو الداعى . . .[1] عليكم بالحرب ومن يمل سواكم فإنى منه غير مائلِ

أراد من يمل إلى سواكم.

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا﴾ : يريد أهل الكتاب.

﴿يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ : يوم القيامة؛ فيجزيكم بأعمالكم.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ : حيث حرف يدل على الموضع، وفيه ثلاث لغات: بالياء وحرف الثاء وهى لغة قريش، وقراءة العامة، واختلفوا فى وضع رفعها فقيل: هو مبنى على الضم مثل: منذ وقط، وقيل: رفع على الغاية كقوله: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾ (الروم: ٤).

وحيث: بالياء ونصب الثاء وهى قراءة عبيد بن عمير.

قال الكسائى: إنّما نُصب بسبب الياء لأنّها ساكنة وإذا اجتمع ساكنان فى حرف حركوا الثانى إلى الفتح؛ لأنّه أخف الحركات مثل: ليت وكيف.

وحوثُ: بالواو والضم وهى لغة ابن عمر.

يروى أنّهُ سئل أين يضع المصلّى يده فى الصلاة، فقال: ارم بهما حوثُ وقعتا.

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ : إلى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ أيّها المؤمنون.

﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ : هى لام كى دخلت على أن فكتبت بالكسرة ما قبلها، وترك بعضهم همزها تخفيفًا، والحجة فعلة من الحج وهو الفصل، ومنه المحجة وهى الطريق الواضح المسلوك؛ لأنّه مقصود، ويُقال للمخاصمة: محاجة لقصد كلّ

(١) بياض بالأصل المخطوط.

واحد من الخصمين إلى إقامة بينته، وإبطال ما فى يد صاحبه.

واختلفوا فى تأويل هذه الآية ووجه قوله: ﴿إِلَّا﴾ فقال بعض أهل التأويل: ومعنى الآية حولّت القبلة إلى الكعبة لئلاّ يكون للنّاس عليكم حجّة إذا صلّيتم إليها فيحتجُّون عليكم ويقولون: لمَ تركتم التوجه إلى الكعبة وتوجهتم إلى غيرها لولا أنّه ليست لكم قبلة؟

﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾: وهم قريش واليهود وأمّا قريش فتقول إنّما رجع إلى الكعبة لأنّه عليم أنّها قبلة آبائه وهى الحقّ وكذا يرجع إلى ديننا ويعلم أنّه الحقّ، وأمّا اليهود فإنّهم يقولون لم ينصرف عن بيت المقدس مع علمه بأنّه حق إلاّ أنّه يفعل برأيه فيزعم أنّه أُمر به، وهذا القول اختيار المفضّل بن سلمة الضبى وهو قول صحيح مرضى.

وقال قوم: معنى الآية: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ يعنى لأهل الكتاب عليكم حجّة وكانت حجّتهم على رسول الله ﷺ وأصحابه فى صلاتهم نحو بيت المقدس أنّهم كانوا يقولون: ما درى محمّد وأصحابه أين قبلتهم حتى هديناهم نحن، وقولهم: يخالفنا محمّد فى ديننا ويتّبع قبلتنا فهذه الحُجّة التى كانوا يحتجّون بها على المؤمنين على وجه الخصومة والتمويه بها على الجهال من المشركين ثمّ قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ وهم مشركو مكّة وحجّتهم أنّهم قالوا لمّا صرفت القبلة إلى الكعبة أنّ محمّداً قد تحيّر فى دينه فتوجّه إلى قبلتنا وعلم أنّا أهدى سبيلاً منه وأنّه لا يستغنى عنّا ويوشك إن يرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا، وهذا قول مجاهد وعطاء وقتادة والربيع والسّدى واختيار محمد بن جرير.

وعلى هذين القولين إلاّ استثناء صحيح على وجه نحو قولك: ما سافر أحد من النّاس إلاّ أخوك فهو إثبات للأخ من السفر، وما هو منفى عن كلّ أحد من النّاس، وكذلك قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ من قريش نفى عن أن يكون لأحد حجة قبل رسول الله ﷺ وأصحابه بسبب تحولهم إلى الكعبة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾: من قريش فإن لهم قبلهم حجة لما ذكرنا.

ومعنى الحجة فى هذين القولين: الخصومة والجدل، والدعوى بالباطل كقوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ (الشورى: ١٥): أى لا خصومة، وقوله: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ١٣٩) وليحاجوكم وتحاجون وحاججتم كلّها بمعنى المجادلة. والمخاصمة لا بمعنى الدليل والبرهان، وموضع الّذين خفض كأنه قال: إلاّ للذين ظلموا. فلما سقطت اللام حلّت الّذين محلها قاله الكسائى.

قال الفراء: موضعه نصب بالاستثناء، وإنّما. . .[1] منهم ردّ إلى لفظ الناس؛ لأنّه عام، وإن كان كلّ واحد منهم غير الآخر والله أعلم، وقال بعضهم: هو استثناء منقطع من الكلام الأول ومعناه ألاّ يكون للنّاس عليكم حجة اللّهمّ إلاّ الّذين ظلموا فإنّهم يحاجونكم فى الباطل ويجادلونكم بالظلم، وهذا كما يقول للرجل: النّاس كلّهم لك سامرون إلاّ الظالم لك: يعنى لا. . .[1] ذلك بتركه حمدك لعداوته لك، وكقولك للرجل: ما لك عندى حق إلاّ أن تظلم، وما لك حجة إلاّ الباطل والباطل لا يكون حجّة، وهذا استثناء من غير الحسن. كقول القائل: ليس فى الدّار أحد إلاّ الوحش. كقول النابغة:

وما بالربع من أحـــد إلاّ وأرى لأيامًا أمنّها وننوى كالحوض بالمظلومة الجلد

وهذا قول الفراء والمؤرج.

وقال أبو روق: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ﴾ يعنى اليهود عليكم حجة؛ وذلك أنّهم كانوا قد عرفوا أنّ الكعبة قبلة إبراهيم وقد كانوا وجدوا فى التوراة أنّ محمّدًا سيحوّل إليها. فحوّلهُ الله إليها لئلا يكون لهم حجة فيحتجون. بأن هذا النبىّ الّذى نجده فى كتابنا سيحوّل إليها ولم تحول أنت فلما حول النبى ﷺ ذهبت حجتهم ثم قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ منهم يعنى إلاّ أن يظلموكم فيكتموا ما عرفوا.

وقال الأخفش: معناه لكفى الذين ظلموا ما لهم به من علم إلاّ اتباع الظن يعنى: لكن يتبعون الظّن، قوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ﴾ (الليل: ١٩) يعنى لكن تبتغى وجه ربّك فيكون منفردًا من الكلام الأوّل.

وروى أبو عبيد عن أبى عبيدة أنّه قال: ليس موضع إلاّ ههنا موضع الاستثناء لأنّه لا يكون للظالم حجّة إنّما هو فى موضع واو العطف كأنّه قال: ولا الّذين ظلموا يعنى والّذين ظلموا لا يكون لهم أيضًا حجّة.

وأنشد المفضل:

ما بالمدينة دار غير واحدة دار الخليفة إلاّ دار مروانا

وأنشد أيضًا:

وكلّ أخ مفارقه أخـــوه لعمر أبيك إلاّ الفرقدان

يعنى والفرقدان أيضًا متفرقان.

وأنشد الأخفش:

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

وارى لها دارًا بأغدرة السيـ ـدان لم يدرس لها رسم
إلاّ رمـادًا هامـدًا دفعت عنه الرياح خوالد سحم

أى: وأرى دارًا ورمادًا، يؤيّد هذا القول ما روى أبو بكر بن مجاهد عن بعضهم أنّه قرأ بعضهم: (إلى الذين ظلموا) مخففًا يعنى مع الذين ظلموا.

ومعنى الآية: لئلا يكون للنّاس، يعنى اليهود عليكم حجّة فى أمر الكعبة حيث لا يستقبلونها وهى قبلة إبراهيم فيقولون لكم تزعمون أنكم على دين إبراهيم ولم تستقبلوا قبلته ولا للذين ظلموا وهم مشركو مكّة لأنّهم قالوا: إن الكعبة قبلة جدّنا إبراهيم فما بال محمّد تحوّل عنها فلا يصلّى إليها ويصلّى إلى قبلة اليهود.

وقال قطرب: معناها إلاّ على الذين ظلموا فيكون ردّه على الكاف والميم أى إلاّ على الّذين ظلموا فإن عليهم الحجّة فحذف حرف الجر وهذا اختيار أبى منصور الأزهرى.

قال الثعلبى: سمعت أبا القاسم الحبيبى يحكيها عنه وحكى محمّد بن جرير عن بعضهم أنّه قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ هاهنا ناس من العرب كانوا يهودًا ونصارى وكانوا يحتجّون على النبىّ ﷺ فأمّا سائر العرب فلم يكن لهم حجّة وكانت حجّة من احتجّ أيضًا داحضة باطلة لأنّك تقول لمن تريد أن تكسر حُجّته عليه: إنّ لك علىّ حجّة ولكن منكسرة إنك لتحتجّ بلا حجّة وحجّتك ضعيفة، فمعنى الآية: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ من أهل الكتاب فإنّ لهم عليكم حجّة واهية.

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾: فى انصرافكم إلى الكعبة وفى تظاهرهم عليكم فى المحاجة والمجاوبة فإنّى وليّكم أظهركم عليهم بالحجّة والنصرة.

﴿وَٱخْشَوْنِى﴾: فى تركها ومخالفتها.

﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ﴾: عليكم عطف على قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ ولكن أتمّ نعمتى بهدايتى إيّاكم إلى قبلة إبراهيم فتتمّ لكم الملّة الحنيفيّة وقال على (كرم الله وجهه): تمام النعمة: الموت على الإسلام، وروى عنه أيضًا أنّه قال: النّعم ستة: الإسلام والقرآن ومحمّد والستر والعافية والغنى ممّا فى أيدى النّاس.

﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾: فى لعلّ ست لغات: علّ ولعلّ ولعنّ وعنّ ولعًا.

ولها ستة أوجه هى من الله عزّ وجلّ واجب، ومن النّاس على معانٍ قد تكون بمعنى الاستفهام كقول القائل: لعلّك فعلت ذلك مستفهمًا.

وتكون بمعنى الظّن كقول القائل: قدم فلان فردّ عليه الرّاد: لعلّ ذلك.

بمعنى أظنّ وأرى ذلك.

وتكون بمعنى الإيجاب بمنزلة ما أخلقه كقوله: قد وجبت الصّلاة فيرد الرّاد: لعلّ ذلك أى ما أخلقه.

وأنشد الفرّاء:

لعلّ المنايا مرّة ستعـود وآخر عهد الزائرين جديد

وتكون بمعنى الترجّى والتمنّى كقولك: لعلّ الله أن يرزقنى مالاً، ولعلّنى أحجّ.

وأنشد الفراء:

لعلّى فى هدى أفى وجودى وتقطيعى التنوقة واختيالى

سيوشك أن يتيح إلى كريم ينالك بالذّرى قبل السؤال

ويكون بمعنى عسى تكون ما يراد ولا يكون كقوله: ﴿يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ﴾(غافر: ٣٦). أى عسى أبلغ.

وقال أبو داود:

فأبلونى بليتكم لعلّى أصالحكم وأستدرج نويا

أى نواى ويكون بمعنى كى على الجزاء كقوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ (الأنعام: ٦٥) بمعنى لكى يفقهوا ونظائرها كثيرة وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أى لكى تهتدوا من الضّلالة.

قال الربيع: خاصم يهودى أبا العالية فقال: إنّ موسى كان يصلّى إلى صخرة بيت المقدس، فقال أبو العالية: كان يصلّى عند الصخرة إلى البيت الحرام فقال لى: بينى وبينك مسجد صالح فإنه نحته من الجبل فقال أبو العالية: قد صلّيت فيه وقبلته إلى البيت الحرام.

قال: فأخبر أبو العالية أنّه مرّ على مسجد ذى القرنين وقبلته الكعبة.

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا﴾: هنا الكاف للتشبيه ويحتاج إلى شىء يرجع إليه واختلفوا فيه فقال بعضهم: هو راجع إلى ما قبلها والكاف مما قبلها تقديره: فلا تخشوهم واخشونى ولأتمّ نعمتى كما أرسلت فيكم رسولاً فيكون إرسال الرّسول شرطًا للخشية مزديا بإتمام النعمة.

وقيل: معناه ولعلّكم تهتدون كما أرسلنا.

وقال محمّد بن جرير: إنّ إبراهيم دعا بدعوتين فقال: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ (البقرة: ١٢٨) فهذه الدعوة الأولى.

والثانية: قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ (البقرة: ١٢٨) فبعث الله الرسول وهو محمّد ﷺ ووعد فى هذه الآية أن يجيب الدّعوة الثانية أن يجعل من ذرّيته أمّة مسلمة لك فمعنى

الآية: ولأتم نعمتى عليكم: ببيان شرائع ملّتكم الحنيفية وأهديكم لدين خليلى إبراهيم.

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ : يعنى فكما أجبت دعوته بانبعاث الرّسول كذلك أجبت دعوته بأن أهديكم لدينه وأجعلكم مسلمين وهذا على قول من يجعله متصلاً بما قبله وجوابًا للآية الأولى وهو اختيار الفرّاء.

وقال بعضهم: إنّها متعلّقة بما بعدها وهو قوله: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ تقديرها: كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم فاذكرونى أذكركم فيكون جزاء له جوابان مقدّم ومؤخّر كما تقول: إذا جاءك فلان فآته ترضه. فقوله: فآته وترضه جوابان لقوله إذا جاءك وكقولك: إن تأتنى أحسن إليك أكرمك وهذا قول مجاهد وعطاء والكلبى ومقاتل والأخفش وابن كيسان واختيار الزجّاج، وهذه الآية خطاب للعرب وأهل مكّة يعنى: كما أرسلنا فيكم يا معشر العرب رسولاً منكم محمّداً ﷺ.

﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ : يعنى القرآن.

﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ : أى يعلّمون من الأحكام وشرائع الإسلام.

﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ : قال ابن عبّاس: اذكرونى بطاعتى أذكركم بمعونتى بيانه قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ﴾ (العنكبوت: ٦٩) الآية.

سعيد بن جبير: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ﴾ بطاعتى أذكركم بمغفرتى بيانه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (آل عمران: ١٣٢).

فضيل بن عياض: فاذكرونى بطاعتى أذكركم بثوابى بيانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ (الكهف: ٣٠، ٣١) وروى عن النبى ﷺ: «من أطاع الله فقد ذكر الله وإن قلّت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن».

وقيل: اذكرونى بالتوحيد والإيمان أذكركم بالجنّات والدرجات بيانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ (البقرة: ٢٥).

وقال أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه: كفى بالتوحيد عبادة وكفى بالجنّة ثوابًا.

ابن كيسان: اذكرونى بالشكر أذكركم بالزّيادة: بيانه قوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم: ٧).

وقيل: اذكرونى على ظهر الأرض أذكركم فى بطنها.

قال الأصفى: رأيت أعرابيًا واقفًا يوم عرفة بالموقف وهو يقول: ضجّت إليك الأصوات بضروب اللّغات يسألونك الحاجات وحاجتى إليك أن تذكرنى عند البلى إذا نسينى أهل الدنيا.

وقيل: اذكروني بالطّاعات أذكركم بالمعافاة ودليله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ (النحل: ٩٧).

وقيل: اذكروني في الخلاء والملاء أذكركم في الجلاء والملأ بيانه ما روى في بعض الكتب أنّ الله قال: أنا عند ظن عبدي، فليظن بي ما شاء، وأنا معه إذا ذكرني، فمن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في الملأ ذكرته في ملأ خير منه، ومن تقرّب إليّ شبرًا تقرّبت له ذراعًا، ومن تقرّب إليّ ذراعًا، تقرّبت إليه باعًا ومن أتاني مشيًا أتيته هرولة، ومن أتاني بقراب الأرض فضّة أتيته بمثلها مغفرة بعد أن لا يُشرك بي شيئًا.

وقيل: اذكروني في النعمة والرّخاء أذكركم في الشّدة والبلاء بيانه قوله: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝﴾ (الصافات: ١٤٣، ١٤٤).

قال سلمان الفارسي: إنّ العبد إذا كان له دُعاء في السّر؛ فإذا نزل به البلاء قالت الملائكة: عبدك نزل به البلاء فيشفعون له فينجيه الله، فإذا لم يكن له دُعاء قالوا: الآن فلا تشفعون له. بيانه لفظة فرعون: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝﴾ (يونس: ٩١).

وقيل: اذكروني بالتسليم والتفويض أذكركم بأصلح الاختبار. بيانه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ (الطلاق: ٣).

وقيل: اذكروني بالشوق والمحبّة أذكركم بالوصل والقربة.

وقيل: اذكروني بالحمد والثناء أذكركم بالجزاء، وقيل: اذكروني بالأوبة أذكركم بغفران الحوبة، وقيل: اذكروني بالدُّعاء أذكركم بالعطاء، اذكروني بالسؤال أذكركم بالنوال، اذكروني بلا غفلة أذكركم بلا مهلة، اذكروني بالندم أذكركم بالكرم، اذكروني بالمعذرة أذكركم بالمغفرة، اذكروني بالإرادة أذكركم بالإفادة، اذكروني بالتنصّل أذكركم بالتفضل اذكروني بالإخلاص أذكركم بالخلاص، اذكروني بالقلوب أذكركم بكشف الكروب، اذكروني بلا نسيان أذكركم بالأمان، اذكروني بالافتقار أذكركم بالاقتدار، اذكروني بالإعدام والاستغفار أذكركم بالرّحمة والاغتفار، اذكروني بالإيمان أذكركم بالجنان، اذكروني بالإسلام أذكركم بالإكرام، اذكروني بالقلب أذكركم برفع التعجب، اذكروني ذكرًا فانيًا أذكركم ذكرًا باقيًا، اذكروني بالابتهال أذكركم بالإفضال، اذكروني بالظل أذكركم بعفو الزلل، اذكروني بالاعتراف أذكركم بمحو الاقتراف، اذكروني بصفاء السّر أذكركم بخالص البر، اذكروني بالصّدق أذكركم بالرّفق، اذكروني بالصفو أذكركم بالعفو، اذكروني بالتعظيم أذكركم بالتكريم، اذكروني بالتكبير أذكركم بالتطهير، اذكروني بالتمجيد أذكركم بالمزيد، اذكروني

بالمناجاة أذكركم بالنجاة، اذكرونى بترك الجفاء اذكركم بحفظ الوفاء، اذكرونى بترك الخطأ أذكركم بحفظ الوفاء، اذكرونى بالجهد بالخلقة أذكركم بإتمام النعمة، اذكرونى من حيث أنتم أذكركم من حيث أنا ولذكر الله أكبر.

الربيع فى هذه الآية: إنّ الله ذاكر من ذكره، وزائد من شكره، ومعذّب من كفره.

وقال السّدى فيها: ليس من عبد يذكر الله إلاّ ذكره الله. لا يذكره مؤمن إلاّ ذكره بالرّحمة، ولا يذكره كافر إلاّ يذكره بعذاب.

وقال سفيان بن عيينة: بلغنا أنّ الله عزّ وجلّ قال: أعطيت عبادى ما لو أعطيته جبرائيل وميكائيل كنت قد أجزلت لهما قلت: اذكرونى أذكركم، وقلت لموسى: قل للظلمة لا يذكرونى فإنى أذكر من ذكرنى، فإنّ ذكرى إياهم أن ألعنهم.

وقال أبو عثمان النهدى: إنّى لأعلم حين يذكرنى ربّى عزّ وجلّ، قيل: كيف ذلك؟ قال: إنّ الله عزّ وجلّ قال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ وإذا ذكرت الله تعالى ذكرنى.

﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾: نعمتى.

﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾: بالعون والنصرة.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ﴾.

نزلت هذه فى قتلى بدر من المسلمين، وكانوا أربعة عشر رجلاً منهم ثمانية من الأنصار وستّة من المهاجرين؛ وذلك أنّ النّاس كانوا يقولون للرّجل يقتل فى سبيل الله: مات فلان، وذهب منه نعيم الدُّنيا ولذّتها، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ﴾ أى هم ليس أمواتًا بل إنهم أحياء.

﴿بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾: إنّهم كذلك قال رسول الله ﷺ: «إنّ أرواح الشهداء فى

أجواف طير خضر تسرح فى ثمار الجنَّة، وتشرب من أنهارها، وتأوى بالليل إلى قناديل من نور معلقة تحت العرش».

وقال الحسن: إن الشهداء أحياء عند الله تعرض أرزاقهم على أرواحهم فيصل إليهم الرّوح والفرح، كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غداة وعشيًا فيصل إليهم الوجع.

وقال أبو سنان السّلمى: أرواح الشهداء فى قباب بيض من باب الجنّة فى كلّ قبّة زوجتان، رزقهم فى كل يوم طلعت فيه الشمس نور وحوت، فأما النور: ففيه طعم كلّ ثمرة فى الجنة وأمّا الحوت: ففيه طعم كلّ شراب فى الجنّة.

قال قتادة فى هذه الآية: كنّا نحدّث أنّ أرواح الشهداء تعارف فى طير بيض يأكلن من ثمار الجنّة وإنّ مساكنهم السدرة المنتهى، وإنّ للمجاهد فى سبيل الله عزّ وجلّ ثلاث خصال: من قتل فى سبيل الله منهم صار حيًّا مرزوقًا، ومن غلب أتاه الله أجرًا عظيمًا، ومن مات رزقه الله رزقًا حسنًا.

عن النبى ﷺ قال: «يعطى الشهيد ست خصال عند أول قطرة من دمه يكفّر عنه كل خطيئة ويرى مقعده من الجنة ويزوّج من الحور العين ويؤمن من الفزع الأكبر ومن عذاب القبر ويحلّى بحلية الإيمان».

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾: ولنختبرنّكم يا أمّة محمّد.

﴿بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ﴾: الآية، قال ابن عبّاس: الخوف يعنى خوف العدو، والجوع يعنى المجاعة والقحط.

﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَالِ﴾: يعنى الخسران والنّقصان فى المال، وهلاك المواشى ﴿وَٱلْأَنفُسِ﴾: يعنى الموت والقتل، وقيل: المرض وقيل: الشيب.

﴿وَٱلثَّمَرَاتِ﴾: يعنى (الحوائج)، وأن لا تخرج الثمرة كما كانت تخرج، وقال الشافعى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ﴾: يعنى خوف الله عزّ وجل، ﴿وَٱلْجُوعِ﴾: صيام شهر رمضان، ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَالِ﴾: أداء الزّكاة والصدقات، ﴿وَٱلْأَنفُسِ﴾: الأمراض، ﴿وَٱلثَّمَرَاتِ﴾: موت الأولاد؛ لأن ولد الرجل ثمرة قلبه يدلّ عليه ما روى عبد الله بن المبارك عن حماد بن سلمة عن أبى سنان قال: دفنت ابنى سنانًا، وأبو طلحة الخولانى على شفير القبر جالس، فلمّا أردت الخروج أخذ بيدى فأنشطنى وقال: ألا أُبشّرك يا أبا سنان؟

قلت: بلى. قال: حدّثنا الضحاك بن عبد الرحمن بن عرزب عن أبى موسى الأشعرى: أنّ رسول الله ﷺ قال: «إذا مات ولد العبد قال الله عزّ وجلّ للملائكة: أقبضتم ولد عبدى؟

فيقولون: نعم فيقول: أقبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدى؟

فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله عزّ وجلّ: ابنوا لعبدى بيتًا فى الجنة وسمّوه بيت الحمد».

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾: على البلايا والرّزايا ثمّ نعتهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ﴾ عبيدًا تجمع وملكًا.

﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾: فى الآخرة أمال نصير النّون فى قوله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾، فأمال قتيبة النون واللام جميعًا فخمها الباقون، وقال أبو بكر الورّاق: إنّا لله: إقرار منّا له بالملك وإنّا إليه راجعون: فى الآخرة إقرار على أنفسنا بالهلاك.

قال عكرمة: طفئ سراج النبى ﷺ فقال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ فقيل: يا رسول الله أمصيبة هى؟

قال: «نعم كل شىء يؤذى المؤمن فهو له مصيبة».

قال سعيد بن جبير: ما أُعطى أحد فى المصيبة ما أُعطى هذه الأمة يعنى الاسترجاع ولو أعطى لأحد لأعطى يعقوب عليه السلام ألاّ تسمع إلى قوله فى فقد يوسف: ﴿يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾(يوسف: ٨٤).

وقال رسول الله ﷺ: «من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته وأحسن عقباه، وجعل له خلفًا صالحًا يرضاه».

وعن فاطمة بنت الحسين عن أمّها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أصيب بمصيبة فأحدث استرجاعًا وإن تقادم عهدها كتب الله له من الأجر مثل يوم أُصيب».

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾: أى أهل هذه الصفة.

﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ﴾: قال ابن عبّاس: مغفرة ﴿مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾: ونعمة.

ابن كيسان: الصلوات هاهنا الثناء والرّحمة والتزكية وإنّما ذكر الصلاة والرحمة ومعناهما واحد لاختلاف اللفظين كقول الحطيئة:

ألا حبّذا هند وأرض بها هند وهند أتى من دونها النأى والبعد

وجمع الصلوات لأنّه عنى به أنها رحمة بعد رحمة.

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾: إلى الاسترجاع، وقيل: إلى الجنّة والثواب.

وقيل: إلى الحقّ والصّواب وكان عمر بن الخطاب إذا قرأ هذه الآية قال: نعم العدلان ونعم العلاوة.

﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾: **الصفا جمع الصّفاة وهى الصخرة الصلبة الملساء، قال** امرؤ القيس:

لها كفل كصفـا المسيل أبرز عنها جحاف مضر

يقال: صفاة وصفا مثل حصاة وحصا وقطاة وقطا ونـواة ونوى، وقيل: إن الصّفا واحد وتثنيته صفوان مثل عصا وعـصوان وجمعه أصفاء مثل رجا وأرجـاء، وصَفا وصَفى مثل عصا وعصى، قال الراجز:

كأن متنيــــه من النفى مواقع الطير على الصّفى

والمروة من الحجارة ما لان وصغر. قال أبو ذؤيب الهذلى:

حتّى كأنّى للحوادث مروة بصفا المشرق كل يوم تقرع

أى صخرة رخوة صغيرة، وجمع المروة مروان وجمعها للكبير مرو مثل ثمرة وثمرات وثمر وحمرة حمرات وحمر. قال الأعشى ميمون بن قيس يصف ناقته:

وترى الأرض خـفًا زائلاً فإذا (ما) صادف المرو رضخ

وإنّمـا عنى الله تعـالى بهمـا الجبلين المعـروفين بمكّـة دون سائر الصّفا والمروة فلذلك أدخل فيهما الألف واللام، وشعـائر الله: أعلام دينه واحدها شعيرة وكلُّ ما كان معلّما لقربان يتقرّب به إلى الله عزّ وجل من دعاء وصلاة من ذبيحة وأداء فرض وغير ذلك فهو شعيرة.

قال الكميت بن زيد:

نقتلهم جيلاً فجيلاً تراهم شعــائر قربان بهم يتقرب

وأصلها من الأشعار وهى الأعلام على الشىء.

وفى الحديث إنّ قـائلاً قـال: حين شجّ عمر فى الحجّ: أشعر أمير المؤمنين دمًا، وأراد

بالشعائر ههنا مناسك الحج التى جعلها الله عزّ وجل إعلامًا لطاعته، وقال مجاهد: يعنى من الخبر الّذى أخبركم عنه وأصل الكلمة على هذا القول من شعرت أى: علمت كأنّه إعلام الله عباده أمر الصفا والمروة.

وتقدير الآية: إنّ الصّفا والمروة من شعائر الله، فترك ذكر الطّواف واكتفى بذكرهما (وذلك) معلومًا عند المخاطبين.

﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ﴾: أصل الحجّ فى اللغة: القصد.

قال الشاعر:

كراهب يحجّ بيت المقدس ذى موحد ومنقل وبرنس

وقال محمّد بن جرير: من أكثر الاختلاف إلى شىء فهو حاج.

وقال المحمل السعدى:

وأشهد من عوف حلولاً كثيرة يحجون بيت الزبرقان المزعفرا

أى يكثرون التردد إليه لوده ورئاسته.

وقيل للحاج: حاج لأنّه يأتى البيت من عرفة ثمّ يعود إليه للطواف يوم النّحر ثمَّ ينصرف عنه إلى منى ثمَّ يعود إليه لطواف الصدر. فبتكرار العود إليه مرة بعد أخرى قيل له حاج:

﴿أَوِ ٱعْتَمَرَ﴾: من العمرة وهى الزيارة.

قال العجاج:

لقد سما ابن معمر حين اعتمر معزى بعيدًا من بعيـــد وضبر

أى من قصده وزاره، وقال المفضل بن سلمة: ﴿أَوِ ٱعْتَمَرَ﴾ أى حلّ بمكّة بعد الطواف والسّعى ففعل ما يفعل الحلال.

والعمرة: لإقامة الموضع والعمارة: إصلاحه ومرمّته.

وعن عبد الله بن عامر بن رفيعة قال: قال رسول الله ﷺ: «تابعوا بين الحجّ والعمرة فإن متابعة ما بينهما يزيدان فى العمر والرّزق وينفيان الذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد».

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾: الجناح الإثم وأصله من جنح إذا مال عن القصد.

يقال: جنح الليل إذا مال بظلمته.

وجنحت السفينة: إذا مالت إلى الأرض. قال الله تعالى: ﴿۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ (الأنفال: ٦١) ومنه جناح الطائر.

﴿أَن يَطَّوَّفَ﴾: أى يدور وأصله يتطوف فأدغمت التاء فى الطّاء.

وقرأ أبو حيوة الشّامى: يطوف مخفّفة الطاء واختلفوا فى وجه الآية وتأويلها وسبب تنزيلها.

قال أنس بن مالك: كنّا نكره الطواف بين الصفا والمروة لأنهما كانا من مشاعر قريش فى الجاهلية، فتركناه فى الإسلام، فأنزل الله هذه الآية.

وقال عمر بن حبيش: سألت ابن عمر عن هذه الآية فقال: انطلق إلى ابن عبّاس فإنّه أعلم من بقى بما أنزل على محمّد ﷺ، فأتيته فسألته فقال ابن عبّاس: كان على الصفا صنم على صورة رجل يقال له إساف، وعلى المروة صنم على صورة امرأة تدعى نائلة، وإنّما ذكروا الصفا لتذكير الإساف وذكروا المروة لتأنيث نائلة.

وزعم أهل الكتاب أنّهما زنيا فى الحرم فمسخهما الله عزّ وجل حجرين فوضعهما على الصّفا والمروة ليعتبر بهما فلما طالت المدّة عبدا دون الله، فكان أهل الجاهلية إذا طافوا بينهما مسحوا الوثنين فلمّا جاء الإسلام وكسرت الأصنام كره المسلمون الطواف بينهما لأجل الصنمين فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وروى السّدى عن أبى مالك عن ابن عبّاس قال: كان فى الجاهلية شياطين تعزف بالليل بين الصفا والمروة وكان بينهما آلهة فلمّا ظهر الإسلام قال المسلمون لرسول الله لا تطوفنّ بين الصفا والمروة فإنّه شرك كنّا نصنعه فى الجاهلية فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قتادة: كان ناس من تهامة فى الجاهلية يسعون بين الصفا والمروة فلمّا جاء الإسلام تحوّبوا السعى بينهما كما كانوا يتحوّبونه فى الجاهلية فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قتادة: كان (حى من تهامة لا يسعون بينهما) فأخبرهم أنّها كانت سنّة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

وروى الزهرى عن عروة بن الزبير قال: قلت لعائشة ما الصفا والمروة؟ قالت: قول الله: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ الآية، والله ما على أحد جناح ألاّ يطوف بين الصفا والمروة فقالت: عائشة ليس ما قلت يا ابن أختى إن هذه لو كانت على ما أولّها ما كان عليه جناح أن لا يطوف بهما، ولكنّها إنّما نزلت فى الأنصار وذلك أنهم كانوا قبل أن يسلموا يصلون لمناة الطاغية وهى صنم من مكّة والمدينة بالمشلل، وكان من أهل لها تحرّج أن يطوف بين الصفا والمروة. فلمّا أسلموا سألهم رسول الله ﷺ عن ذلك. فقالوا: يا رسول الله إنّا كنا لا نطوف بين الصّفا والمروة لأنّهما صنمان. فهل علينا حرج أن نطوف بهما؟

فأنزل الله تعالى هذه الآية: ثمّ قالت عائشة (رضى الله عنها) قد سنّ رسول الله ﷺ الطواف

بينهما. فليس لأحد تركه.

قال الزهرى: قد ذكرت ذلك لأبى بكر بن عبد الرّحمن بن الحارث بن هشام.

فقال: هذا العلم.

وقال مقاتل بن حيّان: إنّ النّاس كانوا قد تركوا الطّواف بين الصفا والمروة، غير الحمس وهم قريش وكنانة وخزاعة وعامر بن صعصعة سموا حمسًا لتشددهم فى دينهم والحماسة الشجاعة والصّلابة، فسألت الحمس رسول الله ﷺ عن السعى بين الصفا والمروة أمن شعائر الله أم لا؟، فإنّه لا يطوف بهما غيرنا فنزلت هذه الآية.

واختلف العلماء فى هذه الآية فقال الشافعى ومالك: الطواف بين الصفا والمروة فرض واحد ومن تركه لزمه القضاء والإعادة فلا تجزيه فدية ولا شيء إلاّ العود إلى مكّة والطّواف بينهما كما لا يجزى تارك طواف الإفاضة إلاّ قضاؤه بعينه.

وقالا: هما طوافان واجبان أمر بهما أحدهما بالبيت والآخر بين الصفا والمروة وحكمها واحد.

وقال الثورى وأبو حنيفة وأبو يوسف ومحمّد: إن عاد تارك الطواف بينهما لقضائه فحسن وإن لم يعد فعليه دم ورأوا أنّ حكم الطواف منهما حكم رمى بعض الجمرات والوقوف بالمشعر وطواف الصدر وما أشبه ذلك ممّا يجزى تاركه بتركه فدية ولا يلزمه العود لقضائه بعينه.

وقال أنس بن مالك وعبد الله بن الزّبير ومجاهد وعطاء: الطواف بهما تطوّع إن فعله فاعل يكن محسنًا، وإن تركه تارك لم يلزمه بتركه شيء، واحتج من لم يوجب السّعى والطواف بينهما بقراءة ابن عبّاس وأنس وشهر بن حوشب وابن سيرين: فلا جُناح عليه أن لا يطّوف بهما بإثبات لا، وكذلك هو فى مصحف عبد الله والجواب عنه أن (لا): زيادة صلة كقوله: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ (الأعراف: ١٢)، وكقوله: ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (الأنبياء: ٩٥)، و﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ (القيامة: ١، البلد: ١)، وقال الشاعر:

فلا ألوم البيض ألاّ تسخرا لمّا رأين الشمط القفندرا

فإذا كان رسم المصحف كذلك لم يكن فيه تمجّح حجة مع احتمال الكلام ما وصفناه فكيف وهو خلاف رسوم الشيخ الإمام ومصاحف الإسلام.

ثمّ الدليل على أنّ السّعى بينهما واجب وعلى تاركه إعادة الحج ناسيًا تركه أو عامدًا بظاهر الأخبار. أنّ رسول الله ﷺ فعل ذلك وأمر به.

روى جعفر بن محمّد عن أبيه عن جابر قال: لما دنا رسول الله ﷺ من الصّفا فى حجّته

قال: «إنّ الصفا والمروة من شعائر الله ابدءوا بما بدء الله به فبدأ بالصّفا فرقى عليه حتّى رأى البيت ثمّ مشى حتّى إذا تصوّبت قدماه فى الوادى سعى».

وروى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: لعمرى ما حجّ من لم يسع بين الصفا والمروة، مفروض فى كتاب الله والسنّة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾.

وقال رسول الله ﷺ: «يا أيّها النّاس كتب عليكم السّعى فاسعوا».

قال كليب: رأى ابن عبّاس قومًا يطوفون بين الصفا والمروة فقال: هذا ما أورثتكم أمّكم أمّ إسماعيل انطلقت حين عطش ابنها وجاع فوجدت الصفا أقرب جبل إلى الأرض فقامت عليه ثمّ استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدًا فلم تر أحدًا فهبطت من الوادى، ورفعت طرف درعها ثمّ سعت سعى الإنسان المجهود حتّى جاوزت الوادى ثمّ أتت المروة وقامت عليها تنظر هل ترى أحدًا فلم تر أحدًا ففعلت ذلك سبع مرّات.

وقال محمّد: حجّ موسى ﷺ على جمل أحمر وعليه عباءتان قطرانيتان فطاف بالبيت ثمّ صعد الصّفا ودعا ثمّ هبط إلى السعى وهو ملبٍّ فقال: لبيك اللهم لبيك، فقال الله عزّ وجلّ لبيّك عبدى وأنا معك، فخرّ موسى ساجدًا.

﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾: قرأ حمزة والكسائى تطوّع بالتّاء وتشديد الطّاء وجزم العين وكذلك التاء فى بمعنى يتطوع واختاره أبو عبيد وأبو حاتم اعتبارًا بقراءة عبد الله ومن تطوع بالتّاء.

وقرأ الباقون: تطوّع بالتاء وضعف العين على المضى.

قال مجاهد: فمن تطوع بالطواف بالصّفا والمروة، وقال: تطوّع رسول الله وكان من النبيين.

وقال مقاتل والكلبى: ومن تطوّع خير زاد فى الطواف ففيه الواجب.

وقال ابن زيد: ومن تطوّع خيرًا فاعتمر، والحج فريضة والعمرة تطوّع.

وقيل: فمن تطوع بالحج والعمرة بعد قضاء حجته الواجبة عليه.

وقال الحسن وغيره: ومن تطوع خيرًا يعنى به للدّين كلّه. أىّ فعل غير المفترض عليه من طواف وصلاة وزكاة أو نوع من أنواع الطّاعات كلّها.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ﴾: مجاز بعمله.

﴿عَلِيمٌ﴾: بنيّة من يشكر اليسير ويعطى الكثير ويغفر الكبير وأصل الشكر من قول العرب: دابّة شكور إذا كان يظهر عليها من السمن فوق ما يعلف.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: يعنى الرجم والحدود والأحكام والحلال والحرام.

﴿وَٱلْهُدَىٰ﴾ : يعنى وأمر محمّد ﷺ ونعته.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ﴾ : لبنى إسرائيل.

﴿فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾ : فى التّوراة نزلت فى علماء اليهود ورؤسائهم كتموا صفة محمّد ﷺ وآية الرجم.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ : أصل اللّعن فى اللغة الطّرد ولعن الله إبليس بطرده إيّاه حين قال له: **﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾** (الحجر: ٣٤، ص: ٧٧). قال الشماخ: وذكر ما ورده:

ذعرت به القطا وبقيت فيه مقام الذّئب كالرّجل اللّعين

وقال النّابغة:

فبتّ كأنّنى خرج لعين نفاه النّاس أو دنف طعين

فمعنى قولنا: لعنه الله: أى طرده وأبعده وأصل اللّعنة ما ذكرنا ثمّ كثر ذلك حتّى صار قولاً.

﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ﴾ : أى يسألون الله أن يلعنهم ويقولون: اللّهمّ العنهم واختلف المفسّرون فى هؤلاء اللاّعنين.

قال قتادة: هم الملائكة.

عطاء: الجنّ والإنس.

الحسن: عباد الله أجمعون.

ابن عبّاس: كلّ شىء إلاّ الجنّ والإنس.

الضحّاك: إن الكافر إذا وضع فى حفرته قيل له من ربّك؟ ومن نبيّك؟ وما دينك؟ فيقول: لا أدرى. فيقول له: لا دريت، ثمّ يضربه ضربة بمطرق فيصيح صيحة يسمعها كلّ شىء إلاّ الثّقلان الإنس والجنّ فلا يسمع صوته شىء إلاّ لعنه فذلك قوله: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ﴾.

البراء بن عازب: إنّ الكافر إذا وضع فى قبره أتته دابّة كأنّ عينيها قدران من نحاس معها عمود من حديد فتضربه ضربة بين كتفيه فيصيح فلا يسمع أحد صوته إلاّ لعنه ولا يبقى شىء إلاّ سمع صوته غير الثقلين.

ابن مسعود: هو الرّجل يلعن صاحبه فترتفع اللّعنة فى السماء ثمّ تنحدر فلا تجد صاحبها الّذى قيلت له أهلاً لذلك فترجع إلى الذى يحكم بها فلا تجده لها أهلاً فتنطلق فتقع على اليهود فهو قوله عزّ وجلّ: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ﴾. فمن تاب منهم ارتفعت اللّعنة عنه وكانت فيمن لقى من اليهود.

مجاهد: اللاّعنون البهائم تلعن عصاة بنى آدم إذا أسنت السنّة وأمسك المطر قالت: هذا بشؤم ذنوب بنى آدم.

عكرمة: دواب الأرض وهوامّها حتّى الخنافس والعقارب يقولون منعنا القطر بذنوب بنى آدم وإنّما قال لهذه الأشياء اللاّعنون ولم يقل اللاعنات؛ لأن من شأن العرب إذا وصفت شيئًا من الجمادات والبهائم. وغيرها سوى النّاس بما هو صفة للنّاس من فعل أو قول لم يخرجوه على مذهب بنى آدم وجمعهم كقولهم: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ (يوسف: ٤) ولم يقل ساجدات، وقوله للأصنام: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ (الأنبياء: ٦٣)، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ (النمل: ١٨)، وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ (فُصّلت: ٢١) الآية ثمّ استثنى فقال:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾: من الكفر.

﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾: الأعمال فيما بينهم وبين ربّهم.

﴿وَبَيَّنُوا۟﴾: صفة محمّد ﷺ وآية الرجم.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾: أتجاوز عنهم وأقبل توبتهم.

﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ﴾: الرجّاع بقلوب عبادى المنصرفة عنى.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: بهم بعد إقبالهم علىّ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾: واو حال.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾: أى ولعنة الملائكة.

﴿وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾: قتادة والربيع: يعنى بالنّاس أجمعين: المؤمنين.

أبو العالية: هذا يوم القيامة يوقّف الكافر فيلعنه الله عزّ وجلّ ثمّ تلعنه الملائكة ثمّ يلعنه النّاس أجمعين.

السّدى: لا يتلاعن اثنان مؤمنان ولا كافران فيقول أحدهما لعن الله الظالم إلاّ وجبت تلك اللعنة على الكافر لأنّه ظالم فكل أحد من الخلق يلعن.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: مقيمين فى اللعنة والنّار.

﴿لَا يُخَفَّفُ﴾: لا يرفّه عنهم العذاب.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾: يمهلون ويؤجلون.

وقال أبو العالية: لا ينظرون: فيعذرون كقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝﴾ (المرسلات: ٣٥، ٣٦).

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ۝١٦٣ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٦٤﴾

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ : الكلبي عن أبي صالح عن ابن عبّاس: نزلت في كفّار قريش قالوا: يا محمّد صف وانسب لنا ربّك فأنزل الله تعالى سورة الإخلاص وهذه الآية.

جويبر عن الضحّاك عن ابن عبّاس قال: كان للمشركين في الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا يعبدون من دون الله إفكًا وشرا فبيّن الله تعالى لهم أنّه واحد فأنزل: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾.

سعيد بن أبي الضحى: قال: لما نزلت هذه الآية عجب المشركون وقالوا: إنّ محمّدًا يقول إلهكم إله واحد فليأتنا بآية إن كان من الصّادقين فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي تعاقبهما في الذهاب والمجيء والاختلاف: الافتعال من خلف يخلف خلوفًا يعني أنّ كل واحد منهما إذا ذهب أحدهما جاء آخر خلافه أي: بعده، نظير قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ (الفرقان: ٦٢).

عطاء وابن كيسان: أراد في اختلاف الليل والنّهار في اللّون والطّول والقصر والنّور والظلمة والزيادة والنقصان يكون أحدهما على الآخر، والليل جمع ليلة مثل تمرة وتمر ونحلة ونحل. واللّيالي جمع الجمع والنّهار واحد وجمعه نُهر. قال الشاعر:

لولا الثّريدان هلكنا بالضّمر ثريد ليل وثريد بالنّهر

وقدّم الليل على النّهار بالذكر لأنّه الأصل والأقدم قال الله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ (يس: ٣٧). خلق الله تعالى الأرض مظلمة ثمّ خلق الشمس والقمر وهذا كتقديمه الصّوامع والبيع والصلوات على المساجد.

﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ : يعني السفن واحدة وجمعه سواء، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۝﴾ (الصافات: ١٣٩، ١٤٠).

وقال في الجمع: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ (يونس: ٢٢) يذكّر ويؤنّث قال الله تعالى: ﴿الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ وقال في التأنيث: ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ فالتذكير على

اللفظ الواحد والتأنيث على معنى الجمع.

﴿بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾: يعنى ركوبها والحمل عليها فى التجارات والمكاسب وأنواع المطلب.

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾: يعنى المطر.

﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: بعد يبوستها وجدوبتها.

﴿وَبَثَّ﴾: نشر وفرّق.

﴿فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ﴾: أى يقلّبها قبولاً ودبوراً وشمالاً وجنوبًا.

وقيل: تصريفها مرّة بالرحمة ومرّة بالعذاب.

وقرأ حمزة والأعمش والكسائى وخلف: الرّيح بغير ألف على الواحد وقرأ الباقون: الرّياح بالجمع.

قال ابن عباس: الرّياح للرحمة والريح للعذاب، وعن النبى ﷺ: إذا هاجت الريح يقول: «اللّهمّ اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا».

والرّيح يذكر ويؤنث.

﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ﴾: أى الغيم المذلّل، ﴿بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾: سمّى سحابًا لأنّه يسحب أى يسير فى سرعته كأنّه يسحب: أى يجرّ.

﴿لَأَيَـٰتٍ﴾: دلالات وعلامات.

﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: فيعلمون أنّ لهذه الأشياء خالقًا وصانعًا.

قال رسول الله ﷺ: «ويل لمن قرأ هذه الآية فمجّ بها». أى لم يتفكّر فيها ولم يعتبر بها.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ﴾: يعنى الأصنام المعبودة من دون الله قاله أكثر المفسّرين.

وقال السّدى: ساداتهم وقاداتهم الّذين كانوا يطيعونهم فى معصية الله فيحبّونهم: ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ أى كحبّ المؤمنين لله، وهذا كما يقال: بعت غلامى كبيع غلامك يعنى: كبيعك غلامك.

وأنشد الفرّاء:

ولستُ مسلّمًا ما دمت حيًا   على زيد كتسليم الأمير

أى كتسليمى على الأمير هذا قول أكثر العلماء، وقال ابن كيسان والزجّاج: تقدير الآية: يحبّونهم كحبّهم الله يعنى أنّهم يسوون بين هذه الأصنام وبين الله فى المحبّة ثمّ قال:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾: قال ابن عبّاس: أثبت وأدوم وذلك أن المشركين كانوا يعبدون

صنمًا فإذا رأوا شيئًا أحسن منه تركوا ذلك الوثن وأقبلوا على عبادة الأحسن.

عكرمة: أشدّ حبا فى الآخرة.

قتادة: إنّ الكافر يعرض عن معبوده فى وقت البلاء ويقبل على الله عزّ وجلّ لقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ (العنكبوت: ٦٥).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ (الإسراء: ٦٧).

والمؤمن لا يعرض عن الله فى الضّراء والسرّاء والرّخاء والبلاء ولا يختار عليه سواه.

الحسن: إنّ الكافرين عبدوا الله بالواسطة وذلك قولهم للأصنام: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ (يونس: ١٨).

وقوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ (الزمر: ٣).

والمؤمنون يعبدونه بلا واسطة ولذلك قال عزّ من قائل: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾.

سعيد بن جبير: إنّ الله يأمر يوم القيامة من أحرف نفسه فى الدنيا على رؤية الأصنام أن يدخلوا جهنّم مع أصنامهم فيأتون لعلمهم أنّ عذاب جهنم على الدّوام ثمّ يقول للمؤمنين بين أيدى الكافرين: إنّ كنتم أحبّائى لا تحبّون النّار فينادى مناد من تحت العرش: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾.

وقيل: لأنّ حبّ المشركين لأوثانهم مشترك لأنّهم يحبّون الأنداد الكثيرة وحبّ المؤمنين لربّهم غير مشترك لأنّهم يحبّون ربًا واحدًا، وقيل: لأنّ حبّهم هوائى وحبّ المؤمنين عقلى.

وقيل: إنّ حبّهم للأصنام بالتقليد وحبّ المؤمنين لله تعالى بالدّليل والتمييز.

وقيل: لأن الكافرين يرون معبودهم ومصنوعهم والمؤمنين يرون الله تعالى صانعهم، وقيل: لأنّ المشركين أحبّوا الأصنام وعاينوها والمؤمنين يحبّون الله ولم يعاينوه بل آمنوا بالغيب فى الغيب للغيب.

وقيل: إنّما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ لأنّ الله أحبّهم أوّلاً ثمّ أحبّوه ومن شهد له المعبود بالمحبّة كان محبّته أتم وأصح.

قال الله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾ (المائدة: ٥٤).

وقرأ أبو رجاء العطاردى: يحبونهم بفتح الياء وهى لغة يقال: حببت الرجل فهو محبوب قال الفراء أنشدنى أبو تراب:

أحبّ لحبّها السّودان حتّى حببت لحبّها سود الكلاب

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾: قرأ أبو عبد الرحمن وأبو رجاء والحسن وأبو جعفر وشيبة ونافع

وقتادة والأعرج وعمرو بن ميمون وسلام ويعقوب وأيّوب وابن عبّاس ولو ترى بالتّاء: أي تبصر يا محمّد وقرأ الباقون بالياء.

فمن قرأ بالتّاء فهو خطاب للنبي ﷺ والجواب محذوف تقديرها ولو ترى: أي تبصر يا محمّد الّذين ظلموا: أشركوا.

﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾: لرأيت أمرًا عظيمًا ولعلمت ما يصيرون إليه أو لتعجّبت منه، ومن قرأ بالياء فمعناه: ولو ترى الّذين ظلموا أنفسهم عند رؤية العذاب لعلموا: ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ أو لآمنوا أو لعلموا مضرّة الكفر ونظير هذه الآية من المحذوف الجواب قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ (الرعد: ٣١) الآية: يعني لكان هذا القرآن وهو كما يقول: لو رأيت فلانًا والسّياط تأخذه. فتستغني عن الجواب؛ لأنّ المعنى مفهوم: ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾.

وقرأ أبو البرخثم وابن عامر: يُرون بضم الياء على التعدى، وقرأ الآخرون بفتحها على اللزوم.

﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾: قرأ الحسن وقتادة وأبو جعفر وشيبة وسلام ويعقوب: (إنّ القوّة وإن الله) بكسر الألف فيهما على الاستئناف. والكلام تام عند قوله: ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ مع إضمار الجواب، كما ذكرنا.

وقرأ الباقون: بفتحها على معنى بأنّ القوّة وبأنّ الله، وقيل: معناه ليروا أنّ القوّة لله. أي لأيقنوا وعاينوا.

قال عطاء: ولو يرى الذين ظلموا يوم القيامة إذ يرون العذاب حين تخرج إليهم جهنم من مسيرة خمسمائة عام لتلتقطهم كما يلتقط الحمام الحبة؛ لعلموا أنّ القوّة والقدرة والملكوت والجبروت لله جميعًا.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾.



﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾: قرأ مجاهد: بتقديم الفاعل على المفعول.

وقرأ الباقون: بالضدّ، والمتبوعون هم الجبابرة والقادة فى الشرك والشّر، والتابعون هم الأتباع والضّعفاء والسفلة قالهُ أكثر أهل التفسير.

السدى: هم الشياطين يتبرءون من الإنس.

﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ﴾: أى عنهم، والباء بمعنى عن.

﴿ٱلْأَسْبَابُ﴾: قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: يعنى المودّة والوصلة التى صارت بينهم فى الدُّنيا، أو صارت مخالفتهم عداوة.

ربيع: يعنى بالأسباب: المنازل التى كانت لهم من أهل الدُّنيا، ابن جُريج والكلبى: يعنى الأنساب والأرحام كقوله تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ (المؤمنون: ١٠١).

السّدى: يعنى الأعمال التى كانوا يعملونها فى الدُّنيا. بيانه قوله: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ (الفرقان: ٢٣) وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ (محمد: ١).

فأهل التقوى أعطوا الأسباب أعمال وثيقة فيأخذون بها وينجون، الآخرون يعطون أسباب أعمالهم الخبيثة فتنقطع بهم أعمالهم فيذهبون إلى النّار.

أبو روق: العهود التى كانت بينهم فى الدنيا، وأصل السّبب كلّ شىء يتوصل به إلى شىء من ذريعة أو قرابة أو مودّة، ومنه قيل للجهاد: سبب وللطريق سبب وللسلّم سبب. قال زهير:

ومن هاب أسباب المنايا ظلتهُ لو رام أن يرقى السّماء بسلّم

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾: يعنى الأتباع.

﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾: رجعة إلى الدُّنيا.

﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾: أى من المتبوعين.

﴿كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾: اليوم. أجاب للتمنى بالفعل.

قال الله عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أى كما أراهم العذاب كذلك.

﴿يُرِيهِمُ ٱللَّهُ﴾: وقيل: ليتبرأوا بعضهم من بعضهم يريهم الله ﴿أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ﴾: ندامات.

﴿عَلَيْهِمْ﴾: قيل: أراد أعمالهم الصّالحة التى ضيعوها.

قال السدى: ترفع لهم الجنّة فينظرون إليها وإلى بيوتهم فسألوا قيل: أراد أعمالهم لو أطاعوا الله، فيقال لهم: تلك مساكنكم لو أطعتم الله. ثمّ تقسم بين المؤمنين فيرثوهم فذلك

حين يندمون.

ربيع: أراد به أعمالهم السّيئة لمَ عملوها وهلاّ عملوا بغيرها ممّا يرضى الله تعالى.

ابن كيسان: إنّهم أشركوا بالله الأوثان رجاء أن يُقربهم إلى الله فلما عُذِّبوا على ما كانوا يرجون ثوابه تحسّروا وندموا والحسرات جمع حسرة وكذلك كلّ اسم كان واحده على فعلة مفتوح الأوّل ساكن الثاني فإنّ جمعه على فعلات مثل ثمرة وثمرات وشهوة وشهوات فأمّا إذا كان نعتًا فإنك تسكّن ثانيه مثل ضخمة وضخمات وعيلة وعيلات، وكذلك ما كان من الأسماء مكسور الأوّل مثل نعمة وسدرة.

﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.



﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءًۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾: نزلت في ثقيف وخزاعة وعامر بن صعصعة وبني مدلج فيما حرّموا على أنفسهم من الحرث والأنعام والبحيرة والسائبة والوصيلة والحام فقال: ﴿كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ للتبعيض لأنه ليس كل ما في الأرض يمكن أكله يحلّ أكله، ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ طاهراً وهما منصوبان على الحال.

وقيل: على المفعول تقديره: كلوا حلالاً طيّبًا كما في الأرض.

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ﴾: قرأ شيبة ونافع وعاصم والأعمش وحمزة خطوات: بسكون الطّاء في جميع القرآن وهي أكثر الروايات عن أبي عمرو.

وقرأ أبو جعفر وأبو مجلز وأبو عمرو في بعض الروايات والزهري وابن عامر والكسائي: بضم الخاء والطّاء.

وقرأ علي وعمرو بن ميمون وسلام: بضم الخاء والطّاء وهمزة بعد الطّاء.

وقرأ أبو السّماك العدوي وعبيد بن عمير: خطوات بفتح الخاء والطاء فمن خفّف فإنّه أبقاه على الأصل، وطلب الخفّة لأنّها جمع خطوة ساكنة الطاء، ومن ضم الطاء فيه أتبعها ضمة

الخاء، وكل ما كان من الأسماء وزن فعله فجمع على التاء فإنّ الأغلب والأكثر فى جمعه التثقيل وتحريك من الفعل بالحركة التى فى فاء الفعل فى الواحد مثل ظلمة وظلمات، وقربة وقربات، وحجرة وحجرات، وقد يخفف أيضًا.

ومن ضمّ الخاء والطاء مع الهمز.

فقال الأخفش: أراد ذهب بها مذهب الخطيئة فجعل ذلك على مثال خطه من الخطأ.

وقال أبو حاتم: أرادوا إشباع الضمّة فى الواو فانقلبت همزة وهذا شائع فى كلّ واو مضمومة ومن نصب الخاء والطّاء فإنّه أراد جمع خطوة مثل تمرة وتمرات واختلفوا فى معنى قوله: ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ فروى على بن أبى طلحة عن ابن عبّاس: خطوات الشيطان: عمله.

مجاهد وقتادة والضّحاك: خطاياه.

السّدى والكلبى: طاعته.

عطاء عن ابن عبّاس: زلاته وشهواته.

أبو مجلز: هى البذور فى المعاصى.

المورّج: آثاره.

أبو عبيد: هى المحقّرات من الذنوب.

القتيبى والزجاج: طرقه.

والخطوة ما بين القدمين، والخطوة بالفتح الفعلة الواحدة من قول القائل: خطوت خطوة واحدة.

﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾: بيّن العداوة، وقيل: مظهر العداوة، قد أبان عداوته لكم بإبائه السّجود لأبيكم آدم عليه السلام وغروره إياه حين أخرجه من الجنّة، وأبان: يكون لازمًا ومتعديًا، ثمّ بيّن عداوته فقال: ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ يعنى الإثم، وأصل السّوء كل ما يسوء صاحبه، وهو مصدر: ساءه ـ يسوءه ـ سوءًا ومساءة إذا حزنه وسوءه شىء أى حزنته فحزن: قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ زُلۡفَةٗ سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ (الملك: ٢٧). قال الشاعر:

إن يك هذا الدّهر قد ساءنى ... فطالما قد سرّنى الدّهر
الأمر عندى فيهما واحد ... لذلك صبر ولذا شكرُ

﴿وَٱلۡفَحۡشَآءِ﴾: يعنى المعاصى، وما قبح من القول والفعل وهو مصدر كالبأساء والضّراء واللأواء، ويجوز أن يكون نعتًا لا فعل له كالعذراء والحسناء، وقال متمم بن نويرة:

لا يضمر للحشا تحت ثيابه خُلق شمائله عفيف المبرر

واختلف المفسرون فى معنى الفحشاء المذكور فى هذه الآية.

روى باذان عن ابن عبّاس قال: الفحشاء كلّ ما فيه حدّ فى الدُّنيا من المعاصى فيكون من القول والفعل، والسّوء من الذنوب ما لا حدّ فيه.

طاوس عنه: فهو ما لا يُعرف فى شريعة ولا سنّة.

عطاء عنه: البخل. السّدى: الزّنا.

وزعم مقاتل أنّ جميع ما فى القرآن من ذكر الفحشاء فإنّه الزّنا إلاّ قوله: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ (البقرة:٢٦٨)فإنه منع الزكاة.

﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾: من تحريم الحرث والأنعام.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: اختلفوا فى وجه هذه الآية، قال بعضهم: إنّها قصّة مستأنفة وإنّها فى اليهود على هذا القول تكون الهاء والميم فى قوله: ﴿لَهُمُ﴾ كناية عن غير مذكور.

وروى محمّد بن إسحاق بن يسار عن محمّد بن أبى محمّد مولى زيد بن ثابت عن سعيد ابن جبير أو عكرمة عن ابن عبّاس قال: دعا رسول الله ﷺ اليهود إلى الإسلام ورغبهم فيه وحذّرهم عذاب الله ونقمته فقال له نافع بن خارجة ومالك بن عوف: ﴿قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾ فهم كانوا خيراً وأعلم منّا فأنزل الله هذه الآية، وقال قوم: بل هذه الآية صلة بما قبلها وهى نازلة فى مشركى العرب وكفّار قريش واختلفوا فيه فقال الضّحاك عن ابن عبّاس: فإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله يعنى كفّار قريش من بنى عبد الدّار، قالوا: بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا من عبادة الأصنام.

فقال الله: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا﴾ من التوحيد ومعرفة الرحمن: ﴿وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ للحجة البالغة وعلى هذا القول تكون الهاء والميم عائدة على من فى قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا﴾ وقال الآخرون: إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله فى تحليل ما حرّموه على أنفسهم من الحرث والأنعام والسائبة والوصيلة والبحيرة والحام وسائر الشرائع والأحكام: ﴿قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا﴾ وجدنا عليه آباءنا من التحريم والتحليل والدّين والمنهاج وعلى هذا القول تكون الهاء والميم راجعة إلى الناس فى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ (البقرة:١٦٨).

ويكون الرجوع عن الخطاب إلى الخبر، كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ

طَيِّبَةٍ﴾ (يونس: ٢٢). وهذا أولى الأقاويل لأنّ هذه القصّة عقب قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فهو أولى أن يكون خبراً عنهم من أن يكون خبراً عن المتخذين الأنداد بما فيهما من الآيات لطول الكلام.

وأدغم على بن حمزة الكسائى لام هل وبل فى ثمانية أحرف التاء كقوله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ﴾ (الأعلى: ١٦) و﴿هَلْ تَعْلَمُ﴾ (مريم: ٦٥) والثاء كقوله: ﴿هَلْ ثُوِّبَ﴾ (المطفّفين: ٣٦)، والسين فى قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ﴾ (يوسف: ١٨). والزاى كقوله: ﴿بَلْ زُيِّنَ﴾ (الرعد: ٣٣)، والضاد كقوله: ﴿بَلْ ضَلُّواْ﴾ (الأحقاف: ٢٨)، والظاء كقوله: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ﴾ (الفتح: ١٢)، والطاء كقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ﴾ (النساء: ١٥٥)، والنون نحو قوله: ﴿بَلْ نَحْنُ﴾ (الواقعة: ٦٧، القلم: ٢٧)، ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ وإنّما خصّ به لام هل وبل دون سائر اللامات: لأنّها ساكنة بتًا، وسائر اللاّمات ساكنة بعلل متى ما زالت تلك العلل زال سكونها.

فقال الله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ واو العطف، ويُقال أيضًا واو التعجب دخلت عليها ألف الاستفهام للتوبيخ والتقرير؛ فلذلك نصبت، والمعنى يتبعون آباءهم وإن كانوا جهّالاً، وترك جوابه لأنّه معروف.

قوله تعالى: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا﴾ لفظ عام ومعناه الخصوص لأنّهم كانوا يعقلون أمر الدُّنيا (ومعناه) لا يعقلون شيئًا من أمر الدّين ولا يهتدون.

ثمّ ضرب لهم مثلاً فقال عزّ من قائل: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

وسلكت العلماء فى هذه الآية طريقين، وأوّلوها على وجهين: فقال قوم: أراد بما لا يسمع إلاّ دعاء مثل البهائم التى لا تعقل، مثل الإبل والغنم والبقر والحمير ونحوها، وعلى هذا القول: ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة وعطاء والربيع والسدى وأكثر المفسرين: ثمّ اختلف أهل المعانى فى وجه هذا القول وتقدير الآية.

فقال بعضهم: معنى الآية: ومثلك يا محمّد ومثل الّذين كفروا فى وعظهم ودعائهم إلى الله عزّ وجلّ قاله الأخفش والزجّاج.

وقال الباقون: مثل واعظ الّذين كفروا وداعيهم.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾: فترك ذلك وأضاف المثل إلى الّذين كفروا لدلالة الكلام عليه ويسمّى هذا النوع من الخطاب المضمر ومثله فى القرآن كثير كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ (يوسف: ٨٢) قال الشاعر:

حسبت بغـام راحلتى عناقًا ... وما هى وثبت غيرك بالعناق

يعنى حسبت بغام راحلتى بغام عناق، وقال الرّاجز:

ولستُ مسلمًا ما دمت حيًا على زيد كتسليم الأمير

أى كتسليمى على الأمير. فشبه الله عزّ وجلّ واعظ الكفار بالرّاعى الذى ينعق بالغنم أى يصيح ويصوت بها. يُقال: ينعق نعيقًا ونعاقًا ونعقًا إذا صاح وزجر، قال الأخطل:

فانعق بضأنك يا جرير فإنّما منّتك نفسك فى الخلاء ضلالا

فكما أنّ هذه البهائم تسمع الصّوت ولا تفهمه ولا تنتفع به ولا تعقل ما يُقال لها، وكذلك الكافر لا ينتفع بوعظك إن أمرته بخير أو زجرته عن سوء، غير أنّهُ يسمع صوتك.

قال الحسن: يقول مثلهم فيما قبلوا من آبائهم وفيما أتيتهم به حيث لا يسمعون ولا يعقلونه، كمثل راعى الغنم الذى نعق بها فإذا سمعت الصّوت رفعت رءوسها فاستمعت إلى الصّوت والدُّعاء ولا تعقل منه شيئًا.

ثمَّ تعود بعد إلى مراتعها لم تفقه ما يُراد لها به، وقال بعضهم: معنى الآية: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فى قلّة عقلهم وفهمهم عن الله عزّ وجلّ وعن رسوله وسوء قبولهم عنهما كمثل المنعوق به من البهائم التى لا تفقه من الأمر والنهى غير الصّوت فكذلك الكافر فى قلة فهمه وسوء تفكّره وتدبّره فيما أُمر به ونُهى عنه فيكون المعنى للمنعوق به. الكلام خارج على النّاعق وهو فاش فى كلام العرب، يفعلون ذلك ويقبلون الكلام لاتضاح المعنى عندهم. فيقولون: فلان يخافك كخوف الأسد: أى كخوفه الأسد.

ويقولون: أعرض الحوض على النّاقة، وإنّما هو أعرض النّاقة على الحوض. قال الله عز وجلّ: ﴿إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾ (القصص:٧٦) وإنّما العصبة تنوء بالمفاتيح، وقال الشاعر:

وقد خفت حتّى ما تزيد مخافتى على وعل فى ذى المطارة عاقل

والمعنى: حتّى ما يزيد مخافتى وجل على مخافتى، وقال الآخر:

كانت فريضة ما تقول كما إنّ الزنى فريضة الرّجم

والمعنى: كما إنّ الرّجم فريضة الزّنا، وأنشد الفراء:

إن سراجًا لكريم مفخره تُجلى به العين إذا ما تجمره

والمعنى: يحلى بالعين، ونظائره كثيرة.

وعلى هذا القول أبو عبيدة والفراء وجماعة من العلماء، وقال بعضهم: معنى الآية: ومثل الكفّار فى قله فهمهم وعقلهم، كمثل الرُّعاة يكلمون البهم، والبهم لا تعقل عنهم، وعلى هذا التفسير لا تحوّل الآية إلى الضمير، وقال بعضهم: معناها ومثل الّذين كفروا فى دعائهم

الأصنام التى لا تفقه دعاءهم كمثل النّاعق بغنمه؛ فلا ينتفع من نعيقه بشىء غير أنّه فى عناء من دُعاء ونداء، فكذلك الكافر ليس له من دعائه الآلهة وعبادته الأوثان إلاّ العناء والبلاء، ولا ينتفع منها بشىء، يدل عليه قوله تعالى فى صفة الأصنام: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ (فاطر: ١٤). فهذا وجه صحيح.

وأمّا الوجه الآخر، فقال قوم: معنى الآية ومثل الكفّار فى دعائهم الأوثان وعبادتهم الأصنام كمثل الرّجل الذى يصيح فى جوف الجبال فيجيب فيها صوت يقال له: الصدى يجيبه ولا ينفعه. فيكون تأويل الآية على هذا القول، ومثل الكفّار فى عبادتهم الأصنام كمثل الناعق بما لا يسمع منه إلاّ دعاء ونداء.

ثمّ قال ﴿صُمٌّ﴾ أى هم صمٌّ، والعرب تقول لمن يسمع ولا يعمل بما يسمعه كأنّه أصم. قال الشاعر:

❖ أصم عما يساء سميعُ ❖

﴿بُكْمٌ﴾: عن الخير فلا يقولونه. ﴿عُمْيٌ﴾: عن الهدى فلا يبصرونه ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ﴾: من حلالات ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ من الحرث والأنعام وسائر المأكولات والنعم.

وروى أبو هريرة عن النبى ﷺ أنّه قال: «إنّ الله طيب لا يقبل إلاّ الطيب، وإنّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين. فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ (المؤمنون: ٥١) وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ثمّ ذكر الرّجل يطيل السّفر أشعر أغبر يمدّ يديه إلى

السماء يا ربّ يا رب ومطعمهُ حرام ومشربه حرام وملبسهُ حرام وغُذى فى حرام فأنّى يستجاب له».

﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ﴾ : على نعمته.

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ : قال النبى ﷺ: يقول: «يقول الله جلّ جلاله إنّى والجنّ والإنس فى نبإ عظيم أخلق ويعبد غيرى وأرزق ويشكر غيرى».

ثم بيّن ما حُرّم عليكم فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ قرأ أبو عبد الرحمن السلمى: إنّما حرم خفيفة الرّاء مضمومة.

﴿ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ : رفعًا على أنّ الفعل لها، وروى عن أبى جعفر: أنّه قرأ حُرّم بضم الحاء وكسر الرّاء وتشديدها ورفع ما بعده وله وجهان:

أحدهما: أنّ الفاعل غير مسمّى.

والثانى: أنّ الّذى حرّم عليكم الميّت على خبر إنّ.

وقرأ إبراهيم بن أبى عبلة: حرَّم بنصب الحاء والرّاء مشدّدًا ورفع ما بعده جعل ما بمعنى الّذى منفصله عن قوله: إنّ وحينئذ تكون ما نصبًا باسم إنّ وما بعدها رفعًا على خبرها كما يقول: إنّ ما أخذت مالك وإنّ ما ركبت دابّتك أى: إنّ الّذى قال الله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ (طه: ٦٩).

وقرأ الباقون: حرّم عليكم الميتة نصبًا على إيقاع الفعل وجعلوا إنّما كلمة واحدة تأكيدًا وتحقيقًا.

وقرأ أبو جعفر: الميتة وأخواتها بالتشديد فى كلّ القرآن، وأمّا الآخرون فخففوا بعضًا وشدّدوا بعضًا فمن شدّد قال أصله: ميوت فعل من الموت فأدغمت الياء فى الواو وجعلت الواو ياءًا مشدّدة للكسرة كما فعلوا فى سيّد وجيّد وصيّب ومن لم يشدّد فعلى طلب الخفّة وهما لغتان مثل: هيّن وهيْن، وليّن ولين. قال الشاعر:

ليس من مات واستراح بميْت إنّما الميت ميّت الأحياء

فجمع بين اللّغتين.

وحكى أبو معاذ عن النحويّن وقال: إنّ الميْت بالتخفيف الّذى فارقه الرّوح، والميّت بالتشديد الّذى لم يمت بعد وهو يموت قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ (الزمر: ٣٠): لم يختلفوا فى تشديده والله أعلم. والميتة: كلّ ما لم تدرك ذكاته وهو ممّا يذبح، والدّم: أراد به الدّم الجارى يدلّ عليه قوله عزّ وجلّ: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ (الأنعام: ١٤٥) مقيّد.

وهذه الآية مخصوصة بالسنّة وهو قول النبىّ ﷺ: «حلّلت لنا ميتان ودمان فأمّا الميتان فالحوت والجراد، وأمّا الدّمان فالكبد والطّحال».

وقوله: ﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ أراد به جميع أجزائه وكلّ بدنه فعبّر بذلك عن اللّحم لأنّه معظمه وقوامه.

﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾: أى ما ذُبح عن الأصنام والطواغيت. كما قاله ابن عبّاس ومجاهد وقتادة والضّحاك، وأصل الإهلال رفع الصّوت ومنه الإهلال بالحج وهو رفع الصّوت بالتلبية. قال ابن أحمر يصف فلاة:

يهلّ بالفرقد ركبانها كما يهلّ الراكب المعتمر

وقال آخر:

أو دّرة صدفية غواصها يهيج متى يرها تهلّ وتسجد

ومنه أهل الصّبى واستهلاله: وهو صياحه عند خروجه من بطن أُمّه، وفى الحديث: «كيف آدى من لا نطق ولا استهلّ ولا شرب ولا أكل فمثل ذلك يُطل» ومثل إهلال المطر واستهلاله وانهلاله وهو صوت وقوعه على الأرض.

قال عمر بن قميئة:

ظلم البطاح له انهلال حريصة فصفا النّطاف له بُعيد المقلع

وإنّما قال: وما أهلّ به لأنهم كانوا إذا ذبحوا لآلهتهم التى ربّوها جهروا به أصواتهم فجرى ذلك من أمرهم حتّى قيل؟ لكل ذابح سمّى أو لم يسمّ جهر بالصّوت أو لم يجهر مُهلّ.

الربيع بن أنس وغيره: وما أهلّ به لغير الله ما ذكر عليه غير اسم الله. وقال الزهرى: الإهلال لغير الله أن تقول باسم المسيح وهذه الآية مخصوصة بأهل الكتاب وهو قوله: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ (المائدة: ٥).

وروى حيوة عن عقبة بن مسلم التجيبى وقيس بن رافع الأشجعى أنهما قالا: إنّما أحلّ لنا ما ذبح لعيد الكنائس وما أهدى لها من خبز أو لحم فإنّما هو طعام أهل الكتاب، وقال حيوة: قلت أرأيت قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ فقال: إنّما ذلك المجوس وأهل الأوثان والمشركون.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾: قرأ عاصم وحمزة ويعقوب وأبو عمرو: فمن اضطرّ بكسر النون فيه وفى أخواته مثل: أن اقتلوا أو اخرجوا ونحوها لأنّ الجزم يحرّك إلى الكسر وقرأ الآخرون بضمّ النّون لمّا سكنّوا آخر الفعل الذى يليه لأجل الوصل نقلوا ضمّته إلى النّون، وقرأ ابن محيصن:

(فمن اضطر) بادغام الضّاد فى الطّاء حتّى تكون طاء خالصة، قرأ أبو جعفر بكسر الطاء رد إلى الطّاء كسرت الرّاء المدغمة لأنّ أصله اضطرر على وزن افتعل من الضّرورة.

قرأ الباقون: بضمّ الطاء على الأصل ومعناه أُحرج وأجهد وأُلجئ إلى ذلك.

وقال مجاهد: أكره عليه كالرجل يأخذه العدو فيكرهه على أكل لحم الخنزير وغيره من معصية الله.

﴿غَيْرَ﴾: نصب على الحال، وقيل على الاستثناء فإذا رأيت (غير) لا يصلح فى موضعها إلاّ فهى حال وإذا صلح فى موضعها إلاّ، فهى: استثناء فقس على هذا ما ورد عليك من هذا الباب.

﴿بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾: أصل البغى فى اللّغة قصد الفساد يقال: بغى الجرح يبغى بغيًا إذا ترامى إلى الفساد ومنه قيل: للزّنا بغاء.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ (النور: ٣٣) والزانية بغى.

قال الله: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ (مريم: ٢٨).

وأصل العدوان الظلم ومجاوزة الحد يقال: عدا عليه عدواً وعدواً وعدوانًا وعداء إذا ظلم، واختلف المفسرون فى معنى قوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ فقال بعضهم: غير باغ: أى غير قاطع للطّريق، ولا عاد: مفرق للأئمة شاقّ للأمّة خارج عليهم بسيفه فمن خرج يقطع الرحم أو يخيف ابن السبيل أو يفسد فى الأرض أو أبق من سيّده أو فرّ من غريمه أو خرج عاصيًا بأى وجه كان فاضطر إلى ميتة لم يحلّ له أكلها أو اضطرّ إلى الخمر عند العطش لم يحلّ له شربه ولا رخصة له ولا كرامة فأمّا إذا خرج مطيعًا ومباحًا له ذلك فإنه يرخّص فيه له وهذا قول: مجاهد وسعيد بن جبير والضحّاك والكلبى ويمان وهو مذهب الشافعى، قال: إذا أبحنا له ذلك فقد أعناه على فساده وظلمه إلى أن يتوب ولا يستبيح ذلك وقال آخرون: هذا البغى والعدوان راجعان إلى الأكل وإليه ذهب أبو حنيفة وأباح تناول الميتة للمضطر وإن كان عاصيًا.

ثمّ اختلف أهل التأويل فى تفصيل هذا التفسير:

فقال: الحسن وقتادة والرّبيع وابن زيد: غير باغ: يأكله من غير اضطرار، ولا عاد: متعد يتعدى الحلال إلى الحرام فيأكلها وهو غنى عنها.

مقاتل بن حيّان: غير باغ: أى مستحل لها، ولا عاد: متزود منها.

السّدى: غير باغ فى أكله شهوة فيأكلها مُلذذًا، ولا عاد يأكل حتى يشبع منه؛ ولكن يأكل منها قوتًا مقدار ما يمسك رمقًا.

شهر بن حوشب: غير باغ: أى مجاوز للقدر الّذى يحلّ له، ولا عاد ولا يُقصر فيما يحلُّ له فيدعُه ولا يأكله.

قال مسروق: بلغنى أنّه من اضطر إلى الميتة فلم يأكلها حتّى مات دخل النّار، وقد اختلف الفقهاء فى مقدار ما يحلُّ للمضطر أكلهُ من الميتة.

فقال بعضهم: مقدار ما يُمسك به رمقه، وهو أحد قولى الشافعى واختيار المزنى.

والقول الآخر: يأكل منها حتّى يشبع، وقال مقاتل بن حيّان: لا يزداد على ثلاث لقم.

وقال سهل بن عبد الله: غير باغ مفارق لجماعة، ولا عاد مبتدع مخالف لسنّة، ولم يرخص للمبتدع تناول المحرمات عند الضرورات.

﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾: فلا حرج عليه فى أكلها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾: لما أكل من الحرام فى حال الاضطرار.

﴿رَّحِيمٌ﴾: به حيث رخص له فى ذلك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ الآية.

قال جويبر عن الضّحاك عن ابن عبّاس: سألت الملوك اليهود قبل مبعث محمّد ﷺ عن الذى يجدونه فى التوراة فقالت اليهود: إنّا لنجد فى التوراة أنّ الله عزّ وجل يبعث نبيًّا من بعد المسيح يُقال له: محمّد، يُحرّم الزّنى والخمر والملاهى وسفك الدّماء، فلما بعث الله محمّداً ﷺ ونزل المدينة قال الملوك لليهود: أهذا الذى تجدون فى كتابكم؟ فقالت اليهود طمعًا فى أموال الملوك: ليس هذا بذلك النبىّ، فأعطاهم الملوك الأموال، فأنزل الله تعالى هذه الآية إكذابًا لليهود.

الكلبى عن أبى صالح عن ابن عبّاس: نزلت فى رؤساء اليهود وعلمائهم؛ كانوا يصيبون من سفلتهم الهدايا والفضول، وكانوا يرجون أن يكون النبىّ المبعث منهم، فلما بعث الله محمّداً ﷺ من غيرهم خافوا ذهاب ملكهم وزوال رئاستهم، فعمدوا إلى صفة محمد ﷺ فغيروها ثمّ أخرجوها إليهم، وقالوا: هذا نعت النبىّ الذى يخرج فى آخر الزّمان ولا يشبه نعت هذا النبىّ الّذى بمكّة.

فلما نظرت السفلة إلى النعت المُغيّر وجدوه مخالفًا لصفة محمد ﷺ فلا يتبعونه.

فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ يعنى صفة محمد ﷺ ونبوّته.

﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ﴾: بالمكتوم.

﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: عرضًا يسيراً يعنى المآكل التى كانوا يصيبونها من سفلتهم.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ﴾: ذكر البطن هاهنا للتوكيد؛ لأن الإنسان قد يقول أكل فلان مالي إذا أفسده وبذّره، ويُقال: كلمه من فيه؛ لأنّه قد يكلمه مراسلة ومكاتبة، وناوله من يده ونحوها.

قال الشاعر:

❖ نظرت فلم تنظر بعينك منظرا ❖

﴿إِلَّا ٱلنَّارَ﴾: يعني إلاّ ما يوردهم النّار، وهو الرّشوة والحرام وثمن الدّين والإسلام.

لّما كانت عاقبتهُ النّار، سماه في الحال ناراً.

كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ (النساء: ١٠) يعني إنّ عاقبته تؤول إلى النّار، وقوله ﷺ في الذي يشرب في آنية الذهب والفضة: «إنّما يجرجر في بطنه نار جهنّم»، أخبر عن المال بالحال.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: كلامًا ينفعهم ويسرّهم هذا قول أهل التفسير، وقال أهل المعاني: أراد به أنّه يغضب عليهم كما يقول فلان لا يكلم فلانًا: أي هو عليه غضبان.

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾: لا يطهّرهم من دنس ذنوبهم.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ﴾: أي استبدلوا الضلالة.

﴿بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾: اختلفوا في «ما».

فقال قوم: هي «ما» التعجب، واختلفوا في معناها.

فقال الحسن وقتادة والرّبيع: والله ما لهم عليها من صبر ولكن ما أجرأهم على العمل الذي يقربهم إلى النّار قال: وهذه لغة يمانية.

وقال الفراء: اخبرني الكسائي، أخبرني قاضي اليمن: إنّ خصمين اختصما إليه فوجبت اليمين على أحدهما فحلف، فقال خصمهُ: ما أصبرك على الله... ! أي ما أجرأك عليه.

وقال المؤرج: فما أصبرهم على عمل يؤديهم إلى النّار؛ لأنّ هؤلاء كانوا علماء.

فإنّ من عاند النّبي ﷺ صار من أهل النّار.

الكسائي وقطرب: معناه ما أصبرهم على عمل أهل النّار أي ما أدومهم عليه... كما تقول: ما أشبه سخاك بحاتم: أي بسخاء حاتم.

مجاهد: ما أعلمهم بأعمال أهل النّار، وقيل: ما أبقاهم في النّار! كما يُقال: ما أصبر فلانًا على الضرب والحبس!

عطاء والسّدي وابن زيد وأبو بكر بن عباس: هي «ما» الاستفهام ومعناه: ما الذي صبرهم

وأىّ شىء صبرهم على النّار حين تركوا الحق واتبعوا الباطل.

فقيل هذا على وجه الاستهانة.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾: قال بعضهم معناه ﴿ذَٰلِكَ﴾: العذاب ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾: واختلفوا فيه، وحينئذ تكون «ذلك» فى محل الرّفع، وقال بعضهم محلهُ نصب. معناه: فعلنا ذلك بهم بأنّ الله عزّ وجلّ، أو لأنّ الله نزّل الكتاب بالحقّ، واختلفوا فيه، وكفروا به فنزع حرف الصّفة.

وقال الأخفش: خبر ذلك مضمر معناه: ذلك معلوم لهم بأنّ الله نزّل الكتاب بالحقّ.

وقال بعضهم: معناه «ذلك»: أى فعلهم الذى يفعلون من الكفر والاختلاف والاجتراء على الله تعالى من أجل أنّ الله نزّل الكتاب بالحقّ، وتنزيله الكتاب بالحقّ هو إخباره عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ (البقرة: ٦).

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ فآمنوا ببعض وكفروا ببعض.

﴿لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ لفى خلاف وضلال طويل.



﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝١٧٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٧٨ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾: قرأ حمزة وحفص: ليس البرَّ بنصب الرّاء وقرأ الباقون: بالرّفع فمن رفع البرّ جعله اسم ليس، وجعل خبره فى قوله: ﴿أَن تُوَلُّوا۟﴾ تقديره: ليس البرَّ توليتكم وجوهكم، ومن نصب جعل أن وصلتها فى موضع الرّفع على اسم ليس تقديره: ليس توليتكم وجوهكم البرّ كلّه، كقوله: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ (الجاثية: ٢٥)،

وقوله ﴿فَكَانَ عَـٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ﴾ (الحشر: ١٧).

هارون عن عبد الله وأُبى بن كعب: أنّهما قرءا. ليس البرَّ بأن تولوا وجوهكم، واختلف المفسرون فى هذه الآية:

فقال قوم: عنى الله بهذه الآية اليهود والنصارى؛ وذلك أنّ اليهود كانت تُصلّى قبل المغرب إلى بيت المقدس، والنّصارى قبل المشرق، وزعم كل فريق منهم أنّ البرّ فى ذلك، فأخبر الله أنّ البرّ غير دينهم وعملهم، ولكنه ما بينه فى هذه الآية، وعلى هذا القول: قتادة والرّبيع ومقاتل بن حيّان وعوف الأعرابى.

وقال الآخرون: المراد بهذه الآية المؤمنون؛ وذلك أنّ رجلاً سأل النبىّ ﷺ عن البرّ، فأنزل الله هذه الآية فدعا رسول الله ﷺ ذلك الرّجل فتلاها عليه.

وقد كان الرّجل قبل الفرائض إذا شهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً عبدهُ ورسوله وصلّى الصلاة إلى أىّ ناحية ثمَّ مات على ذلك وجبت له الجنّة، فلما هاجر رسول الله ﷺ ونزلت الفرائض وحدّد الحدود، وصرفت القبلة إلى الكعبة. أنزل الله هذه الآية فقال: ليس البرّ كلّه أن تصلّوا وتعملوا غير ذلك.

﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾: جعل من وهى اسم خبراً للبرّ وهو فعل ولا يُقال: البرّ زيد، واختلفوا فى وجه الآية:

فقال بعضهم: لما وقع من فى موضع المصدر جعله مضمراً للبرّ. كأنّه قال: ولكن البر الإيمان بالله، والعرب تجعل الاسم خبراً للفعل كقولهم: إنّما البر الصادق الذى يصلُ من رحمه ويخفى صدقته: يريدون صلة الرّحم، وإخفاء الصّدقة، وعلى هذا القول الفراء والمفضل بن سلمة وأنشد الفراء:

لعمرك ما الفتيان أن تنبت اللحّى ... ولكنّما الفتيان كل فتى ندى

فجعل نبات اللحية خبراً للفتى.

وقيل: معناه ولكنّ البر برّ من آمن بالله واستغنى عن النّاس، كقولهم: الجود حاتم، والشجاعة عنترة، والشعر زهير: أى جود حاتم وشجاعة عنترة وشعر زهير، وتقول العرب: بنو فلان يطأهم الطريق، أى أهل الطريق. قال الله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ (يوسف: ٨٢)، وقال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ (لقمان: ٢٨) قال النابغة الجعدى:

وكيف نواصل من أصبحت ... جلالتــــه كأبى مرحـب

أى كجلالة أبى مرحب، وعلى هذا القول قطرب والفراء والزّجاج أيضًا.

وقال أبو عبيدة: معناه ولكنّ البار من آمن بالله كقوله: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (طه: ١٣٢) أى المتقى.

وقيل: معنى ذو البرّ من آمن بالله حكاه الزّجاج، كقوله: ﴿هُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ١٦٣) أى ذوو درجات.

قال المبرّد: لو كنت ممن قرأ القرآن لقرأت: لكنَّ البرَّ من آمن بالله بفتح الباء تقول العرب رجل بر وبار والجمع بررة وأبرار، والبرّ: العطف والإحسان، والبر أيضًا: الصدق، والبر هنا الإيمان والتقوى، وهو المراد فى هذه الآية بذلك عليه قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾.

﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾: كلهم.

﴿وَٱلْكِتَـٰبِ﴾ (يعنى الكتب). ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أجمع.

﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ واختلفوا فى هذه الحكاية:

فقال أكثر المفسرين: فى حبّه راجعة إلى المال يعنى أعطى المال فى حال صحّته ومحبّته إياه ونفسه به يدلّ عليه قول ابن مسعود فى هذه الآية قال: هو أن توصيه وأنت صحيح، تأمل العيش وتخش الفقر ولا تمهل، حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا، ورفع هذا الحديث بعضهم.

وقيل: هى عائدة على الله عزّ وجلّ أى حبّ الله سبحانه.

قال الحسين بن أبى الفضل: على حبّ الإيتاء، وقيل: الهاء راجعة إلى المعطى أى حبّ المعطى.

﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾: أهل القرابة. عن أمّ رابح بنت صليح عن سليمان بن عامر عن النبى ﷺ قال: «صدقتك على مسكين صدقة واحدة وعلى ذى الرّحم اثنتين لأنّها صدقة وصلة».

الزهرى عن حميد بن عبد الرّحمن عن أمّه أُم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أفضل الصّدقة على ذى الرّحم الكاشح».

سليمان بن يسار عن ميمونة زوج النبى ﷺ قالت: أعتقت جارية لى فدخلت على النبى ﷺ فأخبرته بعتقها فقال: «آجرك الله أما إنّك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك».

﴿وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾: سمّى المجاز واختلفوا فيه فقال أبو جعفر البارقى ومجاهد: يعنى المسافر المنقطع عن أهله يمر عليك.

قتادة: هو الضّيف ينزل بالرجل: قال: وذكرنا أنّ النبىّ ﷺ كان يقول: «من كان يؤمن بالله

واليوم الآخر فليكرم ضيفه».

وكان يقول: «حقّ الضيافة ثلاث ليال فكل شيء أضافه فهو صدقة».

وإنّما قيل للمسافر والضيف الّذى يحلّ ويرتحل ابن السبيل لملازمته الطريق كما قيل للرّجل الّذى أتت عليه الدهور ابن الأيّام واللّيالى، ولطير الماء: ابن الماء لملازمته إيّاه. قال ذو الرّمة:

وردت اعتسافًا والثريّا كأنّها ... على قمّة الرأس ابن ماء محلّق

﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾: المستطعمين الطّالبين.

عبد الله بن الحسين عن أمّه فاطمة بنت الحسين قالت: قال رسول الله ﷺ: «للسائل حقّ وإن جاء على فرس».

مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «هدية الله إلى المؤمن السّائل على بابه».

﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾: يعنى المكاتبين قاله أكثر المفسّرين، وقيل: فداء الأسارى، وقيل: عتق النّسمة وفكّ الرّقبة.

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: المفروضة.

﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾: الواجبة.

﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟﴾: فيما بينهم وبين النّاس إذا وعدوا أنجزوا وإذا حلفوا أوفوا، وإذا قالوا صدقوا وإذا ائتمنوا أدّوا.

قال الرّبيع بن أنس: فمن أعطى عهد الله ثمّ نقضه فالله سبحانه مطعم منه ومن أعطى دمه النبىّ ﷺ ثمّ غدر فالنبىّ ﷺ خصمه يوم القيامة.

وفى وجه ارتفاع الموفّين قولان: قال الفرّاء والأخفش: هو عطف على محل (من) فى قوله: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ و(من) فى موضع جمع ومحلّه رفع كأنّه قال: ولكن البّر المؤمنون والموفون.

وقيل: رفع على الابتداء والخبر تقديره هُم الموفون، ثمّ قال:

﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ﴾: وفى نصبها أربعة أقاويل. قال أبو عبيد: نصب على تطاول الكلام ومن شأن العرب أن تغيّر الإعراب إذا طال الكلام والنسق.

وقال الكسائى: نصبه نسقًا على قوله: ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الصابرين.

وقال بعضهم: معناه وأعنى الصابرين.

وقال الخليل بن أحمد والفرّاء: نصب على المدح والعرب تنصب على المدح وعلى الذّم

كأنّهم يريدون بذلك إفراد الممدوح والمذموم ولا يتبعونه بأول الكلام فينصبونه.

فأمّا المدح فقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ (النساء: ١٦٢) وأنشد الكسائى:

وكلّ قوم أطاعوا أمر مرشدهم ... إلاّ نميراً طاعت أمر غاويها

والطاعنين ولما يطعنوا أحداً ... والقائلين لمن دار يخليها

وأنشد أبو عبيدة لحزنق بن عفان:

(لا يبعدن) قومى الّذين هم ... سم العداة وأنه الجزل

النازلين بكل معترك ... والطيبين معاقد الأزل

وأما الذّم، فقوله تعالى: ﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟﴾ أخذوا.

وقال عروة بن الورد:

تسقونى الخمر ثمّ تكفونى ... عداة الله من كذب وزور

﴿فِى ٱلْبَأْسَآءِ﴾ يعنى الشدة والفقر ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: المرض والزمانة وهما اسمان بنيا على فعلاء ولا أفعل لهما لأنهما اسمان وليسا بنعت.

﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾: وقت القتال: وقال على (رضى الله عنه): كنّا إذا احمرّ البأس اتقينا برسول الله ﷺ فكان أقربنا إلى العدو إذا اشتدّ الحرب.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾: فى دمائهم.

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾: روى القاسم: إن أبا ذر سُئل عن الإيمان؟ فقرأ هذه الآية فقال السائل: إنّما سألنا عن الإيمان وتخبرنا عن البر، فقال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله عن الإيمان فقرأ هذه الآية.

وقال أبو ميسرة: وقرأ هذه الآية ومن عمل بهذه الآية فقد استكمل البر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾: الآية: قال الشعبى والكلبى وقتادة ومقاتل بن حيان وأبو الجوزاء وسعيد بن جبير: نزلت هذه الآية فى حيّين من أحياء العرب اقتتلوا فى الجاهليّة قبل الإسلام بقليل فكانت بينهما قتلى وجراحات لم يأخذها بعضهم من بعض حتى جاء الإسلام.

قال سعيد بن جبير: إنهما كانا حيّين الأوس والخزرج.

وقال ابن كيسان: قريظة والنّضير، قال: وكان لأحد الحيّين حول على الآخر فى الكرم والشّرف، وكانوا ينكحون نساءهم بغير مهور. فأقسموا ليقتلن بالعبد منّا الحرّ منهم، وبالمرأة منّا الرّجل منهم، وبالرّجل منّا الرّجلين منهم، وجعلوا جراحاتهم ضعفى جراحات أولئك

وهم كذا يعاملونهم فى الجاهلية. فرفعوا أمرهم إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأمرهم بالمساواة فرضوا وسلموا.

السّدى وجماعة: نزلت هذه فى الدّيات؛ وذلك أنّ أهل حزبين من العرب اقتتلوا؛ أحدهما مسلم والآخر معاهد. فأمر الله تعالى نبيّه ﷺ أن يصلح بينهم بأن يجعل ديات النّساء، من كل واحد من الفريقين قصاصًا بديات النّساء من الفريق الآخر، وديات الرّجال بالرّجال، والعبيد بالعبيد، فأنزل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ﴾ فرض وكتب عليكم فى القتلى، والقصاص: المساواة والمماثلة فى النفوس والجروح والدّيات، وأصله من قصّ الأثر إذا اتبعه فكان المفعول به يتبع ما عمل به فيعمل مثلهُ، ثمّ بيّن فقال: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾.

❖ ذكر حكم الآيات:

إذا تكافأ الدّمان من الأحرار المسلمين أو لعبيد من المسلمين، أو الأحرار من المعاهدين أو العبيد منه قُتل من كل صنف منهم: الذكر إذا قُتل منهم بالذكر، والأنثى إذا قُتلت بالأُنثى والذكر، والإجماع واقع أنّ الرّجل يُقتل بالمرأة لأنّهما يتساويان فى الحرّمة والميراث وحد الزّنى والقذف وغير ذلك؛ فلذلك يجب أن يستويا فى القصاص ولا يُقتل الحرّ بالعبد وعليه قيمته وإن بلغت ثلث؛ لما بينهما من المفاضلة، ولا يُقتل مؤمن بكافر. بدليل ما روى الشعبى عن أبى جحيفة قال: سألت عليًا كرم الله وجهه هل عندكم من النبىّ ﷺ سوى القرآن؟

فقال: لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة إلاّ أن يعطى الله عزّ وجلّ عبدًا فهمًا فى كتابه وما فى الصحيفة. قلتُ: وما فى الصّحيفة؟

قال: العقل وفكاك الأسير، وأن لا يُقتل مسلم بكافر، ولا يُقتل سيد بعبده، ولا والد بولده.

يدلّ عليه ما روى أن رجلاً اسمهُ قتادة رمى ابنه بسيف فأصاب رجله فنزف فمات. فقال عمر (رضى الله عنه): لولا أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يُقاد والد بولده، وإلاّ قدتهُ به».

﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾: أىّ ترك له وصفح عنه من الواجب عليه وهو القصاص، وروى عن على (رضى الله عنه) أنّه قتل ثلاثة بواحد فى قتل العمد هذا قول أكثر المفسرين قالوا: العفو أن يقبل الدّية فى قتل العمد، وقال السّدى: هو أن يبقى له بقية من دية أخيه أو من أرش جراحته.

﴿فَٱتِّبَاعٌ﴾ : أى فعليه اتباع ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ : أمر الطالب أن يطلب بالمعروف ويتبع حق الواجب له عليه من غير أن يطالبه بالزّيادة أو يكلفه ما لم يوجبه الله له أو يُشدد عليه كما قال النبىّ ﷺ : «من زاد بعيراً فى إبل الدّيات وفرائضها فمن أمر الجاهلية» .

❖ **حكم الآية:**

اعلم أنّ أنواع القتل ثلاثة العمد ، وشبه العمد ، والخطأ : فالعمد : أن يُقصد ضربه ، بما أنّ الأغلب أنّه يموت منه مثل الحديدة والخشبة العظيمة والحجر الكبير ونحوها أو حرقهُ أو غرقه أو الشّدة من حبل أو سطح أو فى بئر وما يشبه ذلك مما يتعمد قلبه . ففى هذا القصاص أو الدّية . فدية المسلم ألف دينار ومن الورق اثنا عشر ألف درهم ومن الإبل مائة منها أربعون خلفة فى بطونها أولادها . وثلاثون حقّة ، وثلاثون جذعة ، الأصل فى الرّجل الإبل وديات النّساء على النصف من ذلك .

وأما شبه العمد : فهو أن يقصد ضربه بما الأغلب أنّه لا يموت منه مثل : حصى صغير أو عود صغير أو لطمه أو وكزه أو بكسره أو صفعه أو ضربه بالسّيف عمداً أو ما أشبه ذلك فمات منه ، فهاهنا يجب الدّية مُغلظة على العاقلة ، كما وصفنا فى دية العمد .

وأمّا الخطأ : فهو أن يقصد شيئًا فيخطئ ويصوّب غيره . كالرّجل يرمى الهدف أو الصّيد فيُخطئ السهم فيقع بإنسان فيقتله فهو الخطأ المحض وفيه الدّية المخفّفة على العاقلة فى ثلاث سنين أخماسًا : عشرون بنات مخاض وعشرون بنات لبون وعشرون ابن لبنون ، وعشرون خناق ، وعشرون جذعًا ، ولا يتعين الورق والذّهب ، كما تنقص الإبل الذى ذكرت من العفو والدية .

﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ : وذلك أنّ الله تعالى كتب على أهل التوراة فى النّفس والجرح أن يقيدوا ولا يأخذوا الدّية ولا يعفوا وعلى أهل الإنجيل أن يعفوا ولايقيدوا ولا يأخذوا الدّية . فخير الله تعالى هذه الأُمة بين القصاص والدّية والعفو .

كما روى سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبى شريح : أنّ رسول الله ﷺ قال : «ثمّ أنتم يا خُزاعة قد قتلتم هذا القتيل من هُذيل ، وأنا والله عاقله فمن قتل قتيلاً بعده فأهله بين خيرتين : إن أحبّوا قتلوا وإن أحبّوا أخذوا العقل» .

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ﴾ : ظلم وتجاوز الحد .

﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ : فقيل بعد أخذ الدّية ، وقال الحسن : كان الرّجل فى الجاهليّة إذا قتل قتيلاً فرَّ

إلى قومه فيجيء قومه فيُصالحون الدّية فذلك الاعتداء.

﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: يُقتل فى الدُّنيا ولا يُعفى عنه.

قال النبى ﷺ: «لا أُعافى رجلاً قتل بعد أخذه الدّية منه»، وفى الآخرة عذاب النّار، وفى هذه الآية دليل على أنّ القاتل لا يصير كافراً ولا يبقى خالداً فى النّار؛ لأنّ الله تعالى. خاطبهم فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾ ولا خلاف أنّ القصاص واقع فى العمد فلم يسقط عنه اسم الإيمان بارتكاب هذه الكبيرة، وقال فى آخر الآية: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ فسمى القاتل أخا المقتول، وقال: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ وهما يخصّان المؤمنين دون الكافرين.

يروى أنّ مسروقًا سُئل هل للقاتل توبة؟

فقال: لا أغلق بابًا فتحه الله.

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾: بقاء لأنّه إذا علم أنّه إن قتل أمسك وارتدع عن القتل. ففيه حياة للّذى يُهمّ بقتله، وحياة للهام ولهذا قيل فى المثل: القتل قلّل القتل.

وقال قتادة: كم رجل قد همّ بداهية لولا مخافة القصاص لوقع بها ولكنّ الله تعالى حجر عباده بعضهم عن بعض هذا قول أكثر المفسّرين.

وقال السّدى: كانوا يقتلون بالواحد الاثنين والعشرة والمائة فلمّا قصروا بالواحد على الواحد كان فى ذلك حياة وقيل: أراد فى الآخرة لأنّ من أقيد منه فى الدّنيا حيى فى الآخرة، وإذا لم يقتص منه فى الدنيا اقتصّ منه فى الآخرة ويعنى الحياة سلامته من قصاص الآخرة، وقرأ أبو الجوزاء: ولكم فى القصاص حياة أراد القرآن فيه حياة القلوب.

قال: ﴿يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ يا ذوى العقول.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: القتل مخافة القود.



﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

﴿كُتِبَ﴾: فُرض ووجب. ﴿عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ﴾: جاء.

﴿أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ : يعنى أسباب الموت وآثاره ومقدماته من العلل والأمراض ولم يُرد المعاينة.

﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ : مالاً، نظيره قوله : ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ (البقرة: ٢٧٢) ﴿ٱلْوَصِيَّةُ﴾ فى رفعها وجهان : أحدهما : اسم ما لم يسم فاعله وهو قوله «كتب»، والثانى : خبر حرف الصفة، وهو اللام فى قوله ﴿لِلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ : يعنى لا يزيد على الثلث ولا يُوصى للغنى ويدع الفقير. كما قال ابن مسعود : الوصيّة للأخل فالأخل أى الأحوج فالأحوج.

﴿حَقًّا﴾ : واجبًا، وهو نصب على المصدر أى حق ذلك حقًا وقيل : على المفعول أى جعل الوصيّة حقًا، وقيل : على القطع من الوصيّة.

﴿عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ : المؤمنين، واختلف العلماء فى معنى هذه الآية :

فقال قوم : كانت الوصيّة للوالدين والأقربين، فرضًا واجبًا على من مات، وله مال حتى نزلت آية المواريث فى سورة النساء. فنسخت الوصيّة للوالدين والأقربين الذين يرثون، وبقى فرض الوصيّة للأقرباء الذين لا يرثون والوالدين الذين لا يرثان بكفر أو رق على من كان له مال. فخطب رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية فقال : «الآن الله تعالى قد أعطى كل ذى حق حقه فلا وصيّة لوارث فبيّن أنّ الميراث والوصيّة لا يجتمعان».

فآية المواريث هى لنا حجة وقال رسول الله ﷺ هو المبيّن هذا قول ابن عبّاس وطاووس وقتادة والحسن ومسلم بن يسار والعلاء بن زياد والربيع وابن زيد.

قال الضحاك : من مات ولم يوص لذى قرابته فقد ختم عمله بمعصية، وقال طاووس : من أوصى لقوم وسمّاهم، وترك ذوى قرابته محتاجين (أُنتزعت) منهم وردّت إلى ذوى قرابته.

وقال آخرون : بل نُسخ ذلك كلّه بالميراث فهذه الآية منسوخة. ولا يجب لأحد وصيّة على أحد قريب ولا بعيد. فإن أوصى فحسن، وإن لم يوص فلا شىء عليه، وهذا قول علىّ وابن عمر وعائشة وعكرمة ومجاهد والسّدى.

قال شُريح فى هذه الآية. كان الرّجل يوصى بماله كلّه حتّى نزلت آية المواريث.

وقال عروة بن الزّبير : دخل على (رضى الله عنه) على مريض يعوده فقال : إنّى أُريد أن أوصى. فقال على عليه السلام : إنّ الله تعالى يقول : ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ وإنّما يدع شيئًا يسيراً فدعه لعيالك إنّه أفضل.

وروى أيوب عن نافع عن ابن عمر : أنّه لم يوص فقال : أمّا مالى والله أعلم ما كنت أصنع به فى الخلوة وأما رباعى لن يشرك ولدى فيها أحد.

وروى ابن أبى مليكة: أنّ رجلاً قال لعائشة: إنّى أريد أن أوصى، قالت: كم مالُك؟ قال: ثلاثة آلاف. قالت: كم عيالك؟

قال: أربعة: قالت: إنّما قال الله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ وهذا شىء يسير فاتركه لعيالك.

وروى سفيان بن بشير بن دحلوق قال: قال عروة بن ثابت للربيع بن خيثم: أوص لى بمصحفك. قال: فنظر إلى أبيه فقال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ (الأحزاب: ٦).

وروى سفيان عن الحسين بن عبد الله عن إبراهيم قال: ذكر لنّا أن زبيراً وطلحة كانا يُشددان فى الوصيّة. فقال: ما كان عليهما أن لا يفعلا. مات النبىّ ﷺ ولم يوصِّ وأوصى أبو بكر، أى ذلك فعلت فحسن.

﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ﴾: أى فمن غير الوصيّة من الأوصياء والأولياء أو الشهود.

﴿بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ﴾: من الميت فإنّما ذكر الكناية عن الوصية وهى مؤنثة لأنّها فى معنى الإيصاء لقوله: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ (البقرة: ٢٧٥) ردّه إلى الوعظ ونحوها كثيرة.

وقال المفضل: لأنّ الوصيّة قول فذهب إلى المعنى وترك اللفظ.

كقول امرئ القيس:

برهرهة رودة رخصة كخرعوبة اليانة المنقطر

المنقطر: المنتفخ بالورق وهو أنعم ما يكون فذهب إلى القضيب فترك لفظ الخرعوبة.

﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥ﴾: وصى الميت.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾: لوصاياكم.

﴿عَلِيمٌ﴾: بنيّاتكم.

﴿فَمَنْ خَافَ﴾: أى خشى، وقيل: علم وهو الأجود كقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ (البقرة: ٢٢٩).

وقال أبو محجن الثقفى:

فلا تدعنى بالفلاة فإنّنى أخاف إذا ما متّ أن لا أذوقها

أراد: أعلم.

﴿مُّوصٍ﴾: قرأ مجاهد وعطاء وحميد وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر وشيبة ونافع: بالتخفيف واختاره أبو حاتم.

لقول النّاس: أوصيكم بتقوى الله.

قال أبو حاتم: قرأتها بمكّة بالتشديد أوّل ليلة أقمت فعابوها علىّ.

وقرأ الباقون: موصٍّ بالتشديد واختاره أبو عبيد كقوله: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ (الشورى: ١٣).

﴿جَنَفًا﴾: جوراً وعدولاً من الحقّ والجنف: الميل فى الكلام والأخذ كلّها يقال جنف وأجنف وتجانف إذا مال. قال لبيد:

إنّى امرؤ منعت أرومة عامر ضيمى وقد جنفت علىّ خصوم

وقال آخر:

هم أقول وقد جنفوا علينا وأنّا من لقائهم أزور

وقال على عليه السلام: حيفًا بالحاء والياء أى ظلمًا.

قال الفراء: الفرق بين الجنف والحيف: أن الجنف عدول عن الشىء والحيف: حمل الشّىء حتّى ينتقصه وعلى الرّجل حتّى ينتقص حقّه.

يقال: فلان يتحوف ماله أى ينتقصه منّى حافاته.

وقال المفسّرون: الجنفة: الخطأ، والإثم: العمد، واختلفوا فى معنى الآية وحكمها فقال قوم: تأويلها من حضر مريضًا وهو يوصّى فخاف أن (يحيف) فى وصيته فيفعل ما ليس له أو تعمد جوراً فيها فيأمر بما ليس له، فلا حرج على من حضره أن يصلح بينه وبين ورثته بأن يأمره بالعدل فى وصيته، وينهاه عن الجنف فينظر للموصى وللورثة، وهذا قول مجاهد: هذا ممّن يحضر الرّجل وهو يموت. فإذا أسرف أمره بالعدل وإذا قصر قال: افعل كذا أعطِ فلانًا كذا.

وقال آخرون: هو أنّه إذا أخطأ الميت وصيّته أو خاف فيها متعمداً فلا حرجَ على وليه أو وصيه أو والى أمر المسلمين أن يصلح بعد موته بين ورثته وبين الموصى لهم، ويردّ الوصيّة إلى العدل والحق، وهذا معنى قول ابن عبّاس وقتادة وإبراهيم والرّبيع.

وروى ابن جريج عن عطاء قال: هو أن يعطى عند حضور أجله بعض ورثته دون بعض مما سيرثونه بعد موته. فلا إثم على من أصلح بين الورثة.

طاووس: (الحيف) وهو أن يوصى لبنى ابنه يريد ابنه أو ولد ابنته يريد ابنته، ويوصى لزوج ابنته ويريد ابنته، فلا حرج على من أصلح بين الورثة.

السّدى وابن زيد: هو فى الوصية للآباء والأقربين بالأثرة يميل إلى بعضهم ويحيف لبعضهم على بعض فى الوصيّة. فإنّ أعظم الأجر أن لا ينفذها، ولكن يصلح ما بينهم على ما يرى أنه الحق فينقص بعضًا ويزيد بعضًا.

قال ابن زيد: فعجز الموصى أن يوصى للوالدين والأقربين كما أمره الله، وعجز الوصى أن يصلح فيوزع الله ذلك منه بفرض الفرائض لذلك قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله تعالى لم يوص بملك مقرب ولا نبى مرسل حتى تولّى قسم مواريثكم».

وقال: ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ ولم يجز للورثة ولا للمختلفين فى الوصيّة ذكر لأن سياق الآية وما تقدّم من ذكر الوصيّة يدلّ عليه.

قال الكلبى: كان الأولياء والأوصياء يمضون وصيّة الميت بعد نزول الآية: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ﴾ الآية وإن استغرق المال كلّه ويبقى الورثة بغير شىء، ثمَّ نسختها هذه الآية: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا﴾ الآية.

وروى عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه: قال كنت مع رسول الله ﷺ فى حجة الوداع فمرضت مرضًا أشرفت على الموت. فعادنى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إنّ لى مالاً كثيراً وليس يرثنى إلاّ بنت لى أفأُوصى بثلثى مالى؟

قال: «لا».

قلتُ: فبشطر مالى؟

قال: «لا».

قلتُ: بثلث مالى؟

قال: «نعم الثلث والثلث كثير إنك يا سعد أن تترك ولدك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس».

وقال مسلم بن صبيح: أوصى جار لمسروق فدعا مسروقًا ليشهده فوجده قد بذر وأكثر.

فقال: لا أشهد أنّ الله عزّ وجلّ قسم بينكم فأحسن القسمة فمن يرغب برأيه عن أمر الله فقد ضلّ، أوص لقرابتك الذين لا يرثون ودع المال على قسم الله.

وعن أبى أُمامَة قال: قال رسول الله ﷺ: «من حاف فى وصيّته أُلقى فى اللوى - واللوى واد فى جهنّم -».

شهر بن حوشب عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة، فإذا أوصى حاف فى وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل النار، وإنّ الرّجل ليعمل بعمل أهل الشّر سبعين سنة. فإذا أوصى لم يحف فى وصيته فيختم له بخير عمله. فيدخل الجنة». ثمّ قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ (البقرة: ٢٢٩).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ : قال الحسن: إذا سمعت الله تعالى: يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فارع لها سمعك فإنّها لأمر يؤمر به أو لنهى تُنهى عنه.

وقال جعفر الصّادق (رضى الله عنه): لذة «يا» فى النداء أزال تعب العبادة والعناء.

﴿كُتِبَ﴾ فرض واجب.

﴿عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ : وهو مصدر قولك: صمتُ صياماً، كما تقول: قمت قياماً، وأصل الصيام فى اللغة: الإمساك، يُقال: صامت الرّيح إذا سكنت وأمسكت عن الهبوب، وصامت الخيل إذا وقعت وأمسكت عن السّير. قال النابغة:

خيلٌ صيام وخيلٌ غير صائمة تحت العجاج وخيل تعلك اللجما

فقال: صام النّهار إذا اعتدل، وقام قائم الظهيرة؛ لأنّ الشمس إذا طلعت فى كبد السّماء وقفت فأمسكت عن السير سريعة. قال امرؤ القيس:

فدع ذا وسلِّ الهمّ عنك بحسرة ذمول إذا صام النّهار وهجرا

وقال الراجز:

حتّى إذا صام النّهار واعتدل وسال للشمس لعــاب فنزل

ويُقال للرجل إذا صمت وأمسك عن الكلام : صام .

قال الله تعالى : ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْمًا﴾ (مريم: ٢٦) : أى صمتًا .

فالصوم : هو الإمساك عن المعتاد من الطّعام والشّراب والجماع .

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ : من الأنبياء والأمم وأولهم آدم عليه السلام ، وهو ما روى عبد الملك بن هارون بن عنترة عن أبيه عن جده عن على (رضى الله عنه) قال : أتيت رسول الله ﷺ ذات يوم عند انتصاف النّهار وهو فى الحجر ، فسلمت عليه فرد على النبى ﷺ ثم قال : «يا على هذا جبرئيل يُقرئك السلام . فقلت : عليك وعليه السلام يا رسول الله لمَ؟

قال ادن منّى ، فدنوت منه فقال : يا على يقول لك جبرئيل : صم كل شهر ثلاثة أيام يُكتب لك بأول يوم عشرة آلاف (سنة) وباليوم الثانى ثلاثين ألف : (سنة) وباليوم الثالث مائة ألف (سنة) .

فقلت : يا رسول الله هذا ثواب لى خاصة أم للنّاس عامة؟ قال : يا على يُعطيك الله هذا الثواب ولمن يعمل مثل عملك بعدك . قلت : يا رسول الله وما هى؟

قال : أيام البيض : ثلاثة عشر وأربعة عشر وخمسة عشر» .

قال عنترة : قلت لعلى (رضى الله عنه) : لأى شىء سُميت هذه الأيام البيض؟

قال : لما أهبط آدم عليه السلام من الجنّة إلى الأرض أحرقته الشمس ، فاسودّ جسده ثمَّ صام اليوم الثالث . فأتاه جبرئيل فقال : يا آدم أتحب أن يبيض جسدك؟

قال : نعم ، قال : فصم من الشهر ثلاثة عشر وأربعة عشر وخمسة عشر فصام آدم عليه السلام أول يوم فابيض ثلث جسده ، ثمَّ صام اليوم الثانى فابيض ثلثا جسده ، ثمَّ صام اليوم الثالث فابيض جسده كلّه . فسُميت أيام البيض .

وقال المفسّرون : فرض الله على رسوله محمد وعلى المؤمنين صوم عاشوراء وثلاثة أيام من كل شهر حين قدم المدينة فكانوا يصومونها إلى أن نزل صيام شهر رمضان قبل قتال بدر بشهر وأيام .

وقال الحسن وجماعة من العلماء : أراد بالّذين من قبلنا : النّصارى شبّه صيامنا بصيامهم لاتفاقهم بالوقت والقدر؛ وذلك أنّ الله فرض على النصارى صيام شهر رمضان . فاشتد ذلك عليهم؛ لأنه ربّما كان فى الحر الشديد والبرد الشديد فكان يضرّ بهم فى أسفارهم ومعائشهم ، واجتمع رأى علمائهم ورؤسائهم على أن يجعلوا صيامهم فى فصل من السّنة بين الشّتاء

والصّيف فجعلوه فى الربيع وزادوا فيه عشرة أيّام كفّارة لما صنعوا فصار أربعين ثمَّ إنّ ملكًا لهم اشتكى فمه فجعل لله عليه إن هو برأ من وجعه أن يزيد فى صومه أسبوعًا فبرأ فزاد فيه أسبوع ثمّ مات ذلك الملك ووليهم ملك آخر فقال: أتموا خمسين يومًا فأتمّوه خمسين يومًا. وقال مجاهد أصابهم موتان فقالوا: زيدوا فى صيامكم فزادوا عشرًا قبل وعشرًا بعد.

روى أبو أُمية الطّنافسى عن الشعبى قال: لو صمت السّنة كلّها وأفطرت اليوم الّذى يشك فيه فيقال من شعبان ويقال من رمضان، وذلك أنّ النّصارى فرض عليهم شهر رمضان كما فرض علينا فحولوه إلى الفصل وذلك أنّهم ربما كانوا صاموه فى القيظ فعدوا ثلاثين يومًا ثم جاء بعدهم قرن منهم فأخذوا بالثّقة فى أنفسهم فصاموا قبل الثلاثين يومًا وبعدها يومًا ثمّ لم يزل الآخر يستن بسنة القرن الذى قبله حتى صاروا إلى خمسين يومًا فذلك قوله عز وجل: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾: لكى تتقوا الأكل والشرب والجماع.

﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖ﴾: يعنى شهر رمضان ثلاثون يومًا أو تسعة وعشرون يومًا لما روى سعيد ابن العاص أنّه سمع ابن عمر يحدّث عن النبى ﷺ أنه قال: «إنّا أُمّة أُميّة لا تحسب ولا تكتب الشهر هكذا وهكذا وهكذا» وعقد الإبهام فى الثالثة والشّهر هكذا وهكذا وهكذا تمام ثلاثين.

ونصب أيّامًا على الظرف أى: فى أيّام، وقيل: على التفسير.

وقيل: على خبر ما لم يسمّ فاعله، وقيل: بإضمار فعل أى صوموا أيّامًا معدودات.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ﴾: أى فأفطر فعدّة كقوله: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ﴾ (البقرة:١٩٦): أى فحلّق أو قصّر ففدية واقصر وقوله: ﴿فَعِدَّةٞ﴾ أى فعليه عدّة ولذلك رفع.

وقرأ إبراهيم بن أبى عبلة: فعدة نصبًا أى فليصم عدّة.

﴿مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾: غير أيّام مرضه أو سفره والعدّة العدد وأُخر فى موضع خفض ولكنّها لا تنصرف فلذلك نصبت لأنها معدولة عن جهتها كأنّ حقّها أواخر وأُخريات فلمّا عُدلت إلى فعل لم تجرّ مثل عمر وزفر.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾: قرأ ابن عبّاس وعائشة وعطاء بن رباح وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد: يُطيقونه بضمّ الياء وبفتح الطّاء وتخفيفه وفتح الواو وتشديده أى يكلفونه ويتحملونه.

وروى عن مجاهد وعكرمة: أيضًا يطّوّقونه بفتح الياء وتشديد الطّاء أراد يتطوقونه أى

يتكلفونه.

وروى ابن الأنبارى عن ابن عبّاس يطيقونه بفتح الياء الأولى وتشديد الطّاء والياء الثانية وفتحهما بمعنى يطيقوه. يقال: طاق وأطاق وأطيق بمعنى واحد.

﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾: قرأ أهل المدينة والشّام: فدية طعام مضافًا مساكين جمعًا أضافوا الطّعام إلى الفدية وإن كان واحدًا لاختلاف اللفظين كقوله: ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ (ق: ٩) وقولهم: المسجد الجامع وبين الأوّل ونحوها وهى قراءة أبى عمرو ومجاهد، وروى يحيى بن سعيد عن عبد الله عن نافع عن ابن عمر أنّه قرأها: طعام مساكين على الجمع، وروى مروان بن معاوية الفزارى عن عثمان بن الأسود عن مجاهد قرأها كذلك: مساكين.

وقرأ الباقون: فدية منصوبة، إطعام رفعًا، مسكين خفض على الواحد وهى قراءة ابن عبّاس.

(روى ابن أبى نجيح) عن عمرو بن دينار عن ابن عبّاس أنّه قرأها طعام مسكين، على الواحد، فمن وحّد فمعناه: لكل يوم طعام مسكين واحد، ومن جمع رده إلى الجميع، وهو اختيار أبى عبيد وأبى حاتم.

﴿فَمَن تَطَوَّعَ﴾: قرأ عيسى بن عمر ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائى: يتطّوع بالتاء وتشديد الطاء وجزم العين على معنى يتطوّع، وقرأ الآخرون: تطوع بالتاء وفتح العين وتخفيف الطاء على الفعل الماضى.

واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية وحكمها:

فقالوا قوم: كان ذلك أول ما فُرض الصّوم؛ وذلك أنّ الله تعالى لمّا أنزل فرض صيام شهر رمضان على رسوله ﷺ وأمر أصحابه بذلك شق عليهم، وكانوا قومًا لم يتعودّوا الصّيام فخيّرهم الله بين الصيام والإطعام. فكان من شاء صام ومن شاء أفطر وافتدى بالطّعام، ثمّ نسخ الله تعالى ذلك بقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ ونزلت العزيمة فى إيجاب الصّوم وعلى هذا القول معاذ بن جبل وأنس بن مالك، وسلمة بن الأكوع وابن عمر وعلقمة وعمرو ابن مرّة والشعبى والزهرى وإبراهيم وعبيدة والضحاك، وإحدى الروايات عن ابن عبّاس.

وقال آخرون: بل هو خاص للشيخ الكبير والعجوز الكبيرة واللذين يطيقان الصّوم ولمن يشقّ عليهما رخص لهما: إن شاء أن يفطرا مع القدرة ويُطعما لكل يوم مسكينًا، ثمّ نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ وثبت الرخصة للذين لا يطيقون، وهذا قول قتادة والرّبيع بن أنس، ورواية سعيد بن جبير عن ابن عباس.

وقال الحسن: هذا فى المريض كان إذا وقع عليه اسم المرض وإن كان يستطيع الصّيام الخيار إن شاء صام وإن شاء أفطر وأطعم حتى نُسخ ذلك. فعلى هذه الأقاويل الآية منسوخة وهو (قول) أكثر الفقهاء المفسرين.

قال قوم: لم تُنسخ هذه الآية ولا شىء منها، وإنما تأويل ذلك أو على الّذين يطيقونه فى حال شبابهم وفى حال صحتهم وقوتهم، ثمَّ عجزوا عن الصّوم فدية طعام مساكين؛ لأنّ القوم كان رُخص لهم فى الإفطار وهم على الصّوم (قادرون إذا اقتدروا، وآخرون أضمروا) فى الآية وقالوا: هذه عبارة عن أول حالهم وجعلوا الآية محكمة، وهذا قول سعيد بن المسيب والسدى، وإحدى الروايتين عن ابن عباس، فحمله ما ذكرنا من هذه الأقاويل على قراءة من قرأ يطيقونه: من الإطاقة وهى القراءة الصحيحة التى عليها عامة أهل القرآن ومصاحف البلدان، وأمّا الذين قرءوا يطوقونه: فتأولوا بهم الشيخ الكبير والمرأة العجوز والمريض الذى لا يُرجى برؤه فهم يكلفون الصّوم ولا يطيقونه فلهم أن يفطروا ويطعموا مكان كل يوم أفطروا مسكينًا.

قالوا: الآية محكمة غير منسوخة، والفدية: الجزاء والبدل من قولك: فديت هذا بهذا أىّ حرمته وأعطيته بدلاً منه، يُقال: فديتُ فدية كما يُقال: مشيتُ مشية. ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾: فزاد على مسكين واحد وأطعم مسكينين فصاعداً. قاله مجاهد وعطاء وطاوس والسّدى.

وقال بعضهم: فمن زاد على القدر الواجب من الإطعام. يُزاد الطّعام. رواه ابن جُريج وخطيف عن مجاهد، قال ابن شهاب: يريد فمن صام مع الفدية وجمع بين الصيّام والطعّام فهو خير له.

﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا﴾: (أن) صلة تعنى والصوم، ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: من الإفطار والفدية ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

❖ **فصل فى حكم الآية:**

اعلم أنه لا رخصة لأحد من المؤمنين البالغين فى إفطار شهر رمضان إلا لأربعة:

أحدهم: عليه القضاء والكفارة.

والثانى: عليه القضاء دون الكفارة.

والثالث: عليه الكفّارة دون القضاء.

والرابع: لا قضاء عليه ولا كفارة.

وأمّا الذى عليه القضاء والكفارة فمن فرط فى قضاء رمضان حتّى دخل رمضان آخر،

والحامل والمرضع إذا خافتا على أولادهما أفطرتا وعليهما القضاء والكفارة، وإن خافتا على أنفسهما فهما كالمريض حكمهما كحكمه هذا قول ابن عمر ومجاهد ومذهب الشّافعى.

وقال بعضهم: فى الحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما وولدهما أن عليهما الكفارة ولا قضاء وهو قول ابن عباس.

وقال قوم: عليهما القضاء ولا كفارة وهو قول إبراهيم والحسن وعطاء والضحّاك ومذهب أهل العراق ومالك والأوزاعى.

وأمّا الّذى عليه القضاء دون الكفارة فالمريض والمسافر والحائض والنفساء عليهم القضاء دون الكفارة.

قال أنس: أتيت إلى رسول الله وهو يتغذى فقال: «اجلس» فقلت: إنّى صائم. فقال: «اجلس أحدّثك: إن الله وضع على المسافر الصوم وشطر الصلاة».

وأما الذى عليه الكفارة دون القضاء فالشيخ الهرم والشيخة الكبيرة ومن به مرض دائم لا يرجى برؤه وصاحب العطاش الذى يخاف منه الموت، عليهم الكفّارة ولا قضاء هذا قول عامة الفقهاء.

وروى عن ربيعة بن أبى عبد الرحمن وخالد بن الدريك أنهما قالا فى الشيخ والشيخة: إن استطاعا صاما وإلاّ فلا كفارة عليهما وليس عليهما شىء إذا أفطرا.

وقال مالك: لا أرى ذلك واجبًا عليهما وأحبّ أن يفعلا فأمّا الذى لا قضاء عليه ولا كفارة فالمجنون.

واختلف العلماء فى حد الإطعام فى كفارة الصيام فقال بعضهم: القدر الواجب نصف صاع عن كل يوم يفطره وهذا قول أهل العراق.

وقال قوم منهم: نصف صاع من قمح أو صاع من تمر أو زبيب أو سائر الحبوب.

وقال بعض الفقهاء: ما كان المفطر يتقوته يومه الذى أفطره.

وقال محمد بن الحنفية (رضى الله عنه): يطعم مكان كل يوم مد الطعامة ومد الإدامة.

وقال ابن عباس: يعطى مسكينًا واحدًا عشاءه حين يفطر وسحوره حين سحره.

وقال بعضهم: يطعم كلّ يوم واحدًا مدًا وهو قول ابن أبى هريرة وعطاء ومحمد بن عمرو ابن حزم والليث بن سعد ومالك بن أنس والشافعى وعامة فقهاء الحجاز وبالله التوفيق، ثمّ بين أيام الصيام فقال:

﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ﴾: قرأه العامة رفع على معنى أتاكم شهر رمضان.

وقال الفراء: ذلكم شهر رمضان.

الأخفش: هو شهر رمضان.

الكسائى: كتب عليكم شهر رمضان، وقيل: ابتداء وما بعده خبره.

وقرأ الحسن ومجاهد وشهر بن حوشب: شهر رمضان نصبًا على هو يعنى صوموا شهر رمضان قاله المورج.

وقال الأخفش: نصب على الظرف أى كتب عليكم الصّيام فى شهر رمضان.

أبو عبيدة: نصب على الإغراء، وقرأ أبو عمرو: مدغمًا شهر رمضان على مذهب فى إدغام كل حرفين يلتقيان من جنس واحد ومخرج واحد أو قريبى المخرج طلبًا للخفة وسمى الشهر شهرًا لشهرته.

وقال الفراء: هو مأخوذ من الشهرة وهى البياض ومنه يقال: شهرت السيف إذا سللته وشهر الهلال إذا طلع، واختلفوا فى معنى قوله: رمضان فقال بعضهم: رمضان اسم من أسماء الله فيقال شهر رمضان كما يقال: شهر الله وروى جعفر الصادق عن آبائه (رضى الله عنهم) عن النبى ﷺ قال: «شهر رمضان شهر الله».

ويدلّ عليه أيضًا ما روى هشيم عن أبان عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقولوا رمضان، انسبوه كما نسبه الله تعالى فى القرآن فقال: شهر رمضان».

وعن الأصمعى قال: قال أبو عمرو: إنّما سمّى رمضان لأنّه رمضت فيه الفعال من الخير.

وقال غيره: لأنّ الحجارة كانت ترمض فيه من الحرارة والرّمضاء الحجارة المحماة.

وقيل: سمّى بذلك لأنه يرمض الذنوب أى يحرق.

وقيل: لأن القلوب تأخذ فيه من حرارة الموعظة والحكمة والفكرة فى أمر الآخرة كما يأخذ الرّمل والحجارة من حرّ الشمس.

وقال الخليل: مأخوذة من الرمض وهو مطر يأتى فى الخريف فسمّى هذا الشّهر رمضان لأنّه يغسل الأبدان من الآثام غسلاً وتطهر قلوبهم تطهيرًا.

﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾: روى هشيم عن داود عن عكرمة عن ابن عباس والسدى عن محمد بن أبى المجالد عن مقسم عن ابن عباس أن ابن عطية الأسود سأله: فقال: إنه وقع الشك فى قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ (القدر: ١) وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ﴾ (الدخان: ٣) وقد نزل فى سائر الشهور.

قال الله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (الإسراء: ١٠٦) الآية ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ

﴿ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ (الفرقان: ٣٢).

فقال: أُنزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ فى ليلة القدر من شهر رمضان. فوضع فى بيت العزة فى سماء الدنيا، ثمَّ نزل به جبرئيل عليه السلام على محمد ﷺ نجومًا نجومًا عشرين سنة، فذلك قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ (الواقعة: ٥٧).

داود بن أبى هند قال: قلت للشعبى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ أما كان ينزل عليه فى سائر السّنة؟ قال: بلى ولكن جبرئيل كان يعارض محمداً ﷺ فى رمضان ما نزل الله، فيحكم ما يشاء ويُثبت ما يشاء ويُنسيه ما يشاء.

شهاب بن طارق عن أبى ذرّ الغفارى عن النبى ﷺ قال: أُنزلت صُحف إبراهيم فى ثلاثة ليال مضين من رمضان، وأنزلت توراة موسى فى ست ليال مضين من رمضان، وأُنزل إنجيل عيسى فى ثلاثة عشر مضت من رمضان، وأُنزل زبور داود فى ثمان عشرة ليلة مضت من رمضان، وأُنزل الفرقان على محمد فى الرابع والعشرين لست مضين بعدها، ثمَّ وصف القرآن فقال:

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾: من الضلالة وهو فى محل النصب على القطع لأن القرآن معرفة والهدى نكرة.

﴿وَبَيِّنَٰتٍ﴾: من الحلال والحرام والحدود والأحكام.

﴿مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾: الفصل بين الحقّ والباطل.

سعيد بن المسيب عن سلمان قال: خطبنا رسول الله ﷺ فى آخر يوم من شعبان فقال: «يا أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم، وشهر مبارك، وشهر فيه ليلة خير من ألف شهر، جعل الله صيامه فريضة، وقيام ليله تطوعًا، من تقرب فيه بخصلة من خصال الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه، ومن أدّى فيه فريضة كان كمن أدّى سبعين فريضة فيما سواه، وهو شهر الصبر والصبر ثوابه الجنة، وشهر المواساة، وشهر يزاد فيه رزق المؤمن، شهرٌ أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النّار، من فطّر فيه صائمًا كان مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء. قالوا: يا رسول الله ليس كلنا يجد ما يفطر الصائم. فقال رسول الله ﷺ: «يعطى الله هذا الثواب، من فطر صائمًا على مذقة لبن أو تمر أو شربة ماء، ومن أشبع فيه صائمًا سقاه الله تعالى من حوضى شربة لا يظمأ حتى يدخل الجنة، وكان كمن أعتق رقبة، ومن خفف عن مملوكه فيه غفر الله له وأعتقه من النّار، فاستكثروا فيه من أربع خصال: خصلتان ترضون بهما ربّكم، وخصلتان لا غنى عنهما: فأمّا الخصلتان

اللتان ترضون بهما ربكم فشهادة أن لا إله إلا الله وتستغفرونه، وأما التى لا غنى بكم عنها فتسألون الله عز وجل الجنة وتعوذون به من النّار».

وعن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أبواب السماء وأبواب الجنة لتفتح لأول ليلة من شهر رمضان، فلا تغلق إلى آخر ليلة منها، وليس لعبد يصلى فى ليلة منها إلا كتب الله عز وجل بكل سجدة ألفًا وسبعمائة حسنة، وبنى له بيتًا فى الجنة من ياقوتة حمراء لها سبعون ألف باب لكل باب مصراعان من ذهب موشح من ياقوتة حمراء، فإذا صام أول يوم من شهر رمضان غفر الله له كل ذنب إلى آخر يوم من رمضان وكان كفارة إلى مثلها، وكان له بكل يوم يصومه قصر فى الجنة له ألف باب من ذهب واستغفر له سبعون ألف ملك من غدوة إلى أن توارت بالحجاب، وكان له بكل سجدة يسجدها من ليل أو نهار شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها».

محمّد بن يونس الحارثى عن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان أول ليلة من شهر رمضان نادى الجليل جلت عظمته رضوان خازن الجنان فيقول: لبيك وسعديك فيقول: جدّد جنتى وزينها من أمة أحمد ثم لا تغلقها عليهم حتى ينقضى شهرهم، ثم ينادى مالكًا خازن النار: أن يا مالك، فيقول: لبيك ربى وسعديك فيقول: اغلق أبواب الجحيم عن الصائمين من أمة أحمد ثم لا تفتحها عليهم حتى ينقضى شهرهم ثم ينادى جبرئيل فيقول: لبيك ربى وسعديك فيقول: انزل إلى الأرض وغلّ مردة الشياطين لا يفسدوا عليهم صيامهم وإفطارهم، ولله فى كل يوم من شهر رمضان عند طلوع الشمس وعند وقت الإفطار عتقاء يعتقهم من النار عبيداً وإماءً، وله فى كل سماء مناد فيهم، ملك عرفهُ تحت عرش ربّ العالمين وفرائضه فى تخوم الأرض السّابعة السفلى، جناح له بالمشرق مكلل بالمرجان والدّرر والجوهر، وجناح له بالمغرب مكلل بالمرجان والدرّ والجوهر ينادى: هل تائب يُتاب عليه؟ هل من داع يستجاب له؟ هل من مظلوم ينصره الله؟ هل من مستغفر يغفر له؟ هل من سائل يُعطى سؤله؟ قال: وينادى الرّب تعالى ذكره الشهر كله: عبادى وإمائى أبشروا واصبروا (وداوموا) أوشك أن يرفع عنكم فى المؤونات، ويفضوا إلى رحمتى وكرامتى. فإذا كان ليلة القدر، نزل جبرئيل فى كبكبة من الملائكة يصلون (ويسلمون) على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله عز وجل».

إبراهيم بن هدبة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أذن الله للسموات والأرض أن يتكلما بشرا بمن صام رمضان: الجنة».

عبد الملك بن عمر عن عبد الله بن أبى أوفى قال: قال رسول الله ﷺ: «نوم الصّائم عبادة وصمته تسبيح ودعاؤه مستجاب وعمله مضاعف».

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾: قرأه العامة بجزم اللام، وقرأ الحسن والأعرج: بكسر اللام وهى لام الأمر، وحقها الكسر إذا أُفردت، وإذا وصلت بشىء ففيه وجهان: الجزم والكسر، وإنما توصل بثلاثة أحرف الفاء كقوله: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾ (قريش:٣) والواو كقوله: ﴿وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ﴾ (الحج:٢٩) وثم كقوله: ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ﴾ (الحج:٢٩).

واختلف العلماء فى معنى هذه الآية وحكمها:

فقال بعضهم: معناها فمن شهده عاقلاً بالغًا مقيمًا صحيحًا مكلفًا فليصمه قاله أبو حنيفة وأصحابه، وقال قوم: معناها: إذا دخل عليه شهر رمضان وهو مقيم فى داره فليصم الشهر كله. حتى لو غاب بعد فسافر أو أقام فلم يبرح قاله النخعى والسّدى.

وقال قتادة: إن عليًا ـ رضى الله عنه ـ كان يقول: إذا أدركه رمضان وهو مقيم ثم سافر فعليه الصوم.

وقال محمد بن سيرين: سألت عبيدة السلمانى عن الرجل يدركه رمضان ثم يسافر فقال: إذا شهدت أوله فصم آخره ألا تراه يقول: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ قالوا: والمستحب له ألاّ يسافر إذا أدركه رمضان مقيمًا. إن أدركه. حتى يقضى الشهر، وروى فى ذلك عن إبراهيم ابن طلحة أنه جاء إلى عائشة رضى الله عنها يسلم عليها قالت: وأين تريد؟

قال: أردت العمرة، قالت: جلست حتى إذا دخل عليك شهر رمضان خرجت فيه؟

قال: قد خرج ثقلى، قالت: اجلس حتى إذا أفطرت فاخرج، فلو أدركنى رمضان وأنا ببعض الطريق لأقمت له. وقال الآخرون معنى الآية: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ ما شهد منه وكان حاضراً وإن سافر فله الإفطار إن يشأ، قاله ابن عباس وعامة أهل التأويل، وهو أصح الأقاويل يدل عليه ما روى الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال: خرج رسول الله ﷺ عام الفتح صائمًا فى رمضان حتى إذا بلغ القنطرة دعا بماء فشرب.

وعن الشعبى: أنه سافر فى رمضان فأفطر عند باب الجسر.

ثم ذكر فقال: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا﴾ اختلف العلماء فى الزمن الذى أباح الله تعالى معه الإفطار، فقال قوم: هو كل مرض يسمى مريضًا.

وقال (طريف بن تمام) العطاردى: دخلت على محمد بن سيرين يومًا فى شهر رمضان وهو يأكل فلمّا فرغ قال لى: توجعت أصبعى هذه.

وقال آخرون: فكل مرض كان الأغلب من أمر صاحبه بالصوم الزيادة في علته زيادة غير محتملة، وهو اختيار الشافعي.

وقال الحسن وإبراهيم: إذا لم يستطع المريض أن يصلي قائمًا أفطر، والأصل أنه إذا لم يمكنه الصيام وأجهده أفطر فإذا لم يجهده الصوم فهو بمعنى الصحيح الذي يطيق الصوم.

﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ : اختلف العلماء في صيام المسافر فقال قوم: الإفطار في السفر عزيمة واجبة وليس برخصة فمن صام في السفر فعليه القضاء إذا أقام، وهو قول عمر وأبي هريرة وابن عباس وعلي بن الحسين وعروة بن الزبير والضحاك، واعتلوا بما روت أم الدرداء عن كعب بن عاصم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس من البر الصيام في السفر».

الزهري عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه قال: الصائم في السفر كالمفطر في الحضر.

وقال آخرون: الإفطار في السفر رخصة من الله عز وجل والفرض الصوم فمن صام ففرضه أدى ومن أفطر فبرخصة الله أخذ ولا قضاء على من صام إذا أقام، وهذا هو الصحيح وعليه عامة الفقهاء. ويدل عليه: ما روى عاصم بن الأحول عن أبي نضرة عن جابر قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر فمنا الصائم ومنا المفطر فلم يكن بعضنا يعيب على بعض.

وروى يحيى بن سعيد عن هشام عن أبيه عن عائشة: إنّ حمزة بن عمرو قال: يا رسول الله ﷺ «إني كنت أتعود الصيام أفأصوم في السفر قال: «إن شئت فصم وإن شئت فأفطر».

وعن عروة بن أبي قراح عن حمزة بن عمرو أنه قال: يا رسول الله أجد بي قوة على الصيام في السفر فهل على جناح قال: «هي رخصة من الله عز وجل فمن أخذها فحسن ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه».

وأما قوله ﷺ: «ليس من البر الصيام في السفر». فإن تمام الخبر يدل على تأويله وهو ما روى محمد بن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ مر برجل في ظل شجرة يرش عليه الماء فقال: «ما بال صاحبكم هذا؟» قالوا: يا رسول الله صام، قال: «إنه ليس من البرّ أن تصوموا في السفر، وعليكم برخصة الله تعالى التي رخص لكم فاقبلوها»، وكذلك تأويل قوله ﷺ: «الصائم من السفر كالمفطر في الحضر».

يدل عليه حديث مجاهد عن ابن عمر: إنّه مرّ برجل ينضح الماء على وجهه وهو صائم، فقال: أفطر ويحك فإني أراك لو مت على هذا دخلت النار.

والجامع لهذه الأخبار والمؤيد لما قلنا ما روى أيوب عن عروة وسالم أنهما كانا عند عمر بن عبد العزيز، إذ هو أمير على المدينة. فتذاكروا الصوم فى السفر. فقال سالم: كان ابن عمر لا يصوم فى السفر، وقال عروة: كانت عائشة تصوم فى السفر. فقال سالم: إنما أحدث عن ابن عمر، وقال عروة: إنما أحدث عن عائشة، فارتفعت أصواتهما، فقال عمر بن عبد العزيز: اللّهم اغفر إذا كان يسراً فصوموا وإذا كان عُسراً فأفطروا.

ثم اختلفوا فى المستحب منه، فقال قوم: الصّوم أفضل، وهو قول معاذ بن جبل وأنس وإبراهيم ومجاهد.

ويروى أنّ أنس بن مالك أمر غلامًا له بالصوم فى السفر، فقيل له فى هذه الآية، فقال: نزلت ونحن يومئذ نرحل جياعًا ونتزل على غير شبع، فمن أفطر فبرخصة، ومن صام فالصوم أفضل.

وقال آخرون: المستحب الإفطار لما روى جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر قال: خرج رسول الله ﷺ إلى مكة عام الفتح فى رمضان فصام حتى إذا بلغ كراع الغميم فصام الناس، فبلغه أنّ الناس قد شق عليهم الصيام فدعا بقدح ماء وشرب بعد العصر والناس ينظرون فأفطر بعض الناس وصام بعضهم فبلغه أن الناس صاموا فقال: «أولئك العصاة».

عاصم الأحول عن (بريد) العجلى عن أنس بن مالك قال: كنا مع رسول الله فمنا الصائم ومنا المفطر فنزلنا فى يوم حار واتخذنا ظلالاً فسقط الصوام وقام المفطرون فسقوا الركاب فقال رسول الله ﷺ: «ذهب المفطرون اليوم بالأجر».

وروى شعبة عن معلى عن يوسف بن الحكم قال: سألت ابن عمر عن الصوم فى السفر فقال: أرأيت لو تصدقت على رجل بصدقة فردها عليك ألم يغضبك؟.

قال: نعم، قال: فإنّها صدقة من الله عز وجلّ تصدّق بها عليكم، وحدّ الأسفار التى يجوز فيها الإفطار ستة عشر فرسخًا فصاعدًا.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾: حين أرخص فى الأسفار للمريض والمسافر.

﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾: وقرأ أبو جعفر يزيد بن القعقاع: العسر واليسر مثقلين فى جميع القرآن.

وقرأ الباقون: بتخفيفهما وهما لغتان جيدتان ولا حجة للقدرية فى هذه الآيات لأنها مبنية على أول الكلام فى إيجاب الصيام فهى خاص فى الأحكام لأهل الإسلام.

﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾: قرأ أبو بكر ورويس: بتشديد الميم.

وقرأ الباقون بالتخفيف وهو الاختيار لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (المائدة: ٣) والواو فى قوله ﴿وَلِتُكْمِلُواْ﴾ واو النسق واللاّم لام كى تقديره: ويريد لتكملوا العدة.

وقال الزجاج: معناه فعل الله ذلك ليسهل عليكم وتكملوا العدة.

وقال عطاء: ولتكملوا عدة أيام الشهر.

وقال سائر المفسرين: ولتكملوا عدة ما أفطرتم فى مرضكم وسفركم إذا برأتم وأقمتم وقضيتموها.

﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ﴾: ولتعظموا الله.

﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾: لدينه وفقكم ورزقكم شهر رمضان مخففًا عليكم وخصكم به دون سائر أهل الملل.

وقال أكثر العلماء: أراد به التكبير ليلة الفطر.

وقال الشافعى روى عن ابن المسيب وعروة بن سلمة: أنهم كانوا يكبرون ليلة الفطر ويجهرون بالتكبير قال: وشبّه . . .[1] لنحرها.

قال ابن عباس وزيد بن أسلم: فى هذه الآية حق على المسلمين إذا رأى هلال شوال أن يكبروا إلى أن يخرج الإمام فى الطريق والمسجد فإذا حضر الإمام كف فلا يكبر إلا بتكبيره والاختيار فى لفظ التكبير ثلاثًا نسقا.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: على نعمه.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾: الآية: اختلف المفسرون فى سبب نزول هذه الآية فقال ابن عباس: نزلت فى عمر بن الخطاب وأصحابه حين أصابوا من أهاليهم فى ليالى شهر رمضان وستأتى قصتهم فيما بعد إن شاء الله.

وروى الكلبى عن أبى صالح عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف يسمع ربنا دعاءنا وأنت تزعم أنّ بيننا وبين السماء مسيرة خمسمائة عام وأن غلظ كل سماء مثل ذلك»؟ فنزلت هذه الآية.

وقال الحسن: سأل أصحاب النبى ﷺ رسول الله أين ربنا؟ فأنزل الله هذه الآية.

وقال قتادة وعطاء: لما نزلت: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(غافر: ٦٠).

فقال: يا رسول الله كيف ندعو ربنا؟ ومتى ندعوه؟ فأنزل الله هذه الآية.

قال الضحاك: سأل بعض الصحابة النبى ﷺ: أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد؟ فسأل ربه فأنزل

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

الله : وإذا سألك يا محمد عبادى عنى فإنى قريب .

وقال أهل المعانى : فيه إضمار كأنه فعل هم وما علمهم أنى قريب منهم بالعلم .

وقال أهل الإشارة : رفع الواسطة إظهاراً للقدرة .

﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟﴾ : فليجيبوا ﴿لِى﴾ بالطاعة يقال أجاب واستجاب بمعنى واحد .

وقال كعب بن سعد الغنوى :

وداع دعا يا مَنْ يجيب إلى النّدى فلم يستجبه عنـد ذاك مجيب

وقال أبو رجاء الخراسانى : يعنى فليدعونى للإجابة وفى اللغة الطاعة وإعطاء ما يسأل، يقال : أجابت السماء بالمطر، وأجابت الأرض بالنبات، كأن الأرض سألت السّماء المطر فأعطت، وسألت السماء الأرض فأعطت .

وقال زهير

وغيث من الأسمى حق قلاعه أجابت رواسيه النّجا هواطله

يريد أجابت تجمع رواسيه النجا حين سألها المطر وأعطته ذلك .

والإجابة من الله تعالى الإعطاء ومن العبد الطّاعة .

﴿وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ : لكى يهتدوا فإن قيل ما وجه قوله : ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ وقوله : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(غافر : ٦٠) وقد يدعى كثيراً فلا يستجيب، قلنا : اختلف العلماء فى وجه الآيتين وتأويلهما .

فقال بعضهم : معنى الدعاء هاهنا الطاعة ومعنى الإجابة الثواب كأنه قال : أجيب دعوة الداعى بالثواب إذا أطاعنى .

وقال بعضهم : معنى الآيتين خاص، وإن كان لفظهما عامًا، تقديرها أجيب دعوة الداعى إذا شئت وأجيب الداعى إذا وافق القضاء، وأجيب دعوة الداعى إذا لم يسأل محالاً، وأجيب دعوة الداعى إذا كانت الإجابة له خيراً، يدل عليه ما روى أبو المتوكل عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : «ما من مسلم دعا الله عزّ وجلّ بدعوة ليس فيها قطيعة رحم ولا إثمّ إلاّ أعطاه الله بها إحدى خصال ثلاث : إمّا أن تعجل دعوته، وإما أن يدخر له فى الآخرة، واما أن يدفع عنه من السوء مثلها» . قالوا : يا رسول الله إذاً نكثر قال : «الله أكثر» .

وقال بعضهم : هو عام وليس فى الآية أكثر من إجابة الدعوة، فأما إعطاء المنية وقضاء الحاجة فليس مذكور فى الآية، وقد يجيب السيد عبده والوالد ولده ثم لا يعطيه سؤله فالإجابة

كائنة لا محالة عند حصول الدعوة لمن قوله: أجيب وأستجيب خبر والخبر لا يعترض عليه، لأنه إذا نسخ صار المخبر كذابًا وتعالى الله عن ذلك، ودليل هذا التأويل: ما روى نافع عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال: «من فتح له باب الدعاء فتحت له أبواب الإجابة، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: قل للظلمة لا تدعونى فإنى أوجبت على نفسى أن أُجيب من دعانى وإنى إذا أجبت الظالمين لعنتهم».

وقيل: إن الله يجيب دعاء المؤمن فى الوقت إلاّ أنه يؤخر إعطاء مراده ليدعوه فيسمع صوته، يدل عليه ما روى محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليدعو الله وهو يحبه فيقول يا جبرئيل: اقض لعبدى هذا حاجته وأخرها فإنى أحب أن لا أزال أسمع صوته، وإن العبد ليدعو الله وهو يبغضه فيقول لجبريل اقض لعبد حاجته بإخلاصه وعجلها فإنى أكره أن أسمع صوته. وبلغنا (عن يحيى ذبيح الله) أنه قال: سألت رب العزة فى المنام فقلت: يا رب كم أدعوك فلا تستجيب لى؟ فقال: يا يحيى إنى أحب أن أسمع صوتك».

قال بعضهم: إنّ للدعاء آدابًا وشرائط هى أسباب الإجابة ونيل الأمنية فمن راعاها واستكملها كان من أهل الإجابة ومن أغفلها وأخلّ بها . . . .[1] فى الدعاء.

وحكى أنّ إبراهيم بن أدهم قيل له: ما بالنا ندعو الله فلا يستجيب لنا؟ قال: لأنكم عرفتم الله فلم تطيعوه وعرفتم الرسول فلم تتبعوا سنته، وعرفتم القرآن فلم تعملوا بما فيه، وأكلتم نعمة الله فلم تؤدوا شكرها، وعرفتم الجنة فلم تطلبوها وعرفتم النار فلم تهربوا منها، وعرفتم الشيطان فلم تحاربوه ووافقتموه وعرفتم الموت فلم تستعدوا له، ودفنتم الأموات فلم تعتبروا بهم وتركتم عيوبكم واشتغلتم بعيوب الناس.

وقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ﴾ الآية: قال المفسرون: كان الرجل فى ابتداء الأمر إذا أفطر حل له الطعام والشراب والجماع إلى أن يأتى العشاء الأخيرة أو يرقد قبلها فإذا صلى العشاء الأخيرة أو رقد قبل الصلاة ولم يفطر حرم عليه الطعام والشراب ومنع ذلك إلى مثلها فى القابل.

ثم إن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) واقع أهله بعدما صلى العشاء الأخيرة فلما اغتسل أخذ يبكى ويلوم نفسه فأتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله: إنى أعتذر إلى الله وإليك من نفسى هذه الخطيئة إنى رجعت إلى أهلى بعد أن صليت العشاء الأخيرة فوجدت رائحة طيبة فسولت

(١) بياض بالأصل المخطوط.

لى نفسى فجامعت أهلى فهل تجد لى من رخصة، فقال النبى ﷺ: ما كنت جديراً بهذا يا عمر، فقام رجال فاعترفوا بالذى كانوا صنعوا بعد العشاء الأخيرة، فنزل فى عمر وأصحابه ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ أى أطلق وأبيح لكم ﴿لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾ فى ليلة الصيام ﴿ٱلرَّفَثُ﴾.

قرأ ابن مسعود والأعمش: الرفوث: ﴿إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ والرفث والرفوث كناية عن الجماع قال ابن عباس: إن الله تعالى حيى كريم يكنى فما ذكر الله فى القرآن من المباشرة والملامسة والإفضاء والدخول والرفث فإنما يعنى به الجماع.

قال الشاعر:

فظلنا هنالك فى نعمّ وكل اللذاذة غير الرفث

قال القتيبى: الرفث هو الإفصاح بما يجب أن يكنى به من ذكر النكاح وأصله الفحش وقول القبيح. قال الحجاج:

ورب أسراب حجيج كظلم عن اللغا ورفث التكلم

وقال الزجاج: الرفث كلمة جامعة لكل ما يريده الرجال من النساء.

قال الشاعر:

ويزين من أنس الحديث راويا وهن من رفث الرجال نفارُ

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾: هن سكن لكم وأنتم سكن لهن قاله أكثر المفسرين نظيره قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ (النبأ: ١٠) أى سكنًا دليله قولّه ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (الأعراف: ١٨٩) ليسكن إليه.

وقال أصحاب المعانى: اللّباس الشعار الذى يلى الجهار من الثياب فسمى كل واحد من الزوجين لباسًا لتجردهما عند النوم واجتماعهما فى ثوب واحد وانضمام جسد كل واحد منهما إلى جسد صاحبه حتى يصير كل واحد منهما لصاحبه كالثوب الذى يليه.

قال نابغة بنى جعدة:

إذا ما الضجيج ثنى جيدها تثنت وكانت لباسًا

فكنى عن اجتماعهما متجردين فى فراش واحد باللباس يدلّ على صحة هذا التأويل قول الربيع بن أنس فى هذه الآية: هن لحاف لكم وأنتم لحاف لهن.

وقال بعضهم: يقال لما ستر الشىء وواراه لباس فجائز أن يكون كل واحد منهما سترًا لصاحبه عمّا لا يحل كما جاء فى الخبر: من تزوج فقد أحرز دينه، وسترًا أيضًا فيما يكون بينهما من الجماع عن أبصار الناس، يدل عليه: قول أبى زيد فى قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ

﴿وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ قال: للمواقعة.

وقال أبو عبيدة وغيره: يقال للمرأة هى لباسك وفراشك وإزارك، وقال رجل لعمر بن الخطاب:

ألا أبلغ أبا حفص رسولاً   فدى لك من أخى ثقة إزارى

قال أبو عبيدة: أى نسائى.

﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾: تخونونها وتظلمونها بعد العشاء الآخرة فى ليالى الصوم.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾: فتجاوز عنكم.

﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾: محا ذنوبكم.

﴿فَالْآنَ﴾: وجه حكم زمانين ماض وآت.

﴿بَاشِرُوهُنَّ﴾: جامعوهن حلالاً سميت المجامعة مباشرة لتلاصق كلّ واحد منهما ببشرة صاحبه.

﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾: أى افعلوه وقرأه العامة الصحيحة وابتغوا أى اطلبوا يقال: يبغى الشىء يبغيه بغيه وبغًا وابتغاه يبتغيه ابتغاء طلبه. ﴿مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قضى الله لكم، وقيل: كتب فى اللوح المحفوظ.

وقال أكثر المفسرين: يعنى الولد.

قال مجاهد: ابتغوا الولد إن لم تلد هذه فهذه.

قال ابن زيد: وابتغوا ما أحل الله لكم من الجماع.

قتادة: وابتغوا الرخصة التى كتبت لكم.

وقال معاذ بن جبل: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يعنى ليلة القدر وكذلك روى أبو الجوزاء عن ابن عباس وأشبه الأقاويل بظاهر الآية قول من تأوله على الولد لأنّه عقيب قوله: ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ وهو أمر إباحة وندب كقوله ﷺ: «تناكحوا تكثروا فإنى أباهى بكم الأمم يوم القيامة حتى بالسقط».

وقال أهل الظاهر: هو أمر إيجاب وحتم، يدل عليه ما روى زياد بن ميمون عن أنس بن مالك: أنّ امرأة كانت يُقال لها: الحولاء عطارة من أهل المدينة، وحلت على عائشة فقالت: يا أم المؤمنين زوجى فلان أتزين له كل ليلة وأتطيب كأنى عروس زفت إليه فإذا آوى إلى فراشه دخلت عليه فى لحافه ألتمس بذلك رضا الله عز وجل حول وجهه عنى أراه قد أبغضنى،

قالت: اجلسى حتى يدخل النبى ﷺ قالت: فبينا إنا كذلك إذ دخل النبى ﷺ فقال: ما هذه الريح التى أجدها أتتكم الحولاء أبتعتم منها شيئًا؟

فقالت عائشة: لا والله يا رسول الله. فقصت الحولاء قصتها. فقال لها: اذهبى واسمعى له وأطيعى، فقالت: أفعل يا رسول الله، فما لى من الأجر؟

قال: «ما من امرأة رفعت فى بيت زوجها شيئًا ووضعته مكانًا تريد الإصلاح إلاّ كتب الله لها حسنة ومحا عنها سيئة، ورفع لها درجة، وما من امرأة حملت من زوجها حين تحمل إلا لها من الأجر مثل القائم الصائم نهاره الغازى فى سبيل الله، وما من امرأة يأتيها الطلق إلا لها بكل طلقة عتق نسمة وبكل رضعة عتق رقبة فإذا فطمت ولدها ناداها مناد من السماء أيتها المرأة قد كفيت العمل فيما مضى فاستأنفى فيما بقى».

قالت عائشة: قد أعطى الله النساء خيرًا كثيرًا فما بالكم يا معشر الرجال، فضحك النبى ﷺ ثم قال: «ما من رجل أخذ بيد امرأته يراودها إلا كساه نورًا وله حسنة، وإن عانقها فعشر حسنات وإن قبلها فعشرون، وإن أتاها كان خيرًا من الدنيا وما فيها، فإذا قام يغتسل لم يمر الماء على شىء من جسده إلا يمحى عنه سيئة، ويعطى له . . . .[1] يعطى بغسله خيرٌ من الدنيا وما فيها، وإن الله عز وجل يباهى الملائكة يقول: انظروا إلى عبدى قام فى ليلة مرة باردة يغتسل من الجنابة يتيقن بأنى ربه أشهدكم بأنى غفرت له».

﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ إلى: ﴿ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾.

نزلت فى رجل من الأنصار: واختلف فى اسمه. فقال معاذ بن جبل: أبو صرمة البراء قيس بن صرمة.

عكرمة والسدى: أبو قيس بن صرمة.

مقاتل بن حيان: صرمة بن إياس.

الكلبى: أبو قيس صرمة بن أنس بن أبى صرمة بن مالك بن عدى النّجار؛ وذلك أنه ظل نهاره يعمل فى أرض له، وهو صائم، فلما أمسى رجع إلى أهله بتمر وقال: قدمى الطعام، وأرادت المرأة أن تطعمه عشاءً سُخنا، وأخذت تعمل له سخينة، وكان فى الصوم الأول من صلى العشاء الآخرة أو نام، حرم عليه الطعام والشراب الجماع، فلما فرغت من طعامه إذا هى به قد نام، وكان متداعيًا وكَلاًّ فأيقظته فكره أن يعصى الله ورسوله وأبى أن يأكل، وأصبح صائمًا مجهودًا، فلم ينتصف النهار حتى غشى عليه، فلما أفاق، أتى رسول الله ﷺ فلما رآه

(١) بياض بالأصل المخطوط.

رسول الله قال: «يا أبا قيس ما لك أمسيت طليقًا؟» قال: ظللت أمس فى النخيل ونهارى كله أجر بالحرير حتى أمسيت، فأتيت فأرادت امرأتى أن تطعمنى شيئًا سخنًا فأبطأت على، فنمت فأيقظونى وقد حرم على الطعام والشراب، فطويت وأمسيت وقد أجهدنى الصوم، فاغتم لذلك رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟﴾ يعنى فى ليالى الصوم واشربوا فيها ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ أى بياض النهار وضوءه من سواد الليل وظلمته، كذا قال المفسرون. قال الشاعر:

الخيط الأبيض وقت الصّبح منصدع والخيط الأسود لون الليل مكمـوع

وإنما سمى بذلك تشبيهًا بالخيط؛ لابتداء الضوء والظلمة لامتدادهما. وقال أبو داود:

فلمّا أضاءت لنا غـدوة ولاح من الصبح خيط أنارا

وقد ورد النص عن رسول الله ﷺ فى تفسير هذه الآية.

وروى عن مخالد عن عامر عن عدى بن حاتم قال: علمنى رسول الله ﷺ الصّلاة والصيام قال: صل كذا، وصم كذا، فإذا غابت الشمس: فكل واشرب حتى يتبين لك الخط الأبيض من الخيط الأسود، وصم ثلاثين يومًا إلى أن ترى الهلال قبل ذلك، قال: فأخذت خيطتين من شعر أبيض وأسود، وكنت أنظر فيهما فلا يتبين لى.

فذكرت ذلك للنبى ﷺ، فضحك رسول الله ﷺ: حتى بدت نواجذه وقال: «يا ابن حاتم إنما ذلك بياض النهارمن سواد الليل».

وروى أبو حازم عن سهل بن سعد قال: نزلت هذه الآية: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾: ولم يقل: من الفجر.

كان رجال إذا أرادوا الصوم يضع أحدهم فى رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبين لهم فأنزل الله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ فعلموا أنما يعنى بذلك الليل والنهار.

والفجر انشقاق عمود الصبح وابتداء ضوئه، وهو مصدر من قولك فجر الماء يفجر فجراً إذا انبعث وجرى شبه شق الضوء بظلمة الفجر، الماء الحوض إذا شقه وخرج منه وهما فجران، أحدهما: يسطع فى السماء مستطيلاً كذنب السرحان ولا ينتشر فذلك لا يحل الصلاة ولا يحرم الطعام على الصائم وهو الفجر الكاذب.

والثانى: هو المستطير الذى ينتشر ويأخذ الأفق ضوء الفجر الصادق الذى يحل الصلاة ويحرم الطعام على الصائم وهو المعنى بهذه الآية.

عن سمرة بن جندب قال: قال النبى ﷺ: «لا يمنعكم من السحور أذان بلال ولا الصبح المستطيل ولكن الصبح المستطير فى الأفق». ثم ذكر وقت الإفطار فقال: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾.

قال عبد الله بن أبى أوفى: كنا مع النبى ﷺ فى مسيرة وهو صائم فلما غربت الشمس قال لرجل: انزل فاجرح لى، فقال الرجل: يا رسول الله أمسيت؟ فقال: انزل فاجرح لى، فقال الرجل: لو أمسيت، فقال: انزل فاجرح لى، قال: يا رسول الله إن علينا نهاراً فقال له الثالثة فنزل فجرح له. ثم قال رسول الله ﷺ: «إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار وغابت الشمس فقد أفطر الصائم».

وفى بعض الألفاظ: أكل أو لم تأكل.

﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾: كان مجاهد يقرأ فى المسجد، وأصل العكوف والاعتكاف الثبات والإقامة.

فقال: عكفت بالمكان إذا عكفت، قال الله عز وجل: ﴿فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ (الأعراف: ١٣٨) أى يقيمون.

قال الفرزدق يصف القدور:

يرى حولهن معتفين كأنهم ... على صنم فى الجالية عكف

وقال الطرماح:

فبات بنات الليل حولى عكفا ... عكوف البواكى بينهن صريع

وقال آخر:

تصدى لها والدجى قد عكف ... خيال هداه إليه الشغف

والاعتكاف هو حبس النفس فى المسجد على عبادة الله تعالى.

واختلف العلماء فى معنى المباشرة التى نهى المعتكف عنها.

فقال قوم: هى المجامعة خاصة معناه لا تجامعوهن ما دمتم معتكفين فى المساجد، فإن الجماع يفسد الاعتكاف وبه قال ابن عبّاس والضحاك والربيع.

وقال قتادة ومقاتل والكلبى: نزلت هذه الآية فى نفر من أصحاب النبىّ ﷺ كانوا يعتكفون فى المسجد وإذا عرضت للرجل منهم الحاجة إلى أهله خرج إليها فجامعها ثمّ يغتسل ويرجع إلى المسجد فنهوا أن يجامعوا ليلاً ونهاراً حتى يفرغوا من اعتكافهم.

وقال أبو زيد: المباشرة الجماع وغير الجماع؛ من اللمس والقُبلة وأنواع التلذذ، والجماع

مفسد للاعتكاف بالإجماع، والمباشرة غير الجماع، فهو على ضربين: ضرب يقصد به التلذذ بالمرأة فهو مكروه ولا يفسد الاعتكاف عند أكثر الفقهاء.

وقال مالك بن أنس: يفسده.

قال ابن جريج: قلت لعطاء المباشرة هو الجماع؟ قال: الجماع نفسه، قلت له: القُبلة فى المسجد والمسّة؟

قال: أما الذى حُرِّم فالجماع وأنا أكره كل شىء من ذلك فى المسجد.

والضرب الثانى: ضرب يقصد به التلذذ بالمرأة فهو مباح كما جاء فى الخبر عن عائشة رضى الله عنها، أن رسول الله ﷺ كان يخرج إليها رأسه من المسجد فترجّله وهو معتكف.

فرقد السبخى عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس: أن رسول الله ﷺ قال فى المعتكف: «هو معتكف الذنوب وتجرى له من الحسنات كعامل الحسنات كلها».

عن على بن الحسين عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «من اعتكف عشراً فى رمضان كان بحجتين وعمرتين».

﴿تِلْكَ﴾: الأحكام التى ذكرنا فى الصيام والاعتكاف ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾.

قال السّدى: شروط الله.

شهر بن حوشب: فرائض الله.

الضحاك: معصية الله.

المفضل بن سلمة: الحد الموقف الذى يقف الإنسان عليه ويصف له حتى يميز من سائر الموصوفات والحد فصل بين الشيئين، والحد منتهى الشىء.

وقال الخليل: الحد الجامع المانع.

قال الزجاج: بحدود ما منع الله تعالى من مخالفتها.

قلت: وأصل الحد فى اللغة: المنع ومنه قيل للبواب حداد.

قال الأعشى:

فقمنا ولما يصح ديكنا ... إلى جونة عند حدادها

يعنى صاحبها الذى يحفظها ويمنعها.

قال النابغة:

إلا سليمان إذ قال المليك له ... قُم فى البرية فاحددها عن الفند

ومنه حدود الأرض، والدار هى ما منع غيره أن يدخل فيها، وسمى الحديد حديداً لأنه

يمتنع من الأحداء، ويقال إحدمَّت المرأة على زوجها وحدّت إذا منعت نفسها من الزينة، فحدود الله هي ما منع فيها أو منع من مخالفتها والتعدّى إلى غيرها.

﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ : فلا تأتوها، يقال: قربت الشيء أقربه وقربت منه بضم الراء إذا دنوت منه.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ : هكذا ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ لكى يتقوها فنجّوا من السخطة والعذاب.

❖ ❖ ❖

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ الآية.

قال ابن حيان وابن السائب: نزلت هذه فى امرئ القيس بن عابس الكندى وفى عبدان بن أشرح الحضرمى، وذلك أنهما اختصما إلى النبى ﷺ فى أرض فأراد امرؤ القيس أن يحلف فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ٧٧) فقرأها النبى ﷺ فأبى أن يحلف وحكم عبدان فى أرضه ولا يخاصمه.

فقرأها النبى ﷺ وكان امرؤ القيس المطلوب وعبدان الطالب فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ الآية أى لا يأكل بعضكم مال بعض، (بالباطل) أى من غير الوجه الذى أباحه الله تعالى له، وأصل الباطل الشيء الذاهب الزائل يقال: بطل يبطل بطولاً وبطلانًا إذا ذهب.

﴿وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ : أى تلقون أمور تلك الأموال بينكم وبين أربابها إلى الحكام، وأصل الإدلاء إرسال الدلو وإلقاؤه فى البئر، يقال أدلى دلوه إذا أرسلها.

قال الله تعالى: ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ (يوسف: ١٩) ودلاها إذا أخرجها ثم جعل كل إلقاء قول أو فعل إدلاء، ومنه قيل للمحتج بدعواه: أدلى بحجته إذا كانت سببًا له يتعلق به فى خصومته كتعلق المسقى بدلو قد أرسلها هو سبب وصوله إلى الماء، ويقال: أدلى فلان إلى فلان إذا تناول منه وأنشد يعقوب:

فقد جعلت إذا حاجة عرضت ... بباب دارك أدلوها أيا قوم

ومنه يقال أيضًا: دلا ركابه يدلوها إذا ساقها سوقًا رفقًا قال الراجز:

يا ذا الذى يدلو المطىّ دلوا ويمنع العين الرقادا المرا

واختلف النحاة فى محل قوله: ﴿وَتُدْلُوا﴾ .

فقال بعضهم: جزم بتكرير حرف النهى المعنى ولا تأكلوا ولا تدلوا وكذلك هى فى حرف أُبى بإثبات لا.

وقيل: وهو نصب على الظرف.

كقول الشاعر:

لا تنه عن خُلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وقيل: نصب بإضمار أن الخفيَّة.

قال الأخفش: نصب على الجواب بالواو.

﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾ : بالباطل.

وقال المفضل: أصل الإثم التقصير فى الأمر.

قال الأعشى:

جماليــة تعتلى بالرّداف إذا كذب الإثمان الهجيرا

أى المقصرات يصف . . . .[1] ثم جعل التقصير فى أمر الله عز وجل والذنب إثمًا.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ : إنكم مبطلون.

قال ابن عباس: هذا فى الرجل يكون عليه مال وليس له فيه بينة فيجحدهم ويخاصمهم فيه إلى الحكام وهو يعرف أن الحق عليه ويعلم أنه آثم أكل حرامًا.

قال مجاهد فى هذه الآية: لا يخاصم وليست ظالم.

الحسن: هو أن يكون على الرجل لصاحبه حق فإذا طالبه به دعاه إلى الحكام فيحلف له ويذهب بحقه.

الكلبى: هو أن يقيم شهادة الزور.

قتادة: لا تدل بمال أخيك إلى الحاكم وأنت تعلم أنك ظالم فإن قضاءه لا يحل حرامه ومن قضى له بالباطل فإن خصومته لم تنقض حتى يجمع الله عزّ وجلّ يوم القيامة بينه وبين خصيمه فيقضى بينهما بالحق.

وقال شريح: إنى لأقضى لك، وإنى لأظنك ظالمًا، ولكن لا يسعنى إلاّ أن أقضى بما

(١) بياض بالأصل المخطوط.

يحضرنى من البينة، وإن قضائى لا يحل لك حرامًا.

محمّد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا بشر ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له فمن قضيت له بشىء من حق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار».

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾: نزلت فى معاذ بن جبل وثعلبة بن غنمة الأنصاريين قالا: يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقًا مثل الخيط ثمّ يزيد حتى يمتلئ ويستوى ثمّ لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ لا يكون على حالة فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ يا محمّد ﴿عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ وهى جمع هلال مثل رداء وأردية واشتقاق الهلال من قولهم استهل الصبى إذا صرخ حين يولد.

وأهل القوم بالحج والعمرة إذا رفعوا أصواتهم بالتلبية.

قال الشاعر:

يهل بالفرقـــد ركبانها   كما يهل الراكب المعتمر

فسمّى هلالاً لأنه حين يرى يهل الناس بذكر الله ويذكره.

﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ﴾: وهو الزمان المحدود للشىء ﴿لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾: أخبر الله عن الحكمة فى زيادة القمر ونقصانه واختلاف أحواله، اعلم أنه فعل ذلك: ليعلم الناس أوقاتهم فى حجتهم وعمرتهم وحلّ ديونهم وَوعد حلفائهم وأجور أُجرائهم ومحيض الحائض ومدة الحامل ووقت الصوم والإفطار وغير ذلك، فلذلك خالف بينه وبين الشمس التى هى دائمة على حالة واحدة.

﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾: قال المفسرون: كان الناس فى الجاهلية وفى أول الإسلام إذا أحرم الرجل منهم بالحج أو العمرة لم يدخل حائطًا ولا بيتًا ولا داراً من بابه فإن كان من أهل المدن نقب نقبًا فى ظهر بيته منه يدخل ويخرج، أو يتخذ سلمًا فيصعد منه وإن كان من أهل الوبر خرج منْ خلف الخيمة والفسطاط ولا يدخل من الباب ولا يخرج منه حتى يحل من إحرامه، ويرون ذلك براً إلاّ أن يكون من الحمس وهم قريش وكنانة وخزاعة وثقيف وجشم وبنو عامر بن صعصعة وبنو النضر بن معاوية، سمّوا حمسًا لتشددهم فى دينهم والحماسة: الشدة والصلابة قالوا: فدخل رسول الله ﷺ ذات يوم بيتًا لبعض الأنصار فدخل من الأنصار رجل يقال له زعامة بن أيوب، وقال الكلبى: قطبة بن عامر بن حذيفة أحد بنى سلمة فدخل على أثره من الباب وهو محرم فأنكروا عليه، فقال له رسول الله ﷺ: لِمَ دخلت من الباب وأنت محرم؟

قال: رأيتك دخلت فدخلت على أثرك، فقال رسول الله ﷺ: إلىَّ أحمس، قال الرجل: إن كنت أحمس: فإنّ أحمس ديننا واحد، رضيت بهديك وهمتك ودينك، فأنزل الله هذه الآية.

الزهرى: كان ناس من الأنصار إذا أهلّوا بالعمرة لم يحل بينهم وبين السماء شىء ويتحرجون من ذلك وكان الرجل يخرج مهلاً بالعمرة فتبدوا له الحاجة بعدما يخرج من بيته فيرجع ولا يدخل من باب الحجرة من أجل سقف الباب أن يحول بينه وبين السماء فيفتح الجدار من ثمّ يقوم فى حجرته فيأمر بحاجته فيخرج إليه من بيته، حتى بلغنا أن رسول الله ﷺ أهلَّ زمن الحديبية بالعمرة فدخل حجرة ودخل رجل على أثره من الأنصار من بنى سلمة، فقال له النبى ﷺ: لمَ فعلت ذلك؟

قال: لأنى رأيتك دخلت، فقال: لأنى أحمس. قال الزهرى: وكانت الحمس لا يبالون بذلك.

فقال الأنصارى: وأنا أحمس. يقول: وأنا على دينك فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾.

قرأ حمزة والكسائى وعاصم فى رواية أبى بكر ونافع برواية (تأتوا البيوت) بكسر الباء فى جميع القرآن لمكان الياء.

وقرأ الباقون: بالضم على الأصل.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾: أى برّ من اتقى كقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ (البقرة: ١٧٧) وقد مرَّ ذكره ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ فى حال الإحرام ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.



﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: دين الله وطاعته ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾.

قال الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذه أول آية نزلت فى القتال فلما نزلت

كان رسول الله ﷺ يقاتل من يقاتله ويكف عمن كفَّ عنه حتى نزلت: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ (التوبة: ٥) فنسخت هذه الآية: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ أى لا تقتلوا النساء والصبيان والشيخ الكبير ولا من ألقى إليكم السلم وكف يده فإن فعلتم ذلك فقد اعتديتم وهو قول ابن عبّاس ومجاهد.

وقال يحيى بن عامر كتبت إلى عمر بن عبد العزيز أسأله عن قوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾. فكتب إلىَّ: إن ذلك فى النساء والذرية والرهبان ومن لم ينصب الحرب منهم.

وقال الحسن: لا تعتدوا أى لا تأتوا ما نهيتم عنه.

وقال بعضهم: الاعتداء ترك قتالهم.

علقمة بن مرثد عن سليمان بن يزيد عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش أوصى فى خاصة نفسه بتقوى الله وممن معه من المسلمين خيراً وقال: «اغزوا باسم الله، وفى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلّوا ولا تغدروا ولا تقتلوا وليداً».

وعن عطاء بن أبى رباح قال: لما استعمل أبو بكر يزيد بن أبى سفيان على الشام خرج معه يشيعهُ أبو بكر ماشيًا وهو راكب فقال له يزيد: يا خليفة رسول الله ﷺ إما أن تركب وإما أن أنزل، فقال أبو بكر: ما أنت بنازل ولا أنا براكب إنى أحتسب خطاى هذه فى سبيل الله، إنى أوصيك وصية إن أَنت حفظتها ستمر على قوم قد حبسوا أنفسهم فى الصوامع زعموا لله فزعهم وما حبسوا له أنفسهم، وستمر على قوم قد فحصوا عن أوساط رءوسهم وتركوا من شعورهم أمثال العصائب، فاضرب ما فحصوا منه بالسيف.

ثمّ قال: «لا تقتلوا امرأة ولا صبيًا ولا شيخًا فانيًا ولا تعقروا شجراً مثمراً ولا تغرقوا نخلاً ولا تحرقوه ولا تذبحوا بقرة ولا شاة إلاّ لمأكل ولا تخربوا عامراً».

الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية فى صلح الحديبية وذلك أن رسول الله ﷺ لما خرج هو وأصحابه فى العام الذى أرادوا فيه العمرة وكانوا ألفًا وأربعمائة فساروا حتى نزلوا الحديبية فصدهم المشركون عن البيت الحرام فنحروا الهدى بالحديبية ثمّ صالحه المشركون على أن يرجع عامه ذلك على أن يخلى له بكل عام قابل ثلاثة أيام فيطوف بالبيت ويفعل ما يشاء، فصالحهم رسول الله ﷺ ثمّ رجع من فوره ذلك إلى المدينة فلما كان العام المقبل تجهز رسول الله ﷺ وأصحابه لعمرة القضاء وخافوا أن لا يفى لهم قريش وأن يصدوهم عن المسجد الحرام ويقاتلوهم، وكره رسول الله ﷺ وأصحابه قتالهم فى الشهر الحرام فى الحرم فأنزل الله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ محرمين ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾: يعنى قريشًا

﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾: ولا تظلموا فتبدءوا فى الحرم بالقتال محرمين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾: ثمّ قال: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ وجدتموهم وأصل يثقف يحذق والبصر بالأمر، يقال: رجل ثقف لقف إذا كان حاذقًا فى الحرب بصيراً بمواضعها جيد الحذر فيه، فمعنى الآية: واقتلوهم حيث أبصرتم مقابلتهم وتمكنتم من قتلهم.

﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾: يعنى مكة ﴿وَٱلْفِتْنَةُ﴾: يعنى الشرك ﴿أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾: يعنى وشركهم بالله عزّ وجلّ أعظم من قتلكم إياهم فى الحرم والحرم الإحرام، قاله عامّة المفسّرين.

وقال الكسائى: الفتنة هاهنا العذاب وكانوا يعذبون من أسلم.

﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾.

قرأ عيسى بن عمر وطلحة بن مطرف ويحيى بن رثاب والأعمش وحمزة والكسائى: ﴿يُقَٰتِلُوكُمْ﴾: بغير ألف من القتل على معنى لا تقتلوا بعضهم.

تقول العرب: قتلنا بنى فلان وإنّما قتلوا بعضهم، لفظه عام ومعناه خاص.

وقرأ الباقون: كلها بالألف من القتال، واختلفوا فى حكم هذه الآيات.

فقال قوم: هى منسوخة ونهوا عن الابتداء بالقتال، ثمّ نسخ ذلك بقوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ هذا قول قتادة والربيع.

مقاتل بن حيان: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أى حيث أدركتم فى الحل والحرم، لما نزلت هذه الآية نسخها قوله: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ ثمّ نسختها آية السيف فى براءة فهى ناسخة ومنسوخة.

وقال آخرون: هذه الآية محكمة ولا يجوز الابتداء بالقتال فى الحرم، وهو قول مجاهد وأكثر المفسرين.

﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ﴾: عن القتال والكفر ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما سلف ﴿رَّحِيمٌ﴾ بعباده، نظيرها فى الأنفال ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ﴾ يعنى المشركين ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ شرك يعنى قاتلوهم حتّى يسلموا فليس يقبل من المشرك الوثنى جزية ولا يرضى منه إلاّ بالإسلام وليسوا كأهل الكتاب بالذين يؤخذ منهم الجزية والحكمة فيه على ما قال المفضل بن سلمة أن مع أهل الكتاب كتبًا منزلة فيها الحقّ وإن كانوا قد حرفوها فأمهلهم الله تعالى بحرمة تلك الكتب من القتل وإيواء صغارهم بالجزية، ولينظروا فى كتبهم ويتدبروها فيقفوا على الحق منها ويمنعوه كفعل مؤمنى أهل الكتاب ولم يكن لأهل الأوثان من يرشدهم إلى الحق وكان إمهالهم

زائدًا في إشراكهم فإنّ الله تعالى لن يرضى منهم إلاّ بالإسلام أو القتل عليه.

﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ﴾: الإسلام ﴿لِلَّهِ﴾: وحده فلا يعبد دونه شيء، قال المقداد بن الأسود: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلاّ أدخله الله عز وجلّ كلمة الإسلام، إما بعزّ عزيز أو بذل ذليل، إما أن يعزهم فيجعلهم الله من أهله فيعزوا به، وإما أن يذلهم فيدينون لها».

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾: عن الكفر والقتال ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ﴾: فلا سبيل ولا حجة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قال ابن عباس: يدل عليه قوله عز وجل: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ﴾ (القصص:٢٨) أي فلا سبيل عليَّ وقال أهل المعاني: العدوان الظلم، دليله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ (المائدة:٢) ولم يرد الله تعالى بهذا أمرًا بالظلم أو إباحة له وإنما حمله على اللفظ الأوّل على ظهر المجادلة فسمى الجزاء على الفعل فعلاً كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ﴾ (الشورى:٤٠) وقوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ﴾(البقرة:١٩٤).

وقال عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

قتادة وعكرمة: في هذه الآية، الظالم الذي يأبى أن يقول لا إله إلا الله، وإنّما سمى الكافر ظالمًا، لوضعه العبادة في غير موضعها.



﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا

فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ : نزلت فى عمرة القضاء وذلك أن رسول الله ﷺ صالح أهل مكة عام الحديبية على أن ينصرف عامه ذلك ويرجع العام القابل على أن يخلوا له مكة ثلاثة أيام فيدخلها هو وأصحابه ويعمرون ويطوفون بالبيت ويفعلون ما أحبوا، على أن لا يدخلوها إلاّ بسلاح الراكب فى عمرة ولا يخرجوا بأحد معهم من أهل مكة، فانصرف رسول الله ﷺ ذلك العام ورجع العام القابل فى ذى القعدة ودخلوا مكة واعتمروا وطافوا ونحروا وقاموا ثلاثة أيام فأنزل الله: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ﴾ ذو القعدة الذى دخلتم فيه مكّة واعتمرتم وقضيتم مناسككم وطوافكم فى سنة سبع: ﴿بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ ذى القعدة الذى صددتم فيه عن البيت ومنعتم من مرادكم فى سنة ست.

والشهر مرفوع بالابتداء وخبره فى قوله: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ﴾ ﴿وَالْحُرُمَاتُ﴾ جمع الحرمة كالظلمات جمع الظلمة والحجرات جمع الحجرة والحرمة ما يجب حفظه وترك انتهاكه وإنما جمع الحرمات لأنه أراد الشهر الحرام والبلد الحرام وحرمة الإحرام ﴿قِصَاصٌ﴾ والقصاص المساواة والمماثلة: وهو أن يفعل بالفاعل كما فعل ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ قاتلوه ﴿بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ فسمى الجزاء باسم الابتداء على مقابلة الشرط ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ۝ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ الآية، اعلم أن التهلكة: مصدر بمعنى الإهلاك وهو تفعلة من الهلاك.

قال الثعلبى: وسمعت أبا القاسم الحبيبى يقول: سمعت أبا حامد الخازرنجى يقول: لا أعلم فى كلام العرب مصدراً على تفعلة بضم العين إلاّ هذا.

وقال بعضهم: التهلكة كل شىء تصير عاقبته إلى الهلاك.

ومعنى قوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ﴾ لا تأخذوا فى ذلك.

ويقال: لكل من بدأ بعمل: قد ألقى يديه فيه.

قال لبيد يذكر الشمس:

حتى إذا ألقت يداً فى كافر وأجن عورات الثغور ظلامها

أى بدأت فى المغيب.

قال المبرد: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ﴾ أراد أنفسكم فعبّر بالبعض عن الكلّ كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ

بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ (الحج: ١٠)﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ (الشورى: ٣٠) والباء في قوله بأيديكم زائدة كقوله: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ (المؤمنون: ٢٠) قال الشاعر:

ولقد ملأت على نصيب جلده　　　مساءة إن الصـــديق يعاتب

يريد ملأت جلده مساءة.

قالوا: والعرب لا تقول للإنسان ألقى بيده إلاّ في الشر.

واختلف العلماء في تأويل هذه الآية.

فقال بعضهم: هذا في البخل وترك النفقة، يقول: وأنفقوا في سبيل الله ولا تمسكوا الإنفاق في سبيل الله فإن الإمساك عند الإنفاق في سبيل الله هو الهلاك وهو قول حذيفة والحسن وقتادة وعكرمة والضحاك وابن كيسان.

قال ابن عبّاس: في هذه الآية: أنفق في سبيل الله وإن لم تكن لك إلاّ سهم أو مشقص ولا يقولن أحدكم إني لا أجد شيئًا.

وقال السّدي: فبما أنفق في سبيل الله ولو بمثقال. ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ لا تقل ليس عندي شيء.

مجاهد: لا تمنعكم نفقة في حق خيفة العيلة.

الحسن: إنّهم كانوا يسافرون ويغزون ولا ينفقون من أموالهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عبّاس: أن رسول الله ﷺ لما أمر الناس بالجهاز إلى الحج، وقيل: إلى العمرة عام الحديبية، وكان إذا أراد سفراً نادى مناديه فيعلمهم فيعدّوا أهبة السفر، فلمّا أمرهم بالتجهيز قام إليه الناس من أعراب حاضري المدينة فقالوا: يا رسول الله بماذا نتجهز فوالله لا من زاد ولا مال نتجهز به ولا يطعمنا أحد، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال سعيد بن المسيب ومقاتل بن حيان: لما أمر الله بالإنفاق قال رجال: أمرنا بالنفقة في سبيل الله فإن أنفقنا أموالنا بقينا فقراء ذوي مسكنة، فقال الله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ يعني أنفقوا ولا تخشوا العيلة فإني رازقكم ومخلف عليكم.

الخليل بن عبد الله عن علي وأبي الدرداء وأبي هريرة وأبي أمامة الباهلي وعبد الله بن عمرو وجابر وعمران بن حصين كلهم يحدثون عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «من أرسل نفقة في سبيل الله وأقام في بيته فله بكل درهم سبعمائة درهم، ومن غزا بنفسه في سبيل الله وأنفق في وجهه ذلك فله بكل درهم يوم القيامة سبعمائة ألف درهم». ثمّ تلا هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ (البقرة: ٢٦١).

وروى النضر بن عزيز عن عكرمة: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ قال: لا تتيمموا الخبيث منه: تُنفقون.

قال زيد بن أسلم: إن رجالاً كانوا يخرجون فى بعوث بعثها رسول الله ﷺ بغير نفقة فإما أن يقطع بهم، وإما كانوا عيالاً فأمرهم الله بالإنفاق على أنفسهم فى سبيل الله، وإذا لم يكن عندك ما ينفق فلا تخرج بنفسك بغير نفقة ولا قوّة فتلقى بيديك إلى التهلكة، والتهلكة: أن يهلك من الجوع أو من العطش ثمّ قال لمن بيده ويبخل ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وقال محمد بن كعب القرظى: كان القوم يكونون فى سبيل الله فيتزود الرجل فيكون أفضل زاداً من الآخر فينفق النّاس من زاده حتى لا يبقى منه شيء يحب أن يواسى صاحبه، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال بعضهم: هذه الآية نزلت فى ترك الجهاد.

زيد بن أبى حبيب عن أسلم بن عمران قال: غزونا القسطنطينية، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر صاحب رسول الله، وعلى أهل الشام فضالة بن عبيد صاحب رسول الله ﷺ، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، قال: فوقفنا صفين لم أر قط أعرض ولا أطول منها والروم ملصقون ظهورهم بحائط المدينة قال: فحمل رجل منا على صف الروم حتى خرقه ثم خرج إلينا مقبلاً فصاح الناس وقالوا: سبحان الله ألقى بيده إلى التهلكة.

وقال أيوب الأنصارى: إنكم لتؤولون هذه الآية على هذا التأويل إن حمل رجل يقاتل يلتمس الشهادة أو بلى من نفسه، نحن أعلم بهذه الآية، إنها نزلت فينا معشر الأنصار، إنّا لما أعز الله دينه ونصر رسوله قلنا بيننا معاشر الأنصار سرّاً من رسول الله ﷺ، إنا قد تركنا أهلنا وأموالنا حتى فشا الإسلام ونصر الله عز وجل نبيه، وقد وضعت الحرب أوزارها فلو رجعنا إلى أهلنا وأولادنا وأقمنا فيها فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله تعالى فينا: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾.

والتهلكة: الإقامة فى الأهل والمال وترك الجهاد.

قال أبو عمران: فما زال أبو أيوب يجاهد فى سبيل الله حتّى دفن بالقسطنطينية.

وروى أبو الجوزاء عن ابن عباس قال: التهلكة عذاب الله عزّ وجلّ يقول: لا تتركوا الجهاد فتعذبوا دليله قوله ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (التوبة: ٣٩).

عن يزيد بن أبى أنيسة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من أصل الإيمان: الكف عمّن قال لا إله إلاّ الله لا تكفره بذنب ولا تخرجه من الإسلام بعمل، والجهاد ماضٍ منذ بعثنى

الله عزّ وجلّ إلى أن يقاتل آخر أمتى الدجال لا يبطله جور ولا عدل، والإيمان بالأقدار».

أبو صالح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق».

وقال أبو هريرة وأبو سفيان: هو الرجل يستقبل بين الصفين فيحمل على القوم وحده.

وقال محمد بن سيرين وعبيد السلماني: الإلقاء فى التهلكة هو القنوط من رحمة الله.

قال أبو قلابة: هو الرجل يصيب الذنب فيقول قد هلكت ليست لى توبة فييأس من رحمة الله وينهمك فى المعاصى فنهاهم الله عن ذلك.

قال يمان بن رئاب والمفضل بن سلمة الرجل ألقى بيديه إذا استسلم للهلاك ويئس من النجاة.

عن شعبة عن أبى إسحاق عن أبيه فى هذه الآية: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ قيل له: أهو الرجل يحمل على الكتيبة وهم ألف بالسيف؟

قال: لا ولكنه الرجل يصيب الذنب فيلقى بيديه ويقول لا توبة لى.

هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: جاء حبيب بن الحارث إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنى رجل معراض الذنوب. قال: «فتب إلى الله يا حبيب» قال: يا رسول الله إنى أتوب ثم أعود. قال: «فكلما أذنبت فتب» قال: إذًا يا رسول الله تكثر ذنوبى.

قال: «عفو الله أكثر من ذنوبك يا حبيب بن الحارث».

فقال فضيل بن عياض: فى هذه الآية ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ بإساءة الظن بالله وأحسنوا الظن بالله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الظن به.

وعن محمد بن إبراهيم الكاتب قال: دخلنا على أبى نواس الحسن بن هانئ نعوده فى مرضه الذى مات فيه ومعنا صالح بن على الهاشمى فقال له صالح: تب إلى الله يا أبا على فإنك فى أول يوم من أيام الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا وبينك وبين الله هناة، فقال: أسندونى، إياى تخوف بالله، فقد حدثنى حماد بن سلمة عن يزيد الرقاشى عن أنس عن النبى ﷺ قال: «إنما جعلت شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى أترانى لا أكون منهم».

وحدثنا حماد عن ثابت عن أنس أن النبى ﷺ قال: «يخرج رجلان من النّار فيعرضان على الله عز وجل ثم يؤمر بهما إلى النار فيلتفت أحدهما فيقول: أى ربّ ما كان هذا رجائى، قال الله وما كان رجاؤك؟ قال: كان رجائى إذا أخرجتنى منها لا تعيدنى إليها، فيرحمه الله عزّ وجل فيدخله الجنة».

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ .

قرأ ابن أبى إسحاق: (الحج) بكسر الحاء فى جميع القرآن وهى لغة تميم وقيس بن غيلان.

وذكر عن طلحة بن مصرف: بالكسر ههنا. وفى سورة آل عمران، وبالفتح فى سائر القرآن.

وقرأ أبو جعفر والأعمش وحمزة والكسائى وعاصم، برواية حفص: بالكسر فى آل عمران وبالفتح فى سائر القرآن.

وقرأ الباقون: بالفتح كل القرآن وهى لغة أهل الحجاز. قال الكسائى: هما لغتان ليس بينهما فى المعنى شىء مثل رَطل ورِطل . . .[1] بنصب وكسر.

وقال أبو معاذ: (الحج) بالفتح مصدر والحج بالكسر الاسم مثل قَسم وقِسم وشَرب وشِرب وسَقى وسِقى وفى مصحف عبد الله ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ بالبيت.

وقرأ علَقمة وإبراهيم: وأتيموا الحج والعمرة.

واختلف المفسرون فى إتمامهما.

فقال بعضهم: معنى ذلك وأتموا الحج والعمرة بمناسكهما وحدودهما وسنتهما وهو قول ابن عباس وعلقمة وإبراهيم ومجاهد.

وروى على بن أبى طلحة عن ابن عبّاس فى هذه الآية قال: من أحرم بحج أو عمرة ليس له أن يحل حتّى يتمها، وتمام الحج يوم النحر إذا رمى جمرة العقبة فطاف بالبيت وقد حل من إحرامه كلّه بتمام العمرة، إذا طاف بالبيت وبالصفا والمروة فقد حلّ، وفرائض الحج أربعة: الإحرام، والوقوف بعرفة، وطواف الإفاضة، والطواف والسعى بين الصفا والمروة، وأعمال العمرة كلها أربعة: فرض الإحرام، والطواف، والسعى، والحلق أو التقصير، وأقله ثلاث شعرات.

روى سعيد بن جبير وطاوس: تمام الحج والعمرة أن يحرم بهما مفردين . . . .

وروى شعبة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن سلمة قال جاء رجل إلى على فقال: أرأيت قول الله عزّ وجلّ ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ قال: أن تحرم من دويرة أهلك.

قال قتادة إتمام العمرة أن يعتمر فى غير أشهر الحج، وما كان فى أشهر الحج ثمّ أقام حتى يحج فهى متعة، وعليه فيها الهدى إن وجد، أو الصيام، وتمام الحج أن يأتى بمناسكه كلها حتى لا يلزم عامله دم بسبب قران ولا متعة.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «عمرة فى رمضان تعدل حجة».

وقال الضحاك: تمامها أن يكون النفقة حلالاً وينتهى عما نهى الله عنه.

وقال سفيان: تمامها أن يخرج من بلده لهما لا يريد غيرهما ولا يخرج لتجارة ولا لحاجة حتى إذا كنت قريبًا من مكّة قلت: لو حججت أو اعتمرت، وذلك يجزئ ولكن التمام أن يخرج له ولا يخرج لغيره.

وروى جعفر بن سليمان البيعى عن ثابت عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتى على الناس زمان يحج أغنياء الناس للنزهة، وسائلهم للتجارة وقرّاؤهم للرياء والسمعة وفقراؤهم للمسألة».

وفى هذا المعنى كان يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه: الوفَّاد كثير والحجاج قليل.

❖ **حكم الآية:**

اختلف الفقهاء فى العمرة، فقال قوم: هى سنّة حسنة وليست بفريضة واجبة وهو مذهب أحمد ومالك بن أنس وأبى ثور وقول الشافعي فى القديم وهو اختيار جرير بن محمد الطبرى، واحتجوا بقراءة الشعبى ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ لله رفعًا.

وبما روى محمد بن المنكدر عن جابر عن النبى ﷺ أنه سأل عن العمرة أواجبة هى أم لا؟ وأن تعتمروا خيرٌ لكم؟ وفى مهاجر الحج فريضة والعمرة تطوع قالوا أيضًا لما ذكر الله فرض الحج لم يذكر معه العمرة، وقال عزّ من قائل: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ (آل عمران: ٩٧).

وقال الآخرون: إن العمرة فريضة وهى الحج الأصغر، وهو قول على وابن عباس وزيد بن ثابت وعلى بن الحسين وعطاء وقتادة وسفيان الثورى وسفيان بن عيينة وقول الشافعى فى الجديد والأصح من مذهبه واختيار أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، واحتجوا فى ذلك بقراءة العامة والعمرة، نصبًا على معنًى وأتموا فرض الحج والعمرة.

وبما روى عن النبى ﷺ أنّه قال: «دخلت العمرة فى الحج إلى يوم القيامة».

وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: والله إن العمرة لفريضة الحج، فى كتاب الله ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وقال ابن عمر: ليس من خلق الله أحد إلاّ وعليه حجة وعمرة واجبتان إن استطاع إلى ذلك سبيلاً، كما قال الله تعالى. فمن زاد بعد ذلك فهو خير وتطوع.

وقال مسروق: أمرنا فى كتاب الله بأربعة: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والحجّ والعمرة فنزلت العمرة من الحج منزلة الزكاة من الصلاة، ثم تلا هذه الآية ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾.

وقال عبد الملك بن سليمان : سأل رجل سعيد بن جبير عن النبى ﷺ أن العمرة فريضة هى أم تطوع؟ فقال : فريضة ، قال : فإن الشعبى يقول هى تطوع ، قال : كذب الشعبى ، ثمّ قرأ ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ ، فمن قال : إن العمرة ليست بفرض يؤول الآية على معنى : أتموها إذا دخلتم فيها ولم يرد ابتداء الدخول فيه فرضًا عليه ، وذلك كالمتطوع بالحج لا خلاف فيه إذا أحرم أن عليه المضى فيه وإتمامه فإن لم يكن فرضًا عليه ابتدأ الدخول فيه وكذلك العمرة .

ومثله روى ابن وهب عن زيد قال : ليست العمرة واجبة على أحد من الناس . قال : فقلت له : قول الله ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ قال : ليس من الخلق أحد ينبغى له إذا شرع فى أمر إلا أن يتمه وإذا خرج فيها لم ينبغ له أن يحل يومًا ثمّ يرجع كما لو صام يومًا لم ينبغ له أن يفطر فى نصف النهار ، ودليل هذا التأويل قوله : ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ (التوبة : ٤) لم يرد به الابتداء وإنما أراد به إتمام ما مضى من العهد والعقد ، ومن أوجب العمرة تأول الإتمام على معنى الابتداء والإلزام أى أقيموها وافعلوها يدل عليه قوله عز وجل : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ (البقرة : ١٢٤) أى فعلهن وقام بهن ، وقوله : ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ (البقرة : ١٨٧) أى ثمّ ابتدءوا الصيام وأتموه لأنه ذكره عقيب الأكل والشرب والصبح ، وهذا هو الأصح والأوضح لأنه جمع بين الاثنين ، وحمل الآية على عمومها فمعناه ابتدءوا العمرة فإذا دخلتم فيها فأتموها ، فيكون جامع بين وجهى الإتمام ، ولأن من أوجبها أكثر ، والأخبار فى إيجاب الحج والعمرة مقترنين أظهر وأشهر .

عن أبى رزين العقيلى أنّه قال : يا رسول الله إن أبى شيخ كبير لا يستطيع الحجّ والعمرة ولا الطعن ، قال : «حجّ عن أبيك واعتمر» .

وقال أبو المشفق : لقيت النبى ﷺ بعرفة فدنوت منه حتى اختلفت عنق راحلتى وعنق راحلته فقلت : يا رسول الله أنبئنى بعمل ينجينى من عذاب الله ويدخلنى الجنّة؟ قال : «اعبد الله ولا تشرك به شيئًا وأقم الصلاة المكتوبة وأدّ الزكاة المفروضة وحجّ واعتمر وصم رمضان وانظر ما تحب من الناس أن يأتوه إليك فافعله بهم وما تكره من الناس أن يأتوه إليك فذرهم منه» .

عاصم عن شقيق عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «تابعوا بين الحج والعمرة فإنّهما لينفيان الفقر والفاقة والذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة ليس للحجّ المبرور ثواب دون الجنة» .

❖ **فى إفراد الحج:**

عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة أن رسول الله ﷺ أفرد الحج .

إبراهيم عن الأسود عن عائشة قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ لا نرى إلاّ الحج.

حماد عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت خرجنا مع رسول الله ﷺ موافين هلال ذى الحجة فقال رسول الله ﷺ: «من شاء أن يهل بالحج فليهل ومن شاء أن يهل بعمرة فليهل بعمرة والإفراد أن يحرم بالحج من الميقات ويفرغ منه ثمّ يحرم بالعمرة من مكّة» وهو اختيار الشافعى وأصحابه.

❖ فى القران:

عبد العزيز بن صهيب وحميد الطويل ويحيى بن إسحاق كلهم عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لبيك عمرةً وحجًا لبيك عمرةً وحجًا». حميد بن هلال قال: سمعت مطرفًا يقول: قال لى عمران بن الحصين: جمع رسول الله ﷺ بين حجة وعمرة ثم توفى قبل أن ينهى عنهما وقبل أن ينزل القرآن بتحريمه.

وعن أبى وائل قال: قال قيس بن معبد: كنت أعرابيًا نصرانيًا فأسلمت فكنت حريصًا على الجهاد فوجدت الحج والعمرة مكتوبين علىَّ فأتيت رجلاً من عشيرتى يقال له، هريم بن عبد الله فسألته فقال: اجمعهما ثم اذبح ما استيسر من الهدى، فأهللت بهما، ثم أتيت العذيب فيلقينى سليمان بن ربيعة وزيد بن صوحان وأنا أهل بهما، فقال أحدهما للآخر: ما هذا بأفقه من بعيره، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت: يا أمير المؤمنين إنى أسلمت وأنا حريص على الجهاد وإنى وجدت الحج والعمرة مكتوبين علىَّ فأتيت هريم بن عبد الله، فقال: اجمعهما ثم اذبح ما استيسر من الهدى، وأهللت بهما، فلما أتيت العذيب لقينى سليمان بن ربيعة وزيد فقال أحدهما للآخر: ما هذا بأفقه من بعيره فقال عمر: هديت سنة نبيك ﷺ.

على بن الحسن عن عثمان بن الحكم أن عثمان نهى عن المتعة وأن يجمع الحج والعمرة.

فقال على: لبيك بحج وعمرة معًا، وقال عثمان: أتفعلها وأنا أنهى عنها؟ فقال على: لم أكن لأدع سنة رسول الله ﷺ لأحد من الناس.

والقرآن لم يحرم الحج والعمرة معًا من الميقات، وهو اختيار أبى حنيفة وأصحابه.

﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾. واختلف العلماء فى معنى الإحصار الذى جعل الله على من ابتلى به فى حجته وعمرته ما استيسر من الهدى.

وقال قوم: هو كل مانع أو حابس منع المحرم وحبسه عن العمل الذى فرضه الله تعالى عليه فى إحرامه ووصوله إلى البيت الحرام أى شىء كان من مرض أو جرح أو كسر أو خوف أو عدو أو لدغ أو ذهاب نفقة أو ضلال راحلته أو غيرها من الأعذار، فإنه يقيم مكانه على

إحرامه ويبعث بهديه أو من الهدى فإذا نحر الهدى حل من إحرامه، هذا قول إبراهيم النخعى والحسن ومجاهد وعطاء وقتادة وعروة بن الزبير ومقاتل والكلبى ومذهب أهل العراق، واحتجوا فى أن الإحصار فى كلام العرب هو صنع العلة من المرض وأشباهه غير القهر والغلبة، فأما منع العدو بالحبس والقهر من سلطان قاهر فإن ذلك حصر لا إحصار، كذا قال الكسائى وأبو عبيدة والفراء قالوا: ما كان من مرض وذهاب نفقة قيل فيه حصر فهو محصر، وما كان من خشية عدو أو سجن قيل فيه حصر فهو محصور، يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ (الإسراء:٨) أى محبسًا، قالوا: وإنما جعلنا حبس العدو إحصارًا قياسًا على المرض، إذ كان فى حكمه فلا دلالة ظاهرة.

وقال الآخرون: بالأُخرى أن يمنع عدو أو قاهر من بنى آدم من الوصول إلى البيت، وأما المرض وسائر الأعذار فغير داخل فى هذه الآية.

هذا قول ابن عمر وابن عباس وعبد الله بن الزبير وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وشهر ابن حوشب ومذهب الشافعى وأهل المدينة فاحتجوا بأن نزول هذه الآية فى قصة الحديبية وذلك إحصار عدو، يدلّ عليه قوله فى سياق الآية ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ ولا يكون إلا من الخوف وفى الحديث: «لا حصر إلاّ من حبس عدو».

وقال ثعلب: تقول العرب حصرت الرجل عن حاجته فهو محصور، وأحصره العدو إذا منعه من السير فهو محصر، وذكر يونس عن أبى عمرو قال: إذا منعته من كل وجه فقد أحصرته.

قال الشافعى: فإذا أحصر بعدوّ كافر أو مسلم أو سلطان يحبسه فى سجن نحر هديًا لإحصاره حيث أحصر فى حلّ أو حرم وحلّ من إحرامه ولا شىء إلا أن يكون واجبًا فيقضى فإذا لم يجد هديًا يشتريه أو كان فقيرًا ففيه قولان أحدهما: لا حلّ إلاّ لهدى.

والآخر: حلّ إذا لم يقدر عليه وأتى به إذا قدر عليه.

وقال بعض الفقهاء إذا لم يعتبر إجزاؤه وعليه طعام أو صيام وكلما وجب على المحرم فى ماله من بدنه وجزاء وهدى وصدقة فلا يجزئ إلاّ فى الحرم لمساكين أهلها إلاّ فى موضعين أحدهما: دم المحصر فى العدو فإنه ينحر حيث حبس ويحل.

والآخر: من ساق هديًا لغرض فعطب فى طريقه فذبحه وخلى بينه وبين المساكين لم يجز له ولا لرؤسائه أن يأكلوا منه شيئًا وإن كانوا مساكين.

وإن كان ما ساقه لغرض مثل أن يكون قارنًا أو متمتعًا جاز له أن يأكل ويطعم غيره، فهذا

معنى الإحصار وحكمه، فأما المرض وما أشبهه فإن له أن يتداوى فيما لا بد منه ويفدى ثم يجعلها عمرة ويحج عام قابل ويهدى، وقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ﴾أى عليه ما تيسر، محله رفع، وإن شئت جعلت بها فى محل النصب أى قاهر، وأما ما استيسر من الهدى مثل جدية السرج ـ وجمعها جدى ـ قاله أبو عمرو. قال: لا أعلم فى الكلام ثالثهما.

وقرأ الأعرج: (الهدى) بكسر الدال وتشديد الياء فى جميع القرآن على معنى المفعول.

وروى عصمة عن عاصم: بتشديد الهدى فى محل الرفع والجر وتخفيفه فى حال النصب نحو قوله: ﴿هَدْيًا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ (المائدة: ٩٥) ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾ (المائدة: ٢) وهما جميعًا ما يهدى إلى بيوت الله سمى بذلك لأنه تقرب إلى الله بمنزلة الهدية يهديها الإنسان إلى غيره متقربًا بما بعث إليه.

واختلفوا فى تأويل قوله: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾. فقال على وابن عباس: شاة.

وقال ابن عمر: فما استيسر من الهدى: الإبل والبقر ناقة دون ناقة وبقرة دون بقرة سن دون سن وأنكر أن يكون الشاة من الهدى، وأقوى الأقوال بالصواب قول من قال إنه شاة، لأنه أقرب إلى التيسر، ولأن الله سمى الشاة هديًا فى قوله: ﴿هَدْيًا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ (المائدة: ٩٥) وفى الظبى شاة ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾، واختلفوا فى المحل الذى يحل المحصر بلوغ هديه إليه فقال بعضهم: هو ذبحه أو نحره بالموضع الذى يحصر فيه سواء كان فى الحل أو الحرم ومعنى محله: حين يحل ذبحه وأكله والانتفاع به كقوله ﷺ فى اللحم الذى تصدقت به عليه بريرة قال: «قربوه فقد بلغ محله» يعنى فقد بلغ محل طيبه وحلاله بالهدية إلينا بعد أن كانت صدقة على بريرة: وهذا على قول من جعل الإحصار إحصار العدو.

يدلّ عليه فعل النبى ﷺ وأصحابه بالحديبية حتّى صدروا عن البيت ونحروا هديهم بها والحديبية ليست من الحرم.

وروى الزهرى عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة فى قصة الحديبية قال: لما كتب رسول الله ﷺ كتاب القضية بينه وبين مشركى قريش عام الحديبية فقال لأصحابه: «قوموا فانحروا واحلقوا» قال: فوالله ما قام منهم أحد حتى قال ذلك ثلاث مرات فلما لم يقم أحد منهم قام فدخل على أم سلمة فذكر ذلك لها، فقالت أم سلمة: يا رسول الله اخرج ثمّ لا تكلم أحدًا منهم بكلمة حتّى تنحر بدنتك وتدعو حلاقك فتحلق فلم يتكلم حتّى فعل ذلك، فلما رأوا ذلك قاموا ونحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا حتّى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًا.

وقال بعضهم: محل هدى المحصر لا يحل له غيره فإن كان حاجًا فمحله يوم النحر وإن كان

معتمراً يوم مبلغ هديه الحرم .

روى إبراهيم الجعفى عن عبد الرحمن بن زيد قال : خرجنا مهلين بعمرة وفينا الأسود بن يزيد حتّى نزلنا ذات السقوف فلُدِغ صاحب لنا فشق ذلك عليه ولم يدر كيف يصنع ، فخرج بعضنا إلى الطريق يتشوف فإذا بركب فيهم عبد الله بن مسعود فسألوه عن ذلك فقال : ليبعث بهدى إلى مكة ، واجعلوا بينكم وبينه أمارة فإذا ذبح الهدى فليحل وعليه قضاء عمرته .

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾: معنى الآية ولا تحلقوا رءوسكم حال الإحرام إلاّ أن يضطر الرجل حلقه إما لمرض يحتاج إلى مداواته .

﴿أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾: من هوام وصداع فحلق أو فدى ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ﴾ نزلت هذه الآية فى كعب بن حجر قال : مرَّ بى رسول الله ﷺ زمن الحديبية ولى وفرة من شعر فيها القمل والصئبان وهو يتناثر على وجهى (وأنا أقبح) فدبر إلىَّ .

فقال رسول الله ﷺ : «أيؤذيك هوام رأسك؟ قلت : نعم يا رسول الله» .

قال : «فاحلق رأسك» فأنزل الله : ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ﴾ ثلاثة أيام .

﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾: على ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع ، ﴿أَوْ نُسُكٍ﴾: أو ذبيحة واحدها نسكة .

وقرأ الحسن : أو نسك تخفيفًا وهى لغة تميم .

قال العلماء : أعلاها بدنة وأوسطها بقرة وأدناها شاة وهو مخير بين هذه الثلاثة إن شاء فعل .

وقال أنس وعكرمة : ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ﴾ عشرة أيام ، ﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾: على عشرة مساكين لكل مسكين مدٌّ من بر أو مدٌّ من تمر أو نسك وهى الشاة والقول الأول هو الصحيح وهو المشهور وهذه الفريضة أن يأتى بها أجمعوا على أن يصوم حيث شاء من البلاد .

وأما النسك والطعام ، فقال بعضهم : يجب أن تكون مكّة .

وقال بعضهم : أى موضع شاء وهو الصواب لأنه أُبهم فى الآية ولم يخصّ مكانًا دون مكان .

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾: من خوفكم وبرأتم من مرضكم .

﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾: اختلفوا فى هذه المتعة .

فقال بعضهم : معناه فمن أحصر حتى (عام) الحجّ ثم قدم مكة فخرج من إحرامه بعمل

عمرة واستمتع بإحلاله ذلك، فيكمل العمرة إلى السنة المستقبلة ثم يحج ويهدى فيكون جميعًا بذلك الإحلال من الذى حل إلى إحرامه الثانى من القابل. وهذا قول عبد الله بن الزبير.

وقال بعضهم: معناه ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ وقد حللتم من إحرامكم بعد الإحصار ولم يقولوا عمرة يخرجون بها من إحرامكم لحجتكم ولئن حللتم حين أخبرتم بالهدى وأخرتم العمرة إلى السنة القابلة فاعتمرتم فى أشهر الحج حللتم فاستمتعتم بإحلالكم إلى حجكم فعليكم ما استيسر من الهدى، وهذا قول علقمة وإبراهيم وسعيد بن جبير.

وكذلك روى عبد الله بن سلمة عن على رضى الله عنه: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾ الآية فإن أخر العمرة حتى يجمعها مع الحج فعليه الهدى.

وقال السّدى: معناه فمن فسخ حجة بعمرة فجعله عمرة واستمتع بعمرته إلى حجة فعليه ما استيسر من الهدى.

وقال ابن عباس وعطاء وجماعة: هو الرجل يقدم معتمراً من أفق من الآفاق فى أشهر الحج فإذا قضى عمرته أقام حلالاً بمكة حتى حان وقت الحج فيحج من عامه ذلك فيكون مستمتعًا بالإحلال إلى إحرامه بالحج فمعنى التمتع بالإحلال بالعمرة فيقيم حلالاً فيفعل ما يفعل الحلال ثمّ يحج بعد إحلاله من العمرة من غير رجوع إلى الميقات ومعنى التمتع التلذذ وأصله من التزود، والمتاع الزاد ثم جعل كل تلذذ تمتعًا.

قال الفقهاء: فالتمتع الذى يجب عليه الهدى هو أن يجتمع فيه أربع شرائط وهى: أن يحرم فى أشهر الحج، ويحل من العمرة فى أشهر الحج، وأن يحرم بالحج من عامه ذلك من مكة ولا يرجع إلى الميقات، وزاد بعض أصحابنا: أن يكون من غير الحرم، فمن يحرم بشىء من هذه الشرائط سقط عنه الدم ولا يكون متمتعًا.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾: إلى أهلكم.

قال المفسرون: يصوم يومًا قبل التروية ويوم عرفة ولا تجاوز بآخرهن يوم عرفة.

وقال طاوس ومجاهد: إذا صامهنّ فى أشهر الحج أجزينّ.

﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾: ذكر الكمال على التأكيد.

كقول الأعشى:

ثلاث بالغداة فذاك حسبى ... وست حين يدركنى العشاء

فذلك تسعة فى اليوم ربى ... وشرب المرء فوق الرى داء

وقال الفرزدق:

ثلاث واثنتان وهى خمس وسادسة تميل إلى سهامى

وقال بعضهم: كاملة بالهدى، وقيل بالثواب، وقيل كاملة بشروطها وحدودها، وقيل: لفظه خبر وحكمه أمر، أى: فأكملوها ولا تنقصوها.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾: التمتع، ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾: أى كمن لم يكن من أهل الحرم.

عكرمة: هو ما دون المواقيت إلى مكّة.

وقال ابن جريج: حاضرى المسجد الحرام أهل عرفة والرجيع يضحيان ويهديان.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾: قال الفراء: تقديرها وقسط الحج أشهر معلومات، فهذا كما يقال: البرد شهران والحرّ شهران، أى وفيهما شهران، وسمعت الكسائى يقول: إنما الصيد شهران والطيلسان شهران وقت الصيد ووقت ليس الطيلسان.

وقال الزجاج: معناه أشهر الحج أشهر معلومات وهو شوال وذو القعدة وتسع من ذى الحجة.

قال ابن عباس: جعلهن الله للحجّ، وسائر الشهور للعمرة فلا يصلح لأحد أن يحرم بالحج إلاّ فى أشهر الحج وأما العمرة فإنه يحرم بها فى كل شهر. فآخر هذه الأشهر يوم عرفة وقد جاء فى بعض الأخبار فى تفسير أشهر الحج وعشر من ذى الحجّة وفى بعضها تسع من ذى الحجّة فمن قال تسع فإنما عبر به عن الأيام لأن النبى ﷺ قال: «الحج عرفة» فمن وقف بعرفة فى يوم عرفة من ليل أو نهار فقد تم حجّه. ومن قال عشرة عبر به عن الليالى فمن لم يدركه إلى طلوع الفجر من يوم النحر، فقد فاته الحجّ والشهور وإنّما يؤرخ بالليالى.

وحكى الفراء: أن العرب تقول صمنا عشراً يذهبون بها إلى الليالى والصوم لا يكون إلاّ بالنهار فلا تضاد فى هذه الأخبار وإنّما قال أشهر وهى شهران وبعض الثالث، لأنها وقت والعرب تسمى الوقت بقليله وكثيره فيقولون: أتيتك يوم الخميس، وإنّما أتاه فى ساعة منه، ويقولون: اليوم يومان منذ لم أره، وإنّما هو يوم وبعض آخر ويقولون: زرتك العام.

وقال بعض أصحابنا: الاثنان فما فوقهما جماعة لأن الجمع ضم الشىء إلى شىء، قلنا: جاز أن يسمى الاثنان بانفرادهما جماعة وجاز أن يسمى الاثنان وبعض الثالث جماعة، وقد سمى الله الاثنين جمعًا فى قوله: ﴿صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ (التحريم: ٤) ولم يقل قلباكما.

وقال عروة بن الزبير وغيره: أراد بالأشهر شوالاً وذا القعدة وذا الحجة كاملا لأنه يبقى على

الحاج أمور بعد عرفة يجب عليه فعلها مثل الرمى والحلق والنحر والبيتوتة بمنى، فكأنها فى حكم الحج.

❖ حكم الآية:

فمن أحرم بالحجّ قبل أشهر الحج لم يجزه ذلك عن حجه ويكون ذلك عمرة، كمن دخل فى صلاة قبل وقتها فتكون نافلة، وهو قول عطاء وطاوس ومجاهد ومذهب الأوزاعى والشافعى.

وقال مالك والثورى وأبو حنيفة ومحمد: يكره له ذلك وإن فعل أجزأه، ودليل الشافعى وأصحابه قوله: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَـٰتٌ﴾ فخصّ هذه الأشهر بفرض الحج فيها فلو كان الإحرام بالحج فى غير هذه الأشهر منعقدًا جائزًا لما كان بهذا التخصيص فائدة مثل الصلوات علقها بمواقيت لم يجز تقديمها عليها.

﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾: أى فمن أوجب على نفسه فيهن الحجّ والإحرام والتلبية: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: الرفث الفسوق بالرفع والتنوين، وجدال بالنصب.

كقول أمية:

فلا لغو ولا تأثيم فيها وما قاموا به لهم مقيم

وقرأ أبو رجاء العطاردى، فلا رفث ولا فسوق نصبًا ولا جدال يرفع بالتنوين.

كقول الأخفش:

هذا وجدكم الصّغار بعينه لا أم لى إن كان ذاك ولا أب

وقرأ أبو جعفر: كلها بالرفع والتنوين: وقرأ الباقون: كلها بالنصب من غير تنوين.

والعرب تقول فى البرية هذان الوجهان ومن رفع بعضًا ونصب بعضًا كان جامعًا للوجهين.

وقرأ الأعمش: فلا رفوث على الجميع.

واختلف أهل التأويل فى تفسير الرفث.

فقال ابن مسعود وابن عبّاس وابن عمر والحسن وعمرو بن دينار وقتادة وإبراهيم والربيع والزهرى والسّدى وعطاء بن أبى رباح وعكرمة والضحاك: الرفث الجُماع.

وقال طاوس وأبو العالية: الرفث التعريض بالنساء بالجماع ويذكره بين . . .[1].

عطاء: الرفث قول الرجل للمرأة فى حال الإحرام إذا حللت أصبتك.

(١) بياض بالأصل المخطوط.

قال أبو حصين بن قيس: أصعدت ابن عباس فى الحاج وكنت له خليلاً فلما كان بعدما أحرمنا قال ابن عباس بذنب بعيره فجعل يلويه وهو يرتجز ويقول:

وهن يمشين بنا هميًا إن تصدق الطير ننك لميسنا

فقلت له: أترفث وأنت محرم؟

فقال: إنّما الرفث ما قيل عند النساء.

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: الرفث غشيان النساء القُبل، والغمز، وأن يعرض لها بالفحشاء من الكلام هو كذلك.

وقال بعضهم: الرفث الفحش وقول القبيح.

وأما الفسوق: فقال ابن عباس وطاوس والحسن وسعيد بن جبير وقتادة والربيع والزهرى والقرظى: الفسوق معاصى الله كلها.

الضحاك: هو التنابز بالألقاب، دليله قوله: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ﴾ (الحجرات: ١١).

ابن زيد: هو . . . .[1] بالأصنام، منع ذلك بالنبى ﷺ حين حج فعلم أمته المناسك دليله قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ (الأنعام: ١٢١) وقوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ (المائدة: ٣، النحل: ١١٥).

إبراهيم ومجاهد وعطاء: هو السباب. يدل عليه قول النبى ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر».

ابن عمر: هو ما نهى الله عنه المحرم فى حال الإحرام من قبيل الصيد وتقليم الأظفار وحلق الشعر وما أشبهه.

وأما الجدال: فقال ابن مسعود وابن عباس وعمرو بن محمد وسعيد بن جبير وعكرمة والزهرى وعطاء بن يسار ومعاذ بن أبى رباح وقتادة: الجدال أن تمارى صاحبك وتخاصمه حتى تقضيه.

ابن عمر: هو السبابة والمنازعة.

القرظى: كانت قريش إذا اجتمعت بمنى قال هؤلاء: حجّنا أتم من حجكم، فقال هؤلاء: حجّنا أتم من حجكم.

القاسم بن محمد: هو أن يقول بعضهم الحج اليوم، ويقول بعضهم الحج غداً.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

ابن زيد: كانوا يقفون مواقف مختلفة يتجادلون، كلهم يدعى أنه موقف إبراهيم عليه السلام، فقطعه الله حين علم نبيه ﷺ بمناسكه.

قال مقاتل: قال النبى ﷺ فى حجة الوداع: «من لم يكن معه هدى فليحل من إحرامه وليجعلها عمرة». فقالوا للنبى ﷺ: «إنا أهللنا بالحجّ، فذلك جدالهم».

مجاهد: معناه: ولا شك فى الحجّ أنه فى ذى الحجّة فأبطل النسىء واستقام الحج كما هو اليوم.

قال أهل المعانى: لفظه نفى ومعناه نهى أى لا ترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا، لقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (البقرة: ٢) أى لا ترتابوا فيه.

عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أُمه».

وعن وهيب بن الورد قال: كنت أطوف أنا وسفيان الثورى فانقلب سفيان وبقيت فى الطواف فدخلت الحجر فصليت عند الميزاب فبينما أنا ساجد إذ سمعت كلامًا بين أستار البيت والحجارة وهو يقول . . . .[1] إلى الله ثم إليك ما يفعل، ولا الطوافون من حولى من تفكههم فى الحديث ولغطهم وشوقهم. وقال وهيب: فأولت أن البيت يشكو إلى جبرائيل.

﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ : فيجازكم به.

﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ .

قال المفسرون: كان ناس من أهل اليمن يحجون بغير زاد ويقولون: نحن متوكلون، ويقولون: نحن نحج بيت الله أفلا يطعمنا . . . .[1] بدء بما ظلموا الناس وغصبوهم الله، فأمرهم الله أن يتزودوا ولا يظلموا وأن لا يكونوا وبالاً على الناس فقال: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ ويكفون به وجوههم.

قال المفسرون: الكعك والزيت والسويق والتمر ونحوها.

وروى نافع عن ابن عمر قال: كانوا إذا أحرموا ومعهم أزودة رموها واستبقوا زاد الآخرة، فأنزل الله﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾ نهاهم عن ذلك وأمر بالتحفظ للزاد، والزود لمن لم يتزود فأمرهم بالتقوى بكف الظلم قال: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ .

قال أهل الإشارة ذكرهم الله سفر الآخرة وحثهم على التزود بالدارين فإن التقوى زاد الآخرة.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

قال الشاعر:

الموت بحر طامح موجه تذهب فيه حيلة المسابح

قال آخر:

لا يصحب الإنسان فى قبره إلا التقى والعمل الصالح

قال الأعشى:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على ألاّ تكون كمثله وأنك لم ترصد كما كان أرصدا

قال مالك بن دينار: مات بعض قراء البصرة فمزحنا فى جنازة وانصرفنا، فصعد سعدون المجنون وتلا فى المقبرة ونادى المتصوفين فأنشأ يقول:

ألا يا عسكر الأحياء هذا عسكر الموتى أجابوا الدعوة الصغرى وهم منتظرو الكبرى
يحنون على الزاد وما الزاد سوى القرى يقولون لكم جهزوا فهذا غاية الدنيا

قال الله عز وجل: ﴿وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ ذوى العقول.



﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَـٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾: الآية قال المفسرون: كان ناس من العرب لا يتّجرون في أيام الحج فإذا دخل العشر كفوا عن الشراء والبيع فلم يقم لهم سوق وكانوا يسمون من يخرج إلى الحج ومعه تجارة: الداج، فأنزل الله تعالى هذه الآية وأباح التجارة في الحج.

فقال ابن عباس: كانت عكاظ ومجنة وذو الحجاز أسواقًا في الجاهلية كانوا يتجرون فيها في الموسم وكان أكثر معايشهم منها فلما جاء الإسلام كأنهم تأثموا منها فسألوا النبي ﷺ فأنزل الله هذه الآية.

وقال أبو أُمامة التيمي: قلت لابن عمر: إنّا قوم نكرى فيدعمون المؤمنين في الحج.

فقال: ألستم تحرمون كما يحرمون وتطوفون كما يطوفون وترمون الحجارة كما يرمون؟ قلت: بلى. قال: أنتم حاج، جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن الذي سألتني عنه فلم يدر ما يقول له حتى نزل جبرائيل بهذه الآية: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾ يعني التجارة وكان ابن عباس يقرأها: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾ في مواسم الحج.

الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم عرفة غفر الله للحاج به الخاص فإذا كان ليلة المزدلفة غفر الله للجار، وإذا كان يوم منى غفر الله للجمالين، وإذا كان عند جمرة العقبة (غفر الله للسؤال) ولا شهد ذلك الموقف خلق ممن قال لا إله إلا الله إلا غفر له».

﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم﴾: رجعتم ودعيتم بكرة.

يقال: أفاض القوم في الحديث إذا اندفعوا فيه وأكثروا التصرف.

قال الشاعر:

فلما أفضنا في الحديث وأسمحت … أتتنا عيون بالنميمة تضرب

وأصلها من قول العرب أفاض الرجل ماءه إذا صبه، وأفاض البعير تجرعه إذا رمى ودفع بها من كرشه.

قال الراعي:

فأفضن بعد كظومهن بجرة … من ذي الأبارق إذا رعين حقيلاً

ويقال: أفاض الرجل بالقداح إذا ضرب بها لأنها موضع بقع متفرقة.

قال أبو ذهيب:

يصف الحمار والأنف وأتته ربابة وكأنه … يسر يفيض على القداح ويصدع

ولا تكون الإفاضة فى اللغة إلا عن تفرق وكثرة قال عمر بن الخطاب: الإفاضة الانصداع.

﴿مِنْ عَرَفَـٰتٍ﴾: القراءة بالكسر والتنوين لأنه جمع عرفة مثل مسلمات ومؤمنات، فسميت بها بقعة واحدة مثل قولهم: أرض سباسب وثوب أخلاق يجمع بها حولها، فلما سميت بها البقعة الواحدة صرفت إذا كانت مصروفة قبل أن يسمى بها البقعة تركًا منهم لها على أصلها فإذا كانت فى الأصل بقعة واحدة ولم يكن جمعًا تركوا إجزاءها ونصبوا تاءها فى حال الخفض مثل عانات وأذرعات فرقًا بين الاسم وبين الجمع، واختلف العلماء فى المعنى الذى لأجله قيل للموقف عرفات وليوم الوقوف بها عرفة.

فقال الضحاك: إن آدم لما أُهبط وقع فى الهند وحواء بجدة فجعل آدم يطلب حواء وهى تطلبه فاجتمعا بعرفات يوم عرفة وتعارفا فسمى اليوم عرفة والموضع عرفات.

وأبو حمزة الثمالى عن السدى قال: إنها سميت عرفات لأن هاجر حملت إسماعيل عليه السلام فأخرجته من عند سارة وكان إبراهيم غائبًا فلما قدم لم ير إسماعيل فحدثته سارة بالذى صنعت هاجر فانطلق فى طلب إسماعيل فوجده مع هاجر بعرفات فعرفه فسميت عرفات.

وعن على بن الأشدق عن عبد الله بن حراد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم غدا من فلسطين فحلفت سارة أن لا ينزل عن ظهر دابته حتى يرجع إليها من الغيرة فأتى إسماعيل ثمّ رجع فحبسته سارة سنة ثم استأذنها فأذنت له فخرج حتى بلغ مكة وجبالها فبات ليلة يسير ويسعى حتى أذن الله عز وجل له فى ثلث الليل الأخير عند سند جبل عرفة، فلما أصبح عرف البلاد والطريق فجعل الله عز وجلّ عرفة حيث عرف فقال: اجعل بيتك أحبَّ بلادك إليك حتى يهوى الله قلوب المسلمين من كل فج عميق».

عبد الملك عن عطاء قال: إنما سميت عرفات لأن جبرائيل عليه السلام كان يُرى إبراهيم المناسك ويقول: عرفت ثم يريه فيقول: عرفت فسميت عرفات.

وروى سعيد بن المسيب عن على رضى الله عنه قال: بعث الله عزّ وجل جبرائيل إلى إبراهيم فحج به حتّى إذا جاء عرفات: قال: قد عرفت، وكان قد أتاها مرة قبل ذلك فسميت عرفات.

وروى أبو الطفيل عن ابن عباس قال: إنما سمى عرفة لأن جبرائيل عليه السلام أرى إبراهيم فيه بقاع مكة ومشاهدها وكان يقول يا إبراهيم هذا موضع كذا وهذا موضع كذا ويقول قد عرفت، قد عرفت.

وروى أسباط عن السّدى قال: لما أذن إبراهيم بالناس فأجابوه بالتلبية وأتاه من أتاه أمره الله أن يخرج إلى عرفات فنعتها له فلما خرج وبلغ الشجرة المستقبلة للشيطان فرماه بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة فطار فوقع على الجمرة الثانية فرماه وكبر فطار فوقع على الجمرة الثالثة فرماه وكبّر فلما رأى أنه لا يطيقه ذهب، فانطلق إبراهيم حتّى أتى ذا المجاز فلما نظر إليه لم يعرفه فجاز فكذلك سمى ذو المجاز فانطلق حتى وقف بعرفات، فلما نظر إليها عرفها بالنعت فقال: عرفت، فسمى عرفات بذلك وسمى ذلك اليوم عرفة لأن إبراهيم رأى ليلة التروية فى منامه أن يؤمر بذبح ابنه فلما أصبح يومه أجمع أى فكر أمن الله هذا الحكم أم من الشيطان وسمى اليوم من فكرته تروية ثم رأى ليلة عرفة ذلك ثانيًا فلما أصبح عرف أن ذلك من الله فسمى اليوم يوم عرفة.

وقال بعضهم: سميت بذلك لأن الناس يعترفون فى هذا اليوم على ذلك الموقف بالذنوب والأصل نسيان آدم عليه السلام لما أمر بالحج وقف بعرفات يوم عرفة قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ (الأعراف: ٢٣).

وقيل: هي مأخوذة من العرف، قال الله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ (محمد: ٦) أى طيبها، قالوا: فمنى موضع بمنى وفيه الدم أى يصب فلذلك سمى منى ففيه يكون الفروث والأنذار والدماء وليست بطيبة، وعرفات ليس فيها وهى طيبة فلذلك سميت عرفات ويوم الوقوف بها عرفة. وقيل: لأن الناس يتعارفون بها.

وقال بعضهم: أصل هذين الاسمين من الصبر، يقال: رجل عارف إذا كان صابرًا خاضعًا خاشعًا ويقال فى المثل: النفس عروف وما حمّلتها تتحمل.

قال الشاعر:

فصبرت عارفة لذلك حرة ترسو إذا نفس الجنان تطلع

أى نفسًا صابرة.

وقال ذو الرمة:

❖ عروف لما خطت عليه المقادر ❖

أى صبور على قضاء الله، فسميا بهذا الاسم لخضوع الحاج وتذللهم وصرفهم على الدعاء وأنواع البلاء واحتمالهم الشدائد والميقات لإقامة هذه العبادة.

﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾: بالتلبية والدعاء ﴿عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ وهو ما بين جبلى المزدلفة من مأزمى عرفة إلى محسّر، وليس مأزما عرفة من المشعر، وإنّما سمى مشعرًا من الشعار وهو

العلامة، لأنه معلم للحج، والصلاة والمقام والمبيت به والدعاء عنده من معالم الحج، والمبيت بالمشعر الحرام فرض واجب ومن تركه كان عليه شاة، والدليل عليه أن النبى ﷺ بات بها وقال انحروا عنى بمناسككم.

وقال المفضل: سمى مشعراً لأنها شعر المؤمنون أنه حرم كالبيت ومكة، أى اعلموا ذلك، وأصل الحرام المنع، قال الله تعالى . . . .[1] أى الممنوع من المكاسب والشىء المنهى عنه حرام لأنه منع من إتيانه.

وقال زهير:

وإن أتاه خليل يوم مسألة يقول ... لا غائب مـــا لى ولا حرام

أى ولا ممنوع، والمشعر الحرام من أن يفعل فيه ما حرم ولم يرض فى إتيانه، ويقال له المشعر الحرام والمزدلفة وقدم . . . .[1] بغيرهما والجميع، سمى بذلك لأنه يجمع فيها بين صلاتى العشاء، والإفاضة من عرفات بعد غروب الشمس وكان أهل الجاهلية يفيضون منهما قبل غروب الشمس ومن جمع بعد طلوعها، وكانوا يقولون: أشرق ثبير كيما نغير فأمر الله مخالفتهم فى الدفعتين جميعًا.

وروى أبو صالح عن ابن عباس أنه نظر إلى الناس ليلاً جمع فقال: لقد أدركت الناس هذه الليلة ما ينامون تأولوا قول الله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾.

﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾: لدينه ومناسك حجه ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾: يعنى وما كنتم من قبله إلا من الضالين كقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ (الأعراف:٦٦): يعنى وإن نظنك إلا من الكاذبين.

قال الشاعر:

ثكلتك أُمّك إن قتلت لمسلمًا ... حلت عليك عقوبة الرحمن

أى ما قتلت إلاّ مسلمًا.

والهاء فى قوله (من قبله) عائدة إلى الهدى، وإن شئت على الرسول ﷺ، كناية عن غير مذكور.

﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾الآية.

قال عامة المفسرين: كانت قريش وحلفاؤها ومن دان بدينها وهم الحمس لا يخرجون من الحرم إلى عرفات وكانوا يقفون بالمزدلفة ويقولون نحن أهل الله وقطان حرمه فلا يخلو الحرم

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

ولا نخرج منها، فلسنا كسائر الناس وكانوا يتعاظمون أن يقفوا مع سائر العرب بعرفات، ويقول بعضهم لبعض ألا تعظموا إلاّ الحرم فإنكم إن عظمتم غير الحرم تهاون الناس بحرمتكم فوقفوا الجميع فإذا أفاض الناس من عرفات أفاضوا من المشعر وهو المزدلفة وأمرهم الله أن يقفوا بعرفات ويفيضوا منها إلى جمع مع سائر الناس وأخبرهم أنها سنة إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل عليه السلام.

وقال بعضهم: المخاطبون بهذه الآية المسلمون كلهم والمعنى بقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ جمع أى أفيضوا من جمع إلى منى، وهذا القول أشبه بظاهر القرآن، لأن الإفاضة من عرفات قبل الإفاضة من جمع بلا شك فكيف يسوغ أن يقول: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ وأما الناس فى هذه الآية فهم العرب كلهم غير الحمس.

الكلبى بإسناده: هم أهل اليمن وربيعة.

الضحاك: الناس ههنا إبراهيم وحده، يدل عليه قوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ (النساء: ٥٤) يعنى محمّداً ﷺ وحده وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ (آل عمران: ١٧٣) يعنى نعيم بن مسعود الأشجعى ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ (آل عمران: ١٧٣) يعنى أبا سفيان وإنما يقال هذا للذى يقتدى به ويكون لسان قومه وإمامهم كقوله ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ (النحل: ١٢٠) فذكر الواحد بلفظ الجمع ومثله كثير وقيل: الناس ههنا آدم عليه السلام، دليله قول سعيد بن جبير: ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس، وقيل: هو آدم نسى ما عهد إليه والله أعلم.

الحكم بن عيينة عن مقسم عن ابن عباس قال: أفاض رسول الله ﷺ من عرفة وعليه السكينة والوقار ورديفه أمامه وقال: «أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البر ليس بإيجاف الخيل والإبل، قال: فما رأيتها رافعة يديها عادية ـ الخيل فالإبل ـ حتى أتى جمعًا».

وروى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: أمر رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضى الله عنه على الحجّ وأمره أن يخرج بالناس جميعًا إلى عرفات فيقف بها فإذا غربت الشمس أفاض بالناس منها حتى يأتى بهم جمعًا فيبيت بها حتى إذا أصبح بها وصلى الفجر ووقف الناس بالمشعر الحرام ثم يفيض منها إلى منى قال: فتوجه أبو بكر نحو عرفات فمر بالحمس وهم وقوف بجمع فلما ذهب يتجاوزهم قالت له الحمس: يا أبا بكر أين تُجاوزنا إلى غيرنا هذا مفيض آبائك فلا تذهب حتى تفيض أهل اليمن وربيعة من عرفات فمضى أبو بكر لأمر الله وأمر رسوله حتى أتى عرفات وبها أهل اليمن وربيعة وهم الناس فى هذه الآية فوقف بها حتى غربت الشمس، ثم أفاض بالناس إلى المشعر الحرام حتى وقف بها حتى إذا كان عند طلوع

الشمس أفاض منها.

﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

عن أبى رباح عن أبى صالح السمان عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «الحجاج والعمار وفد الله عزّ وجلّ إن دعوه أجابهم وإن استغفروه غفر لهم».

عن مجاهد أن النبى ﷺ قال: «اللهم اغفر للحاج ولمن استغفر له الحاج».

وعن على بن عبد العزيز يقول: كنت عديلاً لأبى عبيد بن سلام لسنة من السنين فلما صرت إلى الموقف تصدق إلى نفسى حب النخل فتطهرت ونسيت نفقتى عنده، فلما صرت إلى المارقين قال لى أبو عبيدة: لو اشتريت لنا زبداً وتمراً، فخرجت لأبتاعه فذكرت النفقة فرجعت عودى على بدئى إلى أن وافيت الموضع فإذا نفقتى بحالها فأخذتها ورجعت وكنت قد صادفت الوادى مملوءة قردةً وخنازير وغير ذلك فجزعت عنه، ثم إنى رجعت فإذا هم على حالهم حتى دخلت على أبى عبيدة قبيل الصبح فسألنى عن أمرى فخبرته وذكرت القردة، قال: تلك ذنوب بنى آدم تركوها وانصرفوا.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ﴾: فرغتم من حجكم وذبحتم مناسككم يقال منه نسك الرجل ينسك نَسكًا ونُسكًا ونسيكة ومنسكًا إذا ذبح نسكه، والمنسك المذبح مثل المشرق والمغرب، ويقال من العهد نسك ومنسك ومونسكًا ونسكًا ونساكه إذا . . . .[1] نظر، وأبو عمرو يدغم الكاف فى الكاف فيه وفى أخواته فى كل القرآن مثل قوله: ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾ (المدثر: ٤٢) لأنهما مثلان.

قال الشاعر:

ولا نشار لك عندى بعد واحدة   لا والذى أصبحت عندى له نعم

﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾.

قال أكثر المفسرين فى هذه الآية: كانت العرب إذا فرغوا من حجهم وقفوا عند البيت وذكروا مآثر آبائهم ومفاخرهم فكان الرجل يقول: إن أبى كان يُقرى الضيف ويضرب بالسيف ويُطعم الطعام وينحر الجزور ويفك العانى ويجز النواصى ويفعل كذا وكذا فيتفاخرون بذلك فأمرهم الله بذكره فقال: فاذكرونى فأنا الذى فعلت ذلك بكم وبآبائكم وأحسنت إليكم وإليهم.

قال السّدى: كانت العرب إذا قضيت مناسكها وأقاموا بمنى يقوم الرجل فيسأل الله ويقول اللّهم إن أبى كان عظيم الحجة عظيم القبة كثير المال فأعطنى كلما أعطيت أبى ليس يذكر الله

(١) بياض بالأصل المخطوط.

إنما يذكر ويسأل أن يعطى فى دنياه فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال ابن عباس وعطاء والربيع والضحاك: معناه فاذكروا الله كذكر الصبيان الصغار الآباء وهو قول الصبى أول ما يفصح ويفقه الكلام (أبه أمه) ثم يلهج بأبيه وأمه.

عن أبى الجوزاء قال: قلت لابن عباس أخبرنا عن قوله: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾ وقد يأتى على الرجل اليوم لا يذكر أباه فيه. فقال ابن عباس: ليس كذلك ولكن من يغضب الله إذا عصى بأشد من غضبك لوالديك إذا أهنتهما.

القرظى: فى قوله: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾ قال كذكركم آباءكم إياكم.

﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾: يعنى أشد وبل أشد كقوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (الصافات: ١٤٧) مقاتل: ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ أى أكثر ذكرًا كقوله ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ (البقرة: ٧٤) ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ (النساء: ٧٧) وأما وجه انتصاب (أشد)، فقال الأخفش: اذكروه أشد.

وقال الزجاج: فى محل الخفض لكنه لا ينصرف لأنه صفة على مفعال أفعل وصفته ذكرًا على التمييز.

﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾: أى أعطنا إبلاً وغنمًا وبقرًا وعبيدًا وإماءً فحذف المفعول.

قال أنس: كانوا يطوفون بالبيت عراة فيدعون ويقولون اللهم اسقنا المطر وأعطنا على عدونا الظفر وردنا صالحين إلى صالحين.

قتادة: هذا عبدٌ نوى الدنيا لها أنفق ولها عمل ولها قضت فهى همه وأمنيته وطلبته.

﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾: حظ ونصيب ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾: وهم النبى والمؤمنون.

واختلفوا فى معنى الحسنتين.

فقال على رضى الله عنه: فى الدنيا حسنة امرأة صالحة وفى الآخرة الحسنة الحور العين.

﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾: المرأة السوء.

قال الحسن: فى الدنيا حسنة: العلم والعبادة وفى الآخرة حسنة: الجنّة والرضوان.

السّدى وابن حيان: فى الدنيا حسنة رزقًا حلالاً واسعًا وعملاً صالحًا وفى الآخرة حسنة الثواب والمغفرة.

عطية: فى الدنيا حسنة العلم والعمل وفى الآخرة حسنة تيسير الحساب ودخول الجنة.

وقيل: فى الدنيا حسنة التوفيق والعصمة وفى الآخرة حسنة النجاة والرحمة. وقيل: فى

الدنيا حسنة أولادًا أبرارًا وفى الآخرة حسنة موافقة الأنبياء.

وقيل: فى الدنيا حسنة المال والنعمة وفى الآخرة حسنة تمام النعمة وهو الفوز والخلاص من النار ودخول الجنة.

وقيل: فى الدنيا حسنة الدين واليقين وفى الآخرة حسنة اللقاء والرضا.

وقيل: فى الدنيا حسنة الثبات على الإيمان وفى الآخرة حسنة السلامة والرضوان.

وقيل: فى الدنيا حسنة الإخلاص وفى الآخرة حسنة الخلاص.

وقيل: فى الدنيا حسنة حلاوة الطاعة وفى الآخرة حسنة لذة الرؤية.

قتادة: فى الدنيا عافية وفى الآخرة عافية.

دليل هذا التأويل ما روى حميد عن أنس أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً قد صار مثل الفرخ المنتوف فقال رسول الله ﷺ: «هل كنت تدعو له بشيء أو تسأله شيئًا؟» قال: كنت أقول اللهم ما كنت معاتبى به فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا. فقال: «سبحان الله إذًا لا تستطيعه ولا تطيقه فهلا قلت: اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار».

فدعا الله به فشفاه الله.

سهل بن عبد الله: فى الدنيا حسنة السنّة وفى الآخرة حسنة الجنة.

المسيب عن عوف فى هذه الآية قال: من آتاه الله الإسلام والقرآن وأهلاً ومالاً وولدًا فقد أولى فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة.

حماد عن ثابت أنهم قالوا لأنس بن مالك: ادع الله لنا، فقال: اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

قالوا: زدنا، فأعادها، قالوا: زدنا، قال: «ما تريدون قد سألت الله تعالى لكم خير الدنيا والآخرة».

قال أنس: وكان رسول الله ﷺ يكثر أن يدعو بها اللّهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

سفيان الثورى فى هذه الآية: فى الدنيا حسنة الرزق الطيب والعلم، وفى الآخرة حسنة الجنة.

مجاهد عن ابن عباس قال: عند الركن اليمانى ملك قائم منذ خلق الله السموات والأرض يقول آمين، فقولوا: «ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار».

وقال ابن جريج: بلغنى أنه كان يؤمر أن يكون أكثر دعاء المسلم فى الوقف: اللهم ربنا آتنا

فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ : يعنى من حج عن ميت كان الأجر بينه وبين الميت.

عن الفضل بن عباس أنه كان ردف النبى ﷺ أتاه رجل فقال: إن أمى عجوز كبيرة لا تستمسك على الرحل وإن ربطتها (خشيت) أن أقتلها.

فقال له: «أرأيت لو كان على أمك دين كنت قاضيه؟» قال: نعم قال: «فحج عنها».

أبو سلمة عن أنس أن رسول الله ﷺ قال فى رجل أوصى بحجة: «كتب له أربع حجات: حجة الذى كتبها، وحجة الذى نفذها، وحجة الذى أخذها، وحجة الذى أمر بها».

وقال سعيد بن جبير: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: إن آجرت نفسى واشترطت عليهم الحج معهم فهل يجزينى ذلك؟

قال: أنت من الذين قال الله﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾.

﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ : يعنى إذا حاسب فحسابه سريع لأنه لا يحتاج إلى تمديد ولا وعى منه ولا روية ولا فكرة.

وقال الحسن: أسرع من لمح البصر.

وفى الحديث أن الله تعالى يحاسب فى قدر حلب شاة وقيل هو أنه إذا حاسب . . . .[1] واحدًا واحدًا حاسب جميع الخلق فمعنى الحساب تعريف الله عباده مقادير الجزاء على أعمالهم وتذكره إياهم ما نسوه من ذلك، يدلّ عليه قوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ (المجادلة: ٦).

﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ : يعنى التكبير فى الصلوت وعند الجمرات يكبر مع كل حصاة وغيرها من الأوقات.

﴿فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ : وهى أيام التشريق وأيام منى ورمى الجمار والأيام المعلومات عشر ذى الحجة، نافع عن ابن عمر: الأيام المعدودات ثلاثة أيام يوم النحر ويومان بعده.

أبو حنيفة عن حماد بن إبراهيم فى قوله: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ قال المعدودات أيام العشر والمعلومات أيام النحر، والصحيح أن المعدودات أيام التشريق، وعليه أكثر العلماء يدل عليه قوله: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ أى منها وإنما يكون الصدر فى أيام التشريق.

قال الزجاج: ويستعمل المعدودات فى اللغة الشىء القليل فسميت بذلك لأنها ثلاثة أيام والأيام المعدودات: أيام التشريق والذكر المأمور فيها التكبير.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

قال نافع: كان عمرو وابنه عبد الله يكبران بمنى تلك الأيام جميعًا وخلف الصلوات وفى المجلس وعلى الفراش والفسطاط وفى الطريق ويكبر الناس بتكبيرهم ويناولان هذه الآية قلت: وأجمعوا على أن التكبير فى هذه الأيام سنة إلا أنهم اختلفوا فى قدرها ووقتها . . . فكان عبد الله بن مسعود يكبر من صلاة الغداة من يوم عرفة إلى صلاة العصر من آخر أيام التشريق وإليه ذهب أبو يوسف ومحمد بن الحسن وهو أجمع الأقاويل.

كان ابن عباس وزيد بن ثابت يكبران من صلاة الظهر من يوم النحر إلى مدة العصر من آخر أيام التشريق وهو قول عطاء وهو الأظهر والأشهر من مذهب الشافعى أنه يبتدأ التكبير من صلاة الظهر من يوم النحر إلى صلاة الفجر من آخر أيام التشريق هذا بالحاج آخر صلاة يصليها الحاج بمنى والناس لهم تبع.

وأما لفظ التكبير فكان سعيد بن جبير يقول الله أكبر الله أكبر الله أكبر نسقًا وهو مذهب الشافعى وأهل المدينة وكان ابن مسعود يكبر اثنتين وهو مذهب أبى حنيفة وأهل العراق.

وروى مالك أنه كان يقول الله أكبر الله أكبر ثمّ يقطع فيقول الله أكبر لا إله إلاّ الله.

وروى عن قتادة أنّه كان يقول الله أكبر كبيرًا الله أكبر على ما هدانا الله أكبر ولله الحمد.

وروى عمر بن أبى سلمة عن أبيه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أيام منى أيام أكل وشرب وذكر الله».

عن جعفر بن محمد: أن رسول الله ﷺ بعث مناديًا فنادى فى أيام التشريق: إنّها أيام أكل وشرب، قال الله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ يعنى من أيام التشريق فنفر فى اليوم الثانى من أيام التشريق.

﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ : فى تعجله ﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾ : عن النفر فى اليوم الثانى من أيام التشريق إلى اليوم الثالث حتى ينفر فى اليوم الثالث ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فى تأخره فإن لم ينفر فى اليوم الثانى وأقام حتى تغرب الشمس فليقم إلى الغد من اليوم الثالث فيرمى الجمار ثم ينفر مع الناس، هذا قول ابن عمر وابن عباس والحسن وعطاء وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك والنخعى والسدى قال بعضهم: معناه فمن تعجل فى يومين فهو مغفور له لا إثم ولا ذنب عليه ومن تأخر فكذلك، وهكذا قول على وأبى ذر وابن مسعود والشعبى ومطرف بن الشخير.

قال معاوية بن مرة: خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

قال إسحاق بن يحيى بن طلحة: سألت مجاهدًا عن ذلك قال: فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه إلى قابل ومن تأخر فلا إثم عليه أيضًا إلى قابل.

وقال سعيد بن المسيب: توفى رجل بمنى فى آخر أيام التشريق فقيل لعمر: توفى ابن الخنساء أفلا نشهر دفنه، فقال عمر: وما يمنعنى أن أدفن رجلاً لم يذنب منذ غفر له.

﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾: اختلفوا فى معناه.

فقال ابن عباس فى رواية العوفى والكلبى: لمن اتقى قتل الصيد لا يحل له أن يقتل صيداً حتى ينقضى أيام التشريق.

قتادة: لمن اتقى أن يصيب فى حجر شيئًا نهاه الله عز وجل عنه فيه.

أبو العالية: ذهب إثمه كلّه إن اتقى فيما بقى من عمره، وكان ابن مسعود يقول إنما حطت مغفرة الذنوب لمن اتقى الله فى حجّه.

ابن جريج: وهو فى مصحف عبد الله لمن اتقى الله، جويبر عن الضحاك عن ابن عباس لمن اتقى عبادة الأوثان.

وروى عن ابن عباس أيضًا: لمن اتقى معاصى الله قال: وودت أنى من هؤلاء الذين يصيبهم اسم التقوى.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾: يجمعون فى الآخرة فيجزيكم بأعمالكم.



﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الآية.

الكلبى والسّدى ومقاتل وعطاء: قالوا نزلت هذه الآية فى الأخنس بن شريق الثقفى حليف بنى أبى زهرة واسمه أبى، وسمى بالأخنس لأنه خنس يوم بدر بثلاثمائة رجل من بنى زهرة عن قتال النبى ﷺ وقد تولوا الجحفة وقال لهم: يا بنى زهرة إن محمداً ابن أخيكم، فإن يك

صادقًا فلن تغلبوه وكنتم أسعد الناس بصدقه ، وإن يك كاذبًا فإنكم أحق من كف عنه لقرابتكم وكفتكم إياه أوباش العرب .

قالوا : نعْمَ الرأى رأيت فَسر لما شئت فنتبعك . فقال : إذا نودى الناس فى الرحيل فإنى أخنس بكمَ فاتبعونى ، ففعلَ وفعلوا وسمى لذلك الأخنس ، وكان رجلاً حلو الكلام حلو المنظر وكان يأتى رسول الله ﷺ يواله ويظهر الإسلام ويخبره بأنه يحبه ويحلف بالله عز وجل على ذلك ، وكان منافقًا فكان رسول الله ﷺ يدنى مجلسه ويقبل عليه ولا يعلم أنه يضمر خلاف ما يظهر ثم إنه كان بينه وبين ثقيف خصومة فبيتهم ليلاً وأهلك مواشيهم وأحرق زرعهم وكان حسن العلانية سيئ السريرة .

قال السدى : مر بزرع للمسلمين وحمر فأحرق الزرع وعقر الحمر .

مقاتل : خرج إلى الطائف مقتضيًا حلاله على غريم فأحرق له . . . .[1] أرضًا وعقر له . . . .[1] أتانا فأنزل الله فيه هذه الآيات .

ابن عباس والضحاك : نزلت هذه الآيات إلى قوله ﴿والله رؤوف بالعباد﴾ فى سرية الرجيع وذلك أن كفار قريش بعثوا إلى رسول الله ﷺ وهو بالمدينة ، أنا أسلمنا فابعث إلينا نفراً من علماء أصحابك يعلموننا دينك ، وكان ذلك مكراً منهم فبعث رسول الله ﷺ خبيب بن عدى الأنصارى ومرثد بن أبى مرثد الغنوى وخالد بن بكير وعبد الله بن طارق بن شهاب البادى وزيد بن الدثنة وأمر عليهم عاصم بن ثابت بن الأقلح الأنصارى فساروا يريدون مكة فنزلوا بطن الرجيع بين مكة والمدينة ومعهم تمر عجرة فأكلوا فمرت عجوزة وأبصرت النوى فرجعت إلى قومها بمكة وقالت : قد سلك الطريق أهل يثرب من أصحاب محمد ، فركب سبعون رجلاً ومعهم الرماح حتى أحاطوا بهم فحاربوهم فقتلوا مرثداً وخالداً وعبد الله بن طارق ونثر عاصم ابن ثابت كتابته وفيها سبعة أسهم فقتل منهم رجلاً من عظماء المشركين ثم قال اللهم إنى حميت دينك صدر النهار فاحم لحمى آخر الليل ، ثم أحاط به المشركون فقتلوه فلما أرادوا جز رأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن عهيد وكانت قد نذرت حين أصاب ابنها يوم أحد لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن فيه قحفة الخمر ، فأرسل الله رجلاً من الدبر وهى الزنابير فحمت عاصمًا ولم يقدروا عليه فسمى حمى الدبر فلما حالت بينهم وبينه قال : دعوه حتى يمسى تذهب عنه فنأخذه فجاءت سحابة سوداء ومطرت مطراً كالعزالى فبعث الله الوادى فاحتمل عاصمًا فذهب به . . . .[1] وحملته . . . .[1] خمسين من المشركين إلى النار قال :

---

(١) بياض بالأصل المخطوط .

وكان عاصم قد أعطى لله عهداً أن لا يمس مشركًا ولا يمسه مشرك أبدًا تنجسًا منه وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول حين بلغه الخبر إن الدَّبر منعته، عجبًا لحفظ الله العبد المؤمن كان عاصم نذر أن لا يمسه مشرك ولا يمس مشركًا أبدًا فمنعه الله بعد وفاته كما امتنع من حياته، فأسر المشركون خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة فذهبوا بهما إلى مكة فأما حبيب فابتاعه بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناة ليقتلوه بأيديهم وكان خبيب هو الذى قتل الحارث بن عامر بأُحُد فبينما خبيب عند بنت الحارث إذ استعار من إحداهن مُوسى يستحل بها للقتل فما راع المرأة ولها صبى يدرج إلا بخبيب قد أجلس الصبى على فخذه والموسى فى يده فصاحت المرأة فقال خبيب: أتخافين أن أقتله، إن الغدر ليس من شأننا، فقالت المرأة: ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب لقد رأيته وما بمكة من تمرة وإن فى يده لقطفًا من عنب يأكله إن كان إلا رزقًا رزقه الله خبيبًا، ثم إنهم خرجوا به من الحرم ليقتلوه وأرادوا أن يصلبوه فقال: ذرونى أصلى ركعتين فتركوه فصلى ركعتين فجرت سنة لمن قتل صبراً أن يصلى ركعتين، ثم قال: لولا أن يقولوا جزع خبيب لزدت وأنشأ يقول:

ولست أبالى حين أقتل مسلمًا	على أى شق كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ	يبارك فى أوصال شلو ممزع

أى مقطع.

ثم قال: اللهم أحصهم عدداً وخذهم بدداً فصلبوه حيًا، فقال: اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد حولى يبلغ رسولك سلامى فأبلغه لأمى، قال: ثم جاء به رجل من المشركين يقال له: أبو سروعة ومعه رمح فوضعه بين ثديى خبيب فقال له خبيب: اتق الله فما زاده إلاّ عتواً فطعنه فأنفذه.

فذلك قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ الآية.

يعنى سلامان وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف الجحمى ثم بعثه مع مولى له يسمى قسطاس إلى التنعيم ليقتله فاجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان ابن حرب، فقال أبو سفيان لزيد حين قدم ليُقتَل أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمداً عندنا الآن بمكانك نضرب عنقه وإنك فى أهلك؟ فقال: والله ما أحب أن محمّداً الآن بمكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس فى أهلى.

فقال أبو سفيان: ما رأيت من النّاس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمداً، ثم قتله قسطاس، فلما بلغ النبى ﷺ هذا الخبر قال لأصحابه: أيكم يحتمل خبيبًا عن خشبته فله

الجنة؟ قال الزبير بن العوام: أنا يا رسول الله وصاحبى المقداد بن الأسود فخرجا يمشيان بالليل ويكتمان بالنهار حتى أتيا التنعيم ليلاً فإذا حول الخشبة أربعون من المشركين نيام نشاوى فأنزلاه فإذا هو رطب ينثنى لم يتغير منه شىء بعد أربعين يومًا ويده على جراحته تخضب دمًا، اللون لون الدم والريح ريح المسك فحمله الزبير على فرسه وسار فانتبه الكفار وقد فقدوا خبيبًا فأخبر بذلك قريشًا فركب منهم سبعون فلما لحقوهما قذف الزبير خبيبًا فابتلعته الأرض فسمى بليع الأرض.

فقال الزبير: ما جرّأكم علينا يا معشر قريش ثم رفع العمامة عن رأسه فقال: أنا الزبير بن العوام وأُمى صفية بنت عبد المطلب وصاحبى المقداد بن الأسود أسدان رابضان يدفعان عن شبلهما فإن شئتم ناضلتكم وإن شئتم نازلتكم وإن شئتم انصرفتم، فانصرفوا إلى مكة، وقدم على رسول الله ﷺ وجبرائيل عنده فقال: يا محمد إن الملائكة لتباهى بهذين من أصحابك فقال رجال من المنافقين فى أصحاب خبيب يا ويحَ لهؤلاء المقتولين الذين هلكوا لأنهم قعدوا فى بيوتهم ولا هم أدوا رسالة صاحبهم، فأنزل الله فى الزبير والمقداد بن الأسود وخبيب وأصحابه المؤمنين وفيمن طعن عليهم من المنافقين ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ﴾ يا محمد ﴿قَوۡلُهُۥ فِى ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أى تستحسنه ويعظم فى قلبك ومنه العجب لأنه تعظم فى النفس.

فقال فى الخبر الاستحسان والمحبة: أعجبنى كذا، وفى الإنكار والكراهية: عجبت من كذا، وأصل العجب ما لم يكن مثله قاله المفضل.

﴿وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلۡبِهِۦ﴾: يعنى قول المنافق والله إنى بك لمؤمن ولك محب.

وقرأ ابن محيصن: ويشهد الله بفتح الياء والهاء ورفع الهاء من قوله أى يظهر أمرًا ويقول قولاً ويعلم الله خلاف ذلك منه وفى مصحف أُبى ويستشهد الله وهى حجة لقراءة العامة.

﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾: أى شديد الخصومة.

يقال منه لددت يا هذا وأنت تلد لدًّا ولداد، وإذا أردت أنه غلب خصمه قلت لدّه يلده لدًا.

ويقال: رجل ألدّ وامرأة لدّاء ورجال ونساء لدّ.

قال الله تعالى: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمًا لُّدًّا﴾ (مريم: ٩٧).

وقال النبى ﷺ: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم».

قال الشاعر:

إن تحت الأحجار حزمًا وجودًا وخصيمًا ألدّ ذا مغــــلاق

وقال الراجز: تلدّ أقران الرجال اللدّ.

وقال الزجاج : اشتقاقه من لديدى العنق وهما صفحتاه وتأويله أنه فى أى وجه أخذ من يمين أو شمال فى أبواب الخصومة غلب فى ذلك .

والخصام : مصدر خاصمته خصامًا ومخاصمة قاله أبو عبيدة وقال الزجاج : هو جمع خصم يقال : خصم وخصام وخصوم مثل بحر وبحار وبحور ، وحقيقة الخصومة التعمق فى البحث عن الشىء والمضايقة فيه ولذلك قيل لزوايا الأوعية خصوم . قال السدى : ألدّ الخصام أعوج الخصام .

مجاهد : الأخير المستقيم على خصومة .

الحسن : هو كاذب القول . قتادة : هو شديد القسوة فى معصية الله جدل بالباطل عالم باللسان جاهل بالعمل متكلم بالحكمة ويعمل بالخطيئة .

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ : أدبر وأعرض عنك .

الحسن : تولى عن قوله الذى أعطاه .

ابن جريج : غضب . الضحاك : ملك الأمر وصار واليًا ﴿سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أى عمل فيها يقال : فلان يسعى لعياله أى يعمل بما يعود عليهم نفقه .

ومنه قول الأعشى :

وسعى لكندة سعى غير مواكل … قيس ، فضر عدوهـا وبنى لها

وقيل سار ومشى .

﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ .

قال ابن جريج : قطع الرحم وسفك دماء المسلمين ، والفساد اسم لجميع المعاصى .

﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ .

قرأ الحسن وابن أبى إسحاق : ويهلك برفع الكاف على الابتداء .

وقرأ العامّة : بالنصب ، ويصدقها قراءة أُبى : وليهلك .

قال المفسرون : الحرث ما تحرثون من النبات ، والنسل نسل كل دابة والنّاس منهم .

النضر بن عدى عن مجاهد فى قوله : ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ﴾ الآية قال : إذا ولى خاف فعمل بالعدوان والعالم فأمسك الله المطر وأهلك الحرث والنسل .

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ عن سعيد بن المسيب قال : قطع الدرهم من الفساد فى الأرض .

قتادة عن عطاء : أن رجلاً يقال له العلاء بن منبه أحرم فى جبّة فأمره النبى ﷺ أن ينزعها .

قال قتادة : فقلت لعطاء : إنّا كنا نسمع أن شقّها فقال عطاء : إن الله لا يحب الفساد .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾: خف الله، تكبر ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾: أى حملته العزّة وحمية الجاهلية على الفعل بالإثم والعزة والقوّة والمنعة: ويقال: معناه أخذته العزة بالإثم الذى فى قلبه كما قام الهاء مقام اللام كقول عنترة يشبهه بالرب:

وكأن ربًا أو كحيلاً معقداً حش الوقود به جوانب قمقم

أى خلق الإمالة خشية جهنم أن كفاه عذاب جهنم.

﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾: الفراش.

قال عبد الله بن مسعود: إن من أكبر الذنب عند الله أن يقال للعبد: اتق الله فيقول: عليك بنفسك.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى﴾: يبيع ﴿نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾: أى يطلب رضا الله.

والكسائى: يميل مرضاة الله كل القرآن.

﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

قال ابن عبّاس والضحاك: نزلت هذه الآية فى الزبير والمقداد بن الأسود حين شريا أنفسهما لإنزال خبيب من خشبته التى صُلب عليها، وقد مضت القصّة.

وقال أكثر المفسرين: نزلت فى صهيب بن سنان المخزومى مولى عبد الله بن جدعان التيمى أخذه المشركون فى رهط من المؤمنين فضربوهم فقال لهم صهيب: إنى شيخ كبير لا يضركم أمنكم كنت، أم من غيركم فهل لكم أن تأخذوا مالى وتذرونى ودينى، ففعلوا ذلك، وكان قد شرط عليهم راحلة ونفقة فأقام بمكة ما شاء الله ثمّ خرج إلى المدينة فتلقاه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فى رجال.

قال له أبو بكر: ربح بيعك أبا يحيى فقال صهيب: وبيعك فلا تخسر بأذاك.

قال: أنزل الله تعالى فيك كذا، وقرأ عليه هذه الآية.

قال سعيد بن المسيب وعطاء: أقبل صهيب مهاجراً نحو النبىّ ﷺ فأتبعه نفر من مشركى قريش فنزل عن راحلته وهو ما فى كنانته ثمّ قال: يا معاشر قريش لقد علمتم أنى من أرماكم رجلاً، والله لا أضع سهمًا مما فى كنانتى إلاّ فى قلب رجل، وايم الله لا يصلون إلىّ حتى أرمى كل سهم فى كنانتى، ثمّ أضرب بسيفى ما بقى فى يدى، ثمّ افعلوا ما شئتم، وإن شئتم دللتكم على مالى وضيعتى بمكة وخليتم سبيلى.

قالوا: نعم. ففعل ذلك، فأنزل الله هذه الآية.

وقال قتادة: ما هم بأهل الحرور المراق من دين الله تعالى، ولكن هم المهاجرون والأنصار.

وقال الحسن: أتدرون فيمن نزلت هذه الآية، في أن مسلمًا لقي كافراً فقال له: قل لا إله إلاّ الله وإذا قلتها عصمت مالك ودمك إلا بحقها فأبى أن يقولها، قال المسلم: والله لأشرين نفسي لله فتقدم فقاتل حتى قُتل.

وقال المغيرة: بعث عمر جيشًا فحاصروا حصنًا فتقدم رجل من بجيلة فقاتل وحده حتى قتل، فقال النّاس: ألقى بيده إلى التهلكة فبلغ ذلك عمر فقال: كذبوا أليس الله يقول: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ﴾ الآية.

وقال بعضهم: نزلت هذه الآية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقال ابن عباس: أرى هاهنا من إذا أمر بتقوى الله أخذته العزة بالإثم. قال: هذا وأنا أشرى نفسي وأرى من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله يقوم هذا فيأمر هذا بتقوى الله، فإذا لم يقبل أخذته العزّة بالإثم ثم قال: هذا وأنا أشرى نفسي لمقاتلته فاقتتل الرجلان لذلك، وكان علي رضي الله عنه إذا قرأ هذه الآية يقول: اقتتلا ورب الكعبة.

وقال الخليل: سمع عمر بن الخطاب إنسانًا يقرأ هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ﴾ الآية.

فقال عمر: إن لله وإنا إليه راجعون قام رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فقتل.

حماد بن سلمة عن أبي غالب عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «إن أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر».

عطاء بن أبي رباح عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: قال النبيّ ﷺ: «سيد الشهداء يوم القيامة حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله».

وقال الثعلبي: ورأيت في الكتب أن رسول الله ﷺ لما أراد الهجرة خَلف علي بن أبي طالب بمكة لقضاء ديونه ورد الودائع التي كانت عنده فأمره ليلة خرج إلى الغار وقد أحاط المشركون بالدار أن ينام على فراشه ﷺ وقال له: «اتشح ببردي الحضرمي الأخضر، ونم على فراشي، فإنه لا يخلص إليك منهم مكروه إن شاء الله، ففعل ذلك عليٌّ، فأوحى الله تعالى إلى جبرائيل وميكائيل أني قد آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر فأيكما يؤثر صاحبه بالبقاء والحياة؟ فاختار كلاهما الحياة فأوحى الله تعالى إليهما: أفلا كنتما مثل علي بن أبي طالب عليه السلام آخيت بينه وبين محمد ﷺ فبات على فراشه يفديه نفسه ويؤثره بالحياة، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه، فنزلا فكان جبرائيل عند رأس علي وميكائيل عند رجليه، وجبرائيل ينادي: بخ بخ من مثلك يا بن أبي طالب، فنادى الله عزّ وجلّ الملائكة

وأنزل الله على رسوله ﷺ وهو متوجه إلى المدينة فى شأن على عليه السلام ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾.

قال ابن عباس: نزلت فى على بن أبى طالب حين هرب النبى ﷺ من المشركين إلى الغار مع أبى بكر الصديق ونام علىٌّ على فراش النبى ﷺ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾: نزلت فى مؤمنى أهل الكتاب عبد الله بن سلام النضرى وأصحابه وذلك أنهم عظموا السبت وكرهوا لحم الإبل وألبانها بعدما أسلموا وقالوا: يا رسول الله إن التوراة كتاب الله فدعنا فلنقم بها فى صلاتنا بالليل فأنزل الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾أى فى الإسلام قاله قتادة والضحاك والسدى وابن زيد، يدلّ عليه قول الكندى:

دعوت عشيرتى للسلم لما رأيتهم تولوا مدبرينا

أى دعوتهم إلى الإسلام لما ارتدوا، قال ذلك حين ارتدت كندة مع الأشعث بن قيس بعد وفاة رسول الله ﷺ. وقال طاوس: فى الدين.

مجاهد: فى أحكام أهل الإسلام وأعمالهم كافة أى جميعها.

ربيع: فى الطاعة.

سفيان الثورى: فى أنواع البر كلها، وكلها متقاربة فى المعنى وأصله من الاستسلام والانقياد ولذلك قيل للصلح سلم وقال زهير:

وقد قلتما إن ندرك السلم واسعًا بمال ومعروف من الأمر نسلم

قال حذيفة بن اليمان: فى هذه الآية الإسلام ثمانية أسهم: الصلاة سهم، والزكاة سهم، والصوم سهم، والحج سهم، والعمرة سهم، والجهاد سهم، والأمر بالمعروف سهم، والنهى عن المنكر سهم، وقد خاب من لا سهم له.

واختلف القراء فى السلم.

فقرأ الأعمش وابن عبّاس: بكسر السين هاهنا وفى الأنفال وسورة محمّد ﷺ.

وقرأها أهل الحجاز والكسائى: كلها بالفتح وهو اختيار أبى عبيد. لما روى عبد الرحمن ابن أبزى أن النبى ﷺ كان يقرؤها كلها بالفتح.

وقرأ حمزة وخلف فى الأنفال بالفتح وسائرها بالكسر.

وقرأ الباقون: هاهنا بالكسر والباقى بالفتح وهو اختيار أبى حاتم، وهما لغتان.

عاصم الأحول عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل الإسلام كمثل الشجرة الثابتة

الإيمان بالله، أصلها الصلوات الخمس جذوعها، وصيام شهر رمضان لحاؤها، والحج والعمرة جناها، والوضوء وغسل الجنابة شربها، وبر الوالدين وصلة الرحم غصونها، والكف عمّا حرم الله ورقها، والأعمال الصالحة ثمرها، وذكر الله تعالى عروقها».

قال رسول الله ﷺ: «كما لا تحسن الشجرة ولا تصلح إلاّ بالورق الأخضر، كذلك الإسلام لا يصلح إلاّ بالكف عن محارم الله تعالى والأعمال الصالحة».

﴿كَآفَّةً﴾: جميعًا وهى مأخوذة من كففت الشىء إذا منعته وضممت بعضه إلى بعض، ومنه قيل لحاشية القميص كفة، لأنها تمنعه من أن ينتشر وكل مستطيل فحرفه كفة بالضم وكل مستدير فحرفه كفة بالكسر، نحو كفة الميزان، ومنه قيل للراحة مع الأصابع كفة لأنه يكفّ بها عن سائر البدن، ورجل مكفوف أى كفّ بصره من النظر فمعنى الكافة هو أن ينتهى إليه ويكفه من أن يجاوزه.

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾: أى آثاره ونزعاته فيما بيّن لكم من تحريم السبت ولحم الجمل وغيره ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

الشعبى عن جابر بن عبد الله: أن عمر أتى رسول الله ﷺ فقال: إنّا نسمع أحاديث من يهود لا تقرأ أن نكتب بعضها؟ فقال: «أمتهوكون أنتم كما تهوّكت اليهود والنصارى لقد جئتكم بها بيضاء نقية ولو كان موسى حيًا ما وسعه إلاّ اتباعى».

﴿فَإِن زَلَلۡتُم﴾: قال ابن حيان: أخطأتم. السدى: ضللتم. يمان: ملتم.

قال ابن عبّاس: يعنى الشرك.

قتادة: أنزل الله هذه الآية وقد علم أنه سيزل زالون من النّاس، فتقدّم فى ذلك وأوعد فيه فيكون لله حجة على خلقه.

وقرأ أبو السماك العذرى: زللتم بكسر اللام وهما لغتان وأصل الحرف من الزلق.

﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾: يعنى الإيمان والقرآن والأمر والنهى ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾: فى نعمته ﴿حَكِيمٌ﴾: فى أمره ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾: أى هل ينظر التاركون الدخول فى السلم كافة والمتبعون خطوات الشيطان؟ يقال نظرته وانتظرته بمعنى واحد.

قال الشاعر:

فبينا نحن ننظره أتانا ... معلّق شكوة وزناد راع

أى ننتظره ونتوقعه فإذا كان النظر مقرونًا بذكر الوجه فلا يكون إلاّ بمعنى الرؤية.

﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾: جمع ظلة وقرأ قتادة: فى ظلال ولها وجهان

أحدهما: جمع ظلة فقال: ظلة وظلال مثل جلة وجلال، وظل ظلال كثر حلة وحلل، والثاني: جمع ظل من الغمام وهو السحاب الأبيض الرقيق سمى بذلك لأنه يغم أى يستتر.

عكرمة عن ابن عباس فى قوله ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ قال: يأتى الله فى ظلل من الغمام قد قطعت طاقات، ورفعه بعضهم.

سلمة بن وهرام أن عكرمة أخبره أن ابن عباس أخبره عن النبى ﷺ قال: «إن من الغمام طاقات يأتى الله عزّ وجلّ فيها محفوفة بالملائكة» وذلك قوله ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾.

قال الحسن: فى سترة من الغمام، فلا ينظر إليهم أهل الأرض، الضحاك: فى ضلع من السحاب.

مجاهد: هو غير من السحاب ولم يكن إلاّ لبنى إسرائيل فى تيههم.

مقاتل: كهيئة الظبابة أبيض، وذلك قوله: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ (الفرقان: ٢٥).

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

قرأ ابن جعفر بالخفض: عطفًا على الغمام وتقديره مع الملائكة، تقول العرب: أقبل الأمير فى العسكر أى مع العسكر.

وقرأها الباقون: بالرفع على معنى إلاّ أن يأتيهم الله والملائكة فى ظلل من الغمام، يدلّ عليه قراءة أبى حاتم وعبد الله (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله والملائكة).

﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾.

أبو العالية والربيع: تأتيهم الملائكة فى ظلل من الغمام ويأتى الله تعالى فيما يشاء.

قرأ معاذ: فى ظلل مع الغمام وقضاء الأمر بالمد أراد المصدر ذكر البيان عن معنى الإتيان.

واختلف الناس فى ذلك. فقال بعضهم: فى بمعنى الباء، وتعاقب حروف الصفات شائع مشهور فى كلام العرب، تقدير الآية: إلاّ أن يأتيهم الله بظلل من الغمام وبالملائكة أو مع الملائكة، وبهذا التأويل زال الإشكال وسهل الأمر وأجرى الباقون للآية فهى ظاهرة.

ثم اختلفوا فى تأويلها ففسّره قوم على الإتيان الذى هو الانتقال من مكان إلى مكان وأدخلوا فيه بلا كيف يدل عليه ظواهر أخبار وردت لم يعرفوا تأويلها وهذا غير مرضىّ من القول لأنه إثبات المكان لله سبحانه، وإذا كان متمكنًا وجب أن يكون محدودًا متناهيًا ومحتاجًا وفقيرًا، وتعالى الله عن ذلك علوّا كبيرًا.

وقال بعض المحققين الموفّقين أظنّه على بن أبى طالب عليه السلام: «من زعم أن الله تعالى

من شيء أو فى شيء أو على شيء فقد ألحد، لأنه لو كان من شيء لكان محدثًا، ولو كان فى شيء لكان محصورًا، ولو كان على شيء لكان محمولاً».

وسكت قومٌ عن الخوض فى معنى الإتيان فقالوا: نؤمن بظاهره ونقف عن تفسيره؛ لأنّا قد نُهينا أن نقول فى كتاب الله تعالى لما لا نعلم ولم ينبّهنا الله تعالى ولا رسوله على حقيقة معناه.

قال يحيى: هذا من المكتوم الذى لا يفسر، وكان مالك والأوزاعى ومحمد وإسحاق وجماعة من المشايخ يقولون فيه وفى أمثاله أمرّوها كما جاءت بلا كيف.

وزعم قوم أن فى الآية إضمارًا أو اختصارًا تقديرها: إلاّ أن يأتيهم أمر الله وهو الحساب والعذاب، دلّ عليه قوله: ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ (هود: ٤٤) الآية وجب العذاب وفُرغ من الحساب، قالوا هذا كقوله: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ (يوسف: ٨٢) ويقول العرب: قطع الوالى اللّص يعنى يده، وإنما فعل ذلك آخر لأنه بأمره.

ويقال: خطبتان مأتينا بنو أمية أى حكمهم.

وعلى هذا يحمل قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ (الأنفال: ١٧) لأن الله تعالى قال ذلك، وهذا معنى قول الحسن البصرى.

وقال طائفة من أهل الحقائق: إن الله يُحدث فعلاً يسميه إتيانًا كما سمعت فهلاّ سمّاه نزولاً وأفعاله بلا آلة ولا علّة.

قال الثعلبى: قلت: ويحتمل أن يكون معنى الإتيان ههنا راجعًا إلى الجزاء؛ فسمّى الجزاء إتيانًا كما سمّى التخويف والتعذيب فى قصّة نمرود إتيانًا فقال عزّ من قائل: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ (النحل: ٢٦).

وقال فى قصّة بنى النضير: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ﴾ (الحشر: ٢) ﴿وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ﴾ (الأنبياء: ٤٧): وإنّما احتمل الإتيان هذه المعانى لأنّ أصل الإتيان عند أهل اللسان هو القصد إلى المشى فى الآية فهل ينظرون إلاّ أن يظهر الله خلاف أفعاله مع خلق من خلقه فيقصد إلى مجازاتهم ويقضى فى لعنهم ما هو قاض ومجازيهم على فعل ويمضى فيهم ما أراد، يدلّ عليه ما روى صالح مولى التوأمة عن أبى هريرة قال: رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة فإنّ الله عزّ وجلّ فى ظلال من الغمام والملائكة فيتكلم بكلام طلق ذلق فيقول: أنصتوا فطالما أنصتّ لكم منذ خلقتكم أرى أعمالكم وأسمع أقوالكم وإنّما من عصابتكم بقى أهليكم، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك لا يلومنّ إلاّ نفسه».

❖ ❖ ❖

﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾

﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ **أى سل يا محمد يهود أهل المدينة** ﴿كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم﴾ **أعطيناهم، آباءهم وأسلافهم** ﴿مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ **علامة واضحة مثل العصا واليد البيضاء وفلق البحر وغيرها.**

﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ **: بغير كتاب الله** ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ **الآية، قال بعضهم: نزلت هذه الآية فى مشركى العرب أبى جهل وأصحابه كانوا يتنعمون بما ينقل لهم فى الدنيا من المال ونسوا يوم المعاد** ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ **من المؤمنين الذين يعزفون عن الدنيا، ويقبلون على الطاعة والعبادة، ويقولون: لو كان محمد نبيًا لاتبعه أشرافنا وإنما اتبعه الفقراء مثل أبى عمارة وصهيب وعمار وجابر بن عبد الله وأبى عبيدة بن الجراح وبلال وخباب وأمثالهم، وهذا معنى رواية الكلبى عن ابن عباس.**

وقال مقاتل: نزلت فى المنافقين عبد الله بن أبى وأصحابه، وكانوا يتنعمون فى الدنيا ويسخرون من ضعفاء المؤمنين وفقراء المهاجرين، ويقولون: انظروا إلى هؤلاء الذين يزعم محمد أنه يغلب بهم.

وقال عطاء: نزلت فى رؤساء اليهود ووفدهم من بنى قريظة والنضير والقينقاع سخروا من فقراء المهاجرين فوعدهم الله أن يعطيهم أموال بنى قريظة والنضير بغير قتال أسهل شىء وأيسره. فقال: أين الذين كفروا فى الحياة الدنيا، فى قول مجاهد، وحملَ زيّن بفتح الزاى والياء على معنى زينها الله وإنما ذكر الفعل بمعنيين أحدهما أن تأنيث الحياة ليس بحقيقى لأن

معنى الحياة والبقاء والعيش واحد، والآخر أنه فصل بين اسم المؤنث والفعل فأعمل المذكر، كقول الشاعر:

إن امرأً غرّه منكن واحدة بعدى وبعدك فى الدنيا لمغرور

﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: لفقرهم.

عن على بن الحسين عن أبيه عن جدّه قال: قال رسول الله ﷺ: «من استذلّ مؤمنًا أو مؤمنة أو حقّره لفقره وقلة ذات يده شهّره الله يوم القيامة ثم فضحه، ومن بهت مؤمنًا أو مؤمنة أو قال فيه ما ليس فيه، أقامه الله على تل من نار حتى يخرج مما قال فيه، وإن المؤمن أعظم عند الله وأكرم عليه من مَلَك مقرب، وليس شىء أحبّ إلى الله من مؤمن تائب أو مؤمنة تائبة، وإن الرجل المؤمن ليُعرف فى السماء كما يعرف الرجل أهله وولده».

وعن إبراهيم بن أدهم قال: حدثنا عباد بن كثير بن قيس، قال: جاء رجل عليه بزّة له فقعد إلى رسول الله ﷺ فجاء رجل عليه الممار له فقعد إلى رسول الله ﷺ، قال: ألقى بثيابه فضمّها إليه، فقال رسول الله ﷺ: «أكلُّ هذا تقززًا من أخيك المسلم، أكنت تخشى أن يصيبه من غناك أو يصيبك من فقره شىء» فقال للنبى معذرة إلى الله وإلى رسوله، إن النفس لأمّارة وشيطان يكيدنى، أشهد يا رسول الله أن نصف مالى له، فقال الرجل: ما أريد ذلك، فقال له النبى ﷺ: «ولِمَ؟» قال: لا يفسد قلبى كما أفسد قلبه».

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه: لا تحقرن أحدًا من المسلمين فإن صغير المسلمين عند الله كبير. وقال يحيى بن معاذ: بئس القوم قوم إن استغنى بينهم المؤمن حسدوه، وإذا افتقر بينهم استذلّوه ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ عن أبى ذر قال: قال لى رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر ارفع بصرك إلى أرفع رجل تراه فى المسجد». فنظرت فإذا رجل جالس وعليه حلّة فقلت: هذا. فقال: «يا أبا ذر ارفع بصرك إلى أوضع رجل تراه فى المسجد» فنظرت فإذا رجل ضعيف عليه أخلاق فقلت: هذا، فقال ﷺ: «والذى نفسى بيده لهذا عند الله يوم القيامة أفضل من قراب الأرض من هذا».

﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: قال ابن عباس: يعنى كثيرًا بغير فوت ولا هنداز لأن كل ما دخل عليه الحساب فهو قليل.

وقال الضحاك: يعنى من غير تبعة، يرزقه فى الدنيا ولا يحاسبه ولا يعاقبه فى الآخرة.

وقيل إنّ هذا راجع إلى الله ثم هو يحتمل على هذا القول معنيين: أحدهما أنه لا يُفترض عليه، ولا يُحاسب فيما يرزق، ولا يقال له: لما أعطيت هذا، وحرمت هذا؟ ولم أعطيت هذا

أكثر مما أعطيت ذاك؟ لأنه لا شريك له بما عنده، ولا قسيم ينازعه.

والمعنى الآخر أنه لا يخاف نفاد خزائنه فيحتاج إلى حساب ما يخرج منها إذا كان الحساب من المعطى، إنما يكون ليعمّ أقدر العطاء لئلا يتجاوز فى عطائه إلى ما يجحف به فهو لا يحتاج إلى الحساب؛ لأنه عالم غنى لا يخاف نفاد خزائنه لأنها بين الكاف والنون.

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: الآية، قال الحسن وعطاء: كان الناس من وقت وفاة آدم إلى مبعث نوح عليه السلام أُمة واحدة على ملّة واحدة وهى الكفر، كانوا كفارًا كلّهم أمثال البهائم فبعث الله نوحًا وإبراهيم وغيرهما من النبيين.

قتادة وعكرمة: كان الناس من وقت آدم إلى مبعث نوح أُمة واحدة، وكان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة واحدة من الحق والهدى، ثم اختلفوا فى زمن نوح عليه السلام؛ فبعث الله إليهم نوحًا وكان أول نبى بُعث ثم بعث بعده النبيين.

وقال الكلبى، والواقدى: أهل سفينة نوح كانوا مؤمنين كلّهم ثم اختلفوا بعد وفاة نوح.

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: وروى عن ابن عباس قال: كان الناس على عهد إبراهيم أُمة واحدة كفارًا كلهم، وولد إبراهيم فى جاهلية فبعث الله إليهم إبراهيم وغيره من النبيين.

روى الربيع عن أبى العالية عن أبى قال: كان الناس حين عُرضوا على آدم وأُخرجوا من ظهره وأقروا بالعبودية أُمةً واحدة مسلمين كلهم، ولم يكونوا أُمة واحدة قط غير ذلك اليوم، ثم اختلفوا بعد آدم فبعث الله الرسل وأنزل الكتب، فى قراءة أُبىّ وعبد الله بن إسحاق: فاختلفوا فبعث الله النبيين.

وقال محمد بن يسار ومجاهد: كان الناس أُمة واحدة يعنى آدم وحده، سُمّى الواحد بهذا لأنه يحمل النسل وأبو البشر، ثم خلق الله حوّاء ونشر منهما الناس فانتشروا وكثروا وكانوا مسلمين كلّهم إلى أن قتل قابيل هابيل فاختلفوا حينئذ فبعث الله حينئذ.

قال الثعلبى: ورأيت فى بعض التفاسير: كان الناس أُمة واحدة فى الجنة لا أمرٌ عليهم ولا نهى فبعث الله النبيين وجملتهم مائة وأربعة وعشرون ألفًا، والرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر، والمذكور فى القرآن باسم العلم ثمانية وعشرون نبيًا.

﴿مُبَشِّرِينَ﴾: بالثواب من آمن وأطاع. ﴿وَمُنذِرِينَ﴾: محذّرين بالعذاب من كفر وعصى.

موسى بن عبيد عن محمد بن ثابت عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «صلّوا على أنبياء الله ورسله فإن الله بعثهم كما بعثنى».

﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾: أى الكتب فأنزل معهم الكتاب. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: بالعدل والصدق

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾: قراءة العامة بفتح الياء وضم الكاف وهو فى القرآن فى أربعة مواضع: ههنا وفى آل عمران وفى النور موضعان. وقرأها كلّها أبو جعفر القارئ وعاصم الجحدرى بضم الياء وفتح الكاف لأنّ الكتاب الحكم على الحقيقة إنّما يُحكم به، ولقراءة العامة وجهان: أحدهما على سعة الكلام كقوله ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ (الجاثية: ٢٩). والآخر أن معناه: ليحكم كلّ نبىّ بكتابه، وإذا حكم بالكتاب فكأنما حكم الكتاب ﴿فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ﴾: أى فى الكتاب ﴿إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾: أعطوه وهم اليهود والنصارى ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾: يعنى أحكام التوراة والإنجيل.

قال الفراء: لاختلافهم معنيان: أحدهما كفر بعضهم بكتاب بعض كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ (النساء: ١٥٠) الآية ....[1] وتكفير ببعض، والآخر تحريفهم وتبديلهم كتاب الله تعالى كقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ (النساء: ٤٦).

وقيل: هذه الآية راجعة إلى محمد ﷺ وكتابه ﴿اخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أهل الكتاب ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ صفة محمد ﷺ فى كتبهم ﴿بَغْيًا﴾ ظلمًا وحسدًا ﴿بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ كقوله: ﴿هَدَانَا لِهَٰذَا﴾ (الأعراف: ٤٣) وقوله: ﴿مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ بعلمه وإرادته فيهم.

وقال ابن زيد فى هذه الآية: اختلفوا فى الصلاة؛ فمنهم من يصلى إلى المشرق، ومنهم من يصلى إلى المغرب، ومنهم من يصلى إلى بيت المقدس؛ فهدانا الله للكعبة، واختلفوا فى الصيام، فمنهم من يصوم بعض يوم، ومنهم من يصوم بعض ليلة، فهدانا الله لشهر رمضان، واختلفوا فى يوم الجمعة، أخذت اليهود السبت وأخذت النصارى الأحد، فهدانا الله له، واختلفوا فى إبراهيم، فقالت اليهود: كان يهوديًا، وقال النصارى: كان نصرانيًا، فهدانا الله للحق من ذاك، واختلفوا فى عيسى فجعلته اليهود ابنًا، وجعلته النصارى ربًا، فهدانا الله منه للحق.

﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ الآية، قال قتادة والسدّى: نزلت هذه الآية فى غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد والمشقّة والحر والبرد وضيق العيش، وأنواع الأذى كما قال: ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ (الأحزاب: ١٠) وقيل: إنها نزلت فى حرب أُحد ونظيرها فى آل عمران.

وقال: إنّ عبد الله بن أُبى وأصحابه قالوا لأصحاب رسول الله ﷺ: إلى متى تقتلون أنفسكم ولا تملكون أموالكم، ولو كان محمد نبيًا لما سلّط عليه الأسر والقتل، فقالوا: لا جرم

(١) بياض بالأصل المخطوط.

أنّ من قُتل منّا دخل الجنة، فقالوا: إلى متى تمنون أنفسكم الباطل وقد استمعتم إلى هذه الآية.

وقال عطاء: لما دخل رسول الله ﷺ المدينة اشتدّ الضرّ عليهم لأنّهم خرجوا بلا مال فتكون أرضهم وأموالهم فى أيدى المشركين؛ فآثروا رضا الله عزّ وجلّ ورضا رسوله ﷺ، وأظهر اليهود العداوة لرسول الله ﷺ، وأسرَّ قوم من الأغنياء النفاق فأنزل الله تطييبًا لقلوبهم ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ وهو ابتداء بأم من غير استفهام، فالألف والميم صلة معناه: أحسبتم، قاله الفرّاء.

وقال الزّجاج: معناه: بل حسبتم، كقول الشاعر:

بدت مثل قرن الشمس فى رونق الضحى وصورتها أم أنت فى العين أملح

أى بل وأنت، وكل شيء فى القرآن من هذا النحو فهذا سبيله وتأويله، ومعنى الآية أظننتم والرسول أن تدخلوا الجنة: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم﴾ يعنى ولم يأتكم وحاصله كقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ (الجمعة: ٣) وقال النابغة:

أزف الترحّل غير أنّ ركابنا لمّا تزل برحالنا وكأنْ قَد

أى لم تزل ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم﴾ مَضَوا من قبلكم من النبيين والمؤمنين وسُنّتهم.

ثم ذكر ما أصابهم فقال: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ﴾ يعنى الفقر والضرّ والشدّة والبلاء ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾ المرض والزمانة ﴿وَزُلْزِلُواْ﴾ حُرّكوا بأنواع البلايا والرزايا وخُوّفوا ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ ما تلك البلايا حتى استبطئوا الرزق، قَال الله: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ واختلف القرّاء فى قوله تعالى: ﴿يَقُولَ ٱلرَّسُولُ﴾ فقرأ مجاهد بفتح وضمّة.

الأعرج: يقول رفعًا، وقرأها الآخرون نصبًا، فمن نصب فعلى ظاهر الكلام لأن حتى تنصب الفعل المستقبل، ومَنْ رفع لأنّ معناه حتى قال الرسول، وإذا كان الفعل الذى يلى حتى فى معنى الماضى ولفظه لفظ المستقبل، فلك فيه دون الرفع والنصب، فالرفع لأنّ حتى لا تعمل فى الماضى، والنصب بإضمار أنّ الخفيفة عند البصريين، وبالصرف عند الكوفيين، مثل قولك: سرنا حتى ندخل مكة بالرفع أى حتى دخلناها، فإذا كان بمعنى المستقبل فالنصب لا غير.

وقال وهب بن منبه: يوجد فيما بين مكة والطائف سبعون نبيًا ميتين كان سبب موتهم الجوع والعمل، وقال وهب أيضًا: قرأت فى كتاب رجل من الحواريين إذا سُلك بك سبيل البلاء فقرَّ عينًا، فإنه سُلك بك سبيل الأنبياء والصالحين. وإذا سُلك بك سبيل الرخاء فابكِ على نفسك لأنّه حاد بك عن سبيلهم.

شعبة عن عاصم بن بهدلة عن مصعب بن سعد عن أبيه أنه سأل النبى ﷺ: أى الناس أشدّ

بلاء فقال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل من الناس، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان صلب الدين اشتدّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقّة فهي على حسب ذلك، ولا يبرح البلاء عن العبد حتى يدعه يمشي على الأرض وليس عليه خطيّة».

وعن عبد الرحمن بن ذهل قال: كان وزير عيسى عليه الصلاة والسلام ركب يومًا فأخذه السبع فأكله فقال عيسى: يا رب! وزيري في دينك، وعوني على بني إسرائيل، وخليفتي من سلطت عليه كلبك فأكله، قال: نعم كانت له عندي منزلة رفيعة، لم أجد عمله بلغها فابتليته بذلك لأبلغه تلك المنزلة.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾: الآية، نزلت في عمرو بن الجموح، وكان شيخًا كبيرًا ذا مال، فقال: يا رسول الله بماذا أتصدق وعلى من أتصدق؟ فأنزل الله ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ وفي قوله (ذا) وجهان من الإعراب: أحدهما أن يكون ماذا بمعنى أي شيء وهو متعلق بقوله ينفقون وتقديره: يسألونك أي شيء ينفقون، والآخر أن يكون رفعًا بـ ما والمعنى: ويسألونك ما الذي ينفقون؟ ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ أي مال ﴿فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ عالم به بتعاليم الدين، هذا قبل أن تفرض الزكاة فنسخت الزكاة هذه الآية.

❖ ❖ ❖

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾ فُرض عليكم القتال، واختلف العلماء في حكم هذه الآية، فقال بعضهم: عنى بذلك أصحاب رسول الله ﷺ خاصة دون غيرهم، وقال ابن جريج قلت لعطاء: قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ أواجب الغزو على الناس من أجلها أو كتب

على أولئك حينئذ؟ وأجرى بعضهم الآية على ظاهرها فقال: الغزو فرض واجب على المسلمين كلّهم إلى قيام الساعة.

روى ابن أبى أنيسة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من أصل الإيمان: الكفّ عمّن قال: لا إله إلاّ الله ما لم يره بذنب، ولا يخرجه من الإسلام بعمل، والجهاد ماض منذ بعثنى الله إلى أن يقاتل آخر أُمتى الدّجال لا يبطله ظنّ ولا شك، والإيمان بالأقدار».

أبو صالح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات ولم يغز ولم يحدّث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق» وقال بعضهم: هو فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين.

عن أحمد بن أنمار: وردّ السلام وتشميت العاطس وهو القول الصحيح المشهور الذى عليه الجمهور.

وقال الزهرى والأوزاعى: كتب الله الجهاد على الناس غزوا أو قعدوا، فمن غزا فبها ونعمت، ومن قعد فهو حرّ، إن استُعين به أعان وإن استنفر نفر وإن استغنى عنه قعد، فإنما يرجع عليه عطاء الواجب المال وإلاّ فلا، من شاء غزا ومن شاء لم يغزُ، ويدل على صحة هذا القول قول الله تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ (النساء: ٩٥)، ولو كان القاعدون مضيعين فرضًا لكان لهم السوأى لا الحسنى والله أعلم. ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ شاق عليكم، واتفق القرّاء على ضم الكاف ههنا إلاّ أبا عبد الرحمن السلمى، فإنه قرأها (وهو كَره) بفتح الكاف وهما لغتان بمعنى واحد، مثل الغَسل والغُسل، والضَّعف والضُّعف، والرَّهب والرُّهب، وقال أكثر أهل اللغة: الكُره بالضم المشقة وبالفتح الإجهاد. بعضهم: الكره بالفتح المصدر، وبالضم الاسم.

وقال أهل المعانى: هذا الكره من حيث نفور الطبع عنه لما يدخل فيه على المال من المؤونة وعلى النفس من المشقة وعلى الروح من الخطر لأنهم أظهروا الكراهة أو كرهوا أمر الله عزّ وجلّ.

قال عكرمة: نسختها هذه الآية ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ (البقرة: ٢٨٥) يعنى أنهم كرهوه ثم أحبّوه ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ قال الله عز وجل: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لأن فى الغزو إحدى الحُسنيين إمّا الظفر والغنيمة، وإمّا الشهادة والجنة ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا﴾ يعنى القعود عن الغزو ﴿وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ لما فيه من الذل والصغر وحرمان الغنيمة والأجر ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قال ابن عباس: كنت ردف النبى ﷺ فقال: «يا بن عباس ارضَ عن الله بما قدّر وإنْ كان خلاف هواك إنه مثبت فى كتاب الله».

قلت: يا رسول الله أين وقد قرأت القرآن، قال: «مكانين ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

عاصم بن على المسعودى قال: قال الحسن: لا تكره الملمات الواقعة والبلايا الحادثة فلربَّ أمر تكرهه فيه نجاتك، ولربّ أمر ترجوه فيه عطبك، وأنشد أبو سعيد الضرير:

ربَّ أمر تتقيه جرَّ أمرًا ترتضيه   خفى المحبوب منه وبدا المكروه فيه

وأنشد محمد بن عرفة لعبد الله بن المعتز:

لا تكره المكروه عند نزوله   إن الحوادث لم تزل متباينه
كم نعمة لا تستقل بشكرها   لله فى درج الحوادث كامنه

عبد الرحمن بن أبى حاتم عن أبيه قال: بعث المتوكل إلى محمد بن الليث رسولاً وقد كان بقى مدة فى منزله فلمّا أتاه الرسول امتثل فركب بلا روح خوفًا فمر به رجل وهو يقول:

كم مرّة حفّت بك المكاره   خارَ لك الله وأنت كاره

فلما دخل على المتوكل ولاّه مصر وأمر له بمائة ألف وجميع ما يحتاج إليه من الآلات والدواب والغلمان.

قال الثعلبى: أنشدنى الحسن بن محمد قال: أنشدنى أبو سعيد أحمد بن محمد بن رميح قال: أنشدنى محمد بن الفرحان:

كم فرحة مطوية لك بين أثناء النوائب   ومضرّة قد أقبلت من حيث تنتظر المصائب

قال: وأنشدنا أبو القاسم الحبيبى قال: أنشدنا أبو عبد الله الوضاحى:

ربّما خُيِّر الفتى وهو للخير كاره   ثم يأتى السرور من حيث تأتى المكاره

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾: الآية، قال المفسّرون: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش وهو ابن عمّة النبى ﷺ فى جمادى الآخرة قبل قتال بدر بشهرين على رأس ستة عشر شهراً من مقدمه المدينة، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين: سعد بن أبى وقاص الزهرى وعكاشة بن محصن الأسدى وعتبة بن غزوان السلمى وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وسهيل ابن بيضاء وعامر بن ربيعة وواقد بن عبد الله وخالد بن بكر وكتب بإمرة عبد الله بن جحش كتابًا وقال: سر على اسم الله ولا تنظر فى الكتاب حتى تسير يومين، فإذا نزلت منزلين فافتح الكتاب واقرأه على أصحابك، ثم امض لما أمرتك، ولا تُكرهنّ أحدًا من أصحابك على السير

معك، فسار عبد الله يومين ثم نزل وفتح الكتاب فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فسر على بركة الله بمن تبعك من أصحابك حتى تنزل بطن نخلة فترصّد بها عير قريش لعلّك أن تأتينا منه بخبر، فلمّا نظر عبد الله بن جحش قال: سمعًا وطاعة ثم قال ذلك لأصحابه وقال: إنه قد نهانى أن استكره أحدًا منكم، فمن كان يريد الشهادة فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فإنى ماض لأمر رسول الله ﷺ.

ثم مضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه أحد حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له: نجوان أضلّ سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بعيرًا لهما كانا يتعقبانه فاستأذنا أن يتخلفا فى طلب بعيرهما، فأذن لهما فتخلفا فى طلبه، ومضى عبد الله ببقيتهم حتى نزلوا بطن نخلة بين مكة والطائف، فبينا هم كذلك إذ مرّ بهم عير لقريش تحمل زبيبًا وأديمًا وتجارة من تجار الطائف فيهم عمرو بن الحضرمى والحكم بن كيسان وعثمان بن عبد الله بن المغيرة ونوفل بن عبد الله المخزوميان، فلمّا رأوا أصحاب رسول الله ﷺ خافوهم، فقال عبد الله بن جحش: إنّ القوم قد ذعروا منكم فاحلقوا رأس رجل منكم فليتعرض لهم فإذا رأوه محلوقًا أمنُوا، وقالوا: قوم عُمّار، فحلقوا رأس عكاشة ثم أشرف عليهم وقالوا: قوم عُمّار لا بأس عليكم فأمنوهم.

وكان ذلك فى آخر يوم من جمادى الآخرة وكانوا يرون أنه من جمادى وهو من رجب، فتشاور القوم بينهم وقالوا: لئن تركتموهم هذه الليلة لتدخلنّ الحرم فليمنعنّ منكم فأجمعوا أمركم فى مواقعة القوم فرمى واقد بن عبد الله السهمى عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله، فكان أول قتيل من المشركين واستأسروا الحكم وعثمان فكانا أول أسيرين فى الإسلام وأفلت الآخران فأعجزاهم، واستاق المؤمنون العير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة، فقالت قريش: قد استحل محمد الشهر الحرام، شهرًا يأمن فيه الخائف وينذعر فيه الناس لمعايشهم، فسفك فيه الدماء، وأخذ فيه الحرائر، وعيّر بذلك أهل مكة من كان بها من المسلمين، وقالوا يا معشر الصباة استحللتم الشهر الحرام وقاتلتم فيه، وتفاءلت اليهود بذلك وقالوا: واقد: وقدت الحرب، وعمرو: عمرت الحرب، والحضرمى: حضرت الحرب.

وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لابن جحش وأصحابه: ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام، ودفعت العير والأسيرين فأبى أن يأخذ من ذلك شيئًا، فعظم ذلك على أصحاب السرية وظنوا أن قد هلكوا وسقطوا فى أيديهم وقالوا: يا رسول الله إنّا قتلنا ابن الحضرمى ثم أمسينا فنظرنا إلى هلال رجب فلا ندرى أفى رجب أمسينا أم فى جمادى، وأكثر الناس فى ذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية فأخذ رسول الله العير فعزل منها الخمس، فكان أول خمس فى الإسلام،

وقسّم الباقى بين أصحاب السرية، فكان أول غنيمة فى الإسلام، وبعث أهل مكة فى فداء أسيرهم فقال: بل نوقفهم حتى يقدم سعد وعتبة وإن لم يقدما قتلناهما، فلمّا قدما فداهم.

وأما الحكم بن كيسان فأسلم وأقام مع رسول الله ﷺ بالمدينة فقُتل يوم بئر معونة شهيدًا، وأمّا عثمان بن عبد الله فرجع إلى مكة ومات فيها كافرًا، وأمّا نوفل فضَرب بطن فرسه يوم الأحزاب ليدخل الخندق على المسلمين، فوقع فى الخندق مع فرسه فتحطّما جميعًا، وقتله الله وحجب المشركون جيفته بالثمن فقال رسول الله ﷺ: «خذوه فإنه خبيث الجيفة خبيث الدية» فهذا سبب نزول قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ يعنى توخيًا، سُمى بذلك لتحريم القتال فيه لعظم حرمته، وكذلك كان يسمى فى الجاهلية، تنزع الأسنّة وتفصل النصال، لأنهم كانوا ينزعون الأسنة والنصال عند دخول رجب انطواء على ترك القتال فيه، وكان يدعى الأصم لأنه لا تسمع فيه قعقعة السلاح فنسب الصمم إليه، كما قيل: ليل نائم، وسرٌّ كاتم.

يدل عليه ما روى عطاء عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن رجب شهر الله ويدعى الأصمّ، وكان أهل الجاهلية إذا دخل رجب يعطلون أسلحتهم ويضعونها، وكان الناس يأمنون ويأمن السبيل فلا يخاف بعضهم بعضًا حتى ينقضى».

﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ : خفضه على تكرير (عن) تقديره: وهل قتال فيه وكذلك هى فى قراءة عبد الله ابن مسعود والربيع بن أنس ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ عظيم ثم كلام ثم قتال: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ منع عن سبيل الله على الابتداء وخبره أكبر، وذلك حين منعوا رسول الله ﷺ عن البيت ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾ أى بالله ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أى وبالمسجد ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ﴾ أى أهل المسجد ﴿مِنْهُ أَكْبَرُ﴾ وأعظم وزرًا وعقوبة ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ﴾ أى الشرك أكبر من القتل، يعنى قتل ابن الحضرمى فلمّا نزلت هذه الآية كتب عبد الله بن جحش إلى مؤمنى مكّة: إذا عيركم المشركون بالقتال فى الشهر الحرام فعيروهم أنتم بالكفر وإخراج رسول الله ﷺ من مكّة ومنعهم عن البيت.

ثم قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾ يعنى مشركى قريش وهو فعل لا مفعول له مثل عسى ﴿يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ﴾ يصدوكم ويصرفوكم ﴿عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ﴾ جزم بالنسق ولو كان جوابًا كان . . .[1] ﴿وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ﴾ بطلت ﴿أَعْمَـٰلُهُمْ﴾ حسناتهم ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ وأصل الحبط من الحباط، وهو أن تنتفخ بطنه فيموت، ثم سمى الهلال حبطًا، وقرأ الحسن حَبطت بفتح الباء فى جميع القرآن يحبط بكسر

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

الباء ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فقال أصحاب السرية : يا رسول الله هل نؤثم على رجبنا وهل نطمع أن يكون سفرنا هذا غزواً؟ فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ فارقوا عشائرهم ومنازلهم وأموالهم ﴿وَجَٰهَدُواْ﴾ المشركين فى نصرة الدين ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فى طاعة الله، فجعلها جهاداً ﴿أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ نزلت فى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومعاذ بن جبل ونفر من الأنصار أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله أفتنا فى الخمر والميسر فإنها مذهبة للعقل، مسلبة للمال، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وجملة القول أن تحريم الخمر على أقوال المفسرين والحُفّاظ مختلفة وبعضها متفقة. هى أن الله أنزل فى الخمر أربع آيات نزلت بمكة ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ (النحل: ٦٧) وهو المسكر، وكان المسلمون يشربونها وهى لهم يومئذ حلال، ونزلت فى مسألة عمر ومعاذ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ فلما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : «إنّ ربكم تقدم فى تحريم الخمر». فتركها قوم لقوله: ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ وقالوا : لا حاجة لنا فى شىء فيه إثم كبير لقوله : ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ وكانوا يتمتعون بمنافعها ويجتنبون آثامها إلى أن صنع عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعا ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ وأمامهم الخمر فشربوا وسكروا، وحضرت صلاة المغرب فقدموا بعضهم ليصلى بهم فقرأ (قل يا أيها الكافرون. أعبد ما تعبدون) إلى آخر السورة فحذف (لا)، فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ فحرّم المسكر

فى أوقات الصلاة فقال عمر: إنّ الله يقارب فى النهى عن شرب الخمرة، فلا أراه إلاّ وسيحرمها فلما نزلت حرم الله تركها قوم وقالوا: لا خير فى شىء يحول بيننا وبين الصلاة.

وكان قوم يشربونها ويجلسون فى بيوتهم، وكانوا يتركونها أوقات الصلاة، ويشربونها فى غير حين الصلاة إلى أن شربها رجل من المسلمين فجعل ينوح على قتلى بدر ويقول:

تحيتى بالسلامة أُم بكر ... وهل لك بعد رهطك من سلام

ذرينى أصطبح بكَرًا فإنى ... ليت الموت يبعد عن خيام

وودّ بنو المغيرة لو فدوه ... بألف من رجال أو سوام

كأنى بالطوى طوى بدر ... من الشيزى يكلل بالسنام

كأنى بالطوى طوىّ بدر ... من الفتيان والحلل الكرام

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج مسرعًا يجرّ رداءه حتى انتهى إليه ورفع شيئًا كان بيده ليضربه، فلمّا عاينه الرجل قال: أعوذ بالله من غضب الله وغضب رسول الله، والله لا أطعمها أبدًا.

وكان من حمزة بن عبد المطلب ما روى الزهرى عن على بن الحسين عن أبيه عن جده عليهم السلام قال: كانت لى شارف من نصيبى من المغنم ودفع إلىّ رسول الله ﷺ عليه نثاره من الخمس . . . . . من الصواغين وأستعين بثمنه على الدخول بفاطمة وعرسها.

قال: فحملت شارفى عند حائط رجل من الأنصار ومضيت لأجمع الحبال والغرائر والأقتاب وجئت وقد بقر بطن شارفى واجتبّ تسنمتهما قال: فلم أملك عينى أن بكيت ثم قلت: من فعل هذا بشارفى؟ قالوا: عمّك فعله وهذا هو فى البيت معه شراب، عندهم قينة وحلفوا فقالت:

ألا يا حمزُ المشرف النواء ... وهنّ معقّلات بالفناء

زج السكين فى اللبات منها ... فضرجهن حمزة بالدماء

وأطعم من شرائحها كبابا ... مهلوجة على رهج الصلاء

فأصلح من أطايبها طبيخًا ... لشربك من قدير أو شواء

فأنت أبا عمارة المرجّى ... لكشف الضرّ عنّا والبلاء

فقام إلى شارفيك فقتلهما، قال على: فجئت رسول الله ﷺ وهو فى بيت أم سلمة معه مولاه زيد قال: ما جاء بك فداك أبى وأمى يا علىّ، قلت: ما فعل عمك بشارفىَّ وخبّرته

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

الخبر، فقام رسول الله ﷺ فلبس نعليه ورداءه ثم انطلق يمشى واتبعته أنا وزيد فسلم واستأذن ودخل البيت وقال: يا حمزة ما حملك على ما فعلت بشارفى ابن أخيك؟ فرفع رأسه وجعل ينظر إلى يدى رسول الله ﷺ وإلى ساقيه، فصوّب النظر إليه، ثم قال: ألستم وآباؤكم عبيد لأبى، فرجع رسول الله ﷺ القهقرى وقال: إن غنمك وجمالك علىّ فغرمهما لى رسول الله ﷺ.

فلما أصبح غدا حمزة على رسول الله ﷺ يعتذر فقال: مه يا عمّ فقد سألت الله فعفا عنك.

قالوا: واتخذ عتبان بن مالك طعامًا فدعا رجالاً من المسلمين فيهم سعد بن أبى وقاص وكان قد شوى لهم رأس بعير، فأكلوا وشربوا الخمر حتى أخذت منهم، ثم إنهم افتخروا عند عتبان وانتسبوا وتناشدوا الأشعار، فأنشد سعد قصيدة فيها هجو الأنصار وفخر لقومه، فقام رجل من الأنصار وأخذ لحيى البعير فضرب به رأس سعد فشجّه شجّةً، فانطلق سعد إلى رسول الله ﷺ وشكا إليه الأنصارى فقال عمر رضى الله عنه: اللهم بيّن لنا رأيك فى الخمر بيانًا وافيًا، فأنزل الله تحريم الخمر فى سورة المائدة ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ (المائدة: ٩٠) إلى ﴿مُّنتَهُونَ﴾ (المائدة: ٩١) وذلك بعد غزوة الأحزاب بأيام فقال عمر: انتهينا يا رب.

قال أنس: حرمت ولم يكن يومئذ للعرب عيش أعجب منها إليهم يوم حرمت عليهم، ولم يكن شىء أثقل عليهم من تحريمها قال: فأخرجنا الحباب إلى الطريق فصببنا ما فيه، فمنا من كسر حبه، ومنا من غسله بالماء والطين، ولقد غدت أزقة المدينة بعد ذلك الحين كلما مطرت استبان بها لون الخمر وفاحت ريحها.

فأمّا ما هية الخمر فاختلف الفقهاء فيها فقال بعضهم: هو خاص فيما اعتصر من العنبة والنخلة فغلى بطبعه دون عمل النار فيه فإن ما سوى ذلك ليس بخمر، وهذا مذهب سفيان الثورى وأبى حنيفة وأبى يوسف وأكثر أهل الرأى، ثم اختلفوا فى المطبوخ فقالوا: كل عصير طبخ حتى يذهب ثلثاه فهو حلال إلاّ أنه يكره، فإن طبخ حتى يذهب ثلثاه وبقى ثلثه فهو حلال مباح شربه وبيعه إلا أن المسكر منه حرام، واحتجوا فى ذلك بما روى أبو كثير عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الخمر من هاتين الشجرتين النخلة والعنبة». واختلفوا فى المطبوخ بالمشمس . . . .[1] روى نباتة عن سويد بن غفلة قال: كتب عمر بن الخطاب إلى بعض عماله أن رزق المسلمين من الطلاء ما ذهب ثلثاه وبقى ثلثه.

وعن ابن سيرين أن عبد الله بن سويد الخطمى قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب: أما بعد

(١) بياض بالأصل المخطوط.

فاطبخوا شرابكم حتى يذهب منه نصيب الشيطان فإنه له اثنين ولكم واحد .

وعن أنس بن سيرين قال : سمعت أنس بن مالك يقول إن نوحًا عليه السلام نازعه الشيطان فى عود الكرم فقال هذا : هذا لى ، وقال هذا : هذا لى فاصطلحا على أن لنوح ثلثها وللشيطان ثلثاها .

ابن أُبىّ وأُبىّ عن داود قال : سألت سعيد بن المسيّب ما الرُّب الذى أحلّه عمر رضى الله عنه ، قال : الذى يطبخ حتى يذهب ثلثاه ويبقى ثلثه .

وعن قيس بن أُبى حدّث عن موسى الأموى أنه كان يشرب من الطلاء ما ذهب ثلثاه وبقى ثلثه .

وعن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال : إذا طبخ الطلاء على الثلث فلا بأس ، وبه قال المسوّر .

وقال الثعلبى : والذى عندى أن هذه الأخبار وردت فى ثلث غير مسكر . يدلّ عليه ما روى سويد بن نصير عن عبد الله بن عبد الملك بن الطفيل الجزرى قال : كتب إلينا عمر بن عبد العزيز : لا تشربوا من الطلاء حتى يذهب ثلثاه ويبقى ثلثه ، كل مسكر حرام ، وقال قوم : إذا طبخ العصير أدنى طبخ فصار طلاء وهو قول إسماعيل بن علية وجماعة من أهل العراق .

وروى عن عيسى بن إبراهيم أنه لا يحرّم شيئًا من الأنبذة لا النىّ منها ولا المطبوخ إلا شراب واحد ، وهو عصير العنب النيئ الشديد الذى لم يدخله (ماء وتغيرات من) الخمر فقط .

واستدل بما روى ابن الأحوص عن سماك عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى بردة ابن سهل قال : قال رسول الله ﷺ : «اشربوا فى الظروف ولا تسكروا» قال أبو عبد الرحمن السّدى الحديث منكر ، غلط فيه أبو الأحوص سلام بن سليم ، لا نعلم أحدًا كان يعول عليه من أصحاب سماك ، وسماك أيضًا ليس بقوى ، وكان يقبل التلقين .

قال أحمد : قيل : كان أبو الأحوص غلا فى هذا الحديث . خالفه شريك فى إسناده ولفظه ، رواه شريك عن سماك بن حرب عن أبى بريدة عن أبيه أن رسول الله ﷺ نهى عن الدبّا والحنتم والنقير والمزفت ، وأجمعوا أيضًا بما أسندوا إلى سماك عن قرصافة امرأة منهم عن عائشة قال : اشربوا ولا تسكروا .

قال الإمام أبو عبد الرحمن هذا غير ثابت ، وقرصافة لا ندرى من هى ، والمشهور عن عائشة ما روى سويد بن نصر عن عبد الله عن قدامة العامرى أن جسرة بنت دجاجة العامرية

حدثتنا قالت: سمعت عائشة سألها إياس عن النبيذ قالوا: ننبذ الخمر غدوة ونشربه عشيًا، وننبذه عشيًا ونشربه غدوة، قالت: لا أُحلّ مسكرًا وإن كان خبزًا، قالوا: قالته ثلاث مرات.

واعتلّوا بما روى هشيم عن ابن شبرمة قال: حدثنى الثقة عن عبد الله بن شدّاد عن ابن عباس قال: حرمت الخمر منها، قليلها وكثيرها، والمسكر من كل شراب.

وهذا أولى بالصواب لما روى سفيان عن أبى الجويرية الجرمى قال: سألت ابن عباس عن الباذق قال: ما أسكر فهو حرام، وعن شعبة عن سلمة بن كميل قال: سمعت أبا الحكم يحدّث قال: قال ابن عباس: من سرهّ أن يحرّم ما حرم الله ورسوله فليحرِّم النبيذ.

واعتلوا أيضًا بما أسندوه إلى عبد الملك بن نافع قال: رأيت ابن عمر رأيت رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ بقدح فيها نبيذ وهو عند الركن، فدفع إليه القدح فرفعه إلى فيه فوجده شديدًا فرده إلى صاحبه، فقال له رجل من القوم: يا رسول الله أحرام هو؟ قال، علىَّ بالرجل فأتى به فأخذ منه القدح، ثم دعاهما فصبّه فيه ثم رفعه إلى فيه فصبه، ثم دعاهما أيضًا فصبه فيه ثم قال: أما إذا عملت فيكم هذه الأوعية فاكسروا متونها بالماء.

قال أبو عبد الرحمن: عبد الملك بن رافع هو مشهور ولكن حدّثنيه وأخبرنا عن الزبير خلاف حكاية ما روى وهب بن هارون عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مسكر حرام، وكل مسكر خمر».

وروى ابن سيرين عن ابن عمر قال: المسكر قليله وكثيره حرام، وروى أبو عوانة عن زيد ابن عمر قال: سألت ابن عمر عن الأشربة فقال: اجتنب كل شىء فيه شىء مسكر، واحتجوا أيضًا بما أسندوه إلى يحيى بن يمان عن سفيان عن منصور عن مخلد بن سعيد عن ابن مسعود قال: عطش النبى ﷺ حول الكعبة فاستسقى فأتى بنبيذ من السقاية فشمّه وقطب وقال: «علىَّ بذنوب من زمزم» فصبه عليه ثم شرب فقال رجل: أحرام هو يا رسول الله قال: «لا».

قال أبو عبد الرحمن: هذا خبر ضعيف لأن يحيى بن يمان انفرد به دون أصحابه سفيان، ويحيى بن يمان لا يحتج بحديثه، لكثرة خطئه وسوء حفظه، وعن زيد بن واقد عن خالد بن الحسين قال: سمعت أبا هريرة يقول: علمت أن رسول الله ﷺ كان يصوم فى بعض الأيام التى كان يصومها، فتحينت فطره بنبيذ صنعته فى دباء، فلمّا كان المساء جئته أحملها إليه فقلت يا رسول الله إنى علمت أنك تصوم فى هذا اليوم فتحينت فطرك بهذا النبيذ فقال: ادنُ منى يا أبا هريرة فرفعه إليه فإذا هو ينش فقال: «خذ هذه واضرب به الحائط، فإن هذا شراب من لا يؤمن بالله واليوم الآخر».

واحتجوا أيضًا بما أسندوه إلى سفيان عن يحيى بن سعيد قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: تلقت ثقيف عمر بشراب فدعا به، فلمّا قربه إلى فيه كرهه فخلطه بالماء فقال: هكذا فافعلوا. واحتجوا بما أسندوه إلى أبى رافع أن عمر بن الخطاب قال إذا خشيت من نبيذ لشدّته فاكسره.

واحتجوا بما قاله بعض أصحابنا وهو عبد الله بن المبارك معنى اكسره بالماء من قبل أن يشتدّ، ودليل هذا التأويل ما روى ابن شهاب هو سفيان بن يزيد أن عمر خرج عليهم فقال: إنى وجدت من فلان ريح الشراب فزعم أنه شرب الطلا فإنى سائل عما يشرب فإن كان مسكراً جلدته فجلده عمر الحدّ تامًّا.

وروى إبراهيم عن ابن سيرين قال: يعد عصيراً ممن متّخذه طلا ولا يتخذه خمراً قال أبو سعيد الطلا الذى قد طبخ حتى ذهب ثلثاه وبقى ثلثه، سمى بذلك لأنه شبيه بطلاء الإبل فى ثخنه وسواده.

قال عبيد بن الأبرص:

هى الخمر تكنى الطلاء كما الذئب يكنى أبا جعدة

قال الثعلبى: الطلاء الذى ورد فيه الرخصة إنما هو الرُّبّ فإنه إذا طبخ حتى يرجع إلى الثلث فقد ذهب سكره وشرّه وخلا شيطانه.

واحتجوا أيضًا بما روى هشيم عن المغيرة عن إبراهيم أنه أهدى له بطيخ خاثر فكان تبيّنه ويلغى فيه المسكر.

وعن مغيرة عن أبى معشر عن إبراهيم قال: لا بأس بنبيذ البطيخ.

عن أبى أسامة قال: سمعت ابن المبارك يقول: ما وجدت الرخصة فى المسكر عن أحد صحيح إلاّ عن إبراهيم.

حماد بن سلمة عن عمر عن أنس قال: كان لأُم سلمة قدح فقالت: سقيت رسول الله ﷺ كل الشراب: الماء والعسل واللبن والنبيذ.

وعن ابن شبرمة قال: قال طلحة بن مصرف لأهل الكوفة فى النبيذ فقال: يربو فيها الصغير ويهرم فيها الكبير، قال: وكان المقداد والزبير يسقيان اللبن فى العسل فقيل لطلحة: ألا نسقيهم النبيذ؟ قال: إنى أكره أن يسكر مسلم فى سنتى.

وعن سفيان قال: ذُكر قول طلحة عند أبى إسحاق فى النبيذ فقال ابن إسحاق: قد سقيته أصحاب علىّ وأصحاب عبد الله فى الخوافى قبل أن يولد طلحة، وعن ابن شبرمة قال: رحم

الله إبراهيم شدّد الناس فى النبيذ ورخّص فيه.

واحتجوا أيضًا بما أسندوه إلى عبد الله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله ﷺ بينما هو يسير إذ حل بقوم فسمع لهم لغطًا فقال: ما هذا الصوت؟ قالوا: يا نبى الله لهم شراب يشربونه، فبعث النبى إليهم فدعاهم فقال: فى أى شىء تنبذون؟ قالوا: ننبذ فى النقير وفى الدباء وليس لنا ظروف، فقال: لا تشربوا إلاّ ما أوكيتم عليه، قال: فلبث بذلك ما شاء الله أن يلبث، فرجع إليهم فإذا هم قد أصابهم وباء وصفروا فقال: ما لى أراكم قد هلكتم؟ قالوا: يا نبى الله أرضنا وبيئة وحرّمت علينا إلا ما أوكينا عليه قال: اشربوا، وكل مسكر حرام.

قالوا: أراد بهذا الخمر الذى يحصل منه السكر، لأن التنبّذ ذلك الطرب والنشاط ولا يحصلان إلاّ عن شراب مسكر.

أبو الزبير عن جابر أن النبى ﷺ كان بنبذ له فى قدر من عفاره.

قال الثعلبى: ويحتمل أنّ لهذه الأخبار وأمثالها معنيين: أحدهما أنها كانت قبل تحريم الخمر، والمعنى الآخر وهو أقربهما إلى الصواب أنهم أرادوا بالنبيذ الماء الذى ألقى فيه التمر أو الزبيب حتى أخذ من قوته وحلاوته قبل أن يشتدّ ويُسكر، يدلّ عليه ما روى عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يصنع له النبيذ فيشربه يومه والغد وبعد الغد.

وروى الأعمش عن يحيى بن أبى عمرو عن ابن عباس قال: كان النبى ﷺ يُنبذ له نبيذ الزبيب من الليل ويُجعل فى سقاء فيشربه يومه ذلك والغد وبعد الغد، فإذا كان من آخر الآنية سقاه أو شربه فإن أصبح منه شىء أراقه.

وعن عبد الله بن الديلمى عن أبيه فيروز قال: قدمت على رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إنّا أصحاب كرم وقد أنزل الله تحريم الخمر، فماذا نصنع؟ قال: تتخذونه زبيبًا، قلت: فنصنع بالزبيب ماذا، قال: تنقعونه على غدائكم، وتشربونه على عشائكم، وتنقعونه على عشائكم، وتشربونه على غدائكم، قلت: أفلا نؤخره حتى يشتد؟ قال: فلا تجعلوه فى السلال واجعلوه فى الشنان، فإنه إن تأخر صار خمراً.

وعن نافع عن ابن عمر أنه كان يُنبذ له فى سقاء للزبيب غدوة فيشربه من الليل، ويُنبذ له عشوة فيشربه غدوة، وكان يغسل الأسقية ولا يجعل فيها نرديًا ولا شيئًا، قال نافع: وكنّا نشربه مثل العسل.

وعن بسام قال: سألت أبا جعفر عن النبيذ قال: كان علىّ بن الحسين يُنبذ له من الليل فيشربه غدوة، ويُنبذ له غدوة فيشربه من الليل.

وعن عبد الله قال: سمعت سفيان ـ وسئل عن النبيذ ـ قال: أنبذ عشاءً وأشربه غدوة.

فهذه الأخبار تدلّ على أنه نقيع الزبيب والتمر قبل أن يشتد، وبالله التوفيق.

وقال مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأبو ثور وأكثر أهل الآثار: إن الخمر كل شراب مسكر سواء كان عصير العنب ما أُريد منها، مطبوخًا كان أو نيًّا وكل شراب مسكر فهو حرام قليله وكثيره. وعلى شاربه الحدّ إلاّ أن يتناول المطبوخ بعد ذهاب ثلثه فإنه لا يحدّ وشهادته لا تُرد، والذي يدلّ على حجّة هذا المذهب من اللغة أن الخمر أصله الستر، ويقال لكل شيء ستر شيئًا من شجر أو حجر أو غيرهما خمر، وقال: وخمر فلان في خمار الناس، ومنه خمار المرأة وخمرة السجادة، والخمر سُمىّ بذلك لأنه يستر العقل، يدلّ عليه ما روى الشعبي عن ابن عمر قال: خطب عمر فقال: إن الخمر نزل تحريمها، وهي من خمسة أشياء: العنب والتمر والحنطة والشعير والعسل، والخمر ما خامر العقل. وقال أنس بن مالك: سُمّيت خمرًا لأنهم كانوا يَدَعونها في الدّنان حتى تختمر وتتغيّر.

وقال سعيد بن المسّيب: إنّما سُميت الخمر لأنها تُركتْ حتى صفا صفورها ورسب كدرها.

وقال أنس: لقد حُرّمت الخمر وإنّما عامة خمورهم يومئذ الفضيخ قال: وما كانوا بالمدينة يصنعون الخمر وما عندهم من العنب ما يتخذون وإنما نسمع الخمور في بلاد الأعاجم وكنا نشرب الفضيخ من التمر والبسر، والفضيخ ما افتضخ من التمر والبسر من غير أن تمسّه النار.

وفيه روى عن ابن عمر أنه قال: ليس بالفضيخ ولكنه الفضوخ، ودليلهم من السنّة ما روى نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «كل مسكر خمر، وكل خمر مسكر حرام».

سالم بن عبد الله عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مسكر خمر وما أسكر كثيره فقليله حرام».

عن أبي عثمان عمرو بن سالم الأنصاري عن القاسم عن عائشة عن رسول الله ﷺ قال: ما أسكر الفرق منه فملء كفك منه حرام والفرق إناء يحمل ستة عشر رطلاً.

وعن أبي الغصن الملقب بحجى قال: قال لي: هشام بن عروة: هل تشرب النبيذ؟ قلت نعم والله إني لأشربه قال: إن أبي حدّثني عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «كل مسكر حرام أوّله وآخره».

وقال رسول الله ﷺ: إنّ من التمر لخمرًا، وإنّ من العنب لخمرًا، وإنّ من الزبيب لخمرًا، وإنّ من العسل لخمرًا، وإنّ من الحنطة لخمرًا، وإنّ من الشعير لخمرًا، وإنّ من الذرة لخمرًا وأنا أنهاكم عن كل مسكر».

وعن ابن سيرين قال: جاء رجل إلى ابن عمر فقال: إنّ أهلنا ينبذون لنا شرابًا عشاءً فإذا أصبحنا شربناه. فقال: أنهاك عن المسكر قليله وكثيره وأعبد الله عزّ وجلّ، وأنا أنهاك عن المسكر قليله وكثيره وأعبد الله عزّ وجل، عليك أن أهل خيبر ينبذون شرابًا لهم كذا وكذا يسمونه كذا وكذا، وأن أبيك ينبذ شرابًا من كذا وكذا يسمّونه كذا وكذا وهى الخمر، حتى عدّ له أربعة أشربة آخرها العسل.

وعن عكرمة قال: دخل النبى ﷺ على بعض أزواجه وقد نبذوا العصير لهم فى كوز فأراقه وكسر الكوز.

روى عبادة بن الصامت أن النبى ﷺ قال: «ليستحلّنّ ناس من أمتى الخمر باسم يسمّونها إيّاه».

ويُروى عنه أنه قال ﷺ: «أما الخمر لم تحرم لاسمها إنما حرمت لما فيها، وكل شراب عاقبته الخمر فهو حرام».

وحكى أن رجلاً من حكماء العرب قيل له: لم لا تشرب النبيذ؟ فقال: الله منحنى عقلاً صحيحًا، فكيف أدخل عليه ما يفسده.

﴿وَٱلْمَيْسِرِ﴾: يعنى القمار قال ابن عباس: كان الرجل فى الجاهلية يقامره الرجل على أهله وماله فأيهما قامر صاحبه ذهب بماله وأهله فأنزل الله تعالى هذه الآية.

والميسر مفعل من قول القائل: يسر هذا الشىء إذا وجب فهو ييسر يسراً وميسراً، والياسر الرامى بقداح وجب ذلك أو مباحه أو غيرهما، ثم قيل للقمار: ميسر، وللمقامر: ياسر ويسر قال النابغة:

أو ياسر ذهب القداح بوفره أسف نأكله الصديق مخلع

وقال الآخر:

فبتّ كأننى يسر غبين يقلب بعدما اختلع القداحا

وقال مقاتل: سمى ميسراً لأنهم كانوا يقولون: يسر هو لنا ثمن الجزور، وكان أصل اليسر فى الجزور، وذلك أنّ أهل الثروة من العرب كانوا يشترون جزوراً فيحزّونها ويجزونها اجتزاءً.

واختلفوا فى عدد الأجزاء فقال أبو عمرو: عشرة وقال الأصمعى: إنما هى عشرون ثم يضمّون عليها عشرة أقداح ويقال: منه الأزلام والأقلام سبعة منها لها أنصباء هى: الفذ وله نصيب واحد، والتّوأم وله نصيبان، والرفت وله ثلاثة، والجلس وله أربعة، والنافس وله خمسة، والميسيل وله ستة، والمغلّى وله سبعة، وثلاثة منها لا أنصباء لها وهى النسيج

والسفنج والوغد.

ثم يجعلون القداح فى خريطة تسمى الربابة، قال أبو ذؤيب:

وكأنّهــنّ ربابــة وكأنّــــه يسر يفيض على القداح ويصدع

ويضعون الربابة على يد رجل عدل عنهم ويسمى المجيل والمفيض، ثم يجيلها ويخرج قدحًا منها باسم رجل منهم، فأيهم خرج سهمه أخذ نصيبه على قدر ما يخرج، فإنْ خرج له واحد من هذه الثلاثة التى لا أنصباء لها اختلفوا فيه فكل منهم كان لا يعهد شيئًا ويغرّم ثمن الجزور كلّه.

وقال بعضهم: لا يأخذ ولا يغرّم، ويكون ذلك القداح لغوًا فيعاد سهمه ثانيًا فهؤلاء الياسرون والأيسار ثم يدفعون ذلك الجزور إلى الفقراء ولا يأكلون منه شيئًا، وكانوا يفتخرون بذلك ويذمّون من لم يفعل ذلك منهم ويسمّونه البرم، قال متمم بن نويرة:

ولا برمًا تهــدى النساء لعرسه إذا القشع فى برد الشتاء تقعقعا

فأصل هذا القمار الذى كانت العرب تفعله وإنما نهى الله تعالى فى هذه الآية عن أنواع القمار كلّها.

ليث عن طاووس ومجاهد وعطاء قالوا: كل شىء فيه قمار فهو الميسر حتى لعب الصبيان بالعود والكعاب.

عن أبى الأحوص عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم وهاتين الكعبتين الموسومتين فإنّما من ميسر العجم».

وعن جعفر بن محمد عن أبيه أن عليًا كرّم الله وجهه قال فى النرد والشطرنج: هى من الميسر.

وعن القاسم بن محمد أنه قال: كل شىء ألهى عن ذكر الله وعن الصلاة فهو الميسر.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾: ووزر كبير من المخاصمة والمشاتمة وقول الفحش والزور، وزوال العقل والمنع من الصلاة واستحلال مال الغير بغير حق.

قرأ أهل الكوفة إلاّ عاصمًا: كثير بالثاء، وقرأ الباقون بالباء واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لقوله: وإثمهما أكبر من نفعهما، وقوله: حوبًا كبيرًا ﴿وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ وهى ما كانوا يصيبونها فى الخمر من التجارة واللّذة عند شربهما يقول الأعشى:

لنا من صحاها خبث نفس وكابة وذكرى همــوم ما تفك أذاتها

وعنــد العشاء طيب نفس ولذّة ومــال كثير عــدّة نشواتها

ومنفعة الميسر ما يصاب من القمار ويرتفق به الفقراء.

﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾: قال المفسرون: إثم الخمر هو أن الرجل يشرب فيسكر فيؤذى الناس، وإثم الميسر أن يقامر الرجل فيمنع الحق ويظلم.

وقال الضحاك والربيع: المنافع قبل التحريم والإثم بعد التحريم.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾: وذلك أنّ رسول الله ﷺ حثّهم على الصدقة ورغّبهم فيها من غير عزم قالوا: يا رسول الله ماذا ننفق؟ وعلى من نتصدق؟ فأنزل الله تعالى﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾: أى شىء ينفقون وللاستفهام﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾: قرأ الحسن وقتادة وابن أبى إسحاق وأبو عمرو﴿قُلِ ٱلْعَفْوُ﴾: بالرفع، واختاره، محمد بن السدّى على معنى: الذى ينفقون هو العفو، دليله قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (النحل: ٢٤) وقرأ الآخرون بالنصب واختاره أبو عبيد وأبو حاتم: قل ينفقون العفو.

واختلفوا فى معنى العفو، فقال عبد الله بن عمرو ومحمد بن كعب وقتادة وعطاء والسدّى وابن أبى ليلى: هو ما فضل من المال عن العيال، وهى رواية مقسم عن ابن عباس.

الحسن: هو أن لا تجهد مالك فى النفقة ثم تقعد تسأل الناس.

الوالبى عن ابن عباس: ما لا يتبين فى أموالكم. مجاهد: صدقة عن ظهر غنى.

عمرو بن دينار وعطاء: الوسط من النفقة ما لم يكن إسرافًا ولا إقتاراً. الضحاك: الطّاقة.

العوفى عن ابن عباس: ما أتوك به من شىء قليلٌ أو كثير فاقبله منهم.

طاووس وعطاء الخراسانى: سمعنا بشراً قال: العفو اليسر من كل شىء.

الربيع: العفو الطيب، يقول: أفضل مالك هو النفقة.

وكلها متقاربة فى المعنى، ومعنى العفو فى اللغة الزيادة والكثرة قال الله: ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ (الأعراف: ٩٥) أى كثروا، وقال النبى ﷺ: «أعفوا اللحى». قال الشاعر:

ولكنا يعضّ السيف منا   بأسوق عافيات الشحم كوم

أى كثيرات الشحوم، والعفو ما يغمض الإنسان فيه فيأخذه أو يعطيه سهلاً بلا كلف من قول العرب: عفا أى نال سهلاً من غير إكراه، ونظير هذه الآية من الأخبار ما روى أبو هريرة أن رجلاً قال: يا رسول الله عندى خير، قال: «أنفقه على نفسك» قال: عندى آخر، قال: «أنفقه على أهلك» قال: عندى آخر، قال: «أنفقه على ولدك» قال: عندى آخر، قال: أنفقه على والديك» قال: عندى آخر، قال: «أنفقه على قرابتك» قال: عندى آخر قال: «أنت أبصر».

وروى محمود بن سهل عن عامر بن عبد الله قال: أتى رسول الله ﷺ رجل ببيضة من ذهب استلّها من بعض المعادن فقال: يا رسول الله خذها منى صدقة، فوالله ما أمسيت أملك غيرها، فأعرض عنه، فأتاه من ركنه الأيمن فقال له مثل ذلك فأعرض عنه، فأتاه من ركنه الأيسر فقال له مثل ذلك فأعرض عنه، ثم قال له مثل ذلك فقال مغضبًا: هاتها فأخذها منه وحذفه بها حذفة لو أصابه لفجه أو عقره، ثم قال: هل يأتى أحدكم بما يملكه ليتصدق به ويجلس يتكفّف الناس، أفضل الصدقة ما كان عن ظهر غنى، وليبدأ أحدكم بمن يعول.

قال الكلبى: فكان الرجل بعد نزول هذه الآية إذا كان له مال من ذهب أو فضة أو زرع أو ضرع نظر إلى ما يكفيه وعياله نفقة سنة أمسكه وتصدّق بسائره، وإن كان ممن يعمل بيده أمسك ما يكفيه وعياله يومه ذلك وتصدق بالباقى، حتى نزلت آية الزكاة المفروضة فنسخت هذه الآية وكل صدقة أمروا بها قبل نزول الزكاة.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾: قال الزجاج: إنما قال: كذلك على الواحد وهو يخاطب جماعة لأن الجماعة معناها القبيل كأنّه قال: أيّها القبيل يبيّن الله لكم، وجائز أن يكون خطابًا للنبى ﷺ؛ لأن خطابه مشتمل على خطاب أُمّته كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ (الطلاق: ١) وقال المفضل بن سلمة: معنى الآية ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ فى النفقة ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ۝ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فتحبسون من أموالكم ما يصلحكم فى معاش الدنيا، وتنفقون الباقى فيما ينفعكم فى العقبى.

وقال أكثر المفسرين: معناها: يبيّن الله لكم الآيات فى أمر الدنيا والآخرة لعلّكم تتفكرون فى زوال الدنيا وفنائها فتزهدوا فيها، وفى إقبال الآخرة وذهابها فترغبوا فيها.

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾: قال الضحاك والسدى وابن عباس فى رواية عطية: كان العرب فى الجاهلية يعظمون شأن اليتيم ويشدّدون فى أمره حتى كانوا لا يؤاكلونه، ولا يركبون له دابّة، ولا يستخدمون له خادمًا، وكانوا يتشاءمون بملامسة أموالهم، فلمّا جاء الإسلام سألوا عن ذلك رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل هذه الآية.

وقال قتادة والربيع وابن عباس فى رواية سعيد بن جبير وعلى بن أبى طلحة: لمّا نزل فى أمر اليتامى ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ (الإسراء: ٣٤)، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا﴾ (النساء: ١٠) اعتزلوا أموال اليتامى وعزلوا طعامهم من طعامهم، واجتنبوا مخالطتهم فى كل شىء حتى كان يُصنع لليتيم طعام فيفضل منه شىء فيتركونه ولا

يأكلونه حتى يفسد واشتد ذلك عليهم، وسألوا عنه رسول الله ﷺ فنزلت: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾.

﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾: وقرأ طاووس: قلْ إصلاح إليهم خير بمعنى الإصلاح لأموالهم من غير أُجرة، ومن غير عوض عنهم خير وأعظم أجرًا.

﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ﴾: فتشاركوهم فى أموالهم وتخالطوها بأموالكم فى نفقاتكم ومطاعمكم ومساكنكم وخدمكم ودوابّكم، فتصيبوا من أموالهم عوضًا عن قيامكم بأمورهم وتكافئوهم على ما تصيبون من أموالهم ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾: أى فهم إخوانكم، وقرأ أبو مجلز: فإخوانكم نصيبًا أى فخالطوا إخوانكم أو فإخوانكم تخالطون والإخوان يعين بعضهم بعضًا ونصب أعينهم. يقال: بعض على وجه الإصلاح والرضا قالت عائشة: إنّى لأكره أن يكون مال اليتيم عندى كالغرة حتى أخلط طعامه بطعامى وشرابه بشرابى.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾: لها فاتقوا الله فى مال اليتامى، ولا تجعلوا مخالفتكم إيّاهم ذريعة إلى إفساد أموالهم وأكلها بغير حق ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ لضيّق عليكم وآثمكم فى ظلمكم إيّاهم قال ابن عباس: ولو شاء الله لجعل ما أصبتم من أموال اليتامى موبقًا.

وأصل العنت الشدّة والمشقّة يقال: عقبة عنوت أى شاقة كؤود، وقال الزجاج: أصل العنت أن يحدث فى رجل البعير كسر بعد جبر حتى لا يمكنه أن يمشى. قال القطامى:

فما همُ صالحوا من ينتقى عنتى ... ولا همُ كدّروا الخير الذى فعلوا

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾: الآية نزلت فى عمّار بن أبى مرثد الغنوى.

وقال مقاتل: هو أبو مرثد الغنوى واسمه أيمن، وقال عطاء: هو أبو مرثد عمّار بن الحصين، وكان شجاعًا قويًا، فبعثه رسول الله ﷺ إلى مكة ليخرج منها ناسًا من المسلمين سرًا، فلمّا قدمها سمعت به امرأة مشركة يقال لها عناق، وكانت خليلته فى الجاهلية فأتته قالت: يامرثد ألا تخلو؟ فقال لها: ويحك يا عناق إنّ الإسلام قد حال بيننا وبين ذلك، فقالت: فهل لك أن تتزوج بى فقال: نعم ولكن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأستأمره ثم أتزوجك، فقالت: أبى تتبرم، ثم استغاثت عليه فضربوه ضربًا شديدًا ثم خلّوا سبيله، فلمّا قضى حاجته بمكة وانصرف إلى رسول الله ﷺ أعلمه الذى كان من أمر عناق وما لقى بسببها وقال: يا رسول الله أتحل لى أن أتزوجها؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ أى لا تتزوجوا منهن حتى يؤمنّ.

قال المفضل: أصل النكاح الجماع، ثم كثر ذلك حتى قيل للعقد نكاح، كما قيل: عذرة وأصلها فناء الدار لإلقائهم إياه بها، ولذبيحة الصبى عقيقة، وأصلها الشعر الذى يولد للصبى، وهو علّة لذبحهم إيّاها عند جلهم، ونحوها كثير، فحرم الله نكاح المشركات عقدًا ووطئًا، ثم استثنى الحرائر الكتابيات فقال: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ (المائدة: ٥).

ثم قال: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ بجمالها ومالها، نزلت فى خنساء وكانت سوداء كانت لحذيفة بن اليمان فقال: يا خنساء قد ذكرت فى الملأ الأعلى مع سوادك ودمامتك وأنزل الله عزّ وجلّ ذكرك فى كتابه فأعتقها حذيفة وتزوجها.

وقال السدى: نزلت فى عبد الله بن رواحة وكانت له أمة سوداء فغضب عليها وآذاها، ثم فزع إلى النبى ﷺ وأخبره بذلك، فقال له النبى ﷺ وما هو يا أبا عبد الله قال: هى تشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسوله وتصوم شهر رمضان وتحسن الوضوء وتصلى فقال: هذه مؤمنة، فقال عبد الله: فوالذى بعثك بالحق لأعتقنها ولأتزوجنها، ففعل وطعن عليه ناس من المسلمين، قالوا: أتنكح أمة؟ وعرضوا عليه حرة مشركة، وكانوا يرغبون فى نكاح المشركات رجاء إسلامهن، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

ثم قال: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟﴾: ولا تزوّجوا ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾: بماله وحسن حاله.

وعن مروان بن محمد قال: سألت مالك بن أنس عن تزويج العبد فقال: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ﴾: يعنى المشركين إلى النار أى إلى الحال الموجبة للنار ﴿إِلَى ٱلنَّارِ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ﴾: أوامره ونواهيه ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.



﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا

كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ : الآية عطاء بن السائب عن سعد بن بشير عن ابن عباس ما رأيت قومًا كانوا خيرًا من أصحاب رسول الله ﷺ، ما سألوا النبى عن ثلاث عشرة مسألة حتى نزل ذكرهن فى القرآن: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ (البقرة: ٢١٧)، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم﴾ (البقرة: ٢١٥)، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ (البقرة: ٢١٩)، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ (البقرة: ١٨٩)، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ (البقرة: ٢١٩)، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ (البقرة: ٢٢٠)، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ (البقرة: ٢٢٢)، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ (الأعراف: ١٨٧)، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾ (البقرة: ١٨٦)، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ (الأنفال: ١)، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ (الإسراء: ٨٥)، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ (الكهف: ٨٣)، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ (طه: ١٠٥).

قال المفسرون: كانت العرب فى الجاهلية إذا حاضت المرأة لم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يساكنوها فى بيت ولم يجالسوها على فراش كفعل المجوس واليهود.

فسأل أبو الدحداح ثابت بن الدحداح رسول الله عن ذلك وقال: يا رسول الله كيف نصنع بالنساء إذا حضن؟ فأنزل الله ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ أى الحيض، وهو مصدر قولك حاضت المرأة تحيض حيضًا ومحيضًا، مثل السير والمسير، والعيش والمعيش، والكيل والمكيل. وأصل الحيض الانفجار يقال: حاضت الثمرة إذا سال منها شىء كالدم.

﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾: أى قذر، قاله قتادة والسدى، وقال مجاهد والكلبى: دم، والأذى ما يعم ويكره من شىء ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ اعلم أن الحيض يمنع من تسعة أشياء: من الصلاة جوازًا ووجوبًا ومن الصوم جوازًا ثم يلزمها قضاء الصوم ولا يلزمها قضاء الصلاة.

عاصم الأحول عن معادة العدوية أن امرأة سألت عائشة فقالت: الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة فقالت لها: أحرورية أنت؟ فقالت: لست بحرورية ولكنى أسأل، فقالت: كان يصيبنا ذلك على عهد رسول الله ﷺ فنؤمر بقضاء الصوم، ولا نؤمر بقضاء الصلاة.

عياض عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: ما رأيت ناقصات عقل ودين أذهب للبّ الرجل الحازم من إحداهن، فقلن له: وما نقصان عقلنا وديننا يا رسول الله؟ قال: أليس شهادة المرأة على مثل نصف شهادة الرجل فذاك من نقصان عقلها؟ أو ليس إذا حاضت المرأة لم تصل ولم تصم؟ فقلن بلى قال: فذلك من نقصان دينها.

وتمنع أيضًا من قراءة القرآن وقد رخص فيها مالك بعض الرخصة إذا طالت المدّة احترازًا من

نسيان القرآن، والفقهاء على خلافه، وتمنع من مسّ المصحف، ودخول المسجد والاعتكاف فيه، ومن الطواف بالبيت ومن الاحتساب بالعدة ومن الوطء قال الله تعالى: ﴿فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ﴾ فلما نزلت هذه الآية عمد المسلمون إلى النساء الحيض فأخرجوهن من البيوت واعتزلوهن فإذا اغتسلن ردوهن إلى البيت، فقدم بعض من أعراب المدينة فشكوا عزل الحيض معهم وقالوا: يا رسول الله إنّ البرد شديد والثياب قليلة فإن آثرناهنّ بالثياب حال بنا وأهل البيت برد، وإن آثرتنا بالثياب هلكت الحيض، وليس كلنا يجد سعة لذلك فيوسع عليهم جميعًا، فقال لهم رسول الله ﷺ: إنّما أُمرتم أن تعتزلوا مجامعتهن إذا حضن، ولم يأمركم بإخراجهن من البيوت كفعل الأعاجم، وقرأ عليهم هذه الآية.

الناصرى عن سعيد بن السيب عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من وطئ امرأته وهى حائض فقضى منهما ولد فأصابه جذام فلا يلومنّ إلاّ نفسه، ومَن احتجم يوم السبت والأربعاء فأصابه ضرر واضح فلا يلومنّ إلا نفسه».

وإن جامعها أثمَ ولزمته الكفارة، وهى ما روى ابن أبى المخارق عن مقسم عن ابن عباس عن النبى ﷺ أنّ رجلاً جامع امرأته وهى حائض: قال إن كان دمًا عبيطًا فليتصدق بدينار، وإن كان صفرة فنصف دينار.

ولا بأس باستخدام الحائض ومباشرة بدنها إذا كانت مؤتزرة وبالاستمتاع بها فوق الإزار.

قيل لمسروق: ما يحلّ للرجل من امرأته إذا كانت حائضًا؟ قال: كل شىء إلاّ الجماع.

وعن ربيعة بن عبد الرحمن أنّ عائشة كانت مع رسول الله ﷺ مضطجعة فى ثوب واحد وأنها وثبت وثبة شديدة فقال لها رسول الله ﷺ: «ما لكِ لعلّك نفستِ - يعنى الحيضة - قالت: نعم، قال: شدّى عليك إزارك ثم عودى لمضجعك».

معاذ بن هشام عن أبيه عن يحيى عن أبى سلمة أنّ زينب بنت أبى سلمة حدّثت أن أم سلمة حدّثتها قالت: بينا أنا مضطجعة مع رسول الله ﷺ فى الخميلة إذ حضت فانسللت فأخذت ثياب حيضتى، فقال رسول الله ﷺ: أنفست؟ قلت: نعم، فدعانى فاضطجعت معه فى الخميلة.

عن يزيدة مولاة ميمونة زوج النبى ﷺ عن ميمونة قالت: كان رسول الله يباشر المرأة من نسائه وهى حائض إذا كان عليها إزار يبلغ إلى أنصاف الفخذين أو الركبتين.

إبراهيم عن الأسود عن عائشة قالت: كنت أغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناء واحد، ونحن جنبان وكنت أُفلى رأس رسول الله ﷺ وهو معتكف فى المسجد وأنا حائض، وكان

يأمرنى إذا كنت حائضًا أن أتّزر ثم يباشرنى.

ثابت بن عبيدة عن القاسم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: ناولينى الخمرة فقالت: إنى حائض فقال: «إنّ حيضتك ليست فى يدك».

وعن شريح قال: قيل لعائشة: هل تأكل المرأة مع زوجها وهى طامث؟ قالت: نعم، كان رسول الله ﷺ يدعونى فآكل معه وأنا حائض، وكان يأخذ العرق فيقسم علىّ فيه فأعرق منه، ثم أضعه فيأخذه فيعرّق منه ويضع فمه حيث وضعت فمى من العرق ويدعو بالشراب فيقسم علىّ قبله أن أشرب منه فآخذه وأشرب منه، ثم أضعه فيأخذه ويشرب منه ويضع فمه حيث وضعت فمى من القدح.

فدلت هذه الأخبار على أنّ المراد بالاعتزال عن الحيض جماعهنّ، وذلك أن المجوس واليهود كانوا يجتنبون الحيّض فى كل شىء، وكان النصارى يجامعوهن ولا يبالون بالحيض، فأنزل الله تعالى بالاقتصاد بين هذين الأمرين، وخير الأمور أوسطها.

ثابت عن أنس قال: أنزل الله عزّ وجل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ الآية فقال رسول الله ﷺ: افعلوا كل شىء إلا الجماع، فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل، لم يدعْ من أمرنا شيئًا إلاّ خالفنا فيه، فجاء أسد بن حصين وعباد بن بشر إلى رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله إنّ اليهود قالت كذا وكذا، أفلا نجامعهن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ، فظنّا أن قد وجد عليهما، فخرجا فاستقبلتهما هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ، فأرسل فى آثارهما فسقاهما فعرفا أن لم يجد عليهما.

﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾: يعنى لا تجامعوهنّ، ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾: قرأ ابن محيصن والأعمش وعاصم وخمرويه والكسائى يطّهّرن بتشديد الطاء والهاء ومعناه يغتسلن، يدلّ عليه قراءة عبد الله حتى يتطهرن بالتاء على الأصل، وقرأ الباقون ﴿يَطْهُرْنَ﴾: مخففًا ومعناه: حتى يطهرن من حيضهن وينقطع الدم.

واختلف الفقهاء فى الحائض متى يحلّ وطؤها، فقال أبو حنيفة وصاحباه: إذا حاضت المرأة بعشرة أيام حلّ وطؤها دون أن تغتسل، فإن طهرت لما دون العشرة لم يحلّ وطؤها إلاّ بإحدى ثلاث: قلت أن تغتسل أو يمضى بها أقرب وقت الصلاة، فيحكم لها بذلك حكم الطاهرات فى وجوب الصلاة فى زمنها أو تيممًا عند عدم الماء.

مجاهد وطاوس وعطاء: إذا طهرت الحائض من الدم وأخذ زوجها شبق، فإن غسلت فرجها وتوضأت ثم أتاها جاز.

وقال الشافعى: لا يحلّ وطء الحائض إلاّ حين انقطاع الدم والاغتسال، وهو قول سالم بن عبد الله وسليمان بن يسار والقاسم بن محمد وابن شهاب والليث بن سعد وزفر وقال الحسن البصرى: إذا وطئ الرجل امرأته بعد انقطاع الدم قبل أن تغتسل فعليه من الكفارة مثل ما على من يطأ الحائض، فمن قرأ (حتى يطّهرن) بالتشديد فهو حجة للمبيحين، والدليل على أن وطأها لا يجوز ما لم تغتسل أن الله عزّ وجلّ علّق جواز وطئها بشرطين فلا تحل قبل حصولهما، وهما: قوله عزّ وجلّ: ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾، وقوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ أى اغتسلن دليله قوله: ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢) ولا يجهد الإنسان على ما لا صنع له فيه، والاغتسال فعلها وانقطاع الدم ليس من فعلها، ويدلّ عليه أيضًا قوله فى النساء والمائدة ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾ (المائدة: ٦) واطّهر وتطّهر واحد وهو الاغتسال ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ﴾ أى من حيث أمركم أن تعتزلوهن منه وهو الفرج، قاله مجاهد وإبراهيم وقتادة وعكرمة.

الوالبى عن ابن عباس يقول: وطأهنّ فى الفرج، ولا يتعدوه إلى غيره فمن فعل شيئًا من ذلك فقد اعتدى.

الربيع بن عبيد: نهيتم عنه واتقوا الأدبار، وإنما قال: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ﴾ لأن النهى أيضًا أمر بترك المنهى عنه.

وقال قوم: قوله: ﴿فَأْتُوهُنَّ﴾ من الوجه الذى أمركم الله أن تأتوهنّ وهو الطهر، فكأنه قال: فأتوهنّ من قبل طهرهنّ لا من قبل حيضهنّ، وهو قول ابن رزين والضحّاك ورواية عطية عن ابن عباس.

ابن الحنفية: فأتوهنّ من قبل الحلال دون الفجور.

ابن كيسان: لا تأتوهنّ صائمات ولا معتكفات ولا محرمات، وأتوهنّ، واقربوهنّ وغشيانهنّ لكم حلال.

الفراء: مثل قولك: أتيت الأرض من مأتاه أى من الوجه الذى يؤتى منه.

الواقدى معناه ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ﴾ وهو الفرج، نظيره فى سورة الملائكة والأحقاف ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ (الأحقاف: ٤) أى فى الأرض، وقوله: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ (الجمعة: ٩) أى فى يوم الجمعة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾: قال مجاهد عن ابن رزين والكلبى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾: من الذنوب ﴿ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾: من أدبار النساء أن لا يأتوها.

وقال: من أتى المرأة فى دبرها فليس من المتطهرين، فإن دبر المرأة مثله من الرجل.

مقاتل بن حيّان ﴿ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ : من الذنوب و ﴿ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ : من الشرك والجهل.

كنت عند أبى العالية يومًا فتوضأ وضوءًا حسنًا فقلت : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ : فقال : الطهور من الماء حسن ولكنهم المتطهرون من الذنوب.

سعيد بن جبير ﴿ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ : من الشرك و ﴿ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ : من الذنوب.

وعن أبى العالية أيضًا ﴿ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ : من الكفر و ﴿ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ : بالإيمان.

ابن جريج عن مجاهد ﴿ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ : من الذنوب لا يعودون لها و ﴿ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ : هنا لم يصيبوها.

قال الثعلبى : وسمعت أبا القاسم بن محمد بن حبيب يقول : سألت أبا الحسن على بن عبد الرحيم القنّاد عن هذه الآية قال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ من الكبائر و ﴿ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ : من الصغائر. ﴿ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ : من الأفعال و ﴿ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ : من الأقوال.

التوابين من الأقوال والأفعال والمتطهرين من العقود والإضمار. التوابين من الآثام والمتطهرين من الإجرام. التوابين من الجرائر، والمتطهرين من خبث السرائر. التوابين من الذنوب والمتطهرين من العيوب.

والتواب الذى كلما أذنب تاب، نظيره قوله : ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ (الإسراء : ٢٥).

محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «مرّ رجل ممن كان قبلكم فى بنى إسرائيل بجمجمة فنظر إليها فقال : أى ربّ أنت أنت، وأنا أنا، أنت العوّاد بالمغفرة، وأنا العوّاد بالذنوب، ثم خرّ ساجدًا فقيل له : ارفع رأسك فأنا العوّاد بالمغفرة، وأنت العوّاد بالذنوب فرفع رأسه فغفر له».

﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾ : الآية، جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله، هلكت، قال : ما الذى أهلكك؟ قال : حوّلت رحلى البارحة فلم يردّ علىّ شيئًا فأوحى الله تعالى : ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾ يقول أقبل وأدبر واتق الدبر والحيضة.

محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : كان اليهود يقولون : من جامع امرأته وهى مجبيّة من دبرها فى قبلها كان ولدها أحول، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال : كذبت اليهود فأنزل الله تعالى : ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾.

مجاهد عن ابن عباس قال : كان هذا الحى من الأنصار، وهم أهل وثن مع هذا الحى من اليهود، وهم أهل كتاب، وكانوا يرون لهم فضلاً عليهم فى العلم، فكانوا يقتدون بكثير من

فعلهم وكان من شأن أهل الكتاب أن لا يأتوا النساء إلا على حرف، وذلك أيسر ما يكون للمرأة، فكان هذا الحي من الأنصار يأخذون بذلك من فعلهم، وكان هذا الحي من قريش يشرح عن النساء شرحًا منكرًا، ويتلذذون بهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات، فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار، فذهب يصنع بها ذلك فأنكرته عليه وقالت: إنما كنا نؤتى على حرف فإن شئت فاصنع وإلاّ فاجتنبني، حتى انتشر أمرهما فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ﴾ يعني موضع الولد قالوا: ﴿حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ مدبرات ومقبلات ومستلقيات.

قال الحسن وقتادة والمقاتلان والكلبي تذاكر المهاجرون والأنصار واليهود إتيان النساء في مجلس لهم فقال المهاجرون: إنّا نأتيهن باركات وقايمات ومستلقيات ومن بين أيديهن ومن خلفهن، بعد أن يكون المأتى واحدًا في الفرج، فعابت اليهود وقالت: ما أنتم إلاّ أمثال البهائم لكنا نأتيها على هيئة واحدة، فإنا لنجد في التوراة أن كل إتيان يؤتى للنساء غير الاستلقاء دنس عند الله، ومنه يكون الحَوَل والخَبَل، فذكر المسلمون ذلك لرسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله إنّا كنا في جاهليتنا وبعدما أسلمنا نأتي النساء كيف شئنا، فإنّ اليهود عابت ذلك علينا وزعمت أنّا كذا وكذا، فكذّب الله عزّ وجل اليهود، وأنزل رخصة لهم: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ أي كيف شئتم وحيث شئتم ومتى شئتم بعد أن يكون في فرج واحد.

(أنّى) حرف استفهام ويكون سؤالاً عن الحال والمحلّ.

وقال سعيد بن المسيب: هذا في العزل يعني إن شئتم فاعزلوا وإن شئتم فلا تعزلوا.

يحيى بن أبي كثير عن رجل قال: قال عبد الله استأمر الحرّة في العزل ولا تستأمر الأمة، وفي هذه الآية دليل على تحريم أدبار النساء لأنها موضع الفرث لا موضع الحرث، وإنما قال الله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ وهذا من لطف كنايات القرآن حيث عبّر بالحرث عن الفرج فقال: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ أي مزدرع ومنبت الولد، وأراد به المحرث المزدرع، ولكنّهن لما كنّ من أسباب الحرث جُعلن حرثًا.

وقال أهل المعاني: تقدير الآية: نساؤكم كحرث لكم، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ (الكهف: ٩٦) أي كنار، قال الشاعر:

النشر مسك والوجوه دنانير وأطراف الأكف عنم

والعرب تسمى النساء حرثًا، قال المفضل بن سلمة أنشدني أبي:

إذا أكل الجراد حروث قوم فحرثي همّه أكل الجراد

وقال الثعلبى: وأنشدنى أبو القاسم الحسن بن محمد السدوسى، قال: أنشدنى أبو منصور مهلهل بن على العزّى، قال: أنشدنى أبى قال أنشدنا أحمد بن يحيى:

حبّذا من حبّة الله النبات الصالحات ... هى النسل والمزروع بهنّ الشجرات

يجعل الله لنا فيما يشاء البركات ... إنما الأرضون لنا محرثات

فعلينا الزرع فيها وعلى الله النبات

وقد وهم بعض الفقهاء فى تأويل هذه الآية وتعلق بظاهر خبر رواه، وهو ما أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن محمد من رواة الدينورى، حدّثنا محمد بن عيسى الهيّانى أبو بكر الطرسوسى وإسحاق الهروى عن مالك بن أنس عن نافع قال: كنت أمسك على ابن عمر المصحف فقرأ هذه الآية: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾ قال: أتدرى فيما نزلت هذه الآية؟ قلت: لا، قال: نزلت فى رجل أتى امرأة فى دبرها على عهد رسول الله ﷺ فشقّ ذلك عليه فنزلت ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾ الآية، وأما تأويل حديث ابن عمر فهو ما روى عطاء عن موسى بن عبد الله بن الحسن عن أبيه أنه لقى سالم بن عبد الله، فقال: يا أبا عمر ما حدّث محدّث نافع عن عبد الله؟ وما هو؟ قال: زعم أنه لم يكن يرى بأسًا بإتيان النساء من أدبارهنّ، قال: كذب العبد وأخطأ، وإنّما قال عبد الله: تؤتى فى فروجهنّ من أدبارهنّ، الدليل على تحريم الأدبار ما روى عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ فى قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾ قال: لا يكون الحرث إلاّ حيث يكون النبات، وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله لا يستحى من الحق، لا تأتوا النساء فى أدبارهنّ.

مخرمة بن سليمان عن كريب عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ملعون من أتى امرأته فى دبرها».

﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ﴾: يعنى طلب الولد، وقيل: التزوّج بالعفائف ليكون الولد صالحًا طاهراً، وقيل: هو لذم الإفراط، قال رسول الله ﷺ: من قدم ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث لم تمسّه النار إلاّ تحلّة القسم، فقيل: يا رسول الله اثنان، قال: واثنان، فقال: فظننا أن لو قيل واحد لقال واحد.

شهر بن عطية عن عطاء ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ﴾ قال: التسمية عند الجماع، وقال مجاهد ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ﴾ يعنى: إذا أتى أهله فليدع. سالم بن أبى الجعد عن ابن عباس قال: قال النبى ﷺ: «إذا أراد أحدكم أن يأتى أهله فليقل: بسم الله اللهم جنبنى الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنْ قدر بينهما ولد لم يضرّه شيطان».

السدّى والكلبى يعنى الخير والعمل الصالح دليله سياق الآية: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾ ابن كيسان قدِّموا لأنفسكم فى كل ما أحل الله لكم، وما تعبّدكم به، فإن تصديقكم الله ورسوله بكل ما أحلّه لكم وحرّم عليكم وما تعبّدتم به قدم صدق لكم عند ربّكم، واتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، واعلموا أنّكم ملاقوه فيجزيكم بأعمالكم.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾: الآية، قال الكلبى: نزلت فى عبد الله ابن رواحة ينهاه عن قطيعة ختنه على أخته بشير بن النعمان الأنصارى، وذلك أنه كان بينهما شىء فحلف عبد الله أن لا يدخل عليه ولا يكلّمه ولا يصلح عنه وعن خصم له، وجعل يقول: قد حلفت بالله ألا أفعل، فلا تحلّ لى إلاّ أن يبرّ يمينى، فأنزل الله هذه الآية.

قال مقاتل بن حيان: نزلت هذه الآية فى أبى بكر الصديق (رضى الله عنه) حين حلف ألاّ يصل ابنه عبد الرحمن حتى يسلم. ابن جريج: حُدِّثت أنها نزلت فى أبى بكر الصديق حين حلف أن لا ينفق على مسطح حين خاض فى حديث الإفك.

والعرضة أصلها الشدّة والقوة، ومنه قيل للدابة التى تتخذ للسفر وتعد له: عرضة، لقوتها عليه، يقال: عرضت ناقتى لذلك أى اتخذتها له، قال أوس بن حجر:

وأدماء مثل الفحل يومًا عرضتها لرحلى وفيها هزّة وتقاذف

ثم قيل لكل ما يصلح لشىء هو عرضة له، حتى قالوا للمرأة: هى عرضة للنكاح إذا صلحت له وقويت عليه، ويقال فلان عرضة للسهر والحرب، قال حسّان:

وقال الله قد يسّرتُ جندًا همُ الأنصار عرضتها اللقاء

قال المفسرون: هذا فى الرجل يحلف بالله تعالى لا يصل رحمًا ولا يكلّم قرابته أو لا يتصدق له بالصنع خيرًا، أو يصلح بين اثنين فيعصيانه أو يتهمانه أو أحدهما فيحلف بالله لا يصلح بينهما، فأمره الله أن يحنث فى يمينه ويفعل ذلك سرًا ويكفر عن يمينه، فمعنى الآية ولا تجعلوا الله علّة ومانعًا لكم من البرّ والتقوى، يقول أحدكم: حلفت بالله فيستغلّ يمينه فى ترك البرّ والصلاح وهو قوله: ﴿أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ معناه أن لا تبرّوا كقوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ۗ﴾ (النساء: ١٧٦) أى لئلا تضلّوا، وقال امرؤ القيس:

فقلت يمين الله أبرح قاعدًا ولو قطّعوا رأسى لديك وأوصالى

ويبيّن هذه الآية ما روى سماك عن الحسين عن عبد الرحمن بن سمرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرًا منها، فأت الذى هو خير، وكفّر عن يمينك».

وقال سنان بن حبيب: قلت لسعد بن حمير: إنّى عصت علىّ مولاة لى كان مسكنها معى فحلفتُ أن لا تساكننى، فقال: هذا من عمل الشيطان كفّر عن يمينك وأسكنها ثم قرأ ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ﴾.

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾: أصل اللغو فى كلام العرب ما أسقط فلم يعتد به. قال ذو الرمة:

وتطرح بينهـــا المرّى لغوًا ما ألغيت فى الماية الحوارا

يريد بالماية التى تُساق فى الدية إذا وضعت ناقة منها حوارًا لا يقدّمه، والمرّى منسوب إلى امرئ القيس بن زيد بن مناة بن تميم، قال المثقب العبدى:

أو مائة تجعل أولادهـــا لغوًا وعرض المائة الجلمد

واللغو واللغاء فى الكلام ما لا خير فيه ولا معنى له، ونظيره فى اللغة صفو فلان معك وصفاه، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ (المؤمنون: ٣) وقال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ (الواقعة: ٢٥) قال أُمية:

فلا لغوٌ ولا تأثيم فيهـا وما فاهوا به لهمُ مقيم

وقال العجّاج:

وربّ أسراب الحجيج الكظّم عن اللغـا ورَفَـث التكلّم

واختلف العلماء فى لغو اليمين المذكور فى هذه الآية، فقال قوم هو ما يسبق به لسان الإنسان من الأيمان على سرعة وعجلة ليصل به كلامه من غير عقد ولاقصد، مثل قول القائل: لا والله وبلى والله وكلاّ والله ونحوها، فهذا لا كفارة فيه ولا إثم.

هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ قالت: قول الإنسان لا والله وبلى والله، وعلى هذا القول الشعبى وعكرمة ومجاهد فى رواية الحكم، وقال الفرزدق:

ولست بمأخـوذ بلغو تقوله إذا لم تعمد صاغرات العزايم

وقال آخرون: لغو اليمين هو أن يحلف الإنسان على الشىء يرى أنه صادق فيه ثم يتبيّن أنه خلاف ذلك، فهو خطأ منه من غير عمد، ولا كفارة عليه ولا إثم، وهو قول الزهرى والحسن وسليمان بن يسار وإبراهيم النخعى وأبى مالك وقتادة والربيع وزرارة بن أوفى ومكحول والسدى وابن عباس فى رواية الوالبى، وعن أحمد برواية ابن أبى نجيح.

وقال على وطاوس: اللغو اليمين فى حال الغضب والضجر من غير عزم ولا عقد، ومثله

روى عطاء عن وسيم عن ابن عباس، يدلّ عليه قوله ﷺ: «لا يمين فى غضب». وقال بعضهم: هو اليمين فى المعصية لا يؤاخذ به الله عزّ وجل فى الحنث فيها، بل يحنث فى يمينه ويكفّر، قاله سعيد بن جبير، وقال غيره: ليس فيه كفارة.

وقال مسروق: فى الرجل الذى يحلف على المعصية ليس عليه كفّارة. الكفر عن خطوات الشيطان، ومثله روى عكرمة عن ابن عباس، وقال الشعبى: فى الرجل الذى يحلف على المعصية كفارته أن يتوب منها. فكل يمين لا يحل لك أن تفى بها فليس فيها كفارة، فلو أمرته بالكفارة لأمرته أن يتم على قوله، يدلّ عليه ما روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر فيما لا يملك فلا نذر له، ومن حلف على معصية الله فلا يمين له».

وروت عمرة عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «من حلف على قطيعة رحم أو معصية فبرّه أن يحنث منها ويرجع عن يمينه».

وروى حماد عن إبراهيم قال: لغو اليمين أن يصل الرجل كلامه بأن يحلف: والله لا آكلن أو لا أشربنّ، ونحو هذا لا يتعمد به اليمين ولا يريد حلفًا فليس عليه كفارة يدل عليه ما روى عوف الأعرابى عن الحسين بن أبى الحسن، قال: مرّ رسول الله ﷺ بقوم ينتضلون ومعه رجل من أصحابه، فرمى رجل من القوم فقال: أصبت والله وأخطأت، فقال الذى مع النبى ﷺ: حنث الرجل، قال والله، فقال: «كلا، أيمان الرماة لغو لا كفارة فيها ولا عقوبة».

وقالت عائشة: أيمان اللغو ما كان فى الهزل والمراء والخصومة، والحديث الذى لا يعقد القلب عليه.

وقال زيد بن أسلم: هو دعاء الحالف على نفسه كقوله: أعمى الله بصرى إن لم أفعل كذا، أخرجنى من مالى إن لم أرك غدًا، أو تقول: هو كافر إنْ فعل كذا، فهذا كله لغو إذا كان باللسان دون القلب لا يؤاخذه الله بها حتى يكون ذلك من قلبه ولو آخذه بها لهلك، يدلّ عليه قوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾. (يونس: ١١).

الضحاك: هو اليمين المكفّر وسمى لغوًا لأن الكفارة تُسقط منه الإثم، تقديره: لا يؤاخذكم الله بالإثم فى اليمين إذا كفّرتم. المغيرة عن إبراهيم: هو الرجل يحلف على الشىء ثم ينسى فيحنث بالله فلا يؤاخذه الله عزّ وجلّ به، دليله قوله ﷺ: «رُفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾: أى عزمتم وقصدتم وتعمّدتم لأن كسب القلب

العقد على الشيء والنية.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ الآية.

اعلم أنّ الأيمان على وجوه: منها أن يحلف على طاعة كقوله: والله لأصلينّ أو لأصومنّ أولأحجن أو لأتصدقنّ ونحوها، فإنْ كان فرضًا عليه فالوجب عليه أن لا يحنث، فإنْ حنث فعليه الكفارة، لأنه كان فرضًا عليه فزاده تأييدًا باليمين، وإنْ كان ذلك تطوعًا ففيه قولان: أحدهما أنّ عليه الكفارة بالحنث فيه، والقول الثانى: عليه بالوفاء بما قال ولا يجزيه غيره، ومنها أن يحلف على معصية وقد ذكرنا حكمه والاختلاف فيه، ومنها أن يحلف على مباح، وهو على ضربين: من ماض ومستقبل، فاليمين على المستقبل مثل أن يقول: والله لأفعلنّ كذا، والله لا أفعل كذا، فإنّ هذا إذا حنث فيه لزمته الكفارة بلا خلاف، واليمين على الماضى مثل أن يقول: والله لقد كان كذا ولم يكن، أو لم يكن كذا وقد كان، وهو عالم به فهو اليمين الغموس الذى يغمس صاحبه فى الإثم لأنه تعمد الذنوب، ويلزمه الكفارة عندنا، وقال أبو حنيفة: لا يلزمه الكفارة وتحصيله كاللغو.

ثم اعلم أن المحلوف به على ضروب: ضرب منها يكون يمينًا ظاهرًا وباطنًا، ويلزم المرء الكفارة بالحنث فيها، وهو قول الرجل: والله وبالله وتالله، فهذه أيمان صريحة ولا يعتبر فيها النية، والضرب الثانى أن يحلف بصفة من صفات الله عزّ وجلّ كقوله: وقدرة الله وعظمة الله وكلام الله وعلم الله ونحوها، فإن حكم هذا كحكم الضرب الأول سواء، والضرب الثالث أن يحلف بكنايات اليمين كقوله: أيم الله وحق الله وقسم الله ولعمر الله ونحوها، فهذا يعتبر فيها النية، فإن نوى اليمين كان يمينًا، وإنْ قال: لم أرد به اليمين قبلنا قوله فيه، والضرب الرابع: أن يحلف بغير الله مثل أن يقول: والكعبة والصلاة واللوح والقلم وحق محمد وأُبى وحياتى ورأس فلان ونحوها، فهذا ليس بيمين، ولا يلزم الكفارة بالحنث فيه، وهو يمين مكروه فيه، قال الشافعى: والمعنى أن يكون . . . .[1].

عبد الله بن دينار قال: سمعت ابن عمر يقول: كانت قريش تحلف بآبائها، فقال رسول الله ﷺ: «من كان حالفًا فليحلف بالله، لا تحلفوا بآبائكم».

وسمع رسول الله ﷺ عمر يقول: وأبى فنهاه عن ذلك، قال عمر: فما حلفت بهذا بعد ذاكرًا ولا آثرًا.

❖ ❖ ❖

(١) بياض بالأصل المخطوط.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾: قتادة: كان الإيلاء طلاق أهل الجاهلية. سعيد بن المسيب: كان ذلك من ضرار أهل الجاهلية، كان الرجل لا يريد المرأة ولا يحبّ أن يتزوجها غيره يحلف ألاّ يقربها أبدًا، وكان يتركها كذلك لا أيّمًا ولا ذات بعل، وكانوا يفعلون ذلك فى الجاهلية وفى الإسلام، فجعل الله الأجل الذى يعلم به عند الرجل فى المرأة وهى أربعة أشهر، فأنزل الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ وفى حرف عبد الله: للذين آلوا من نسائهم على أنها للماضى، وقرأ ابن عباس: للذين يقسمون من نسائهم. الإيلاء: الحلف، يقال: آلى يولى، إيلاء، قالت الخنساء:

فآليت آسى على هالك ... أو أسأل نائحة مالها

والاسم منه الألية، قال الشاعر:

على ألية وصيام ... أمسك طارها ألاّ يكفّ

وفيه أربع لغات، أليّة وألوة وللوة وآلوة ومعنى الآية ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ﴾ أن يعتزلوا من نسائهم، فترك ذكره اكتفاء بدلالة الكلام عليه، والتربّص: التريث والتوقف، وزعم بعضهم أنّه من المقلوب، قالوا: التربّص: التصبّر، فمثلاً أن يحلف الرجل أن لا يقرب امرأته فيقول لها: والله لا أجامعك أو لا يجتمع فراشى بفراشك، ونحو ذلك من ألفاظ الجماع، وكل حين يحلفها الرجل على امرأته فيصير ممتنعًا من جماعها أكثر من أربعة أشهر إلاّ بشىء يكون فى بدنه وماله فهو إيلاء، وما كان دون أربعة شهر فليس بإيلاء.

وكان على بن أبى طالب (رضى الله عنه) يقول: الإيلاء يمين فى الغضب فإذا حلف فى

حال الرضا فليس بإيلاء، وعامة الفقهاء يجرونه على العمد، ويلزمون الإيلاء فى كل يمين منع من جماعها فى حال الرضا والغضب، فإذا آلى تُبان فإنْ هو جامع قبل مضى أربعة أشهر كفّر عن يمينه ولا شىء عليه، والنكل ثابت إنْ هو لم يجامع حتى تنقضى أربعة أشهر، فاختلف الفقهاء فيه، فقال بعضهم: إذا مضت أربعة أشهر ولم يف بانت منه بتطليقة وهى أملك بنفسها، وهذا قول عبد الله بن مسعود ومحمد بن ثابت وقتادة ومقاتل بن حبّان والكلبى وأبى حنيفة، يدلّ عليه قول ابن عباس: عزيمة الطلاق إمضاء أربعة أشهر.

وقال بعضهم: إذا مضت أربعة أشهر والرجل ممتنع فإن عفّت المرأة ولم تطلب حقّها من الجماع فلا شىء على الرجل ولا يقع به طلاق وهما على نكاح ما لو قامت على ذلك، وإن طلبت حقها وقف الحاكم زوجها، فإما أن يفى وإما أن يطلّق، فإن أبى الفيئة والطلاق جميعًا طلق عليه الحاكم، وقيل: يحبسه أبدًا حتى يطلّق، وجملة هذا القول الذى ذكروا من الوقف قول عمر وعثمان وعلىّ وأبى الدرداء وابن عمر وعائشة وسعيد بن جبير وسليمان بن يسار ومجاهد، ومذهب مالك والشافعى وأبى ثور وأبى عبيدة وأحمد وإسحاق وعامة أهل الحديث.

وقال يونس الصواف: أتيت سعيد بن المسيّب فقال: من أين؟ قلت: من الكوفة، قال: وإنّهم يقولون فى الإيلاء إذا مضت أربعة أشهر فلا شىء عليه ولا أربع سنين حتى لو يفىء أن يطلّق وألغى الجماع فإن كان عاجزًا عن الجماع بمرض أو عنّة أو نحوها فاء بلسانه وأُشهد.

وقال: كان إبراهيم النخعى يقول: ألغى باللسان على كل حال، فإذا فاء فعليه الكفارة ليمينه فى قول الفقهاء، إلاّ الحسن وإبراهيم وقتادة فإنهم أسقطوا الكفارة عن المولى إذا فاء لقوله ﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وقال ابراهيم: هذا فى إسقاط الحق به لا فى الكفارة.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَـٰقَ﴾: أى حققوا وصدّقوا ونووا، وقرأ ابن عباس: وإن عزموا السراح، وهو الطلاق أيضًا.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾: لقولهم ﴿عَلِيمٌ﴾: بنيّاتهم، وفيه دليل على أنّها لا تطلّق بعد مضى الأربعة أشهر ما لم يطلقها زوجها أو السلطان لأنه شرط فيه العزم، ولأن السماع يقتضى . . . .[1] والقول هو الذى يسمع، والسماع راجع إلى الطلاق والله أعلم.

﴿وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ الآية، قال مقاتل بن حيان والكلبى: كان الرجل أول الإسلام إذا طلّق امرأته ثلاثًا وهى حبلى فهو أحق برجعتها ما لم تضع ولدها إلى أن نسخ

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

الله ذلك بقوله : ﴿ٱلطَّلَـٰقُ مَرَّتَانِ﴾ وقوله : ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ﴾ الآية ، وطلّق إسماعيل ابن عبد الله الغفارى امرأته قتيلة وهى حبلى .

وقال مقاتل : هو مالك بن الأشدق رجل من أهل الطائف ، قالوا جميعًا : ولم يشعر الرجل بذلك ولم تخبره بذلك ، فلمّا علم بحبلها راجعها وردّها إلى بيته ، فولدت وماتت ومات ولدها ، وفيها أنزل الله تعالى هذه الآية : ﴿وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ﴾ أى المخلّيات من حبال أزواجهن وهو من قولهم : أطلقت الشىء من يدى وطلقته إذا خلّيته ، إلاّ أنهم لكثرة استعمالهم اللفظين فرّقوا بينهما ليكون التطليق مقصورًا فى الزوجات وبذلك أنزل القرآن : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ (الطلاق : ١) والاسم منه الطلاق ، ويقال : طلق الرجل المرأة وطلّقت وطلقت معًا ، وأصله من قولهم : انطلق الرجل إذا مضى غير ممنوع ، ويقال للشوط الذى يجريه الفرس وغيره من غير أن يمنع طلق .

﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ : ينتظرن بأنفسهن ولا يتزوجن ثلاثة قروء ، جمع قرء ، مثل قرع وجمعه القليل قروء والجمع الكثير أقراء وقرؤ ، واختلف الفقهاء فى القروء ، فقال قوم : هى الحيض ، وهو قول على وعمر وابن مسعود وأبى موسى الأشعرى ومجاهد ومقاتل بن حيّان ، ومذهب سفيان وأبى حنيفة وأهل الكوفة ، واحتجوا بقول النبى ﷺ للمستحاضة : «دعى الصلاة أيام أقرائك» والصلاة إنما تترك فى حال الحيض ، يقول الراجز أنشده تغلب عن ابن الأعرابى :

❖ له قروء كقروءِ الحائض ❖

يعنى أنّ عداوته تهيج فى أوقات معلومة كما أن المرأة تحيض بأوقات معلومة ، فمَنْ قال بهذا القول قال : لا تحلّ المرأة للأزواج ولا تخرج من عدّتها ما لم تنقض الحيضة الثالثة ، يدل عليه ما روى الزهرى عن ابن المسيّب أن عليًا قال فى الرجل يطلق امرأته واحدة أو ثنتين : لا يحل لزوجها الرجعة إليها حتى تغتسل من الحيضة الثالثة وتحلّ لها الصلاة .

وقال آخرون : هى الأطهار وهو قول زيد بن ثابت وابن عمر وعائشة ومذهب مالك والشافعى وأهل المدينة ، واحتجوا بقوله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ (الطلاق : ١) وقال النبى ﷺ ـ لمّا طلق ابن عمر امرأة وهى حائض ـ لعمر : مُرْه فلْيراجعها ، فإذا طهرت فليطلق أو ليمسك ، وتلا النبى ﷺ قوله عزّ وجلّ ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ : فأخبر النبى ﷺ أنّ العدّة الأطهار من الحيض وقرأ ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ لتتم عدتهنّ ، وهو أن يطلقها طاهرًا لأنها حينئذ تستقبل عدّتها ، ولو طلقت أيضًا لم تكن مستقبلة عدّتها إلاّ بعد الحيض ، ويدلّ على تلك القروء والأطهار قول الشاعر وهو الأعشى :

وفى كل عام أنت جاشم غزوة　　تشد لأقصاهـــا عزيم غزائكا
مورثة مـالاً وفى الحى رفعـة　　لما ضـــاع فيها من قروء نسائكا

والقُرء فى هذا البيت الطهر، لأنّه خرج إلى الغزو ولم يغش نساءه فأضاع إقراءهنّ أى أطهارهن، ومن قال بهذا القول قال: إذا حاضت المرأة الحيضة الثالثة فقد انقضت عدتها وحلّت للزواج، يدلّ عليه ما روى الزهرى عن عروة وعمرة عن عائشة، قالت: إذا دخلت المطلقة فى الحيضة الثالثة فقد بانت من زوجها وحلّت للأزواج، قالت عمرة: وكانت عائشة تقول: القرء: الطهر ليس الحيض.

ابن شهاب قال: سمعت أبا بكر بن عبد الرحمن يقول: ما أدركت أحدًا من فقهائنا إلاّ وهو يقول هذا، يريد قول عائشة الأقراء الأطهار، وإنما رفع هذا الاختلاف لأن القُرء فى اللغة من الأضداد يصلح للمعنيين جميعًا، يقول أقرأت المرأة إذا حاضت وأقرأت إذا طهرت، فهى تقرى، واختلفوا فى أصلها، فقال أبو عمرو وأبو عبيدة هو وقت مجىء الشىء وذهابه، يقال: رجع فلان لقُرئه وقاريه أى لوقته الذى يرجع فيه، وهذا قارئ الرياح أى وقت هبوبها.

قال مالك بن الحارث الهذلى:

كرهت العقر عقر بنى شليل　　إذا هبّت لقارئهـــا الرياح

أى لوقتها، ويقال: أقرأت النجوم إذا طلعت، وأقرأت إذا أفلت.

قال كثير:

إذا ما الثريا وقـــد أقرأت　　أحسُّ السما كان منها أُفولا

فالقرء للوجهين، لأن الحيض يأتى لوقت والطهر يأتى لوقت، وقيل: هو من قرء الماء فى الحوض، وهو جمعه، قال عمرو بن كثلوم:

ذراعى عيطل إذ ماء بكر　　هجان اللون لم تقرأ جنينا

أى لم تحمل، ولم تضم فى رحمها، وإنما تقول العرب: ما قرأت الناقة بلا قرط أى لا تضمّ رحمها على ولد، ومنه قولهم: قرأت القرآن أى نطقت به مجموعًا، هذا اختيار الزجّاج. قال: ومنه قريت الماء فى المقراة، ترك همزها والأصل فيه الهمز، فالقرء احتباس الدم واجتماعه وهو يكون فى حال الطهر والحيض جميعًا، إلاّ أن الترجيح للطهر لأنّه يجمع الدم ويحبسه، والحيض يرخّيه ويرسله والله أعلم.

❖ حكم الآية:

اعلم أن لفظها خبر ومعناها أمر، كقوله: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ﴾ (البقرة: ٢٣٣)

وأمثاله، والعدّة على ضربين: عدّة المطلقة وعدة المتوفى عنها زوجها، فعدّة المطلقة على ثلاثة أضرب: عدة الحائض ثلاثة قروء، وعدّة الحامل أن تضع حملها، وعدّة الصغيرة التى لم تحض والكبيرة التى آيست ثلاثة أشهر، وعدّة المتوفى عنها زوجها ضربان: إن كانت حاملاً فعدّتها أن تضع حملها وإلاّ فعدّتها أربعة أشهر وعشرًا، وعدّة الإماء فيما له نصف من الأقراء قُرءان لأنها لا نصف. ولا عدّة على من لم يدخل بها. إذا توفى عنها زوجها، فعدّتها أربعة أشهر وعشرًا.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾: قال عكرمة وإبراهيم: يعنى الحيض، وهو أن تعتدّ المرأة فيريد الرجل أن يراجعها فتقول: إنّى قد حضت الثالثة. ابن عباس وقتادة ومقاتل: يعنى الحمل فى الولد، فمعنى الآية لا يحلّ لهنّ أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن من الحيض والحمل ليبطلن حق الزوج فى الرجعة والولد، فإنّ المرأة أمينة على فرجها.

﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ﴾: أزواجهنّ، وهو جمع بعل، كالفحولة والذكورة والحزولة والخيوطة، ويقال: تبعّلت المرأة إذا تزوجت، ومنه قيل للجماع بعال، وإنما سمى الزوج بعلاً لقيامه بأمور زوجته، وأصل البعل السيّد والمالك، قال الله تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ (الصافات: ١٢٥) وقرأ مسلم بن محارب (وبعولتْهن) بإسكان التاء لكثرة الحركات، والإتباع أفصح وأحسن وأوفق وأولى.

﴿أَحَقُّ﴾: أولى ﴿بِرَدِّهِنَّ﴾: أى برجعتهن ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: أى فى حال العدّة ﴿إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا﴾: لا إضرارًا، وذلك أن الرجل إذا أراد الإضرار بامرأته طلّقها واحدة وتركها حتى إذا قرب انقضاء عدّتها راجعها، ثم تركها مدّة، ثم طلّقها أُخرى وتركها كما فعل فى الأولى، ثم راجعها فتركها مدّة ثم طلقها ﴿وَلَهُنَّ﴾: أى وللنساء على أزواجهنّ ﴿مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾: من الحق.

يُروى أن امرأة معاذ قالت: يا رسول الله ما حق الزوجة على زوجها؟ قال: «أن لا يضرب وجهها، وأن لا يقبحها، وأن يطعمها مما يأكل، ويلبسها مما يلبس ولا يهجرها».

المبارك بن فضالة عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيرًا فإنّهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئًا. إنما اتخذتموهّن بأمانة الله واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله».

وعن ميمونة زوج النبى ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: «خيار الرجال من أمتى خيرهم لنسائهم، وخير النساء من أمتى خيرهنّ لأزواجهنّ، يرفع لكل امرأة منهنّ كل يوم وليلة أجر

ألف شهيد قتلوا فى سبيل الله صابرين محتسبين، ولفضل إحداهنّ على الحور العين كفضل محمّد على أدنى رجل منكم، وخير النساء من أمتى من تأتى مسيرة زوجها فى كل شيء يهواه ما خلا معصية الله عزّ وجلّ، وخير الرجال من أُمتى من يلطف بأهله لطف الوالدة بولدها، ويُكتب لكل رجل منهم فى كل يوم وليلة أجر مائة شهيد قتلوا فى سبيل الله محتسبين صابرين».

فقال عمر بن الخطاب (رضى الله عنه): يا رسول الله فكيف يكون للمرأة أجر ألف شهيد وللرجل مائة شهيد؟ قال: «أوما علمت أن المرأة أعظم أجرًا من الرجل، وأفضل ثوابًا، وأنّ الله عزّ وجلّ لَيرفع الرجل فى الجنة درجات فوق درجاته برضا زوجته عنه فى الدنيا ودعائها له؟ أوما علمت أنّ أعظم وزر بعد الشرك بالله المرأة إذا غشت زوجها؟

ألا فاتقوا الله فى الضعيفين، فإن الله سائلكم عنهما: اليتيم والمرأة، فمن أحسن إليهما فقد بلغ إلى الله ورضوانه، ومن أساء إليهما فقد استوجب من الله سخطه، حق الزوج على المرأة كحقّى عليكم، فمن ضيّع حقّى فقد ضيّع حق الله، ومن ضيّع حق الله فقد باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير».

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾: فى الفضل.

قال ابن عباس: بما ساق إليها من المهر، وأنفق عليها من المال، وقيل: بالعقل، وقيل: بالميراث، وقيل: بالدرجة، قال قتادة: بالجهاد. عن أبى جعفر محمد بن على عن جابر بن عبد الله، قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو فى نفر من أصحابه إذ أقبلت امرأة حتى قامت على رأسه، ثم قالت: السلام عليك يا رسول الله، أنا وافدة النساء إليك، ليست من امرأة سمعت بمخرجى إليك إلا أعجبها ذلك، يا رسول الله: إن الله ربّ الرجال وربّ النساء، وآدم أب الرجال وأب النساء، وحواء أم الرجال وأم النساء، فالرجال إذا خرجوا فى سبيل الله وقتلوا فأحياء عند ربهم يرزقون، وإذا خرجوا فلهم من الأمر ما قد علمت، ونحن نحبس عليهم ونخدمهم فهل لنا من الأجر شيء؟ قال: «نعم، أقرئى النساء السلام وقولى لهنّ: «إنّ طاعة الزوج واعترافًا بحقه يعدل ذلك، وقليل منكنّ يفعلهُ».

ثابت عن أنس، قال: جئن إلى رسول الله ﷺ فقلن: يا رسول الله ذهب الرجال بالفضل بالجهاد فى سبيل الله، فما لنا عمل يعدل به عمل فى سبيل الله.

بكر بن عبد الله المزنى عن عمران بن الحصين قال: سئل رسول الله ﷺ هل على النساء جهاد؟ قال: «نعم، جهادهن الغيرة، يجاهدن أنفسهن فإنْ صبرن فهنّ مجاهدات، وإن صبرن

فهنّ مرابطات ولهنّ أجران اثنان».

وقيل: بالطلاق والرجعة، وقيل: بالشهادة، وقيل: بقوة العبادة، وقال سفيان وزيد بن أسلم: بالإمارة. وقال القتيبى: معناه: وللرجال عليهنّ درجة أى فضيلة للحق.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ۝ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾: روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أن امرأة أتتها فشكت أنّ زوجها يطلقها ويسترجعها ليضارّها بذلك، وكان الرجل فى الجاهلية إذا طلق امرأته ثم راجعها قبل أن تنقضى عدّتها كان له ذلك، فإنْ طلقها ألف مرة لم يكن للطلاق عندهم حدّ، فذكرت ذلك عائشة لرسول الله ﷺ فنزلت ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ فجعل حدّ الطلاق ثلاثًا وللطلاق الثالث قوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ وقيل للنبى ﷺ ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ فأين الثالثة؟ قال: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾.

وقال المفسرون: معنى الآية الطلاق الذى يملك فيه الرجعة مرّتان ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ﴾ أى عليه إمساك بمعروف أى يراجعها فى التطليقة الثالثة ﴿أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ بعدها ولا يضارّها فإنْ طلقها واحدة أو ثنتين فهو أملك برجعتها ما دامت فى العدّة، فإذا انقضت العدّة فهى أحق بنفسها، وجاز أن يراجعها عن تراض منهما بنكاح جديد، فإن طلّقها الثالثة بانت منه وكانت أحق بنفسها منه، ولا تحلّ له حتى تنكح زوجًا غيره.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا﴾: فى الحال الاستبدال والطلاق ﴿مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾: أعطيتموهنّ من المهور وغيرها، ثم استثنى الخلع فقال ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ نزلت هذه الآية فى جميلة بنت عبد الله بن أبى أوفى تزوجها ثابت بن قيس بن شماس، وكانت تبغضه بغضًا شديدًا، وكان يحبّها حبًا شديداً، وكان بينهما كلام فأتت أباها فشكت إليه زوجها وقالت: إنه يسىء إلىّ ويضربنى، فقال لها: ارجعى إلى زوجك فوالله إنّى لأكره للمرأة أن لا تزال رافعة يدها تشكو زوجها، فرجعت إليه الثانية وبها أثر الضرب، فشكت إليه فقال لها: ارجعى إلى زوجك، فلمّا رأت أن أباها لا يشكيها أتت رسول الله ﷺ، فشكت إليه زوجها وأرته آثاراً بها من الضرب وقالت: يا رسول الله لا أنا ولا هو، قال: فأرسل رسول الله ﷺ إلى ثابت بن قيس فقال: يا ثابت ما لك ولأهلك؟ قال: والذى بعثك بالحق ما على ظهر الأرض أحبّ إلىّ منها غيرك، قال لها: ما تقولين؟ فكرهت أن تكذب رسول الله حين سألها، فقالت: صدق يا رسول الله، ولكنّى خشيت أن يهلكنى فأخرجنى منه يا رسول الله، فقال: إنى قد أعطيتها حديقة لى فقل لها فلتردّها علىّ وأنا أُخلّى سبيلها، قال لها: ما تقولين تردّين إليه حديقته وتملكين أمرك؟ قالت: نعم، وأنا أزيده، قال: لا، حديقته فقط.

ثم قالت: يا رسول الله ما كنت أحدّثك اليوم حديثًا ينزل عليك خلافه غدًا هو من أكرم الناس حبًا لزوجته ولكنّى أبغضه، فلا هو ولا أنا، فقال له النبى ﷺ: «يا ثابت خذ منها ما أعطيتها وخلّ سبيلها» ففعل، وكان أوّل خلع فى الإسلام، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّآ أَن يَخَافَآ﴾ يعلما، وتصديقه قراءة أُبى: إلاّ أن يظنّا، وقال محجن:

فلا تدفننّى بالفــــلاة فإنّنى أخاف إذا ما متّ أن لا أذوقها

أى اعلم، وقرأ أبو جعفر وحمزة ويعقوب: (يخافا) بضمّ الياء أى يعلم ذلك منهما اعتبارًا بقراءة ابن مسعود: إلاّ أن يخافوا، واختاره أبو عبيد لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ قال: فجعل الخوف لغيرهما ولم يقل فإن يخافا ألاّ يقيما حدود الله وهو أن تخاف المرأة الفتنة على نفسها فتعصى الله فى أمر زوجها، ويخاف الزوج إذا لم تطعه امرأته أن يعتد عليها، فنهى الله تعالى الرجل أن يأخذ من امرأة شيئًا بغير رضاها إلاّ أن يكون النشوز وسوء الخلق من قبلها فتقول: والله لا أبرّ لك قسمًا ولا أطيع لك أمرًا ولا أطأ لك مضجعًا، ونحو ذلك، فإذا فعلت ذلك به حلّ له العقوبة منها إذا دعته إلى ذلك، ويكره أن يأخذ منها أكثر ممّا أعطاها، ولكنه فى الحكم جائز.

يبيّن ذلك ما روى الحكم بن عيينة أنّ امرأة نشزت على زوجها فى إمارة عمر بن الخطاب، فوعظها عمر (رضى الله عنه) وأمرها بطاعة زوجها فأبت وقالت: لئن رددتنى إليه والله لأقتلنّ نفسى، فأمر بها فحُبست فى اصطبل الدواب فى بيت الزمل ثلاث ليال، ثم دعاها فقال: كيف رأيت مكانك؟ فقالت: ما بتّ ليالى أقرّ لعينى منها، وما وجدت الراحة منذ كنت عنده إلاّ هذه الليالى، فقال: هذا وأبيكم النشوز، ثم قال لزوجها: اخلعها ولو من قرطيها، اخلعها بما دون عقاص رأسها فلا خير لك فيها، فذلك قوله عزّ وجلّ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ المرأة نفسها منه.

قال الفراء: أراد به الزوج دون المرأة فذكرهما جميعًا لأقرانهما كقوله ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ (الكهف: ٦١) وإنما الناسى فتى موسى دون موسى عليه السلام وقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ (الرحمن: ٢٢) وإنما يخرج من المالح دون العذب، وقال الشاعر:

فإن تزجرانى يا بن عفّان أنزجر وإن تدعــانى أحم عرضًا ممنّعا

وقال قوم معناه: فلا جناح عليهما جميعًا، لا جناح على المرأة فى النشوز إذا خشيت الهلاك والمعصية، ولا فيما افتدت به وأعطبت من المال، لأنها ممنوعة من اتلاف المال بغير

حق، ولا على الرجل فيما أخذ منها من المال إذا أعطته طائعة بمرادها، وللفقهاء فى الخلع قولان:

أحدهما: إنه فسخ بلا طلاق، وهو قول ابن عباس، وقول الشافعى فى القديم بالعراق، ثم رجع عنه بمصر.

والقول الثانى: إنْ الخلع تطليقة بائنة إلاّ أن ينوى أكثر منها، وهو قول عثمان بن عفان رضى الله عنه، والقول الجديد من قول الشافعى.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾: هذه أوامر الله ونواهيه ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾: فلا تجاوزوها ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.



﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾

﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾: يعنى ثلاثًا ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ﴾: يعنى من بعد التطليقة الثالثة، وبعد رفع على الغاية ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾: أى غير المطلّق فيجامعها، والنكاح يتناول العقد والوطء جميعًا.

نزلت هذه الآية فى تميمة، وقيل: عائشة بنت عبد الرحمن بن عتيك القرظى، كانت تحت رفاعة بن وهب بن عتيك القرظى، وكان ابن عمها فطلّقها ثلاثًا، وتزوجت بعده عبد الرحمن ابن الزبير وما معه إلاّ مثل هدبة الثوب، وإنه طلقنى قبل أن يمسّنى أفأرجع إلى ابن عمى زوجى الأول؟ فتبسّم رسول الله ﷺ وقال: «أتريدين أن ترجعى إلى رفاعة، لا حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك».

قال: وأبو بكر جالس عند النبى ﷺ، وخالد بن سعيد بن العاص جالس بباب الحجرة فطفق خالد ينادى: يا أبا بكر ألا تزجر هذه عما تهجر به عند رسول الله، والعسيلة اسم للجماع، وأصلها من العسل شبّه للّذة التى ينالها الإنسان فى تلك الحال بالعسل يقال منه: عسلها يعسلها عسلا إذا جامعها.

فلبثت ما شاء الله أن تلبث ثم رجعت إلى النبى ﷺ فقالت: إن زوجى كان قد مسّنى، فقال لها النبى ﷺ: «كذبت بقولك الأول فلن نصدّقك فى الآخر».

فلبثت حتى قبض النبى ﷺ فأتت أبا بكر، فقالت: يا خليفة رسول الله أرجع إلى زوجى الأول، فإن زوجى الآخر قد مسّنى وطلقنى، فقال أبو بكر: قد شهدت رسول الله ﷺ حين أتيته، وقال لك ما قال فلا ترجعى إليه، فلمّا قُبض أبو بكر أتت عمر رضى الله عنه وقالت له مثل ما قالت لأبى بكر، فقال عمر: لئن رجعت إليه لأرجمنّك، فإن الله تعالى قد أنزل: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾: زوجها الثانى أو مات عنها بعدما جامعها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ﴾ يعنى على المرأة المطلقة وعلى الزوج الأول ﴿أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ بنكاح جديد، فذكر النكاح بلفظ التراجع ﴿إِن ظَنَّآ﴾ عَلما، وقيل: رجوا، قالوا: ولا يجوز أن يكون بمعنى العلم لأنّ أحدًا لا يعلم ما هو كائن إلاّ الله عزّ وجلّ ﴿أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ يعنى ما بيّن الله من حق أحدهما على الآخر، ومحلّ (أن) فى قوله ﴿أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ نصب بنزع حرف الجر أى فى أن يتراجعا، وفى قوله ﴿أَن يُقِيمَا﴾ نصب بوقوع الظن عليه.

وقال مجاهد: ومعناه إن علما أنّ نكاحهما على غير دلسة، وأراد بالدلسة التحليل، هذا مذهب سفيان والأوزاعى ومالك وأبى عبيدة وأحمد وإسحاق، قالوا فى الرجل يطلّق امرأته ثلاثًا فتزوج زوجًا غيره ليحلّها لزوجها الأول: إن النكاح فاسد، وكان الشافعى يقول: إذا تزوّجها ليحلّها فالنكاح ثابت إذا لم يشترط ذلك فى عقد النكاح مثل أن يقول: أنكحك حتى أصيبك فتحلّى لزوجك الأول، فإذا اشترط هذا فالنكاح باطل، وما كان من شرط قبل عقد النكاح فلا يفسد النكاح.

وقال نافع أتى رجل ابن عمر فقال: إنّ رجلا طلّق امرأته ثلاثًا، فانطلق أخ له من غير مراجعة فتزوجها ليحلّها للأول فقال: لا، إلاّ بنكاح رغبة، كنّا نعدّ هذا سفاحًا على عهد رسول الله ﷺ، وقال ﷺ: «لعن الله المحلّل والمحلّل له».

عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلّكم على التيس المستعار؟».

قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «هو المحلِّل والمحلَّل له».

قبيصة بن جابر الأسدى، قال: سمعت عمر بن الخطاب يخطب وهو على المنبر: والله لا أوتى بمحلّل ولا بمحلَّل له إلاّ رجمتهما.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا﴾: روى المفضل وأبان عن عاصم بالنون ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾: نزلت فى رجل من الأنصار يُدعى ثابت بن يسار، طُلّقت امرأته حتى إذا انقضت عدتها إلاّ يومين أو ثلاثة وكادت تبين منه، راجعها ثم طلقها، ففعل بها ذلك حتى مضيت لها تسعة أشهر مضارة لها بذلك، ولم يكن الطلاق يومئذ محصوراً، وكان إذا أراد الرجل أن يُضارّ امرأته طلقها ثم تركها حتى تحيض الحيضة الثالثة، ثم راجعها ثم طلّقها فتطويله عليها هو الضرار، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أى أمرهنّ فى أن تبين بانقضاء العدة، ولم يرد إذا انقضت عدتهن لأنها إذا انقضت عدّتها لم يكن للزوج إمساكها، فالبلوغ هاهنا بلوغ مقاربة، وقوله بعد هذا ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ بلوغ انقضاء وانتهاء، والبلوغ يتناول المعنيين جميعًا، يقال: بلغ المدينة إذا صار إلى حدّها وإذا دخلها.

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾: أى راجعوهنّ ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ قال محمد بن جرير: بمعروف أى بإشهاد على الرجعة وعقد لها دون الرجعة بالوطء ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أى اتركوهنّ حتى تنقضى عدّتهنّ، وكنّ أملك لأنفسهنّ.

﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾: مضارّة وأنتم لا حاجة بكم إليهن ﴿لِّتَعْتَدُوا۟﴾ عليهن بتطويل العدّة ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ الاعتداء ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ ضرّها بمخالفة أمر الله عزّ وجلّ.

مرّة الطيب، عن أبى بكر الصديق (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «ملعون من ضارّ مسلمًا أو ماكره».

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾: الحسن عن أبى الدرداء قال: كان الرجل يطلق فى الجاهلية ويقول: إنّما طلّقت وأنا لاعب فيرجع فيها ويعتق، فيقول مثل ذلك ويرجع فيه وينكح، ويقول مثل ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ يقول: حدود الله وقرأها رسول الله ﷺ، فقال: من طلق أو حرّر وأنكح وزعم أنه لاعب فهو جدّ، وفى الخبر: خَمسٌ جدّهنّ جدّ وهزلهنّ جدّ: الطلاق، والعتاق، والنكاح، والرجعة، والنذر.

وعن أبى موسى، قال: غضب رسول الله ﷺ على الأشعريين قال: يقول «أحدكم لامرأته: قد طلقتك، قد راجعتك، ليس هذا طلاق المسلمين، طلّقوا المرأة فى قبل طمثها».

وقال الكلبى ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ يعنى قوله ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾.

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ : بالإيمان ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ : يعنى القرآن ﴿وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ : يعنى مواعظ القرآن والحدود والأحكام.

﴿يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۝ وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ الآية، نزلت فى جميلة بنت يسار أخت معقل بن يسار المزنى، كانت تحت أبى البدّاح عاصم بن عدى بن عجلان، فطلّقها تطليقة واحدة ثم تركها حتى انقضت عدّتها ثم جاء يخطبها وأراد مراجعتها وكان رجل صدق، وكانت المرأة تحبّ مراجعته، فمنعها أخوها معقل وقال لها: لئن راجعته لا أكلمك أبدًا، وقال لزوجها: أفرشتك كريمتى وآثرتك بها على قومى فطلقتها، ثم لم تراجعها حتى إذا انقضت عدّتها جئت تخطبها، والله لا أنكحك بها أبدًا، وحمى أنفًا، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فدعا رسول الله معقلاً وتلاها عليه، فقال: فإنى أومن بالله واليوم الآخر، فأنكحها إياهّ وكفرّ يمينه على قول أكثر المفسّرين.

وقال السّدى: نزلت هذه الآية فى جابر بن عبد الله الأنصارى وكانت له بنت عم فطلقها زوجها تطليقة واحدة وانقضت عدتها ثم أراد مراجعتها، فأتى جابر فقال: طلّقت ابنة عمى ثم تريد أن تنكحها الثانية، وكانت المرأة تريد زوجها فأنزل الله ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ﴾ فانقضت عدّتهن قال الزّجاج: الأجل آخر المدة وعاقبة الأُمور، قال لبيد:

❖ فآخرها بالبرّ لله الأجل ❖

يريد عاقبة الأُمور.

﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ : فلا تمنعوهنّ، والعَضْل: المنع هو التزوّج، وأنشد الأخفش:

ونحن عضلنا بالرمـاح لسانا　　　وما فيكم من حرمة له عاضل

وأنشد:

وأن قصائدى لك فاصطنعنى　　　كرائم قد عضلن عن النكاح

وأصل العضل الضيق والشدّة، يقال: عضلت المرأة والشاة إذا تشبث ولدهما فى بطنهما فضاق عليه الخروج، وعضلت الدجاجة إذا تشبّث البيض فيها، وعضل الفضاء بالجُلّس إذا ضاق عليهم لكثرتهم، ويقال: داء عضال إذا ضاق علاجه فلا يطاق، ويقال: عضل الأمر إذا اشتد وضاق.

وقال عمر رضى الله عنه: أعضل أهل الكوفة لا يرضون بأمير ولا يرضاهم أمير، وقال أوس بن حجر:

وليس أخوك الدائم العهـد بالذى　　　يذمّك إن ولّى ويرضيـك مقبلا

ولكنّـه النـائى إذا كنـت آمنًا وصاحبك الأدنى إذا الأمر أعضلا

قال طاوس: لقد وردت عضل أقضية ما قام بها إلاّ ابن عباس، وكل مشكل عند العرب معضل ومنه قول الشافعى:

إذا المعضلات بعدن عنى كشفت حقائقهـا بالنظر

﴿أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ : الأوّل بنكاح جديد ﴿إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ : بعقد حلال ومهر جائز، ونظم الآية: فلا تعضلوهنّ أن ينكحن أزواجهنّ بالمعروف إذا تراضوا بينهم، وفى هذه الآية دليل قول من قال: لا نكاح إلاّ بولى لأنه تعالى خاطب الأولياء فى التزويج، ولو كان للمرأة إنكاح نفسها لم يكن هناك عضل ولا لنهى الله الأولياء عن العضل معنى، يدّل عليه ما روى أبو بردة عن أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «لا نكاح إلاّ بولى».

﴿ذَٰلِكَ﴾ : أى ذلك الذى ذكرت من النهى ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ : وإنما قال ذلك موحدًا والخطاب للأولياء؛ لأنّ الأصل فى مخاطبة الجمع ذلكم ثم كثر ذلك حتى توهّموا أنّ الكاف من نفس الحرف، وليس بكاف الخطاب، فقالوا ذلك، وإذا قالوا هذا كانت الكاف موحدة منصوبة فى الآيتين والجمع والمذكر والمؤنث.

وقيل: هـهنا خطاب للنبى ﷺ فلذلك وحّده ثم رجع إلى خطاب المؤمنين، فقال عزّ من قائل: ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ﴾ خيرٌ وأفضل ﴿لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ : لقلوبكم من الريبة وذلك أنهما إذا كان فى نفس كل واحد منهما علاقة حبّ لم يؤمن بأن يتجاوز ذلك إلى غير ما أحلّ الله لهما، ولم يؤمن من أوليائهما إن سبق إلى قلوبهم منهما لعلّهما أن يكونا بريئين من ذلك فيأثمون.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ : من خبر كل واحد منهما لصاحبه ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ .



﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ

وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾

﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ﴾: المطلقات اللاتى لهنّ أولاد من أزواجهن المطلقين ولدنهم قبل الطلاق أو بعده ﴿يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ﴾: يعنى أنهنّ أحق برضاعهنّ من غيرهن، أمر استحباب لا أمر إيجاب من أنه رضاعهن عليهنّ لأنه سبحانه وتعالى قال فى سورة الطلاق ﴿فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ إلى ﴿لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ﴾ (الطلاق: ٦).

ثم بيّن حدّ الرضاع فقال: ﴿حَوۡلَيۡنِ﴾ أى سنتين، وأصله من قولهم: حالَ الشىء إذا انتقل وتغيّر ﴿كَامِلَيۡنِ﴾ على التأكيد كقوله تلك عشرة كاملة، وقال أهل المعانى: إنما قال ﴿كَامِلَيۡنِ﴾ لأنّ العرب تقول: أقام فلان مقام كذا حولين أو شهرين وإنما أقام حولاً وبعض آخر، ويقولون: اليوم يومان مذ لم أره، وإنما يعنون يومًا وبعض آخر، ومنه قوله: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ (البقرة: ٢٠٣) ومعلوم أنه يتعجل أو يتأخر فى يوم ونصف، ومثلها كثير، فبيّن الله أنهما حولان كاملان أربعة وعشرين شهرًا من يوم ولد إلى أن يُفطم.

واختلف العلماء فى هذا الحدّ أهو حدّ لكل مولود أو حدّ لبعض دون بعض؟ فروى عكرمة عن ابن عباس: إذا وضعت لستة أشهر فإنها ترضعه حولين كاملين، أربعة وعشرين شهرًا، وإذا وضعته لسبعة أشهر أرضعته ثلاثة وعشرين شهرًا، وإذا وضعته لتسعة أشهر أرضعته إحدى وعشرين شهرًا، كل ذلك تمام ثلاثين شهرًا، قال الله تعالى: ﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًا﴾ (الأحقاف: ١٥).

وقال قوم: هو حدّ لكل مولود فى وقت وأن لا ينقص من حولين ولا يزيد إلاّ أن يشاء الزيادة؛ فإن أراد الأب أن يفطمه قبل الحولين ولم ترضَ الأم فليس له ذلك، وإذا قالت الأم: أنا أفطمه قبل الحولين، وقال الأب: لا، فليس لها أن تفطمه حتى يتفقا جميعًا على الرضا، فإن اجتمعا قبل الحولين فطماه وإن اختلفا لم يفطماه قبل الحولين، وذلك قوله ﴿عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا﴾ وتشاور هذا قول ابن جريج والثورى ورواية الوالبى عن ابن عباس.

وقال آخرون: المراد بهذه الآية الدلالة على الرضاع ما كان فى الحولين، فإنّ ما بعد الحولين من الرضاع يحرم، وهو قول على وعبد الله وابن عباس وابن عمر وعلقمة والشعبى والزهرى، وفى الحديث: لا رضاع بعد الحولين، وإنما يحرم من الرضاع ما أنبت اللحم وأنشز العظم.

وقال قتادة والربيع: فرض الله عزّ وجل على الوالدات أن يرضعن أولادهنّ حولين كاملين ثم أنزل الرخصة والتخفيف بعد ذلك فقال: ﴿لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ أى هذا منتهى الرضاع، وليس فيما دون ذلك وقت محدود، وإنما هو على مقدار صلاح الصبى وما يعيش به، وقرأ أبو

رجاء﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرِّضَاعَةَ﴾ بكسر الراء، قال الخليل والفرّاء: هما لغتان، مثل الوكالة والوَكالة والدّلالة.

وقرأ مجاهد وابن محجن (لمن أراد أن يتم الرضعة) وهى فعلة كالمرة الواحدة، وقرأ عكرمة وحميد وعون العقيلى (لمن أراد أن تتم الرضاعة) بتاء مفتوحة ورفع الرضاعة على أن الفعل لها، وقرأ ابن عباس (يكمل الرضاعة).

﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ : يعنى الأب﴿رِزْقُهُنَّ﴾ : طعامهنّ وقوتهنّ﴿وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ : لباسهنّ، وقرأ طلحة عن مصرف﴿وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ بضم الكاف، وهما لغتان مثل أسوة وإسوة ورشوه ورشوة ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ : علم الله تفاوت أحوال خلقه فى الغنى والفقر، فقال:﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ : أى على قدر الميسرة جعل الرضاعة على الأم والنفقة على الأب﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ : والتكليف الإلزام، قال الشاعر:

تكلّفنى معيشـــة آل فهر ومن لى بالصلائق والصناب

والوسْع ما يسع الإنسان فيطيقه ولا يضيق عليه، وهو اسم كالجهد والوجد، وقيل: الوسع يعنى الطاقة، ورُفع النفس باسم الفعل المجهول لأنه وضع موضع الفاعل، وانتصب الوسع بخبر الفعل المجهول، لأنه أقيم مقام المفعول، نظيرها فى سورة الطلاق.

﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾ : قرأ ابن محجن وابن كثير وشبل وأبو عمرو وسلام ويعقوب وقتيبة برفع الراء مشددة وأجازه أبو حاتم على الخبر مسبوقًا على قوله ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ﴾ (البقرة:٢٨٦) وأصله فلا يضارر فأُدغمت الراء فى الراء، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى وخلف﴿لَا تُضَآرَّ﴾ : مشددة منصوبة الراء واختاره أبو عبيد على النهى وأصله لا تضارر فأدغمت وحرّكت إلى أخفّ الحركات وهو النصب، ويدل عليه قراءة عمر: لا تضارر على إظهار التضعيف، وقرأ الحسن: لا تضارّ براء مدغمة مكسورة لأنها لمّا أُدغمت سُكّنت، وبجزمه تحرّك إلى الكسر، وروى أبان عن عاصم: لا تُضار مظهرة مكسورة على أنّ الفعل لها، وقرأ أبو جعفر لا تضار بجزم الراء وتخفيفه على الحذف طلبًا للخفة.

ومعنى الآية﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾ : فينزع الولد منها إلى غيرها بعد أن رضيت بإرضاعه وألفها الصبى﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ : ولا تلقيه هى إلى أبيه بعدما عرفها تضارّه بذلك.

وقيل: معناه﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾ : فيكرهها على الرضاعة إذا قبل من غيرها، وكرهت هى إرضاعه؛ لأن ذلك ليس بواجب عليها﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ فيحمل على أن يعطى الأم إذا لم يرضع الولد إلاّ منها أكثر ممّا يجب له عليه، فهذان القولان على مذهب الفعل المجهول على

معنى أنه يفعل ذلك بها وبوالده والمولود له مفعولان، وأصل الكلمة يضارّ بفتح الراء الأولى، ويحتمل أن يكون الفعل لهما، وأن يكون تضار على مذهب ما قد سمى فاعله، والمعنى: لا يضارّ والده فتأبى أن ترضع ولدها لتشقّ على أبيه ولا مولود له، ولا يضار الأب أم الصبى فيمنعها من إرضاعه وينزعه منها، وعلى هذا المذهب أصله لا يضارر بكسر الراء الأولى، وعلى هذه الأقوال يرجع الضرار إلى الوالدين يضرّ كل واحد منهما صاحبه بسبب الولد.

ويجوز أن يكون الضرار راجعًا إلى الصبى أى لا يضارّ كل واحد منهما الصبى، فلا ترضعه الأم حتى يموت، أو لا ينفق عليها الأب أو ينزعه من أُمه حتى يضر بالصبى وبكون الياء زائدة معناه: لا تضار الأم ولدها ولا أب ولده، وكل هذه الأقاويل مروية عن المفسرين.

﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾: اختلف أهل الفتاوى فى أى وارث هو؟ ووارث من هو؟ فقال قوم: هو وارث الصبى، معناه: وعلى وارث الصبى الذى لو مات الصبى وله خال ورثه، مثل الذى كان على أبيه فى حياته.

ثم اختلفوا أى وارث هو من ورثته؟ فقال بعضهم: هو عصبته كائنًا من كان من الرجال دون النساء، مثل الجد والأخ وابن الأخ والعم وابن العم ونحوهم، وهو قول عمر رضى الله عنه والزهرى والحسن ومجاهد وعطاء ومذهب سفيان، قال: إذا لم يبلغ نصيب الصبى ما ينفق عليه أجبرت العصبة الذين يرثونه أن يسترضعوه.

قال ابن سيرين: أتى عبد الله فى رضاع صبى يتيم ومنعه وليه؛ فجعل رضاعه فى ماله، وقال لوارثه: لو لم يكن له مال لجعلنا رضاعه فى مالك، ألا ترى أنّ الله عزّ وجل يقول ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾؟ قال الضحاك: إنْ مات أبُ الصبى وللصبى المال أخذ رضاعه من المال، وإنْ لم يكن له مال أخذ من العصبة، وإن لم يكن للعصبة مال أجبرت عليه أُمّه.

وقال بعضهم: هو ويرث الصبى كائنًا من كان من الرجال والنساء، وهو قول قتادة والحسن ابن صالح وابن أبى ليلى ومذهب أحمد وإسحاق وأبى ثور قالوا: يجبر على نفقته كل وارث على قدر ميراثه، عصبةً كانوا أو غيرهم.

وقال بعضهم: هو من كان ذا رحم محرم من ورثة المولود؛ فمن لم يكن بمحرم مثل ابن العم والمولى وما أشبههما فليسوا ممن عناهم الله بقوله: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ وإن كانوا من جملة العصبة لا يجبرون على النفقة، وهو قول أبى حنيفة وأبى يوسف ومحمد، قال: لا يجبر على نفقة الصبى إلاّ ذو رحمه المحرم، وقال آخرون ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ يعنى الصبى نفسه الذى هو وارث أبيه المتوفى فإن عليه أجر رضاعه فى ماله إن كان له مال، فإن لم يكن له

مال أجبر أمّه على رضاعه، ولا يجبر على نفقة الصبى إلا الوالدان، وهو قول مالك والشافعى.

وقيل: هو الباقى من والدى المولود بعد وفاة الآخر عليه مثل ذلك، يعنى: مثل ما كان على الأب من أجر الرضاع والنفقة والكسوة، قاله أكثر العلماء، وقال الشعبى والزهرى ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ يعنى أن لا يضارّ.

﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾: يعنى الوالدان، ﴿فِصَالًا﴾: فطامًا قبل الحولين وأصل القطع ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا﴾ جميعًا به واتفاقًا عليه ﴿وَتَشَاوُرٍ﴾ وهو استخراج الرأى، وأصله من شرت الدابة وشورتها إذا استخرجت ما عندها من الغدد ويقال لعلم ذلك: المشوار.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ﴾: أيها الآباء ﴿أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ﴾: مراضع غير أمهاتهم إذا أبين مراضاتهم أن يرضعه، أو لعلة بهن أو انقطاع لبنهن أو أردن النكاح، أو خفتم الضيعة على أولادكم ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم﴾: إلى أمهاتهم أجرهن بقدر ما أرضعن، وقيل: سلّمتم أجور المراضع إليهن.

وقيل: إذا سلّمتم الاسترضاع عن تراض واتفاق دون الضرار وذلك قوله تعالى: ﴿مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ أى يُقبضون ويموتون، وأصل التوفى أخذ الشىء وافيًا، وقرأ على بن أبى طالب كرّم الله وجهه بفتح الياء أى يتوفون أعمارهم وأرزاقهم وتوفى واستوفى بمعنى واحد ﴿وَيَذَرُونَ﴾ ويتركون ﴿أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ﴾ فإن قيل: فأين الخبر عن قوله ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ قيل: هو متروك فإنه لم يقصد الخبر عنهم، وذلك جائز فى الاسم يذكر ويكون تمام خبره فى اسم آخر، أن يقول الأول ويخبر عن الثانى فيكون معناه ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ﴾ كقول الشاعر:

بنى أسد إنّ ابن قيس وقتله ... بغير دم دار المذلّة حلّت

فألغى ابن قيس وقد ابتدأ بذكره، وأخبر عن قتله أنه ذلّ، وأنشد:

لعلّى إن مالت بى الريح ميلة ... على ابن أبى ذبان أن يتندما

فقال: لعلّى ثم قال: يتندما لأن المعنى فيه عدا قول الفرّاء.

وقال الزجاج: معناه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ أزواجهم يتربصن بأنفسهنّ.

وقال الأخفش: خبره فى قوله ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ أى يتربصن بعدهم.

وقال قطرب: معناه ينبغى لهنّ أن يتربصن أى ينتظرن ويحتبسن بأنفسهن، معتدّات على أزواجهن، تاركات الطيب والزينة والأزواج والنقلة عن المسكن الذى كنّ يسكنه فى حياة

أزواجهنّ أربعة أشهر وعشراً إلاّ أن يكنّ حوامل فيتربصن إلى أن يضعن حملهن، فإذا ولدنَ انقضت عدّتهنّ.

وروى الزهرى عن عروة عن عائشة أنها كانت تفتى للمتوفى عنها زوجها حتى تنقضى عدّتها أن لا تلبس مصبوغاً، وتلبس البياض ولا تلبس السواد، ولا تتزيّن ولا تلبس حليّاً ولا تكتحل بالإثمد ولا بكحل فيه طيب وإنْ وجعت عينها، ولكنها تتحلّى بالصبر وما بدا لها من الأكحال سوى الإثمد مما ليس فيه طيب.

وروى نافع عن زينب بنت أم سلمة أنّ امرأة من قريش جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن ابنتى توفى زوجها وقد اشتكت عينها حتى خفت على عينها وهى تريد الكحل، فقال عليه الصلاة والسلام: «قد كانت إحداكنّ تلبس أطمار ثيابها وتجلس فى أخسّ بيوتها وتمكث حولاً فى بيتها، فإذا كان الحول خرجت فمن كملت رمته ببعرة أفلا أربعة أشهر وعشراً».

وروى نافع عن صفية بنت عبد الرحمن عن حفصة بنت عمر أن النبى ﷺ قال: «لا يحلّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلاّ على زوج، فإنها تحدّ عليه أربعة أشهر وعشراً»

وقال سعيد بن المسيب: الحكمة فى هذه المدة أن فيها ينفخ الروح فى الولد، وإنما قال وعشراً بلفظ المؤنث لأنه أراد الليالى لأن العرب إذا أتمت العدد من الليالى والأيام غلّبت عليه الليالى فيقولون: صمنا عشراً، والصوم لا يكون إلاّ بالنهار، قال الشاعر:

وطافت ثلاثًا بين يوم وليلة   وكان النكير أن يضيف ويجار

أى يخاف فاضح، ويدلّ عليه قراءة ابن عباس: أربعة أشهر وعشر ليال، وقال المبرّد: إنّما أنّث العشر لأنه أراد به المدد.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾: يعنى انقضاء العدّة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾: يخاطب الأولياء ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: من البر فى أن يتولوه لهنّ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.



﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝٢٣٥ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ

فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾: يا معشر الرجال ﴿فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾: النساء المعتدات، وأصل التعريض التلويح بالشىء. قال الشاعر:

كمـــا خطّ عبرانيّة بيمينه بتيماء حبر ثم عرّض أسطراً

والتعريض فى الكلام ما كان من لحن الكلام الذى يفهم به السامع من غير تصريح، وأصله من عرض الشىء وهو جانبه يقال: أضرب به عرض الحائط كأنه يحوم حوله ولا يظهره، وتعريض الخطبة المذكورة فى هذه الآية على ما جاء فى التفسير هو أن يقول لها وهى فى العدة: إنّك لجميلة، وإنك لصالحة، وإنّك لنافعة، وإنّ من عزمى أن أتزوج، وإنى فيك لراغب، وإنى عليك لحريص، ولعل الله أن يسوق إليك خيراً، وإنْ جمع الله بيننا بالحلال أعجبنى، ولئن تزوجتك لأعطيتك ولأحسن إليك ونحوها من الكلام من غير أن يقول لها: انكحى.

قال إبراهيم: لا بأس أن يهدى لها ويقوم بشغلها فى العدة إذا كانت من شأنه.

وروى ابن عوف عن محمد عن عبيدة فى هذه الآية قال: يقول لوليّها لا سبقنى إليها. قال مجاهد قال رجل لامرأة فى جنازة زوجها: لا تسبقينى بنفسك، فقالت: قد سبقت، وروى ابن المبارك عن عبد الرحمن بن سليمان عن خالته، أن سكينة بنت حنظلة قالت: دخل علىّ أبو جعفر محمد بن على وأنا فى عدّتى فقال: يا بنت حنظلة، أنا من قد علمت من قرابتى من رسول الله ﷺ وحق جدّى علىّ وقدمه فى الإسلام، فقالت: غفر الله لك يا أبا جعفر، أتخطبنى فى عدّتى وأنت يؤخذ عنك؟ فقال: أو لقد فعلت إنما أخبرتك بقرابتى من رسول الله ﷺ وموضعى، قد دخل رسول الله ﷺ على أُم سلمة وكانت عند ابن عمها أبى سلمة وتوفى عنها زوجها، فلم يزل رسول الله ﷺ يذكر لها منزلته من الله وهو متحامل على يده حتى أثر الحصير فى يده من شدة تحامله على يده فما كانت تلك خطبة.

وقال ابن يزيد فى هذه الآية: كان أبى يقول: كل شىء كان دون أن يعزما عقدة النكاح فهو زنا، قال الله عزّ وجلّ ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ والخطبة التماس النكاح، وهو مصدر قولك: خطب الرجل المرأة يخطبها خطبة وخطبًا.

وقال قوم: هى مثال الجلسة والقعدة والركبة، ومعنى قولهم خطب فلان فلانة: سألها خطبة إلى ما فى نفسها أى حاجاته وأمره من قولهم ما خطبك أى حاجتك وأمرك، قال الله: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ (طه: ٩٥) وقال الأخفش: الخطبة: الذكر، والخطبة المشهد، فيكون معناه: فيما عرّضتم به من تخطبون النساء عندهنّ ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ﴾ أسررتم وأضمرتم ﴿فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ فى خطبتهنّ وزواجهنّ، يقال: كننت الشىء وأكننته لغتان، وقال ثعلب: أكننت الشىء أخفيته فى نفسى وكننته سترته، وقال السدى: هو أن يدخل فيساويهنّ إن شاء ولا يتكلم بشىء.

﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾: بقلوبكم، وقال الحسن: يعنى الخطبة ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ﴾ بيوم، قال بعضهم: هو الزنا وكان الرجل يدخل على المرأة من أجل الريبة وهو عرض بالنكاح فيقول لها: دعينى فإذا وفيت عدّتك أظهرت نكاحك، فنهى الله تعالى عن ذلك، هذا قول الحسن وقتادة وإبراهيم وجابر بن زيد وابن أبى مجلز والضحّاك والربيع وعطاء، وهى رواية عطية عن ابن عباس، يدلّ عليه قول الأعشى:

ولا تقربنّ جارةً إنّ سرّها عليك حرام وانكحن أو تأبّدا

وقال الحطيئة:

ويحرم سرّ جارتهم عليهم ويأكل جارهم أنف القصاع

وقال مجاهد: هو قول الرجل للمرأة: لا تفوتينى نفسك، فإنّى أنكحك. الشعبى والسدى: لا يأخذ ميثاقها أن لا تنكح غيره. عكرمة: لا يخطبها فى العدة. سعيد بن جبير: لا يقايضها على كذا وكذا من المال على أن لا تتزوج غيره، وهذه التأويلات كلها متقاربة، والسرّ على هذه الأقوال النكاح قال امرؤ القيس:

ألا زعمت بسباسة اليوم أننى كبرت وأن لا يحسن السرّ أمثالى

قال الأعشى:

فلم يطلبوا سرّها للغنى ولم يسلموها لإزهاها

أى نكاحها، وقال الكلبى: لا تواعدوهنّ سراً أى لا تصفوا أنفسكم لهنّ بكثرة الجماع فيقول لها آتيك الأربعة الخمسة وأشباه ذلك، وعلى هذا القول السّر هو الجماع نفسه، وقال الفرزدق:

موانع للأسرار إلاّ لأهلها ويخلفن ما ظنّ الغيور المشفشف

يعنى أنهنّ عفائف اليد عن الجماع إلاّ من أزواجهنّ. قال رؤبة:

فعفّ عن أسرارها بعد الغسق ولم يضعها بين فرك وعشق

يعني عفّ عن غشيانها بعد ما لزمته ذلك.

وقال زيد بن أسلم: لا تواعدوهن سرًّا أي لا تنكحوهنّ سرًا، ثم يمسكها حتى إذا حلّت أظهرت ذلك، وأصل السرّ ما أخفيته في نفسك، وإنما قيل للنكاح والزنا والجماع السرّ لأنها تكون بين الرجل والمرأة في خفاء، ويقال أيضًا للفرج سرّ لأنه لا يظهر، وأنشد ثعلب عن ابن الأعرابي:

لمّا رأت سرّي تغيّر وانحنى من دون نهمة سرّها حين انثنى

ثم استثنى فقال ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ قيل عدة جميلة، وقال مجاهد: هو التعرض من غير أن يصرّح ويبوح، وأن في محل نصب بدلاً من السرّ، وقال عبد الرحمن بن زيد: هذا كلّه منسوخ بقوله: ﴿وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ أي لا تصححوا عقدة النكاح، وقال ابن الزجاج: ولا تعزموا على عقدة النكاح، كما يقال: يضرب يد الطهر واليُمن وقال عنترة:

ولقد أبيت على الطوى وأظلّه حتى أنال به كريم المطعم

أي وأظل عليه.

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾: حتى تنقضي العدّة وإنما سماها كتابًا لأنها فرض من الله تعالى كقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾(البقرة: ٢١٦).

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾: فخافوا الله ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾: لا يعجل بالعقوبة، تقول العرب: ضع الهودج على أحلم الجمال.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ الآية، نزلت في رجل من الأنصار تزوج بامرأة من بني حنيفة، ولم يسمّ لها مهرًا، ثم طلّقها قبل أن يمسها فأنزل الله تعالى هذه الآية، فلما نزلت قال له رسول الله ﷺ: «متعها ولو بقلنسوتك»، فذلك قوله ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ تجامعوهنّ.

قرأ حمزة والكسائي وخلف: تماسّوهنّ بالألف على المفاعلة لأنّ بدن كل واحد منهما يمسّ بدن صاحبه فيتماسّان جميعًا، دليله ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ (المجادلة: ٣) وقرأ الباقون: تمسّوهن بغير ألف لأن الغشيان إنما هو من فعل الرجل، دليله قوله ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ (مريم: ٢٠).

﴿أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾: أي توجدوا لهن صداقًا، يقال فرض السلطان لفلان أي أثبت له صدقة في الديوان، فإن قيل: ما الوجه في نفي الجناح عن المطلق وهل على الرجل جناح لو طلق بعد المسيس فيوضع عنه قبل المسيس؟ قيل: روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما بال أقوام

يلعبون بحدود الله يقولون: طلّقتك، راجعتك؟»، وقال ﷺ: «لا تطلّقوا نساءكم إلاّ عن ريبة؛ فإن الله لا يحبّ الذوّاقين ولا الذوّاقات».

قال ﷺ: «أبغض الحلال عند الله الطلاق»، وقال ﷺ: «إنّ الله يبغض كل مطلاق مذواق».

فلمّا قال رسول الله هذا ظنّوا أنهم يأثمون فى ذلك فأخبر الله تعالى أنه لا جناح فى تطليق النساء إذا كان على الوجه المندوب، فربّما كان الفراق أروح من الإمساك، وقيل: معنى قوله ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أى لا سبيل عليكم للنساء إن طلّقتموهن ما لم تمسوهن ولم تكونوا فرضتم لهن فريضة فى إتباعكم بصداق ولا نفقة.

وقيل: معناه ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ فى أى وقت شئتم لأنه لا سنّة فى طلاقهن، فللرجل أن يطلقهن إذا لم يكن مسهن حائضًا أو طاهرًا، وفى كل وقت أحب، وليس كذلك فى المدخول بها لأنه ليس لزوجها طلاقها إن كانت من أهل الأقراء إلاّ العدة ظاهرًا فى طهر لم يجامعها فيه، فإن طلّقها حائضًا آيسًا وقع الطلاق.

﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾: أى زوّدوهن وأعطوهنّ من مالكم ما يتمتعن به، والمتعة والمتاع ما تبلغ به من الزاد ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ﴾ أى الغنى ﴿قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ﴾ الفقير ﴿قَدَرُهُۥ﴾ أى إمكانه وطاقته، قرأ أبو جعفر وحفص وحمزة والكسائى وخلف وابن ذكوان بفتح الدال فيهما، واختاره أبو عبيدة قال: لما فيهما من الفخامة، وقرأ الآخرون بجزم الدال فيهما واختاره أبو حاتم وهما لغتان، قال: نطق بهما القرآن فتصديق الفتح قوله: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ (الرعد:١٧) وتصديق الجزم قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ (الزمر:٦٧) تقول العرب: القضاء والقدر، وقال أبو يزيد الأنصارى: القضاء والقدر بتسكين الدال، وقال الشاعر وهو الفرزدق:

وما صبّ رملى فى حديد مجاشع ... مع القدر إلاّ حاجة لى أريدها

وقال بعضهم: القدْر المصدر والقدَر الاسم ﴿مَتَٰعًا﴾ نصب على المصدر أى متعوهن متاعًا، ويجوز أن يكون نصبًا على القطع لأن المتاع نكرة والقدر معرفة ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أى ما أمركم الله به من غير ظلم ولا مطل ﴿حَقًّا﴾ نصب على الحكاية تقديره: أخبركم حقًا، وقيل على القطع.

❖ حكم الآية:

قال المفسرون: قيل: هذا فى الرجل يتزوج المرأة ولا يسمّى لها صداقًا فطلقها قبل أن يمسها فلها المتعة ولا فريضة لها بإجماع العلماء، واختلفوا فى متعة المطلقة فيما عدا ذلك، فقال

قوم: لكل مطلقة متعة كائنة من كانت وعلى أى وجه وقع الطلاق، فالمتعة واجبة تقضى لها فى مال المطلّق كما تقضى عليه سائر الديون الواجبة عليه، سواء دخل بها أو لم يدخل، فرض لها أو لم يفرض إذا كان الطلاق من قبله، فأما إذا كان الفراق من قبلها فلا متعة لها ولا مهر، وهو قول الحسن وسعيد بن جبير وأبى العالية ومحمد بن جرير، قال: لقوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢٤١) فأوجب المتعة لجميع المطلقات ولم يفرّق، ويكون معنى الآية على هذا القول: لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة أو لم تفرضوا لهن فريضة، لأن كل منكوحة إنما هى إحدى اثنتين: مُسمّى لها الصداق أو غير مسمى لها فعلمنا بالذى نقلوا من قوله: ﴿أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أن المعنية بقوله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ المفروضات لهن ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ وغير المفروض لها إذ لا معنى لقول القائل: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ ثم قال: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ يعنى الجميع.

وقال آخرون: المتعة واجبة لكل مطلقة سوى المطلقة المفروض لها إذا طُلقت قبل الدخول فإنه لا متعة لها وإنما لها نصف الصداق المسمى، هذا قول عبد الله بن عمر ونافع وعطاء ومجاهد ومذهب الشافعى، ويكون وجه الآية على هذا القول لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن ولم تفرضوا لهن فريضة، الألف زائدة كقوله ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (الصافات: ١٤٧) ونحوها، ثم أمر بالمتعة لهن.

ويجوز أن يكون قوله ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ راجعًا إلى المطلقات غير المفروضات قبل المسيس دون المفروضات لهنّ، ويكون قوله فى عقبه: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُن﴾ مختصًّا له، فجرى فى أول الآية على ظاهر العموم فى المفروضات وغير المفروضات، وفى قوله ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ على التخصيص فى غير المفروضات للآية التى بعدها.

وقال الزهرى: متعتان يقضى بأحدهما السلطان ولا يقضى بالأخرى، بل يلزمه فيما بينه وبين الله، فأما التى يقضى بها السلطان فهو فيمن طلق قبل أن يفرض لها ويدخل بها فإنه يؤخذ بالمتعة وهو قوله: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

والمتعة التى تلزم فيما بينه وبين الله تعالى ولا يقضى به السلطان هى فيمن طلق بعدما يدخل بها ويفرض لها وهو قوله: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وقال بعضهم: ليس شىء من ذلك بواجب، وإنما المتعة إحسان والأمر به أمر ندب واستحباب لا أمر فرض وإيجاب، وهو قول أبى حنيفة، وروى ابن سيرين أنّ رجلاً طلق امرأة وقد دخل بها، فخاصمته إلى شريح فى المتعة فقال

شريح: لا تاب أن يكون من المحسنين، ولا تاب أن يكون من المتقين، ولم يجبره على ذلك.

واختلفوا فى قدر المتعة ومبلغها، فقال ابن عباس والشعبى والزهرى والربيع بن أنس: أعلاها خادم وأوسطها ثلاثة أثواب: درع وخمار وجلباب وإزار، ودون ذلك النفقة، ثم دون ذلك الكسوة، شىء من الورق، وهذا مذهب الشافعى قال: أعلاها خادم على الموسع، وأوسطها ثوب، وأقلّها أقل ماله ثمن. قال الحسن: ثلاثون درهمًا، وكان شريح يمتع بخمسمائة درهم، ومتع عبد الرحمن بن عوف أم أبى سلمة حين طلّقها جارية سوداء، ومتع الحسن بن على رضى الله عنه امرأة له بعشرة آلاف درهم، فقالت: متاع قليل من حبيب مفارق.

قال أبو حنيفة: متاعها إذا اختلف الزوج والمرأة فيه قدر نصف مهر مثلها ولا تجاوز ذلك، والصحيح أن الواجب من ذلك على قدر عسر الرجل ويسره كما قال تعالى، ولو كان المعتبر فيه المهر لكان يقول: ومتعوهن على قدرهن وقدر صداق مثلهن، فلما قال: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ دل على أن المعتبر فيه حال الرجل لا حال المرأة، وروى ابن أبى زائدة عن صبيح بن صالح قال: سئل عامر: بكم يمتع الرجل امرأته؟ قال: على قدر ماله.

❖ تفصيل حكم الآية:

من تزوج امرأة على غير مهر مسمى فالنكاح جائز، فإن طلبت الفرض أمرناه أن يفرض لها، وإن لم يفرض لها ودخل بها فلها مهر مثلها، فإن طلقها قبل الدخول فلها المتعة ولا مهر لها، وإن مات عنها بعد الدخول فلها مهر مثلها، وإن مات عنها قبل الدخول والتسمية ففيها قولان:

أحدهما: لها مهر مثلها، وهو مذهب أهل العراق، والدليل عليه حديث بروع بنت واشق الأشجعية حين توفى عنها زوجها ولم يفرض لها ولا دخل بها فقضى رسول الله ﷺ بمهر نسائها لا وكس ولا شطط، وعليها العدة، ولها الميراث.

والقول الثانى: أنّ لها الميراث وعليها العدة ولا مهر لها، بل لها المتعة كما لو طلقها قبل الدخول والتسمية، وهو قول على، وكان يقول فى حديث بروع: لا يقبل قول أعرابى من أشجع على كتاب الله وسنة رسوله.

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾: الآية هنا فى الرجل يتزوج المرأة، وقد سمى لها صداقًا، ثم يطلقها قبل أن يمسها فلها نصف الصداق، وليس لها أكثر من ذلك، ولا عدة عليها، وإن لم يدخل بها حتى توفى فلا خلاف أنّ لها المهر كاملاً والميراث، وعليها العدة،

والمسّ ههنا الجماع.

وقال أبو حنيفة وأصحابه: إن خلا رجل بامرأة ولم يجامعها حتى فارقها فإنّ المهر الكامل يلزمه، والعدّة تلزمها لخبر ابن مسعود: قضى الخلفاء الراشدون فيمن أغلق بابًا وأرخى سترًا أن لها المهر وعليها العدّة، وأما الشافعى فلا يلزم مهرًا كاملاً ولا عدّة إذ لم يكن دخول بظاهر القرآن.

قال شريح: لم أسمع الله تعالى ذكر فى كتابه بابًا ولا سترًا، إنما زعم أنه لم يمسّها فلها نصف الصداق، وهو مذهب ابن عباس.

وهذه الآية ناسخة الآية التى فى سورة الأحزاب ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ الآية، إلى قوله: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ (الأحزاب: ٤٩) قد كان لها المتاع، فلمّا نزلت هذه الآية نسخت ما كان قبلها وأوجبت للمطلقة المفروض لها قبل المسيس نصف مهرها المسمّى، ولا متاع لها كما قال عزّ من قائل: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ تجامعوهنّ.

﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾: أوجبتم لهنّ صداقًا، وسميتم لهنّ مهرًا، وأصل الفرض القطع، ومنه قيل لحزّ الميزان والقوس: فرضه، وللنصيب فريضة لأنه قطعه من الشىء ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ أى نصف المهر المستحق، وقرأ السلمى فنصف بضم النون حيث وقع، وهما لغتان.

ثم قال: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ يعنى النساء، ومحل يعفون نصب بأن إلاّ أن جمع المؤنث فى الفعل المضارع يستوى فى الرفع والنصب والجزم، يكون فى كل حال بالنون تقول: هنّ يضربن، ولن يضربن، ولم يضربن لأنها لو سقطت النون لاشتبه بالمذكر.

﴿أَوْ يَعْفُوَاْ﴾: قرأ الحسن ساكنة الواو كأنه استثقل الفتحة فى الواو كما استثقلت الضمّة فيها ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾: اختلف العلماء فيه، فقال بعضهم: هو الولى، ومعنى الآية إلا أن يعفون أى يهبن ويتركن النصف فلا يطالبن الأزواج إذا كنّ ثيبات بالغات رشيدات جائزات الأمر، أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح وهو وليها، فيترك ذلك النصف إذا كانت بكرًا أو غير جائزة الأمر، ويجوز عفوه عليها وإن كرهت، فإن عفت المرأة وأبى الولى فالعفو جائز، فإن عفا الولى وأبت المرأة فالعفو جائز بعد أن لا تريد ضرارًا، وهذا قول على وأصحاب عبد الله وإبراهيم وعطاء والحسن والزهرى والسدى وأبى صالح وأبى زيد وربيعة الرأى، ورواية العوف عن ابن الحسن.

وروى معمر عن ابن طاوس عن أبيه وعن إسماعيل بن شرواس قالا: الذى بيده عقدة النكاح هو الولى، وقال عكرمة: أذن الله تعالى هو فى العفو ورضى به وأمر به، فأى امرأة

عفت جاز عفوها وإن شحت وضنت عفا وليها وجاز عفوه، وهذا مذهب فقهاء الحجاز إلا أنهم قالوا يجوز عفو ولى البكر فإذا كانت ثيبًا فلا يجوز عفوه عليها.

وقال بعضهم: الذى بيده عقدة النكاح هو الزوج، ومعنى الآية: إلاّ أن تعفو النساء فلا يأخذن شيئًا من المهر، أو يعفو الزوج فيعطيها الصداق كاملاً، وهذا قول على وسعيد بن المسيب والشعبى ومجاهد ومحمد بن كعب القرظى ونافع والربيع وقتادة وابن حبان والضحاك ورواية عمار بن أبى عمار عن ابن عباس، وهو مذهب أهل العراق لا يرون سبيلاً للولى على شىء من صداقها إلا بإذنها، ثيبًا كانت أو بكرًا، قالوا: لإجماع الجميع من أن ولى المرأة لو أبرأ زوجها من مهرها قبل الطلاق أنه لا يجوز ذلك، فكذلك إبراؤه وعفوه بعد الطلاق لا يجوز، ولإجماعهم أيضًا على أنه لو وهب وليّها من مالها لزوجها درهمًا بعد البينونة أثم ما لم يكن له ذلك، وكانت تلك الهبة باطلة والمهر مال من أموالها، فوجب أن يكون الحكم كحكم بإبراء، مالها ولإجماعهم أنّ من الأولياء من لا يجوز عفوه عليها بالإجماع، وهم بنو الإخوة وبنو الأعمام وما يفرق الله بعض فى الآية.

عن عيسى بن عاصم قال: سمعت شريحًا يحدث قال: سألنى على عن الذى بيده عقدة النكاح، فقلت: ولى المرأة فقال: لا، بل الزوج، وروى أن رجلاً زوّج أخته وطلقها زوجها قبل أن يدخل بها؛ فعفا أخوها عن المهر فأجازه شريح، ثم قال: أنا أعفو عن نساء بنى مرة فقال عامر: لا والله ما قضى شريح قضاء أردأ ولا هو أحمق فيه منه أن يجيز عفو الأخ، قال: رجع بعدُ شريح عن قوله، وقال: هو الزوج.

وعن القاسم قال: كان أشياخ الكوفة ليأتون شريحًا فيخاصمونه فى قوله: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ حتى يجثو على ركبتيه فيقول شريح: إنه الزوج، إنه الزوج. روى شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير قالوا: هو الزوج، وقال طاوس ومجاهد: هو الولى فكلّمتهما فى ذلك فرجعا عن قولهما وتابعا سعيد وقالا: هو الزوج، وروى محمد بن شعيب مرسلاً أن النبى ﷺ قال: «الذى بيده عقدة النكاح الزوج، يعفو فيعطى الصداق كاملاً».

وعن صالح بن كيسان أن جبير بن مطعم تزوج امرأة ثم طلقها قبل أن يبنى بها فأكمل لها الصداق وقال: أنا أحق بالعفو وتأول قوله: ﴿أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ فيكونْ وجه الآية على هذا التأويل ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ نفسه فى كل حال قبل الطلاق وبعده، فلما أدخل الألف واللام حذف الهاء كقوله ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات: ٤١) يعنى مأواه، وقال النابغة:

لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم من الناس فالأحلام غير عوازب

يعنى وأحلامهم فكذلك قوله: ﴿عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ بمعنى عقدة نكاحه ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ قال سيبويه موضعه رفع بالابتداء أى والعفو أقرب للتقوى وألزم، بمعنى إلى، أى إلى التقوى: والخطاب ههنا للرجال والنساء، لأنّ المذكر والمؤنث إذا اجتمعا غلب المذكر، ومعناه وعفوكم عن بعض أقرب إلى التقوى لأن هذا العفو ندب وإذا سارع إليه وأتى به كان معلومًا أنه لما كان فرضًا أشد استعمالاً ولما نهى عنه أشد تجنبًا وقرأ الشعبى: وأن يعفو بالياء جعله خبراً عن الذى بيده عقدة النكاح.

﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾: قرأ على بن أبى طالب وأبو داود والنخعى (ولا تناسوا الفضل بينكم): من المفاعلة بين اثنين كقوله: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ (الحجرات: ١١) وقرأ يحيى بن يعمر ﴿وَلَا تَنسَوِا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ بكسر الواو، وقرأ الباقون ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ بضم الواو، ومعنى الفضل إتمام الرجل الصداق أو ترك المرأة النصف، حث الله تعالى الزوج والمرأة على الفضل والإحسان وأمرهما جميعًا أن يسبقا إلى العفو.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.



﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾: أى واظبوا وداوموا على الصلوات المكتوبات بمواقيتها وحدودها وركوعها وسجودها وقيامها وقعودها وجميع ما يجب فيها من حقوقها، وكل صلاة فى القرآن مقرونة بالمحافظة فالمراد بها الصلوات الخمس، ثم خص الصلاة الوسطى من بينها بالمحافظة دلالة على فضلها كقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ (البقرة: ٩٨) وهما من جملة الملائكة، وقوله: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ (الرحمن: ٦٨) أخرجهما بالذكر من الجملة بالواو الدالة على التخصيص والتفصيل، فكذلك قوله: ﴿وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾.

وقرأت عائشة (والصلاةَ الوسطى) بالنصب على الإغراء، وروى قالون عن نافع ﴿ٱلْوُسْطَىٰ﴾ بالصاد لمجاورة الطاء لأنهما من جنس واحد، وهما لغتان كالصراط والسراط، والصدغ والسدغ، والبصاق والبساق، واللصوق واللسوق، والصندوق والسندوق، والصقر والسقر.

والوسطى تأنيث الأوسط، ووسط الشيء خيره وأعدله لأن خير الأمور أوسطها، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة:١٤٣) أى خياراً وعدلاً، وقال تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ (القلم:٢٨) أى خيرهم وأفضلهم، وقال أعرابى يمدح النبى ﷺ:

يا أوسط الناس طرًّا فى مفاخرهم وأكـرم النـاس أمًّا برة وأبا

واختلف العلماء فى الوسطى وأى صلاة هى، فقال سعيد بن المسيب: كان أصحاب رسول الله ﷺ فيها هكذا فى الاختلاف، وشبّك بين أصابعه، فقال قوم: هى صلاة الفجر، وهو قول معاذ وعمر وابن عباس وابن عمر وجابر بن عبد الله وعطاء وعكرمة والربيع ومجاهد وعبد الله بن شداد بن الهاد، وعن موسى بن وهب قال: سمعت أبا أمامة وقد سئل عن الصلاة الوسطى قال: لا أحسبها إلا صلاة الصبح.

معمر بن طاوس عن أبيه وإسماعيل بن شرواس عن عكرمة قالا: هى الصبح يعنى الصلاة الوسطى، وهو اختيار الإمام أبى عبد الله الشافعى، يدّل عليه ما روى الربيع عن أبى العالية أنه صلى مع أصحاب رسول الله ﷺ صلاة الغداة، فلمّا أن فرغوا قال: قلت لهم: أيّتهنّ الصلاة الوسطى؟ قالوا: التى صليتها، قيل: ولأنها بين صلاتى ليل وصلاتى نهار.

وروى عكرمة عن ابن عباس قال: هى صلاة الصبح، وسّطت فكانت بين الليل والنهار، يصلى فى سواد من الليل وبياض من النهار، وهى أكبر الصلوات تفوت الناس، ولأنها لم تقصر ولا تجمع إلى غيرها، ولأنها بين صلاتين تجمعان، وتصديق هذا التأويل من التنزيل دالاً على التخصيص والتفضيل قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (الإسراء:٧٨) يعنى تشهده ملائكة الليل والنهار، مكتوب فى ديوان الليل وديوان النهار، ودليل آخر من سياق الآية وهو أنه عقبها بقوله: ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ يعنى وقوموا لله فيها قانتين، قالوا: ولا صلاة مكتوبة فيها قنوت سوى صلاة الفجر فعلم أنها هى، وفيه دليل على ثبوت القنوت.

وقال أبو رجاء العطاردى: صلّى ابن عباس فى مسجد البصرة صلاة الغداة، فقنت بنا قبل الركوع ورفع يديه، فلمّا فرغ قال: هذه الصلاة الوسطى التى أُمرنا أن نقوم فيها قانتين، والدليل عليه ما روى حنظلة عن أنس قال: قنت رسول الله ﷺ شهراً وقال ما زال رسول الله

ﷺ يقنت فى صلاة الغداة حتى فارق الدنيا.

ابن أبى ليلى عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس قال: قنت رسول الله ﷺ حتى مات، وأبو بكر حتى مات، وعمر حتى مات، وعثمان حتى مات، وعلى حتى مات، وقال آخرون: هى صلاة الظهر وهو قول زيد بن ثابت وأبى سعيد الخدرى وأسامة بن زيد وعائشة.

روى عروة عن زيد بن ثابت أن النبى ﷺ كان يصلى بالهاجرة وكانت أثقل الصلوات على أصحابه فلا يكون وراءه إلاّ الصف والصفّان، وأكثر الناس يكونون فى قائلتهم وفى تجاراتهم فقال رسول الله ﷺ: «لقد هممت أن أحرق على قوم لا يشهدون الصلاة بيوتهم» فنزلت هذه الآية ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ ودليلهم أنها وسط النهار ما روى أبو ذر عن على كرم الله وجهه قال: قال النبى ﷺ: «إن لله فى السماء الدنيا حلقة تزول منها الشمس، فإذا مالت الشمس سبح كل شىء لربنا، وأمر الله تعالى بالصلاة فى تلك الساعة، وهى الساعة التى تفتح فيها أبواب السماء فلا تغلق حتى يصلى الظهر، ويستجاب فيها الدعاء».

ولأنها أوسط صلوات النهار، ومن خصائصها أنها أول صلاة فرضت وأول صلاة توجه فيها رسول الله ﷺ وأصحابه إلى الكعبة، وهى التى ترفع جميع الصلوات والجماعات لأجلها يوم الجمعة.

وقال بعضهم: هى صلاة العصر، وهو قول على وعبد الله وأبى هريرة والنخعى وزرّ بن حبيش وقتادة وأبى أيوب والضحّاك والكلبى ومقاتل، واختيار أبى حنيفة، يدلّ عليه ما روى الحسن عن سمرة بن جندب عن رسول ﷺ أنه قال: «صلاة الوسطى العصر».

وفى بعض الأخبار هى التى فرّط فيها سليمان عليه السلام. سفيان بن عيينة عن البراء بن عازب قال: نزلت (حافظوا على الصلوات وصلاة العصر) فقرأناها على عهد رسول الله ﷺ ما شاء الله ثم نسختها ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ فقال له بعضهم: فهى صلاة العصر، قال: أعلمتك كيف نزلت وكيف نسختها، والله أعلم.

نافع عن حفصة زوج النبى ﷺ أنها قالت لكاتب مصحفها: إذا بلغت مواقيت الصلاة فأخبرنى حتى أخبرك بما سمعت من رسول الله ﷺ، فلما أخبرها قالت: اكتب إنى سمعت رسول الله يقول: (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر).

هشام عن عروة عن أبيه قال كان فى مصحف عائشة (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر، وقوموا لله قانتين) وهكذا كان يقرؤها أبى بن كعب وعبيد بن عمير.

الأعمش عن مسلم عن شتير بن شكل عن على قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب:

«شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله بيوتهم ـ أو قبورهم ـ نارًا».

قال ثم صلاّها بين العشاءين، وفى بعض الأخبار أن رجلاً قال فى مجلس عبد العزيز بن مروان: أرسلنى أبو بكر وعمر وأنا غلام صغير إلى النبى ﷺ أسأله عن الصلاة الوسطى، فأخذ أصبعى الصغيرة فقال: «هذه الفجر»، وقبض التى تليها وقال: «هذه الظهر»، ثم قبض الإبهام فقال: «هذه المغرب»، ثم قبض التى تليها فقال: «هذه العشاء»، ثم قال: «أى أصابعك بقيت؟» فقلت: الوسطى، فقال: «أى الصلاة بقيت؟» قلت: العصر، قال: «هى العصر».

قالوا: ولأنها بين صلاتى نهار وصلاتى ليل، وكان النبى ﷺ متسامحًا فأخذ يصلّيها ويبالغ، وروى أبو تميم الحبشانى عن أبى بصرة الغفارى قال: صلّى بنا رسول الله ﷺ صلاة العصر، فلمّا انصرف قال: «إن هذه الصلاة فرضت على من كان قبلكم؛ فتوانوا فيها وتركوها؛ فمن صلاها منكم وحافظ عليها أوتى أجرها مرّتين ولا صلاة بعدها حتى يرى الشاهد» والشاهد: النجم.

أبو قلابة عن أبى المهاجر عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «بكروا بالصلاة فى يوم الغيم فإنه من فاتته صلاة العصر حبط عمله».

نافع عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال: «الذى يصلى العصر كافاه فى أهله وماله».

وقال قبيصة بن ذؤيب: هى صلاة المغرب، ألا ترى أنها واسطة ليست بأقلها ولا أكثرها وهى التى لا تقصر فى السفر ومن وتر النهار.

هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن أفضل الصلوات صلاة المغرب، لم يحطها الله عن مسافر ولا مقيم، فتح الله بها صلاة الليل، وختم بها النهار، فمن صلّى المغرب وصلّى بعدها ركعتين بنى الله له قصراً فى الجنة، ومن صلى بعدها أربع ركعات غفر الله له ذنب عشرين سنة، أو قال: أربعين سنة».

وحكى الشيخ أبو ميثم سهل بن محمد عن بعضهم أنها صلاة العشاء الأخيرة، وقال: لأنها بين صلاتين لا تقصران.

وروى عبد الرحمن بن أبى عمر عن عثمان بن عفان (رضى الله عنه) عن النبى ﷺ قال: «من صلى العشاء فى جماعة كان كقيام نصف ليلة، ومن صلى الفجر فى جماعة كان كقيام ليلة».

وقال بعضهم: هى إحدى الصلوات الخمس ولا نعرف عينها، سئل الربيع بن خيثم عن الصلاة الوسطى فقال للسائل: أراغب إن علمتها كنت محافظًا عليها ومضيعًا سائرهن؟ قال:

لا ، قال : فإنك إنْ حافظت عليهن فقد حافظت عليها ، وبه قال أبو بكر الوراق ، قال : لو شاء الله عز وجل لبينها ، ولكنه سبحانه أراد تنبيه الخلق على أداء الصلوات .

قال الثعلبى : ولقد أحسنا فى قوليهما فإن الله تعالى أخفى الصلاة الوسطى فى جميع الصلوات المكتوبة ليحافظوا على جميعها رجاء الوسطى ، كما أخفى ليلة القدر فى ليالى شهر رمضان ، واسمه الأعظم فى جميع الأسماء ، وساعة الإجابة فى ساعات الجمعة حكمة منه فى فعله ورحمة على خلقه .

وفى قوله عزّ وجلّ ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ دليل على أن الوتر ليس بواجب وذلك أن المسلمين اتفقوا على أن الصلوات المفروضات تنقص عن سبعة وتزيد على ثلاثة ، وليس من الثلاثة والسبعة فرد إلاّ خمسة ، والأزواج لا وسطى لها ، فثبت أنها خمسة .

قتادة عن أنس قال : قال رجل : يا رسول الله ، كم افترض الله على عباده من الصلوات؟ قال : «خمس صلوات» ، قال : فهل قبلهنّ وبعدهنّ شىء افترض الله على عباده قال : «لا» فحلف الرجل بالله لا يزيد عليهنّ ولا ينقص ، فقال النبى ﷺ : «إن صدق الرجل دخل الجنة» .

وعن طلحة بن عبيد الله قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس ، يسمع دوى صوته ولا يفهم ما يقول ، حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام ، فقال له رسول الله ﷺ : «خمس صلوات فى اليوم والليلة» قال : هل على غيرهن؟ قال : «لا إلاّ أن تتطوع» قال ﷺ : «وصيام شهر رمضان» قال : هل على غيره؟ قال : «لا ، إلاّ أن تتطوع» وذكر له عليه الصلاة والسلام الزكاة ، قال : هل على غيرها؟ قال : «لا ، إلا أن تتطوع» فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه ، قال رسول الله ﷺ : «أفلح إن صدق» .

عن محمد بن يحيى بن حيان عن ابن جرير أن رجلاً من بنى كنانة يدعى المحدجى كان يسمع رجلاً بالشام يكنى أبا محمد يقول : الوتر واجب ، قال المحدجى : فرحت إلى عبادة بن الصامت واعترضت له وهو رائح إلى المسجد فأخبرته بالذى قال أبو محمد ، فقال عبادة : كذب أبو محمد ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : «خمس صلوات كتبهنّ الله على العباد ، من جاء بهن لم يضيع منهن استخفافًا بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ، ومن لم يأت بهنّ فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه الله وإن شاء أدخله الجنة» .

وعن عاصم بن ضمرة عن على بن أبى طالب (رضى الله عنه) قال : ليس الوتر بحتم لأنه لا تكبير به ولكنه سنة سنها رسول الله ﷺ ، والدليل على أن الوتر ليس بواجب ما روى نافع عن ابن عمر أن النبى ﷺ كان يوتر على راحلته ، وعن نافع أيضًا أن ابن عمر كان يوتر على

بعيره، ويذكر أن النبى ﷺ كان يفعل ذلك، وأجمع الفقهاء على أن الصلاة المكتوبة على الراحلة فى حال الأمن لا تجوز.

﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ : أى مطيعين، قاله الشعبى وعطاء وجابر بن زيد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وطاوس وابن عباس برواية عكرمة وعطية وابن أبى طلحة، قال الضحاك ومقاتل والكلبى: لكل أهل دين صلاة يقومون فيها عاصين، فقوموا أنتم فى صلواتكم لله مطيعين، ودليل هذا التأويل ما روى أبو سعيد الخدرى عن النبى ﷺ أنه قال: «كل قنوت فى الظهرين هو الطاعة».

وقال بعضهم: القنوت: السكوت عما لا يجوز التكلم به فى الصلاة، قال زيد بن أرقم: كنّا نتكلم على عهد رسول الله ﷺ فى الصلاة ويكلم أحدنا من إلى جانبه، ويدخل الداخل فيسلم فيردون عليه، ويسألهم: كم صليتم؟ فيردون عليه مخبرين كما صلوا، ويجىء خادم الرجل وهو فى الصلاة فيكلمه بحاجته كفعل أهل الكتاب، فكنا كذلك إلى أن نزلت ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ فأمرنا بالسكوت ونُهينا عن الكلام.

مجاهد: خاشعين، قال: ومن القنوت طول الركوع وغضّ البصر والركود وخفض الجناح، كان العلماء إذا قام أحدهم يصلى يهاب الرحمن أن يلتفت أو يقلب الحصى أو يعبث بشىء أو يحدث نفسه بشىء من أمر الدنيا إلا ناسيًا.

الحسن والربيع: قيامًا فى الصلاة، يدل عليه حديث جابر أن النبى ﷺ سئل: أى الصلاة أفضل؟ فقال: «طول القنوت».

وقال ابن عباس فى رواية رجاء: داعين فى صلاتهم، دليله أن النبى ﷺ قنت على رجل وذكر أن أى دعاء عليهم قد قيل: مصلين دليله قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ (الزمر: ٩) أى مصل، وقال النبى ﷺ: «مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل القانت الصائم» أى المصلى الصائم ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا﴾ أى رجالة، ويقال: راجل رجال مثل صاحب وصحاب وصائم وصيام وقائم وقيام، قال الله تعالى ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ (الحج: ٢٧) قال الأخطل:

وبنو غدانة شاخص أبصارهم يمشون تحت بطونهنّ رجالا

يروى أنه أحنوا مأسورين وأبصارهم شاخصة إلى ولدهم ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ على دوابهم، وهو جمع راكب، قال المفضل: لا يقال راكب إلاّ لصاحب الجمل، فأمّا صاحب الفرس فيقال له فارس، ولراكب الحمار الحمّار، ولراكب البغال بغّال، ونصبت على الحال، أى فصلّوا رجالاً أو ركبانًا.

ومعنى الآية: فإن لم يمكنكم أن تصلّوا قانتين موفين الصلاة حقّها لخوف فصلّوا رجالاً أي مشاة على أرجلكم، أو ركبانًا على ظهور دوابّكم، فإن ذلك يجزيكم.

قال المفسرون: هذا في المسابقة والمطاردة، يصلّي حيث يولي وجهه، مستقبل القبلة أو غير مستقبلها، راكبًا أو راجلاً، ويجعل السجود أخفض من الركوع، يومئ إيماء، وهذه صلاة شدّة خوف، والصلاة في حال الخوف على ضربين، وسنذكرها في سورة النساء، وصلاة شدّة الخوف وهي هذه، والخوف الذي يجوز للمصلي أن يصلي من أجله راكبًا أو راجلاً وحيث ما كان وجهته هو المحاربة والمسابقة في قتال من أُسر بقتال عدوّ أو محارب أو خوف سبع هائج، أو جمل صائل، أو سيل سائل، أو كان الأغلب من شأنه الهلاك، وإن صلى صلاة الأمن فله أن يصلي صلاة شدة الخوف وهي ركعتان، فإن صلاّها ركعة واحدة جاز لما روى مجاهد عن ابن عباس قال: فرض الله عزّ وجلّ الصلاة على لسان نبيّكم في الحضر أربعًا وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة.

وقال سعيد بن جبير: إذا كنت في القتال، والتقى الزحفان، وضرب الناس بعضهم بعضًا فقل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر، واذكر الله، فتلك صلاتك. قال الزهري: فإن لم يستطع فلا يدع ذكرها في نفسه.

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾: أي فصلوا الصلوات الخمس تامّة لحقوقها ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ﴾: يا معشر الرجال ﴿وَيَذَرُونَ﴾ ويتركون ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾ زوجات.

قال الكسائي: أكثر ما تقول العرب للمرأة زوجة، ولكن في القرآن زوج ﴿وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم﴾ قرأ الحسن وأبو عمرو وأبو عامر والأعمش وحمزة (وصية) بالنصب على معنى فليوصوا وصية، وقرأ الباقون بالرفع على معنى كُتب عليهم الوصية، وقيل: معناه لأزواجهم وصية، وقيل: ولتكن وصية، ودليل هذه القراءة قراءة عبد الله: كُتب عليهم وصية لأزواجهم.

قرأ أُبي: ويذرون أزواجًا متاع لأزواجهم، قال أبو عبيد: ومع هذه رأينا هذه المعاني كلّها في القرآن رفعًا مثل قوله: ﴿فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ﴾، ﴿فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ﴾ (النساء: ٩٢) ونحوهما.

﴿مَّتَٰعًا﴾: نصب على المصدر أي متعوهنّ متاعًا، وقيل: جعل الله عزّ وجلّ ذلك لهنّ متاعًا، وقيل: نصب على الحال، وقيل: نصب بالوصية كقوله: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾ (البلد: ١٤). والمتاع: النفقة سنة لطعامها وكسوتها أو سكناها أو ما تحتاج إليه ﴿إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖ﴾ نصب على الحال، وقيل: بنزع حرف الصفة أي من غير إخراج.

فأما تفسير الآية وحكمها: فقال ابن عباس وسائر المفسرين: نزلت هذه الآية فى رجل من أهل الطائف يقال له: حكيم بن الحارث هاجر إلى المدينة وله أولاد ومعه أبواه وامرأته فمات، فرفع ذلك إلى النبى ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية، فأعطى رسول الله ﷺ والديه وأولاده من ميراثه ولم يعط امرأته غير أنّه أمرهم أن ينفقوا عليها من تركة زوجها حولاً، وذلك أن الرجل كان إذا مات وترك امرأة اعتدّت سنة فى بيت زوجها لا تخرج، فإذا كان الحول خرجت ورمت كلبًا ببعرة تعنى بذلك أن قعودها بعد زوجها أهون عليها من بعرة رُمى بها كلب، وقد ذكر ذلك الشعراء فى شعرهم، قال لبيد:

❖ المرملات إذا تطاول عامها ❖

وكان سكناها ونفقتها واجبة فى مال زوجها هذه السنة ما لم تخرج، وكان ذلك حظّها من تركة زوجها، ولم يكن لها الميراث، وإنْ خرجت من بيت زوجها فلا نفقة لها، وكان الرجل يوصى بذلك، وكان كذلك حتى نزلت آية المواريث فنسخ الله نفقة الحول بالربع والثمن، ونسخ عدة الحول بقوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾(البقرة: ٢٣٤) قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ يعنى من قبل أنفسهنّ قبل الحول من غير إخراج الورثة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ يا أولياء الميت ﴿فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ يعنى التشوق للنكاح، وفى معنى رفع الجناح عن الرجال بفعل النساء وجهان:

أحدهما: لا جناح عليكم فى قطع النفقة عنهنّ إذا خرجن قبل انقضاء الحول.

والوجه الآخر: لا جناح عليكم فى ترك منعهنّ من الخروج لأن مقامها حولاً فى بيت زوجها غير واجب عليها، خيّرها الله فى ذلك إلى أن نسخت أربعة أشهر وعشرًا، لأن ذلك لو كان واجبًا عليها ما كان على أولياء الزوج منعها من ذلك، فرفع الله الجناح عنهم وعنها، وأباح لها الخروج إن شاءت، ثم نسخ النفقة بالميراث، ومقام السنة بأربعة أشهر وعشرًا ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ قد ذكرنا حكم المتعة بالاستقصاء، فأغنى عن إعادته، وإنما أعاد ذكرها ههنا لما فيها من زيادة المعنى على ما سواها وهى أنّ فيما سوى هذا بيان حكم غير الممسوسة إذا طلقت، وههنا بيان حكم جميع المطلقات فى المتعة.

وقال ابن زيد: نزلت هذه الآية لأنّ الله تعالى لما أنزل قوله: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ إلى قوله ﴿عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قال رجل من المسلمين: إن أحسنتُ فعلتُ وإن لم أُردْ ذلك لم أفعل، قال الله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يعنى المؤمنين المتقين الشرك، فبيّن أنّ لكل مطلقة متاعًا وقد ذكرنا الخلاف فيها، وروى إياس بن عامر عن على بن أبى طالب (رضى

الله عنه) قال: لكل مؤمنة مطلقة حرّة أو أمة متعة وتلا قوله: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ الآية.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.



﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟﴾ الآية، قال أكثر المفسرين: كانت قرية يقال لها داوردان قبلَ واسط وقع بها الطاعون، فخرجت طائفة هاربين من الطاعون، وبقيت طائفة فهلك أكثر من بقى فى القرية، وسلم الذين خرجوا، فلمّا ارتفع الطاعون رجعوا سالمين، فقال الذين بقوا: أصحابنا كانوا أحزم منا، لو صنعنا كما صنعوا لبقينا، ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجنّ إلى أرض نأوى بها، فوقع الطاعون من قابل؛ فهرب عامّة أهلها فخرجوا حتى نزلوا واديًا أفيح، فلمّا نزلوا المكان الذى يبتغون فيه النجاة ناداهم ملك من أسفل الوادى وآخر من أعلاه أن موتوا فماتوا جميعًا.

وعن الأصمعى قال: لما وقع الطاعون بالبصرة خرج رجل من أهلها عنها على حمار ومعه أهله وولده وخلفه عبد حبشى يسوق حماره، فطفق العبد يرتجز وهو يقول:

لن نسبق الله على حمار ولا على ذى منعة مُطار

قد يصبح الله أمام السارى

فرجع الرجل بعياله لمّا سمع قوله، وروى عبد الرحمن بن عوف عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه، وإذا وقع وأنتم فيه فلا تخرجوا فراراً منه».

وقال الضحّاك ومقاتل والكلبى: إنما فرّوا من الجهاد وذلك أن ملكًا من ملوك بنى إسرائيل أمرهم أن يخرجوا إلى قتال عدوّهم، فخرجوا فعسكروا ثم جبنوا وكرهوا الموت واعتلوا، وقالوا لملكهم: إن الأرض التى نأتيها فيه الوباء فلا نأتيها حتى ينقطع منها الوباء، فأرسل الله تعالى عليهم الموت، فلمّا رأوا أن الموت كثر فيهم ﴿خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ فراراً من الموت، فلمّا رأى الملك ذلك قال: اللهم رب يعقوب وإله موسى قد ترى معصية عبادك فأرهم آية فى

أنفسهم حتى يعلموا أنهم لا يستطيعون الفرار منك، فلمّا خرجوا قال لهم الله: موتوا، عقوبة لهم، فماتوا جميعًا، وماتت دوابهم كموت رجل واحد، فأتى عليهم ثمانية أيام حتى انتفخوا وأروحت أجسادهم، فخرج إليهم الناس فعجزوا عن دفنهم فحظروا عليهم حظيرة دون السباع وتركوهم فيها.

واختلفوا فى مبلغ عددهم، فقال عطاء الخراسانى: كانوا ثلاثة آلاف، ابن عباس ووهب: أربعة آلاف، مقاتل والكلبى: ثمانية آلاف، أبو روق: عشرة آلاف، أبو مالك: ثلاثون ألفًا، الواقدى بضعة ومائتين ألف، ابن جريج: أربعين ألفًا، عطاء بن أبى رباح: سبعين ألفًا، الضحّاك: كانوا عددًا كبيرًا، وأولى الأقاويل بالصواب قول من قال: زادوا على عشرة آلاف، وذلك أنّ الله تعالى قال: ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ وما دون العشرة لا يقال ألوف، إنّما يقال: ثلاثة آلاف فصاعدًا إلى عشرة آلاف، فمن الألوف جمع الكثير وجمعه القليل آلاف، مثل يوم وأيام، ووقت وأوقات، وألف على وزن فعل.

وقيل: كانوا ثلاثة آلاف وكيسة. اليمان: أعجمى من بنى الفداحم.

قالوا: فأتى على ذلك مدة وقد بليت أجسادهم وعريت عظامهم وتقطّعت أوصالهم، فمرّ عليهم نبى يقال له حزقيل بن بورى ثارم أحد خلفاء بنى إسرائيل بعد موسى عليه السلام، وذلك بأنّ القيّم بأمر بنى إسرائيل كان بعد موسى عليه السلام يوشع بن نون، ثم كالب بن يوفنا، ثم حزقيل، وكان يقال له ابن العجوز وذلك أنّ أمه كانت عجوزًا فسألت الله تعالى الولد، وقد كبرت وعقمت فوهبه الله لها فلذلك قيل له: ابن العجوز.

قال الحسن ومقاتل: هو ذو الكفل لأنّه تكفل سبعين نبيًا وأنجاهم من القتل، وقال لهم: اذهبوا فإنى إن قتلت كان خيرًا من أن تقتلوا جميعًا، فلمّا جاء اليهود وسألوا حزقيل عن الأنبياء السبعين، قال: إنهم ذهبوا ولا أدرى أين هم، ومنع الله ذا الكفل من اليهود، فلمّا مرّ حزقيل على أولئك الموتى وقف عليهم فجعل يتفكر فيهم متعجبًا منهم، فأوحى الله إليه: يا حزقيل تريد أن أريك آية، فأريك كيف أحيي الموتى؟ قال: نعم فأحياهم الله. هذا قول السدى وجماعة من المفسرين.

وقال هلال بن يساف وجماعة من العلماء: بل دعا حزقيل ربّه أن يحييهم، فقال: يا ربّ لو شئت أحييت هؤلاء فعمّروا بلادك وعبدوك، فقال الله: أتحب أن أفعل؟ قال: نعم، فأحياهم.

وقال عطاء ومقاتل والكلبى: بل هم كانوا قوم حزقيل أحياهم الله تعالى بعد ثمانية أيام،

وذلك أنهم لما أصابهم ذلك خرج حزقيل فى طلبهم فوجدهم موتى وبكى وقال: يا ربّ كنت فى قوم يحمدونك ويسبحونك ويقدّسونك ويهللونك ويكبّرونك؛ فبقيت وحيدًا لا قوم لى، فأوحى الله إليه: إنى قد جعلت حياتهم إليك، فقال حزقيل: احيوا بأمر الله، فعاشوا.

وقال: وثمّت أصابهم بلاء وشدّة من الزمان فشكوا ما أصابهم وقالوا: ما لبثنا، متنا واسترحنا مما نحن فيه؛ فأوحى الله تعالى إلى حزقيل: إن قومك قد صاحوا من البلاء وزعموا أنهم ودّوا لو ماتوا واستراحوا وأى راحة لهم فى الموت، أيظنون أنى لا أقدر أن أبعثهم بعد الموت، فانطلقْ إلى جبّانة كذا فإن فيها قومًا أمواتًا، فأتاهم فقال الله: يا حزقيل قم فنادهم، وكانت أجسادهم وعظامهم قد تفرّقت، فنادى حزقيل: أيتها العظام إنّ الله يأمرك أن تكتسى باللحم، فاكتست جميعًا باللحم، وبعد اللحم جلدًا ودمًا وعصبًا وعروقًا وكانت أجسادًا، ثم نادى أيّتها الأرواح إنّ الله يأمرك أن تعودى فى أجسادك، فقاموا جميعًا وعليهم ثيابهم التى ماتوا فيها، وكبّروا تكبيرة واحدة.

وروى المنصور بن المعتمر عن مجاهد أنهم قالوا حين أحيوا: سبحانك ربّنا وبحمدك، لا إله إلاّ أنت، فرجعوا إلى قومهم بعدما أحياهم الله، وتناسلوا وعاشوا دهرًا يعرفون أنهم كانوا موتى، سحنة الموت على وجوههم، لا يلبسون ثوبًا إلاّ عاد دسمًا مثل الكفن حتى ماتوا لآجالهم التى كتبت عليهم.

قال ابن عباس: فإنها لتوجد اليوم فى ذلك السبط من اليهود تلك الريح.

قال قتادة: مقتهم الله تعالى على فرارهم من الموت، فأماتهم عقوبة ثم بعثهم إلى بقية آجالهم ليستوفوها، ولو كان آجال القوم جاءت ما بعثوا بعد موتهم، فذلك قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ﴾، ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أى: ألم تُخبر، ألمْ تعلم بإعلامى إيّاك وهو رؤية القلب لا رؤية العين؛ فصار تصديق أخبار الله عزّ وجلّ كالنظر إليه عيانًا.

وقال أهل المعانى: هو تعجب وتعظيم يقول: هل رأيت مثلهم كما تقول: ألمْ ترَ إلى ما يصنع فلان؟ وكلّ (لم) فى القرآن من قوله ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ولم يعاينه النبى ﷺ فهذا وجهه ومعناه، وقرأها كلها أبو عبد الرحمن السلمى (ألم ترْ) بسكون الراء وهى لغة قسم من العرب لمّا حذفوا الياء للجزم توهّموا أن الراء آخر الكلمة فسكّنوها، وأنشد الفراء:

❖ قالت سليمى سر لنا دقيقًا ❖

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ﴾: واو الحال ﴿أُلُوفٌ﴾ جمع ألف، وقال ابن زيد مؤتلف قلوبهم جعله جمع آلف مثل جالس وجلوس وقاعد قعود ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾: أى من خوف

الموت ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾ : أمر تحويل كقوله : ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ (البقرة: ٦٥).

﴿ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ : من بعد موتهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ إلى ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ : ثم حثّهم على الجهاد فقال : ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ طاعة الله ، أعداءَ الله ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ : قال أكثر المفسّرين : هذا للذين أُحيوا ، قال الضحّاك : أُمروا أن يقاتلوا فى سبيل الله فخرجوا من ديارهم فراراً من الجهاد ؛ فأماتهم الله عزّ وجلّ ثم أحياهم ثم أمرهم أن يعودوا إلى الجهاد ، وقال بعضهم : هذا الخطاب لأُمة محمد ﷺ.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ الآية ، قال سفيان : لمّا نزلت ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ (الأنعام: ١٦٠) قال النبى ﷺ: «رب زد أمتى» فنزلت ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ الآية ، فقال : «زد أُمتى» فنزلت ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: ١٠).

واختلف العلماء فى معنى هذا القرض ، فقال الأخفش : قوله ﴿يُقْرِضُ﴾ ليس لحاجة بالله ولكن تقول العرب : لك عندى قرض صدق وقرض سوء لأمر يأتى فيه مسرّته أو مساءته.

وقال الزجاج : القرض فى اللغة البلاء الحسن والبلاء السيّئ ، قال أُمية بن أبى الصلت :

لا تخلطنّ خبيثات بطيّبة ... واخلع ثيابك منها وانج عريانا

كل امرئ سوف يجزى قرضه حسنا ... أو سيّئًا أو مدينًا مثل ما دانا

وأنشد الكسائى :

تجازى القروض بأمثالها ... فبالخير خيراً وبالشرّ شرا

وقال أيضًا : ما أسلفت من عمل صالح أو سيّئ.

ابن كيسان : القرض أن تعطى شيئًا ليرجع إليك مثله ويقضى شبهه ؛ فشبّه الله عمل المؤمنين لله على ما يرجون من ثوابه بالقرض ؛ لأنّهم إنما يعطون ما ينفقون ابتغاء ما عند الله عزّ وجلّ من جزيل الثواب ، فالقرض اسم لكل ما يعطيه الإنسان ليجازى عليه ، قال لبيد :

وإذا جوزيت قرضًا فاجز به ... إنما يجزى الفتى ليس الجمل

قال بعض أهل المعانى : فى الآية اختصار وإضمار ، ومجازها : من ذا الذى يقرض عباد الله قرضًا كقوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وقوله ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ (الزخرف: ٥٥) فأضافه سبحانه ههنا إلى نفسه للتفضيل وللاستعطاف ، كما فى الحديث : إن الله تعالى يقول لعبده : استطعمتك فلم تطعمنى ، واستسقيتك فلم تسقنى ، واستكسيتك فلم تكسنى ، فيقول العبد : وكيف ذلك يا سيدى؟ يقول : مرّ بك فلان الجائع ، وفلان العارى فلم تعطف عليه من فضلك ، فلأمنعنك اليوم من فضلى كما منعته.

وقال أهل الإشارة: أمر الله تعالى بالصدقة على لفظ القرض إظهاراً لمحبّته لعباده المؤمنين، وذلك أنه إنما يستقرض من الأحبّة، ولذلك قال يحيى بن معاذ: عجبت ممن يبقى له مال ورب العرش يستقرضه، وقال بعضهم: هذا تلطف من الله تعالى فى المواساة والإقراض لعباده.

أبو القاسم عن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت على باب الجنة مكتوباً: والقرض بثمانية عشر، والصدقة بعشر فقلت: يا جبرئيل ما بال القرض أعظم أجرًا؟ قال: لأن صاحب القرض لا يأتيك إلاّ محتاجًا، وربّما وقعت الصدقة فى غير أهلها».

أبو سلمة عن أبى هريرة وابن عباس قالا: قال رسول الله ﷺ: «من أقرض أخاه المسلم فله بكل درهم وزن أُحد وثبير وطور سيناء حسنات».

فمعنى الآية: مَنْ هذا الذى (من) استفهام ومحلّه رفع بالابتداء و(الذى) خبره (يقرض الله) ينفق فى طاعة الله، وأصل القرض القطع، ومنه قرض الفأر الثوب وسُمّى الشعر قريضًا لأنّه يقطعه من كلامه، والدَّين قرضًا لأنّه يقطعه من ماله.

﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾: قال على بن الحسين الواقدى يعنى محتسبًا، طيّبة به نفسه. ابن المبارك: هو أن يكون المال من الحلال. عمر بن عثمان الصدفى: هو أن لا يمنّ به ولا يؤذى. سهل بن عبد الله: هو أن لا يعتقد بقرضه عوضًا ﴿فَيُضَاعِفَهُۥ﴾ يزيده ﴿لَهُۥٓ﴾ واختلف القرّاء فيه، فقرأ عاصم وابن أبى إسحاق وأبو حاتم ﴿فَيُضَاعِفَهُۥ﴾ نصبًا بالألف، وقرأ ابن عامر ويعقوب بالتشديد والنصب وبالألف، وقرأ ابن كثير وأبو جعفر بالتشديد والرفع، وقرأ الآخرون بالألف والتخفيف ورفع الفاء، فمن رفع جعله نسقًا على قوله ﴿يُقْرِضُ﴾، وقيل: فهو يضاعفه، ومَنْ نصبه جعله جوابًا للاستفهام بالفاء، وقيل: بإضمار أنْ والتشديد والتخفيف لغتان، ودليل التشديد قوله ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ لأنّ التشديد للتكثير.

قال الحسن والسدى: هذا التضعيف لا يعلمه إلاّ الله مثل قوله: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٤٠) وقال أبو هريرة: هذا فى نفقة الجهاد، قال: وكنّا نحسب ـ ورسول الله ﷺ بين أظهرنا ـ نفقة الرجل على نفسه ورفقائه وظهره ألفى ألف.

﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ﴾: يعنى يمسك الرزق عمّن يشاء ويقتر ويضيق عليه، دليله قوله: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ (التوبة: ٦٧) أى يمسكونها عن النفقة فى سبيل الله ﴿وَيَبْصُۜطُ﴾ أى يوسع الرزق على من يشاء، نظيره قوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ﴾ (الشورى: ٢٧) الآية، والأصل فى هذا قبض اليد عند البخل وبسطها عند البذل.

وقيل: هو الإحياء والإماتة فمن أماته فقد قبضه ومن مدّ له فى عمره فقد بسط له، وقيل:

والله يقبض الصدقة ويبسط بالخلف، وروى اليزيدى عن عمرو قال: بالصاد فى بعض الروايات، وعن بعضهم كأنّه قال: هذا فى القلوب، لمّا أمرهم الله بالصدقة أخبرهم أنه لا يمكنهم ذلك إلاّ بتوفيقه، والله يقبض ويبسط يعنى يقبض على القلوب فيزويه كيلا ينبسط لخير ويبسط بعضها فيقدّم لنفسه خيراً.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: يعنى وإلى الله تعودون فيحسن لكم بأعمالكم، وقال قتادة: الهاء راجعة إلى التراب كناية عن غير مذكور أى من التراب خلقهم وإليه يعودون، وعن ابن مسعود وأبى أمامة وزيد بن أسلم - دخل حديث بعضهم فى بعض - قالوا: نزلت ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ الآية، فلمّا نزلت قال أبو الدحداح: فداك أبى وأمى يا رسول الله، إنّ الله يستقرض وهو غنىّ عن القرض، قال: «نعم، يريد أن يدخلكم الجنة» قال: فإنى إن أقرضت ربى قرضًا تضمن لى الجنة؟ قال: «نعم، من تصدّق بصدقة فله مثلها فى الجنّة»، قال: فزوجى أم الدحداح معى؟ قال: نعم، قال: وصبيان الدحداح معى؟ قال: نعم، قال: ناولنى يدك فناوله رسول الله ﷺ يده فقال: إنّ لى حديقتين إحداهما بالسافلة والأخرى بالعالية، والله لا أملك غيرهما وجعلتهما قرضًا لله عزّ وجلّ، فقال رسول الله ﷺ: «اجعل إحداهما لله عزّ وجلّ والأخرى معيشة لك ولعيالك» قال: فأشهدك يا رسول الله أنى جعلت غيرهما لله تعالى وهو حائط فيه ستمائة نخلة، قال: «يجزيك الله إذاً به بالجنة».

فانطلق أبو الدحداح حتى أتى أم الدحداح وهى مع صبيانها فى الحديقة تدور تحت النخل فأنشأ يقول:

هداك ربى سُبُل الرشادِ ... إلى سبيل الخير والسدادِ
قرضى من الحائط لى بالوادِ ... فقد مضى قرضًا إلى التنادِ
أقرضته الله على اعتمادِ ... بالطوع لا منّ ولا ارتدادِ
إلاّ رجاء الضعف فى المعادِ ... فارتحلى بالنفس والأولادِ
والبرّ لا شك فخير زادِ ... قدّمه المرء إلى المعادِ

قالت أم الدحداح: ربح بيعك، بارك الله لك فيما اشتريت، فأنشأ أبو الدحداح يقول:

مثلك أجدى ما لديه ونصح ... إن لك الحظ إذا الحق وضح
قد متّع الله عيالى ومنح ... بالعجوة السوداء والزهو البلح
والعبد يسعى وله ما قد كدح ... طول الليالى وعليه ما اجترح

ثم أقبلت أم الدحداح على صبيانها تخرج ما فى أفواههم وتنفض ما فى أكمامهم حتى

أفضت إلى الحائط الآخر فقال النبى ﷺ: «كم من عذق رداح، ودار فياح فى الجنة لأبى الدحداح».



﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ والملأ من القوم وجوههم وأشرافهم، وأصل الملأ الجماعة من الناس، لا واحد له من لفظه مثل الإبل والخيل والجيش، ولكن جمعه أملاء، قال الشاعر:

وسط الأملاء وافتتح الدعاءا لعلّ الله يكشف ذا البلاءا

﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾: أى من بعد موت موسى ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ﴾: اختلفوا فى ذلك النبى من هو، فقال قتادة: هو يوشع بن نون بن أفرايم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وقال السدّى: اسمه شمعون، وإنّما سمّى شمعون لأنّ أمّه دعت الله أن يرزقها غلامًا؛ فاستجاب الله دعاءها فولدت غلامًا فسمّته شمعون تقول: سمع الله دعائى والسين يصير شينًا بلغة العبرانية، وهو شمعون بن صفية بن علقمة بن أبى ياسف بن قارون بن نصهر بن فاحث ابن لاوى بن يعقوب.

وقال سائر المفسّرين: هو إشمويل، وهو بالعربية إسماعيل بن نالى بن علقمة بن حازم بن الهر بن عرصوف بن علقمة بن فاحث بن عموصا بن عرزيا، وقال مقاتل: هو من نسل هارون عليه السلام. مجاهد: هو إشمويل بن هلفانا ولم ينسبه أكثر من ذلك.

قال وهب وابن إسحاق والسدى والكلبى وغيرهم: كان سبب مقاتلتهم إيّاه ذلك أنه لما مات موسى عليه السلام خلّف بعده فى بنى إسرائيل يوشع، يقيم فيهم التوراة وأمر الله حتى قبضه الله، ثم خلف فيهم كالب يقيم فيهم التوراة وأمْر الله تعالى حتى قبضه الله تعالى، ثم خلف فيهم حزقيل كذلك، ثم إن الله تعالى قبض حزقيل، وعظمت فى بنى إسرائيل الأحداث ونسوا عهد الله حتى عبدوا الأوثان، فبعث الله تعالى إليهم إلياس نبيًا، فجعل يدعوهم إلى الله، وإنّما كانت الأنبياء من بنى إسرائيل من بعد موسى يبعثون إليهم لتجديد ما نسوا من التوراة.

ثـم خلّف بعد إلياس اليسع وكـان فيهم مـا شاء الله أن يكـون، ثم قبضه الله إليـه، وخلفت فيهم الخلوف وعظـمت فيهم الخطايا، وظهر لهم عدو يقال له البلثانا وهم قوم جالوت كانوا يسكنون ساحل بحر الـروم من مصر وفلسطـين، وهم العمـالقة فظهروا علـى بنى إسرائيل وغلبـوهم على كـثير من أرضهـم وسبوا ذراريهـم وأسروا من أبنائهم أربعين وأربعمائة غلام وضربوا عليهم الجزية، وأخـذوا توراتهم ولقـى بنو إسرائيل منهم بـلاء وشدة، ولم يكن لهم نبى يدبّر أمرهم، كانوا يسألون أن يبعث الله لهم نبيًا يقاتلون معه.

وكان سبط النبـوة قد هلكوا فلم يبق منهم إلاّ امرأة حبلى فأخـذوها وحبسوها فى بيت رهبة أن تلد جارية فتبدلّه بغلام لما يرى من رغبة بنى إسرائيل فى ولدها، فجعلت المرأة تدعو الله عزّ وجلّ أن يرزقها غلامًا، فولـدت غلامًا فسمّته إشمـويل تقول سمع الله دعـائى، فـكبر الغلام فـأسلمته يتعلم التـوراة فى بيت المقـدس، وكفله شيخ من علـمائهم وتبنّـاه، فلما بلغ الغلام أن يبعثه الله نبيًا أتاه جبرائيل عليه السلام والغلام نـائم إلى جنب الشيخ، وكان لا يأتمن عليه أحدًا فدعـاه بلحن الشيخ: يا إشمويل فقـام الغلام فزعًا إلى الشيخ فقال: يا أبتـاه دعوتنى، فكره الشيخ أن يقول: لا فيفـزع الغلام، فقال: يا بنى ارجع فـنم فرجع الغلام فنام، ثـم دعاه الثانية فأتـاه الغلام أيضًا فقال: دعوتنى، فقـال: ارجع فنم فإن دعوتك الثالثـة فلا تجبنى، فلمّا كانت الثـالثة ظهر له جبـرائيل عليه السلام فقـال له: اذهب إلى قومك فبلّغهم رسـالة ربك فإنّ الله قد بعثك فيهم نبيًا، فلما أتاهم كذّبوه وقالوا استعجلت النبوة ولم يأن لك.

وقالوا: إن كنت صادقًا ﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ آية من نبوتك، وإنما كان قوام أمر بنى إسـرائيل بـالاجتمـاع على الملـوك، وطاعـة الملوك أنبياءهم، وكـان الملك هو الـذى يسير بالجموع، والنبى يقيم له أمره ويشير عليه، يرشده ويأتيه بالخبر من ربه عزّ وجلّ.

وقال وهب: بعث الله تعالى إشمويل نبيّا، فلبثوا أربعين سنة بأحسن حـال، ثم كـان من أمر جالوت والعمـالقة ما كـان فقالوا لأشـمويل: ﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾، وقـرأ أبو عبد الرحمن السلمى يقـاتل، بالياء جعل الفعل للملـك وهو جزم على جواب الأمـر، فلمّا قالوا له ذلك قال لهم: ﴿قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ﴾ ﴿هَلۡ عَسَيۡتُمۡ﴾ استفهام منك يقول لعلكم، وقرأ نـافع والحسن: عَسِيتم بكسر السين فى كل القرآن، وهى لغة، وقرأ البـاقون بالفتح وهى اللغة الفصيحة، قال أبـو عبد الرحمـن: لو جاز عسيتم لقرئ عسـى ربكم ﴿إِن كُتِبَ﴾ فرض عليكم القتال مع ذلك الملك ﴿أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ﴾ أن لا تفوا بما تقولون ولا تقاتلوا معه.

﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: إن قـيل: مـا وجه دخـول «أن» فـى هـذا المـوضع،

والعرب لا تقول: ما لك أن لا تفعل، وإنما يُقال: ما لك لا تفعل.

قيل: دخول أن وحذفها لغتان صحيحتان فصيحتان، فأما دخول أن فكقوله: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ (الحجر: ٣٢) وأما حذفها فكقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ (الحديد: ٨).

وقال الكسائى: معناه: وما لنا فى أن لا نقاتل، ما لنا وأن لا نقاتل فحذف الواو، حكاه محمد بن جرير ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ وقرأ عبيد بن حميد: قد أَخْرَجَنا بفتح الهمزة والجيم يعنى العدو.

ومعنى الكلام: وقد أخرج من كتب عليهم من ديارهم وأبنائهم، ظاهر الكلام العموم وباطنه الخصوص، لأنّ الذين قالوا لنبيهم ابعث لنا ملكًا نقاتل فى سبيل الله كانوا فى ديارهم وأوطانهم، وإنما من داره مَنْ أُسر وقُهر منهم.

ومعنى الآية: إنهم قالوا مجيبين: إنّا إنما كنا نزهد فى الجهاد إذ كنا ممنوعين فى بلادنا لا يطؤنا عدونا ولا يظهر علينا، فأمّا إذا بلغ ذلك منا، فلا بد من الجهاد فنطيع ربنا فى الغزو ونمنع نساءنا وأولادنا.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟﴾ أعرضوا عن الجهاد وضيّعوا أمر الله عزّ وجلّ ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وفى الكلام حذف معناه: فبعث الله لهم ملكًا وكتب عليهم القتال، فلمّا كُتب عليهم القتال تولوا إلاّ قليلاً منهم وهم الذين عبروا النهر وسنذكرهم فى موضعها.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.



﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ الآية، وكان السبب فيه على ما ذكره المفسّرون أن إشمويل عليه السلام سأل الله عزّ وجلّ أن يبعث لهم ملكًا فأتى بعصا وقرن فيه دهن القدس وقيل له إنّ صاحبكم الذى يكون ملكًا طوله طول هذه العصا، وقيل له: انظر القرن الذى فيه الدهن فإذا دخل عليك رجل فنش الدهن الذى فى القرن فهو ملك بنى

إسرائيل، فادهن به رأسه وملّكه عليهم، فقاسوا أنفسهم بالعصا فلم يكونوا مثلها.

وكان طالوت - اسمه شادل بن قيس بن أبيال بن ضرار بن يحرب بن أفيح بن أيس بن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام - رجلاً دبّاغًا يعمل الأدم، قاله وهب.

وقال عكرمة والسدى: كان سقاء يسقى على حمار له من النيل فضلّ حماره فخرج فى طلبه، وقيل: كان خربندشاه.

وقال وهب: بل ضلّت حُمُر لأبى طالوت فأرسله وغلامًا له يطلبانها؛ فمرّا ببيت إشمويل، فقال الغلام لطالوت: لو دخلنا على هذا النبى فسألناه عن أمر الحمر ليرشدنا ويدعو لنا فيها بخير، فقال طالوت: نعم، فدخلا عليه، فبينا هما عنده يذكران له شأن الحمر إذ نشّ الدهن الذى فى القرن، فقام إشمويل وقاس طالوت بالعصا فكانت على طوله فقال لطالوت: قرّب رأسك فقرّبه ودهنه بدهن القدس ثم قال له: أنت ملك بنى إسرائيل الذى أمرنى الله تعالى أن أُملّكه عليهم، فقال طالوت: أنا؟ قال: نعم، قال: أوَما علمت أنّ سبطى أدنى أسباط بنى إسرائيل؟ قال: بلى، قال: أفما علمت أنّ بيتى أدنى بيوت بنى إسرائيل؟

قال: بلى قال: فبأى آية؟ قال: آية أنّك ترجع وقد وجد أبوك حُمُره فكان كذلك، ثم قال لبنى إسرائيل: إنّ الله تعالى قد بعث لكم طالوت ملكًا، قال مجاهد: أميرًا على الجيش.

﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ﴾: من أين ﴿يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾: وإنما قالوا ذلك لأنه كان فى بنى إسرائيل سبطان: سبط نبوّة، وسبط مملكة، وكان سبط النبوة سبط لاوى بن يعقوب ومنه موسى وهارون، وسبط المملكة سبط يهود بن يعقوب ومنه كان داود وسليمان، ولم يكن طالوت من سبط النبوة ولا من سبط الملك، إنّما كان من سبط بنيامين بن يعقوب، وكانوا عملوا ذنبًا عظيمًا، كانوا ينكحون النساء على ظهر الطريق نهارًا، فغضب الله عليهم ونزع الملك والنبوة منهم، فلمّا قال نبيّهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾، أنكروا لأنّه كان من ذلك السبط فقالوا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ ومع ذلك هو فقير ﴿وَلَمْ يُؤْتَ﴾ يُعط ﴿سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ﴾ اختاره ﴿عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً﴾ فضيلة وسعة ﴿فِى ٱلْعِلْمِ﴾ وذلك أنه كان أعلم بنى إسرائيل فى وقته، وذُكر أنه أتاه الوحى حين أوتى الملك قال الكلبى ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ﴾ بالحرب ﴿وَٱلْجِسْمِ﴾ يعنى بالطول، وكان يفوق الناس برأسه ومنكبيه وإنما سُمى طالوت لطوله وكذلك كان كالعصا التى قيسَ بها، ودليل هذا التأويل قوله تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ يعنى طول القامة، وقال ابن كيسان بالجمال، وكان طالوت أجمل رجل فى بنى إسرائيل وأعلمهم.

﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ : يعنى لا ينكروا ملك طالوت مع كونه من غير أهل بيت المملكة، فإنّ الملك ليس بالوراثة إنما هو بيد الله يؤتيه من يشاء ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فقالوا له: فما آية ذلك ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ الآية.

وكانت قصة التابوت وصفتها على ما ذكره أهل التفسير وأصحاب الأخبار: أن الله تعالى أنزل تابوتًا على آدم فيه صور الأنبياء من أولاده، وفيه بيوت بعدد الأنبياء كلّهم، وآخر البيوت بيت محمد ﷺ وصورته موقّرة على صور جميع الأنبياء من ياقوتة حمراء قائم يصلى، وعن يمينه الكهل المطيع مكتوب على جبينه هذا أول من يتّبعه من أمته أبو بكر، وعن يساره الفاروق مكتوب على جبينه قرن من حديد، لا تأخذه فى الله لومة لائم، ومن ورائه ذو النورين آخذ بحجزته، مكتوب على جبهته بارّ من البررة، ومن بين يديه على بن أبى طالب شاهر سيفه على عاتقه مكتوب على جبينه: هذا أخوه وابن عمّه المؤيد بالنصر من عند الله، وحوله عمومته والخلفاء والنقباء والكوكبة الخضراء، وهم أنصار الله وأنصار رسوله، نور حوافر دوابّهم يوم القيامة مثل نور الشمس فى دار الدنيا.

وكان التابوت نحواً من ثلاثة أذرع فى ذراعين وكان من عود الشمشار الذى يتّخذ منه الأمشاط مموه بالذهب، وكان عند آدم عليه السلام إلى أن مات ثم عند شيث ثم توارثها أولاد آدم إلى أن بلغ إبراهيم، فلمّا مات كان عند إسماعيل لأنّه أكبر ولده، فلمّا مات إسماعيل كان عند ابنه قيدار فنازعه ولد إسحاق، وقالوا: إن النبوة قد صرفت عنكم فليس لكم إلاّ هذا النور الواحد، فأعطنا التابوت، فكان قيدار يمتنع عليهم ويقول: إنه وصية أبى ولا أعطيه أحدًا من العالمين.

قال: قال فذهب ذات يوم يفتح ذلك التابوت فعسر عليه فتحه فناداه مناد من السماء: مهلاً يا قيدار فليس لك إلى فتح هذا التابوت سبيل، لأنّه وصية نبى فلا يفتحه إلاّ نبى فادفعه إلى ابن عمك يعقوب إسرائيل الله.

فحمل قيدار التابوت على عنقه وخرج يريد أرض كنعان، وكان بها يعقوب، فلمّا قرب منه صرّ التابوت صرّة سمعها يعقوب فقال لبنيه: أقسم بالله لقد جاءكم قيدار بالتابوت فقوموا نحوه، فقام يعقوب وأولاده جميعًا إليه، فلمّا نظر يعقوب إلى قيدار استعبر باكيًا وقال: يا قيدار ما لى أرى لونك متغيراً وقوتك ضعيفة، أرهقك عدوّ أم أتيت معصية قد رابتك؟ فقال: ما رهقنى عدوّ ولا أتيت معصية ولكن نُقل من ظهرى نور محمد ﷺ؛ فلذلك تغيّر لونى وضعف ركنى.

قال: أفمن بنات إسحاق؟ قال: لا، فى العربية الجرّهمية وهى الغاضرة، قال يعقوب: بخ بخ بشّرها بمحمد، لم يكن الله عزّ وجلّ ليخزنه إلاّ فى العربيات الطاهرات، يا قيدار وأنا مبشرك ببشارة قال: وما هى؟ قال: اعلم أنّ الغاضرة قد ولدت لك البارحة غلامًا، قال قيدار: وما علمك يا بن عمى وأنت بأرض الشام وهى بأرض الجرهم؟ قال يعقوب: علمت ذلك لأنى رأيت أبواب السماء قد فتحت، ورأيت نورًا كالقمر الممدود من السماء والأرض، ورأيت الملائكة ينزلون من السماء بالبركات والرحمة، فعلمت أن ذلك من أجل محمد ﷺ.

فسلّم قيدار التابوت إلى يعقوب ورجع إلى أهله فوجدها قد ولدت غلامًا فسمّاه حمد، وفيه نور محمد عليه السلام.

قالوا: وكان التابوت فى بنى إسرائيل إلى أن وصل إلى موسى وكان موسى يضع فيه التوراة ومتاعًا من متاعه، وكان عنده إلى أن مات، ثم تداولته أنبياء بنى إسرائيل إلى وقت إشمويل فوصل إلى إشمويل وقد تكامل أمر التابوت بما فيه، وكان فيه ما ذكر الله.

﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: واختلفوا فى السكينة ما هى؟ فقال على عليه السلام: السكينة ريح خجوج حفّافة لها رأسان ووجه كوجه الإنسان. مجاهد: لها رأس كرأس الهرّة وذَنَب كذنب الهرّة وجناحان. ابن إسحاق عن وهب عن بعض علماء بنى إسرائيل: السكينة هرّة ميّتة كانت إذا صرخت فى التابوت بصراخ هرّ أيقنوا بالنصر وجاءهم الفتح.

السدّى عن أبى مالك عن ابن عباس: هى طست من ذهب من الجنة كان يغسل فيها قلوب الأنبياء. بكّار بن عبد الله عن وهب بن منبه: روح من الله عزّ وجلّ يتكلم، إذا اختلفوا فى شىء تكلّمَ فأخبرهم ببيان ما يريدون.

عطاء بن أبى رباح: هى ما تعرفون من الآيات فتسكنون إليها. قتادة والكلبى: فعيلة من السكون أى طمأنينة من ربكم وفى أى مكان كان التابوت اطمأنوا إليه وسكنوا. الربيع: رحمة من ربّكم.

﴿وَبَقِيَّةٌ﴾: وهى الباقى، فعيلة من البقاء والهاء فيه للمبالغة: ﴿مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ﴾ يعنى موسى وهارون أنفسهما. قال جميل:

بثينة من آل النساء وإنما يكنّ لأدنى لا وصال الغائب

أى من النساء، والآل الشخص أيضًا، وأصله أهل بُدّلت الهاء همزة، فإذا صغّروا الآل قالوا: أُهيل ردّوه إلى الأصل.

قال المفسرون: كان فيه عصا موسى ورضاض الألواح أى كسره، وذلك أن موسى لمّا ألقى

الألـواح انكسـرت فرفع بعـضها وجمع مـا بقى فجعله فـى التابـوت وكان فـيه أيضًا لـوحان من التوراة وقفيز من المنّ الـذى كان ينزل عليهم، ونعلا مـوسى وعمامة هـارون وعصاه، وقالوا: وكـان عند بنى إسرائيل، وكانوا إذا اختلفوا فـى شىء تكلم وحكم بينهـم، فإذا حضروا القتال قدّموه بين أيديهـم يستفتحون به على عـدوّهم؛ فلما عصـوا وفسدوا سلّط الله علـيهم العمالقة فغلبوهم على التابوت وسلبوه.

وكان الـسبب فى ذلـك أنّه كان لعيلـى الذى ربى إشـمويل ابنان شـابان وكان عـيلى خيرهم وصاحب قربانهم ما حدث ابناه فـى القربان شيئًا لم يكن فيه كان فى مشوط القربان الذى كانوا يشوطونه به كلاليب فما كان عليهما كان للكاهن الذى يشوطه فجعل ابناه كلاليب.

وكـان النساء يصلين فى المقدس فجعلا يتشبثـان بهنّ أيضًا فأوحى الله عزّ وجلّ إلى إشمويل انطلق إلى عـيلى فقل له: منعك حب الولـدان زجر ابنيك أن يحدثا فـى قربانـى وقدسى وأن يعصيانى فلأنزعن منك الكهانة ومن ولدك، ولأُهلكنه وإياهما.

فأخبر إشمويل عيلـى بذلك ففزع فزعًـا شديدًا فسار إلـيهم عدوّ ممن حولهـم، فأمر ابنيه أن يخرجا بـالناس ويقاتلا ذلك العدو فخرجـا، وأخرجا معهما التابـوت، فلمّا تهيئوا للقتال جعل عيلـى يتوقع الخبر: مـاذا صنعوا؟ فجاءه رجل وهو قاعد علـى كرسيّه أنّ النـاس قد هُزموا وأن ابنيك قد قُتلا، قـال: فما فُعل بـالتابوت، قـال: قد ذهـب به الـعدو فشهق ووقع علـى قفاه من كرسيّه ومات، فـمرج أمر بنى إسـرائيل واختلّ وتفرّقوا إلـى أن بعث الله طالوت ملكًـا، فسألوا البيّنة، وقال لهم نبيّهم: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾.

وكـان قصة إتـيان التابـوت أنّ الذين سبـوا التابـوت أتوا به قـرية من قرى فلـسطين يقـال لها أزدود، وجعلوه فى بيت صنم لهم، وضعوه تحت الصنم الأعظم، وأصبحوا من الغد والصنم تحته فأخـذوه ووضعوه فـوقه وشدّدوا قـدمى الـصنم على التابـوت، وأصبحـوا من الغـد وقد قـطّعت يدا الصنم ورجلاه، وأصبح يلقى تحت التـابوت، وأصبحت أصنـامهم كلّها مـنكّسة؛ فأخرجـوه من بيت الصنم ووضعـوه فى ناحية من مدينتهم، فـأخذ أهل تلك النـاحية وجعٌ فى أعناقهم حتى هلك أكثرهم.

فقال بعضهم لبعض: ألـيس قد علّمتكم أن إله بنـى إسرائيل لا يقوم له شـىء فأخرجوه من مدينتكم، فأخـرجوه إلـى قرية أخـرى فبعث الله عـزّ وجلّ على أهل تـلك القرية فـأرًا تقرص الفـأرة الرجل فيصبح ميّتًا قد أكلت ما فى جـوفه من دبره، وأخرجوه مـنه إلى الصحراء ودفنوه فى مـخرأة لهم؛ فكـان كل من تـبرّز هنـاك أخذه النـاسور والقـولنج؛ فبقـوا فى ذلـك فتحيروا

فقالت لهم امرأة كانت عندهم من سبى بنى إسرائيل من أولاد الأنبياء: لا تزالون ترون ما تكرهون ما دام هذا التابوت فيكم فأخرجوه عنكم فأتوا بعجلة بإشارة تلك المرأة وحملوا عليها التابوت، ثم علّقوها على ثورين وضربوا جنوبهما فأقبل الثوران يسيران، ووكّل الله عزّ وجلّ بها أربعة من الملائكة يسوقونها، فلم يمسّ التابوت بشىء من الأرض إلاّ كان مقدّسًا، فأقبلا حتى وقفا على أرض بنى إسرائيل فكسرا بقرنهما وطفقا جناحهما، ووضعوا التابوت فى أرض فيها حصاد لبنى إسرائيل ورجعا إلى أرضهما، فلم تدعُ بنو إسرائيل إلاّ بالتابوت فكبّروا وحمدوا الله عزّ وجلّ واستوسقوا على طالوت فذلك قوله: ﴿تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ أى تسوقه.

وقال ابن عباس: جاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض وهم ينظرون إليه حتّى وضعته عند طالوت.

وقرأ ابن مسعود ومجاهد والأعمش (يحمله الملائكة) بالياء.

وقال قتادة: بل كان التابوت فى التيه جعله موسى عند يوشع بن نون فبقى هنالك فحملته الملائكة حتى وضعته فى دار طالوت فأقرّوا بملكه. وقال ابن زيد: غير راضين.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً﴾ لعبرة ﴿لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ قال ابن عباس: إنّ التابوت وعصا موسى فى الجيزة الطبريّة وأنّهما يخرجان قبل يوم القيامة.



﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّى وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرًا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلۡكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ﴾ أى خرج ورحل بهم، وأصل الفصل: القطع فمعنى قوله

﴿فَصَلَ﴾ أى قطع مستقر فتجاوزه شاخصًا إلى غيره نظير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ (يوسف: ٩٤).

فخرج طالوت من بيت المقدس بالجنود وهم يومئذ سبعون ألف مقاتل. وقيل: ثمانون ألفًا لم يتخلف عنه إلاّ كبير لهرمه أو مريض لمرضه أو ضرير لضرره أو معذور لعذره.

وذلك أنّهم لما رأوا التابوت قالوا: قد أتانا التابوت وهو النور لا شك فيه، فتسارعوا إلى الجهاد.

فقال طالوت: لا حاجة لى فى كا ّ ما أرى. لا يخرج معى رجل بنى بناء لم يفرغ منه، ولا صاحب تجارة مشتغل بها، ولا رجل عليه دين، ولا رجل تزوج بامرأة لم يدن لها ولا أبتغى إلاّ الشاب النشيط الفارغ.

فاجتمع ثمانون ألفًا ممن شرطه وكان فى حرّ شديد فشكوا قلّة المياه بينهم وبين عدوهم، وقالوا: إنّ المياه لا تحملنا فادع الله تعالى أن يجرى لنا نهرًا.

فقال طالوت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم﴾ مختبركم ليرى طاعتكم وهو أعلم ﴿بِنَهَرٍ﴾ قرأه العامة بفتح الهاء، وقرأ حميد وابن محصن ﴿بِنَهْرٍ﴾ ساكنة الهاء، وهما لغتان مثل شعْر وشعَر وصخْر وصخَر وصمْغ وصمَغ وسمْع وسمَع وفحْم وفحَم.

قال ابن عباس والسدى: هو نهر فلسطين. قتادة والربيع: نهر بين الأردن وفلسطين عذب.

﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى﴾: أى ليس من أهل دينى وطاعتى ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾: يشربه ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾: نظير قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ (المائدة: ٩٣) ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ قرأ ابن عباس، وابن أبى إسحاق، وسليمان التيمى، وابن أبى الجوزاء، وأبو جعفر، وشيبة، ونافع، وأبو مخرمة، وأبو عمرو، وأيوب: ﴿غَرْفَةً﴾ بفتح الغين وقرأ الباقون بضمّه وهو قراءة عثمان وهما لغتان.

وقال الكسائى وأبو عبيدة: الغرفة بالضم الذى يحصل فى الكف من الماء إذا غرف. والغرفة: الاغتراف، فالضم اسم والفتح مصدر.

وقال أبو حاتم: الغرفة بالضم مِلء الكف أو ملء المغرفة، ،والغرفة: المرّة الواحدة القليل والكثير.

﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ نصب على الاستثناء، وقرأ ابن مسعود (قليل) بالرفع من الشاعر:

وكل أخ مفارقه أخـوه لعمر أبيك إلاّ الفرقـدان
وكلّ قرينة قرنت بأخرى وإن ضنّت بهـا سيفرّقان

واختلفوا فى القليل الذى لم يشربوا، فقال السدى: كانوا أربعة آلاف، وقال غيره: ثلاثمائة وبضعة عشر وهو الصحيح، يدلّ عليه قول البراء بن عازب قال: قال لنا رسول الله ﷺ يوم بدر: «أنتم اليوم على عدّة أصحاب طالوت حين عبروا النهر وما جاء معه إلاّ مؤمن». قال: وكنّا يومئذ ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً.

قالوا: فمن اغترف غرفة كما أمر الله سبحانه، قوى قلبه وصحّ إيمانه وعبر النهر سالمًا وكفته تلك الغرفة الواحدة لشربه وحمله ودوابه، والذين شربوا وخالفوا أمر الله، سوّدت شفاههم وغلبهم العطش فلم يرووا وبقوا على شط النهر وجبنوا عن لقاء العدو ولم يشهدوا الفتح.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ﴾: يعنى النهر ﴿هُوَ﴾ يعنى طالوت ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ يعنى القليل ﴿قَالُواْ﴾ الذين شربوا وخالفوا أمر الله عزّ وجلّ وكانوا أهل شك ونفاق ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ وانصرفوا عن طالوت ولم يشهدوا قتال جالوت.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ يوقنون ويعلمون ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ وهم الذين ثبتوا مع طالوت ﴿كَم﴾ وقرأ أُبى: كائن ﴿مِّن فِئَةٍ﴾ جماعة وهى جمع لا واحد له من لفظه، وجمعها فئات وفئون فى الرفع، وفئين فى النصب والخفض ﴿قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ مُعينهم وناصرهم.

قال الزجّاج: إنّما قيل للفئة من فأوت رأسه بالعصا وفائته إذا شققته كأنّها قطعة.

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ﴾ يعنى طالوت وجنوده المؤمنين ﴿لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ المشركين ومعنى ﴿بَرَزُواْ﴾ صاروا بالبراز من الأرض وهو ما ظهر واستوى ﴿قَالُواْ﴾ وهم أهل البصيرة والطاعة ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ﴾ أنزل وأصبب ﴿عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ كما يفرغ الدلو ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾ وقوّ قلوبنا ﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ وفى الآية إضمار تقديرها: فأنزل الله عليهم صبرًا ونصرًا ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾.

❖ صفة قتل داود جالوت:

قال المفسّرون بألفاظ متشابهة ومعان متّفقة: عبر النهر فيمن عبر مع طالوت أيشا أبو داود فى ثلاثة عشر ابنًا وكان داود أصغرهم، فأتاهم ذات يوم فقال: يا أبتاه ما أرمى بقذافتى شيئًا إلاّ صرعته فقال: أبشر فإنّ الله جعل رزقك فى قذافتك، ثم أتاه مرّة أُخرى فقال: يا أبتاه لقد دخلت بين الجبال فوجدت أسدًا رابضًا فركبته وأخذت بأذنيه ولم يهمّنى، فقال: أبشر يا بنى

فإنّ هذا خير أعطاكه الله .

ثم أتاه يومًا آخر فقال : يا أبتاه إنّى لأمشى بين الجبال فأسبّح فما يبقى جبل إلاّ يُسبّح معى ، فقال : أبشر يا بنى فإنّ هذا خير أعطاكه الله .

قالوا : فأرسل جالوت إلى طالوت أن أبرز إلىّ مَنْ يقاتلنى فإن قتلنى فلكم ملكى وإن قتلته فلى ملكك ، فشقّ ذلك على طالوت فنادى فى عسكره مَنْ يقتل جالوت زوّجته ابنتى وناصفته ملكى ، فخاف الناس جالوت فلم يجبه أحد .

فسأل طالوت نبيّهم إشمويل أن يدعو الله ، فدعا الله عزّ وجلّ فى ذلك ، فأتى بقرن فيه دهن ، وتنور من حديد ، فقيل : إنّ صاحبكم الذى يقتل جالوت هو الذى يوضع هذا القرن على رأسه فيغلى الدهن حتى يدهن رأسه منه ولا يسيل على وجهه يكون على رأسه كهيئة الإكليل ، ويدخل فى هذا التنور فيملؤه لا يتقلقل فيه ، فدعا طالوت بنى إسرائيل فجرّبهم فلم يوافقه منهم أحد .

فأوحى الله تعالى إلى نبيهم إنّ فى ولد أيشا مَنْ يقتل الله به جالوت ، فدعا طالوت أيشا وقال : أعرض علىّ بنيك ، فأخرج له اثنى عشر رجلاً أمثال السوارى ، فجعل يعرضهم على القرن فلا يرى شيئًا فيقول لرجل منهم : بادع عليهم جسم ارجع فيردد عليه فأوحى الله تعالى إليه إنا لا نأخذ الرجال على صورهم ولكنّا نأخذ على صلاح قلوبهم ، فقال لأيشا : هل بقى لك ولد غيرهم؟ قال : لا .

فقال النبى عليه السلام : يا ربّ إنّه زعم أنّ لا ولد له غيرهم ، فقال : كذب .

فقال النبى : إنّ ربّى كذّبك ، فقال : صدق الله يا نبى الله إنّ لى ابنًا صغيرًا يقال له : داود ، استحييت أن يراه الناس لقصر قامته وحقارته ، فخلّفته فى الغنم يرعاها وهو فى شعب كذا ، وكان داود عليه السلام رجلاً قصيرًا مسقاطًا مصفارًا أزرق أمعد .

فدعاه طالوت ، ويقال : بل خرج طالوت إليه فوجد الوادى قد سال بينه وبين الزرب التى يريح إليها ، فوجده يحمل شاتين شاتين يجيزهما السيل ولا يخوض بهما الماء ، فلما رآه النبى عليه السلام قال : هذا هو لا شك فيه هذا يرحم البهائم فهو بالناس أرحم ، فدعاه ووضع القرن على رأسه ففاض .

فقال له طالوت : هل لك أن تقتل جالوت وأزوجك ابنتى وأجرى خاتمك فى ملكى؟

قال : نعم .

قال : وهل أنست من نفسك شيئًا تقوى به على قتله؟

قال: نعم، وأنا أرعى فيجىء الأسد والنمر والذئب فيأخذ الشاة وأقوم له وأفتح لحييه عنها وأخرقهما إلى قفاه.

فرده إلى عسكره، فمرّ داود بحجر فناداه: يا داود احملنى فإنى حجر هارون الذى قتل بى ملك كذا، فحمله فى مخلاته.

ثم مرّ بحجر آخر فناداه: يا داود احملنى فإنّى حجر موسى الذى قتل بىّ ملك كذا، فحمله فى مخلاته.

فمرّ بحجر آخر فقال: احملنى فإنّى حجرك الذى تقتل بى جالوت، وقد خبأنى الله لك، فوضعها فى مخلاته.

فلما تصافوا للقتال وبرز جالوت وسأل المبارزة، انتدب له داود فأعطاه طالوت فرسًا ودرعًا وسلاحًا، فلبس السلاح وركب الفرس، فسار قريبًا ثم انصرف فرجع إلى الملك، فقال مَن حوله: جَبُنَ الغلام فجاء فوقف على الملك، فقال: ما شأنك؟

فقال: إنّ الله إن لم ينصرنى لا يغنى عنى السلاح شيئًا فدعنى أُقاتل كما أُريد.

قال: نعم، فأخذ داود مخلاته فتقلّدها وأخذ المقلاع ومضى نحو جالوت، وكان جالوت من أشدّ الناس وأقواهم وكان يهزم الجيوش وحده وكان له بيضة فيها ثلاثمائة من حديد، فلما نظر إلى داود ألقى فى قلبه فقال له: أنت تبرز لى؟

قال: نعم.

وكان جالوت على فرس أبلق عليه السلاح التام.

قال: فأتيتنى بالمقلاع والحجر كما تؤتى الكلاب؟

قال: نعم، لأنت شرّ من الكلب.

قال: لا جرم لأقسّمنّ لحمك بين سباع الأرض وطير السماء.

قال داود: أو يقسم الله لحمك.

ثم قال داود: باسم إله إبراهيم وأخرج حجرًا، ثم أخرج الآخر وقال: باسم إله إسحاق ووضعه فى مقلاعه، ثم أخرج الثالث وقال: باسم إله يعقوب ووضعه فى مقلاعه فصارت كلّها حجرًا واحدًا، ودوّر المقلاع وماه به فسخّر الله الريح حتّى أصاب الحجر أنف البيضة فخالط دماغه فخرج من قفاه وقتل من ورائه ثلاثين رجلاً، وهزم الله سبحانه الجيش وخرّ جالوت قتيلاً فأخذه فجرّه حتّى ألقاه بين يدى طالوت.

ففرح المسلمون فرحًا شديدًا وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين والناس يذكرون داود فجاء

داود طالوت، وقال: أنجز لى ما وعدتنى وأعطنى امرأتى، فقال له: أتريد ابنة الملك بغير صداق.

قال داود: ما شرطت علىّ صداقًا وليس لى شىء.

قال: لا أكلّفك إلاّ ما تطيق، أنت رجل حربى وفى جبالنا أعداء لنا غلفٌ، فإذا قتلت منهم مائتى رجل وجئتنى بغلفهم زوّجتك ابنتى، فأتاهم فجعل كلّما قتل منهم رجلاً نظم غلفته فى خيطه حتّى نظم غلفهم فجاء بها إلى طالوت فألقى إليه وقال: ادفع إلى امرأتى، فزوّجه ابنته وأجرى خاتمه فى ملكه.

فمال الناس إلى داود وأحبّوه وأكثروا ذكره، فوجد طالوت من ذلك وحسده فأراد قتله، فأخبر بذلك بنت طالوت رجل يقال له ذو المغنيين، فقالت لداود: إنّك لمقتول الليلة.

قال: ومَنْ يقتلنى؟

قالت: أبى.

قال: وهل جزمت جزمًا؟

قالت: حدّثنى مَنْ لا يكذب ولا عليك لن تفوت الليلة حتى تنظر مصداق ذلك.

فقال: لئن كان أراد ذلك ما أستطيع خروجًا ولكن ائتينى بزق من خمر، فأتته، فوضعه فى مضجعه على السرير.

وسجّاه ودخل تحت السرير فدخل طالوت نصف الليل وأراد أن يقتل داود فقال لها: أين بعلك؟

فقالت: هو نائم على السرير، فضربه ضربة بالسيف فسال الخمر، فلما وجد ريح الشراب قال: يرحم الله داود ما أكثر شربه الخمر وخرج، فلما أصبح علم أنّه لم يفعل شيئًا.

فقال: إن رجلاً طلبت منه ما طلبت لخليق أن لا يدعنى حتى يدرك منّى ثأره، فشدّد حجّابه وحرّاسه وأغلق دونه أبوابه.

ثم إن داود أتاه ليلة وقد هدأت العيون وأعمى الله تعالى الحجبة وفتح له الأبواب فدخل عليه وهو نائم على فراشه فوضع سهمًا عند رأسه وسهمًا عند رجليه وسهمًا عن يمينه وسهمًا عن شماله ثم خرج. فلما استيقظ طالوت أبصر السهام فعرفها فقال: يرحم الله داود فهو خير منّى، ظفرت به فقصدت قتله وظفر بى فكفّ عنّى، ولو شاء لوضع هذا السهم فى حلقى. وما أنا بالذى آمنهُ.

فلما كانت المقابلة أتاه ثانيًا فأعمى الله الحجّاب فدخل عليه وهو نائم وأخذ إبريق طالوت

الذى كان يتوضأ منه وكوزه الذى كان يشرب منه وقطع شعرات من لحيته وشيئًا من هدب ثيابه ثم خرج وهرب وتوارى .

فلما أصبح طالوت ورأى ذلك ، سلّط على داود العيون وطلبه أشدّ الطلب فلم يقدر عليه ، ثم إن طالوت ركب يومًا فوجد داود يمشى فى البريّة ، فقال طالوت : اليوم أقتل داود أنا راكب وهو ماش ، وكان داود إذا فزع لم يدرك فركض طالوت على أثره ، فاشتدّ داود فدخل غاراً فأوحى الله تعالى إلى العنكبوت فنسجت عليه بيتًا .

فلما انتهى طالوت إلى الغار ونظر إلى بناء العنكبوت ، قال : لو كان دخل هاهنا لخرق بناء العنكبوت فتركه ومضى ، وانطلق داود وأتى الجبل مع المعبّدين فتعبّد فيه .

وطعن العلماء والعُبّاد فى طالوت فى شأن داود ، فجعل طالوت لا ينهاه أحد عن قتل داود إلاّ قتله وأغرى بقتل العلماء ، فلم يكن يقدر على عالم فى بنى إسرائيل فيطيق قتله إلاّ قتله ولم يكن يحارب جيشًا إلاّ هزم ، حتى أتى بامرأة تعلم اسم الله الأعظم فأمر جبّاراً بقتلها فرحمها الجبار فقال : لعلّنا نحتاج إلى عالم فتركها ، فوقع فى قلب طالوت التوبة وندم على ما فعل وأقبل على البكاء حتّى رحمه .

فكان كلّ ليلة يخرج إلى القبور فيبكى وينادى : أنشد الله عبدًا يعلم أن لى توبة إلاّ أخبرنى بها .

فلما أكثر عليهم ناداه مناد من القبور : يا طالوت أما ترضى أن قتلتنا حتّى تؤذينا أمواتًا ، فازداد بكاءً وحزنًا ، فرحمه الجبّار فكلّمه فقال : ما لك أيّها الملك؟

فقال : هل تعلم لى فى الأرض عالمًا أسأله هل لى من توبة؟

فقال الجبار : هل تدرى ما مثلك؟ إنّما مثلك مثل ملك نزل قرية عشاءً فصاح الديك فتطيّر منه ، فقال : لا تتركوا فى القرية ديكًا إلا ذبحتموه ، فلما أراد أن ينام قال لأصحابه ، إذا صاح الديك فأيقظونا حتى ندلج .

فقالوا : هل تركت ديكًا نسمع صوته .

ولكن هل تركت عالمًا فى الأرض ، فازداد حزنًا وبكاءً .

فلما رأى الجبار ذلك قال : أرأيتك إن دللتك على عالم لعلّك أن تقتله .

قال : لا .

فتوثق عليه الجبّار فأخبره أن المرأة العالمة عنده قال : انطلق بى إليها أسألها هل لى من توبة؟ وكان إنما يعلم ذلك الاسم أهل بيت إذا فنيت رجالهم علمت نساؤهم .

فلما بلغ طالوت الباب قال الجبّار: أيّها الملك إنّها إن رأتك فزعت، فخلّفه خلفه ثم دخل عليها فقال لها: ألست أعظم الناس عليك منّة أن نجّيتك من القتل وآويتك عندى؟

قالت: بلى.

قال: فإنّ لى إليك حاجة: هذا طالوت يسأل هل له من توبة. فغُشى عليها من الخوف.

فقال لها: إنّه لا يُرَيد قتلك ولكن يسأل هل له من توبة؟

فقالت: والله لا أعلم لطالوت توبة، ولكن هل تعلمون مكان قبر نبى؟

فانطلق بها إلى قبر أشمويل، فصلّت ودعت ثم نادت صاحب القبر، فخرج إشمويل من القبر فنفض من رأسه التراب، فلما نظر إلى ثلاثتهم: المرأة وطالوت والجبّار، قال: ما لكم أقامت القيامة؟

قالا: لا، ولكن طالوت يسألك هل له من توبة؟

قال: أشمويل: يا طالوت ما فعلت بعدى؟

قال: لم أدع من الشرّ شيئًا إلاّ فعلته وجئت أطلب التوبة.

قال: كم لك من الولد؟

قال: عشرة رجال.

قال: ما أعلم لك توبة إلاّ أن تتخلّى من ملكك وتخرج أنت وولدك فى سبيل الله ثم تقدّم ولدك حتى يقتلوا بين يديك ثم تقاتل أنت حتى تقتل آخرهم، ثم رجع أشمويل إلى القبر وسقط ميتًا.

ورجع طالوت أحزن ما كان رهبة إن لا يتابعه وُلده، وقد بكى حتّى سقط أشفار عينيه ونحل جسمه، فدخل أولاده عليه، فقال لهم: أرأيتم لو دفعت إلى النار هل كنتم تفدوننى؟.

قالوا: بلى، نفديك بما قدرنا عليه.

قال: فإنها النار إن لم تفعلوا ما أقول لكم، قالوا: فاعرض علينا، فذكر لهم القصّة، قالوا: وإنّك لمقتول؟

قال: نعم.

قالوا: فلا خير لنا فى الحياة فقد طابت أنفسنا بالذى سألت: فتجهز بماله وولده، فقدّم ولده وكانوا عشرة فقاتلوا حتّى قُتلوا بين يديه ثم شدّ هو بعدهم حتى قُتل، فجاء قاتله إلى داود النبى عليه السلام ليبشره وقال: قد قتلت عدوّك.

فقال: ما كنت بالذى تحيا بعده فضرب عنقه، وأتى بنو إسرائيل بداود فأعطوه خزائن

طالوت وملّكوه على أنفسهم.

وكان ملك طالوت من أوّله إلى أن قُتل فى الغزو مع ولده أربعين سنة.

قال الضحاك والكلبى: ملك داود بعد جالوت تسعًا وستين سنة.

ولم يجتمع بنو إسرائيل على ملك واحد إلاّ على داود، فذلك قوله: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ وهو داود بن أيشا بن سوئل بن ناغر بن سلمون بن يخشون بن عمى ابن يارب بن رام بن حصرون بن فارض بن يهود بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، وأتاه الله الملك والحكمة يعنى النبوّة.

﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾: فقال الكلبى وغيره: يعنى صنعة الدروع، والتقدير: فى السر وكان يصنعها ويبيعها حتّى جمع من ذلك مالاً، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه دليله قوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ (الأنبياء: ٨٠) وقيل: منطق الطير وكلام النحل والنمل، وقيل: الزبور، وقيل: الصوت الطيّب والألحان، ولم يعط الله أحدًا من خلقه مثل صوته كان إذا قرأ الزبور يدنو الوحوش حتى تؤخذ بأعناقها وتظلّه الطيور مصيخة له. ويركد الماء الجارى ويسكن الريح، وما صنعت المزامير والبرابط والصنوج إلاّ على صوته.

الضحاك عن ابن عباس قال: إنّ الله سبحانه أعطاه سلسلة موصولة بالمجرّة والفلك ورأسها عند صومعة داود عليه السلام وكان قوّتها قوّة الحديد ولونها لون النار وحلقها مستدير مفصّلة بالجواهر مدسّرة بقضبان اللؤلؤ الرطب، فلا يحدّث فى الهواء حدث إلاّ صلصلت السلسلة فعلم داود الحدث، ولا يمسها ذو عاهة إلاّ برئ، وكان علامة دخول قومه فى الدين أن يمسّوها بأيديهم ثمّ يمسحون أكفّهم على صدورهم، وكانوا يتحاكمون إليها بعد داود إلى أن رفعت، وكانوا يأتونها فمن تعدى على صاحبه وأنكر له حقًا أتى السلسلة، فمن كان صادقًا محقًا مدّ يده إلى السلسلة فنالتها ومن كان كاذبًا ظالمًا لم ينلها، وكانت كذلك إلى أن ظهر فيهم المكر والخديعة.

فبلغنا أن بعض ملوكها أودع رجلاً جوهرة ثمينة، فلما استردّها منه أنكر فتحاكما إلى السلسلة، فعلم الذى كانت الجوهرة عنده أن يده لا تنال السلسلة، فعمد إلى عكازه فنقرها ثم ضمّنها الجوهرة واعتمد عليها حتى حضروا السلسلة.

فقال صاحب الجوهرة: ردّ إلىّ الوديعة.

فقال صاحبه: ما أعلم لك عندى وديعة، فإنّ كنت صادقًا فتناول السلسلة فتناولها بيده، فقيل للمنكر أيضًا، قم أنت أيضًا فتناولها، فقال لصاحب الجوهرة: خذ عكازتى هذه

فاحفظها حتى أتناول السلسلة، فأخذها وقال الرجل: اللّهمّ إنّ كنت تعلم أنّ هذه الويعة يدعيها عليّ قد وصلت إليه فقرّب السلسلة، فمدّ يده فتناولها، فتعجب القوم وشكوا فيها فأصبحوا وقد رفع الله السلسلة.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ : قرأ أبو جعفر وشيبة ونافع ويعقوب وأيوب (دفاع الله) بالألف هاهنا وفي سورة الحجّ واختاره أبو حاتم، وقرأ الآخرون بغير ألف فيهما واختاره أبو عبيد قال: لأن الله تعالى لا يغالبه أحد وهو الدافع وحده، وقال أبو حاتم: وقد يكون الفعال من واحد مثل قول العرب: أحسن الله عنك الدفاع، وعافاك الله، وعاقبه الله، وناول شيئًا.

ابن عباس ومجاهد: لولا دفع الله بجنود المسلمين وسراياهم ومرابطيهم لغلب المشركون على الأرض فقتلوا المؤمنين وخرّبوا البلاد والمساجد.

وقال سائر المفسّرين: لولا دفع الله بالمؤمنين والأبرار عن الكفّار والفجّار﴿لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ لهلكت بمن فيها.

قال رسول الله ﷺ: «يدفع الله العذاب بمن يُصلّي عمّن لا يُصلّي، وبمن يُزكّي عمّن لا يزكّي، وبمن يصوم عمّن لا يصوم، وبمن يحجّ عمّن لا يحج، وبمن يجاهد عمّن لا يجاهد. ولو اجتمعوا على ترك هذه الأشياء ما ناظرهم الله طرفة عين» ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية.

وروى مالك بن عبيد عن أبيه عن جدّه أنّ رسول الله ﷺ قال: «لولا عباد لله ركع وصبية رضّع، وبهائم رتّع، لصبّ عليكم العذاب صبًّا ثم لترضن رضا».

قال الثعلبي وأنشدني لنفسه:

لولا عباد للإله ركع ... وصبية من اليتامى رضّع
ومهملات في الفلاة رتّع ... صبّ عليكم العذاب الأوجع

وروى محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله سبحانه ليصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات حوله ولا يزالون في حفظ الله ما دام فيهم».

وقال قتادة: يبتلي الله المؤمن بالكافر ويعافي الكافر بالمؤمن.

. . . .[1] بن عبد الرحمن عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة من أهل بيت من جيرانه البلاء»، ثم قرأ ابن عمر: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾.

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّ﴾: أى كلام الله.

﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾.



﴿۞ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝﴾

﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾: قال الأخفش: أى كلام الله ﴿فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ﴾ (فصلت: ٣١) وزان ﴿مَا تَشۡتَهِيهِ﴾ (الزخرف: ٧١).

﴿وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ﴾: الربيع بن الهيثم قال: لا أُفضل على نبيّنا أحداً ولا أفضّل بعده على إبراهيم أحداً.

﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم﴾: أى من بعد الرسل ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ﴾: ثبت على إيمانه ﴿وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ﴾: فتهوّد وتنصّر وكانوا يعقوبيّة ونسطوريّة وملكائيّة ثم تحاربوا ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾: فيوفّق من يشاء عدلاً ويخذل مَنْ يشاء عدلاً.

وعن الحارث الأعور قال: قام رجل إلى علىّ (رضى الله عنه) فقال: يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر، قال: طريق مظلم لا تسلكه.

قال: يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر، قال: بحر عميق لا تلجه، قال: يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر، قال: سرّ الله قد خفى عليك فلا تفشه، قال: يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر، فقال على عليه السلام: أيُّها السائل إن الله خلقك كما شاء أو كما شئت؟.

فقال: كما شاء.

قال: فيبعثك يوم القيامة كما شاء أو كما شئت؟.

قال: كما شاء.

قال: أيّها السائل ألك مع الله مشيئة أو فوق الله مشيئة أو دون الله مشيئة؟ فإن زعمت أن لك دون الله مشيئة فقد اكتفيت عن مشيئة الله، وإن زعمت أنّ لك فوق الله مشيئة فقد زعمت

أن مشيئتك غالبة على مشيئة الله ، وإن زعمت أن لك مع الله مشيئة فقد ادعيت الشركة ، ألست تسأل ربّك العافية؟

قال : بلى .

قال : فمن أى شىء تسأله ، أمن البلاء الذى ابتلاك به ، أم من البلاء الذى ابتلاك به غيره؟ .

قال : من البلاء الذى ابتلانى به .

قال : ألست تقول : لا حول ولا قوة إلاّ بالله؟

قال : بلى .

قال : فتعلم تفسيرها؟

قال : لا ، علّمنى يا أمير المؤمنين مما علمك الله .

قال : تفسيرها : أن العبد لا يقدر على طاعة الله ولا يكون له قوّة على معصية الله فى الأمرين جميعًا إلاّ بالله ، أيّها السائل إن الله عزّ وجلّ يصح ويداوى ، منه الداء ومنه الدواء أعقلت عن الله أمره .

قال : نعم .

قال على (رضى الله عنه) : الآن أسلم أخوكم قوموا فصافحوه .

ثم قال : لو وجدت رجلاً من القدرية لأخذت برقبته فلا أزال أطأ عنقه حتى أكسرها فإنّهم يهود هذه الأمّة ونصاراها ومجوسها .

وقال المزنى : سمعتى الشافعى يقول :

ومـا شئتَ كانَ وإن لم أشأ ... وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم﴾ : يعنى صدقة التطوّع والنفقة فى الخير ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ . . . .[1] ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾ ولا صداقة ﴿وَلَا شَفَـٰعَةٌ﴾ إلاّ بإذن الله ، قرأها كلّها بالنصب ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وقرأ الباقون كلّها بالرفع والتنوين ، وكلا الوجهين سائغ فى العربيّة .

﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ : لأنهم وضعوا العبادة فى غير موضعها .

❖ ❖ ❖

---

(١) بياض بالأصل المخطوط .

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ﴾ الآية.

عن أُبىّ بن كعب قال: سألنى رسول الله ﷺ فقال: «يا أبا المنذر أى آية فى كتاب الله عزّ وجلّ أعظم»؟.

قلت: الله ورسوله أعلم.

قالها ثلاثًا ثم سألنى، فقلت: الله ورسوله أعلم، ثم سألنى فقلت: الله لا إله إلاّ هو الحىّ القيّوم، فضرب فى صدرى ثم قال: «هنيئًا لك العلم يا أبا المنذر والذى نفسى بيده إنّ لها لسانًا تقدّس الملك عند ساق العرش».

عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال النبى ﷺ: «من قرأ آية الكرسى دبر كلّ صلاة مكتوبة كان الذى يتولّى قبض نفسه ذو الجلال والإكرام، وكان كمن قاتل مع أنبياء الله حتى استشهد».

روى إسماعيل بن مسلم عن أبى المتوكّل الناجى أنّ أبا هريرة كان معه مفتاح بيت الصدقة وكان فيه تمر، فذهب يومًا وفتح الباب فإذا التمر قد أُخذ منه ملء كفّ، ثم دخل يومًا آخر وقد أخذ منه ذلك، ثم دخل يومًا آخر فإذا قد أُخذ منه مثل ذلك، قال: فذكر ذلك أبو هريرة للنبىّ ﷺ فقال له النبىّ ﷺ: «أيسرّك أن تأخذه»؟

قال: نعم.

قال: «فإذا فتحت الباب فقل سبحان مَنْ سخّرك لمحمد ﷺ». قال: فذهب ففتح الباب فقال: سبحان من سخرك لمحمد، فإذا هو قائم بين يديه فقال له: يا عدو الله أنت صاحب هذا؟

قال: نعم، وقال لى: لا أعود، ما كنت آخذه منك إلاّ لأهل بيت فقراء من الجن، ثم عاد

فذكره للنبىّ ﷺ فقال له: «أيسرك أن تأخذه» قال: نعم، قال: «فإذا فتحت فقل مثل ذلك أيضًا»، ففتح الباب فقال: سبحان مَنْ سخّرك لمحمد، فإذا هو قائم بين يديه، فقال له: يا عدو الله أليس زعمت أنّك لا تعود؟

قال: دعنى هذه المرّة فإنّى لا أعود.

فأخذه الثالثة فقال له: أليس عاهدتنى أن لا تعود، اليوم لا أدعك حتى أذهب بك إلى النبى ﷺ، قال: لا تفعل فإنّك إنّ تدعنى علّمتك كلمة إذا أنت قلتها لم يقربك أحد من الجن صغير ولا كبير ذكر ولا أُنثى.

قال له: لتفعلن؟ قال: نعم، قال: فما هى؟ قال: الله لا إله إلا هو الحىّ القيّوم، حتّى ختمها، فتركه فذهب فلم يعد، فذكر ذلك أبو هريرة للنبى ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «أما علمت يا أبا هريرة أنّه كذلك».

عن جعفر بن محمد بن الحسين بن على بن أبى طالب عليه السلام عن على رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا علىّ آية نزلت من كنوز العرش خرّ كلّ صنم يُعبد فى المشرق والمغرب على وجهه» وفزع إبليس. وقال: يحدث فى هذه الليلة حدث كبير فانظرونى أضرب لكم مشارق الأرض ومغاربها، فأتى يثرب فاستقبله رجل فتراءى له إبليس فى صورة شيخ.

قال: يا عبد الله هل حدث هذه الليلة أو فى هذا اليوم شىء؟

قال: نعم، أخبرنا رسول الله ﷺ أنّه نزلت عليه آية أصبح كلّ صنم خارًا على وجهه، فانصرف إبليس إلى أصحابه، وقال: حدث بيثرب أعظم الحدث فجاءوا إلى المدينة فبلغهم أن آية الكرسى قد نزلت، وقال النبى ﷺ: «ما قُرئت هذه الآية فى دار إلاّ هجره الشيطان ثلاثة أيام أو قال ثلاثين يومًا ولا يدخله ساحر ولا ساحرة أربعين ليلة. يا على علّم ولدك وأهلك وجيرانك فما نزلت آية أعظم منها».

وعن عطيّة العوفى عن على رضى الله عنه قال سمعت نبيّكم ﷺ على أعواد المنبر وهو يقول: «مَنْ قرأ آية الكرسى فى دبر كلّ صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنّة إلاّ الموت ولا يواظب عليها إلاّ صدّيق أو عابد، ومَنْ قرأها إذا أخذ مضجعه آمنه الله على نفسه وجاره وجار جاره والأبيات حوله».

عن أنس وعن جابر رفعا الحديث إلى رسول الله ﷺ: «أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران من داوم على قراءة آية الكرسى دبر كلّ صلاة أعطيته قلوب الشاكرين وأجر النبيين وأعمال الصدّيقين وبسطت عليه يمينى بالرحمة ولم أمنعه أن أدخله الجنّة إلاّ أن يأتيه الموت».

قال موسى: إلهى ومَنْ يداوم عليها؟

قال: لا يداوم عليها إلاّ نبى أو صدّيق أو رجل قد رضيت عنه أو رجل أُريد قتله فى سبيلى».

محمد بن كعب القرظى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «مَنْ خرج من منزله فقرأ آية الكرسى بعث الله إليه سبعين ألفًا من الملائكة يستغفرون له ويدعون له، فإذا رجع إلى منزله ودخل بيته فقرأ آية الكرسى نزع الله الفقر من بين عينيه».

نافع عن ابن عمر قال: بينا عمر بن الخطاب جالس فى مسجد المدينة فى جماعة من أصحاب النبى ﷺ وهم يتذاكرون فضائل القرآن إذ قال قائل منهم: خاتمة براءة، وقال قائل: خاتمة بنى إسرائيل، وقال قائل: كهيعص وقال قائل: طه فقدّم القوم وأخروا، فقال علىّ عليه السلام: وأين أنتم يا أصحاب محمد من آية الكرسى؟

فقالوا له: أخبرنا يا أبا الحسن ما سمعت النبىّ ﷺ يقول؟ فقال على (رضى الله عنه): قال النبى ﷺ: «يا على سيد النبيين آدم، وسيّد العرب محمد ولا فخر، وسيّد الفرس سلمان، وسيّد الروم صهيب، وسيّد الحبشة بلال، وسيّد الجبال الطور، وسيّد الشجر السدر، وسيّد الشهور الأشهر الحرم، وسيّد الأيام يوم الجمعة، وسيّد الكلام القرآن، وسيّد القرآن البقرة، وسيّد البقرة آية الكرسى.

يا على إنّ فيها لخمسين كلمة فى كل كلمة خمسون بركة».

عمر بن أبى المقدام قال سمعت أبا جعفر الباقر يقول: «مَنْ قرأ آية الكرسى مرّة صرف عنه ألف مكروه من مكروه الدنيا وألف مكروه من مكروه الآخرة، أيسر مكروه الدنيا الفقر وأيسر مكروه الآخرة عذاب القبر».

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ﴾ إلهًا، رفع بالابتداء وخبره فى ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

وقيل: هو رفع بالإيجاب والتحقيق كقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ (آل عمران: ١٤٤).

﴿ٱلْحَىُّ﴾: من له الحياة، وهى الصفة التى يكون الموصوف بها حيًّا مخالفًا للجمادات والأموات وهو على وزن فعل مثل الحذر والطمع، فسكنت الياء وأُدغمت.

و﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ فيعول من القيام وفيه ثلاث لغات: القيام وهى قراءة عمر بن مسعود والنخعى والأعمش، والقيّم وهى قراءة علقمة، والقيّوم وهى قراءة الباقين، وكلّها لغات بمعنى واحد، والأصل: قيّم وقيوام وقيّوم كما يقال: ما فى الدار ديّور وديّار ودير. والقيّوم: المبالغ فى

القيام على خلقه.

قال مجاهد: القيّوم: القائم على كلّ شىء، سعيد بن جبير: الذى لا نرى له، الضحاك: الدائم، أبو روق: الذى لا يلى، الربيع: القيّم على كلّ شىء يحفظه ويرزقه، الكلبى: القائم على كلّ نفس بما كسبت، أبو عبيد: الذى لا يزول.

قال أُحية: لم يخلق السماء والنجوم والشمس معها قمر يقوم قدره المهيمن القيّوم والحشر والجنّة والجحيم إلاّ لأمر شأنه عظيم.

قتادة عن أنس أنّ النبىّ ﷺ كان يدعو: يا حىّ يا قيّوم، وكان ابن عباس يقول: أعظم أسماء الله عزّ وجلّ الحىّ القيّوم وهو دائمًا أهل الخير.

يدلّ عليه ما روى القاسم عن أبى أمامة عن النبىّ ﷺ، قال: «إنّ اسم الله الأعظم لفى سور من القرآن ثلاث: البقرة وآل عمران وطه».

قال بعضهم: فنظرت فى هذه السور الثلاث فرأيت فيها اسمًا ليس فى شىء من القرآن: فى آية الكرسى ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾.

وفى آل عمران: ﴿الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ (آل عمران: ١، ٢).

وفى طه: ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ﴾ (طه: ١١١).

﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ﴾، قال المفسّرون:

السِّنة: النعاس، وهو النوم الخفيف وهو ريح تجىء من قبل الرأس لينة فتغشى العين، ورجل وسنان إذا كان بين النائم واليقظان يقال له: وسن يوسن وسنًا وسنة فهو وسنان.

قال ابن الرقاع:

وسنان أقصده النعاس فرنقت   فى عينه سنةً وليس بنائم

﴿وَلَا نَوۡمٞۚ﴾: والنوم هو المستثقل المزيل للقوّة والعقل، فنفى الله تعالى عن نفسه النوم لأنّه آفة ولا يجوز عليه الآفات ولأنّه تغيّر ولا يجوز عليه تغيّر الأحوال، ولأنّه قهر والله تعالى قاهر غير مقهور، ولأنّه للاستراحة ولا يناله تعب فيستريح ولأنّه أخو الموت.

محمد بن المنكدر عن جابر قال: سُئل رسول الله ﷺ: أينام أهل الجنّة؟

قال: لا: «النوم أخو الموت ولا يموت أهل الجنّة» ولأنّه لو نام العقل ولو غفل لاختلّ ملكه وتدبيره.

أبو عبيدة عن أبى موسى قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «إنّ الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام ولكنّه يرفع القسط ويخفضه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار

قبل عمل الليل، حجابه النور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

عكرمة عن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يحكى عن موسى عليه السلام على المنبر قال: «وقع فى نفس موسى هل ينام الله عزّ وجلّ، فأرسل الله إليه مَلَكًا فأرّقه ثلاثًا ثم أعطاه قارورتين فى كلّ يد قارورة وأمره أن يحتفظ بهما، قال: فجعل ينام وتكاد يداه تلتقيان ويحبس أحدهما عن الأخرى حتّى نام نومه واصطكت يداه فانكسرت القارورتان».

قال: ضرب الله تعالى مثلاً أن الله سبحانه لو نام لم يستمسك السماء والأرض.

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: ملكًا وخلقًا. ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾: بأمره، قال أهل الإشارة: فى هذه الآية جذب بها قلوب عباده إليه عاجلاً وآجلاً فسبحان مَنْ لا وسيلة إليه.

الآية: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ قال مجاهد وعطاء والحكم والسدى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمر الدنيا ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أمر الآخرة.

الضحاك والكلبى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ يعنى الآخرة لأنّهم يقدمون عليها ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الدنيا لأنّهم يخلفونها.

ابن جريح: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ يعنى ما كان قبل خلق الملائكة ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ وما يكون بعد خلقهم.

وقيل: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ يعنى ما فعلوه من خير وشر ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ وأمامهم ما فعلوه.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾: أى علم الله ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾: أن يعلّمهم ويطلعهم عليه ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: أى ملأ وأحاط به، واختلفوا فى الكرسى، فقال ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد: علمه، ومنه قيل للصحيفة يكون فيها علم مكتوب: كراسة.

ومنه قول الراجز فى صفة قانص:

❖ حتى إذا ما جاءه تكرّسًا ❖

يعنى: علم.

ويقال للعلماء: الكراسىّ.

قال الشاعر:

يحف بهم بيض الوجوه وعصبة ... كراسى بالأحداث حين تنوب

وقال بعضهم: سلطانه وملكه وقدرته.

والعرب تُسمّى أصل كلّ شىء الكرسى.

يقال: فلان كريم الكرسى أى الأصل.

قال العجاج:

قد علم القدوس مولى القدس أن أبا العبـاس أولى النفس

بمعـدن الملك الكريم الكرسى

قال الثعلبى: رأيت فى بعض التفاسير ﴿كُرْسِيُّهُ﴾: سرّه.

وأنشدوا فيه:

مـا لى بأمرك كرسىّ أكاتمـه وهل بكرسىّ علم الغيب مخلوق

وزعم محمد بن جرير الطبرى أن الكرسى: الأجل، أى وسع أجله السموات والأرض.

وقال أبو موسى والسّدى وغيرهما: هو الكرسى بعينه، وهو لؤلؤ، وما السموات السبع فى الكرسى إلاّ كدراهم سبعة ألقيت فى ترس.

وقال علىّ ومقاتل: كلّ قامة من الكرسى طولها مثل السموات السبع والأرضين السبع وهو بين يدى العرش، ويحمل الكرسى أربعة أملاك لكلّ مَلَك أربعة وجوه أقدامهم فى الصخرة التى تحت الأرض السابعة السفلى مسيرة خمسمائة عام:

مَلَك على صورة سيد البشر آدم عليه السلام وهو يسأل للآدميين الرزق والمطر من السنة إلى السنة، وعلى وجهه غضاضة منذ عبد العجل من دون الله، ومَلَك على صورة سيّد الأنعام وهو الثور وهو يسأل للأنعام من السنة إلى السنة وعلى وجهه غضاضة مند عبد العجل من دون الله، ومَلَك على سورة سيّد السباع وهو الأسد يسأل الرزق للسباع من السنة إلى السنة، ومَلَك على صورة سيّد الطير وهو النسر يسأل الله الرزق للطيور من السنة إلى السنة.

أبو إدريس الخولانى عن أبى ذر قال: قلت: يا رسول الله أيّما آى أنزل عليك أعظم؟

قال: «آية الكرسى».

ثم قال: «يا أبا ذر ما السموات السبع مع الكرسى إلاّ كحلقة من حديد ملقاة فى أرض فلاة، وفضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على الحلقة».

وفى بعض الأخبار أن بين حملة العرش وبين حملة الكرسى سبعين حجابًا من ظلمة وسبعين حجابًا من نور، غلظ كلّ حجاب مسيرة خمسمائة عام، لولا ذلك لاحترقت حملة الكرسى من نور حملة العرش.

قال الحسن البصرى: الكرسى هو العرش بعينه. وحكى الأُستاذ أبو سعيد عبد الملك عن أبى عثمان الزاهد عن بعض المتقدّمين: أنّ الكرسى اسم مَلَك من الملائكة أضافه إلى نفسه تخصيصًا وتفضيلاً فنبّه به عباده على عظمته وقدرته.

فقال: إن خلقًا من خلقى وسع السموات والأرض فكيف تقدر قدرتى وتعرف عظمتى. والله أعلم.

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾: أى لا يثقله ولا يجهده ولا يشق عليه.

قالت الخنساء:

وحامل الثقل بالأعباء قد علموا إذا يؤود رجالاً بعض ما حملوا

وقيل: يؤوده أى يسقطه من ثقله.

قال الشاعر:

إلىّ وما سحروا عداة منّا عند الحمار يؤودها العقل

﴿حِفْظُهُمَا﴾: حفظ السموات والأرض ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾: الرفيع فوق خلقه فى التدبير والقوّة والقدرة لا بالمسافة والمكان والجهة ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾: فلا شىء أعظم منه.

قال المفسرون: سبب نزول هذه الآية أنّ الكفّار كانوا يعبدون الأصنام ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾: الآية: قال مجاهد: نزلت هذه الآية فى رجل من الأنصار يكنّى (أبو الحصين) وكان له ابنان فقدم تجّار الشام إلى المدينة يحملون الزيت فلما أراد الرجوع إلى المدينة أتاهم ابنا أبى الحصين فدعوهما إلى النصرانية فتنصرا وخرجا إلى الشام، فأخبر أبو الحصين رسول الله ﷺ بذلك فقال لرسول الله ﷺ: اطلبهما، فأنزل الله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾: فقال ﷺ: «أبعدهما الله فهما أوّل مَنْ كفر» فوجد أبو الحصين فى نفسه على النبىّ ﷺ حين لم يبعث فى طلبهما فأنزل الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ (النساء: ٦٥) الآية.

قال: وكان هذا قبل أن يؤمر رسول الله ﷺ: بقتال أهل الكتاب ثم نسخ قوله: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ وأمر بقتال أهل الكتاب فى سورة براءة.

وهكذا قال ابن مسعود وابن زيد: أنّها منسوخة بآية السيف، وقال الباقون: هى محكمة.

سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ قال: كانت المرأة من الأنصار تكون مثقلاً لا يعيش لها ولد فتنذر نذوراً لئن عاش لها ولد لتهوّدنّه، فجاء الإسلام وفيهم

منهم، فلما أجليت بنو النضير إذا فيهم أناس من الأنصار فقالت الأنصار: يا رسول الله أبناؤنا وإخواننا، فسكت عنهم ﷺ فنزلت: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ . الآية.

فقال رسول الله ﷺ: «قد خُيِّر أصحابكم فإن اختاروكم فهم منكم، وإن اختاروهم فاجعلوهم معهم».

قال: وكان الفصل ما بين الأنصار واليهود إجلاء بنى النضير فمن لحق بهم اختارهم ومن أقام اختار الإسلام. وقال المفسّرون: كان لرجل من الأنصار من بنى سالم ابنان فتنصّرا قبل أن يبعث النبىّ ﷺ ثم قدما المدينة فى نفر من النصارى يحملون الطعام فأتاهما أبوهما فلزمهما وقال: لا أدعكما حتى تُسلما، فأبيا أن يسلما فاختصموا إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، أيدخل بعضى النار وأنا أنظر؟. فأنزل الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ الآية، فخلّى سبيلهما.

ابن أبى حاتم عن مجاهد قال: كان ناس مسترضعين فى اليهود ـ قريظة والنضير ـ فلما أمر النبى ﷺ بإجلاء بنى النضير فقال نساؤهم من الأوس الذين كانوا مسترضعين فيهم: لنذهبن معهم ولنذنبن بذنبهم فمنعهم أهلوهم وأرادوا أن يكرهوهم على الإسلام فنزلت هذه الآية: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾.

قتادة والضحاك وعطاء وأبو روق والواقدى: معنى ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ بعد إسلام العرب إذا قبلوا الجزية، وذلك أن العرب كانت أمّة أميّة لم يكن لهم دين ولا كتاب فلم يقبل عنهم إلا الإسلام أو السيف وأكرهوا على الإسلام فلم يقبل منهم الجزية، ولما أسلموا ولم يبق أحد من العرب إلاّ دخل فى الإسلام طوعًا أو كرهًا، أنزل الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ فأمر أن يقاتل أهل الكتاب والمجوس والصابئين على أن يسلموا أو أن يقرّوا بالجزيّة فمن أقرّ منهم بالجزية قُبلت منه وخلّى سبيله ولم يكره على الإسلام.

وقال مقاتل: كان النبى ﷺ لا يقبل الجزية إلاّ من أهل الكتاب، فلما أسلمت العرب طوعًا أو كرهًا، قبل الخراج من غير أهل الكتاب فكتب النبىّ ﷺ إلى المنذر بن ساوى وأهل هُجر يدعوهم إلى الإسلام.

«إن مَنْ شهد شهادتنا وصلّى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا وكان بديننا فذلك المسلم الذى له ذمّة الله وذمّة رسوله، فإن أسلمتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا ومَنْ أبى الإسلام فعليه الجزية».

فكتب المنذر إلى النبى ﷺ: إنّى قرأت كتابك على أهل هجر فمنهم مَنْ أسلم ومنهم مَنْ أبى، فأمّا اليهود والمجوس فأقرّوا الجزية وكرهوا الإسلام فرضى النبىّ ﷺ منهم بالجزية، فقال

منافقو أهل المدينة: زعم محمد أنّه لم يؤمر بأخذ الجزية إلاّ من أهل الكتاب فما باله قبلها من مجوس هجر وقد رده ذلك على آبائنا وإخواننا حتّى قتلهم، فشق ذلك على المسلمين، فذكروا ذلك للنبىّ ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ يعنى بعد إسلام العرب.

وروى شريك عن عبد الله بن أبى هلال عن وسق قال: كنت مملوكًا لعمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وكنت نصرانيًا وكان يقول: يا وسق أسلم فإنّك لو أسلمت لولّيتك بعض أعمال المسلمين فإنّه ليس يصلح أن يلى أمرهم مَنْ ليس على دينهم، فأبيت عليه فقال: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ فلما مات أعتقنى، وقال ابن أبى نجيح: سمعت مجاهدًا يقول لغلام له نصرانى: يا جرير أسلم، ثم قال: هكذا كان يقال: أم لا يكرهون.

وقال الزجاج وغيره: هو من قول العرب: أكرهت الرجل إذا نسبته إلى الكره كما يقول: أكفرته وأفسقته وأظلمته إذا نسبته إليها.

قال الكميت:

وطائفة قد أكفرونى بحبّكم ... وطائفة قالوا مسىءٌ ومذنب

ومعنى الآية: لا تقولوا لمن دخل بعد الحرب فى الإسلام: أنّه دخل مكرهًا، ولا تنسبوا من دخل فى الإسلام إلى الكره يدلّ عليه قوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾ (النساء: ٩٤).

﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾: قد ظهر الكفر من الإيمان والهدى من الضلالة والحق من الباطل، عن ابن مسعود عن النبى ﷺ أنّه قال: «مَنْ أطاع الله ورسوله فقد رشد».

وعن مقاتل بن حيان قال: زعم الضحاك أن الناس لما دخلوا فى الإسلام طوعًا أو كرهًا ولم يبق من عدو نبىّ الله من مشركى العرب أحد إلاّ دخلوا فى الإسلام طوعًا أو كرها وأكمل الدين نزل: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ مَنْ شاء أسلم ومَنْ شاء أعطى الجزية.

وقرأ الحسن ومجاهد والأعرج ﴿ٱلرُّشۡدُ﴾ بفتح الراء والشين وهما لغتان كالحزن والحزن والبُخل والبَخل.

وقرأ عيسى بن عمر: ﴿ٱلرُّشۡدُ﴾ بضمّتين.

وقرأ الباقون بضم الراء وجزم الشين وهما لغتان كالرُّعب والرَّعب، والسُّحت والسَّحت.

﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: يعنى الشيطان، قاله ابن عمر وابن عباس ومقاتل والكلبى.

وقيل: هو الصنم، وقيل: الكاهن، وقيل: هو كلّ ما عُبد من دون الله.

وقال أهل المعاني: الطاغوت: كلّ ما يطغى الإنسان، وهو فاعول من الطغيان زيدت التاء فيه بدلاً من لام الفعل، كقوله: حانوت وتابوت.

وقال أهل الإشارة: طاغوت كلّ امرئ نفسه بيانه قوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ (يوسف: ٥٣) الآية.

﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾: عن سعيد قال: الإيمان: التصديق، والتصديق أن يعمل العبد مما صدّق به من القرآن.

وعن ابن عباس قال: أخبر الله تعالى أنّ الإيمان هو العروة الوثقى ولا يقبل عمل إلاّ به، وعن ابن عباس أيضًا قال: أخبر الله تعالى أنّ الإيمان لا إله إلاّ الله.

﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ﴾: تمسك واعتصم ﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾: بالعصمة الوثيقة المحكمة ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: أى ناصرهم ومعينهم وقيل محبهم وقيل متولى أمرهم لا يكلهم إلى غيره. يقال: توليت أمر فلان ووليّته ولاية بكسر الواو، وقيل: أولى وأحق بهم لأنّه يربّيهم، وقال الحسن: ولى هداهم.

﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ﴾: أى من الكفر والضلالة إلى الإيمان والهداية، وكذلك كانوا فى علم الله عزّ وجلّ قبل أن يخلقهم، فلما خلقهم مضى فيهم علمه فآمنوا.

وقال الواقدى: كلّ شىء فى القرآن من الظلمات والنور فإنّه أراد به الكفر والإيمان غير التى فى سورة الأنعام ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ﴾ (الأنعام: ١) فإنّه يعنى به الليل والنهار.

قال ابن عباس: هؤلاء قوم كفروا بعيسى عليه السلام ثم آمنوا بمحمد ﷺ فأخبرهم من الكفر بعيسى إلى إيمانهم بالمصطفى وسائر الأنبياء (عليهم السلام)، وقال غيره: هو عام لجميع المؤمنين، وقال ابن عطاء: هذه الآية تغنيهم من صفاتهم بصفة فيصيرون قائمين بالحق للحق مع الحق.

الواسطى: يخرجهم من ظلمات نفوسهم إلى آدابها كالرضا والصدق والتوكّل والمعرفة والمحبّة.

أبو عثمان: يخرجهم من رؤية الأفعال إلى رؤية المنن والأفضال، وقيل: يخرجهم من ظلمات الوحشة والفرقة إلى نور الوصيلة والقربة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ﴾: هكذا قرأه العامّة وقرأ الحسن الطواغيت على الجمع.

قال أبو حاتم: العرب تجعل الطاغوت واحدًا وجمعًا ومذكرًا ومؤنثًا.

قال الله تعالى فى الواحد والمذكّر: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ (النساء: ٦٠).

وقال فى المؤنّث: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ (الزمر: ١٧).

وقال فى الجمع: ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾.

قال ابن عباس: يعنى بالطاغوت الشيطان.

قال مقاتل: يعنى كعب بن الأشرف، ويحيى بن أخطب وسائر رؤوس الضلالة يُخرجونهم ويدعونهم من النور إلى الظلمات، دليله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ (إبراهيم: ٥) يعنى ادعهم.

فإن قيل: ما وجه قوله: ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ وهم كفّار لم يكونوا فى نور قط وكيف يخرجونهم ممّا لم يدخلوا فيه.

فالجواب ما قال مقاتل وقتادة: هم اليهود كانوا مؤمنين بمحمّد ﷺ قبل أن يُبعث فلما بُعث كفروا به وجحدوا ما وجدوه فى كتبهم من نعته وصفته ونبوّته بيانه قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ (البقرة: ٨٩) فذلك خروجهم من النور يعنى بإيمانهم بمحمد قبل البعث، ويعنى بالظلمات كفرهم بمحمد ﷺ بعد البعث، والإدخال والإخراج إلى الله عزّ وجلّ لا إلى غيره إلاّ على سبيل الشريعة والتفريع. قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ (الإسراء: ٨٠)، وأجراها أهل المعانى على العموم فى جميع الكفّار.

وقالوا: منعه إياهم من الدخول فيه إخراج، وهذا كما يقول الرجل لأبيه: أخرجتنى من مالك ولم يكن فيه، فقال الله تعالى إخباراً عن يوسف: ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ (يوسف: ٣٧) ولم يكن أبداً على دينهم حتّى تركه قال الله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ (النحل: ٧٠) ولم يكن فيه قط.

وقال امرؤ القيس:

ويأكلون البدل قد عاد حمًا قط ... قال له الأصوات ذى كلا نجلى

وقال آخرون:

أطعت النفس فى الشهوات حتّى ... أعـــادتنى عسيفا عبـد عبـد

ولم يكن عبداً قط.

وقال الغنوى:

فإن تكن الأيام أحسن مرّة ... إلىّ فقد عادت لهنّ ذنوب

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِى هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ﴾ : أى خاصم وجادل وأصلها من الحجّة، وهو نمرود بن كنعان بن سخاريب بن كوش بن سام بن نوح وهو أول مَنْ وضع التاج على رأسه وتجبّر فى الأرض وادّعى الربوبيّة ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ أى لأنّه آتاه الله الملك فطغى، وموضع (أن) نصب بنزع حرف الصفة.

العلاء بن عبد الكريم الأيامى عن مجاهد. قال: ملك الأرض مؤمنات وكافران، فأمّا المؤمنان فسليمان بن داود وذو القرنين، وأمّا الكافران فنمرود وبخت نصر.

واختلفوا فى وقت هذه المناظرة، فقال مقاتل: لما كسّر إبراهيم الأصنام سجنه نمرود ثم أخرجه ليحرقه بالنار، فقال له: مَنْ ربّك الذى تدعونا إليه؟

قال: ربّى الذى يُحيى ويُميت.

وقال آخرون: كان هذا بعد إلقائه فى النار.

عبد الرزاق عن معمر بن زيد بن أسلم: أن أوّل جبار فى الأرض كان نمرود بن كنعان وكان الناس يخرجون فيمتارون من عنده الطعام.

قال: فخرج إبراهيم عليه السلام يمتار.

فإذا مرّ به أُناس قال: مَنْ ربّكم؟

قالوا: أنت، حتّى مرّ به إبراهيم قال: مَنْ ربّك، قال: الذى يُحيى ويُميت. كما ذكره الله تعالى.

قال: فردّه بغير طعام فرجع إبراهيم عليه السلام إلى أهله فمرّ على كثيب من رمل أعفر فقال: ألا آخذ من هذا فآتى به أهلى فتطيب أنفسهم حين أدخل عليهم، فأخذ منه فأتى به أهله

فوضع متاعه ثم نام فقامت امرأته إلى متاعه ففتحته فإذا هو أجود طعام رآه أحد فصنعت له منه فقرّبت إليه وكان عهد بأهله ليس لهم طعام.

فقال: من أين هذا؟

قالت: من الطعام الذى جئت به، فعرف أنّ الله رزقه فحمد الله.

قال: ثم بعث الله مَلَكًا إلى الجبّار أن آمِن بىّ فأتركك على ملكك، فقال نمرود: وهل ربّ غيرى؟!

فجاءه الثانية فقال له مثل ذلك، فأبى عليه، ثم أتاه الثالثة فأبى عليه وقال: لا أعرف الذى تقول، ألربك جنود؟

قال: نعم.

قال: فليقاتلنى إن كان ملكًا فإنّ الملوك يقاتل بعضهم بعضًا.

قال له الملك: نعم إن شئت، قال: قد شئت.

قال: فاجمع جندك إلى ثلاثة أيام حتى تأتيك جنود ربّى.

قال: فجمع الجبّار جنوده.

فأوحى الله عزّ وجلّ إلى خزنة البعوض أن افتحوا منها ففتحوا بابًا من البعوض، فلما أصبح اليوم الثالث نظر نمرود إلى الشمس فقال: ما بالها لا تطلع، وظنّ أنّها أُبطئت، فقال الملك: حال دونها جنود ربّى.

قال: فأحاطت بهم البعوض فأكلت لحومهم وشربت دماءهم فلم يبق من الناس والدواب إلاّ العظام ونمرود كما هو لم يصبه شىء.

فقال له الملك: أتؤمن الآن؟

قال: لا.

فأمر الله عزّ وجلّ بعوضة فقرصت شفته السفلى فشربت وعظمت، ثم قرصت شفته العليا فشربت وعظمت، ثم دخلت منخره وصارت فى دماغه وأكلت من دماغه حتّى صارت مثل الفأرة فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق، فأرحم الناس به من كان يجمع يده ثم يضرب به رأسه فعذبه الله أربعمائة سنة كما ملك أربعمائة سنة.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾: وهو جواب سؤال سابق غير مذكور تقديره: قال له: مَنْ ربّك؟

قال إبراهيم: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾.

قرأ الأعمش وحمزة وعيسى: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى﴾ بإسكان الياء، وقرأ الباقون بفتحه لمكان الألف واللام.

فقال نمرود: ﴿أَنَا۠ أُحۡىِۦ وَأُمِيتُ﴾.

قرأ أهل المدينة: (أنا) بالمدّ فى جميع القرآن، وهو لغة قوم يجعلون الوصل فيه كالأصل.

وأنشد الكسائى:

أنا سيف العشرة فاعرفونى　　　حميـــد قد تذرّيت السناما

وقال آخر:

أنا عبيـــــد الله يمينى عمر　　　خير قريش من مضى ومن غبر

إلاّ رســـول الله والشيخ الأغر

والأصل فى (أنا) أن تفتح النون وابتغى لها الوقت فكتبت ألفًا على نيّة الوقف فصار: أنا. وأكثر العرب يقول فى الوقف: أنّه.

قال أكثر المفسّرين: دعا نمرود برجلين فقتل أحدهما واستحيا الآخر فسمّى ترك القتل إحياءً.

كقوله: ﴿وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ﴾ (المائدة: ٣٢) أى لم يقتلها.

وقال السدى فى قوله تعالى: ﴿أَنَا۠ أُحۡىِۦ وَأُمِيتُ﴾ قال: أخذ أربعة نفر فأدخلهم بيتًا فلا يُطعمون ولا يُسقون حتّى إذا أشرفوا على الهلاك أطعم اثنين وسقاهما وترك اثنين فماتا، فانتقل إبراهيم إلى حجّة أخرى لا عجزًا لأن له أن يقول: فأحى مَنْ أمتّ إن كنت صادقًا، بل إيضاحًا بالحجّة فقال: ﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِى بِٱلشَّمۡسِ﴾ كلّ يوم ﴿مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَۗ﴾ أى تحيّر ودُهش وانقطعت حجّته.

يقال: رجل مبهوت، أى مدهوش.

قال الشاعر:

ألا إنّ لرئاهـــا فجـــأة　　　فأبهت حتّى ما أكاد أسير

وقرأ محمد بن السميقع اليمانى: ﴿فَبَهِتَ﴾ بفتح الباء والهاء أى بهته إبراهيم. تصديقه قوله تعالى: ﴿بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةً فَتَبۡهَتُهُمۡ﴾ (الأنبياء: ٤٠) أى تدهشهم.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾: إلى الحجّة ﴿أَوۡ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ﴾ هذا عطف على معنى الآية الأولى تقديره: هل رأيت كالذى حاج إبراهيم فى ربّه، أو هل رأيت كالذى مرّ على قرية.

قال بعض نحاة البصرة: (الكاف) صلة كأنّه قال: ألم ير إلى الذى أو الذى.

واختلفوا فى ذلك المارّ من هو، فقال قتادة والربيع وعكرمة وناجية بن كعب وسليمان بن بريدة والضحاك والسدى وسليم الخواص: هو عزير بن شرحيا.

وقال وهب بن منبّه وعبد الله بن عبيد بن عمير: هو أرميا بن خلفيا وكان من سبط هارون ابن عمران، وهو الخضر.

وقال مجاهد: هو رجل كافر شكّ فى البعث.

واختلفوا فى القرية التى مر عليها، فقال وهب وعكرمة وقتادة والربيع: هى بيت المقدس، وقال الضحاك: هى الأرض المقدّسة وقال ابن زيد: الأرض التى أهلك الله فيها الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر موت.

وقال الكلبى: هى دير سائداباذ، وقال السدى: هى سلماباذ، وقيل: دير هرافيل، وقيل: قرية العنب وهو على فرسخين من بيت المقدس.

﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾: ساقطة، يقال: خوى البيت يخوى خوىً مقصوراً إذا سقط، وخوى البيت بالفتح خواً ممدود إذا خلا.

﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: سقوفها وأبنيتها واحدها عرش وجمعه القليل: أعرش، وكلّ بناء عرش، يقال: عرش فلان، إذا بنى فهو يعرش ويعرش عرشًا، قال الله: ﴿وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ (الأعراف: ١٣٧) أى يبنون.

ومعنى الآية: إنّ السقوف سقطت ثم وقعت الحيطان عليها.

وقيل: (على) بمعنى مع، أى خاوية مع عروشها.

قال الشاعر:

كأن مصفحات فى ذراه وأبراجًا عليهن المآلى

أى معهن.

نظيرها فى سورة الكهف والحج.

﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: وكان السبب فى ذلك على ما روى محمد بن إسحاق عن وهب بن منبّه: إن الله سبحانه وتعالى قال لأرميا عليه السلام حين بعثه نبيًا إلى بنى إسرائيل: يا أرميا من قبل أن خلقتك اخترتك، ومن قبل أن أُصورّك فى رحم أُمّك قدّستك، ومن قبل أن تبلغ السعى نبّأتك ولأمر عظيم أحببتك. فبعث الله أرميا إلى ناشئة بن أموص ملك بنى إسرائيل ليسدده ويأتيه بالخبر من الله تعالى، فعظمت الأحداث فى بنى إسرائيل

فركبوا المعاصى واستحلّوا المحارم، فأوحى الله تعالى إلى أرميا أن ذكّر قومك نعمى وعرّفهم أحداثهم فادعهم إلىّ.

فقال أرميا: إنّى ضعيف إن لم تقوّنى عاجز إن لم تنصرنى.

فقال الله تعالى: أنا ألهمك، فقام أرميا فيهم ولم يدر ما يقول، فألهمه الله عزّ وجلّ فى الوقت خطبة بليغة طويلة بيّن لهم فيها ثواب الطاعة وعقاب المعصية.

وقال فى آخرها: وإنّى أنا الله بعزتى لأقضين لهم فتنة يتحيّر فيها الحليم ولأسلطن عليهم جبّارًا قاسيًا ألبسه الهيبة وأنزع من قلبه الرحمة يتّبعه عدد مثل سواد الليل المظلم.

فأوحى الله تعالى إلى أرميا: إنّى مهلك بنى إسرائيل بيافث، ويافث أهل بابل وهم من ولد يافث بن نوح، فلمّا سمع ذلك أرميا صاح وبكى وشقّ ثيابه ونبذ الرماد على رأسه فلما سمع الله تضرّع أرميا وهو الخضر عليه السلام وبكاه ناداه: يا أرميا أشق عليك ما أوحيت إليك؟

قال: نعم يارب، أهلكنى قبل أن أرى فى بنى إسرائيل ما لا أسرّ به.

فقال الله عزّ وجلّ: وعزّتى لا أهلك بنى إسرائيل حتّى يكون الأمر فى ذلك من قبلك، ففرح بذلك أرميا وطابت نفسه، وقال: والذى بعث موسى بالحق لا أرضى بهلاك بنى إسرائيل، ثم أتى الملك فأخبره بذلك. وكان ملكًا صالحًا. فاستبشر وفرح وقال: إن يُعذّبنا ربّنا فبذنوب كثيرة لنا وإن عفا عنّا فبرحمته.

ثم إنّهم لبثوا بعد الوحى ثلاث سنين لم يزدادوا إلاّ معصية وتماديًا فى الشر وذلك حين اقترب هلاكهم، فقل الوحى ودعاهم الملك إلى التوبة فلم يفعلوا، فسلط الله عليهم بخت نصّر فخرج فى ستمائة ألف راية تريد أهل بيت المقدس، فلما فصل سائرًا أتى الخبر الملك فقال لأرميا: أين ما زعمت أن الله أوحى إليك؟

فقال أرميا: إنّ الله لا يخلف الميعاد وأنا به واثق.

فلما قرب الأجل وعزم الله تعالى على هلاكهم، بعث الله إلى أرميا مَلَكًا قد تمثّل له رجلاً من بنى إسرائيل.

فقال: يا نبى الله أستعينك فى أهل رحمى وصلت أرحامهم ولم أت إليهم إلاّ حينًا ولا يزيدون مع إكرامى إياهم إلاّ إسخاطًا لى فأفتنى فيهم، فقال له: أحسن فيما بينك وبين الله وصلهم وأبشر بخير.

فانصرف المَلَك فمكث أيامًا ثم أقبل إليه فى صورة ذلك الرجل فقعد بين يديه، فقال له أرميا: أو ما ظهرت أخلاقهم لك بعد؟

قال : يا نبى الله والذى بعثك بالحقّ ما أعلم كرامة يأتيها أحد من الناس إلى أهل رحمة إلاّ قدّمتها إليهم وأفضل .

فقال النبىّ : ارجع إلى أهلك وأحسن إليهم واسأل الله تعالى الذى يصلح عباده الصالحين أن يصلحهم ، فقام المَلَك فمكث أيامًا وقد نزل بخت نصر وجنوده حول بيت المقدس أكثر من الجراد ففزع بنو إسرائيل وشقّ عليهم .

فقال الملك لأرميا : يا نبى الله أين ما وعدك الله؟

قال : إنِّى بربِّى واثق .

ثم أقبل المَلَك إلى أرميا وهو قاعد على جدار بيت المقدس فضحك واستبشر بنصر ربّه الذى وعده فقعد بين يديه وقال : أنا الذى أنبأتك فى شأن أهلى مرتين .

فقال النبىّ : ألم يأن لهم أن يفيقوا من الذى هم فيه؟

فقال الملك : يا نبى الله كلّ شىء كان يصيبنى منهم قبل اليوم أصبر عليه فاليوم رأيتهم فى عمل لا يرضى الله عزّ وجلّ به .

فقال النبى : على أى عمل رأيتهم؟

قال : عمل عظيم من سخط الله فغضبت لله ولك وأتيتك لأخبرك وإنّى أسألك بالله الذى بعثك بالحق إلاّ ما دعوت الله عليهم ليهلكهم .

فقال أرميا : يا مَلك السموات والأرض إن كانوا على حق وصواب فأبقهم وإن كانوا على سخطك وعمل لا ترضاه فأهلكهم .

فلما خرجت الكلمة من فم أرميا أرسل الله عزّ وجلّ صاعقة من السماء فى بيت المقدس والتهب مكان القربان وخسف سبعة أبواب من أبوابها .

فلما رأى ذلك أرميا صاح وشق ثيابه ونبذ الرماد على رأسه ، وقال : يا مَالك السموات والأرض أين ميعادك الذى وعدتنى؟ ، فنودى أنّه لم يصبهم الذى أصابهم إلاّ بفتياك ودعائك ، فاستيقن النبىّ أنّها فتياه التى أفتى بها ، وأنه رسول ربه .

فطار أرميا حتّى خالط الوحوش ، ودخل بخت نصّر وجنوده بيت المقدس ووطئ الشام وقتل بنى إسرائيل حتّى أفناهم وخرّب بيت المقدس ، ثم أمر جنوده أن يملأ كلّ رجل منهم ترسه ترابًا ثم يقذفه فى بيت المقدس فقذفوا فيه التراب حتى ملئوه ، ثم أمرهم أن يجمعوا مَنْ كان فى بلدان بيت المقدس كلّهم فاجتمع عنده كلّ صغير وكبير من بنى إسرائيل واختار منهم مائة ألف صبى فقسّمهم بين الملوك الذين كانوا معه فأصاب كلّ رجل منهم أربعة أغلمة ، وفرّق

بخت نصّر مَنْ بقى من بنى إسرائيل ثلاث فرق: فثلثًا أقرّ بالشام، وثلثا أسر، وثلثًا قتل، فكانت هذه الواقعة الأولى التى أنزلها الله ببنى إسرائيل بظلمهم.

فلما ولّى بخت نصّر عنهم راجعًا إلى بابل ومعه سبايا بنى إسرائيل، أقبل أرميا على حمار له معه عصير عنب فى زُكرة وسلّة تين حتّى أتى إيليا فلما وقف عليها ورأى خرابها قال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؟!

وقال الذين قالوا إن هذا المارّ كان عزيرًا: إن بخت نصّر لما خرّب بيت المقدس وأقدم بسبى بنى إسرائيل إلى أرض بابل كان فيهم عزير وكان من علماء بنى إسرائيل، ودانيال وسبعة آلاف من أهل بيت داود.

فلما نجا عزير من بابل ارتحل على حمار حتّى نزل على دير هرقل على شط دجلة، فطاف فى القرية فلم يرَ فيها أحدًا وعلم بخبرها، فأكل من الفاكهة وعصر من العنب فشرب منه وجعل فضل الفاكهة فى سلّة وفضل العصير فى زق فلما رأى خراب القرية وهلاك أهلها قال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾. لم يشك فى البعث ولكن قالها تعجبًا.

رجعنا إلى حديث وهب: قال: ربط أرميا حماره بحبل جديد فألقى الله عليه النوم، فلمّا نام نزع منه الروح مائة سنة وأمات حماره، وعصيره وتينه عنده، وأعمى الله عنه العيون فلم يره أحد وذلك ضحى، ومنع الله السباع والطير لحمه. فلمّا مضى من موته سبعون سنة أرسل الله عزّ وجلّ مَلَكًا إلى ملك من بنى إسرائيل عظيم يقال له: يوسك فقال: إنّ الله عزّ وجلّ يأمرك أن تنفر قومك فتعمّر بيت المقدس وإيليا وأرضها حتّى تعود أعمر ما كان، فانتدب الملك ألف قهرمان مع كلّ قهرمان ثلاثمائة ألف عامل وجعلوا يعمّرونها، وأهلك الله تعالى بخت نصّر ببعوضة دخلت دماغه . . . .[1] الله تعالى مَنْ بقى من بنى إسرائيل ولم يمت ببابل وردّهم جميعًا إلى بيت المقدس ونواحيه، فعمّروه ثلاثين سنة وكثروا حتى صاروا كأحسن ما كانوا عليه، فلما مضت المائة أحيا الله تعالى منه عينيه وسائر جسده ميّت، ثم أحيا جسده وهو ينظر، ثم نظر إلى حماره وإذا عظامه متفرّقة بيض تلوح، فسمع صوتًا من السماء: أيّها العظام البالية إنّ الله يأمرك أن تجتمعى، فاجتمع بعضها إلى بعض واتصل بعضها ببعض.

ثم نودى: إنّ الله يأمرك أن تكتسى لحمًا وجلدًا، فكان كذلك، ثم نُودى: إنّ الله يأمرك أن تحيى، فقام بإذن الله ونهق الحمار.

وعمّر الله أرميا، فهو الذى يُرى فى الفلوات فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾

(١) بياض بالأصل المخطوط.

أى أحياه.

﴿قَالَ كَمْ﴾: استفهام عن مبلغ العدد ﴿لَبِثْتَ﴾: قرأ ابن محيصن والأعمش وأبو عمرو وحمزة والكسائى: لبث ولبثتم بالإدغام فى جميع القرآن. الباقون بالإظهار.

فمَنْ أدغم فلا يجاوره فى المخرج والمشاكلة فى الهمس، ومَنْ أظهر فلإظهارها فى المصحف، وكلاهما غريبان فصيحان ومعناه: كم مكثت وأقمت هاهنا. يقال: لبث يلبث لبثًا وإلباثًا.

﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا﴾: وذلك أنّ الله تعالى أماته ضحى فى أول النهار وأحياه بعد مائة عام فى آخر النهار قبل غيبوبة الشمس، فقال: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا﴾ وهو يرى أنّ الشمس قد غربت، ثم التفتَ فرأى بقيّة من الشمس فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ بمعنى بل بعض يوم، لأن قوله: ﴿بَعْضَ يَوْمٍ﴾ رجوع عن قوله: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا﴾ كقوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (الصافات: ١٤٧).

﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ﴾: يعنى التين ﴿وَشَرَابِكَ﴾: يعنى العصير ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾: قرأ حمزة والكسائى بحذف الهاء وَصْلاً وكذلك فى قوله: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام: ٩٠).

وقرأ الباقون بالهاء فيها وصلاً ووقفًا. وذكر أبو حاتم عن طلحة ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ بإدغام التاء فى السين وزعم أنّه فى حرف أُبى كذلك ومعناه: لم تغيّره السنون.

فمن أسقط الهاء فى الوصل حول الهاء صلة زائدة، وقال: أصله لم يتسنّى فحذف الياء بالجزم وأبدل منها هاء فى الوقف، وهذا على قول من جعل الهاء فى السنة زائدة.

وقال: أصلها يسنوه وجمعها سنوات والفعل منه سانيت مساناة وتسنّيت تسنّيًا، إلاّ أن الواو يردّ إلى الباقى التفعّل والتفاعل، كقولهم: التداعى والتدانى؛ لأن الياء أخف من الواو.

وقال أبو عمر: وهو من التسنن بنونين، وهو التغيير كقوله: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (الحجر: ٢٦) أى متغيّر ثم عوّضت عن إحدى النونين كقول الشاعر:

فهلا إذ سمعت بحثت عنه ولم تمس الحكومة بالتطنّى

أراد بالتعيّن:

قال العجّاج:

❖ تفضّى البازى إذ البازى كسر ❖

أراد تفضض.

وتقول العرب: نتعلى، إذا خرجوا فى اجتناء نبت ناعم يقال له المقاع.

قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ١٠) أى دسّسها.

ومن أثبت الهاء في الحالين جعلها هاءً أصليّة لام الفعل، وعلى هذا قول من جعل السنة سنهة وتصغيرها سنيهة والفعل منه المسانهة. قال الشاعر:

ليست بسنهاء ولا رجبية ولكن عرايا في السنين الجوائح

فإن قيل: أخبر عن شيئين اثنين ثم قال: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ ولم يثنه، قيل: لأن التغيير راجع إلى أقرب اللفظين وهو السنوات، واكتفى بذكر أحد المذكورين عن الآخر لأنّه في موضع الفاني كقوله الشاعر:

عقاب عقبناه كان وظيفه وخرطوعه إلاّ على سنان فلوج

ولم يقل سنانان فلوجان، ودليل هذا التأويل قراءة ابن مسعود: فانظر إلى طعامك وهذا شرابك لم يتسنّه.

﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾: قال أكثر العلماء: في الآية تقديم وتأخير، أي وانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه ولنجعلك آية للناس وانظر إلى حمارك، ويحتمل أن يكون المعنى: فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه وانظر إلى حمارك.

﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾.

فأما تفسير الآية والقراءات فيها فقرأ خارجة والأعرج وعيسى بن عمر وابن عامر وأبو عمرو وحمزة والكسائي حمارك والحمار بالإمالة، الباقون بالتفخيم، وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾. قرأ أُبي بن كعب وعبد الله بن عامر والأعمش وحمزة والكسائي وخلف: ننشزها بالزاي وضم النون وكسر الشين.

وروى أبو العالية عن زيد بن ثابت قال: إنّما هي راء قرؤها زاي أي أنقطها. وكذلك روى معاوية بن قرّة عن ابن عباس بالزاي واختاره أبو عبيدة.

وإنشاز الشيء: رفعه ونقله وإزعاجه، فقال: أنشزته فنشز، أي رفعته فارتفع، ومنه نشز المرأة على زوجها ونشز الغلام، أي ارتفع، فمعنى الآية: كيف نرفعها من الأرض فنردها إلى أماكنها من الجسد ونركّب بعضها على بعض.

قال ابن عباس والسدي: نخرجها، والكسائي: فننبتها ونعظّمها.

قتادة وعطاء وأبو جعفر وشيبة ونافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وأيوب: ننشرها بالراء وضمّ النون وكسر الشين، واختاره أبو حاتم، ومعناه: نحييها.

فقال: أنشر الله الميّت إنشاراً فينشر هو نشوراً، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ (عبس: ٢٢). وقال: ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ (الأنبياء: ٢١)، وقال: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ (الفرقان: ٤٠).

وقال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ (فاطر: ٩). ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ (الملك: ١٥). وقال حارثة بن بدر الغدانى:

فأنشر موتاها وأقسط بينها   فبان وقد ثابت إليها عقولها

وقال الأعشى فى اللازم:

حتّى يقول الناس ممّا رأوا   يا عجبًا للميّت الناشر

وقرأ الحسن والمفضّل ننشرها بالراء وفتح النون وضمّ الشين.

قال الفرّاء: ذهب إلى النشر والطى.

وقال بعضهم: هو من الإحياء أيضًا، يقال: أنشر الله الميّت ونشره إذا أحياه، قال أبو حاتم: وليس بالمعروف.

وقرأ النخعى بالزاى وفتح النون وضم الشين.

قال أبو حاتم ذلك غلط، وقال غيره: يقال نشزه ونشطه وأنشزه بمعنى واحد.

﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾: أى نكسوها ونواريها به كما نوارى الجسد بالثوب، واختلفوا فى معنى الآية، فقال بعضهم: أراد به عظام حماره وذلك أن الله تعالى أمات حماره ثم أحياه خلقًا سويًّا وهو ينظر.

قال السدى: إنّ الله أحيا عزيرًا ثم قال انظر إلى حمارك قد هلك وبليت عظامه، فبعث الله عزّ وجلّ ريحًا فجاءت بعظام الحمار من كلّ سهل وجبل ذهبت به الطير والسباع واجتمعت فركّب بعضها فى بعض وهو ينظر فصار حمارًا من عظام ليس فيه لحم ولا دم، ثم كسا العظام لحمًا ودمًا فصار حمارًا ليس فيه روح، ثم أقبل مَلَك يمشى حتّى أخذ منخر الحمّار فنفخ فيه فقام الحمار ونهق بإذن الله.

ومعنى الآية على هذا القول: وانظر إلى لحم حمارك وإلى عظامه كيف ننشزها، فلما حذف الهاء من العظام أبدل الألف و. . . وعلى هذا أكثر المفسّرين.

وقال آخرون: أراد به عظام هذا الرجل نفسه، وذلك أنّ الله تعالى لم يمت حماره فأحيا الله عينيه، ورأسه وسائر جسده ميّت، ثم قال له: انظر إلى حمارك، فنظر فرأى حماره قائمًا واقفًا كهيئة يوم ربطه حيًا لم يطعم ولم يشرب مائة عام ونظر إلى الرقية فى عنقه جديداً لم تتغيّر.

وتقدير الآية على هذا القول: فانظر إلى حمارك وانظر إلى عظامك كيف ننشزها. وهذا قول الضحاك وقتادة والربيع وابن زيد.

﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾: فعلنا ذلك لنجعلك. وإن شئت جعلت الواو مفخّمة زائدة،

كقول الشاعر الأسود بن جعفر:

فإذا وذلك لا مهــاة لذكره والدهر يعقب صالحًا بفساد

أى فإذا ذلك.

ومعنى الآية: فعلنا هذا بك لنجعلك آية للناس، أى عبرة ودلالة على البعث بعد الموت، قاله أكثر المفسرين:

وقال الضحاك وغيره: هذه الآية أنّه عاد إلى قريته شابًا وإذا أولاده وأولاد أولاده شيوخ وعجائز وهو أسود الرأس واللحية.

وروى قتادة عن كعب وعن الحسن ومقاتل وجويبر عن الضحاك عن ابن عباس، وعبد الله ابن إسماعيل السدى عن أبيه عن مجاهد عن ابن عباس قالوا: لمّا أحيا الله عزيرًا بعدما أماته مائة سنة ركب حماره حتى أتى محلّته فأنكره الناس وأنكر الناس وأنكر منازله، فانطلق على وهم منه حتّى أتى منزله فإذا بعجوز عمياء مقعدة قد أتى عليها مائة وعشرون سنة كانت أمةً لهم فخرج عنهم عزير وهى بنت عشرين سنة كانت عرفته وكفلته فلما أصابها الكبر أصابها الزمانة فقال لها عزير: يا هذه أهذا منزل عزير؟

قالت: نعم هذا منزل عزير وبكت وقالت: ما رأيت أحدًا من كذا وكذا سنة يذكر عزيرًا وقد نسيه الناس، قال: فإنّى أنا عزير.

قالت: سبحان الله إنّ عزيرًا قد فقدناه من مائة سنة فلم نسمع بذكره.

قال: فإنى أنا عزير كان الله عزّ وجلّ أماتنى مائة سنة ثم بعثنى.

قالت: فإنّ عزيرًا كان مستجاب الدعوة يدعو للمريض وصاحب البلاء بالعافية والشفاء، فادع الله حتّى يردّ علىّ بصرى حتى أراك فإنّ كنت عزيرًا عرفتك، قال: فدعا ربّه ومسح يده على عينيها ففتحت وأخذ بيدها وقال: قومى بإذن الله، فأطلق الله عزّ وجلّ رجليها فقامت صحيحة بإذن الله كأنّها نشطت من عقال، فنظرت فقالت: أشهد أنّك عزير، فانطلقت إلى محلة بنى إسرائيل، وهم فى أنديتهم ومجالسهم، وابن لعزير شيخ ابن مائة سنة وثمانية عشر سنة وبنى بنيه شيوخ فى المجلس، فنادت: هذا عزير قد جاءكم، فكذّبوها.

فقالت: أنا فلانة مولاتكم دعا لى ربّه عزّ وجلّ فردّ علىّ بصرى وأطلق رجلى وزعم أنّ الله تعالى كان أماته مائة سنة ثم بعثه.

قال: فنهض الناس فأقبلوا إليه، فقال ابنه: كانت لأبى شامة سوداء مثل الهلال بين كتفيه، فكشف عن كتفيه فإذا هو عزير.

قال قتادة ومقاتل والسدى والكلبى : هو أن عزيراً رجع إلى قريته وقد أحرق بخت نصّر التوراة ولم يكن من الله تعالى عهد بين الخلق فبكى عزير على التوراة ، فأتاه مَلَك بإناء فيه ماء فسقاه من ذلك الإناء فمثلت التوراة فى صدره ، فرجع إلى بنى إسرائيل ، وقد علّمه الله التوراة وبعثه نبيًّا .

فقال : أنا عزير ، ولم يصدّقونى .

وقال : حدّثنا آباؤنا أنّ عزيراً مات بأرض بابل .

فقال : أنا عزير بعثنى الله إليكم لأجدد لكم توراتكم .

فقالوا : أملها علينا إن كنت صادقًا ، فأملاها عليهم عن ظهر قلبه .

وقال رجل منهم : حدّثنى أبى عن جدّى أنّه دفن التوراة يوم سُبينا فى خابية فى كرم لأبى ، فإن أريتمونى كرم جدى أخرجتها لكم ، فأروه ، فأخرجها لهم ، فعارضوها بما أملى عزير فما اختلفا فى حرف ، ولم يقرأ التوراة منذ أنزلت عن ظهر قلبه إلى هذا اليوم غير عزير .

فقالوا : ما جعل الله التوراة فى قلب رجل بعدما نسخت وذهبت إلاّ أنّه ابنه ، فعندها قالوا : عزير ابن الله ، وسنذكر هذه القصة بالاستقصاء فى سورة التوبة إن شاء الله .

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ : ذلك عيانًا ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ : قرأ ابن عباس وأبو رجاء وحمزة والكسائى : ﴿قَالَ أَعْلَمْ﴾ : موصولاً مجزومًا على الأمر بمعنى قال الله له اعلم ، يدلّ عليه قراءة عبد الله والأعمش : (قال اعلم) ، وقرأ الباقون ﴿قَالَ أَعْلَمُ﴾ : معطوفًا مرفوعًا على الخبر عن عزير أنّه قال لمّا رأى ذلك : ﴿أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

عن المنعم بن إدريس عن أبيه عن وهب قال : ليس فى الجنة كلب ولا حمار إلاّ كلب أصحاب الكهف وحمار أرميا الذى أماته الله مائة عام .



﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ﴾ الآية . إن قيل : ما السبب فى مسألة إبراهيم ربّه عزّ وجلّ أن يُريه كيف يُحيى الموتى ، وما وجه ذلك ، وهل كان إبراهيم شاكًّا فى إحيائه الموتى حتّى قال : ولكن ليطمئن قلبى؟

فالجواب عنه من وجوه: قال الحسن وقتادة وعطاء الخراساني والضحاك وابن جريج: كان سبب ذلك السؤال أنّ إبراهيم أتى على دابة ميّتة، قال ابن جريج: كانت جيفة حمار بساحل البحر، قال عطاء: بحيرة الطبريّة، قالوا: فرآها وقد توزّعتها دواب البر والبحر، وكان إذا مدّ البحر جاءت الحيتان ودواب البحر فأكلت منها فما وقع منها يصير في الماء، وإذا جزر البحر جاءت السباع فأكلت منها فما وقع منها يصير ترابًا، فإذا ذهبت السباع جاءت الطيور فأكلن منها فما سقط قطعته الريح في الهواء، فلما رأى ذلك إبراهيم عليه السلام تعجّب منها وقال: يا رب قد علمت لتجمعنها من بطون هذه السباع وحواصل الطيور وأجواف دواب البر فأرني كيف تُحييها لأعاين ذلك فأزداد يقينًا، فعاتبه الله عزّ وجل فقال: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ بإحياء الموتى ﴿قَالَ بَلَىٰ﴾ يا رب علمت وآمنت ولكن ليس الخبر كالمعاينة فذلك قوله: ﴿وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ أي يسكن قلبي إلى المعاينة والمشاهدة.

فعلى هذا القول أراد إبراهيم عليه السلام أن يصير له علم اليقين عين اليقين، كما أن الإنسان يعلم الشيء ويتيقنه ولكن يحب أن يراه من غير شك له فيه، كما أن المؤمنين يحبّون رؤية النبي ﷺ ورؤية الله تعالى مع الإيمان بذلك وزوال الشك فيه.

قال ابن زيد: مرّ إبراهيم عليه السلام بحوت ميّت نصفه في البر ونصفه في البحر فما كان في البحر فدواب البحر تأكله وما كان في البر فدواب البر تأكله، فقال له الخبيث إبليس: متى يجمع الله هذا من بطون هؤلاء؟

فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، قال: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾؟

﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾: بذهاب وسوسة إبليس منه ويصير الشيطان خاسرًا صاغرًا.

وقال بعضهم: إن إبراهيم عليه السلام لما احتجّ على نمرود وقال: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾.

وقال: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ وقتل ذلك الرجل وأطلق الآخر.

قال إبراهيم: فإنّ الله عزّ وجلّ يحيي بأن يقصد إلى جسد ميّت فيحييه ويجعل الروح فيه.

فقال له نمرود: أنت عاينت هذا، فلم يقدر أن يقول نعم رأيته، فانتقل إلى حجّة أُخرى، فقال إنّ الله عزّ وجلّ يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب، ثم سأل ربّه فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾؟

﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾: حتّى إذا قال لي قائل: أنت عاينت؟ أقول: نعم قد عاينت ولا أحتاج إلى الانصراف لأي حجّة أُخرى، وليعلم نمرود أنّ الإحياء كما فعلت لا كما فعل

هو. وهذا معنى قول محمد بن إسحاق عن ابن يسارة.

روى فى الخبر: إنّ نمرود قال لإبراهيم عليه السلام: أنت تزعم أن ربّك يُحيى الموتى وتدعونى إلى عبادته فسل ربّك يُحيى الموتى إنّ كان قادراً وإلاّ قتلتك.

فقال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾؟

﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾: بقوّة حجّتى ونجاتى من القتل، فإن عدو الله توعدنى بالقتل إنّ لم تُحى له ميتّا.

وقال ابن عباس وسعيد بن جبير والسدى: لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً، سأل مَلَك الموت أن يأذن له فيبشّر إبراهيم بذلك، فأذن له فأتى إبراهيم ولم يكن فى الدار، فدخل داره وكان إبراهيم عليه السلام أغير الناس، إذا خرج أغلق بابه، فلمّا دخل وجد فى داره رجلاً فثار إليه يأخذه فقال له: مَنْ أذن لك أن تدخل دارى؟

فقال مَلَك الموت: أذن لى ربّ هذه الدار، قال إبراهيم: صدقت، وعرف أنّه مَلَك الموت.

فقال: مَنْ أنت؟ قال: مَلَك الموت جئت أُبشّرك بأن الله عزّ وجلّ اتخذك خليلاً، فحمد الله تعالى وقال له: ما علامة ذلك؟

قال: أن يجيب الله دعاءك ويُحيى الموتى بسؤالك، ثم انطلق مَلَك الموت.

فقال إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾؟

﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾: بعلمى أنّك تجيبنى إذا دعوتك وتعطينى إذا سألتك. واتخذتنى خليلاً.

محمد بن مسلم عن سعيد بن المسيّب وأبى عبيدة عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «يرحم الله إبراهيم نحن أحق بالشك منه قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾؟

﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾: ثم قرأ إلى آخر الآية.

محمد بن إسحاق بن خزيمة قال سمعت أبا إبراهيم المزنى يقول: معنى قوله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» إنّما شك إبراهيم أيجيبه الله عزّ وجلّ إلى ما يسأل أم لا.

عبد الرحمن السلمى قال: سمعت أبا القاسم النصر أباذى سُئل عن هذه الآية فقال: حنّ الخليل إلى صنع خليله ولم يتهمه، فذلك قوله عزّ وجلّ ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾. يعنى أنت مؤمن شهد له بالإيمان، كقول جرير:

ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

يعنى أنتم كذلك.

﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ﴾ : ليسكن ﴿قَلْبِي﴾ : بزيادة اليقين والحجّة، وحقيقة الخلّة وإجابة الدعوة.

قال الله تعالى لإبراهيم عليه السلام: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ مختلفة أجناسها وطباعها ليكون أبلغ فى القدرة، وخصّ الطائر من سائر الحيوان لخاصيّة الطيران، واختلفوا فى ذلك الطير ما هى.

فقال ابن عباس: أخذ طاووسًا ونسرًا وغرابًا وديكًا.

مجاهد وعطاء بن يسار وابن جريج وابن زيد: كانت غرابًا وديكًا وطاووسًا وحمامة.

سعيد بن أيوب عن سعيد بن الحارث الغراب عن أبى هريرة السنانى: أنّها الطاووس والديك والغراب والحمامة.

قال عطاء الخراسانى: أوحى الله عزّ وجلّ لنبيّه أن أحضر أربعة من الطير: بطّة خضراء وغرابًا أسود وحمامة بيضاء وديكًا أحمر.

﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ : قرأ علىّ بن أبى طالب. كرّم الله وجهه. وأبو الأسود الدؤلى وأبو رجاء العطاردى وأبو عبد الرحمن السلمى والحسن البصرى وعكرمة والأعرج وشيبة ونافع وابن كثير وابن عامر وعاصم والكسائى وأبو عمرو ويعقوب وأيوب: بضم الصاد، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم: اضممهنّ ووجّههنّ إليك.

يقال: صرت الشىء أصوره إذا أملته.

قال امرؤ القيس:

وأفرع ميّال يكاد يصورها ... وعجز كدعص أثقلته البوايص

وقال الطرمّاح:

عفايف الأذيان أو أن يصورها ... هوى والهوى للعاشقين صروع

أى يميلها هوى.

ويقال: رجل أصور إذا كان مائل العنق.

ويقال: إنّى إليكم لأصور، أى مشتاق مائل، وامرأة صوراء، والجمع صور، مثل عوداء وعُود.

قال الشاعر:

الله يعلم أنا فى تلفتنا ... يوم الفراق إلى جيراننا صور

وقال عطاء وعطيّة وابن زيد والمؤرخ: معناه: اجمعهن واضممهن، يقال: صار يصور

صورًا إذا جمع ، قال الشاعر :

وجاءت خلعة دُهس صفايا ... يصور عنوقها أحوى زنيم

أى بضم خلعة والخلعة خيار المال ، ودهس على لون الدهاس وهو الرمل ، صفايا غزار معجبة .

قال أبو عبيدة وابن الأنبارى : معناه : قطّعهن وأصغر القطع .

قال به ابن الحمير :

فلما جذبت الحبل أطّت نسوعه ... بأطراف عيدان شديد أسورها

فأدنت لى الأسباب حتّى بلغتها ... بنهض وقد كاد ارتقائى يصورها

قال رؤبة :

❖ صرنا به الحكم واعيًا الحكما ❖

أى قطعنا الحكم به

وقرأ علقمة وعبيد بن عمير وسعيد بن جبير وطلحة وقتادة وأبو جعفر ويحيى بن رئاب والأعمش وحمزة وخلف : (فصِرهن) بكسر الصاد ، ومعناه : قطّعهن وفرّقهن . يقال : صار يصير صيرًا ، إذا قطع ، وانصار الشىء ينصار أنصارًا إذا انقطع .

قالت الخنساء :

فلو تلاقى الذى لاقته مضر ... لظلت الشم منها وهى تنصار

أى مقطّع مصدّع وتمهيد .

وأنشد أبو سهيل محمد بن محمد الأشعث الطالقانى فى العزائم :

وغلام رأيته صار كلبًا ... . . .[1] ساعتين صار غزالاً

وقال الفرّاء : هو مقلوب من صرت أصرى صريًا إذا قطعت فقدمت هاويًا كما يقال : عوث وعاث يعنى قطعهم ثم قلب فقيل صار . قال الشاعر :

يقولون إن الشام يقتل أهله ... فمن لى إذ لم آته بخلود

تغرب آبائى فهلا صراهم ... من الموت إن لم يذهبوا وجدودى

وقال بعضهم : معناه أملهنّ ، وهى لغة هذيل وسليم . وأنشد الكسائى :

وفرع يصير الجيد وحف كأنّه ... على الليت قنوان الكروم الدوالح

أى الجيد يميله من كثرته .

---

(١) بياض بالأصل المخطوط .

وعن ابن عباس فيه روايتان: (فصَرِّهن) مفتوحة الصاد مشددة الراء مكسورة من التصرية وهى الجمع منه المصرّاة.

والثانى: (فصُرَّهن) بضم الصاد وفتح الراء وتشديدها من الصرّة وهى فى معنى الجمع والشدّ أيضًا. فمن تأوّله على القطع والتفريق، ففى الكلام تقديم وتأخير تقديره: فخذ أربعة من الطير إليك فصرهن: ومَنْ فسّره على الضم ففيه إضمار معناه: فصرهن إليك، ثم قطعهنّ فحذفه فاكتفى بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا﴾ لأنّه يدلّ عليه، وهذا كما يقال: خذ هذا الثوب واجعل على كلّ رمح عندك منه علمًا، يريد قطّعهُ واجعل على كلّ رمح علمًا.

﴿ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ﴾: لفظه عام ومعناه خاص؛ لأنّ أربعة من الطير لا يبلغ الجبال كلّها، ولا كان إبراهيم عليه السلام يصل إلى ذلك فهذا كقوله عزّ وجلّ: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ (النمل: ٢٣) كقوله: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ﴾ (الأحقاف: ٢٥).

﴿جُزۡءٗا﴾: قرأ عاصم رواية أبى بكر والمفضل ﴿جُزُءًا﴾: مثقلاً مهموزًا حيث وقع.

وقرأ أبو جعفر ﴿جُزًّا﴾ مشدّدة الزاى، وقرأ الباقون مهموزًا مخففًا، وهى لغات معناها: النصيب والبعض.

قال المفسّرون: أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يذبح تلك الطيور بريشها ويقطّعها ويفرّق أجزاءها ويخلط ريشها ودماءها ولحومها بعضها ببعض. ففعل ذلك إبراهيم ثم أمره أن يجعل أجزاءها على الجبال.

واختلفوا فى عدد الأجزاء والجبال، قال ابن عباس وقتادة والربيع وابن أبى إسحاق: أُمر بأن يجعل كلّ طائر أربعة أجزاء ثم يعمد إلى أربعة أجبل فيجعل على كلّ جبل ربعًا من كلّ طائر ثم يدعوهن: تعالين بإذن الله. هذا مثل ضربه عزّ وجل لإبراهيم وأراه إياه، يقول: كما بعثت هذه الأطيار من هذه الأجبل الأربعة فكذلك أبعث الناس يوم القيامة من أرباع الأرض ونواحيها.

وقال ابن جريج والسدى: جزّأها سبعة أجزاء فوضعها على سبعة أجبل ففعل ذلك وأمسك رءوسهن عنده، ثم دعاهن: تعالين بأمر الله سبحانه، فجعل كل قطرة من دم طير تطير إلى القطرة الأخرى، وكل ريشة تطير إلى الريشة الأُخرى، وكلّ عظم يصير إلى الآخر، وكلّ بضعة تذهب إلى الأخرى، وإبراهيم ينظر حتى لقيت كلّ جثة بعضها بعضًا فى السماء بغير رأس، ثم أقبلن إليّ فكلّما جاء طائر مال برأسه فإن كان رأسه دنا منه وإن لم يكن رأسه

تأخّر حتّى يلقى كلّ طائر برأسه .

فذلك قوله : ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ هو مصدر، أى يسعين سعيًا، وقيل: نصب بنزع حرف الصفة، أى بالسعى، واختلفوا فى معنى السعى، فقال بعضهم: هو الإسراع والعدو، وقال بعضهم: مشيًا على أرجلهن كقوله سبحانه فى سورة القصص: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ (القصص: ٢٠) نظيره فى سورة الجمعة: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ (الجمعة: ٩) أى فامضوا.

والحكمة فى المشى دون الطير أن كونه أبلغ فى الحجّة وأبعد من الشبهة؛ لأنّها لو طارت لتوهم متوهم أنّها غير تلك الطير أو أن أرجلها غير سليمة والله أعلم.

وقال بعضهم: هو بمعنى الطيران، وقال النضر بن شميل: سألت الخليل بن أحمد عن قوله ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ هل يقال لطائر إذا صار سعى؟

قال: لا.

قلت: فما معنى قوله: ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾؟

قال: معناه: يأتينك وأنت تسعى سعيًا.

قال الثعلبى: سمعت أبا القاسم بن حبيب يقول: سمعت أبى يقول: سمعت أبا الحسن الأقطع وكان حكيمًا يقول: صحّ عن النبىّ ﷺ أنّه قال: «لكلّ آية ظهر وبطن ولكل حرف حدّ ومطلع».

وظاهر الآية ما ذكره أهل التفسير، وبطنها: أن إبراهيم عليه السلام أُمر بذبح أربعة أشياء فى نفسه بسكين الإياس كما ذبح فى الظاهر الأربعة الأطيار بسكين الحديد، فالنسر مثل لطول العمر والأجل، والطاووس زينة الدنيا وبهجتها، والغراب الحرص، والديك الشهوة.

قال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَمَثَلُهُۥ

كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًاۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ الآية فيها إضمار واختصار تقديرها: مثل صدقات الذين ينفقون أموالهم، فإن شئت قلت: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ زارع ﴿حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ﴾ أخرجت ﴿سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ جمع سنبلة، أدغمها أبو عمرو وأبو غزية وحمزة والكسائى، وأظهرها الباقون. فمن أدغم فلأن التاء والسين مهموزتان، ألا ترى أنهما متعاقبان. أنشد أبو عمرو:

يا لعن الله بنى السعـــلاة عمرو بن ميمون لئام النات

أراد لئام الناس فحوّل السين تاء. ومن أبرز فلأنهما كلمتان وهو الأصل واللغة الفاشية.

﴿فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾: أبو جعفر والأعمش: يتركان خمسمائة ومائة، حيث كانت استخفافًا.

وقرأ الباقون بالمد.

فإن قلت: هل رأيت سنبلة فيها مائة حبة، أو هل بلغك ذلك؟ قيل: لا ننكر ذلك ولا يستحيل، فإن يكن موجودًا فهو ذلك وإلاّ فجائز أن يكون معناه كمثل سنبلة أنبتت سبع سنابل فى كلّ سنبلة مائة حبّة أن جعل الله سبحانه ذلك فيها، ويحتمل أن يكون معناه: أنّها إذا بُذرت أنبتت مائة حبة، فيكون ما حدث عن البذر الذى كان منها من المائة الحبّة مضاهيًا لها، لأنّه كان عنها، وكذلك ما قاله الضحاك قال: أنبتت كلّ سنبلة مائة حبّة.

﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾: ما بين سبع وسبعين وسبعمائة إلى ما شاء الله عزّ وجلّ ممّا لا يعلمه إلاّ الله.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾: غنى لتلك الأضعاف ﴿عَلِيمٌ﴾: بمن ينفق.

قال الضحاك فى هذه الآية: من أخرج درهمًا ابتغاء مرضاة الله فله فى الدنيا لكلّ درهم سبعمائة درهم خلفًا عاجلاً، ولقى ألف درهم يوم القيامة.

قال الكلبى فى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية: نزلت فى عثمان بن عفّان (رضى الله عنه) وعبد الرحمن بن عوف، أمّا عبد الرحمن فإنّه جاء إلى رسول الله ﷺ بأربعة آلاف درهم صدقة فقال: كانت عندى ثمانية آلاف فأمسكت منها لنفسى وعيالى أربعة آلاف، وأربعة آلاف أقرضتها ربّى عزّ وجل.

فقال له رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت». فأمّا عثمان فقال:

علىّ جهاز مَنْ لا جهاز له فى غزوة تبوك ، فجهّز المسلمين ألف بعير بأحلاسها وأقتابها وتصدق برومة ركية كانت له على المسلمين فنزلت فيهما هذه الآية .

قال عبد الرحمن بن سمرة : جاءَ عثمان (رضى الله عنه) بألف دينار فى جيش العسرة فصبّها فى حجر النبىّ ﷺ . قال : رأيت النبىّ ﷺ يُدخل يده فيها ويقبلها ويقول : «ما ضرّ ابن عفّان ما عمل بعد اليوم» .

قال أبو سعيد الخدرى : رأيت النبىّ ﷺ رافعًا يده يدعو لعثمان (رضى الله عنه) «يا رب عثمان بن عفّان رضيت عنه فارض عنه» وما زال يدعو رافعًا يديه حتّى طلع الفجر فأنزل الله تعالى فيه ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أى فى طاعة الله .

﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا﴾ : وهو أن يمنّ عليه بعطائه ويعد نعمه عليه يكدّرها يواصل المنّة النعمة .

يقال : مَنّ يمنّ منّة ومنًّا ومنينًا إذا أنعم وأعطى . قال الله تعالى : ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ﴾ (ص : ٣٩) أى أعط ثم كثر ذلك حتّى صار ذكر النعمة والاعتداد بها منّة .

﴿وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ : بإظهار العطيّة وذكرها لمن لا يجب وقوفه عليها وما أشبه ذلك من القول الذى يُؤديه .

قال سفيان والمفضّل فى قوله : ﴿مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ : هو أن يقول أعطيتك فما شكرت .

قال الضحاك : أن لا ينفق الرجل ماله خير من أن ينفقه ثم يتّبعه منًا وأذىً .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : كان أبى يقول : إذا أعطيت رجلاً شيئًا وظننت أنّ سلامك يثقل عليه ، فكفّ سلامك عنه .

قال ابن زيد : فشىء خير من السلام؟

قال : وقالت امرأة لأبى : يا أبا أُسامة تدلّنى على رجل يخرج فى سبيل الله حقًّا فإنّهم لا يخرجون إلاّ ليأكلوا الفواكه ، فعندى جعبة وأسهم فيها فقال : والله لا بارك الله لكِ فى جعبتك ولا فى أسهمك فقد أذيتهم قبل أن تعطيهم .

فحظر الله عن عباده المن بالصنيعة واختص به صفة لنفسه ؛ لأن منّ العباد تعيير وتكدير ومَنّ الله عزّ وجلّ إنعام وأفضال وتذكير . وأنشد معاذ بن المثنى والعنبرى عن أبيه محمود بن الورّاق :

أحَسَنُ مَنْ كلّ حَسَنْ ... فى كلّ حين وزمن
صنيعـــةٌ مربوبـةٌ ... خاليـــةٌ مِنَ المننْ

قال الثعلبى: أبو على زاهر بن أحمد السرخسى قال: أنشدنا أبو ذر القرطبى:

ما تم معروفك عند امرئ ... كلّفته المعرف إعظامكا
إنّ من البر فلا تكذبن ... إكرام من أظهر إكرامكا
والمن للمنعم نقصٌ فلا ... تستفسدن بالمنّ إنعامكا
والعزّ فى الجود وبخل الفتى ... مذلّة أحببت إعلامكا

قال: وأنشدنى محمد بن القاسم قال: أنشدنى محمد بن طاهر قال: أنشدنى أبو على البصرى:

وصاحب سلفت منه إلىّ يد ... أبطا عليه مكافاتى فعادانى
لما تيقّن أنّ الدهر حاربنى ... أبدى الندامة فيما كان أولانى

وقال آخر:

أفسدت بالمن ما قدّمت من حُسن ... ليس الكريم إذا أعطى بمنّان

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾: أى كلام حسن وردّ على السائل جميل، وقيل . . . .[1] حسن.

وقال الكلبى: دعاء صالح يدعو لأخيه بظهر الغيب. قال الضحاك: قول فى إصلاح ذات البين. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾: أى مغفرة منه عليه لما علم خلّته وفاقته. قال محمد بن جرير، وقال الكلبى والضحاك: تجاوز عن ظلمه، وقال: يتجاوز عنه إذا استطال عليه عند ردّه علم الله تعالى إنّ الفقير إذا رُدّ بغير نوال شقّ عليه ذلك مما يدعو إلى بذاء اللسان أو إظهار الشكوى، وعلم ما يلحق المانع منه، فحثّه على الصفح والعفو وبيّن أن ذلك خير له ﴿مِّن صَدَقَةٍ﴾: يدفعها إليه ﴿يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾: أى مَنّ وتعيير السائل بالسؤال أو شكاية منه أو عيب أو قول يُؤذيه.

﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ﴾: عن صدقة العباد، ولو شاء لأغنى جميع الخلق ولكنّه أعطى الأغنياء لينظر كيف شكرهم وأخلى الفقراء لينظر كيف صبرهم، وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾ (النحل: ٧١) بالقرض والصدقة والمعروف . . . .[1].

﴿حَلِيمٌ﴾: إذ لم يعجّل على مَنْ يمن ويؤذى بصدقته.

وعن عبد الرحمن السليمانى مولى عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سأل السائل فلا تقطعوا عليه مسألته حتّى يفرغ منها ثم ردّوا عليه بوقار ولين أو بذل يسير أو بردٌ جميل فإنه قد يأتيكم مَنْ ليس بإنس ولا جان ينظرون كيف صنيعكم فيما خوّلكم الله عزّ وجلّ».

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

وعن بشر بن الحارث قال: رأيت أمير المؤمنين عليّ بن أبى طالب عليه السلام فى المنام فقلت: يا أمير المؤمنين تقول شيئًا لعلّ الله عزّ وجلّ ينفعنى به.

فقال: ما أحسن عطف الأغنياء على الفقراء رغبةً فى ثواب الله، وأحسن منه تَيْه الفقراء على الأغنياء ثقةً بالله عزّ وجلّ.

فقلت: يا أمير المؤمنين زدنى، فولّى وهو يقول:

قد كنت ميّتًا فصرت حيًّا وعن قليـــل تصير ميتًا

فاضرب بدار الفنـــاء بيتًا وابن بدار البقـــاء بيتًا

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾: أى لا تحبطوا أجور صدقاتكم وثواب نفقاتكم بالمنّ على السائل.

وقال ابن عباس: بالمنّ على الله تعالى والأذى لصاحبها.

ثم ضرب لذلك مثلاً فقال: ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ﴾ أى كإبطال الذى ينفق ماله ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ مراءاة وسمعة ليروا نفقته ويقولوا إنّه كريم سخى صالح ﴿وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ وهذا للمنافقين لأن الكافر معلن كفره غير مراء ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ أى مثل هذا المنافق المرائى ﴿كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ﴾ الحجر الأملس.

قال الشاعر:

مــا لى أراك كأنّى قد زرعت حصًا فى عام جدب ووجه الأرض صفوان

أمــا لزرعى آبان فأحصـــــده كمــــا يكون لوقت الزرع آبان

وهو واحد وجمع، فمن جعله جمعًا قال: واحده صفوانة، بمنزلة تمرة وتمر ونخلة ونخل.

ومن جعله واحدًا قال: جمعه صفي وصفى.

قال الشاعر:

❖ مواقع الطير على الصفى ❖

وقال الزعرى: ﴿صَفۡوَانٍ﴾ بفتح الفاء، وجمعه صِفوان مثل كَروان وكِروان ووَرشانْ ووِرشان.

﴿عَلَيۡهِ﴾: أى على ذلك الصفوان ﴿تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾: وهو المطر الشديد العظيم القطر ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلۡدًا﴾: وهو الحجر الصلب الأملس الذى لا شيء عليه.

قال تأبّط شرًا:

ولست بحلب جلب ريح وقرّة ولا بصفا صلد عن الخير معزل

وهو من الأرض ما لا ينبت، ومن الرؤوس ما لا شعر عليه.

قال رؤبة:

لـمّا رأتنى حلق المـمـوّه براق أصلاد الجبين الأجلة

يعنى الأجلح.

وهذا مثل ضربه الله تعالى لنفقة المنافق والمرائى والمؤمن الذى يمن بصدقته ويؤذى، يعنى: إن الناس يرون فى الظاهر أنّ لهؤلاء أعمالاً كما يرى التراب على هذا الصفوان، فإذا كان يوم القيامة اضمحل كلّه وبطل لأنّه لم يكن لله عزّ وجلّ كأنّه لم يكن كما أذهب الوابل ما كان على الصفوان من التراب.

﴿فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ﴾: أجرد لا شىء عليه ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾: على ثواب شىء ﴿مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾: عملوا فى الدنيا لأنّهم لم يعملوه لله تعالى وطلب ما عنده وإنّما عملوه رياء الناس وطلب حمدهم فصار ذلك معظم من أعمالهم.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: نظيره قوله تعالى فى وصف أعمال الكفّار: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ﴾ (إبراهيم: ١٨). وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾ (النور: ٣٩) الآية.

عكرمة عن ابن عباس أنّ النبىّ ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد يسمع أهل الجمع: أين الذين يعبدون الناس قوموا وخذوا أُجوركم ممن عملتم له فإنّى لا أقبل عملاً خالطه شىء من الدنيا».

عبد الله المدنى قال: بلغنى أنّ رجلاً دخل على معاوية قال: مررت بالمدينة فإذا أبو هريرة جالس فى المسجد، حوله حلقة يحدّثهم فقال: حدّثنى أبو القاسم ثم استعبر فبكى فقال: حدّثنى خليلى أبو القاسم ثم استعبر فبكى فقال: حدّثنى خليلى أبو القاسم ثم بادره الرجل فقال: إنّى رجل غريب لست من أهل البلد وقد أردت أن تحدّث عن النبىّ ﷺ كل ذلك تخنقك العبرة فأخبرنى هذا الذى أردت أن تحدّث به، قال سمعت النبى ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة يؤتى برجل قد كان خوّله مالاً فيقال كيف صنعت فيما خوّلناك؟

فقال: أنفقت وأعطيت، فقال: أردت أن يقال فلان سخى فقد قيل لك فماذا يُغنى عنك.

ثم يؤتى برجل شجاع فيقال له: ألم أشجّع قلبك؟

قال: بلى، فيقال: كيف صنعت؟ قال: قاتلت حتى أحرقت مهجتى، فيقال له: أردت أن يقال فلان شجاع وقد قيل فماذا يغنى عنك، ثم يؤتى برجل قد أُوتى علمًا فيقال له: ألم

أستحفظك العلم؟

قال: بلى، فيقال: كيف صنعت، فيقول: تعلّمت وعلّمت، فيقال: أردت أن يقال فلان عالم وقد قيل فماذا يغنى عنك، ثم قال: اذهبوا بهم إلى النار».



﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾: طلب رضا الله ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾: قال الشعبى والكلبى والضحاك: يعنى تصديقًا من أنفسهم يخرجون الزكاة طيبة بها أنفسهم يعلمون أن ما أخرجوا خيرًا لهم ممّا تركوا.

السدى وأبو صالح وأبو روق وابن زيد والمفضّل: على يقين إخلاف الله عليهم. قتادة: احتسابًا بإيمان من أنفسهم، عطاء ومجاهد: مثبّتون أى لا يضيّعون أموالهم، وكذلك قرأ مجاهد: وتثبيتًا لأنفسهم.

قال الحسن: كان الرجل إذا همّ بصدقة تثبّت إن كان لله أعطى وإن خالطه شىء أمسك، وعلى هذا القول يكون التثبيت بمعنى التثبت كقوله عزّ وجلّ: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ (المزمل: ٨) أى تبتّلاً.

سعيد بن جبير وأبو مالك: تخفيفًا فى ذنبهم. ابن كيسان: إخلاصًا وتوطينًا لأنفسهم على طاعة الله عزّ وجلّ فى نفقاتهم، الزجاج: ينفقونها مقرّين بأن الله عزّ وجلّ رقيب عليهم.

وأصل هذه الكلمة من قول السائل: ثبت فلان فى هذا الأمر إذا حققه وثبت عليه وعزمه وقوى عليه بذاته.

فثبت الله ما آتاك من حسن تثبيت موسى ونصرًا كالذى نصروا

﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: أى بستان. قال الفراء: إذا كان فى البستان نخل فهو جنّة، وإذا كان كرم فهو فردوس.

وقول مجاهد: كمثل حبّة بالحاء والباء ﴿بِرَبْوَةٍ﴾: قرأ السليمى والعطاردى والحسن وعاصم وابن عامر: ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ بفتح الراء هاهنا وفى سورة المؤمنين وهى لغة بنى تميم.

وقال أبو جعفر وشيبة ونافع وابن كثير والأعمش وحمزة والكسائى وخلف وأبو عمرو ويعقوب وأيوب بضم الراء فيهما. واختاره أبو حاتم وأبو عبيد لأنّها أكمل اللغات وأشهرها، وقول ابن عباس وأبو إسحاق السبيعى وابن أبى إسحاق: بربوة، وقرأ أشهب العقيلى: برباوة بالألف وكسر الراء فيها. وهى جميعًا المكان المرتفع المستوى الذى تجرى فيه الأنهار ولا يخلو من الماء. وإنما سمّيت ربوة لأنّها ربت وطابت وعلت، من قولهم ربا الشىء يربو إذا انتفخ وعظم، وإنّما جعلها بربوة لأن النبات عليها أحسن وأزكى.

﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾: مطر شديد كثير ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: ﴿أُكُلَهَا﴾: بالتخفيف والباقون بالتشديد وهو الثمر.

قال المفضّل: الأكل: كثرة ما فى الشىء ممّا يجود ويقوى به، يقال: ثوب كثير الأكل، أى كثير الغزل. ومعناه: وأعطت ثمرها ضعفين والضعف فى الحمل.

قال عطاء: حملت فى سنة من الريع ما تحمل غيرها فى سنتين. قال عكرمة: حملت فى السنة مرّتين.

﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾: أى فطشّ وهو أضعف المطر وألينه.

قال السدى: هو الندى.

أبو سلام عبد الملك بن سلام عن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ قال: هى أرض مصر إن لم يصبها مطر زكت وإن أصابها مطر ضعفت، وهذا مثل ضربه الله عزّ وجلّ لعمل المؤمن المخلص، يقول: كما أن هذه الجنّة تريع فى كلّ حال ولا تخلف ولا تُخيّب صاحبها سواء قلّ المطر أو كثر، كذلك يُضاعف الله عزّ وجلّ ثواب صدقة المؤمن المخلص الذى لا يمنّ ولا يُؤذى سواء قلّت نفقته وصدقته أو كثرت فلا تخيب بحال.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۞ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾: هذه الآية متصلة بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ الآية.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ

﴿وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ﴾ : وإنّما قال : ﴿وَأَصَابَهُ﴾ فردّ الماضى على المستقبل ؛ لأن العرب تلفظ تودّدت مرّة مع (لو) وهى الماضى فتقول : وددت لو ذهبتَ عنّا ، ومرّة مع (أن) وهى للمستقبل فتقول : وددت أن تذهب عنّا ، و(لو) و(أن) مضارعان فى معنى الجزاء ، ألا ترى أنّ العرب فيما جمعت بين (لو) و(أن) قال الله تعالى : ﴿وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ﴾ (آل عمران : ٣٠) . الآية كما تجمع بين (ما) و(أن) وهما جحد .

قال الشاعر

ما أنْ رأيت ولا سمعت بمثله كاليـــوم طالى أينق جرب

فلما جاز ذلك صلح أن يقال : فعل بتأويل يفعل ويفعل بتأويل فعل ، وأن ينطق بـ (لو) عنها ما كان (أن) وبـ (أن) مكان (لو) .

فمعنى الآية : ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ﴾ لو كان له جنّة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كلّ الثمرات ﴿وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ﴾ أولاد صغار ﴿ضُعَفَآءُ﴾ عجزة ﴿فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ﴾ وهى الريح العاصف التى تهب من الأرض إلى السماء كأنّها عمود .

قال الكميت :

تسدى الرياح بها ذيلا وتلحمهُ ذا معتــو من دقيق الترب موّار

فى منخل جـاء من هيف يمانيه بالسافيات وفى غربال إعصـار

وجمعه أعاصير .

قال يزيد بن المقرّع الحميرى .

أناس أجارونا وكان جـوارهم أعاصير من فسو العراق المبذر

وهذا مثل ضربه الله تعالى لنفقة المنافق المرائى ، يقول : عمل هذا المرائى لى حسنة لحين الجنّة فينتفع بها كما ينتفع صاحب الجنّة بها وإذا كبر وضعف وصار له أولاد صغار أصاب جنته إعصار ﴿فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡ﴾ أخرج ما كان إليها وضعف عن إصلاحها لكبَره وضعف أولاده عن إصلاحها لصغرهم ولم يجد هو ما يعود على أولاده به ، ولا أولاده ، مايعودون به على أبيهم فينتفى هو وأولاده فقراً عجزه متحيرين لا يقدرون على حيلة ، فكذلك يبطل الله على هذا المنافق والمرائى حين لا مستعتب له ولا توبة ولا إقالة من عبرتهما وديونهما .

قال عبيد بن عمير : ضربت مثلاً للعمل يبدأ فيعمل عملاً صالحًا فيكون مثلاً للجنة التى من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات ، ثم يسىء فى آخر عمره ، فيتمادى فى الإساءة حتّى يموت على ذلك ، فيكون الإعصار الذى فيه نار التى أحرقت الجنة

مثلاً لإساءته التي مات وهو عليه.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ﴾: تصدّقوا ﴿مِن طَيِّبَٰتِ﴾: خيار وجياد نظير قوله: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران: ٩٢). ابن مسعود ومجاهد: حلالات، دليله قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ (المؤمنون: ٥١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ (البقرة: ١٧٢).

قال النبيّ ﷺ: «قسّم بينكم أخلاقكم كما قسّم بينكم أرزاقكم وإن الله طيّب لا يقبل إلاّ طيبًا، لا يكسب عبد مالاً من حرام فيتصدق منه، فيقبل منه ولا ينفق منه، فيبارك له فيه ولا يتركه خلف ظهره إلاّ كان زاده إلى النار، وأن لا يمحو السيئ بالسيئ ولكنّه يمحو السيئ بالحسن والخبيث لا يمحو به الخبيث».

﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾: بالتجارة والصناعة من الذهب والفضّة.

قال عبيد بن رفاعة: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «يا معشر التجّار أنتم فجّار إلا من اتقى وبرّ وصَدّق وقال هكذا وهكذا وهكذا».

وقال قيس بن عروة الغفاري: كنّا على عهد رسول الله ﷺ بالمدينة نُسمّى أنفسنا السماسرة فسمّانا رسول الله ﷺ باسم هو أحسن من اسمنا فقال: «يا معشر التجّار، إنّ هذا البيع يحضره اللهو والكذب واليمين فشوبوه بالصدقة».

مكحول عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «الخير عشرة أجزاء أفضلها التجارة؛ إذا أخذ الحق وأعطاه» وقال رسول الله ﷺ: «تسعة أعشار الرزق في التجارة والجزء الباقي في السابياء».

ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر قريش لا يغلبنّكم هذه الموالي على التجارة وإنّ البركة في التجارة وصاحبها لا يفتقر إلاّ تاجر حلاّف مهين».

عاصم ابن أبي النجود عن أبي وائل قال: درهم من تجارة أحب إليّ من عشرة من عطائي.

الأعمش عن أبي إبراهيم عن عائشة قالت: قال النبي ﷺ: «أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه».

وقال سعيد بن عمير: سُئل النبيّ ﷺ: أي كسب الرجل أطيب؟

قال: «عمل الرجل بيده وكلّ بيع مبرور».

محمد بن الراضبي قال: مرّ إبراهيم النخعي على امرأة من مزاد وهي تغزل على بابها فقال: يا أم بكر أما كبرت أما آن لك أن تلقي هذا، قالت: كيف ألقيه وقد سمعت عليًا (رضي

الله عنه) يقول: إنّه من طيّبات الرزق.

﴿وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ : يعنى الحبوب والثمار التى تقتات وتدخر مما يجب فيه الزكاة. عمرو بن دينار قال: سمعت جابر بن عبد الله يقول: دخل رسول الله ﷺ على أم معبد حائطًا، فقال: «يا أم معبد من غرس هذا، أمسلم أم كافر؟».

قالت: بل مسلم، قال: «فلا يغرس المسلم غرسًا فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا طائر إلاّ كانت له صدقة إلى يوم القيامة».

هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة: أنّ النبى ﷺ قال: «التمسوا الرزق فى خبايا الأرض».

قال مالك بن دينار: قرأت فى التوراة: طوبى لمن أكل من ثمرة يديه.

﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ﴾ : قرأ ابن مسعود: ولا تأمموا بالهمز. وقرأ ابن عباس: ولا تيمموا مضمومة التاء مكسورة الميم الأولى يعنى لا توجّهوا.

وقرأ ابن كثير: (ولا تيمموا) بتشديد الياء وفتحها فيها وفى أخواتها وهى إحدى وثلاثون موضعًا فى القرآن رد الساقط وأدغم لأن فى الأصل تاءان تاء المخاطبة وتاء الأمر فحذفت تاء الفعل.

وقرأ الباقون: ولا تيمموا مفتوحة مخففة.

وهى كلها لغات بمعنى واحد. يقال: أممت فلانًا وتيممته وتأممته، إذا قصدته وعمدته.

قال الأعشى ميمون بن قيس:

تيممت قيسًا وكم دونه ... من الأرض من مهمه ذى شزن

السدى عن على بن ثابت عن الفراء قال: نزلت هذه الآية فى الأنصار كانت تخرج إذا كان جذاذ النخل من حيطانها أقناء من التمر والبسر فيعلقونه على حبل بين إسطوانتين فى مسجد رسول الله ﷺ فيأكل منه فقراء المهاجرين، وكان الرجل يعمد فيخرج قنو الحشف وهو يظن أنّه جائز عنه فى كثرة ما يوضع من الأقناء فيمن فعل ذلك.

﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ﴾ : يعنى القنو الذى فيه الحشف ولو كان أهدى لكم ما قبلتموه.

عن باذان عن ابن عباس فى هذه الآية قال رسول الله ﷺ لهم: «إنّ لله فى أموالكم حقًا فإذا بلغ حق الله فى أموالكم فأعطوا منه» وكان الناس يأتون أهل الصدقة بصدقاتهم ويضعونها فى المسجد فإذا اجتمعت قسّمها رسول الله ﷺ بينهم.

قال: فجاء رجل ذات يوم. بعدما رَقّ أهل المسجد وتفرّق هامهم. بعذق حشف فوضعه

فى الصدقة، فلما خرج رسول الله ﷺ أبصره فقال: «مَنْ جاء بهذا العذق الحشف» قالوا: لا ندرى يا رسول الله.

قال: «بئسما صنع صاحب هذا الحشف» فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال علىّ بن أبى طالب والحسن ومجاهد والضحاك: كانوا يتصدّقون بشرار ثمارهم ورذالة أموالهم فيعزلون الجيّد ناحية لأنفسهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ﴾ يعنى الرديء من أموالكم، والحشف من التمر، والعفن والزوان من الحبوب، والزيوف من الدراهم والدنانير.

﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾: محل أن نصب بنزع حرف الصفة، يعنى: بأن تغمضوا فيه.

وقرأ الزهرى: ﴿تُغَمِضُوا۟﴾ بفتح التاء وضم الميم. وقرأ الحسن بفتح التاء وكسر الميم، وهما لغتان غمض يغمض ويَغمَض. وقرأ قتادة تغمضّوا فيه من التفعيل وقرأ أبو مجلز: تغمّضوا بفتح الميم وضم التاء يعنى إلاّ أن تغمض لكم. وقرأ الباقون: تغمّضوا.

والإغماض: غض البصر وإطباق جفن على جفن. قال رؤبة:

أرَق عينىّ عن الإغمــاض … برق سرى فى عارض نهّاض

وأراد هاهنا التجويز والترخص والمساهلة، وذلك أن الرجل إذا رأى ما يكره أغمض عينه لئلاّ يرى جميع ما يفعل، ثم كثر ذلك حتى جعل كلّ تجاوز ومساهلة فى البيع إغماضًا.

قال الطرمّاح:

لم يفتنا بالوتر قوم وللضيـ … ـم رجال يرضون بالإغماض

قال على والبراء بن عازب: معناه: لو كان لأحدكم على رجل حقّ فجاءه بهذا، لم يأخذه إلاّ وهو يرى أنّه قد أغمض عن بعض حقّه. وهى رواية العوفى عن ابن عباس.

وروى الوالبى عنه: ولستم بآخذى هذا الردى لو كان لأحدكم على الآخر حقّ بحساب الجيّد حتّى تنقصوه.

الحسن وقتادة: لو وجدتموه بياعًا فى السوق ما أخذتموه بسعر الجيّد حتّى يغمّض لكم من ثمنه.

وروى عن الفراء أيضًا قال: لو أهدى ذلك لكم ما أخذتموه إلاّ على استحياء من صاحبه وغيظ أنّه بعث إليك بما لم يكن فيه حاجة، فكيف ترضون لى ما لا ترضون لأنفسكم؟!

أخبر الله تعالى أن أهل السهمان شركاء ربّ المال فى ماله فإذا كان ماله كلّه جيّدًا فهم

شركاؤه في الجيّد فأمّا إذا كان المال كلّه رديئًا فلا بأس بإعطاء الرديء لأن الواجب فيه ذلك إلاّ أن تتطوع.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ : عن نفقاتكم وصدقاتكم ﴿حَمِيدٌ﴾ : محمود في أفعاله.

وعن معبد بن منقذ أن أبا شريح الكعبي صاحب رسول الله ﷺ قال: إذا رأيتموني أتصدق شرّ ما عندي فاكووني واعلموا أنّي مجنون.

❖ ❖ ❖

﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾

﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ : أي بالفقر فحذف الباء كقول الشاعر:

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به ... فقد تركتك ذا مال وذا نسب

ويقال: وعدته خيراً ووعدته شراً، قال الله تعالى في الخير: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ (الفتح: ٢٠). وفي الشر: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ (الحج: ٧٢) فإذا لم يذكر الخير والشرّ قلت في الخير: وعدته، وفي الشر: أوعدته وأنشد أبو عمرو:

وإنّي وإنّ أوعدته أو وعدته ... مخلف إيعادي ومنجز موعدي

والفقر: سوء الحال وقلّة اليد، وفيه لغتان: الفَقر والفُقر كالضَعف والضُعْف.

وأصله من كسر الفقار، يقال: رجل فقّار وفقير، أي مكسور فقار الظهر. قال الشاعر:

وإذا تلسنني ألسنتها ... إنني لست بموهون فقر

ومعنى الآية: إنّ الشيطان يخوّفكم بالفقر ويقول للرجل أمسك مالك فإن تصدّقت افتقرت. ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ : أي البخل ومنع الزكاة.

وزعم مقاتل بن حيان أنّ كلّ فحشاء في القرآن فهو الزنا إلاّ في هذه الآية.

﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم﴾ : أي يجازيكم، وعد الله إلهام وتنزيل، ووعد الشيطان وساوس وتخيّل.

﴿مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾ : لذنوبكم ﴿وَفَضْلًا﴾ : أي رزقًا وخلفًا ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ : غني ﴿عَلِيمٌ﴾ : يقال: مكتوب في التوراة: عبدي أنفق من رزقي، أبسط عليك من فضلي.

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾: قال السدي: هي النبوة. ابن عباس وقتادة وأبو العالية: علم القرآن: ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدّمه ومؤخّره، وحلاله وحرامه.

الضحاك: القرآن والحكم فيه. وقال: في القرآن مائة وتسع آيات ناسخة منسوخة، وألف آية حلال وحرام، ولا يسع المؤمنين تركهن حتّى يتعلّموهن فيعلموهن، ولا تكونوا كأهل النهروان تأوّلوا آيات من القرآن في أهل القبلة وإنّما نزلت في أهل الكتاب، جهلوا علمها فسفكوا بها الدماء وشهدوا علينا بالضلال وانتهبوا الأموال.

فعليكم بعلم القرآن فإنّه مَنْ علم فيما أنزل لم يختلف في شيء منه نفع أو انتفع به. مجاهد: أما إنّها ليست بالنبوّة ولكنّها القرآن والعلم والفقه.

وروى ابن أبي نجيح: الإصابة في القول والفعل. ابن زيد: العقل. ابن المقفّع: كلّ قول أو فعل شهد العقل بصحّته. إبراهيم: الفهم. عطاء: المعرفة بالله عزّ وجلّ. ربيع: خشية الله. سهل بن عبد الله التستري: الحكمة: السنة.

وقال بعض أهل الإشارة: العلم الرباني. وقيل: إشارة بلا علّة، وقيل: إشهاد الحق تعالى على جميع الأحوال.

أبو عثمان: هو النور المفرّق بين الإلهام والوسواس. وقيل: تجريد السرّ لورود الإلهام. القاسم: أن يحكم عليك خاطر الحق ولا تحكم عليك شهوتك.

بندار بن الحسين وقد سئل عن قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾. فقال: سرعة الجواب مع إصابة الصواب. وقال أهل اللغة: كلّ فضل جرّك من قول أو فعل وهي أحكام الشيء المفضّل.

. . . .[1] الحكمة الرد على الصواب، وحكمة الدابة من ذلك لأنّها تردّها إلى القصد.

منصور بن عبد الله قال: سمعت الكتابي يقول: إنّ الله بعث الرسل بالنصح لأنفس خلقه، فأنزل الكتب لتنبيه قلوبهم وأنزل الحكمة لسكون أرواحهم، والرسول داع إلى الله، والكتاب داع إلى أحكامه، والحكمة مشيرة إلى فضله.

﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾: قرأ الربيع بن خيثم: (تؤتي الحكمة)، (ومَنْ تؤت الحكمة) بالتاء فيهما. وقرأ يعقوب (ومن يؤت): بكسر التاء أراد مَنْ يؤته الله. وقرأ الباقون ﴿وَمَن يُؤْتَ﴾: بفتح التاء على الفعل المجهول.

و﴿وَمَن﴾: في محل الرفع على اسم ما لم يسم فاعله، والحكمة خبرها. الحسن بن دينار

(١) بياض بالأصل المخطوط.

عن الحسن فى قوله: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ هو الورع فى دين الله عزّ وجلّ.

﴿فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ﴾: يتعظ ﴿إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: ذو العقول، واللب من العقل ما صفا من دواعى الهوى.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾: فيما فرض الله عليكم ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾: أو ما أوجبتموه أنتم على أنفسكم فوفّيتم به.

والنذر نذران: نذرٌ فى الطاعة، ونذر فى المعصية. فإذا كان لله فالوفاء به واجب وفى تركه الكفّارة، وما كان للشيطان فلا وفاء ولا كفارة.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ﴾: ويحفظه حتّى يجازيكم به. وإنّما قال ﴿يَعْلَمُهُۥ ۗ﴾: ولم يقل يعلمها؛ لأنّه ردّه إلى الآخر منها كقوله: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾ (النساء: ١١٢). قاله الأخفش، وإن شئت حملته على ما، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ﴾ (البقرة: ٢٣١) ولم يقل بها.

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾: الواضعين النفقة والنذر فى غير موضعها بالرياء والمعصية ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾: أعوان يدفعون عذاب الله عزّ وجلّ عنهم، والأنصار: جمع نصير، مثل شريف وأشراف وحبيب وأحباب.

﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾: وذلك أنهم قالوا: يا رسول صدقة السر أفضل أم صدقة العلانيّة؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أى تظهروها وتعلنوها ﴿فَنِعِمَّا هِىَ﴾: أى نعمت الخصلة هى. و(ما): فى محل الرفع و﴿هِىَ﴾: لفظ فى محل النصب كما تقول: نِعم الرجل رجلاً، فإذا عرفت رفعت فقلت: نعم الرجل زيد.

فأصله نعم ما فوصلت وأدغمت، وكان الحسن يقرؤها فنعم ما مفصولة على الأصل، وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع غير ورش وعاصم برواية أبى بكر. وأبو عمرو وأبو بحرية: فنعما بكسر النون وجزم العين ومثله فى سورة النساء، واختاره أبو عبيدة ذكر أنّها لغة النبى ﷺ قال لعمرو بن العاص: «نعمّا بالمال الصالح للرجل الصالح» هكذا روى فى الحديث.

وقرأ ابن عامر ويحيى بن ثابت والأعمش وحمزة والكسائى وخلف بفتح النون والعين فيهما.

وقرأ طلحة وابن كثير ويعقوب وأيوب بكسر النون والعين واختاره أبو حاتم، وهى لغات صحيحة، ونعَم ونِعم لغتان جيدتان، ومن كسر النون والعين أتبع الكسرة الكسرة لئلا يلتقى

ساكنان: سكون العين وسكون الإدغام.

﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾ : تسرّوها ﴿وَتُؤْتُوهَا﴾ تعطوها ﴿ٱلْفُقَرَآءَ﴾ فى السر ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وأفضل، وكلٌّ مقبول إذا كانت النيّة صادقة ولكن صدقة السر أفضل.

وفى الحديث: «صدقة السر تطفئ غضب الرب وتطفى الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وتدفع سبعين بابًا من البلاء». حفص بن عاصم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلّهم الله فى ظلّه يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه: الإمام العدل، وشاب نشأ فى عبادة الله عزّ وجلّ، ورجل قلبه معلّق بالمساجد، ورجلان تحابا فى الله فاجتمعا عليه وتفرّقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها فقال: إنّى أخاف الله تعالى، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لم تعلم يمينه ما ينفق شماله، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه».

﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم﴾ : شهر بن حوشب عن ابن عباس أنّه قرأ ويكفّر بالياء والرفع على معنى يكفّر الله. وقرأ ابن كثير وعاصم وأبو عمرو يعقوب: بالنون ورفع الراء على الاستئناف، أى نحن نكفّر على التعظيم. وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع والأعمش وحمزة والكسائى وأيوب وأبو حاتم: بالنون والجزم معًا على الفاء التى فى قوله: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لأن موضعها جزم الجزاء.

﴿مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ : أدخل ﴿مِّن﴾ : للتبعيض، وعلّته: المشيئة ليكون العباد فيها على وجل ولا يتّكلوا. وقال نحاة البصرة: معناه: الإسقاط، تقديره: ونكفّر عنكم سيئاتكم.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ : وقال أهل المعانى: هذه الآية فى صدقة التطوّع لإجماع العلماء أن الزكاة المفروضة إعلانها أفضل كالصلاة المكتوبة. فالجماعة أفضل من أفرادها وكذلك سائر الفرائض لمعنيين: أحدهما ليقتدى به الناس. والثانى إزالة التهمة لئلاّ يسىء الناس به الظن ولا رياء فى الغرض، فأمّا النوافل والفضائل فإخفاؤها أفضل لبعدها من الرياء والآفات، يدل عليه ما روى عمّار الذهبى عن أبى جعفر أنّه قال فى قوله: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾ قال: يعنى الزكاة المفروضة، ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ : يعنى التطوّع.

وعن معد بن سويد الكلبي يرفعه: أنّ النبىّ ﷺ سُئل عن الجهر بالقراءة والإخفاء بها فقال: «هى بمنزلة الصدقة﴿فَنِعِمَّا هِىَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾». كثير بن مرّة عن عقبة ابن عامر عن النبىّ ﷺ قال: «المسرّ بالقرآن كالمسر بالصدقة والجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة».

وروى على بن طلحة عن ابن عباس فى هذه قال: جعل الله عزّ وجلّ صدقة التطوّع فى السر تفضل علانيتها بسبعين ضعفًا، وصدقة الفريضة تفضل علانيتها بخمسة وعشرين ضعفًا، وكذلك جميع الفرائض والنوافل.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾: قال الكلبى: اعتمر رسول الله ﷺ عمرة القضاء وكانت معه فى تلك العمرة أسماء بنت أبى بكر، فجاءتها أُمّها قتيلة وجدّتها تسألانها وهما مشركتان، فقالت: لا أعطيكما شيئًا حتّى أستأمر رسول الله ﷺ فإنّكما لستما على دينى، فاستأمرته فى ذلك فأنزل الله تعالى هذه الآية، فأمرها رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية أن تتصدق عليهما فأعطتهما ووصلتهما.

قال الكلبى: ولها وجه آخر، وذلك أنّ ناسًا من المسلمين كانت لهم رضاع فى اليهود وكانوا يُنفقونهم قبل أن يسلموا فلما أسلموا كرهوا أن يُنفقوهم وأرادوا أن يُسلموا، فاستأمروا رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية فأعطوهم بعد نزولها.

وقال سعيد بن جبير: كانوا يتصدّقون على فقراء أهل الذمّة، فلما كثر فقراء المسلمين قال رسول الله ﷺ: «لا تتصدّقوا إلاّ على أهل دينكم». فأنزل الله ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ فتمنعهم الصدقة ليدخلوا فى الإسلام حاجة منهم إليها.

﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾: وأراد بالهدى: التوفيق والتعريف؛ لأنّه كان على رسول الله ﷺ هدى البيان والدعوة.

وعن عمر بن عبد العزيز قال: بلغنى أن عمر بن الخطاب رأى رجلاً من أهل الذمّة يسأل على أبواب المسلمين فقال: ما أنصفناك أخذنا منك الجزية ما دمت شابًا ثم ضيعناك اليوم، فأمر أن تجرى عليه قوته من بيت المال.

﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾: شرط وجزاء، والخير هاهنا المال ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾: شرط كالأوّل لذلك حذف النون منها فى الموضعين.

﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾: جزاؤه، كأن معناه: يؤدّى إليكم، فكذلك أدخل إلى ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾: لا تُظلمون من ثواب أعمالكم شيئًا.

واعلم أنّ هذه الآية فى صدقة التطوع، أباح الله أن يتصدّق المسلم على المسلم والذمّى، فأمّا صدقة الفرض فلا يجوز إلا للمسلمين، وهما أهل السهمين الذين ذكرهم الله تعالى فى

سورة التوبة ، ثم دلّهم على خير الصدقات وأفضل النفقات ، فقال الله تعالى :

﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ : واختلف العلماء فى موضع هذه اللام ، فقال بعضهم : هو مردود على موضع اللام من قوله ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ : كأنّه قال : وما تنفقوا من خير فللفقراء وإنّما تُنفقون لأنفسكم ثوابها راجع إليكم ، فلمّا اعترض الكلام قوله ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ : وأدخل الفاء التى هى جواب الجزاء فيها ، تركت إعادتها فى قوله للفقراء إذ كان معنى الكلام مفهومًا .

وقال بعضهم : خبر محذوف تقديره : للفقراء ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفتهم كذا ، حق واجب ، وهم فقراء المهاجرين وكانوا نحوًا من أربعمائة رجل ليس لهم مساكن بالمدينة ولا عشائر جعلوا أنفسهم فى المسجد يتعلّمون القرآن بالليل ويرضخون بالنهار . . . .(1) وكانوا يخرجون فى كل سرية يبعثها رسول الله ﷺ . . . .(1) يومًا على أصحاب الصفّة فرأى فقرهم وجهدهم فثبَّت قلوبهم فقال : «أبشروا يا أصحاب الصفّة ، فمن بقى من أمتى على النعت الذى أنتم عليه راضيًا بما فيه فإنّهم من رفقائى» .

وروى أنّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه أرسل إلى سعيد بن عامر بألف درهم فجاء كئيبًا حزينًا فقالت له امرأته : حدث أمر ، قال : أشدّ من ذلك ، ثم قال : أرينى درعَكِ الخلق فشقّه وجعله صُررًا ثم قام يصلّى ويبكى إلى الغداة ، فلما أصبح قام بالطريق فجعل ينفق كل صرّة حتى أتى على آخرها ، ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يجىء فقراء المهاجرين يوم القيامة للحساب فيقولون هل أعطيتمونا شيئًا فتحاسبوننا عليه فيدخلون الجنّة قبل الأغنياء بخمسمائة عام ، حتى إنّ الرجل من الأغنياء ليدخل فى غمارهم فيؤخذ فيستخرج ، فأراد عمر أن يجعلنى ذلك الرجل وما يسرّنى أنّى كنت ذلك الرجل وأن لى الدنيا وما فيها» .

﴿أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ : أى حبسوا ومنعوا فى طاعة الله ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا﴾ : سيرًا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ : وتصرّفًا فيها للتجارة وطلب المعيشة ، نظيره قوله تعالى : ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (المزمل : ٢٠) .

قال الشاعر :

قليل المال يصلحه فيبقى ... ولا يبقى الكثير مع الفساد

وحفظ المال أيسر من بغاة ... وضرب فى البلاد بغير زاد

قال قتادة : معناه : حبسوا أنفسهم فى سبيل الله عزّ وجلّ للغزو والعبادة فلا يستطيعون ضربًا فى الأرض ولا يتفرّغون إلى طلب المعاش . وقال ابن زيد : من كثرة ما جاهدوا لا

---

(1) بياض بالأصل المخطوط .

يستطيعون ضربًا فى الأرض، فصارت الأرض كلّها حربًا عليهم لا يتوجّهون جهة إلاّ ولهم فيها عدو.

وقال سعيد: هؤلاء قوم أصابتهم جراحات مع رسول الله ﷺ فصاروا زمنى فأحصرهم المرض والزمانة عن الضرب فى الأرض، واختاره الكسائى، قال: أحصروا من المرض، فلو أراد الحبس لقال: حصروا، وإنّما الإحصار من الخوف أو المرض، والحصر الحبس فى غيرهما.

﴿يَحْسَبُهُمُ﴾: قرأ الحسن وأبو جعفر وشيبة والأعمش وحمزة وعاصم يحسب وبابه بفتح السين فى جميع القرآن.

والباقون بالكسر. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم وقيل إنّها لغة النبىّ ﷺ.

عن عاصم بن لقيط بن صبرة عن أبيه وافد بنى المشفق قال: قدمت على رسول الله ﷺ أنا وصاحب لى فذكر حديثًا فقال ﷺ للراعى: «اذبح لنا شاة»، ثم قال: «لا تحسبن أنا إنّما ذبحناها من أجلكم - ولم يقل يحسبن أنا إنما ذبحناها لك -، ولكن لنا مائة من الغنم فإذا زادت شاة ذبحنا شاة لا نريد أن تزيد على المائة».

﴿ٱلْجَاهِلُ﴾: بأمرهم وحالهم ﴿أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾: من تعففهم عن السؤال، والتعفف: التفعل من العفّة وهو الترك، يقال: عفّ عن الشىء إذا كفّ عنه، وعفيف إذا تكلّف فى الإمساك.

قال رؤبة:

❖ فعفّ عن إسرارها بعد الغسق ❖

وقال محمد بن الفضل: يمنعهم علوّ همّتهم رفع جوابهم إلى مولاهم.

﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ﴾: قرأ حمزة والكسائى بالإمالة. الباقون بالتفخيم، والسيما والسيميا: العلامة التى يعرف بها الشىء، وأصلها من السِّمة، واختلفوا فى السيميا التى يعرفون بها.

فقال مجاهد: هو التخشّع والتواضع. الربيع والسدى: أثر الجهد من الحاجة والفقر. الضحاك: صفرة ألوانهم من الجوع والضر، ابن زيد: رثاثة ثيابهم فالجوع خفى على الناس، يمان: النحول والسكينة. الثورى: فرحهم بفقرهم واستقامة أحوالهم عند موارد البلاء عليهم، المرتضى: غيرتهم على فقرهم وملازمتهم إياه. أبو عثمان: إيثار ما يملكون مع الحاجة إليه.

قال بعضهم: تطيب قلوبهم وبشاشة وجوههم وحسن حالهم ونور أسرارهم وجولان

أرواحهم فى ملكوت ربّهم.

﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾: قال عطاء: يعنى إذا كان عنده غداء لا يسأل عشاء، فإذا كان عنده عشاء لم يسأل غداء. وقال أهل المعانى: لا يسألون الناس إلحافًا ولا غير إلحاف لأنّه قال من التعفف، والتعفف ترك السؤال أصلاً وقال أيضًا: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ﴾ ولو كانت المسألة من شأنهم لما كان للنبى ﷺ إلى معرفتهم بالعلامة والدلالة حاجة، إذ السؤال يغنى عن حالهم وهذا كما قلت فى الكلام: قال ما رأيت مثل هذا الرجل، ولعلّك لم ترَ مثله قليلاً ولا كثيرًا، قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة:٨٨) وهم كانوا لا يؤمنون قليلاً ولا كثيرًا.

وأنشد الزجاج:

على لاحب لا يهتــدى لمنارة ... إذا ساقه العود النباطى جرجرا

معناه: ليس له منار فيهتدى له.

كذلك معنى الآية: ليس لهم سؤال فيقع فيه إلحاف، والإلحاف: الإلحاح واللجاج فى السؤال، وهو مأخوذ من لحف الجبل وهو خشونته، كأنّه استعمل الخشونة فى الطلب.

روى هشام عن ابن سيرين عن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ سأل وله أربعون درهمًا فقد ألحف».

قال هشام: قال الحسن: صاحب الخمسين درهمًا غنى عطاء بن يسار عن أبى هريرة أن النبىّ ﷺ قال: «ليس المسكين الذى ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان، إنّما المسكين المتعفّف». اقرءوا إن شئتم ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾.

الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله عزّ وجلّ يحب أن يرى أثر النعمة على عبده، ويكره البؤس والتبؤس، ويحب الحليم المتعفّف من عباده ويبغض الفاحش البذىء السائل اللحف».

وعن قبيصة بن مخارق قال: أتيت النبى ﷺ استعنته فى حمالة فقال: «أقم عندنا حتى تأتينا الصدقة فإما أن نحملها وإما أن نعينك فيها، واعلم أنّ المسألة لا تحل إلاّ لثلاثة: لرجل يحمل حمالة عن قوم فسأل فيها حتّى يؤديها ثم يمسك ورجل أصابته حاجة فأذهبت ماله فسأل حتّى يصيب سدادًا من عيش أو قوامًا من عيش ثم يُمسك، ورجل أصابته فاقة حتى شهد له ثلاثة من ذوى الحجا من قومه فسأل حتّى يصيب سدادًا أو قوامًا من عيش ثم يمسك، فما سوى ذلك من المسائل سحت يأكله صاحبه يا قبيصة سحتًا».

وروى قتادة عن هلال بن حصن عن أبى سعيد الخدرى قال: أعوزنا مرّة فقيل لى: لو

أتيت رسول الله ﷺ فسألته ، فانطلقت إليه معتفيًا ، فقال أوّل ما واجهني به : «من استعفف عفه الله ، ومَن استغنى أغناه الله ، ومن سألنا لم ندّخر عنه شيئًا نجده» .

قال : فرجعت إلى نفسي فقلت : ألا أستعفف فعفّني الله ، فرجعت فما سألت نبي الله ﷺ شيئًا بعد ذلك من حاجة حتّى مالت علينا الدنيا فغرقتنا إلاّ مَنْ عصمه الله .

وقال ﷺ : «إنّ الله عزّ وجلّ كره لكم القيل والقال وكثرة السؤال وإضاعة المال ونهى عن عقوق الأمّهات ووأد البنات وعن منع وهات» .

وقال ﷺ : «الأيدي ثلاثة : فيد الله العليا ، ويد المعطي الوسطى ويد السائل السفلى إلى يوم القيامة . ومَنْ سأل وله ما يغنيه جاءت مسألته يوم القيامة كدوحًا أو خموشًا أو خدوشًا في وجهه» . قيل : وما غناه يا رسول الله؟ قال : «خمسون درهما أو عدّها من الذهب» .

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ : قال : ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ : وعليه يجازيه .



﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ الآية . مجاهد عن ابن عباس قال : كان عند عليّ بن أبي طالب - كرّم الله وجهه - أربعة دراهم لا يملك غيرها ، فتصدق بدرهم سراً ، ودرهم علانيّة ، ودرهم ليلاً ودرهم نهاراً ، فنزلت : ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ الآية .

وعن يزيد بن روان قال : ما نزل في أحد من القرآن ما نزل في علي بن أبي طالب رضي الله عنه . أبو صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «يسبق الدرهم مائة ألف» قالوا : يا رسول الله وكيف يسبق الدرهم مائة ألف؟ قال : «رجل له درهمان فأخذ أحدهما وتصدّق به ، ورجل . . . .[1] فأخرج من غرضها مائة ألف فتصدّق بها» .

وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس ، قال : لما أنزل الله عزّ وجلّ ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية ، بعث عبد الرحمن بن عوف بدنانير كثيرة إلى أصحاب الصفة حتى

(١) بياض بالأصل المخطوط .

أغناهم، وبعث عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في جوف الليل بوسق من تمر ـ والوسق ستون صاعًا ـ وكان أحب الصدقتين إلى الله عزّ وجلّ صدقة عليّ رضي الله عنه فأنزل الله فيهما ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم﴾ الآية، فعنى بالنهار علانية صدقة عبد الرحمن بن عوف وبالليل سرّاً صدقة عليّ رضي الله عنه.

وقال أبو أمامة وأبو الدرداء ومكحول والأوزاعي ورباح بن يزيد: هم الذين يمتطون الخيل في سبيل الله يُنفقون عليه بالليل والنهار سرّاً وعلانية، نزلت فيمن لم يرتبط الخيل تخيلاً ولا افتخاراً، يدلّ عليها ما روى سعيد بن سنان عن يزيد بن عبد الله بن غريب عن أبيه عن جدّه عن النبي ﷺ ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ قال: «نزلت في أصحاب الخيل». قال غريب: والجن لا يقرب بيتًا فيه عتيق من الخيل، ويروى أنه أشار إلى بعض خيل كانت في الخيانة فأشار إلى عتاق تلك الخيل فقال: هؤلاء الذين يُنفقون أموالهم بالليل والنهار. الآية.

وعن حبس بن عبد الله الصنعاني أنّه قال: حدّث ابن عباس في هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ فقال: في علف الخيل. وعن أبي شريح عمّن حدّثه عن أبي الفقيه أنّه قال: مَنْ حبس فرسًا كان ستره من النار، وسقطت منه حسنة، وكان أبو هريرة إذا مرّ بفرس سمين تلا هذه الآية، وإذا مرّ بفرس أعجف سكت.

شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله ﷺ: «من ارتبط فرسًا في سبيل الله فأنفق عليه احتسابًا، كان شبعه وجوعه وريّه وظمؤه وبوله وروثه في ميزانه يوم القيامة».

عبد الرحمن بن يزيد عن جابر عن محكول قال: قال رسول الله ﷺ: «المنفق في سبيل الله على فرسه كالباسط كفّيه بالصدقة».

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾: قال الأخفش. . . . [1]: إنّه جعل الخبر بالفاء إذا كان الاسم الذي وصل به . . . . [1] لأنّه في معنى من وجواب من بالفاء في الجزاء، ومعنى الآية: مَنْ أنفق فله أجره.

﴿عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾: ومعنى الربا: الزيادة على أصل المال في غير بيع يقال: ربا الشيء إذا زاد، وأربى عليه وعامل عليه إذا زاد عليه في الربا. قال عمر رضي الله عنه: لا تبيعوا الذهب بالذهب إلاّ مثلاً بمثل، ولا تبيعوا الورق بالورق إلاّ مثلاً بمثل، ولا تبيعوا الذهب بالذهب أحدهما غائب والآخر حاضر، وإن استنظرك حتّى يلج بيته فلا تنظره إلاّ يدًا بيد هات وهذا أني أخاف عليكم الربا.

(١) بياض بالأصل المخطوط.

قالوا: وقياس كتابته بالياء لكسرة أوّله، وقد كتبوه فى القرآن بالواو. قال الفراء: إنّما كتبوه كذلك لأنّ أهل الحجاز تعلّموا الكتابة من أهل الحيرة ولغتهم الربوا، فعلّموهم صورة الحرف على لغتهم فأخذوه كذلك عنهم. وكذلك قرأها الضحاك الربوا بالواو.

وقرأ حمزة والكسائى بالإمالة مكان كسرة الراء. وقرأ الباقون بالتفخيم بفتحة الباء، قالوا: اليوم فأنت فيه (بالخيار إن شئت) كتبته على ما فى المصحف موافقة له، وإن شئت بالياء وإن شئت بالألف. ومعنى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ يأكلونه حق الأكل لأنّه معظم الأمر.

والربا فى أربعة أشياء: الذهب، والفضّة، والمأكول، والمشروب. فلا يجوز بيع بعضها ببعض إلاّ مثلاً بمثل ويداً بيد، وإذا اختلف الصنفان جاز التفاضل فى النقد وحرّم فى النسيئة، ولا يجوز صاع بر بصاعين لا نقداً ولا نسيئة لأنّهما جنس واحد، وكذلك الذهب بالذهب مثقال باثنين لا نقداً ولا نسيئة، وكذلك الفضة بالفضّة، وكذلك صاع بر بصاعين شعير وصاع شعير بصاعين بر نقداً ولا يجوز نسيئة، ويجوز مثقال بعشرين درهمًا أو أقل أو أكثر نقداً ولا يجوز نسيئة، وجماع ما شايع الناس عليه ثلاثة أشياء: أحدها: ما يعتدى به ممّا كان مأكولاً أو مشروباً. والثانى: ما كان ثمنًا للأشياء وقيمة للمتلفات وهو الذهب والفضّة فهذان فيهما الربا فلا يجوز بيع شىء متفاضلاً نقداً ونسيئة، والصنف الثالث: ما عدا هذين مما لا يؤكل ولا يشرب ولا يكون ثمنًا، فلا ربا فيه فيجوز بيع بعضه ببعض متفاضلاً نقداً ونسيئة. فهذا جملة القول فيما فيه الربا على مذهب الشافعى.

وقال مالك: كلّ ثمن أو ما يقتات أو ما يصلح به القوت فهو الذى فيه الربا.

وقال أهل العراق: كلّ مكيل أو موزون فيه الربا. وقال أهل الحجاز ما روى محمد بن سيرين عن مسلم بن يسار وعبد الله بن عتيك قالا: جمع المنزل بين عبادة بن الصامت ومعاوية، فقال عبادة: نهانا رسول الله ﷺ عن بيع الذهب بالذهب والورق بالورق والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر، وقال أحدهما: والملح بالملح، وقال الآخر: إلاّ مثلاً بمثل ويداً بيد، وأمرنا أن نبيع الذهب بالورق والورق بالذهب والبر بالشعير والشعير بالبر ويداً بيد كيف شئنا قال أحدهما: فمن زاد أو ازداد فقد أربى.

قوله تعالى: ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ يعنى يوم القيامة من قبورهم ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ﴾ أى يصرعه ويخبطه ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ وأصل الخبط الضرب والوطء ويقال ناقة خبوط، التى تطأ الناس وتضرب بقوائمها الأرض. قال زهير:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب   تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم

﴿مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾ : الجنون. يقال: مسّ الرجل وألس فهو ممسوس ومالوس، إذا كان مجنونًا، وأصله مسّ الشيطان إياه. ومعنى الآية: إنّ آكل الربا يبعثه الله يوم القيامة مجنونًا. . . . (١) وذلك علامة أهل الربا يبعثون وفيهم خبل من الشيطان. قاله قتادة.

أبو هارون العبدى عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ فى قصّة الإسراء، قال: «فانطلق بى جبرائيل إلى رجال كثير كلّ رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم متصدّين على سابلة آل فرعون وآل فرعون يعرضون على النار غدواً وعشيًا.

قال: فيقبلون مثل الإبل المنهومة يخبطون الحجارة لا يسمعون ولا يعقلون فإذا أحسّ بهم أصحاب تلك البطون قاموا فتميل بهم بطونهم فيصرعون، ثم يقوم أحدهم فتميل بطنه فيصرع فلا يستطيعون أن يبرحوا حتّى يغشاهم آل فرعون فيطؤونهم مقبلين ومدبرين فذلك عذابهم فى البرزخ بين الدنيا والآخرة». قال: «وآل فرعون يقولون اللّهمّ لا تقم الساعة أبدًا قال: ويوم يقال لهم: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ (غافر:٤٦) قال: قلت: يا جبرائيل مَنْ هؤلاء؟ قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَـٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ﴾».

حمّاد بن سلمة عن علىّ بن زيد عن أبى الصلت عن أبى هريرة أنّ رسول الله ﷺ لما أُسرىَ به رأى فى السماء رجالاً بطونهم كالبيوت فيها الحيّات تُرى خارج بطونهم فقلت: «مَنْ هؤلاء يا جبرائيل؟».

قال: هؤلاء أكلة الربا ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ﴾ أى ذلك الذى نزل بهم لقولهم هكذا واستحلالهم إياه.

وذلك أنّ أهل الجاهلية كان أحدهم إذا أجّل ماله على غريمه فطالبه بذلك يقول الغريم لصاحب الحقّ: زدنى فى الأجل وأمهلنى حتّى أزيدك فى مالك فيفعلان ويقولان: سواء علينا الزيادة فى أوّل البيع بالربح أو عند محل المال لأجل التأخير. فكذّبهم الله تعالى فقال: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ﴾ تذكير وتخويف. قال السدى: أمّا الموعظة فالقرآن، وإنّما ذكر الفعل لأنّ الموعظة والوعظ واحد.

وقرأ الحسن: فمن جاءته موعظة كقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ (يونس:٥٧).

﴿مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ﴾ : من أكل الربا ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ أى ما مضى من ذنب قبل النهى فهو مغفور له ﴿وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ يعنى النهى إن شاء عصمه حتّى يثبت على الانتهاء وإن شاء خذله حتّى

(١) بياض بالأصل المخطوط.

يعود، وقيل: وأمره إلى الله فيما يأمره وينهاه ويحلّ له ويحرّم عليه وليس إليه من أمر نفسه شيء. وفيه يقول محمود الورّاق:

إلى الله كلّ الأمر فى كلّ خلقه ... وليس إلى المخلوق شيء من الأمر

﴿وَمَنْ عَادَ﴾: بعد التحريم والموعظة إلى أكل الربا مستحلاً له ﴿فَأُولَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أبو سلمة عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الربا سبعون بابًا أهونها عند الله كالذى ينكح أمّه».

وعن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن عبد الله بن مسعود قال: لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهده.

الحسن عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بقرية هلاكًا أظهر فيهم الربا».

﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ﴾: أى ينقصه ويهلكه ويذهب ببركته وإن كان كثيرًا كما يمحق القمر. وعن عبد الله بن مسعود رفعه إلى النبى ﷺ قال: «إنّ الربا وإن كثر فإن عاقبته إلى قلّة».

وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ﴾ يعنى لا يقبل منه صدقة ولا جهاداً ولا حجًا ولا صلة.

﴿وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾: أى يزيدها ويكثرها ويبارك فيها فى الدنيا ويضاعف الأجر والثواب فى العقبى وإن كانت قليلة، قال عزّ من قائل: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾ (البقرة: ٢٤٥).

القاسم بن محمد قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله عزّ وجلّ يقبل الصدقات ولا يقبل منها إلاّ الطيّب ويأخذها بيمينه ويربيها كما يربّى أحدكم مهره أو فصيله حتّى إن اللقمة لتصير مثل أحد» وتصديق ذلك فى كتاب الله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ (التوبة: ١٠٤).

﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ قال يحيى بن معاذ: لا أعرف حبّة تزن جبال الدنيا إلاّ الحبّة من الصدقة ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ بتحريم الربا مستحل له ﴿أَثِيمٍ﴾.



﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٢٧٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ۝٢٧٩ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٢٨٠ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝٢٨١﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ قال عطاء وعكرمة: نزلت هذه الآية فى العبّاس بن عبد المطلب وعثمان بن عفّان وكانا قد أسلفا فى التمر، فلما حضر الجذاذ قال لهما صاحب التمر: لا يبقى ما يكفى عيالى إن أنتما أخذتما حقّكما كلّه فهذا لكما أن تأخذا النصف وتؤخّرا النصف وأضعف لكما فقبلا، فلمّا جاء الرجل طلبا الزيادة، فبلغ ذلك إلى رسول الله ﷺ فنهاهما وأنزل الله هذه الآية فسمعا وأطاعا وأخذا رؤوس أموالهما.

وقال السدى: نزلت فى العبّاس بن عبد المطلب وخالد بن الوليد وكانا شريكين فى الجاهليّة يسلّفان فى الربا إلى بنى عمرو بن عمير. ناس من ثقيف. ولهما أموال عظيمة فى الربا، فأنزل الله تعالى هذه الآية فقال النبى ﷺ: «وإنّ كلّ ربا من ربا الجاهلية موضوع وأوّل الربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب، وكلّ دم من دم الجاهليّة موضوع وأوّل دم أضعه دم ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب. كان مُرضعًا فى بنى ليث قتله هذيل».

وقال مقاتل: أنزلت فى أربعة إخوة من ثقيف: مسعود وعبد ياليل وحبيب وربيعة، وهم بنو عمرو بن عمير بن عوف الثقفى وكانوا يداينون المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم وكانوا يربون، فلما ظهر النبىّ ﷺ على الطائف وصالح ثقيفًا أسلم هؤلاء الأربعة الإخوة وطلبوا رباهم من بنى المغيرة، فقالت بنو المغيرة: والله ما نعطى الربا فى الإسلام وقد وضعه الله ورسوله عن المؤمنين، فما يجعلنا أشقى الناس بهذا، فاختصموا إلى عتّاب بن أسيد بن أبى العاص بن أميّة. وكان عامل رسول الله ﷺ على مكّة وقال: «أبعثك على أهل الله» فكتب عتّاب إلى النبىّ ﷺ بقصّة الفريقين وكان ذلك مالاً عظيمًا فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ وذر لفظ تهديد، وقرأ الحسن ما بقى بالألف وهى لغة طىء، ويقول للحجارية: جاراة، وللناصرية: ناصاة.

قال الشاعر منهم:

لعمرك ما أخشى التصعلك ما بقا　　　على الأرض قيسى يسوق الأباعرا

﴿إِن كُنتُم﴾: إذا كنتم ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾: كقوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٩) ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾: فإنّ لم تذروا ما بقى من الربا ﴿فَأْذَنُواْ﴾: قرأ الأعمش وعاصم وحمزة رواية أبى بكر ﴿فَـَٔاذَنُواْ﴾: ممدودًا على وزن آمنوا وقرأ الباقون (فاذنوا): مقصورًا مفتوح الذال، وهى قراءة على واختيار أبى عبيد وأبى حاتم.

فمن قصر معنا: فاعلموا أنتم واسمعوا، يقال: أذن الشىء يأذن أذنًا وأذانة إذا سمعه

وعلمه. قال الله: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ (الانشقاق: ٢). ومن مدّ معناه: فاعلموا غيركم. قال الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّـٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ (فصّلت: ٤٧).

وأصل الكلمة من الأذن أى أقعوه فى الأذان.

﴿بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: يقال يوم القيامة لا تأكل الربا: خذ سلاحك للحرب. وروى الوالبى عنه قال: مَنْ كان مقيمًا على الربا لا ينزع عنه، فحقّ على إمام المسلمين أن يستتيبه فإن نزع وإلاّ ضرب عنقه.

وقال أهل المعانى: حرب الله وحرب رسوله السيف ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾ بطلب الزيادة ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ النقصان عن رأس المال. وروى أبان والمفضّل عن عاصم بضم التاء الأولى وفتح الثانية. قال أهل المعانى إنّها شرط التوبة لأنّهم إن لم يتوبوا كفروا بردّ حكم الله واستحلال ما حرّم الله فيصير مالهم فيئًا للمسلمين. فلما نزلت هذه الآيات قالت بنو عمرو بن عمير لبنى المغيرة: بل نتوب إلى الله فإنّه ليس لنا يدان بحرب الله وحرب رسوله فرضوا برأس المال وسلّموا لأمر الله فشكى بنو المغيرة العسرة وقالوا: أخرونا إلى أن ندرك الغلات، فأبوا أن يؤخروا فأنزل الله.

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾: رفع الكلام باسم كان ولم يأت لها بخبر وذلك جائز فى النكرة. يقول العرب: إن كان رجلٌ صالح فأكرمه، وقيل: كان لمعنى وقع الحدث وحينئذ لا يحتاج إلى الخبر.

وقرأ أُبى وابن مسعود وابن عباس: إن كان ذا عسرة على إضمار الاسم وأن الغريم أو المطلوب ذا عسرة. وقرأ أبان بن عثمان: ومن كان ذا عسرة لهذه الغلّة. وقرأ الأعمش: وإن كان معسر وهو دليل قراءة العامّة.

والعسرة: الفقر والضيق والشدّة. وقرأ أبو جعفر: عسرة بضم السين، وهما لغتان.

﴿فَنَظِرَةٌ﴾: أمر فى صيغة الخبر، والفاء فيه لجواب الشرط تقديره: فعليه نظرة، أى قال: واجب نظره بالنصب على معنى فلينظر نظرة لكان صوابًا كقوله فضرب الرقاب، والنظرة: الإنظار.

وقرأ أبو رجاء والحسن وقتادة: فناظرة بكسر الظاء ورفع الراء والهاء أى منتظرة. وقرأ عطاء بن أبى رباح: فنظرة ساكنة الظاء وهى مصدر يجوز أن يكون من النظر والانتظار جميعًا.

﴿إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾: قرأ عطاء وشيبة ونافع وحميد بن محيصن: (ميسُرة) بضم السين والتنوين. وقرأ عمر وعلى وأبو رجاء والحسن وقتادة وعبد الله بن مسلم وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر

وعاصم والأعمش وحمزة والكسائى وخلف وأبو عمرو ويعقوب وأيوب: (ميسَرة) بالتنوين وفتح السين وهى اختيار أبى عبيد وأبى حاتم لأنّها اللغة السائرة. وقرأ مجاهد وأبو سراح الهذلى: (ميسُرة) بضم السين مضافًا هو مثله روى زيد بن يعقوب، وروى الأعمش عن عاصم عن زرّ عن عبد الله أنّه كان يقرؤها: فناظروه إلى ميسورة، وكلّها لغات معناها اليسار والغنى والسعة.

﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ﴾: رؤوس أموالكم على المعسر فلا تطالبونه بها ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وقرأ عاصم: تصدّقوا بتخفيف الصاد. الباقون بتشديده.

❖ **ذكر حكم الآية:**

أمر الله تعالى بإنظار المعسر فمتى ما أعسر الرجل وتبيّن إعساره، فلا سبيل لرب المال إلى مطالبته بماله إلى أن يظهر يساره، فإذا ظهر يساره كان عليه توفير الحق إلى ربّ المال وعلم أنّ الحقوق تخلف وكلّ حق لزم الإنسان عوضًا عن مال حصل فى يده مثل قرض أو ابتياع سلعة، فإذا ادّعى الإعسار لزمته البيّنة على الإعسار؛ لأنّ الأصل فيه استغناؤه بحصول ما صار فى يده، وكلّ حق لزمه من غير حصول مال فى يده كالمهر والضمان، فإذا ادّعى الإعسار لزم ربّ المال أمامه البيّنة على كونه موسرًا لأن الأصل فى الناس الفقر، وإذا لم يعلم له حالة استغناء كان الحكم فيه البقاء على أصل ما كان عليه إلى أن يتبيّن يساره.

وقال الحسن: إذا قال: أنا معدم، فالقول قوله مع يمينه وعلى غريمه إظهار ماله وببيّنة أو عيان.

وكان أبو حنيفة يرى أن يحبس شهرين أو ثلاثة ثم يسأل عنه فى السرّ، فإن تبيّن أنّه معسر خلّى عنه.

ودليل مَنْ قال: لا يحبس، حديث أبى سعيد الخدرى قال: أصيب رجل فى ثمار فكثر دينه، فقال رسول الله ﷺ: «خذوا ما وجدتم ليس لكم إلاّ ذلك».

وكان أبو هريرة على قضاء المدينة فأتاه رجل بغريم فقال: أريد أن تحبسه.

قال: هل تعلم له عين مال نأخذه منه فنعطيك؟

قال: لا، قال: فهل تعلم له أصل مال فنبيعه ونعطيك؟

قال: لا، قال: فما تريد، قال: أريد أن تحبسه، قال: «لكنّى أدعه يطلب لك ولنفسه وعياله فإذا أيسر لزمه قضاء الدين».

سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مشى إلى غريمه بحقّه صلت

عليه دواب الأرض ونون الماء وكتب الله عزّ وجلّ بكلّ خطوة شجرة تغرس له فى الجنّة وذنبًا يغفر له فإن لم يفعل ومطل فهو متعد».

أبو الزياد الأعرج عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الظلم مطل الغنى فإذا أتبع أحدكم على ملىء فليتبع».

❖ فى فضل إنظار المعسر:

زيد بن أسلم عن أبى صالح عن أبى هريرة: أنّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أنظر معسرًا أو وضع له، أظلّه الله فى ظلّ عرشه يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه»، وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أحب أن يستجاب دعوته ويكشف كربته فلييسّر على المعسر».

ربعى بن خراش عن حذيفة بن اليمان قال: أتى الله عزّ وجلّ بعبده يوم القيامة فقال أى ربّ ما عملت لك خيرًا قط أُريدك به إلاّ أنّك رزقتنى مالاً فكنت أتوسع على المعسر. وأنظر المعسر، فيقول الله عزّ وجلّ: أنا أحق بذلك منك فتجاوزوا عن عبدى.

قال: فقال أبو مسعود الأنصارى: فأشهد على رسول الله أنّه سمعه منه.

الأعمش عن أبى داود عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أنظر معسرًا كان له بكل يوم صدقة» ثم قال بعد ذلك: «مَنْ أنظر معسرًا كان له بكلّ يوم مثل الذى أنظره صدقة» قال: فقلت: يا رسول الله قلت: مَنْ أنظر معسرًا فله بكلّ يوم صدقة، ثم قلت: من أنظر معسرًا كان له بكلّ يوم مثل الذى أنظره صدقة.

قال: «إن قولى بكل يوم صدقة قبل الأجل، وقولى بكل يوم مثل الذى أنظره صدقة بعد الأجل» وعن سعيد بن أبى سعيد عن أخيه عن أبيه: أن جابر بن عبد الله خرج إلى غريم له يتقاضاه فقال هاهنا حقّى، فقالوا: لا فتنحّى فلم يلبث أن خرج مستحييًا منه فقال: ما حملك على أن تحبسنى حقّى وتغيّب وجهك عنّى؟ قال: العسرة، قال: قال الله: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾، فأخرج كتابه فمحاه.

❖ فصل فى الدَّين:

جعفر بن محمد عن أبيه عن عبد الله بن جعفر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله عزّ وجلّ مع الدائن حتّى يقضى دينه ما لم يكن فيما يكره الله عزّ وجلّ» قال: فكان عبد الله بن جعفر يقول لخازنه: اذهب فخذ لنا بدين فإنى أكره أن أبيت ليلة إلاّ والله عزّ وجلّ معى منذ سمعت هذا الحديث عن رسول الله ﷺ.

عطاء بن يسار عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أدان دينًا وهو ينوى أن لا

يؤديه فهو سارق».

عثمان بن عبد الله عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه: أنّ رجلاً أتى به النبيّ ﷺ ليصلّي عليه، فقال: «صلّوا على صاحبكم فإنّ عليه دينًا» قال أبو قتادة: فأنا أكفل به، قال: «بالوفاء»، قال بالوفاء فصلى عليه وكان عليه ثمانية عشر درهمًا أو سبعة عشر درهمًا.

وعن أبي سعيد الخدري، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أعوذ بالله من الكفر والدين» فقال رجل: يا رسول الله يعدل الدين بالكفر؟

قال: «نعم».

وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدين راية الله في الأرض، فإذا أراد أن يذلّ عبده ابتلاه بالدين وجعله في عنقه». وعن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من خطيئة أعظم عند الله بعد الكبائر من أن يموت الرجل وعليه أموال الناس دينًا في عنقه لا يوجد لها قضاء».

يزيد بن أبي خالد عن ابن أيوب عن أنس بن مالك: أنّ رسول الله ﷺ قال: «إياكم والدين فإنّه هم بالليل ومذلّة بالنهار».

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾: قرأ أبو بحرية وأبو عمرو وسلام ويعقوب: (تَرجعون) بفتح التاء واعتبروا بقراءة أُبيّ (فاتقوا يومًا تصيرون فيه إلى الله). وقرأ الآخرون بضمّ التاء اعتبارًا بقراءة عبد الله. (واتقوا يومًا تُردّون فيه إلى الله).

﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ قال: هذه آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ، قال جبرائيل: ضعها على رأس ثمانين ومائتين من البقرة.

سفيان عن عاصم عن الشعبي عن ابن عباس قال: هذه آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ.

❖ فصل في تفصيل آخر ما نزل من القرآن:

قال المفسّرون: لمّا نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ (الزمر: ٣٠) قال رسول الله ﷺ: «ليتني أعلم متى يكون ذلك» فأنزل الله تعالى سورة النصر، فكان رسول الله ﷺ بعد نزول هذه السورة يسكت من التكبير والقراءة فيقول فيها: «سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه» فقيل: إنّك لم تكن تقوله يا رسول الله قبل هذا، قال: «إنّها نفسي نعيت إليّ» ثمّ بكى بكاء شديدًا فقيل: يا رسول الله أوَتبكي من الموت وقد عفا الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «فأين هول المطلع فأين ضيق القبر وظلمة اللحد فأين القيامة والأهوال» فعاش رسول الله

ﷺ ستة أشهر ثم لما خرج رسول الله ﷺ إلى حجّة الوداع نزلت عليه فى الطريق ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلَٰلَةِ﴾ (النساء: ١٧٦) إلى آخرها فسُمِّيت آية الصيف. ثم نزلت عليه وهو واقف بعرفة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (المائدة: ٣) الآية فعاش بعدها واحداً وثمانين يوماً، ثم نزلت عليه آيات الربا، ثم نزلت بعدها ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾: وهى آخر آية نزلت من السماء، فعاش رسول الله ﷺ بعدها واحداً وعشرين يوماً.

قال ابن جريج: تسع ليال. سعيد بن جبير ومقاتل: سبع ليال ثم مات يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأوّل حين زاغت الشمس سنة إحدى عشرة من الهجرة وواحدة من مُلك أردشير شيرون بن أبرويز بن هرمز بن أنوشروان.



﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم﴾ قال ابن عباس: لما حرّم الله الربا، أباح السلم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم﴾: أى داين بعضكم بعضاً، والدين ما كان مؤجلاً والعين ما كان حاضراً، يقال: دان فلانًا يدينه، إذا أعطاه الدين فهو دائن، والمعطى مدين ومديون. قوله: ﴿تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ يدخل فيه الدين والنسيئة والسلم وما كان مؤجلاً من الحقوق.

فإنّما قال: ﴿بِدَيْنٍ﴾ والمداينة لا تكون إلاّ بدين لأنّ المداينة قد تكون مجازاة وتكون معاطاة فأبان ذلك وقيّده بقوله ﴿بِدَيْنٍ﴾.

وقوله: هو بمعنى التأكيد كقوله: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ (الأنعام: ٣٨)، وقوله: ﴿فَسَجَدَ

﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (الحجر: ٣٠).

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: أى وقت معلوم ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾: أى اكتبوا الذى تداينتم به بيعًا كان أو قرضًا لئلا يقع فيه جحود ولا نسيان ولا تدافع.

واختلفوا فى هذا الكتابة، هل هى واجبة أم لا؟ فقال بعضهم: فرض واجب، قال ابن جريج: مَنْ أدان فليكتب، ومَنْ باع فليُشهد. وهذا القول اختيار محمد بن جرير الطبرى، يدلّ عليه ما روى الشعبى عن أبى بردة عن أبى موسى عن أبيه عن النبىّ ﷺ قال: «ثلاثة يدعون الله فلا يُستجاب لهم:

رجل كانت عنده امرأة سيئة الخلق فلم يطلّقها. ورجل كان له دين فلم يشهد، ورجل أعطى سفيهًا مالاً، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ (النساء: ٥)».

قال قوم: هو أمر استحباب وتخيير فإن كتب فحسن وإن ترك فلا بأس.

كقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ (المائدة: ٢). وقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (الجمعة: ١٠). هو اختيار الفراء.

وقال آخرون: كان كتاب الدين والإشهاد والرهن فرضًا ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ (البقرة: ٢٨٣) وهو قول الشعبى.

ثم بيّن كيفيّة الكتابة فقال عزّ مَنْ قائل: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ وقرأ الحسن وليكتب بكسر اللام، وهذه اللام، لام الأمر ولا يؤمر بها غير الغائب، وهى إذا كانت مفردة فليس فيها إلاّ الحركة، فإذا كانت قبلها واو أو فاء أو ثم، فأكثر العرب على تسكينها طلبًا للخفّة ومنهم مَنْ يكسرها على الأصل.

ومعنى الآية: وليكتب كتاب الدين. بيع البائع والمشترى والطالب والمطلوب. كاتب بالعدل أى بالحق والإنصاف فلا يزيد فيه ولا ينقص منه ولا يقدّم الأجل ولا يؤخّره ولا يكتب به شيئًا يبطل به حقًا لأحدهما لا يعلمه هو.

﴿وَلَا يَأْبَ﴾: ولا يمتنع ﴿كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ﴾: وذلك أنّ الكتّاب كانوا قليلاً على عهد رسول الله ﷺ.

واختلف العلماء فى وجوب الكتابة على الكاتب والشهادة على الشاهد، فقال مجاهد والربيع: واجب على الكاتب أن يكتب إذا أمر. وقال الحسن: ذلك فى الموضع الذى لا يقدر فيه على كاتب غيره فيضر صاحب الدين إن امتنع، فإذا كان كذلك فهو فريضة، وإن قدر على كاتب غيره فهو فى سعة إذا قام به غيره.

وقال الضحاك: كانت هذه عزيمة واجبة على الكاتب والشاهد فنسخها قوله: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾.

السدى: هو واجب عليه فى حال فراغه.

﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾: المديون والمطلوب يقرّ على نفسه بلسانه ليعلم ما عليه، والإملال والإملاء لغتان فصيحتان جاء بهما القرآن.

قال الله تعالى: ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الفرقان: ٥).

أصل الإملال: إعادة الشىء مرّة بعد مرّة والإلحاح عليه. قال الشاعر:

ألا يا ديار الحىّ بالسبعان أملّ عليها بالبلى الملوان

ثم خوّفه فقال: ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ أى لا ينقص من الحقّ الذى عليه شيئًا، يقال: بخسه حقّه وبخسه إذا أنقصه ونظائرها فى القرآن كثيرة.

﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾: يعنى وإن كان المطلوب الذى عليه المال ﴿سَفِيهًا﴾، جاهلاً بالمال، قاله مجاهد، وقال الضحاك والسدى: طفلاً صغيراً ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ أو شيخًا كبيراً. السدى وابن زيد: يعنى عاجزًا أحمق ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ لخرس أو عىّ أو غيبة أو عجمة أو زمانة أو حبس لا يمكنه حضور الكتاب أو جهل ماله عليه ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ﴾ أى قيّمه ووارثه.

ابن عبّاس والربيع ومقاتل: يعنى فليملل ولىّ الحق وصاحب الدين لأنّه أعلم بدينه ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ بالصدق والحق والإنصاف ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟﴾ هذا السين للسؤال والطلب ﴿شَهِيدَيْنِ﴾ شاهدين ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾ يعنى الأحرار البالغين دون العبيد والصبيان ودون أحرار الكفّار. وهذا مذهب مالك والشافعى وأبى حنيفة وسفيان وأكثر الفقهاء.

وأجاز شريح وابن سيرين بشهادة العبد وهو قول أنس بن مالك. وأجاز بعضهم شهادتهم فى الشىء التافه. ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ﴾ يعنى فإن لم يكن الشاهدان رجلين ﴿فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ أو فليشهد رجل وامرأتان.

وأجمع الفقهاء على أنّ شهادة النساء جائزة مع الرجال فى الأموال، واختلفوا فى غير الأموال. وكان مالك والأوزاعى والشافعى وأبو عبيد وأبو ثور وأحمد لا يجيزونها إلاّ فى الأموال. وكان أبو حنيفة وسفيان وأصحابهما يجيزون شهادتين مع الرجل فى كلّ شىء ما عدا الحدود والقصاص ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ يعنى مَنْ كان مرضيًا فى ديانته وأمانته وكفاءته.

قال عمر بن الخطّاب رضى الله عنه: مَنْ أظهر لنا خيراً ظننا به خيراً وأحببناه عليه، ومَنْ

أظهر لنا شراً ظننا به شراً وأبغضناه عليه، وإذا حمد الرجل جاره وقرائبه ورفيقه فلا تشكّوا فى صلاحه.

وقال إبراهيم النخعى: العدل: مَنْ لم يظهر منه ريبة. وقال الشعبى: العدل: مَنْ لم يطعن عليه فى بطن ولا فرج.

وقال الحسن: هو مَنْ لم يعلم له خزية. وقال النبى ﷺ: «لا يجوز شهادة خائن ولا خائنة ولا مجلود حداً ولا ذى غمر على أخيه ولا مجرّب عليه شهادة زور ولا التابع مع أهل البيت - يعنى الخادم لهم - ولا الظنين فى ولاء ولا قرابة».

وجملة القول فيمن تقبل شهادته: أن تجتمع فيه عشر خصال: يكون حراً بالغًا مسلمًا عدلاً عالمًا بما يشهد به ولا يجر بشهادته إلى نفسه منفعة ولا يدفع عن نفسه مضرّة ولا يكون معروفًا بكثرة الغلط ولا يترك المروءة ولا يكون عنده لين ولا يشهد عليه عبده، فإذا اجتمعت فيه هذه الخصال كان مقبول القول جائز الشهادة.

وتقبل شهادة النساء على الانفراد لا رجل معهن فى أربعة مواضع: عيوب النساء وهو ما يكون عيبًا فى موضع هى عورة منها - فى الحرّة فى جميع بدنها إلاّ وجهها وكفّيها، ومن الأمة ما بين سرّتها إلى ركبتها - وفى الرضاع، وفى الولادة، وفى الاستهلال.

ولا خلاف فى ذلك كلّه إلاّ فى الرضاع. وإن أبا حنيفة ذهب إلى أنّ شهادة النساء على الانفراد لا تقبل فيه حتّى يشهد رجلان أو رجل وامرأتان.

وأمّا صفة الشهادة فروى طاوس عن ابن عباس قال: سُئل رسول الله ﷺ عن الشهادة فقال: «ترى الشمس؟».

قال: نعم، قال: «على مثلها فاشهد أو دع» وعن عبد الصمد بن على بن عبد الله بن عباس عن أبيه عن جدّه أن رسول الله ﷺ قال: «أكرموا الشهود فإنّ الله عزّ وجلّ يستخرج بهم الحقوق ويدفع بهم الظلم».

خارجة بن نور عن عبد الرحمن بن عبيد قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حبس ذكْرُ حَقٍّ بعدما تقبض ما فيه ثلاثًا فعليه قيراط من الإثم».

﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَنهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَنهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾: قرأ الأعمش وحمزة: «إن» بكسر الألف (فتذكر) رفعًا، ومعناه الجزاء والابتداء، وموضع (تضل) جزم للجزاء إلاّ أنه لا يتبيّن فى التضعيف (فتذكّر) رفع لأن ما بعد فاء الجزاء مبتدأ.

وقرأه العامّة بنصب الألف، فالفاء على الاتصال بالكلام الأوّل وموضع (أن) نصب بنزع

حرف الصفة يعنى لأنّ، و(تضل) محلّه نصب بأن (فتذكّر) مسوق عليه. ومعنى الآية: فرجل وامرأتان كى تذكّر إحداهما الأخرى إن ضلّت.

وهذا من المقدّم والمؤخّر، كقولك: إنّه ليعجبنى أن يسأل فيعطى، يعنى: يعجبنى أن تعطى السائل إذا سأل؛ لأن العطاء تعجّب لا السؤال. قال الله: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ (القصص: ٤٧) الآية.

ومعناه: لولا أن يقولوا إذا أصابتهم مصيبة: هلاّ أرسلت إلينا رسولاً.

ومعنى قوله (أن تضلّ): أى تنسى، كقوله: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ (طه: ٥٢). وقوله: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَاْ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ (الشعراء: ٢٠) و﴿حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ﴾ (النحل: ٣٦) وذهاب قول العرب: ضلّ الماء فى اللبن، وقال الله: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (السجدة: ١٠) وقرأ عاصم الجحدرى: أن تضلّ إحداهما بضمّ التاء وفتح الضاد على المجهول، وقرأ زيد بن أسلم: فتذكّر من المذاكرة.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وأبو حاتم وقتيبة: فتذكر خفيفة، وقرأ الباقون مشدداً.

وذكّر وأذكر بمعنًى واحد كما يقال: نزّل وأنزل وكرّمَ وأكرم، وهما معًا الذكر الذى هو ضد النسيان قال الشاعر:

تذكرنيه الشمس عند طلوعها وتعرض ذكراه إذا غربها أفل

قال أبو عبيد: حُدثت عن سفيان بن عيينة أنّه قال: هو من الذكر، يعنى أنّها إذا شهدت مع أُخرى صارت شهادتهما كشهادة الذَّكَر.

قلت: هذا القول لا يعجبنى لأنّه معطوف على النسيان والله أعلم.

﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾ قال بعضهم: هذا فى محمل الشهادة وهو أمر إيجاب.

قال قتادة والربيع: كان الرجل يطوف فى الحىّ العظيم فيه القوم فيدعوهم إلى الشهادة فلا يتّبعه أحد منهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال الشعبى: هو مخيّر فى تحمل الشهادة إذا وجد غيره، فإن شاء شهد وإن شاء لم يشهد، فإذا لم يوجد غيره فترك إلاّ ما فرض عليه. وقال بعضهم: هذا أمر ندب وهو مخيّر فى جميع الأحوال إن شاء شهد وإن شاء لم يشهد. وهو قول عطاء وعطيّة.

وقال أبو بحريّة: قلت للحسن: أُدعى إلى الشهادة وأنا كاره، قال: فلا تجب ولا تشهد إن شئت. وقال مغيرة: قلت لإبراهيم. إنّى أُدعى إلى الشهادة وإنّى أخاف أن أنسى، قال: فلا تشهد إن تحب.

وقال بعضهم: هذا فى إقامة الشهادة وأدائها، ومعنى الآية: ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا لإقامة الشهادة إذا كانوا قد شهدوا قبل ذلك. وهو قول مجاهد وعطاء وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك والسدى، وروى سفيان عن جابر عن عامر قال الشاهد بالخيار ما لم يشهد. وقال الحسن والسدى هذه الآية فى الأمرين جميعًا فى التحمّل والإقامة إذا كان فارغًا.

﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ﴾: ولا تملّوا يقال: سئمت أسأم سأمًا وسآمة، قال زهير:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً لا أبًا لك يسأم

وقال لبيد:

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لبيد

وأن فى محلّ النصب من وجهين: إن شئت جعلته مع الفعل مصدراً وأُوقعت السآمة عليه، تقديره: ولا تسأموا كتابته، وإن شئت نصبت بنزع حروف الصفة، تقديره: ولا تسأموا من أن تكتبوه، والهاء راجع إلى الحق.

وقرأ السلمى: ولا يسأموا بالياء.

﴿أَن تَكْتُبُوهُ﴾ كان الحقّ ﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ قليلاً كان المال أو كثيراً، وانتصاب الصغير والكبير من وجهين: أحدهما على الحال والقطع من الهاء، والثانى أن تجعله خبراً لكان وأضمر، يعنى: ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً كان الحق أو كبيراً.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾: إلى محلّ الحق ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الكتاب ﴿أَقْسَطُ﴾ أعدل ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ لأنّه أمر به، واتباع أمره أعدل من تركه ﴿وَأَقْوَمُ﴾ وأصوب ﴿لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ﴾ وأحرى وأقرب إلى ﴿أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ تشكّوا فى الشهادة ومبلغ الحق والأجل إذا كان مكتوبًا، نظير قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ (المائدة:١٠٨) وهو أفعل من الدنو، ثم استثنى فقال:

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً﴾: قرأها عاصم بالنصب على خبر كان وأضمر الاسم، مجازه: إلاّ أن تكون التجارة تجارة، والمبايعة تجارة.

وأنشد الفراء:

لله قومى أى قوم بحرة إذا كان يومًا ذا كواكب أشنعا

أى إذا كان اليوم يومًا.

وأنشد أيضًا:

أعينى هل تبكيان عفاقًا إذا كان طعنًا بينهم وعناقًا

أراد إذا كان الأمر.

وقرأ الباقون بالرفع على وجهين: أحدهما: أن يكون معنى الكون الوقوع، أراد: إلاّ أن تقع تجارة، وحينئذ لا خبر له.

والثاني: أن يجعل الاسم في التجارة والخبر في الفعل، وهو قوله تعالى: ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ تقديره: إلاّ أن تكون حاضرة دائر بينكم، ومعنى الآية: إلاّ أن تكون تجارة حاضرة يداً بيد تديرونها بينكم ليس فيها أجل ولا نسيئة.

﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾: يعني التجارة ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾: قال الضحاك: هو عزم من الله عزّ وجلّ، والإشهاد واجب في صغير الحق وكبيره نقده ونسأه ولو على باقة بقل وهو اختيار محمد بن جرير.

وقال أبو سعيد الخدري: الأمر فيه إلى الأمانة: قال الله فإن أمن بعضكم بعضًا. وقال الآخرون: هو أمر ندب إن شاء أشهد وإن لم يشأ لم يشهد ثم قال:

﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾: هو نهي الغائب، وأصله يُضارر فأُدغمت الراء في الراء ونصبت لحق التضعيف لاجتماع الساكنين، والفتح أخفّ الحركات فحركت إليه.

وأما تفسير الآية، فأجراها بعضهم على الفعل المعروف، وقال: أصله يضار بكسر الراء وجعل الفاعل الكاتب والشهيد، معناه: ولا يضار كاتب فيكتب ما لم يملل عليه يزيد أو ينقص أو يُحرف، ولا شهيد فيشهد ما لم يشهد عليه أو يمتنع من إقامة الشهادة، وهذا قول طاوس والحسن وقتادة وابن زيد، وأجراه آخرون على الفعل المجهول وجعلوا الكاتب والشهيد مفعولين وقالوا: أصله لا يضار.

ومعنى الآية: هو أن الرجل يدعو الكاتب أو الشهيد وهما على حاجة مهمّة فيقولان: إنا مشغولان فاطلب غيرنا، فيقول الذي يدعوه: إن الله أمركما أن تجيبا في الكتابة والشهادة ويلحّ عليهما ويشغلهما عن حاجتهما فنهى الله عزّ وجلّ عن مُضارتهما وأمر أن يطالب غيرهما.

وقال الربيع بن أنس: لما نزلت هذه الآية ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾ ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾. كان أحدهما يجيء إلى الكاتب فيقول له اكتب، فيقول: إنّي مشغول، أو لي حاجة فانطلق إلى غيري، فيُلزمه ويقول: إنّك قد أُمرت بالكتابة، فلا يدعه فيضاره بذلك وهو يجد غيره. وكذلك يفعل مع الشاهد، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾.

ودليل هذا التأويل قراءة عمر وأُبي وابن مسعود ومجاهد: ولا يضارر كاتب ولا شهيد بإظهار التضعيف على وجه ما لم يمنع ولا يضارر.

وقرأ أبو جعفر: ولا يضار، مجزومًا مخففًا ألقى راء واحدة أصلاً، وقرأ الحسن ولا يضارّ بكسر الراء مشدّدًا.

﴿وَإِن تَفْعَلُوا﴾: ما نهيتكم عنه من الضراء ﴿فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾: خروج عن الأمر ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

❖ ❖ ❖

﴿۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُوا ٱلشَّهَـٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾: قرأ ابن عباس وأبو العالية ومجاهد: كتابًا، وقالوا: ربّما وجد الكاتب ولم يجد المداد ولا الصحيفة، وقالوا: لم تكن قبيلة من العرب إلاّ كان فيهم كاتب ولكن كانوا لا يقدرون على القلم والدواة.

وقرأ الضحاك: كُتّابًا على جمع الكاتب. وقرأ الباقون: كاتبًا على الواحد وهو الأنسب مع المصحف.

﴿فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾: قرأ ابن عباس وإبراهيم وزر بن حبيش ومجاهد وابن كثير وأبو عمرو: فرهن بضم الراء والهاء. وقرأ عكرمة والمنهال وعبد الوارث: فرُهْن بضم الراء وجزم الهاء، وقرأ الباقون: فرهان وهو جمع الرهن، ذلك نحو فعل وفعال، وحبل وحبال وكبش وكباش، وكعب وكعاب.

والرهن جمع الرهان: جمع الجمع، قاله الفراء والكسائي. وقال غيرهما وأبو عبيدة: هو جمع الرهن. قالوا: ولم نجد فعلاً على فُعَل إلاّ ثمانية أحرف: خَلق وخُلق، وسَقف وسُقف،

وقَلب وقُلب، وجَد وجُد بمعنى الحظ، وثط وثُط، وورد ووُرد، ونَسر ونُسر. ورَهن ورهن.

قال الأخطل وعمرو بن أبى عوف . . . .[١] به حتى يغادره العقبان والنسُر.

وأنشد الفراء:

حتى إذا بلّت حلاقيم الحلق   أهوى لأدنى فقرة على شفق

وقال أبو عمرو: وإنّما قرأنا (فرُهُن) ليكون فرقًا بينها وبين رهان الخيل، وأنشد لقعنب ابن أم الصاحب:

بانت سعاد وأمسى دونها عدن   وغلّقت عندها من قلبك الرهن

أى وحب لها.

والتخفيف والتثقيل فى الرهن لغتان مثل كُتبّ وكتب ورسلّ ورسل.

ومعنى الآية: وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبًا الآن للكتابة فارتهنوا ممن تداينونه رهونًا ليكون وثيقة لكم بأموالكم. وأجمعوا: أن الرهن لا يصح إلاّ بالقبض، وقال مجاهد: ليس الرهن إلاّ فى السفر عند عدم الكاتب. وأجاز غيره فى جميع الأحوال. ورهن رسول الله ﷺ درعه عند يهودىّ.

﴿فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾: مدنى. حرف أُبىّ (فإنّ أمن): يعنى: فإن كان الذى عليه الحق أمينًا عند صاحب الحق فلم يرتهن منه شيئًا لثقته وحسن ظنّه ﴿فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ﴾ افتعل من الأمانة، وهى الثقة كتبت همزتها واوًا لانضمام ما قبلها ﴿أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ﴾ فى أداء الحق.

ثم رجع إلى خطاب الشهود فقال: ﴿وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ﴾ إذا دُعيتم إلى إقامتها، وقرأ السلمى: ولا يكتبوا بالياء ومثله يعملون.

ثم ذكر وعيد كتمان الشهادة فقال عزّ منْ قائل: ﴿وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ﴾. فاجر قلبه وهو ابتداء وخبر. وقرأ إبراهيم بن أبى عيلة: فإنّه أثم قلبه على وزن أفعل أى جعل قلبه أثمًا.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾: من بيان الشهادة وكتمانها. روى مكحول عن أبى بردة عن أبيه عن النبى ﷺ قال: «مَنْ كتم الشهادة إذا دُعى، كان كمن شهد بالزور».

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾: الآية. اختلف العلماء فى هذه الآية، فقال قوم: هى خاصة. ثم اختلفوا فى وجه خصوصها، فقال بعضهم: نزلت فى كتمان الشهادة وإقامتها يعنى: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ أيها الشهود من كتمان الشهادة ﴿أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ الكتمان ﴿يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ وهو قول الشعبى وعكرمة ورواية مجاهد ومقسم عن ابن عباس، يدلّ عليه قوله فيما

(١) بياض بالأصل المخطوط.

قبله: ﴿وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَـٰدَةَ﴾.

وقال بعضهم: نزلت هذه الآية فيمن يتولّى الكافرين من المؤمنين. يعنى: وإن تعلنوا فى أنفسكم من ولاية الكفّار أو تستروه يُحاسبكم الله. وهو قول مقاتل والواقدى. يدلّ عليه قوله فى آل عمران: ﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ﴾ من ولاية الكفّار ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ (آل عمران: ٢٩) يدلّ عليه ما قبله.

وقال آخرون: هذه الآية عامّة. ثم اختلفوا فى وجه عمومها، فقال بعضهم: هى منسوخة.

روت الرواية بألفاظ مختلفة. قال: لمّا نزلت هذه الآية جاء أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وناس من الأنصار إلى النبى ﷺ فجثوا على الركب وقالوا: يا رسول الله والله ما نزلت آية أشد علينا من هذه الآية وإنّا لا نسر أن يكون لأحدنا الدنيا وما فيها وإنّا لمأخوذون بما نحدّث به أنفسنا هلكنا والله، فقال النبىّ ﷺ: «هكذا نزلت». قالوا: هلكنا وكُلّفنا من العمل ما لا نطيق.

قال: «فلعلّكم تقولون كما قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام سمعنا وعصينا، بل قولوا: سمعنا وأطعنا».

واشتد ذلك عليهم فمكثوا بذلك حولاً، فأنزل الله عزّ وجلّ الفرج والراحة بقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فنسخت الآية ما قبلها. فقال النبىّ ﷺ: «إنّ الله عزّ وجلّ قد تجاوز لأمتى ما حدثوا به أنفسهم ما لم يعملوا أو يتكلّموا به». وهذا قول ابن مسعود وأبى هريرة وعائشة وابن عباس برواية سعيد بن جبير وعطاء، ومن التابعين وأتباعهم محمد بن سيرين ومحمد بن كعب وموسى بن عبيدة وقتادة والكلبى وشيبة.

قال سعيد بن مرجانة: بينما نحن جلوس عند عبد الله بن عمر إذ تلا هذه الآية ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾.

فقال ابن عمر: إن أخذنا الله بها لنهلكن، ثم بكى حتى سُمع. قال ابن مرجانة: فذكرت ذلك لابن عباس فقال: يغفر الله لأبى عبد الرحمن فقد وجد المسلمون منها حين نزلت مثل ما وجد فأنزل الله ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾. وكانت الوسوسة ممّا لا طاقة للمسلمين بها، فصار الأمر إلى القول والفعل به فنسخت تلك الآية.

وقال بعضهم: هذه الآية محكمة غير منسوخة، لأن النسخ والأخبار غير جائز إلا فى خبر فيه أمر أو نهى أو شرط. ثم اختلفوا فى وجه تأويلها فقال قوم من أهل المعانى: قد أثبت الله

عزّ وجلّ للقلب كسبًا فقال: ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ (البقرة: ٢٢٥). وكلّ عامر مأخوذ بكسبه ومجازى على عمله، فلا تظنّ الله عزّ وجلّ بتارك عبدًا يوم القيامة أسرّ أمرًا أو أعلنه من حركة فى جوارحه أو همسة فى قلبه دون أن يعرفه إياه ويخبرهُ به، ثم يغفر ما شاء لمن يشاء ويعذّب مَنْ شاء بما يشاء.

معنى الآية: وإن تظهروا ما فى أنفسكم من المعاصى فتعملوه أى تضمروا إرادتها فى أنفسكم فتخفوها يخبركم به ويحاسبكم عليه، ثم يغفر لمن يشاء ويعذب مَنْ يشاء.

وهذا معنى قول الحسن، والربيع، وقيس بن أبى حازم، ورواية الضحاك عن ابن عباس يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ (الإسراء: ٣٦).

وقال آخرون: معنى الآية أن الله تعالى يُحاسب خلقه بجميع ما أبدوا من أعمالهم وأخفوه، ويعاقبهم عليه غير أن معاقبته إيّاهم على ما أخفوه ممّا لم يعملوها، بما يحدث فى الدنيا من النوائب والمصائب والأمور التى يحزنون عليها ويألمون بها، وهذا قول عائشة، روى بأنّها سُئلت عن هذه الآية فقالت: ما سألت عنها أحدًا فقد سألت رسول الله ﷺ فقال: «يا عائشة هذه معاتبة الله العبد بما يصيبه من الحمّى والنكبة حتى الشوكة والبضاعة يضعها فى جيبه فيفقدها فيفرغ لها فيجدها فى جيبه، حتّى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر من الكيس».

يدلّ عليه قوله: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ (النساء: ١٢٣) يعنى فى الدنيا.

وقال مجاهد: فى رواية منصور وابن أبى جريج قال: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ يعنى من اليقين والشك.

وقال جعفر بن محمد: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ يعنى الإسلام ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾. يعنى الإيمان.

وقال بعضهم: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ يعنى ما فى قلوبكم ممّا عرفتم وعقدتم عليه ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ فلا تبدوه وأنتم مجمعون وعازمون عليه، ويحاسبكم به الله، فأمّا ما حدّثتم به أنفسكم ممّا لم تعزموا عليه فإن ذلك ممّا لا يكلّف الله نفسًا إلاّ وسعها ولا يؤاخذ به. ودليل هذا التأويل قوله: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ (البقرة: ٢٢٥).

وعن عبد الله بن المبارك قال: قلت لسفيان: ليؤاخذ العبد الهمّة، قال: إذا كان عزمًا أخذ بها. وعن عمرو بن جرير قال: خرجت وأنا شاب لأمر هممت به، فمررت بأبى طالب القاص والناس مجتمعون عليه وكان أوّل شىء تكلّم به أن قال: أيّها الهامّ بالمعصية علمت أن

خالق الهمّة مطّلع على همّتك، قال: فخررت والله مغشيًا علىّ، فما أفقت إلاّ عن توبة.

وعن إسماعيل بن أبى خالد قال: أصابت بنى إسرائيل مجاعة فمرّ رجل على رمل فقال: وددت أن هذا الرمل دقيق لى فأطعمه بنى إسرائيل، فأُعطى على نيّته.

وعند عبد الله بن زيد بن أسلم عن أبيه قال: كان رجل يطوف على العلماء. يقول: مَنْ يدلّنى على عمل لا أزال منه عاملاً لله عزّ وجلّ فإنّى أحب أن لا تأتى علىّ ساعة من الليل والنهار إلا وأنا عامل، فقيل: قد وجدت حاجتك فأعمل الخير ما استطعت، فإذا فترت أو تركته فهمّ بعمله إنّ الهامّ بعمل الخير كعامله. وهذا يعنى قول النبى ﷺ: «نيّة المؤمن خير من عمله» لأن العمل ينقطع والنيّة لا تنقطع.

وقال محمد بن على: معنى الآية: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ من الأعمال الظاهرة ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ من الأحوال الباطنة، يحاسبكم به الله. العابد على أفعاله والعارف على أحواله.

وقال بعضهم: إنّ الله يقول يوم القيامة: يوم تُبلى السرائر وتخرج الضمائر، وأن كتّابى لم يكتبوا من أعمالكم إلاّ ما ظهر منها، وأنا مطّلع على سرائركم ما لم يعلموه ولم يكتبوه فأنا أخبركم بذلك وأحاسبكم عليه لتعلموا أنّه لا يعزب عنّى مثقال ذرة من أعمالكم ثم أغفر لمَنْ شئت وأُعذّب مَنْ شئت.

فأمّا المؤمنون فيخبرهم بذلك ويغفر لهم ولا يؤاخذهم بذلك إظهاراً لفضله، وأمّا الكافرون فيخبرهم بها ويعاقبهم عليها إظهاراً لعدله.

فمعنى الآية: وإن تبدوا ما فى أنفسكم فتعملوا به أو تخفوه ممّا أضمرتم وأسررتم وأردتم، يُحاسبكم به الله ويخبركم ويعرّفكم إياه، فيغفر للمؤمنين ويعذّب الكافرين. وهذا معنى قول الضحاك والربيع ورواية العوفى والوالبى عن ابن عباس، ويدلّ عليه قوله: ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ . ولم يقل: يؤاخذكم، والمحاسبة غير المعاقبة، والحساب ثابت والعقاب ساقط، وممّا يُؤيّد هذا حديث النجوى وهو ما روى قتادة عن صفوان بن محرز قال: بينما نحن نطوف بالبيت مع عبد الله بن عمرو إذ عرض له رجل فقال: يا ابن عمر ما سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى، فقال: سمعت نبىّ الله ﷺ يقول: «يدنو المؤمن من ربّه حتّى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه فيقول: هل أذنبت ببعض كذا، فيقول: ربّ أعرف، فيوقفه على ذنوبه ذنبًا ذنبًا، فيقول الله: أنا الذى سترتها عليك فى الدنيا فأنا أغفرها لك اليوم لم يُطلع على ذلك مَلَكًا مقربًا ولا نبيًّا مرسلاً».

وأمّا الكفّار والمنافقون فينادون على رؤوس الأشهاد هؤلاء الذى كذبوا على ربّهم ألا لعنة

الله على الظالمين».

الأعمش عن معرور بن سويد عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤتى الرجل يوم القيامة فيقال: أعرضوا عليه صغار ذنوبه، فيعرض عليه، فيقال: عملت كذا وكذا يوم كذا وكذا وهو يقرّ ولا ينكر ويخبأ عنه كبار ذنوبه وهو منها مشفق فيقول: أعطوه مكان كلّ سيّئة عملها حسنة، فيقول: إنّ لى ذنوبًا ما أراها هاهنا».

قال: قال أبو ذر: فلقد رأيت النبى ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه.

وقال الحسين بن مسلم: يحاسب الله عزّ وجلّ المؤمنين يوم القيامة بالمنّة والفضل، والكافرين بالحجّة والعدل.

﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾: رفعهما أبو جعفر وابن عامر وابن محيصن والحسن وعاصم ويعقوب واختاره أبو حاتم، ونصبهما ابن عباس، وجزمها الباقون فالجزم على النسق والرفع على الابتداء أى فهو يغفر، والنصب على الصرف، وقيل: على إضمار (أن) الخفيفة.

وروى طاوس عن ابن عباس: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ الذنب العظيم ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ على الذنب الصغير ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٣).

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ الآية. روى طلحة بن مصرف عن مرّة عن عبد الله قال: لمّا أسرى برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى، فأعطى لنا الصلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله من أمّته شيئًا إلاّ المقحمات.

وعن علقمة بن قيس عن عقبة بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: «أنزل الله عزّ وجلّ آيتين من كنوز العريش كتبهما الرحمن عزّ وجلّ قبل أن يخلق الخلق بألفى سنة من يقولها بعد العشاء الآخرة مرّتين أجزأتا عنه قيام الليل: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ إلى آخر السورة».

وروى أبو قلابة عن أبى الأشعث الهمدانى عن النعمان بن بشير عن النبىّ ﷺ قال: «إن الله تعالى كتب كتابًا قبل أن يخلق السموات والأرض بألفى عام أنزل فيه آيتين فختم بهما سورة البقرة، فلا يقرآن فى دار فيقربها شيطان ثلاث ليال».

وروى عبد الرحمن عن بن زيد عن ابن مسعود عن النبىّ ﷺ قال: «مَنْ قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفياه».

موسى بن حذيفة عن ابن المنكدر قال: حدّثنا حديثًا رفعه إلى النبىّ ﷺ قال: «فى آخر سورة البقرة آيات إنهنّ قرآن وإنّهن دعاء وإنّهن يرضين الرحمن» وفى الحديث: أنّه قيل للنبى ﷺ: إن بيت ثابت بن أويس بن شمّاس يزهر الليلة كالمصابيح، قال: «لعلّه يقرأ سورة

البقرة»، فسئل ثابت فقال: قرأت سورة البقرة.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ قيل إن هذه الآية نزلت حين شقّ على أصحاب رسول الله ﷺ ما يوعدهم الله عزّ وجلّ به من محاسبتهم على ما أخفته نفوسهم، فشكوا ذلك إلى النبى ﷺ: فقال: «لعلّكم تقولون سمعنا وعصينا كما قالت بنو إسرائيل»؟

فقالوا: بل نقول سمعنا وأطعنا، فأنزل الله عزّ وجلّ ثناءً عليهم وإخباراً عنهم: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ أى صدق ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾. من ربّه قال قتادة: لمّا أنزلت ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾، قال النبى ﷺ: «وحق له أن يؤمن».

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: وفى قراءة علىّ وعبد الله: وآمن المؤمنون ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾. وحّد الفعل على لفظ كلّ، المعنى: كلّ واحد منهم آمن، فلو قال: آمنوا، لجاز لأن (كلّ) قد تجيء فى الجمع والتوحيد، فالتوحيد قوله عزّ وجلّ: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ (النور: ٤١) والجمع قوله: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ (الأنبياء: ٩٣) ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ (النمل: ٨٧).

﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ﴾: قرأ ابن عباس وعكرمة ويحيى والأعمش وحمزة والكسائى وخلف (وكتابه) على الواحد بالألف. وقرأ الباقون: ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ بالجمع، وهو ظاهر كقوله: (وملائكته.. ورسله).

والتوحيد وجهان: أحدهما: أنّهم أرادوا القرآن خاصّة، والآخر: أنّهم أرادوا جميع الكتب. يقول العرب: كثر اللبن وكثر الدرهم والدينار فى أيدى الناس، يريدون الألبان والدراهم والدنانير. يدلّ عليه قوله: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ (البقرة: ٢١٣).

﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ جمع رسول.

وقرأ الحسن وابن سلمة بسكون السين لكثرة الحركات، وكذلك روى العباس عن ابن عمرو، وروى عن نافع (وملائكته.. ورسله) مخفّفين، الباقون بالإشباع فيها على الأصل.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾: نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى، وفى مصحف عبد الله لا نفرّقن.

قرأ جرير بن عبد الله وسعيد بن جبير وأبو زرعة بن عمرو بن جرير ويحيى بن يعمر والجحدرى وابن أبى إسحاق ويعقوب: لا يفرّق بالياء على معنى لا نفرّق الكلّ، فيجوز أن يكون خبراً عن الرسول.

وقرأ الباقون بالنون على إضمار القول تقديره: وقالوا لا نفرّق كقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ (الرعد:٢٣، ٢٤) وقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم﴾ (آل عمران:١٠٦) يعنى فيقال لهم: أكفرتم. وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا﴾ (السجدة:١٢) أى يقولون: ربّنا ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ﴾ (الزمر:٣) أى يقولون: ما نعبدهم.

وما يقتضى شيئين فصاعداً، وإنّما قال (بين أحد) ولم يقل آحاد لأن الأحد يكون للواحد والجميع. قال الله: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾ (الحاقة:٤٧). وقال النبىّ ﷺ: «ما أحلّت الغنائم لأحد سود الرؤوس غيركم». قال رؤبة:

ماذا أمور الناس ديكت دوكًا لا يرهبـون أحـدًا رواكًا

﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا﴾: قولك ﴿وَأَطَعۡنَا﴾: أمرك خلاف قول اليهود. وروى حكيم بن جابر أن جبرائيل عليه السلام أتى النبىّ ﷺ حين نزلت ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ فقال: إن الله عزّ وجلّ قد منّ عليك وعلى أمتك فاسأل تعط، فسأل رسول الله عزّ وجلّ فقال: غفرانك.

﴿غُفۡرَانَكَ﴾: وهو نصب على المصدر أى اغفر غفرانك. مثل قولنا: سبحانك أى نسبّحك سبحانك.

وقيل معناه: نسألك غفرانك.

﴿رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ۝ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾: ظاهر الآية قضاء الحوائج، وفيها إضمار السؤال والحاجة، كأنّه قال لهم: تكلّفنا إلاّ وسعنا، فأجاب الله فقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾.

والوسع: اسم لما يسع الإنسان وما يشقّ عليه. وقيل: يشق ويجهد.

وقرأ إبراهيم بن أبى عبلة الشامى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾. بفتح الواو وكسر السين على الفعل، يريد: إلاّ وسعها أمره، أو أراد إلاّ ما وسعها فحذف (ما).

واختلفوا فى تأويله، فقال ابن عطاء والسدى وأكثر المفسّرين: أراد به حديث النفس، وذلك أنّ الله تعالى لمّا أنزل: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ جاء المؤمنون عامة وقالوا: يا رسول الله هذا لنتوب من عمل الجوارح، فكيف نتوب من الوسوسة وكيف نمتنع من حديث النفس؟

فأنزل الله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ أى طاقتها، وكان حديث النفس مما لم يطيقوا.

قال ابن عباس فى رواية آخرى: . . . .[1] المؤمنون خاصّة وسع الله عليهم أمر دينهم. ولم

---

(١) بياض بالأصل المخطوط.

يكلّفهم إلاّ ما هم له مستطيعون، فقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥)، وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨)، وقال: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ (التغابن: ١٦).

قال الثعلبي: وسمعت أبا القاسم الحبيبي يقول: سمعت أبا عبد محمد بن نافع السجرى بهراة قال: سمعت أبا يزيد حاتم بن محبوب الشامى قال: سمعت عبد الجبّار بن العلاء العطّار يقول: سئل سفيان بن عيينة عن قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

فقال: إلاّ يسرها لا عسرها، ولم يكلّفها طاقتها ولو كلّفها طاقتها لبلغ المجهود منها.

قال الثعلبي: وهذا قول حسن لأنّ الوسع ما دون الطاقة، فقال: بعض أهل الكلام: يعنى إلاّ ما يسعها ويحل لها، كقول القائل: ما يسعك هذا الأمر؟ أى ما يحلّ الله لك؟ فبيّن الله تعالى أن ما كلف عباده فقد وسعه لهم والله أعلم.

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾: أى للنفس ما عملت من الخير والعمل الصالح، لها أجره وثوابه ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾: من الشرّ بالعمل السىء عليها وزره.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾: لا تعاقبنا.

قال أهل المعانى: وإنما خرج على لفظ المفاعلة وهو فعل واحد؛ لأنّ المسىء قد أمكر وَطَرَق السبيل إليها وكأنّه أعان عليه مَنْ يعاقبه بذنبه ويأخذه به فشاركه فى أخذه ﴿إِن نَّسِينَآ﴾. جعله بعضهم من النسيان الذى هو السهو.

قال الكلبى: كانت بنو إسرائيل إذا نسوا شيئًا ممّا أُمروا به وأخطئوا، عجّلت لهم العقوبة فيحرّم عليهم شىء من مطعم أو مشرب على حسب ذلك الذنب، فأمر الله تعالى نبيّه والمؤمنين أن يسألوه ترك مؤاخذتهم بذلك.

وقال بعضهم: هو من النسيان الذى هو الترك والإغفال. قال الله تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ (التوبة: ٦٧) والأوّل أجود.

﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾: جعله بعضهم من القصد والعمد، يقال: خطئ فلان إذا تعمّد يخطأ خطأً وخطأً.

قال الله: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٣١). وأنشد أمية بن أبى الصلت:

عبادك يخطئون وأنت ربٌّ   يكفّيك المنايا والحتوم

وجعله الآخرون من الخطأ الذى هو الجهل والسهو وهو الأصح؛ لأن ما كان عمدًا من الذنب غير معفو عنه، بل هو فى مشيئة الله تعالى ما لم يكن كفرًا.

قال عطاء: ﴿إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ يعنى إن جهلنا أو تعمّدنا له.

وقال ابن زيد: إن نسينا شيئًا ممّا افترضته علينا، أو أخطأنا شيئًا ممّا حرّمته علينا.

وقال الزهرى: سمع عمر رجلاً يقول: اللّهم اغفر لى خطاياى، فقال: إن الخطايا مغفورة ولكن قل: اللهم اغفر لى عمدى.

قال النبطى: حدّثنا ابن فنجويه قال: حدّثنا عبد الله بن محمد بن شنبة قال: حدّثنا عبد الله ابن المصفّى السكرى قال: حدّثنا محمد بن المصلّى المحمدى، قال: حدّثنا الوليد قال: حدّثنا مالك عن نافع عن ابن عمر أنّ النبىّ ﷺ قال: «رُفع عن أمّتى الخطأ والنسيان وما أُكرهوا عليه».

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾: قال بعضهم: يعنى عهدًا وعقدًا وميثاقًا ولا نطيق ذلك ولا نستطيع القيام به فتعذبنا بنقصه: ﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ يعنى اليهود فلم يقوموا به فأهلكتهم وعذبتهم، هذا قول مجاهد وعطاء وقتادة والضحاك والربيع ومقاتل والسدى والكلبى وابن جريج والفراء، ورواية عطيّة وعلى بن أبى طلحة عن ابن عباس، يدلّ عليه قوله: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ (آل عمران: ٨١) أى عهدى.

وقال بعضهم: الإصر: الثقل، أى لا تشقق علينا ولا تشدد ولا تغلظ الإصر علينا كما شددت على مَنْ كان قبلنا من اليهود، وذلك أن الله تعالى فرض عليهم خمسين صلاة، وأمرهم بأداء ربح أموالهم فى الزكاة، ومن أصاب ثوبه نجاسة قطعها، ومن أصاب منهم ذنبًا أصبح وذنبه مكتوب على بابه، ونحوها من الأثقال والأغلال التى كانت عليهم. وهذا معنى قول عثمان بن عطاء ومالك بن أنس وأبى عبيدة والمؤرخ والقتيبى وابن الأنبارى يدل عليه قوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

وقال ابن زيد: معناه: لا تحمل علينا ذنبًا ليس فيه توبة ولا كفّارة وإلاّ يفعل فى هذه كلّها العقد والأحكام، ويقال للشىء الذى تعقد به الأشياء: الإصر، ويقال: بينه وبين فلان أصرة رحم، وما تأصرنى، أى ما يعطفنى عليه عهد ولا قرابة.

وقال: أنشدنى أبو القاسم السدوسى، قال: أنشدنى السميع بن محمد الهاشمى، قال: أنشدنا أبو الحسن العبسى، قال: أنشدنا العباس بن محمد الدورى الشافعى:

إذا لم تكن لامرئ نعمةٌ ... لدى ولا بيننا آصرة

ولا لى فى ودّه حاصل ... ولا نفع فى الدنيا ولا الآخرة

وأفنيت عمرى على بابه ... فتلك إذًا صفقة خاسرة

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾: أى لا تكلفنا من الأعمال ما لا نطيق، هذا قول قتادة

والضحاك والسدى وابن زيد. وقال بعضهم: هو حديث النفس والوسوسة. وعن أبى ثوبان عن أبيه عن مكحول فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ قال. . . .[١] وعن أبى القاسم عن مالك الشامى أن أبا إدريس الخولانى كان يأتى أصحابه ويقول: اللّهمّ أعذنى. . . .[١] جرف إلى جنهم.

سفيان بن الثورى عن منصور عن إبراهيم فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾. قال: المشقة.

وعن أبى القاسم عبد الله بن يحيى بن عبيد قال: سمعت أبا القاسم عبد الله بن أحمد قال: سمعت محمد بن عبد الوهاب ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ قال: يعنى العشق. قال خباب: حضرت مجلس ذى النون المصرى فى فسطاطه، فتكلّم ذلك اليوم فى محبّة الله فمات أحد عشر نفسًا فى المجلس، فصاح لا يحل من المريد بر فقال: يا أبا القيس ذكرت محبة الله فاذكر محبّة المخلوقين، فتأوّه ذو النون تأوّها شديدًا ومدّ يده إلى وجهه ووقف منتصبًا وقال له: خلقت قلوبهم واستعبرت وتألّفوا السهاد، وفارقوا الرقاد فليلهم طويل ونومهم وقليل أحزانهم لا تعد، وهمومهم لا تعقد، أمورهم عسيرة، ودموعهم غزيرة، باكية عيونهم، قريحة جفونهم، عاداهم الرفاق والأهل والجيران. وقال يحيى: لو تركت العقوبة بيداى يوم القيامة ما عذّبت العشّاق؛ لأن ذنوبهم اضطرارًا لا اختيارًا.

قال ابن جريج: هو مسخ القردة والخنازير، وقال بعضهم: هو شماتة الأعداء.

وروى عبد المنعم بن إدريس عن أبيه عن وهب بن منبّه قال: قيل لأيّوب عليه السلام: ما كان أشق عليك فى طول بلائك؟ قال: شماتة الأعداء. وأنشد ابن الأعرابى:

كلّ المصائب قد تمرّ على الفتى ... فتهون غير شماتة الحُسّاد

إنّ المصائب تنقضى أيامها ... وشماتة الأعداء بالمرصاد

وقيل: هو القطيعة والفرقة نعوذ بالله منها. وقيل: قطع الأوصال أيسر من قطع الوصال، وقال النظّام: لو كان للبين صورة لما راع الذنوب ولهدّ الجبال ولجمر الغضا أقل من. . . .[١] ولو عذّب الله سبحانه أهل النار بالفراق لاستراحوا إلى حرّ العذاب.

﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾: أى تجاوز واصفح عن تقصيرنا وذنوبنا ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾: واستر علينا ذنوبنا وتجاوز علينا ولا تعاقبنا ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾: فإننا لا ننال العمل لطاعتك ولا ترك معصيتك إلاّ

(١) بياض بالأصل المخطوط.

برحمتك، وقيل: واعف عنّا من المسخ، واغفر لنا السيئات، وارحمنا من القذف. وقيل: واعف عنّا من الأفعال، واغفر لنا من الأقوال، وارحمنا من العقود والأضمان. وقيل: واعف عنّا الصغائر، واغفر لنا الكبائر، وارحمنا بتثقيل الميزان مع إفلاسنا. وقيل: وأعف عنّا فى سكرات الموت، واغفر لنا فى ظلمة القبر، وارحمنا فى ظلمة القبر.

﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ : أى ناصرنا وحافظنا ووليّنا ووال بنا ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ .

عطاء عن سعيد عن ابن عباس فى قول الله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ قال: قد غفرت لكم ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال: لا أؤاخذكم ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ قال: لا أحمل عليكم ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ قال: لا أُحمّلكم ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قال: قد عفوت عنكم وغفرت لكم ورحمتكم ونصرتكم على القوم الكافرين.

وروى سفيان عن أبى إسحاق عن رجل عن معاذ بن جبل أنّه كان إذا ختم البقرة قال: آمين.

يتلوه سورة آل عمران.

والحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على محمد خير الأوّلين والآخرين وعلى آله الطيّبين الطاهرين أجمعين وسلّم.

قال مسروق: نعم كنز الصعلوك سورة البقرة وآل عمران يقرؤها من آخر الليل.

وقال وهب بن منّبه: من قرأ ليلة الجمعة سورة البقرة وآل عمران كان له نور ما بين عجيبا إلى غريبا. وعجيبا الأرض السابعة وغريبا العرش.

وقال مسروق: مَنْ قرأ سورة البقرة فى ليلة توّج بها.

وفى الحديث: السورة التى يذكر فيها البقرة فسطاط القرآن.

سؤال: فإنّ قيل: أيجوز أن يحمل الله أحدًا ما لا يطيق؟.

قال الزجاج: قيل له: إن أردت ما ليس فى قدرته، فهو محال، وإن أردت ما يثقل عليه، فلله تعالى أن يفعل من ذلك ما شاء لأن كلفه بنى إسرائيل من قتل أنفسهم ثقل عليهم وهذا كقولك: ما أُطيق كلام فلان، فليس المعنى ليس فى قد قدرتك ولكن معناه أن يثقل عليك.

فإن قيل: هل يجوز على العادل أن يكلّف فوق الوسع؟

قيل: قد أخبر عن سعته ورحمته وعطفه على خلقه كما نفى الظلم عن نفسه، وإن كان لا يتوهم منه الظلم بحال.

وقال قوم: لو كلف فوق الوسع لكان له؛ لأن الخلق خلقه، والأمر أمره، ولكنه أخبر أنّه لا يفعله. والسلام.



انتهى بفضل الله تعالى الجزء الأول من تفسير الثعلبى

ويليه إن شاء الله تعالى الجزء الثانى وأوله: سورة آل عمران



فهرس الموضوعات